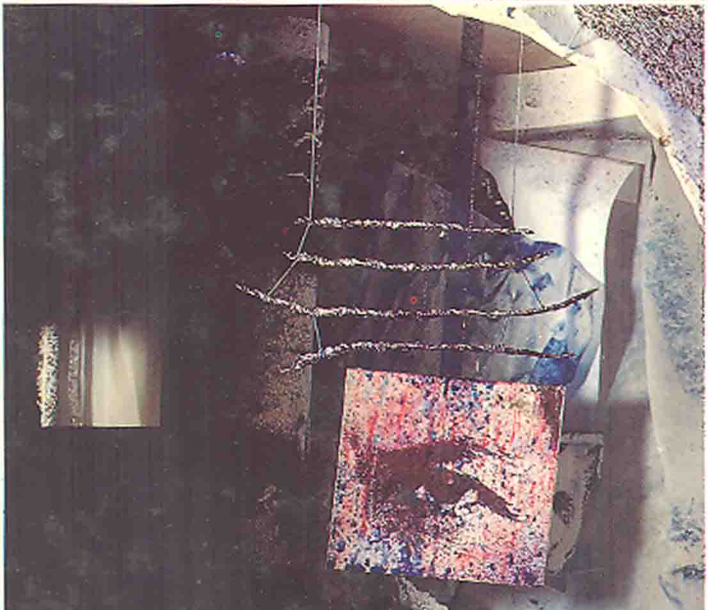
سعد الله ونّوس



المجلد الثاني

الأعمال الكاملة

الأهالي




١٢١
و ٢ج ١٢١

سعد الله ونوس

الأعمال الكاملة

* الأعمال الكاملة (٣ مجلدات)

* سعد الله ونوس

* الطبعة الأولى ١٩٩٦

*** الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع**

سورية ـ دمشق ـ ص.ب: ٩٥٠٣ ـ هاتف: ٣٣٢٠٢٩٩

فاكس: ٣٣٣٥٤٢٧ ـ تلكس: ٤١٢٤١٦

* التوزيع في جميع أنحاء العالم:

*** الأهالي للتوزيع**

سورية ـ دمشق ـ ص.ب: ٩٢٢٣ ـ هاتف: ٢٢١٣٩٦٢

فاكس: ٣٣٣٥٤٢٧ ـ تلكس: ٤١٢٤١٦

* تصميم الغلاف: الفنان أحمد معلا

الأعمال الكاملة / سعد الله ونوس.
دمشق ـ الأهالي ـ ١٩٩٦ ـ مج ٢ ؛ ٢٢ سم.
١ ـ ٨١٢ و ن و أ ٢ ـ ٨١٢,٠٠٩٥٦١ و ن و أ
٣ ـ العنوان ٤ ـ ونوس

سعد الله ونّوس

الأعمال الكاملة

المجلد الثاني

الأهالي

رحلة حنظلة
من الغفلة إلى اليقظة

كتابة جديدة لنص بيتر فايس:

(كيف تخلص السيد موكينبوت من آلامه)

(تتدلى من سقف المسرح حلقة معدنية واسعة. يمكن أن تتحرك في فضاء المسرح جيئة وذهاباً، ويتغير توظيفها بين مشهد وآخر. في طرف قصي دكة خشبية يقف حنظلة إلى جوارها متهدِّل الهيئة. حرفوش يتأرجح على الحلقة المعدنية مرحاً وعابثاً..)

حرفوش : **(كالمعلنين عن ألعاب الحواة، وهو يروح ويجيء داخل الحلقة)** بؤس وتعاسة.. انظروا أيها السيدات والسادة. هذا الرجل الضامر سيكون بطل السهرة. لا تشعروا بالخيبة، فقد ولى عهد الأبطال العمالقة. لكل مرحلة شخصيتها، وهذا الرجل الضامر **(تزداد لهجته إعلانية)** هو شخصية المرحلة.

(يقفز بحركة خفيفة من الحلقة، ويقترب من حنظلة).

حرفوش : الاسم.

حنظلة : حنظلة.

حرفوش : اسم الأب.

حنظلة : حامد الحنظلي.

حرفوش : اسم الأم.

حنظلة : زنوب الصفراوي.

حرفوش : مكان وتاريخ الولادة.

حنظلة : الدرويشية وسنة الميلاد ضائعة.

حرفوش : الوضع العائلي.

حنظلة : متزوج بلا ضنى.

حرفوش : المهنة.

حنظلة : عدّاد فراطة في بنك الازدهار والعمارة.

حرفوش : الزمرة الدموية.

حنظلة : سالبة.

حرفوش : المبدأ.

حنظلة : المبدأ؟

حرفوش : ماهو مبدؤك في الحياة؟

حنظلة : امشِ الحيط الحيط وقل يا ربي السترة.

حرفوش : **(متسارع اللهجة)** المبدأ؟

حنظلة : خبئ قرشك الأبيض ليومك الأسود.

حرفوش : المبدأ؟

حنظلة : بينك وبين الجار سمِّك الجدار.

حرفوش : المبدأ؟

حنظلة : الطاقة التي يأتيك منها الريح سدَّها واستريح..

(أثناء الحوار السابق. يدخل ممثل فيقيد رجل حنظلة بسلسلة مثبتة بالأرض. ثم يدفع أمامه حاجزاً من القضبان هو جدار الزنزانة. مع آخر عبارة في تقديم الشخصية يضطجع حنظلة على الدكّة الخشبية، ويتدثر بغطاء ممزق أشبه بالخرق. يخفت عليه الضوء. ويغرق في النوم).

حرفوش : **(وهو يرتد عنه. يقفز بخفة مواجهاً الجمهور.)** بؤس وتعاسة.. هذا هو طالع صاحبنا حنظلة. يعيش الآن في محنة. وستشتد عليه المحن، وتزيد.. إنه لايعرف سبب مصائبه، ولايدرك سر محنته. إذن عليه أن يتحمل العذاب فوق العذاب، وأن يمشي طويلاً على درب الآلام. لا أحب الشماتة كما لا أحب الشفقة. أن يكون المرء أعمى هذا شيء. وأن تكون له عينان سليمتان، ولايبصر فهذا شيء آخر. لكن لنبدأ القصة من أولها..

(لهجة إعلانية) أول القصة في السجن.

في السجن

(حنظلة متمدد على الدكة ونائم. بين حين وآخر ينتفض زافراً أو متنهداً. يأتي الشرطي، يفتح باب الزنزانة محدثاً ضجة معدنية صاخبة. يدخل وهو يهز هراوته).

الشرطي : ماشاء الله.. ماشاء الله.. السيد لايصحو قبل الضحى.. كان ينبغي أن أحضر معي فرقة الموسيقا. هيا أيتها الفأرة.. اضغط على عجيزتك وانهض.. **(مشيراً إلى قطعة الخبز اليابس وقصعة الحساء)** ألا يعجبك طعامنا! سأرش عليه قليلاً من التوابل كي يصبح أشهى. **(يبصق في الصحن، يعلو النفور وجه حنظلة، ويغمض عينيه).** لاتقلب سحنتك. كل المساجين يعرفون جودة توابلي. يا الله. انهض قبل أن أسحق رأسك بكعب الجزمة. **(يرتعد حنظلة، ينهض مضطرباً. يرتدي سروالاً وسخاً، ضيقاً. وفوقه صديري من الجوخ القديم. في إحدى قدمية جورب، أما الثانية فعارية ومقيدة بالسلسلة المعدنية..).**

حنظلة : بحق الله لا تغضب. لم يغمض لي جفن. أمضيت الليل في عدِّ الأيام. تصور.. أنا عدَّاد الفراطة الذي لم يخطئ مرة، لم أستطع أن أحسب كم يوماً مرّ عليّ هنا. أقول كان ذلك يوم الجمعة. أوقفوني وقطع السيد الحارس حزامي وهو يجلدني، ثم أنتقل إلى السبت، فيختلط في رأسي أكثر من سبت. أعود إلى البداية، وأقول كان ذلك يوم الجمعة، أوقفوني.

الشرطي : **(مقاطعاً بغضب)** أوقف، وإلاّ أوقفتك في دار الأموات. في هذا المكان أنفع لك أن تعد القمل في رأسك، وتترك الأيام تنساك.

حنظلة : أما آن أن تشملني الرحمة. لم أرتكب أيَّ شيء. لا جرماً ولا خطيئة. ومع هذا أوقفوني ذات صباح، ثم قادوني إلى السجن، ورموني في ظلمته.

الشرطي : لو لم ترتكب جرماً أو شبهة ماكنا حبسناك. في السجن لا يوجد أبرياء.

حنظلة : ومع هذا صدقني أيها السيد أني بريء. كنت وما أزال رجلاً مستقيماً لايقرب الخمرة، ويطيع كل ما تأمر به الحكومة.

الشرطي : ما نعرفه عنك يكذب ما تدّعيه. من يدري أي مخطط كنت تنوي! انسللت عبر الشوارع الخلفية، وحين قبضنا عليك متلبساً، بدأت تنوح متظاهراً بالبراءة.

حنظلة : أنا! لا شك أني ضحية خطأ رهيب. لعلهم يريدون شخصاً آخر. هذا هو الأمر. بالتأكيد كانوا يريدون شخصاً آخر. إنك لا تعرفني أيها السيد. بعد عودتي من العمل لا أغادر أبداً دفء بيتي وزوجتي. من البيت إلى العمل. ومن العمل إلى البيت. هذا هو نظامي أكان الفصل ربيعاً أم خريفاً، صيفاً أم شتاءً.

الشرطي : ونظامنا لا يتغير مهما تغيرت الفصول. مادمت في السجن فأنت مذنب. ومادمت مذنباً فإن القانون يقضي أن تكون في السجن. هذا هو نظامنا. شرحته لك مراراً، لكن يبدو أنك لا تفهم إلا شرح السوط.

حنظلة : أرجوك أيها السيد أن تساعدني.

الشرطي : وكيف تريد أن أساعدك.. هل أضع لك خطة للهرب، أم أتبنى جرائمك المدونة في المحاضر والسجلات؟

حنظلة : عندي وفر صغير وضعته في البنك من أجل المرض أو يوم الشدة. لا يعرف المرء ماذا تخبئ الأيام.

الشرطي : احذر فأنت تضيف إلى سجلّك الحافل جريمة جديدة.

حنظلة : (خائفاً ومرتبكاً) ماذا فعلت؟
الشرطي : إنك تلوّح بالرشوة، وتحاول إفساد موظف حكومي شريف.
حنظلة : ولكن ألم تقل لي؟ (لحظة) نعم.. أنت نفسك قلت لي.. من يفتح كيسه يجد من يعينه!
الشرطي : أأنا قلت ذلك؟
حنظلة : الكلمات مازالت ترن في أذني. منذ سمعتها وأنا أقلّبها ظهراً وبطناً. كنت آمل أن تلحظني العدالة، دون التفريط بنقودي. لكن الأيام تمضي، وربما كانت العدالة مشغولة عني. لهذا قررت أن أفتح كيسي.
الشرطي : وأخيراً جاءتك نصيحتي، لا بأس. إلا أني أصارحك منذ البداية. إذا لم يكن الكيس ثقيلاً، فإن أحداً لايستطيع أن يفعل لك شيئاً.
حنظلة : هو وفر صغير جمعته بالليرة والليرتين. كان اقتطاع لحمي أسهل عليّ من تبديد قرش منه.
الشرطي : لا أدري كم هو وفرك. لكن في مثل قضيتك ينبغي ألا يكون أقل من عشرة آلاف.
حنظلة : (مبهوتاً) عشرة آلاف..
الشرطي : أتجد المبلغ كبيراً؟
حنظلة : (مواصلاً بهوته) هل قلت عشرة آلاف؟
الشرطي : لاتحسب أني سأضعها في جيبي. ما أنا إلا واسطة خير. آخذها منك لأدسها في جيوب الآخرين.
حنظلة : (ساهماً) قتّرت على نفسي طوال سنوات، كي أجمع وفراً صغيراً. وعليّ الآن تبديده في لحظة. أليس الحق، أن أطلب تعويضاً عما لحق بي دون ذنب، بدلاً من أن أدفع كل ما أملك.
الشرطي : لن يصغي إليك أحد مهما شكوت أو تذمرت. في حالتك لا

فائدة من التردد.

حنظلة : (بحزم) أقصى ما أستطيع أن أدفعه هو ستة آلاف.

الشرطي : هيا أيها الجربوع.. إنهم ينتظرونك في غرفة التحقيق.

حنظلة : (مرتاعاً) غرفة التحقيق.. أرجوك.. سأدفع سبعة آلاف.

الشرطي : لاتستنفد صبري.

حنظلة : ماتطلبه يخرب البيت. إنك تدمرني أيها السيد.

الشرطي : خبئ دموعك للتحقيق. هيا.. إنَّ وقت الحكومة ثمين.

حنظلة : سأدفع ثمانية آلاف.. إنه كل وفري تقريباً.

الشرطي : ثمانية.. لاأدري لماذا يرقُّ قلبي لك. طبعاً أنت لا تعرف العملية المعقدة التي يحتاجها الإفراج عنك. عليّ أن أبدل السجلات، وأن أجد مشبوهاً يحل مكانك. ولكي أفعل ذلك ينبغي أن ندس شيئاً في جيوب الجميع.

(يخرج ورقة من جيبه، ويكتب الصك).

حنظلة : ألا يمكن الإفراج عن بريء إلا إذا قبضتم على واحد آخر؟

الشرطي : في أنظمتنا لايجوز أن تكون في السجون أماكن شاغرة. شعارنا اعتقل الشبهة ولا تواجه فتنة. يا الله.. وقِّع هنا، وإياك أن تلعب معي لعبة فيها التواء.

حنظلة : (وهو يوقع) عمري ماعرفت الدروب الملتوية، ولا سرت عليها.

الشرطي : (وهو يخرج) طيب.. سنرى ماذا يمكن أن نفعل.

حنظلة : (بعد فترة) لماذا يحدث لي ما يحدث؟ ما الذي يربط هذه الأمور بعضها ببعض؟ الشقاء يهدّني والغموض يتجاوز مداركي. فكيف أجد مخرجاً من هذا الدرب المسدود؟

(يحلق في الفراغ ببلادة وحين تعلو ضجة المزلاج، يقفز خائفاً.. يدخل الحارس وهو يحمل بقجة مهلهلة).

الحارس : المدعو حنظلة الحنظلي. هل أنت المتهم المسمى أعلاه، والذي

نودي عليه الآن؟

حنظلة : إني هو بالذات. وأقسم مجدداً إني بريء.

الحارس : أنت بريء، ومع هذا تأتي إلى السجن وتقيم فيه دون حياء.

حنظلة : تماماً أيها السيد الحارس. لقد انتزعوني دون حياء من دفء بيتي وزوجتي.

الحارس : وهل تظن أن الدولة تبني السجون كي تقدم المأوى والعلف للأبرياء؟. بعدأن تبين بالأدلة أنك بريء فإن مدير السجن يأمر أن تدفع تكاليف إقامتك هنا. **(حنظلة يفتح فمه إلى أقصاه، وتجمد النظرة في عينيه. يحاول الكلام. يتحرك لسانه دون صوت..)** حسبنا المبيت على سعر الفنادق المتوسطة. ثم أضفنا إليه ثمن الوجبات الثلاث. فكان الحساب أربعمائة وأربعاً وستين ليرة. **(يحاول الحارس أن يطبق فمه، ينطبق الفكان على اللسان، يصرخ حنظلة متوجعاً، وينهار راكعاً على الأرض، بحركات سريعة وشبه كاريكاتيرية، يفك الحارس بقجة الأمتعة الشخصية، ويساعد حنظلة على ارتداء ملابسه. يفرغ ما في محفظة نقوده، ويضعه في جيبه. ثياب حنظلة مضحكة. البنطلون واسع جداً والحزام مقطّع. أما الحذاء فإنه ضخم بصورة كاريكاتورية. يخرج الحارس.. يتبعه حنظلة متأبطاً حذاءه، فيتعثر، ويندفع من الباب).**

في الهواء الطلق

(يبدو حنظلة ممدداً على الأرض في طرف المسرح، حذاؤه الغليظ مبعثر إلى جواره. يدخل حرفوش بخفة.. يجلس على الحلقة المعدنية متأرجحاً، وكأنه يلهو).

حرفوش : وخرج صاحبنا من السجن دجاجة منتوفة. هل نواسيه؟ لا ريب أن شيئاً من العطف والحنان يسعفه قليلاً. لكن ما يسعفه أكثر، هو أن يعرف أكثر. إذن لاتظنوا بي السوء لو أبديت نحوه بعض الخشونة. أصبح حنظلة خارج السجن والمشهد الآن يدور في الهواء الطلق...

(يتزحلق حرفوش عن الحلقة، يتربع وكأنه جالس على بساط من العشب. يتناول من كيس شطيرة، ويلتهمها ببطء، وتلذذ. في الوقت نفسه ينهض حنظلة متلملماً.. يبحث عن فردتي حذائه، يجمعهما ويحملهما تحت إبطه. ينزلق بنطلونه، يصاب بالخجل، ويمد يديه بسرعة ليرفعه وهو يتطلع حوله. الحذاء يتبعثر. يجمعه من جديد.. يتأبطه وباليد الأخرى يحاول أن يمسك بنطلونه).

حنظلة : آه.. لقد أتلف الحارس حزامي الذي كنت أعتز به.

(بعد بضع خطوات متأرجحة يلمح حرفوش. يرتبك وهو يرفع بنطلونه، فيسقط الحذاء.. يجلس قريباً منه، ويبدأ في تأمل حزامة المقطع.. حرفوش لا يعيره أدنى اهتمام).

حنظلة : **(وهو ينقل بصره بين حرفوش والحزام..)** تصور أيها السيد.. **(يستدرك)** اسمي حنظلة. هذا الحزام اشتريته يوم زواجي. إنه جلد أصلي. لكن حارس السجن قطّعه وهو يسوطني به.

حرفوش : من لا يملك حزاماً، لا يستطيع أن يستر مؤخرته.

حنظلة : كنت أعتز به. أحس أنه يجمعني، ويحزم لي وسطي.

حرفوش : والآن إما أن تزحف على مؤخرتك، أو تعرضها للمارة.

حنظلة : آه لو تعلم ماذا جرى لي أيها السيد!

حرفوش : تعطلت دواليب عقلك، وانحلت براغيه.

حنظلة : لا.. بل كنت أتنزه في الشارع **(حرفوش يدير ظهره له باستخفاف)** لأحد يريد أن يصغي إليّ. الأفضل أن أسرع إلى بيتي وزوجتي.

(ينهض، ويحاول أن يلبس حذاءه وهو واقف. ينزلق بنطلونه. يتعثر ويعود فيجلس على الأرض. يحاول أن يلبس الحذاء وهو جالس. يخلط بين الفردة اليسرى واليمنى مرات عديدة. ثم يبدو وكأنه في غمار عملية شاقة، وقد اختلط عليه الأمر. بينما يرمقه حرفوش مخالساً النظر، وهو يهز رأسه باستخفاف يمتزج فيه الاحتقار.)

حنظلة : **(تلتقي عيناه بعيني حرفوش، يرتبك أكثر)** أن ألبس حذائي كانت دائماً عملية شاقة. فأنا أتساءل مثلاً لماذا يكون للقدم اليسرى الأولوية، ومن يضمن، أن اليمنى ستتبعها دون اعتراض؟

حرفوش : وإذا قلبت المسألة، وبدأت باليمنى، فمن يضمن أن اليسرى لن تحرن في اللحظة الأخرى؟

حنظلة : ومما يزيد الأمر صعوبة أننا بحاجة إلى قدمين اثنتين كي نمشي.

حرفوش : **(متصنعاً جدية بالغة)** حقاً، إنها تجربة قاسية ومغامرة جريئة، أن يقرر المرء كيف يمشي.

حنظلة : **(وهو يتابعه مندهشاً، ثم جذلاً)** أليس كذلك أيها السيد؟ وأخيراً.. هو ذا رجل يمكن التفاهم معه. إنك تشجعني على

متابعة قصتي. ماجرى لي يستحق أن يُروى. إني ضحية ظلم لا مثيل له..

حرفوش : لا ضحية بلا جلاد، ولا جلاد بلا ضحية.

حنظلة : (**ينشده ببلاهة. ثم يتابع بعد لحظة**) كنت أتنزه مستمتعاً بأشعة الشمس. تركت شارعاً، وانعطفت إلى شارع آخر. فدهمني عدد من رجال الشرطة وهم يصرخون. هو ذا الرجل الذي نبحث عنه. انقضّوا عليّ وأمسكوا بي. تصور أيها السيد حالي.

حرفوش : الجلاد يعرف دائماً ضحيته، لكن الضحية لا تعرف دائماً الجلاد.

حنظلة : بعد أن تمالكت نفسي، قلت لهم أيها الموقّرون اسمي حنظلة. فأجابوني غاضبين.. يا ابن القحبة سنجعلك تذوق ما هو أمرُّ من الحنظل. ماذا تفعل في هذا الشارع؟ أخبرتهم أني أمضي إلى الكشك لأشتري مجلة النجوم. فأنا وزوجتي نحب أن نقرأ الأبراج.

حرفوش : ماهو برجك؟

حنظلة : أنا.. الثور. وزوجتي العقرب. هذان البرجان أحدهما للآخر كالقدر وغطائه.

حرفوش : ولم يمهلك رجال الشرطة حتى تقرأ ماتخبئه لك الأبراج؟

حنظلة : قلت لهم تركت امرأتي تعدّ القهوة في البيت، وسأعود حالما أشتري المجلة. فصرخوا بي.. سنعرف كيف نكشف أكاذيبك، وفي السجن يمكنك أن تفكر بفأرتك العاهرة كما يحلو لك. قل لي أيها السيد.. أهي عدالة أن يوقف رجل يستمتع بأشعة الشمس، ويتنزه في الشارع ببراءة؟

حرفوش : أية قصة مؤثرة! إلا أنها لم تؤثر فيَّ أكثر من مواء قطة شاردة. العدالة تنفر من الوجوه البالية الذليلة.. (**ساخراً**) ومن يدري

ربما كانت سحنتك مجرد قناع للخداع! أعرف كثيرين يخفون خلف هذه الأقنعة. رغبات ضارية في التشرد والشغب.

حنظلة : أنا؟ إنك تَفْرمني أيها السيد، وأمام تفاهمنا القلبي توصد الباب.. لقد وصفت لك حقيقة ما أصابني فهل تتكرم، وتتفهم وضعي؟..

حرفوش : هـ.. هـ أتظنني مربيتك.. إفطاري وأنهيته، وطبيخ قصتك نسيته. أعلن نهاية اللقاء، وسأبحث عن كأس ينسيني وجهك المنسول. قد نتلاقى مرة أخرى. اسمي العم حرفوش.. والآن وداعاً.

حنظلة : وأنا الذي ظننت العثور على صديق، ينفعه أيام الضيق. لا ينبغي أن أثق أبداً بغريب. المكان الوحيد الذي بقي لي هو حضن زوجتي الحبيبة. هناك سأجد العزاء والفرج بعد الشدة.
(يخرج حنظلة متعثراً، وقد انتعل حذاءه بالمقلوب. الفردة اليمنى بالقدم اليسرى، والفردة اليسرى بالقدم اليمنى).

في البيت

(يمكن أن يبدأ المشهد بلعبة بين ممثلين يتعاركان. أحدهما يصيح «ابعد عن الشر وغني له» والثاني يرد عليه «اللي من إيده الله يزيده». يمكن أن تكون الخصومة بين أكثر من ممثلين بحيث ينقلب المشهد تجاذباً بين مجموعتين متمايزتين. يبدأ المشهد إيمائياًبهلوانياً، ثم يعلو فيه الصخب. وحين يبلغ ذروته، يتدخل حرفوش ليسرد قصة أمه وأبيه. يتم تركيب ديكور المشهد التالي أثناء ذلك. أو مع رواية حرفوش).

حرفوش : **(متأرجحاً)** كان أبي وأمي رحمهما الله يحب أحدهما الآخر. لكنهما كانا يحبان المناكفة أكثر. وكان أعمق أسباب الخلاف بين أبي وأمي مايمكن أن نسميه بلغة زمننا الخط العقائدي، أو الموقف الإيديولوجي. فقد كانت عقيدة أبي رحمه الله «ابعد عن الشر وغني له» وكانت أمي تتفانى في الدفاع عن مبدأ «اللي من إيدُه الله يزيدُه». طبعاً لم نكن نفهم مايعني هذا المبدأ أو ذاك. في النهار تصرخ أمي كلما تعثر أحدنا أو تأذى «اللي من إيده الله يزيدُه». وفي الليل يلقننا أبي «ابعد عن الشر وغني له». ولكن ظهر يوم، وأذكر اليوم كأنه البارحة، عاد أبي مهموماً إلى البيت. كان يعمل عتالاً في المطاحن. يذهب مع الفجر ولا يعودإلا مع غروب الشمس. وفور دخوله البيت بادرته أمي بالسؤال.. لماذا تعود مبكراً؟.. فأجابها.. لأنه لم يعد لدي عمل. ثم روى لها أن العتالين طالبوا أصحاب المطاحن بزيادة الأجور. ومع الأخذ والرد احتد الكلام. وتحول الأمر إلى فتنة، أما أبي فقد فضل أن يتبعد عن الشر ويغني له. لكن

عندما هدأت الخواطر وحصل اتفاق هاج عليه العتالون، ومنعوه من العمل معهم. أما أصحاب المطاحن، فلم يهتموا به أو يحموه. ما إن روى أبي ما جرى حتى احتقن وجه أمي، وصاحت بصوت مقهور.. «اللي من إيدُه الله يزيده..» انفجر الأب بدوره. كلمة من هنا، وكلمة من هناك، ثم تشابكت الأيدي وبدأ الرفس والشتم والتكسير.. يومها بدأت أتبين على نحو غامض الفرق بين «ابعد عن الشر وغني له» و«اللي من إيده الله يزيده». ونعود إلى صاحبنا حنظلة. لاشك أنه وصل إلى بيته. وفي البيت يتوقع أن يجد امرأة تحضنه، وكلمة حنان تغسل آلامه. **(لهجة إعلانية)** نحن الآن في بيت حنظلة.

(سرير. خزانة يمكن الاستعاضة عنها بالحلقة المدلاة. مكنسة. تجلس الزوجة على السرير. يسترها اللحاف حتى بطنها. تبرز أسفل السرير من تحت اللحاف قدمان كبيرتان، وبعيدتان عن المرأة. من الواضح أنهما قدما رجل مندس في الفراش. حنظلة يدخل متلهفاً، ومتعثر المشية. الزوجة تسحب اللحاف لكنها لا تبدي ارتباكاً ملحوظاً).

حنظلة : **(لهجة أسيانة وحنانها صادق)** أكاد لا أصدق أننا نلتقي ثانية. لم تبرحي خاطري لحظة واحدة. كنت أفكر فيك الليل والنهار. أتخيل شعرك، وجهك، نعومة ساقيك. وكان ذلك عزائي الوحيد في المحنة التي ألَّمت في.

الزوجة : تجعلني أذوب! وتخيلت شعري!

حنظلة : **(فرحاً يجلس على طرف السرير، فتشيح عنه الزوجة بامتعاض)** نعم.. هذا الشعر الذي تمشطينه الآن.. أتخيل نعومته، وأدسّ يدي في خصلاته.. **(يحاول أن يلامس شعرها، فتنحّي يده بفظاظة).**

الزوجة : أبعد يدك النجسة.. لا أريد أن تلمسني. أنت تفلت على مزاجك، وأنا مصلوبة هنا أنتظر وحيدة وأشقى. هيء.. وفوق هذا يأتي ليسكب في أذني هذه الأغاني المائعة. وقاحة مابعدها وقاحة.

(القدمان الباديتان تحت اللحاف تتفاركان بحركة خشنة).

حنظلة : لو تعرفين أين كنت طوال هذه المدة!

الزوجة : لم أدخل مرة إلى ماخور أو حانة، ولكن أعرف ماذا يدور في المواخير والحانات.

حنظلة : **(مرتبكاً وكسيراً)** أتحسبين أني كنت.. سامحك الله.. بعد كل هذه العشرة تتحدثين وكأنك لاتعرفينني. **(ينبعث من تحت اللحاف عطس مخنوق ترافقه اهتزازة. تعطس الزوجة بدورها لتصرف انتباه حنظلة، ثم تمسّد على اللحاف. يخرج حنظلة منديلاً من جيبه ويمسح أنف زوجته بحنان.. لحظة)** ما جرى لي يا زوجتي الغالية، أخطر من أن يوصف. آه لو تعلمين ما جرعوني من العذاب، تصوري.. رموني في زنزانة أسوأ من جحر الفأر. وساطوني بحزامي الجلدي حتى تقطّع، ثم انتزعوا مني كل ما ادخرناه. ولو سألت عن السبب، لما عرفت بماذا أجيب. كل ما أعرفه هو أن حزامي تقطع، وجلدي تهرأ، ولم يبق معنا فلس واحد.

الزوجة : **(تدفعه بغضب. يباغَت حنظلة ويسقط عن حافة السرير)** ما كان ينقصني إلا هذه البشرى. تغيب عن البيت كالزعر.. تبعثر أموالي ثم تعود لتبيعني الأغاني والتباريح. هذا المسلك الشائن قد تطرب له أمك، أما أنا فلن أمضي أبعد من ذلك. هذه الحياة يجب أن تتبدل وفي الحال. **(ينبعث من تحت الغطاء تجشؤ قوي. تضرب الزوجة على اللحاف وتتجشأ هي الأخرى).**

حنظلة : **(مايزال يحاول النهوض والتماسك)** أنت رفيقة عمري. وتعرفين حياتي أكثر من أي شخص آخر. لم أتأخر يوماً عن وظيفتي، ولم أقصِّر أبداً في أداء واجبي. لا أطمع في تسلق المراتب، ولا يوغر صدري أن يكسب الآخرون أكثر مني. أدفع كل ما يترتب عليّ دون أية مماطلة. هذه حياتي مستقيمة كشارع الجلاء. ومع ذلك ها أنا أجد نفسي غارقاً في المصائب ولا أعرف لماذا؟

الزوجة : هذا الخطاب يمكنك أن تبعثه إلى أبيك في الجحيم. لن تنطلي عليّ ألاعيبك بعد اليوم **(ينفجر من تحت الغطاء سعال. تكحُّ الزوجة وتتظاهر بالسعال. ثم تنسل من الفراش، قميص نومها طويل. أذياله تمس أرض الغرفة..)** أي قدر مشؤوم ربطني بك!

(حنظلة يفغر فاهه شارداً، وهو يتفحص القدمين البارزتين من تحت اللحاف).

حنظلة : **(بعد لحظة، ينقل بصره بسرعة إلى قدمي زوجته الواقفة أمامه، لايرى شيئاً لأن المنامة تمس الأرض.. لحظة انشداه)** هل فقدت قدميك؟..

الزوجة : **(تكتشف القدمين البارزتين.. تجلس بسرعة على طرف السرير وهي تشد منامتها إلى الأرض! بصوت بين النائح والغاضب)** وهذه أيضاً! من شدة القهر كدت أنساها. كيف تريد ألا أفقد قدمي! **(تنهض وتتجه بخطى عرجاء نحو المكنسة..)** تجمدتا من البرد وانكسرتا فوق السرير مثل قطع الجليد **(في طريقها تسحب اللحاف، فتغطي القدمين يبرز وجه الرجل من الطرف الآخر.. يرمقه حنظلة بطرفة عين، ثم يشيح بوجهه ويدير ظهره..)** طبعاً في غمرة المجون والعربدة، لم تحس موجة البرد التي مرت. **(يخفي الرجل وجهه تحت الغطاء.**

فيلتفت حنظلة نحو السرير) هربت وتركتني بلا مال. ليس في البيت وقود. وثيابي الشتوية ممزقة، **(تهدده بالمكنسة)** ومع هذا تسأل متصنعاً براءة يوسف **(تقلده)** هل فقدت قدميك؟ لا.. أقولها لك بالصريح والفصيح، لا أعرفك ولا تعرفني، والأستر أن تنقلع فوراً من بيتي.

(يبرز الرجل رأسه من تحت الغطاء، فيخالسه حنظلة النظر، ثم يحوّل عينيه بحركة سريعة وخائفة).

حنظلة : أريد أن أعيش حيث تعيشين. تلك هي القاعدة بين المتزوجين.

الزوجة : **(تندفع نحوه بالمكنسة مهددة)** نعمْ.. نعمْ.. هل يمكن الحديث عن الزواج والعش الزوجي، حين يهجر الرجل زوجته، ويبيت في مواخير الدعارة والمجون؟

(خلال كلام الزوجة، ينسل الرجل من الفراش. إنه يرتدي كلسوناً، وقميصاً قصيراً مفكوك الأزرار. يسير على رؤوس أصابعه شاداً قميصه إلى الأسفل وملتفتاً بوجهه نحو حنظلة الذي يقف الآن بشكل موارب. يصل الرجل إلى الخزانة، وحين يختفي وراءها، يلتفت حنظلة إليه).

حنظلة : غريب ما تسمعه أذناي.. وأغرب منه ماتراه عيناي. لا تبدو الأشياء في مكانها. وهذه الغرفة التي كانت ملجأي لم تعد كما ألفتها. ما الذي تغير؟..

(أثناء الكلام، يتجه بخطواته المتعثرة نحو الخزانة. تقفز الزوجة بعصبية، وتكنس حوله جاهدة في صرف انتباهه، ومنعه من الاقتراب من الخزانة. لكن حنظلة يتابع متسللاً خلف الخزانة. فيظهر الرجل أمامها. تجري هنا لعبة الدوران حول الخزانة في مطاردة هزلية، يتوضح خلالها أن حنظلة إما أعمى، أو لايريد أن يرى عشيق زوجته. بعد فترة ييأس

فيها حنظلة من الدوران بلا طائل، يتجه نحو السرير، فتقفز إليه الزوجة، وتمد قدميها من تحت اللحاف. ينحني حنظلة، ويحاول أن يرفع الغطاء).

الزوجة : أعرف ما تبحث عنه. لن ترقد تحت لحافي، ولن أدفّئ عظامك الرخوة بعد اليوم. قلتها لك صريحة وفصيحة. ما بيننا انتهى.

(يزمجر الرجل، وينبح خلف الخزانة. ينتفض حنظلة. ويسقط على الأرض هلعاً).

حنظلة : لا.. لم تعد الغرفة هي الغرفة. الخزانة تهتز واللحاف ينهض.. كأن الغرفة تسكنها العفاريت. بحق الله.. قولي لي.. ألم نكن هنا دائماً ومنذ سنوات؟

(تبدي الزوجة حركات هستيرية، تقلب ملامح وجهها. وتهوم بيديها بينما يزمجر الرجل خلف الخزانة).

الزوجة : اسمعها، وافهمها. العصمة بيدي، والبيت باسمي، مسحتك من حياتي، وسحنتك الشبيهة بالفضلات لا تذكرني إلا بالفضلات. في خزانتي كلب غضوب وأنيابه كالمقاصل. إذا لم تنقلع في الحال، سأجعله يطردك بعد أن يمزق إليتيك **(يزمجر الرجل).**

حنظلة : **(يقفز مذعوراً)** سأرحل فوراً.. آه.. كأن بي دواراً. الاضطراب يشوش رأسي، والفزع يخضّ معدتي. بالتأكيد لن أستطيع الاحتمال طويلاً. **(يجرجر نفسه، مغادراً الغرفة)** لاتريد أن تغفر لي، وترفض أن نعيش معاً كما في الماضي. يقيناً أنه سريري. وتلك مخدتي، لكنها تطردني. ماذا فعلت لها؟ ماذا فعلت لهم لماذا يحدث لي مايحدث؟ **(بصوت واحد ينفجر العشيق والزوجة، بقهقهة صاخبة.. يظهر حرفوش..).**

حرفوش : تعاسة التعاسة.. الزوجة لم تفتح حضنها. والبيت طرده، وأغلق بابه. لكن حنظلة ماتزال لديه وظيفة. والأحزان لا تنسيه واجبه. اتجه متعثراً إلى عمله. سيعتذر عن الغياب، ويستعيد وراء مكتبه مايفتقد من الأمان..

(لهجة إعلانية) المشهد الآن في بنك الازدهار والعمارة..

عند المدير

(طاولة يجلس وراءها مدير الدائرة. يبدو منهمكاً بعمله. مراجعة أوراق وتوقيع معاملات. يدخل حنظلة مرتبكاً. يخرج من جيبه ساعة عتيقة ذات سلسال، ينفجر رنين منبه. يضطرب ويسرع بإعادة الساعة إلى جيبه. يتقدم نحو المدير، ويحييه باحترام متَّضع. المدير لايعيره أي اهتمام).

حنظلة : أسعد الله أوقات سيدي المدير. ها أنذا أعود، وأرجو من صميم فؤادي ألا يكون غيابي قد سبب ارتباكاً في العمل. لو تعلم يا سيدي المدير ماجرى لي. رموني في السجن دون سبب. لقد أعلنت لهم أني موظف، وأعمل في مؤسسة محترمة هي بنك الازدهار والعمارة. لكنهم انهالوا عليّ بالضرب والرفس، فلم أجرؤ على قول شيء.

المدير : عمَّ تتحدث أيها السيد؟ لا أذكر أني رأيتك من قبل. ومغامراتك البوليسية لاتعنيني. أما إذا جئت تطلب صدقة، فقد أخطأت العنوان. هنا بنك وليس داراً للإحسان.

حنظلة : **(يفتش في جيوبه محرجاً.. ثم يخرج بطاقة الاستخدام)** يا سيدي المدير.. هذه البطاقة تثبت أني موظف في هذه المؤسسة. الاسم مدوَّن فيها، وكذلك نوع العمل. منذ سنوات طويلة وأنا أعمل في هذا البنك عدّاد فراطة. أدخل هذا الباب في تمام الثامنة، ولا أخرج منه إلاّ بعد الثانية.

المدير : ذاك تاريخ قديم لايمكن إثباته أو تذكره. عندما يترك المستخدم عمله دون إجازة، أو عذر مقبول يسرح من العمل، ويحل واحد آخر محله. هذا كل شيء، ولن ينفعك توسل أو احتجاج. **(ينصرف المدير عنه ويغرق في عمله).**

حنظلة : يا سيدي المدير.. عمري ما قصرت في عملي. وأرجو أن تتذكر أنك امتدحتني. أي نعم.. أنت نفسك امتدحتني ثلاث مرات. وتأكد أني أتذكر هذه المرات كما أتذكر الأعياد والمناسبات الكبيرة. عمري ما ارتكبت خطأ في عملي، ولا تسربت هفوة إلى جداولي.

المدير : إنك تضيع وقتي. وقتي الآن ملك البنك. ووقت البنك ملك الدولة. ووقت الدولة.. أفّ بدأت أنرفز.

حنظلة : أرجوك يا سيدي المدير أن تقدر وضعي. ماذنبي إذا كانوا قد اعتقلوني دون ذنب! صحيح كان ينبغي أن أخبر عن غيابي الاضطراري، لكن أحداً لم يبال بالإصغاء إلي.

المدير : وهل تريد أن أضيّع الدوام بالإصغاء إليك؟ لا.. إنك تتجاوز كل الحدود.

حنظلة : أعدك أن أضاعف همتي، وأؤدي عمل موظفين معاً.

المدير : الفراطة لاتحتاج إلاّ إلى موظف واحد، وأمثالك لا عمل لهم في هذه المؤسسة، فانقلع من أمامي.

حنظلة : أتسلبني عملي، وترميني إلى الشارع؟

المدير : لم يبق إلا أن تحرّض الموظفين. وتبثّ دعاوى الشغب والتمرد.

حنظلة : لا أطلب إلاّ حقي..

المدير : حقك الوحيد هو أن تنقلع من هنا بالحسنى. لكن أمثالك لاينفع معهم اللين **(يرن جرس المكتب)** إليّ بالحارس. **(يدخل الحارس)** أمسك هذا الرجل من ياقته، وارمه مع القمامة في الشارع.

حنظلة : **(مضطرباً وخائفاً)** لاتغضب يا سيدي المدير.. لا تغضب.. سأخرج في الحال. أهذه مكافأة الأمانة إذن؟ أهذا هو تعويض الإخلاص في أداء الواجب؟..

في الهواء الطلق

حرفوش : **(يحمل بيده مجلة النجوم).**
كل الأبواب أُغلقت في وجه حنظلةٍ. حقاً تحمَّل مايكفي من الآلام، فهل نواسيه؟ قد يفيده المسكِن قليلاً، لكن تشخيص الداء يفيده أكثر. نحن الآن في الحديقة.
(أثناء التقديم الماضي يوضع مقعد في حديقة.. ويتقدم حنظلة في حالة انهيار.. يصل إلى المقعد ويرتمي عليه. يلاعبه حرفوش ويسحب المقعد من تحته، فيقع على الأرض..).

حرفوش : **(وهو يتقدم منه لا مبالياً وساخراً)** أخطر مايصيب السلحفاة هو أن تنقلب على ظهرها.

حنظلة : هذا مايحدث. أهمُّ بالجلوس على مقعد، فينسحب من تحتي وأسقط. ما أفدح مصائبي!

حرفوش : أهي قاسية؟

حنظلة : تنهال على رأسي كضرب العصي.

حرفوش : اللي من إيده الله يزيده.

حنظلة : **(باكياً بطريقة مضحكة)** أردت أن أبوس قدمه، لكنه لم يصغ إليّ.. لم أتأخر يوماً ولو دقيقة. لم تبقع سجلي عقوبة أو ملاحظة. بعد عشر سنوات من العمل المتفاني، رموني كالذبابة إلى الشارع، وعيّنوا آخر غير مدرَّب مكاني.

حرفوش : قد يلائمك أن تتباهى. ماهي هذه الوظيفة التي تحتاج إلى المران والخبرة الطويلة؟

حنظلة : **(مجروحاً)** هل تستهين أيها السيد بوظيفة عداد الفراطة. إنها وظيفة حساسة وكلها مزالق. تأتي الأكياس الثقيلة المعبأة بمختلف القطع النقدية. فتتكدس على المكتب. أفتحها

واحداً بعد الآخر وأنضّد كل فئة على حدة. الأرباع، الأنصاف، الليرات، ثم أجمعها، وأسجلها في الدفاتر المنظمة. لاينبغي أن تضيع قطعة، أو تتسرب من فئة إلى فئة. عمل شغفت به، وأصبح نصف حياتي. ولكن ماهي النتيجة؟..

حرفوش : لم تكن إلا برغياً في الآلة. والبرغي يمكن أن يبدَّل ببرغي. عملك يؤديه الآن رجل آخر. وهذا يعني أن من الممكن الاستغناء عنك واستبدالك.

حنظلة : عداد الفراطة برغي؟

حرفوش : أي نعم. ماهو إلّا برغي، وبرغي صغير جداً.

حنظلة : أنت تذبحني. ما أفدح مصائبي! ألا يمكن أن أجد شخصاً يتلطّف معي قليلاً؟

حرفوش : ألم يكن حضن امرأتك لطيفاً ودافئاً؟

حنظلة : آه.. تلك هي أفدح المصائب.. كنت آمل أن أجد لديها الطمأنينة والراحة، لكنها استقبلتني بضربات المكنسة. طردتني من البيت، وفضلت أن تبقى تحت اللحاف الدافئ وحدها.

حرفوش : أمتأكد أنها بقيت وحدها؟

حنظلة : متأكد ومتيقن أنها كانت وحيدة في السرير، لاتصحبها إلا قدماها اللتان تجمدتا من البرد، وسقطتا على الفراش. لم يكن في البيت نار، فنفذ البرد إلى عظامها.

حرفوش : العقرب يلدغ، والثور يطول قرناه.

حنظلة : ماذا تعني؟ صحيح.. امرأتي من برج العقرب، وأنا من برج الثور، وهما برجان أحدهما للآخر كالقدر وغطائه.

حرفوش : أما لاحظت أن القدمين لهما شاربان، وأنهما ترتديان قميصاً وكلسوناً، وفوق هذا تلعبان الاستغماية. طبعاً لم تشأ أن

ترى، فأنت لا تدس أنفك فيما لايعنيك.

حنظلة : **(ينتفض مهاناً)** ماهذا القول؟ امرأتي عمرها ما كذبت عليّ، ولا فكرت بخيانتي.

حرفوش : اللي من إيده الله يزيده..

حنظلة : هل تريد أن أكذِّب عيني، وأتخيل أنه كان في البيت رجل. **(فجأة يمسك رأسه بيديه ويطرق باكياً)**.

حرفوش : اللي من إيده الله يزيده..

حنظلة : ماكان أحلى تلك الأوقات التي نقضيها معاً.. أعود بعد إرهاق العمل إلى عشنا الناعم. ألبس بيجامتي، وأسترخي على الكرسي الهزّاز. هي تقلّم أظافرها، أو تنتف الزغب عن ساقيها الملساوين، وأنا أقرأ لها مجلة النجوم وماتقوله الأبراج، ثم زادت لدينا المتع والمسرات بعد أن اشترينا المذياع.

حرفوش : الآخر لا يحتاج إلى بيجاما، لكنه يجلس على كرسيك. ويريح رأسه على مخدتك. في البنك يمكن استبدال عداد الفراطة.. وفي البيت يمكن استبدال الزوج.

حنظلة : **(كالطفل يبكي. ويفرك الأرض بقدميه)** آه.. لماذا يحدث لي مايحدث؟ ماذا فعلت لهم؟ ألا يمكن أن أجد أي عون؟

حرفوش : لماذا لاتستشير النجوم؟ هل أقرأ لك مايقوله برج الثور؟

حنظلة : **(بفرح حقيقي)** نعم.. نعم.. لابد أن ذلك سينير لي بعض هذا الغموض الذي يلفّني.

حرفوش : **(وهو يقلب في المجلة)** الثور.. الثور.. الحمل. الثور.. ها هو. هل تصغي؟

حنظلة : نعم..

حرفوش : **(يقرأ)** الثور.. وجع رأس أو أسنان سببه حالتك العصبية. عالج الأمر دون تأخير. يعرض عليك عمل إضافي فيه ربح

وفير. من الجائز أن تندم على القبول به لشعورك بالإرهاق المفاجئ. لاتحمَّل نفسك أكثر من طاقتها. حيوية ونشاط كبيران في الحب. حافظ عليهما قدر محافظتك على الحبيب. استمع لصوت قلبك واعطِ من مالك بعض الشيء. نصيحتنا: اتبع حدسك فهو مرشدك ودليلك. يوم السعد الأحد رقم الحظ ١٠.

حنظلة : **(مبهوتاً)** عمل إضافي.. حيوية.. و..

حرفوش : نشاط كبيران في الحب. حافظ عليهما قدر محافظتك على الحبيب.

حنظلة : وأعطِ من مالك..

حرفوش : بعض الشيء.

حنظلة : **(باكياً)** لاأملك أي مال.. أما أني مريض، فهذا صحيح. لم يعد بوسعي أن أفعل أي شيء. أنا مريض، ولا أستطيع أن أتحمَّل الأوجاع أكثر.

حرفوش : إذا كنت مريضاً بالفعل، فسأقودك إلى الطبيب مباشرة.

حنظلة : ليس لدي ما أدفعه للطبيب.

حرفوش : أعرف طبيباً مولعاً بالحالات المرضية النادرة وتشريح الجثث. ستتمدد على سرير العمليات. يفتح رأسك، ويغوص بمشارطه وأصابعه الماهرة، حتى يصل إلى التجاويف المظلمة حيث يكمن الداء.

(ينكمش حنظلة مرتعباً. يتكوّم متشبثاً بالأرض، بينما يحاول حرفوش أن يحمله على النهوض. في النهاية يرفعه، ويجبره على السير).

حرفوش : لاتخف. عندما تخرج يده الماهرة من تلافيف دماغك، ستحس فوراً أن حالتك صارت أفضل. إنه اختصاصي بارع واختصاصه هو الطب البسيكو ـ إعلامي.

حنظلة : البيكو..
حرفوش : البسيكو..
حنظلة : البسيكو..
حرفوش : البسيكو ـ إعلامي.
حنظلة : (راضخاً) اللهم اجعله خيراً.

في عيادة الطبيب

(تزداد الحركة سرعة. والإيقاع له طابع أفلام الكرتون)

حرفوش : **(معلناً)** والآن نحن في عيادة الدكتور الاختصاصي في الطب البسيكو ـ إعلامي **(تدخل ممرضة بسرعة، وهي تدفع أمامها منَّصة العمليات الجراحية. حرفوش يضع حنظلة على المنصة. ثم يتناول مريلة بيضاء معلقة على الحائط ويرتديها. يدخل الطبيب بمهابة. يضع نظارات طبية. ويرتدي ثياب جرَّاح يتأهب لإجراء عملية. الكمامة المعقمة محلولة. وتتدلى أسفل ذقنه. المرضة تمدد حنظلة على المنصة. وتسوّي وضعه. الطبيب يدور حوله وهو يمعن في التأمل. حرفوش يحذو حذوه، فيدور باتجاه معاكس. يمكن أن تحدث بعض المفارقات الحركية بين الطبيب وحرفوش والممرضة).**

حرفوش : هذا الزبون حالة مثيرة. معاينته قد تقود إلى كشف علمي جديد، وشفاؤه سيضيف إلى مآثرك واحدة أخرى.

الطبيب : **(وهو يتأمل حنظلة بإمعان أكثر)** الأعراض بادية. لا أشك أن الحالة مستعصية. لكن كلما استعصت الحالة، اتسعت آفاق البحث، واغتنت إمكانيات اختصاصنا الطبي. بفضل تنوع الحالات، ودأب فريق من الأخصائيين مثلي، أحرز الطب البسيكو ـ إعلامي تقدماً خارقاً. بعض الأمراض التي كانت تعتبر وبائية وميؤوساً منها، أصبح علاجها أسهل من الزكام. **(يتخذ الأداء طابع الإعلانات التلفزيونية والمظاهرات الإعلامية).**

الممرضة : الاكتئاب المزمن.

الطبيب : والإحباط الجنسي.

حرفوش : والشبق السياسي.
الممرضة : والانقسامات الطبقية.
حرفوش : وحالات القلق الوطنية.
الطبيب : **(وهو يباعد بين حرفوش والممرضة اللذين يهمّان بالعناق. حنظلة يضع وجهه بين يديه راكعاً فوق المنصة. يصغي إلى الحوار ذاهلاً)** تلك مجرد عينة من الأمراض التي أصبح علاجها ميسوراً في عيادتنا. إن التقدم الذي أحرزه الطب البسيكو - إعلامي جعله واحداً من أهم أسس الاستقرار في المجتمعات المعاصرة.
حرفوش : وتدعيم الأنظمة القائمة.
(الحوار يتخذ طابع المظاهرة أو العراضة الشعبية... حرفوش يتاوش مع الممرضة، والطبيب يباعد بينهما).
الطبيب : من يساعد الفرد على التكيف مع واقعه؟
الممرضة : إنه الطب البسيكو - إعلامي.
حرفوش : من يحوّل المواطن وديعاً كالحمل صبوراً كالجمل؟
الممرضة : إنه الطب البسيكو إعلامي.
حرفوش : من يجعل المواطن يتحمل القمع والفقر والفساد؟
الممرضة : إنه الطب البسيكو إعلامي.
حرفوش : **(تتسارع اللهجة)** أزمات السكن والنقل والتموين.
الممرضة : الطب البسيكو- إعلامي.
حرفوش : احتلال الطنب الكبرى والطنب الصغرى، وضياع فلسطين.
الممرضة : الطب.
حرفوش : التجزئة.
الممرضة : البسيكو..
حرفوش : الهزائم والمذابح.
الممرضة : الطب البسيكو - إعلامي.
الطبيب : اختصاصنا، ولا أحب المباهاة، هو معجزة العصر.

الممرضة : تقول آخر الإحصائيات الدولية.. إن هناك انخفاضاً ملحوظاً في نسبة الاضطرابات الاجتماعية، والانتفاضات الشعبية.

حرفوش : وارتفاعاً ملحوظاً في عدد حالات الجنون الفردية.

حنظلة : **(وهو يرتعد)** إني خائف.

الطبيب : الحديث عن منجزاتنا يطول. **(ينزل حنظلة عن المنصة. إلى الممرضة)** مدّديه على المنصة، وساعديه على الاسترخاء.
(يخف حرفوش والممرضة، ويمسكان بحنظلة.)

حرفوش : أين تذهب؟..

حنظلة : لا أريد.. إني خائف.. دعوني أخرج.
(أثناء تمديده تحدث بعض المفارقات الحركية).

الطبيب : **(يقترب من حنظلة متخذاً هيئة خطيرة ومتأملة.. بعد لحظات يعطي إشارة للممرضة)** جو رقم ٣٠٠ معاينة. **(تهرع الممرضة إلى لوحة أزرار. تضغط على زر. تتغير الإضاءة.. تضغط على زر آخر فتنبعث موسيقا. فترة. يحاول حرفوش خلالها أن يراقص الممرضة، أو يعاكسها).**

الطبيب : **(إشارة إلى الممرضة)** تسجيل الأعراض الظاهرية. **(تهرع الممرضة وتتناول سجلاً ضخماً، أو دفتراً صغيراً جداً في جيبها وتتهيأ للتسجيل)** لون الجلد طيني، العينان دمعيتان، الأجفان اهتزازية، ملامح الوجه إنتانية. **(يقترب من وجهه ويشمه)** الرائحة عطن بولي. **(إشارة من إصبعيه للممرضة.. فتسرع وتناوله مطرقة كبيرة. يصوبها الطبيب فوق الرأس.. تصطك أسنان حنظلة، وتجحظ عيناه من الرعب، يلتفت الطبيب نحو الممرضة)** نوبات اصطكاك أسنان. وجحوظ عينين. **(ينقل المطرقة ببطء فوق حنظلة حتى تصبح فوق ركبته، يهوي على ركبته. فتندفع ساقه في الهواء وتصيب قدمه الطبيب الذي يتكئ على الممرضة، يحضنها ويسقط وإياها على الأرض. يساعدهما حرفوش على النهوض.**

الطبيب بهدوء) كبت مزمن والاستجابة العصبية موتورة.
(يدور الطبيب عدة مرات حول المنصة، تتسارع الموسيقا بشكل واضح. فجأة يهجم على حنظلة، وبحركات متعاقبة وسريعة جداً، يمسك يده في حركة قياس النبض. يضع السماعة بحركات مضحكة على كل بقعة في جسمه. إشاره للممرضة. تقلب حنظلة على ظهره. يتابع الفحص بالسماعة..)

حرفوش : هل بدأت تنجلي حالة صاحبي يادكتور؟

الطبيب : هناك كتلة عصيانية في مكان ما.

حرفوش : أهي خطيرة؟

الطبيب : قد نجد الجراحة ضرورية.

حنظلة : **(مرتعداً، يحاول النهوض. فتجلس الممرضة على رجليه)** أرجوك أيها السيد الطبيب. كلمة الجراحة ترعبني. لا أريد أن تقطع شيئاً من جسمي المسكين.

الطبيب : افتح فمك.. ساعداني.
(يمسك حرفوش والممرضة جذع حنظلة ورأسه، ويجبرانه على فتح فمه. يتناول الطبيب مصباحاً يوجهه إلى داخل الفم.

حرفوش : أيّ منظر.. أيّ منظر!

الطبيب : **(ينظر إليه بجدية)** ماذا رأيت؟

حرفوش : قناة تبدأ مستقيمة، ثم تلتف وتلتف.. وفي نهايتها ثقب قذر. أهو الثقب الشرجي يا دكتور؟ **(بحركة غريزية يحاول حنظلة أن يغطي مؤخرته بيديه).**

الطبيب : الاحتمال وارد... **(إلى حنظلة)** قل آ..

حنظلة : أو..

الطبيب : آ...

حنظلة : أوو..

الطبيب : حقا إنها حالة مستعصية **(يعطي إشارة للممرضة)** جو رقم ٥،

معاينة الاستجابات الذهنية.

(تضغط الممرضة على أزرار جديدة. تتغير الموسيقا، وترقّ.. كذلك تتبدل الإضاءة، تصبح خافتة جداً، باستثناء البقعة التي يوجد فيها حنظلة.. الممرضة وحرفوش يساعدانه على الجلوس ويسندانه. صوت الطبيب في المشهد التالي، متكلف الرقة وأنثوي).

الطبيب : قل لنا ماذا يمثل كل رسم نعرضه عليك الآن... **(يعطي إشارة البدء للممرضة فترفع اللوحة الأولى).**

حنظلة : قمر.

الطبيب : دائرة.

(ترفع الممرضة اللوحة الثانية).

حنظلة : نونية.

الطبيب : تاج.

حنظلة : **(اللوحة الثالثة)** سجن.

الطبيب : سور حديقة.

حنظلة : **(اللوحة الرابعة)** تنورة.

الطبيب : أباجورة.

حنظلة : **(اللوحة الخامسة)** سوط.

الطبيب : حزام جلدي.

حنظلة : **(اللوحة السادسة)** حمالة نهدين.

الطبيب : نظارتان.

حنظلة : **(اللوحة السابعة)** ثقب مفتاح.

الطبيب : شجرة.

حنظلة : **(اللوحة الثامنة)** دودة.

الطبيب : عصا.

(تعود الممرضة فتعرض اللوحة الأولى).

حنظلة : **(مبدياً شطارة)** دائرة.

الطبيب : قمر. **(بلهجة ظفر)** العلة واضحة. تشوّش في الاستجابة الذهنية مع اختلاطات هذيانية.

حنظلة : **(محنقاً)** بالفعل تبدو لي الأشياء مقلوبة أو مشوهة. رأسي طنجرة مليئة بالمصارين والنخالة. كيف أستطيع أن أفهم أو أرى بوضوح؟

الطبيب : من أعراض العلة أيضاً الشعور بالاضطهاد، والميل إلى التذمر والاكتئاب. أعتقد أن الجراحة ضرورية، وسننزع جذور العلة من هذا الوعاء الثمين **(إشارة للممرضة)** جو رقم تسعة.. جراحة دماغية. **(تبدل الممرضة الموسيقا والإضاءة. الطبيب يتهيأ ويمد يده. تناوله مفتاحاً ضخماً. يدير المفتاح في رأس حنظلة محدثاً صريراً حاداً. يرفع غطاء الرأس. تسرع الممرضة وحرفوش للنظر إلى الدماغ المفتوح، يصطدم رأساهما.)**

الممرضة : آه الدماغ! أية معجزة!

حرفوش : مفتوح أمامنا كصندوق تتكدس فيه الأسرار والغرائب.

الطبيب : في هذا الصندوق، تتكدس أيضاً أتربة وعاديات مهترئة. الغسيل ضروري وإعادة ترتيب التلافيف سيمنع تراكم الغبار، وتقرحات الحزن. **(إشارة إلى الممرضة. تناوله ملقطاً كبيراً، فيبدأ الطبيب في تحريكه داخل الرأس. يضحك حنظلة وكأنه يدغدغ بعنف. ويرفس بقدميه. يتعاون حرفوش والممرضة على تثبيته)** سنجري عدداً من التنقلات بين المراكز العصبية القيادية.

(يستمر في تحريك الملقط، بينما تتسارع الموسيقا، إشارة للممرضة. تتناول الملقط من يده، ثم تعطيه سكرية. يرشّ منها قليلاً فوق الدماغ. يعيدها للممرضة فتناوله زجاجة فيها زيت. يصب قليلاً من الزيت داخل الرأس، بعدها يرش بعض المواد

الأخرى).

الطبيب : **(بعد أن ينتهي يفرك راحتي يديه. بلهجة ظفر)** بديعة هذه المهنة، والأبدع أن تمارسها يد مجرِّبة. الدماغ بعد أن غسل وشُحِّم يعمل بدقة محرك جديد.

حرفوش : شيء سار أن يرى المرء كيف تتجدّد الأعضاء المعطوبة، وتدبّ فيها حياة ثانية **(يغلق الطبيب رأس حنظلة الذي تتملكه نوبة من الضحك العصبي أو الهيستيري).**

الطبيب : مهمتنا انتهت، وهذا الفرح الضاحك يثبت أنها نجحت.

حرفوش : كل الأعضاء المعطوبة جُدِّدت. وصديقنا حنظلة، سيجد السبيل إلى الهناء، كأنه سمكة أعيدت إلى الماء.

(إظلام).

في الهواء الطلاق

(بعد قليل يظهر حرفوش متقدماً من الجمهور.. لم يظهر حنظلة بعد)

حرفوش : هل يستمر في غفلته طويلاً، أم أنه يهتدي إلى الفهم قريباً؟!

(يدخل حنظلة. هيئته غريبة. تأخذه نوبات من الضحك، وأحياناً يطوّح بيديه وساقيه في الهواء).

حنظلة : أين أنت يا صديقي؟ أشعر أن حالي غريب. يبدو أن مرضي تفاقم **(يطوح بساقيه، ويديه. نوبة ضحك عصبي).**

حرفوش : لا.. إنك تبالغ. لم تمض سوى دقائق على خروجنا من عيادة الطبيب الماهر. ألم تسمعه يقول بعد المعاينة الدقيقة، والجراحة الناجحة، إنك الآن معافى الجسم والعقل!

حنظلة : أيليق هذا الضحك بعد كل ما جرى لي! أولاً اعتقلوني في رابعة النهار، وثانياً سرقوا مالي دون تعويض، وثالثاً طردني المدير من عملي، ورابعاً بالت عليّ زوجتي.. وبدلاً من أن أبكي.. انظر.. إني لا أستطيع أن أتوقف عن الضحك. هذا لامعنى له، إني أضحك على نفسي. **(يغرق في نوبة جديدة من الضحك).**

حرفوش : **(مصفقاً بيديه)** بدأ يفكر.. بدأ يفكر..

حنظلة : **(يتوقف فجأة عن الضحك. تتدلى شفته السفلى ببلاهة)** أفكر.. أنا أفكر..

حرفوش : العلاج يعطي مفعوله. دع عقلك الذي خرج لتوه من التنظيف، يحلق ويكشف ما خفي عليك.

حنظلة : **(يتحسس رأسه، بالبلاهة نفسها)** عقلي.. إنك تتلاعب بي.

كلّ ماحولي معتم. ويصعب عليَّ تمييز الخيط الأبيض من الأسود.

حرفوش : ألا تشعر بأي تحسن؟

حنظلة : بل ازداد حالي سوءاً. أحس أن أطرافي تنفك عن جسدي. **(تباغته نوبة الضحك)** وهذا الضحك أيضاً!

حرفوش : إنك تضحك على الأقل.

حنظلة : **(بين الضحك والبكاء)** مصيبة أخرى فوق مصائبي.. ألا يوجد واحد عنده حل لي؟

حرفوش : اسمع.. لدي فكرة.

حنظلة : نعم..

حرفوش : هناك درويش عرفت عنه كرامات كثيرة. يقال إن فراسته لا تخطئ. ومن أمارات الرجل يستطيع أن يميز طباعه، وينفذ إلى العلل التي تنخر الروح والبدن. درويش شديد الورع والتقوى. نافذ النظرة. تقام في زاويته الأذكار. ولا يضنُّ بالمعرفة على القصّاد. أعتقد أن زيارته ستنفعك. وقد تجد لديه الحل الذي تبحث عنه.

حنظلة : **(بحبور وجذل. تتطوح أطرافه)** ليتنا نذهب إليه على الفور. درويش ورع وله كرامات، سيعرف حتماً كيف يدلني على الصواب.

حرفوش : إذن، سأصحبك إليه.

حنظلة : **(تكسو البلاهة وجهه)** اللهم انفعنا ببركته.

حرفوش : **(بصوت إعلاني، وهو يمسك حنظلة من يديه ويجره)** عند الدرويش صاحب الكرامات.

عند الدرويش

(ظلام.. تنفجر أغاني المولوية.. بعد فترة تكفي لوضع قطع الإكسسوار وتجهيز زاوية الدرويش.. تبدأ حزمة من الضوء تتناثر على الدرويش، الذي يجلس على مايشبه المصطبة. حوله جو ديني يعبق بالبخور.. بيده مسبحة ضخمة جداً تتدحرج حباتها على الأرض. طاسة ماء. دواة وريشة لكتابة الرقي والتعاويذ. لوحات شعبية عن الخرافات الدينية. يقف حنظلة أمامه منحنياً بخشوع. بينما يقف حرفوش على مبعدة منه، يقوم بين حين وآخر بحركات ساخرة).

حنظلة : يا سيدي الدرويش اسمي حنظلة.

الدرويش : الاسم في السيماء، وسبحان من يمتحن عباده بالمحن، ويبلوهم بالبلاء.

حنظلة : ما أنا إلا عبد مؤمن. وفي حياتي لم أسلك إلا طريق الاستقامة.

الدرويش : لاتتباه يا عبد الله، فإنه لايحب الذين يتباهون.

حنظلة : اغفر لي يا سيدي الدرويش.

الدرويش : هو وحده غفّار الذنوب. اللهم اغفر لنا ماتقدم، وما تأخر من ذنوبنا.

حنظلة : **(بدأ يتلعثم)** لم أقصد التباهي. لكن.. كيف أقول لك ياسيدي. إن أموري في هذه الدنيا، وأمور هذه الدنيا تحيرني. ما آذيت في حياتي إنساناً. لم أطمع أبداً في مركز من هو أعلى مني، ولا حسدت من هو أغنى مني. كل ما أسعى إليه هو أن أقضي حياتي مستوراً وآمناً. ومع هذا فإن كل الأمور تجري معكوسة.. إذا مشيت تعثرت، وإذا جلست انزاح

الكرسي وتشقلبت. لماذا يحدث لي مايحدث؟ لابد أن هناك سبباً مستوراً. وأنك تستطيع بعلمك الواسع، أن تساعدني على اكتشافه ومعرفته.

الدرويش : لا تلحف في السؤال. لأن السؤال يقودإلى الضلال. ولا تفقد الرضى لأن الرضى أثمن نعم المولى.

حرفوش : يا سيدي الدرويش، أرجو ألا تسوءك جِشريّتي. أترضى إذا طردوك من عملك، وسدّوا باب الرزق في وجهك؟

حنظلة : **(فرحاً)** فعلاً، هذا ماينبغي أن أسأله.

الدرويش : وأحمد الله أني المطرود لا الطارد.

حنظلة : **(ببلاهة، ثم تصيبه نوبة الضحك)** أحمد الله أني مطرود.

حرفوش : وإذا اعتقلوك دون جرم؟

الدرويش : أحمد الله أني المظلوم لا الظالم.

حرفوش : وإذا جردوك من كل ماتملك؟

الدرويش : **(بدأ الحنق يظهر عليه)** أحمد الله أني المسروق لا السارق.

حرفوش : وإذا طردتك امرأتك، لأن هناك رجلاً يتدفأ تحت لحافك.

الدرويش : أفرمها **(يتوقف، يمسح بكفه على وجهه، يستعيد رواء قسماته ويتصنع الابتسام)** أحمد الله أني الحافظ فرجه لا المفرط به.

حرفوش : **(ساخراً)** ما أبهى نفساً يتلألأ فيها هذا الرضى! أما صاحبي فإنه يتوجع وينوح بدلاً من أن يتلألأ.

حنظلة : **(ببلاهة. وهو يتفرس في الدرويش وكأنه أعجوبة)** يا سيدي الدرويش.. أيصيبك هذا كله، ولاتسأل لماذا يحدث لك ما يحدث؟

الدرويش : السؤال يقود إلى الشك، والشك إلى الضلال. أما الرضى فيقود إلى الحمد، والحمد إلى الإيمان.

حنظلة : من قبل لم يراودني أي سؤال، وكان الرضى يغمرني في

النوم واليقظة. لكن أشعر أني أصحو بعد رقاد طويل في قفر، وكل ماحولي مرعب وغريب. لا.. إني مريض يا سيدي. لاأستطيع أن أتحمل أكثر. أتوسل إليك أن تجد لي حلاً.

الدرويش : لا حلّ إلا أن تطهر نفسك من الشك والوسواس. داؤك في نفسك لا في بدنك.

حرفوش : **(يقفز، يحمل المبخرة ويدور بها حول حنظلة الذي يبدو في غاية الاضطراب)** تطهَّر يا عبد الله تطهَّر.

الدرويش : دع الأسئلة، فهي منفذ الشيطان إلى القلب. وفتش عن الرضى.

حرفوش : تطهَّر يا عبد الله.. تطهَّر..

حنظلة : لاقدرة لي. منذ أن أوقفت بلا ذنب تهاجمني الأسئلة كالحكة.

الدرويش : تلك هي حكّة الشيطان.

حرفوش : تطهَّر يا عبد الله تطهَّر..

حنظلة : **(يرتعد)** حكّة الشيطان! **(يرتعش ويقفز كأن الشيطان مسّه)** خلصني يا سيدي خلصني.

حرفوش : تطهَّر يا عبد الله تطهَّر.

الدرويش : سنكتب لك حرزاً يلجم الشيطان، لكن نفعه مع الذكر أوفى.

حرفوش : الجأ يا عبد الله إلى الذكر، واطرد شيطانك.

الدرويش : الجأ يا عبد الله إلى الذكر، واطرد شيطانك.

(يتناهى غناء الذكر، يبدأ حنظلة بالتمايل مع الغناء، بينما يبدأ الدرويش في كتابة الحرز).

حرفوش : **(غامزاً)** الحرز أصلي يا سيدي الدرويش؟

الدرويش : **(بامتعاض)** لم يعرف عنا الغش أو التقليد. بسم الله الرحمن

الرحيم.. (يعلو الغناء، وينغمر حنظلة في الذكر.. يستمر المشهد حتى ينتهي الدرويش من كتابة الحرز. يتناوله حرفوش الذي يصيح بين حين وآخر «الله حي». تتلاشى الإضاءة تدريجياً، ويظهر تداعي حنظلة الجسدي).

في الهواء الطلق

(بعد أن يصمت الغناء نهائياً. تغمر المسرح إضاءة عادية. حنظلة متمدد على الأرض يئن، وحرفوش يركب الأرجوحة مرحاً، يفتح الحرز.)

حرفوش : **(ضاحكاً)** لم يعرف عنا الغش أو التقليد.. هذا الحرز ينفع إن شاء الله للمحبة ووسوسة الشيطان، والعين والنظرة والشقيقة والصداع والضارب والسرطان والرمد والرعاف وحل المربوط وخلاص المسجون وبكاء الأطفال والفزع والبيع والشراء وسفر البر والبحر والمرأة المتعسرة الولادة والبنت البائر المعتوقة قاف.. هاء.. قاف.. هاء.. كل شيء كل شيء احجبوا عن حامل كتابي شر كل شيء يؤذيه بحق هذه الأسماء وبحق هذا الخاتم **(يتجه نحو حنظلة)** انهض يا صاحبي واستبشر، بفضل هذا الحرز وكرامة الدرويش لن ينالك الأذى بعد اليوم. **(يختلج جسد حنظلة، وكأنه مايزال تحت تأثير الغناء ثم يهمد)** آه ما أعذب أن يغفو المرء بعد أن تشمله الطمأنينة.

حنظلة : **(توجع وأنين)** لا أقوى على النهوض. رأسي تعج بالذباب **(يحاول أن يلملم جسده ويجلس)** جسدي كله دمامل ورضوض. ضرب الحزام لم يكن أوجع **(فجأة يتأرجح رأسه ذات اليمين وذات الشمال في حركة آلية ولا إرادية كأنه يسمع إيقاع الزار. يحاول أن يوقف رأسه بيديه. لايفلح. صارخاً بحنق ورعب)** أوقف لي رأسي. **(يقبض حرفوش على رأس حنظلة. ويثبته بعد جهد. يتجمد الرأس وترتخي القسمات في تعبير ذاهل كأنها قناع. ثم تأتي نوبة الضحك.**

يطبق حرفوش يده على فمه، إلى أن يهدأ.. يضرب كفاً بكف) والله كمُلت معي. فوق كل الأوجاع هذا الضحك، ودوار في رأسي. آخ إني دائخ. كل مافي ذهني تشوَّش أكثر من قبل. ماعاد هناك أمل في أن أفهم أي شيء.

حرفوش : كم تحب التأفف! من الطبيعي أن ينالك بعض التعب والاضطراب. خروج الشيطان من البدن المسكون، يسبب دائماً صدمة عنيفة، وقد يؤدي إلى الجنون أحياناً.

حنظلة : خروج الشيطان!

حرفوش : نعم.. أما سمعت سيدنا الدرويش! كان الشيطان يغويك. بالذكر فزع الشيطان وفرَّ، وهذا الحرز الذي كتبه لك سيرد غوايته عنك. **(يدس له الحرز في صدره)** الآن تطهرت، وبعد قليل ينجلي ذهنك، ويغمرك الرضى كالموجة الدافئة.

حنظلة : **(بعنف وهو يدق الأرض بقدمه)** ومن أين يأتي الرضى بعد كل ماحدث؟

حرفوش : أنعود إلى الأسئلة وغوايتها؟ لاتلحف في السؤال، فإن السؤال يقود إلى الضلال. هذا ماقاله سيدنا الدرويش.

حنظلة : وأنا أقول هذه معاجزة. أفقد كل شيء، وتريدني ألا أسأل من أين يأتي الرضى! منذ أن اعتدوا عليّ، لا أستطيع أن أرد الأسئلة. إنها تحفر رأسي كالمغارز **(يضع يده على رأسه)** آخ.. دوار وألم. أراك تدور.. الهواء يدور. **(مشيراً إلى المتفرجين)** هؤلاء الغرباء يدورون.. كله يدور.

حرفوش : ما أسرع ما تيأس! انتظر حتى تشطف الطهارة قلبك. وتستقر فيه بركة الحرز.

حنظلة : **(بغضب، ينتزع الحرز من صدره ويلقيه على الأرض)** الحرز.. الحرز..

حرفوش : أيها التعيس!

حنظلة : **(يتبلد وجهه فجأة.. يركع بحركة تنم عن الخوف والندم، يريد أن يتناول الحرز، لكنه يتوقف، وتعاوده نوبة الغضب)** إنك تلهو بي كما يلهو الولد الشقي بعصفور مريض.

حرفوش : **(متصنعاً الغضب)** وأنا الذي تحملت هذه المشاق من أجلك! إذا لم تشكرني ليس ضرورياً أن تشتمني. **(يدير له ظهره ويبتعد متخلياً عنه)** سأتركك تتمرغ في الزبل وحيداً.

حنظلة : لا.. بحق الله لاتتركني. **(يجري وراءه ويمسكه من كمه)** لم يبق لي أحد، ولا أعرف ماذا أفعل! من المؤكد أني لا أميّز التعبير المناسب، لكن أرجو أن تصغي إليّ.. **(يتوقف، يلاقي عناء في البحث عن الكلام)** كيف أصف لك! فجأة رأيت كما يرى النائم. **(يتوقف)** لست نائماً، ومايحدث لي ليس بالحلم. الأصح أن أقول، فجأة صحوت من نوم عميق.

حرفوش : **(يقفز مصفقاً)** بدأ يفهم.. بدأ يفهم.

حنظلة : أفهم.. أنا أفهم؟.. بل هذه هي المشكلة. لم تدعني أكمل. صحوت فوجدت كل ماحولي فوضى مفزعة. الأشياء مقلوبة عاليها سافلها، والناس ينكرونني، ويتفقون على إهانتي. كل هذا حدث فجأة. فكيف يمكن ألا أستغرب وأسأل؟ مامعنى أن يحقنوني بالضحك بعد كل بلائي؟ ومم يجب أن أتطهر؟ أليس الأوجب أن يتطهر الذين أهانوني، وعذبوني؟

[حر]فوش : إنه يجده.. إنه يجده..

[حنظـ]ـلة : ماهو؟..

حرفوش : الطريق إلى المعرفة.

حنظلة : المعرفة؟ ولكن لا أعرف لماذا يحدث لي مايحدث؟

حرفوش : تابع السؤال وفكر. **(يبذل حنظلة جهداً بالغاً في محاولة التفكير)** فكر فأنت تقترب من الجواب.

حنظلة : **(يضاعف جهوده العضلية في محاولة التفكير. بعد لحظات ينفجر يائساً)** لا أدري.. إني أفكر.. أحاول أن أفكر. إلا أن هناك جداراً من الظلام يوقفني. ربما.. لاشك أن الفهم يحتاج إلى قوة خارقة أو تدريب طويل..

حرفوش : **(يستعيد حيوية اللاعب ويتجه إلى الجمهور)** حقاً إن الفهم يحتاج إلى تدريب طويل. وصاحبنا بدأ التدريبات الأولى. إنه يخطو على الطريق، لكن مازالت أمامه مسافات. ومشيت معه. ليس المهم أن نجد لسؤاله جواباً جاهزاً، بل أن نعلمه كيف يجد الجواب بنفسه.. **(الآن يصبح الإيقاع سريعاً، وينسلخ الممثلان عن دوريهما.. إنهما يؤديان مايرويه حرفوش، وكأنهما يحكيان قصة قديمة..)** ومشيت معه.

حنظلة : طرقنا أبواباً كثيرة.

حرفوش : كلها تقدم خدمات وأجوبة.

حنظلة : بعد إلحاح وانتظار طويل.

حرفوش : استقبلنا المثقف الحكيم.

حنظلة : رجل عظيم، يشعر المرء أمامه بالضآلة والرهبة.

حرفوش : إنه يعيش في بيت من الكتب.

حنظلة : آه الكتب.. مشهد يبلبل الفكر، ويزوغ فيه النظر.

حرفوش : الجدران كتب، والأثاث كله مصنوع من الكتب. السرير والمقاعد والمنضدة، وحتى أكواب الماء، ومنافض السجائر. استقبلنا الحكيم بوقار، وحنظلة يضطرب، ويتعثر.. **(يحاول حنظلة أن يجلس، يخاف فينهض بسرعة.. يكاد مراراً أن يقع.. يبدو وكأنه دخل إلى متاهة)**.

حنظلة : **(مدارياً اضطرابه، يرفع صوته ليسيطر على نفسه)** ياسيدي الحكيم أنا إنسان بريء.

حرفوش : **(يتخذ وضعية الحكيم. يبدأ الكلام هادئاً، ثم يعلو تدريجياً. في**

النهاية تختلط الكلمات والحروف في تدفق صوتي مخيف).
مامن إنسان بريء. البراءة هي العدم، الإنسان يأتي من العدم، وإلى عدم يصير. إذن البراءة قبل وبعد. ومن المستحيل أن تتزامن مع الوجود. الحماقة وحدها تتزامن مع الوجود. بين براءتين توجد الأفعال والكلمات، ولهذا فإن كل الأفعال والكلمات حماقة وعبث. مابين براءتين كل الأفعال والكلمات. لهذا فكل الأفعال والكلمات باطل الأباطيل. الكل باطل، والكل قبض الريح. دور يمضي ودور يجيء. الشمس تشرق ثم تغيب. كل الأنهار تجري إلى البحر، والبحر ليس بملآن. ماكان فهو ما يكون، والذي صُنع فهو الذي يصنع..

(يمكن أن يستمر هذا المقطع إيمائياً. حرفوش يومئ متحدثاً.. وحنظلة يضع إصبعيه في أذنيه وهو يعوي متوجعاً.. في نهاية المشهد ينطرح على الأرض أو يجري خائفاً وكأن الكلام كلاب تطارده.. يهدأ عندما يعلن حرفوش الانتقال إلى مكان آخر).

حرفوش : بعد المثقف الحكيم، طرقنا باب جمعية التآخي الاجتماعي.

حنظلة : استقبلتنا سيدة موقرة.

حرفوش : كان وقتها ضيقاً لايسمح لها أن تصغي إلى القصة كلها. قاطعت حنظلة، وألقت محاضرة مسهبة عن ضرورة التسامح الاجتماعي.

حنظلة : وفي النهاية حملتني رزمة ثقيلة من النشرات والمطبوعات..
(يبدو حنظلة، وكأنه يجد صعوبة في حمل كل المطبوعات. يسقط بعضها، يحاول أن يجمعها فتسقط مطبوعات أخرى.. في النهاية يرميها كلها ويبدأ يدوس عليها غاضباً).

حرفوش : ثم واتتني فكرة لماعة. لماذا لانذهب إلى قسم «الرقابة الشعبية»

في جريدة «الوطن». وهي جريدة ذات نفوذ قوي، وواسعة الانتشار.

حنظلة : دخلنا مكتب سيد محترم، استقبلنا دون فظاظة.

حرفوش : أصغى إلى القصة ولم يتأفّف. دوَّن بعض الملاحظات، واستفسر عن شؤون الحياة الزوجية.

حنظلة : في ختام الحديث كان بشوشاً. وعدني بحرارة أن يجد لي حلاً، ويساعدني على فهم ماجرى.

حرفوش : قال له وهو يودعنا، اعتمد عليّ واشتر غداً جريدة «الوطن». **(بعد هذا الفاصل، يعودان إلى مايشبه الوضعية السابقة. حنظلة مهدود، تنتابه الضحكة، ولحظات الانشداه.. بينما يمارس حرفوش لهوه، وحركاته البهلوانية).**

صوت من الكواليس: الوطن.. اشترِ الوطن..الوطن..اشترِ الوطن.

حرفوش : **(يقفز في الهواء)** إنها الجريدة.

حنظلة : **(ينتفض ببلاهة)** الجريدة!

حرفوش : جاء الفرج يا حنظلة. سأخطف عدداً على الفور. **(يتناول عدداً من الكواليس).**

حنظلة : **(وهو ينهض بأمل)** أيكون هذا السيد قد تذكرني؟

حرفوش : **(وهو يحمل الجريدة)** الآن ستفهم سبب كل المصائب. **(وهو يقلب الصفحات)** الرقابة الشعبية.. الرقابة الشعبية.. ها هي الصفحة. **(يصفر)** ماهذا؟.. وحق الله إن قصتك تحتل رأس الزاوية.

حنظلة : **(فرحاً كالطفل)** أرني.. أرني..

حرفوش : انظر.. انظر.. مواطن اسمه حنظلة ثلاث نقاط يشكو امرأته للرقابة الشعبية.

حنظلة : يشكو امرأته!

حرفوش : دعنا نقرأ الموضوع أولاً.

حنظلة : طيب.

حرفوش : حدثت هذه القصة في مكتبي. دخل إليّ مواطن اسمه حنظلة ثلاث نقاط لاتبدو عليه البلاهة.. وإن كانت عباراته تعاني بعض التفكك. روى لي حكاية مسهبة عن مشكلته العائلية. وهي تقريباً الحكاية التقليدية. غاب الرجل عن البيت فترة، وحين عاد فارت الزوجة في وجهه، وأوصدت الباب دونه. وهو لايعرف لماذا.. ويبدو أن الحادثة سببت له صدمة عنيفة فأصبح يختلق أحداثاً غريبة، ويتصور أنه موضوع كوارث متلاحقة. طبعاً القصة كلها عادية، لكن ماهو طريف ومثير هو أن يلجأ هذا المواطن إلى زاوية الرقابة الشعبية كي تجد له حلاً. إلى أي وزارة يمكن أن نحيل هذه الشكوى؟.. أم نقترح على الحكومة إنشاء مديرية مختصة بالشؤون العاطفية! على أي حال، نرجو أن تقرأ زوجة المواطن حنظلة.. ثلاث نقاط، شكواه وأن تختار عمران عشها الزوجي لا خرابه بعد هذه الحكاية المسلية ننتقل إلى مشاكل المواطنين الجادة. ده.. ده.. ده.. وهذا كل شيء.

حنظلة : وتوقيفي؟!

حرفوش : هذا كل شيء.

حنظلة : وسرقة أموالي! وطردي من العمل!

حرفوش : هذا كل شيء.

حنظلة : **(يغضب بعنف)** لا.. إنهم يضحكون على ذقني. يجعلونني مسخرة. كذب واحتيال. أهكذا تعامل مشاكل المواطنين ومصائبهم؟. مسخرة المساخر! أصبحت مسخرة.. الكل يسخر مني، ويضحك على ذقني. واحد يدغدغني، والثاني يروعني بالمعاصي، والثالث يدوخني بالأحاجي والرابع ينصحني بالتسامح الاجتماعي، والخامس يحوّل كل مصائبي

إلي قصة هزلية سخيفة. **(يتوقف فجأة، تبرق عيناه)** على الأقل، بدأت أفهم شيئاً مؤكداً.

حرفوش : **(ملهوفاً)** ماهو؟.. ماهو؟..

حنظلة : كل هؤلاء يسخرون مني، ولايريدون أن أفهم لماذا يحدث لي مايحدث.

حرفوش : النور يضيء عقله. خطوة قصيرة، ونصل.

حنظلة : نعم.. متفقون كأفراد العصابة الواحدة. هذا غش فاضح.. هذا احتيال في وضح النهار. ألا توجد قوانين؟ ألا توجد حكومة؟

حرفوش : وجدتها يا حنظلة.. وجدتها. تلك فكرة باهرة.

حنظلة : ماهي؟..

حرفوش : أن نقابل رجال الحكومة.

حنظلة : **(تعود البلاهة المضطربة فتكسو وجهه)** نقابل الحكومة؟

حرفوش : المبنى قريب.. ولاشك أنهم يعرفون، وهم رعاة الرعية سبب مايلم بالمواطنين من مصائب. على كلٍّ، تلك هي مسؤوليتهم.

حنظلة : **(متردداً وقلقاً)** أتظن أن مشاغل هؤلاء الموقرين تسمح باستقبالنا؟

حرفوش : واجب الحكومة هو السهر على راحة المواطنين، وتحقيق آمالهم. لا.. لم يبق أمامنا إلا رجال الحكومة. في البداية لم أقدر صعوبة المشكلة. وإلا كان ينبغي أن نتوجه إليهم فوراً. هيا بنا.. هي خطوة ثم تفهم كل شيء. **(يجره وراءه.. بلهجة إعلانية)** عند الحكومة **(يتم تغيير الديكور والسير على إيقاع مارش عسكري).**

عند الحكومة

(تنتصب طاولة عالية. يجلس وراءها أشخاص الحكومة الأربعة. وهم: الأول: الشرطي في بزة عسكرية، الثاني: الطبيب بنظارتين ضخمتين، الثالث: الدرويش، الرابع: رب العمل. ومعهم سكرتيرة هي الزوجة. سنشير للأشخاص بالأرقام لكن ينبغي أن تكون هوية كل شخص واضحة، وأن يتذكره المتفرج. الفرق يكمن في تضخيم الملامح والمبالغة في أمارتها المميزة. السكرتيرة لعوب، يتصف تعاملها مع رجال الحكومة بالمجون. يدخل حنظلة بخطوات مترددة، محني الهامة بكثير من الاحترام والوقار. أما حرفوش فيِدخل بصورة ساخرة.. جذعه إلى الوراء، ركبتاه مثيتان قليلاً، ويداه على فخذيه. يتوقفان. حرفوش يلكز حنظلة لكي يبدأ الكلام.. فيرتبك وتأخذه رعدة.. يداري وضعه بمزيد من الانحناء والاتضاع. ينحيه حرفوش قليلاً، ويتقدم بطريقته الساخرة).

حرفوش : أيها السادة الموقرون. هذا صديقي حنظلة. حلت به مصائب أثقل من قامته الضئيلة. وهو لايعرف سبباً لها أو تعليلاً. فجاء إليكم آملاً أن يجد مايحتاج من الإيضاحات الحكيمة. والحلول الفعالة.

(يتبادل رجال الحكومة السجائر في حركات توقير شديد المبالغة، وتتشابك أيديهم بعلب السجائر، ويستحسن أن تكون ذات حجوم كبيرة. بعد السجائر تعود الأيدي فتتشابك بالولاعات من كل الأصناف، سحابة من الدخان ترتفع فوق رؤوسهم التي تتقارب، وكأنها في غمار مشاورة. الحوار هامس).

الشخص ٢ : سدّوا آذانكم، فأمامنا زبون نواح.

الشخص ٣ : الحزم.. الحزم فهو أوضح الإيضاحات.
(تباعد الرؤوس. يتحمحم الشخص الأول، ثم يوجه كلامه إلى حنظلة بلهجة خطابية).

الشخص ١ : نحن هنا.. في الليل والنهار، في الطقس البارد وفي الطقس الحار، كي نرعى المواطنين رعاية الأم للطفل الرضيع.

حنظلة : **(يتشجع حنظلة ويوجه الكلام إلى الشخص الأول)** رعاكم الله وحماكم. هذا قول يطمئن ويبشر بالفرج. حقاً كان الأولى أن أجيء إليكم على الفور. سأروي قصتي من أولها.

الشخص ٤ : أوجز أيها المواطن فوقت الحكومة ثمين.

حنظلة : حاضر.. حاضر.. **(يبدو أنه يبحث عن أسلوب مختلف في الكلام. فجأة)** إلا أن البداية هي أساس كل المصائب، وهي أول ما أتمنى أيها السادة الموقرون أن توضحوه لي. أنا رجل مستقيم.

الشخص ٣ : لا تتباه أيها المواطن.. فالحكومة لاتحب الذين يتباهون.
(حرفوش يضحك ضحكاً مكتوماً، حنظلة ينظر إلى الشخص الثالث ببلاهة، ثم يغمض عينيه كأنه يفر من ذكرى).

حنظلة : **(بعد تردد)** والله لا أقول إلا الصدق.

حرفوش : **(يلكزه)** إلى الوقائع يا صديقي.. إلى الوقائع.

حنظلة : **(مرتبكاً)** الوقائع.. نعم.. أيها السادة الموقرون.. كنت أسير في الشارع بكل أدب واحترام. وعند منعطف صغير هاجمني رجال الشرطة ثم رموني في الحبس. إني أسألكم أيها الموقرون، وفي يدكم السلطة والقانون، أهذه هي العدالة؟ وهل يجوز أن تقبض الشرطة على الناس دون ذنب؟
(تتقارب رؤوس رجال الحكومة للتشاور. الحديث هامس).

الشخص ٤ : قاعدتنا الأولية.. الوقاية خير من العلاج.

الشخص ٢ : وفي حالات الاستعصاء الدماغية عصا الشرطي هي المجدية.

الشخص ٣ : كنت أقول دائماً، يستحق رجال الشرطة أكثر مما يأخذون. **(تتباعد الرؤوس. يتحمحم الشخص الأول، ثم يوجه كلامه إلى حنظلة بلهجة خطابية).**

الشخص ١ : عندما ينعس المواطن ينام ملء جفنيه. ولماذا ينام المواطن ملء جفنيه؟ لأن الحكومة ساهرة كالأم الحنون. عليها أن تحفظ الشوارع هادئة، والبيوت آمنة، ورقدة المواطن هانئة. ولهذا يتحتم علينا، أن نعتقل الشبهة وشبهة الشبهة. وأن نسحق الشغب، وهو مايزال في الخواطر والنوايا. ماسمعناه منك أسعدنا، وأثلج صدورنا، لأنه البرهان على أن رجالنا الأشداء يؤدون واجبهم على أحسن وجه.

الشخص ٤ : أكدنا مراراً ونعود فنؤكد، حبس احترازي خير من مواجهة فتنة.

الشخص ٣ : والقضاء على نوايا الشغب يمنع ظهور الشغب.

الشخص ٢ : وإنها لحكمة من رجال الشرطة ألا ينسوا أبداً هذه القاعدة.

الشخص : أظن أن هذه النقطة صارت واضحة. فهل هناك نقطة أخرى؟

حرفوش : **(يضرب حنظلة على ظهره)** هيا إلى النقطة الثانية.

حنظلة : النقطة الثانية.. ولكن.

حرفوش : الأولى أشبعت وضوحاً. فإلى الثانية، ولاتنس أن وقت الحكومة ثمين. **(حنظلة يتطلع مرتبكاً إلى رجال الحكومة. نظراته هي بين الضراعة والخوف. إنه يبدأ بالتعرف عليهم تدريجياً..).**

حنظلة : **(بعد تردد)** طيب.. وهذه محنتي الثانية. زوجتي التي قاسمتها السرير نصف عمري. طردتني، وأغلقت الباب في وجهي. إني أسألكم أيها السادة الموقرون، ماذا أفعل؟.. أليس هناك إجراء فعال ضد هذا الجحود؟

(يتبادل الأشخاص السجائر بالطريقة الآنفة الذكر).

الشخص ٣ : **(بعد فترة فيما يحملق حنظلة فيه، وكأنه يتعرفه)** هن لبوس لكم وأنتم لبوس لهن. الأسرة هي الخلية الأساسية في جسد المجتمع إذا أينعت أينع المجتمع. لن تدخل الحكومة تحت اللحاف لتكشف مابينك وبين زوجك. لكن يسرنا أن تقف الزوجات الفاضلات معنا، وأن تعامل المرأة بالحزم زوجاً يفضل التسكع المشبوه على البقاء في كنف أسرته.

الشخص ٤ : المرأة التي تغلق الباب في وجه زوج متسكع تسهم في البناء الاقتصادي.

الشخص ٢ : تشجع التناسل، وتجدد شباب المجتمع.

الشخص ٣ : تقوي أواصر الأسرة، وتحفظها نقية طاهرة.

الشخص ٢ : وإنها لحكمة من الزوجة المواطنة ألا تنسى أبداً هذا القاعدة.

الشخص ٤ : فهل هناك إيضاح أوضح من هذا الإيضاح؟..

حنظلة : وضوح إيضاح الإيضاحات.

حرفوش : والثانية قتلت وضوحاً، فإلى الثالثة إن كانت هناك ثالثة.

حنظلة : **(بدأ يتعرف عليهم. لهجته تشوبها منذ الآن رنة الاستخفاف وهدوء من يكتشف الحقيقة)** الثالثة أدام الله فضلكم. لماذا تُسرق أموالي وفوق السرقة أسرح من عملي؟

(تتقارب رؤوس رجال الحكومة، الحديث هامس).

الشخص ٣ : إذا تراخوا، أو تذمروا، فاستنفر الهمم إلى الاستشهاد.

الشخص ٤ : أنت تعرف أيها المواطن أن قوة أي بلد لا تقاس بثروته فقط. وإنما بقدرة أبنائه على التضحية. إذا أنت لم تضحِّ وهو لم يضحِّ، فكيف نعمر هذه البلاد ونبنيها.

الشخص ٢ : إذا أنت لم تحترق، وهو لم يحترق، فمن أين تأتي النار؟

حنظلة : **(بغضب)** لماذا أنا؟ أنا دائماً من يضحي! أنا دائماً من يخونه الحظ! لماذا تتوافق كل الأشياء ضدي. كل الأشياء على الإطلاق؟ العمل، والحياة الزوجية، والمال والصحة، والحذاء.

وفوق هذا ما معنى هذه الآلة المعقدة من الكلمات الكبيرة والشعارات.. من الواجبات والتضحيات.. يجب.. يجب.. يجب ثم ماذا.. ثم ماذا.. ثم ماذا..

الشخص ٣ : ولاتفقد الرضى، فإننا لا نحب إلا الراضين.

حنظلة : ثم ماذا؟

الشخص ٤ : من يفقد الرضى، يضيعنا.

حنظلة : ثم ماذا؟

الشخص ٢ : ومن يضيعنا تجده الشرطة.

حنظلة : ثم ماذا؟

الشخص ٣ : ومن تجده الشرطة تنطبق عليه الزنزانة.

حنظلة : ثم ماذا؟

الشخص ١ : أعلنا ونعلن.. في هذه المرحلة المثقلة بالمسؤوليات والأخطار، يجب أن نكون كالبنيان المرصوص، تشدناأواصر القيم والمبادئ الثابتة. لن نسمح لمشاغب أو موتور، أن يمس وحدة المجتمع ومؤسساته. إن المسيرة المقدسة، مسيرة الشعب تحت الحكومة، والحكومة فوق الشعب ستمضي حاشدة مدوية، حتى تتحقق كل الأماني العظيمة.

حنظلة : ثم ماذا؟

الشخص ٣ : انتهت الجلسة.

(يخرج الأشخاص).

فوش : فوقت الحكومة ثمين..

(حنظلة يحملق فيهم، ويتابعهم، وهم يخرجون واحداً إثر الآخر..).

حرفوش : هل فهمت الآن؟

حنظلة : **(لهجة واثقة)** حقاً فهمت. ظمآن وريقي ناشف. وإذن هم أنفسهم. أنا أدور حول نفسي.. وهم أنفسهم.. متفقون

كأفراد العصابة الواحدة يسخرون من المساكين أمثالي، ويعملون كي نبقى في الجهل والظلام.

حرفوش : ثم ماذا؟

حنظلة : أين كنت طوال هذه الفترة؟

حرفوش : ثم ماذا؟

حنظلة : وكيف كنت أحيا؟

حرفوش : ثم ماذا؟

حنظلة : كانوا يسخرون مني دائماً وأنا غافل.

حرفوش : ثم ماذا؟

حنظلة : يضطهدونني، يسرقونني، يستغلونني وأنا غافل.

حرفوش : ثم ماذا؟

حنظلة : كانت حياتي السابقة كلها خدعة، وينبغي أن تتوقف هذه الخدعة.

حرفوش : ثم ماذا؟

حنظلة : أستحق ما جرى لي..

حرفوش : **(بلهجة إعلانية إلى الجمهور)** وهكذا استفاق حنظلة.. كانت الرحلة شاقة، لكنها تستحق العناء. فهم أخيراً أن سبب آلام حنظلة هو حنظلة، وأن حياة حنظلة لايغير مجراها إلا حنظلة.

حنظلة : كانت الرحلة شاقة، لكنها تستحق العناء.

حرفوش : **(بقفزة بهلوانية)** الاسم.

حنظلة : حنظلة بن حامد الحنظلي. مواليد الدرويشية.

حرفوش : المبدأ؟

حنظلة : كل ماحولي يعنيني، لأن فيه مصيري.

حرفوش : المبدأ؟

حنظلة : قولة امش الحيط الحيط وقل يا رب السترة لاتقود إلى السترة.

حرفوش : هذا ختام الرحلة.

(تعود فترتفع من الكواليس أصوات رجال الحكومة بشكل صاخب ومهدد).

أصوات رجال الحكومة : أعلنا ونعلن.. في هذه المرحلة المثقلة بالمسؤوليات، يجب أن نكون كالبنيان المرصوص، تشدنا أواصر القيم والمبادئ الثابتة. لن نسمح لمشاغب أو موتور، أن يمس وحدة المجتمع ومؤسساته. إن المسيرة المقدسة مسيرة الشعب تحت الحكومة، والحكومة فوق الشعب ستمضي حاشدة مدوية، حتى تتحقق كل الأماني العظيمة.

حرفوش : **(متحدياً)** وبدء الرحلة.

حنظلة : وبدء الرحلة.

(يكرران العبارة مراراً).

(ستار).

١٩٧٨

الاغتصاب

الى ناجي العلي،
ومهدي عامل،
وفواز الساجر.
الذين اغتالهم الظلام والزمن الصعب.

ملاحظات

* في بناء الحكاية، استفدت من عمل الكاتب الإسباني أنطونيو بويروبايخو «القصة المزدوجة للدكتور بالمي» وفي البداية كان مشروعي هو أن أعدّ نصّ بايخو ذاته للعرض المسرحي، ولكن سرعان ماعدلت عن الفكرة مؤثراً كتابة نصّ جديد حول قضيتنا المحورية، قضية الصراع العربي الإسرائيلي.

* ولعل من المناسب أن نذكر هنا، أن إلهام المسرح الحقيقي لم يكن في يوم من الأيام الحكاية بحدّ ذاتها، وإنما المعالجة الجديدة التي تتيح للمتفرّج تأمّل شرطه التاريخيّ والوجوديّ. وحين كان الأثينيون القدماء يتوافدون منذ الفجر، حاملين سلال طعامهم وشرابهم إلى المدرجات الحجرية حيث تقام المسابقات المسرحية، لم يكونوا يأتون ليسمعوا حكايات جديدة، بل ليتأملوا شرطهم الحياتي والاجتماعيّ في ضوء المعالجات التي يقدّمها المسرحيون العظام للحكايات المعروفة. كان الأثينيون القدماء يعلمون أن أغاممنون ستقتله زوجه وعشيقها وأن أورست سيقتل أمه، وما كانت سيرورة الأحداث هي التي تثير فضولهم وانتباههم، وإنما المعالجة التي يقدّمها إيسخيلوس أو يوريبيدوس لهذه الأحداث، والرؤية الفكرية التي تطفو من عمل كلّ منهما. وبذلك كان المسرح يتحوّل إلى مكان للحوار والتأمل، إلى مكان للحرية وازدهار الحياة المدنية. ويمكن أن يقال الشيء نفسه عن كل التجارب المسرحية العظيمة. هل كان الجمهور الأليزابيتي يتدافع إلى المسرح الشكسبيري لكي يعرف ما هي نهاية ماكبث أو ريتشارد الثالث أو أنطونيو؟.. بالتأكيد لا.. فقصص هذه الوجوه التراجيدية كانت معروفة ومتوفرة في الكتب التاريخية المتداولة في ذلك

العصر. لكنهم كانوا يتدافعون ليصغوا إلى الشعر، وليتأمّلوا واقعهم كما تشي به رؤى الكاتب وأفكاره.

لقد تعمّدت إيراد هذه الملاحظة لأن عدداً من نقّادنا لم يفهموا جوهر المسرح. وهم يعتقدون خطأ أن العنصر الأساسي في النصّ، وفي العمل المسرحي كله هو الحكاية. ولذا فإنهم يمسخون المسرح وإلهامه الأصليّ إلى تلخيصات سقيمة للحكايات، ويمسخون عملهم إلى مطاردة عقيمة لتقصّي أصل الحكاية.

لا.. ليس المسرح مكاناً للتشويق البوليسيّ. وهو لم يصبح كذلك إلا في فترة انحطاطه، مع ظهور الميلودراما والفودفيل وبقية ملاهي البورجوازية المنتصرة في أوائل القرن التاسع عشر. حين فقد المسرح إلهامه الحقيقي، وحين لم يعد مكاناً لتأمّل الشرط الإنساني وممارسة الحوار، اتّجه إلى قصّ الحكايات المسلّية، وعكف على تأليف الحبكات البارعة والخاوية معاً.

* في هذه المسرحية راويان وحكايتان. راوٍ إسرائيليّ وراوية فلسطينية. حكاية إسرائيلية وحكاية فلسطينية. والحكايتان تتداخلان، وتتبادلان النموّ. وإنّي أحلم بأدائين متميّزين. أداء يميّز الحكاية الإسرائيلية، وآخر يميّز الحكاية الفلسطينية. وكلا الأدائين ينبغي أن يكون جاداً ورصيناً. وإني أحذّر هنا من أيّ ميل لتقديم الشخصيات الإسرائيلية بصورة مضحكة أو فجّة، كما أحذّر من المغالاة، أو من عجز الممثل عن ضبط عدائيته للدور الذي يؤدّيه. إني أريد أداء واعياً ورصيناً. أما كيف يمكن تمييز الأداء في هذا المستوى، فإني أعتمد في ذلك على بحث المخرج والفرقة التي تقدّم العمل. ربما أسعفت تراتيل المزامير، أو أسفار الملوك، أو حتّى إيقاعية اللغة العبرية في استلهام أسلوبية متميّزة في الأداء. لا أدري كيف يمكن أن يتدبّر المخرج هذا الأمر، ولكني أجده ضرورياً.

أما المستوى الفلسطينيّ فإني أتصوّر الأداء فيه مبنياً على البساطة، ونوع من الغنائية المضمرة. وهنا أرجو ألا يحدث أيّ خلط بين الغنائية والخطابية. لا مجال في هذه المسرحية للخطابة. بل إن أي اقتراب من الأداء الخطابيّ يخرب العمل، ويسطّحه.

* لاشك أن المخرج مع ممثليه، والفنيين العاملين معه، هو مبدع له رؤيته، وله هواجسه الخاصّة التشكيلية والبصرية. وأنا لاأميل أبداً إلى الحدّ من حرية المخرج. فهي ضمانة جوهرية لاكتمال النصّ المشروع في عرض مسرحيّ مبتكر، وقادر على إثارة الحوار. ولكني أتمنىّ أن يفرد المخرج في رؤيته الخاصّة حيّزاً جوهرياً للأفكار. أن يجتهد كي يكون النصّ واضحاً، وكي يجرّ المتفرّج إلى الإصغاء الهادئ. أنا أعرف أن المتفرّج لدينا نافذ الصبر، هشّ الانتباه، وأنه بحاجة إلى محرّضات قوية، وأحياناً مفتعلة، كي يتابع عرضاً مسرحياً. وهو لايُلام في ذلك. لأن هناك أجهزة ومؤسّسات ضخمة تشكل استجابته وذائقته على هذا النحو. ومع هذا ربما حان الوقت كي نجد أساليب وإيقاعات في الأداء تساعد المتفرّج على التركيز، وعلى الاهتمام بالحوار الذي يتابع، وصولاً للتمتّع بالإصغاء إلى الأفكار التي تُطرح.

* هذه المسرحية نصّ مفتوح. أي أنه قابل للزيادات والتعديلات التي تمليها التطوّرات التاريخية. إن الرواية الفلسطينية لاتختتم قولها بل تتركه مُشرَعاً على أفق مفتوح. ولهذا فإن الإضافات والتغييرات التي تحقّق راهنية العرض ممكنة. ومن نافل القول أن مثل هذه الإضافات والتغييرات ينبغي أن تعمّق الرؤية العامة للمسرحية، لا أن تهدمها أو تجعلها ملتبسة، وحتى الرواية الإسرائيلية ـ وإن كان بدرجة أقل ـ هي نصّ غير مكتمل، والنقاش فيها يحتمل المزيد من المحاججة والتوتّر. باختصار.. إني أنظر إلى هذا العمل كمقطع مجتزأ من تاريخ عنيف، مثقل بالاحتمالات والتحوّلات. وإن كل عرض لهذه المسرحية يجب أن يرتكز على وعي بالتاريخ وما يحمل من تغيّرات، بحيث يستفيد من البنية المفتوحة للنصّ كي يطرح القضية في سياق تحوّلاتها الراهنة. وهذا يرتب على المخرج بحثاً إبداعياً، لا في التكوين الفنّي للعرض فحسب، وإنما في التاريخ وسيرورته أيضاً. إن الوعي التاريخي هنا يضاهي الإبداع الفني أو هو شرط جوهري له.

* تهيمن على فضاء المسرح ـ وهذا تصوّر شخصيّ غير إلزامي ـ كتلة ثقيلة من السلالم المعدنية الصدئة، والتي تفضي إلى مكتب مائير. غرفة واسعة، عُلّقت على جدرانها صور هرتزل وبن غورويون وبيغن، وخريطة لإسرائيل

التوراتية. المكتب يوحي بالفخامة والحداثة. له أبواب عديدة، وكلّها تحدث صريراً غريباً حين تُفتح وتُغلق. باب يفضي إلى غرفة داخلية حيث تتمّ الحفلات.. وباب يفضي إلى غرفة انتظار. هذه الكتلة التي تؤلفها السلالم والمكتب تبدو وكأنها تدهم فضاء المسرح، وتسيطر عليه.

ماعدا ذلك، فإني أقترح تحديدات رمزية للأماكن التي تتعاقب فيها الأحداث. يمكن أن تتمّ هذه التحديدات بتعدّد المستويات وقطع أثاث قليلة لها طابع الاستعارة، أو بلوحات متحركة على هيئة سواتر يرمز كلّ منها لمكان، أو حتى للافتات مكتوبة. المهمّ أنه لاداعي على الإطلاق لخنق الفضاء بركام من الأمكنة الواقعية المتخمة بالأثاث. والحضور الرمزيّ للمكان يساعد على مرونة الحركة من جهة، كما يبرز فظاظة الكتلة الواقعية المؤلفة من متاهة السلالم والمكتب من جهة أخرى.

الإضاءة تلعب دوراً هاماً في تتابع الأحداث، وتغيير مواقعها.

سفر الأحزان اليومية / بداية...

(طابون في ركن من الدار. الفارعة ترقّ أقراص العجين، وتخبزها. قربها وعلى حشية بالية، مددت طفلاً ملفوفاً بالأقمطة).

الفارعة : **(تخرج رغيفاً ساخناً، وتشمه)** هل تشم هذه الرائحة يا وعد! تلك هي رائحة الخبز الطازج. استنشقها بعمق، وخزِّنها في ذاكرتك. لاشيء يضاهي رائحة الخبز، إلا رائحة الأرض المرويّة. هاتان الرائحتان هما ألطف وأنبل روائح الكون. إنهما النعمة التي تغذي الشوق إلى البيت والحب والعمل. **(يهمهم الصغير لاهياً)** لا.. لا تقل إن عمتك مخرِّفة، وإن الوقت مبكر على الدروس. من يولد كالبضاعة المهربة لايستطيع أن يتبع قوانين النمو الطبيعية! قل لي.. أليس القانون الطبيعي أن ترضع حليب أمك سنة على الأقل! ولكن كم يوماً رضعت من ثديي أمك؟ عشرين يوماً لا أكثر، ثم فُطمت عنها. وبدأت طورك الثاني، أترى.. أنت محكوم بالنمو وفق قانون لا يخص أحداً سوانا! عليك أن تنمو كما ينمو الأطفال في الخرافات. ومبكراً يجب أن تفهم الشوق، وأن تتعلم الكلمات التي تناسب قصتك. حكى الولد وعد، وعمره بالشهور لا بالسنوات.. حكى قال: أنا

وعد بن محمد الصفدي، عرفت قبل الولادة قصتي.. حين كنت في بطن أمي، طُردت مرتين من بلدي. ولما حانت ساعة ميلادي، عزَّ علي أن أرى النور في أرض غربة. فتمسكت بجدار الرحم، وعاندت حتى استطاعت أمي، أن تأتي، وتلدني في أرضي.. أنا وعد بن محمد الصفدي كافأت أمي بولادة سهلة. ويوم ولدت نسف الاحتلال خمسة بيوت في الحارة المجاورة، فأطلقت صرختي الأولى. وقبل أن أتمَّ أول شهوري، انتزعوا أمي مني، ورموها خلف الجسر.. ظلت تولول وتعصر صدرها، حتى تدفق خلفها نهر من الدموع والحليب. حليبي الذي خزنته مؤونة لي. لم أخاطر بالرحيل مع أمي خشية ألا يسمحوا لي بالعودة إلى وطني. بقيت في حضن عمتي.. وعمتي تريد أن أنمو كما ينمو الأطفال في الخرافات. أن أتعلّم الشوق والكلمات وعمري بالشهور لا بالسنوات..هكذا ستحكي يا وعد.. وستضيف، حين كان عمري سبعة شهور سجنوا عمي إسماعيل.. وعمتي تتمنى أن أكون حين أكبر مثل عمي إسماعيل، ومثل جدي حسين الصفدي. أما أبي.. ولكن.. لا.. لندع أباك في همّه. **(ترتب الأرغفة، وهي تتلذذ برائحتها)** هذه هي رائحة البركة.. فهل نقشتها في ذاكرتك! يا الله.. هل نذهب إلى الخالة دلال؟

(تتلاشى الإضاءة).

ترتيلة الافتتاح

(في إضاءة خافتة، يتقدّم الدكتور أبراهام منوحين على الخشبة).

الدكتور : هذه مملكة العصاب والجنون. الرأس كلّه مريض، والقلب بجملته سقيم. من أخمص القدم إلى الرأس لا صحّة فيه. بل كلومٌ وحَبَطٌ وجراحٌ طريّة لم تعصب، ولم تُليَّن بدهن.

(ينسحب الدكتور منوحين. بروق ودويّ انفجارات متابعة. قوة إسرائيلية تنسف عدداً من البيوت العربية. مع الانفجار الأول تظهر الأمّ سارة بنحاس مفعمة الحماسة والهياج. يتبعها ويتحلق حولها مائير وإسحق وجدعون وموشي ودافيد.. الانفجارات متواصلة).

الأم : كل مكان تدوسه بطون أقدامكم يكون لكم. من البرّيّة ولبنان، من النهر، نهر الفرات إلى البحر الغربي يكون تخمكم.

مائير : وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً، فلا تستبقِ منها نسمة ما، بل تحرّمها تحريماً.

جدعون : أبسلهم إبسالاً.

موشي : اذبحهم ذبحاً.

الأم : ولا تعفُ عنهم. بل اقتل رجلاً وامرأة، طفلاً ورضيعاً، بقراً وغنماً، جملاً وحماراً.

مائير : عليكم ألاّ ترحموا حتى تدمّروا نهائياً مايسمّى بالثقافة العربية، التي سوف نبني حضارتنا على أنقاضها.

(برق ودويّ انفجار أخير ومديد.. تنسحب المجموعة).

سفر الأحزان اليومية / المقطع الأول..

(تدخل الفارعة حاملة الطفل على صدرها. وفي يدها الأخرى كيس فيه أرغفة طازجة وحاجات الطفل. تبدو دلال كئيبة ونافدة الصبر.. تتناول منها الطفل).

دلال : اسم النبي حارسك.

الفارعة : مدديه على السرير. ملَّ من دروسي فنام.

دلال : كم تأخرت!

الفارعة : حملت لك خبزاً طرياً.

دلال : ومن يجد شهية للطعام!

الفارعة : ستجدين الشهية، وستأكلين. **(تبدأ في وضع الطبق، وفرش أرغفة الخبز عليه)** انظري كيف غارت الحمرة في خديك. إذا لم تجدي شهيتك، فإن أخي لن يجد مايحضنه حين يخرج.

دلال : هل عرفت شيئاً عنه؟

الفارعة : ككل يوم، ذهبت واستفسرت. مازالوا في فرع التحقيق. لو نقلوهم إلى السجن لعرفنا فوراً. **(تضع على الطبق زيتاً وزعتر)** هذا هو الزعتر، وهذا هو الزيت. **(وكأنها تهتف في مظاهرة)** زيت زعتر، زعتر زيت يلعن أبو الشين بيت. يا الله.. انضمي إليّ ولنبدأ مظاهرة منزلية. **(ترفع قبضتها وكأنها تسير في مظاهرة)** زيت زعتر، زعتر زيت يلعن أبو الشين بيت.

دلال : وماهذا الشين بيت؟

الفارعة : ألم تسمعي بالشين بيت من قبل!

دلال : لا أظن..

الفارعة : إنه الجهاز المسؤول عن الأمن في الأرض المحتلة. الجهاز الذي يسجن، ويعذب، ويعد، ويحصي أنفاسنا.

دلال : أعوذ بالله..

الفارعة : رددي معي إذن.. زيت زعتر، زعتر زيت يلعن أبو الشين بيت.

دلال : على صدري حجر ثقيل. يحدثني قلبي أن إسماعيل ليس بخير..

الفارعة : **(وهي مازالت تروح وتجيء لإعداد العشاء)** دعك من الوساوس. أعرف إسماعيل كما أعرف نفسي. إنه صخرة، والإسرائيليون لن يغنموا شيئاً من مناطحة الصخر.

دلال : وهذا مايزيد خوفي. لن يحتملوا كبرياءه وعناده.

الفارعة : هل كنت تفضلينه خرعاً يبول في سرواله.

دلال : لا أدري ماذا أفضّل! كل ما أريده هو أن يعود. لو تعرفين كم أشعر بالوحشة والخوف في غيابه! لم يمضِ على زواجنا إلا ثلاثة أشهر. وحين ضمتنا هذه الغرفة في ليلتنا الأولى، أحسست أني أضعف من أن أتحمل سعادتي. لم تهمني معارضة أبي، ولا لغط الناس حولي. كنت مأخوذة بالأيام البهية التي سنحياها معاً. أنا وهو وهذا العش. لكنه أخفى عليّ سرّه، ولم يخبرني شيئاً عن حياته الأخرى.

الفارعة : أراد ألّا يفزعك، أو ينغّص فرحتك. لقد تردد طويلاً قبل أن يعزم على الزواج.

دلال : نعم.. تردد طويلاً، وكدت أيأس. أحياناً كنت أشك في حبه، فتسودُّ الدنيا في عيني، وأشعر أني ضائعة.

الفارعة : وكان يتنهد وهو يتحدث عن حبه. يحكي لي عن دفقة

الحياة والبراءة.. عن طالبة اسمها دلال، وأبوها تاجر كبير، يرفض مصاهرة معلم متواضع الأصل والمال. وفي حديثه، كان يخلطها بالأرض والمطر والزيتون. ثم يغمغم.. إنها أغلى من أن أورطها ببؤسي ومخاطري.

دلال : قال لي أبي،إذا واصلت عنادك فانسي أن لك أباً أو بيتاً. أجبته إذا كان هذا هو الثمن فإني أقبله راضية. كانت عيناه ناراً وبغضاً. لولا أمي وخوفه من الفضيحة، لذبحني على عتبة الدار. لكنه بصق ودمدم، اغربي عن وجهي. بالنسبة لي أنت ميتة. خسرت أهلي وبيتي وما أسفت. وحين ضمنا هذا العش طويت الماضي، وتطلعت إلى المستقبل. كل صباح كنت أحس أني متخمرة وناضجة. وقبل أن يعتقلوه بيومين تحدثنا عن طفلنا الأول. سميته «زاهر» وسماه «جهاد». كنت متيقنة أن في بطني بذرة تتكون. ولكن لم يكن هناك إلا الفراق.

الفارعة : **(تضع إبريق الشاي، وتجلس على الأرض.)** لاتتحدثي عن الفراق. سيعود وستتعبين من الإنجاب. ولكن الخلفة تحتاج إلى بنية متينة.. يا الله يا دلال.. مدّي يدك.

دلال : لا أجد أي قابلية.

الفارعة : مفتاح اللسان كلمة، ومفتاح البطن لقمة. يا الله.. لاتجعليني أزعل.

(تحاول دلال أن تأكل.. عيناها غائبتان).

دلال : أتعرفين! لقد فكرت طويلاً خلال هذه الأيام. لم نكن متعادلين. استغرق الحب كل وجودي. أما هو فلم يستغرق حبه إلا هامشاً من حياته.

الفارعة : لا تظلميه يا دلال. كادت عزيمته أن تضعف من شدة الحرص عليك. كنتِ الضوء في حياته، وكان صوته يرتعش

كلما أوصاني بك.

دلال : لماذا لم تكفِهِ سعادتنا إذن!

الفارعة : ومن يستطيع أن ينجو بسعادته في هذه الظروف!

دلال : ألم تكوني شاهدة! كنا سعداء حقاً. الليالي أعراس والصباحات أحلام ولهو. لقد خاطر بالسعادة الملموسة من أجل أحلام غامضة كالضباب.

الفارعة : وفي ليالي العناق.. ألم تلاحظي أن وجه إسماعيل كان يشحب أحياناً، وأحياناً كان يدق قلبه بعنف. وربما فكَّ عناقه، وهمس.. سأرتاح قليلاً.

دلال : هل كان يروي لكِ هذه التفاصيل!

الفارعة : لا.. كان أعفَّ من الخوض في هذه التفاصيل. ولكني أعرف إسماعيل وأعرف أن الواقع كان يصحبه إلى الفراش. يشحب وجهه حين يرى المداهمات، ويدق قلبه حين يتناهى وقع أقدام الدورية، ويشعر بالتعب حين يسمع الغارات تدك القواعد والمدن. كان يرى ما لاترين، وكان يعلم أن عناقكما محاصر.

دلال : أكان هذا الشقاء كله يشاطرنا الفراش!

الفارعة : تلك هي الحقيقة يا دلال.

دلال : ولكن لو رضي بالفرح المتاح لنا، وانزوى عن المشاكل. حولنا آلاف يواصلون الحياة، ويعيشون بأمان.

الفارعة : إنه أمان كاذب. لم تغتصب إسرائيل بلادنا كي توفر لنا الأمان. انظري حولك جيداً. إن واقعنا مرعب. موت واعتقالات.. بيوت منسوفة وأطفال بلا أمهات. أتريدين أن يولد ابنك بلا هوية وبلا أمل! هذا الطفل النائم! لغموا حياته قبل أن يولد. إنه ينام الآن فوق لغمه. هو ونحن.. إننا جميعاً نعيش وسط الرعب. فكيف نشعر بالأمان؟ لا.. ماكان

إسماعيل يستطيع أن يقبع في هذه الغرفة، وينزوي عن المشاكل. في حالتنا، الانزواء عن المشاكل يعني الفناء البطيء.. ونحن لا نريد أن نفنى.

دلال : لا أجهل المأساة التي نعيشها، رغم كرهي للسياسة وابتعادي عن أخبارها. ولكن.. كيف أعبر لك.. يجب أن تحبي كي تفهمي مشاعري.

الفارعة : ومن قال لك إني لا أحب!

دلال : هل تحبين حقاً؟.

الفارعة : نعم أحب.. بل أستطيع أن أقول إني متزوجة.

دلال : أهي إحدى دعاباتك! ما هذه القصة؟ ومتزوجة أيضاً!

الفارعة : معك حق أن تستغربي.. هذا سر لا يعرفه إلا إسماعيل.. وماكنت لأقوله لولا معزتي لك، وحرصي على أن تشدي عودك.

دلال : ولمَ السرية! هل هناك مايجب إخفاؤه؟

الفارعة : لم يمهلنا الوقت كي نوثق العهد الذي تعاهدناه.

دلال : ماذا حدث؟.

الفارعة : إنه في السجن.

دلال : منذ وقت طويل؟

الفارعة : منذ ثماني سنوات وأربعة أشهر وتسعة أيام.. وإذا شئت أستطيع أن أضيف الساعات والدقائق أيضاً.

دلال : يا رب السماوات.. كل هذه المدة! وكم حكمه؟

الفارعة : مؤبد..

دلال : مؤبدا! أي مدى الحياة!

الفارعة : نعم مدى الحياة.. ومع هذا ها أنا أعيش وأعمل وأنتظر..

دلال : وماذا تنتظرين؟

الفارعة : أن يخرج..

دلال : كيف؟.. أتتوقعين معجزة؟

الفارعة : ولِمَ لا!. نحن شعب محكوم بالعيش وفق منطق مبتكر لايخص سوانا. علينا أن نتوقع المعجزات كما نتوقع الأحداث اليومية المألوفة.

دلال : ألا تخدعين نفسك؟

الفارعة : حتماً لا.. إذا تسربت إلينا فكرة المستحيل ضعنا. لانستطيع أن نمضي من يوم إلى يوم، إلا إذا أيقنّا أن كل أحلامنا ممكنة، وأن المعجزات تجلس منتظرة مجيئنا غداً أو بعد غد.

دلال : يا الله ما أقواك، وما أشد إيمانك! ولماذا حكموا عليه بالمؤبد؟

الفارعة : لأنه اشتبك مع دورية إسرائيلية. كانوا أربعة.. قتل واحد وجرح آخر، وقبضوا على عمر ورفيقه مروان. وكلاهما حكم عليه بالمؤبد. في البداية كانوا في سجن الفارعة، ثم نقل عمر إلى سجن الرملة.

دلال : الفارعة!

الفارعة : نعم.. ولكثرة ماترددت على سجن الفارعة، وغنيت ساهية عالفارعة عالفارعة، سماني إسماعيل الفارعة.. وتبعه الناس ظانين أن اللقب يعني الحاسرة والقوية أخت الرجال.

دلال : لم يخطئوا فأنت حقاً أخت الرجال.

الفارعة : آه لو تعلمين، ما هذه إلا قشرة برّانيّة نمّيتها بالعزيمة والصبر. لقد دُفعت إلى بحر الأحزان قبل أن أتعلم السباحة. كان عمري ستة عشر عاماً حين فقدت أبي وفارسي الأول.. ألم يحدثك إسماعيل عن أبيه؟

دلال : مرة أو مرتين.. أعلم أن إسماعيل كان في العاشرة من عمره، حين فقد أباه.

الفارعة : نعم.. استشهد في أيلول السبعين، وهو يقاتل في مخيم الوحدات. كان رجلاً مجروحاً، انضم إلى العمل الفدائي

بعد هزيمة حزيران. حدّثنا عن عمليات كثيرة شارك فيها، لكنه استشهد في عمان. كان محمد في الثالثة عشرة، وإسماعيل في العاشرة.. ولم تتحمل أمي المرض والفاجعة فتبعته بعد أشهر. وجدت نفسي فجأة كبيرة العائلة. كان ينبغي أن أرعى محمد وإسماعيل، وأن أتيح لهما متابعة الدراسة. اكتفيت بالشهادة المتوسطة، وبدأت أعمل كل شيء، كي أعوض الولدين عن أبيهما.. نجحت مع إسماعيل وكان دائم التفوق.. ولكني لم أنجح مع محمد.

دلال : والشاب الذي ارتبطت به!

الفارعة : كان عُمر رفيق أبي في مجموعته الفدائية.. جاء به إلى البيت مرة، وحدثنا عنه كثيراً. كان شاباً أنهى دراسته الجامعية، لكنه ترك كل شيء وانضم إلى المقاومة. بعد رحيل والدي قدم لي مساعدة كبيرة.. ووسط الفاجعة كان ينمو بيننا شعور جميل وأخضر. أول مرة أمسك يدي، وغمر وجهي بنظراته الدافئة والعميقة، انحلّت قواي، وذاب قلبي.. كان يغيب ثم يعود فجأة، فتورق روحي. كان يحب أخوي حبه لأخوته، وفي آخر مرة التقينا فيها نذرت نفسي له، وتعاهدنا على الوفاء مهما حدث.. ومازلت وفية..

دلال : لم أكن أعلم أنك تتحملين كل هذه الآلام.

الفارعة : هذه هي حياتنا يا دلال.. رويت لك كل هذا، كي تعرفي أنك لست الوحيدة التي تحب، والتي سجن حبها.. حولنا الآلاف من النساء المنتظرات. ولكننا نتعلم كيف نصبر، وكيف نتهيأ للحظات الفرح القادمة. أحياناً أحس أنك حولت حبك إلى قفص ذهبي تقيمين في داخله، يجب أن يقوي الحب أجنحتنا لا أن يضعفها. لقد حان الوقت كي

نخرج من القفص، ونتلمس الواقع. لن يخفف شقاءك إلا الكفاح ضد شقائنا جميعاً.

دلال : ماذا يمكن أن أفعل؟

الفارعة : هناك عمل كثير لمن يحزم أمره.

دلال : أتعنين المقاومة؟

الفارعة : نعم.. المقاومة.. وكم ستكون فرحة إسماعيل كبيرة! ليس هناك مخرج آخر يا دلال.

دلال : لا أظن أن لدي قوتك أو إيمانك. تصورت حياتي على نحو آخر.

الفارعة : لا ينقصك الإيمان ولا القوة.. لكنك تسجنين نفسك في قفص **(وأوأة الطفل)** استيقظ الأمير.. **(تثب دلال وتحمله)** لاعبيه ريثما أحضّر له الحليب.

دلال : اِي تعال.. لا.. لا.. جائع! الأزعر جائع.. حالاً.. حالاً سيأتيك الحليب.. أنت وعد أم وغد..

الفارعة : لن تسمح له عمته أبداً أن يكون وغداً.

دلال : أتسمع.. لايمكنك أن تحوص.. العمة وراءك.

(يطرق الباب بعنف)

دلال : لا أدري من يدق الباب.

(تهرع الفارعة إلى الباب، ومعها أنبوب حليب ورضّاعة)

الفارعة : من؟

جدعون : **(من الخارج)** افتحوا.. أمن إسرائيلي.

دلال : ماذا نفعل يا عمة؟

الفارعة : تماسكي ولا تقولي شيئاً.

جدعون : **(من الخارج)** افتحوا وإلا حطمنا الباب.

(تفتح الفارعة الباب بهدوء. يقتحم جدعون وموشي ودافيد الغرفة، وهم يشهرون أسلحتهم).

الفارعة : على مهلكم.. أفزعتم الطفل.
جدعون : أهذا بيت إسماعيل الصفدي؟
الفارعة : نعم.. وإسماعيل الصفدي معتقل لديكم.
جدعون : **(نحو دلال)** هل أنت زوجته؟
الفارعة : **(تتاول منها الطفل وتحميها بظهرها)** ماذا تريد منها؟
جدعون : هل أنت زوجة إسماعيل الصفدي؟
دلال : نعم..
جدعون : **(إلى موشي)** خذها.
الفارعة : إلى أين؟
جدعون : ليس شغلك.
الفارعة : خذوني بدلاً منها.
موشي : **(يزيح الفارعة بعنف فتكاد تسقط، ويمسك بدلال)** ابتعدي... نريد زوجته.
الفارعة : كسر الله يدك. كدتُ أرتمي فوق الطفل.
جدعون : اخرسي.. من أنت؟
الفارعة : ابنة عمها.
جدعون : وهذا الطفل؟
الفارعة : أتريدون اعتقاله؟
جدعون : تأدبي وأجيبي.. أهو ابنها؟
الفارعة : لا.. إنه ابني.. هل تريد اعتقاله؟
جدعون : سيأتي وقته.. يا الله..

(موشي ودافيد يجران دلال، ويتجهان نحو الباب).

دلال : إني خائفة.
الفارعة : لا تخافي يا دلال. إنكِ أقوى منهم.. ارفعي رأسك وتماسكي. إني أنتظرك هنا. **(يختفي الجميع)** كلنا ننتظرك هنا. كم خاف عليها، وكم حاذر أن يوقظها! ولكن اليقظة

الآن ستكون خشنة ومرعبة. وأنتَ يا صغيري! هذا أيضاً يجب أن تنقشه في ذاكرتك.. لا.. لا لم أنسَ أنك جائع. من أجل عينيك نقاسي ما نقاسيه. يا الله.. ها هو الحليب.. ماذا حكى وعد وعمره بالشهور لا بالسنوات..حكى قال: الدجاجة لها بيت.. بيت الدجاجة اسمه القن.. العصفور له بيت. بيت العصفور اسمه العش.. الأرنب له بيت. بيت الأرنب اسمه الجحر.. أما أنا الفلسطيني فلا بيت لي.. لأن بيت الفلسطيني يحيا فيه الآن عدو الفلسطيني.. ومن هو عدو الفلسطيني..

(تتلاشى الإضاءة تدريجياً).

سفر النبوءات / المقطع الأول

(ضوء على الدكتور أبراهام منوحين. إنه في مكان يشبه الحديقة).

الدكتور : من يفرّج عني وجعي، فإن قلبي فيَّ كئيب. آه يا مملكة العصاب والجنون. أبناؤك ينزفون وليس من يسعفهم، لأن الطبيب نفسه سقيم ويحتاج من يداويه.

(تدخل راحيل بنحاس زوجة إسحق بنحاس، حاملة زهوراً وكيس تسوّق. إنها شابة جميلة).

الدكتور : ينبغي أن أذيع مالديّ، لا لأضيف جديداً إلى علم الأمراض النفسية، ولكن لأن السكوت قد يعني التواطؤ. إني طبيب عجز عن إسعاف مريضه، لأنه لم يستطيع أن يتغلّب على نفوره وإعيائه الداخليّ. في حياتي المهنيّة كطبيب للأمراض النفسيّة، مرّت عليّ حالات كثيرة أشعرتني بالأسى أو الامتعاض. لكن تلك أول مرة أشعر بهذا النفور الذي يصاحبه إعياء كئيب. أيمكن أن نسمّي ذلك خيانة مهنية؟ ربما.. ومن موقعهم هو بالتأكيد خيانة. ولكن في هذا التاريخ المثقل بالأكاذيب، أليس للخيانة وكلّ النعوت الأخرى معنىً مزدوج.. ألم يقولوا لإرميا لا تتنبأ لكي لاتموت بأيدينا.. ولكن مَن الإنسان الحكيم فيفهم هذا! إن مريضي رجل

عاديّ يسكن على مقربة من عيادتي. أعرف زوجته جيّداً.

راحيل : **(وقد أصبحت إلى جوار الدكتور)** منذ سنتين عالجني من أزمة عصبية حادّة.

الدكتور : كانت تصيبها نوبات من الاندفاع يعقبها همود كئيب. فقدت خطيبها في إحدى نزهاتنا الحربيّة، فانكفأت على حزنها والعناية بوالدها المريض.

راحيل : وحين مات والدي وجدت نفسي أغرق في الكآبة والمرض.

الدكتور : بعد عدد قليل من الجلسات تحسّنتُ وتعلقتُ به.

الدكتور : هذا يحدث أحياناً.

راحيل : صدّني ببرود وصرامة.

الدكتور : كان ذلك ضرورياً.

راحيل : ذات يوم كنت أجلس في هذه الحديقة. لاحظ إسحق أني أبكي، فاقترب مني. كان رجلاً مجرّباً يوحي بالأمن والثقة. قال لي سأشفيك يا مريضتي الصغيرة، وبعد أيام تزوجنا.

الدكتور : انقطعت عن العيادة، وبدا لي أنها شفيت تماماً.

راحيل : صرت أتحاشى الدكتور، وأرتبك حين ألتقي به.

الدكتور : ذلك اليوم، كانت عائدة من السوق. حيّتني وقالت..

راحيل : أحياناً أحنّ إلى هدوء العيادة، ومقعدها المريح.

الدكتور : أتحنّين إلى المرض؟

راحيل : بل إلى التعاطف والـ.. ألا تريد واحدة من زهوري؟

الدكتور : إنهاأبهى وهي في يدك. أهناك متاعب عائلية؟

راحيل : لا.. إن زوجي رائع.. وقد عشنا أوقاتاً حلوة.

الدكتور : والآن؟

راحيل : لدينا طفلٌ رائع أتمنّى أن تراه.

الدكتور : لو تشرّفت بمعرفة زوجك لزرتكم.

راحيل : سأعرّفك به. إنه دائماً مشغول.

الدكتور : مع وجود الصغير لا أخشى عليك من الوحدة.

راحيل : ولكن حماتي.. لن أصدِّع رأسك بالسخافات. هل أستطيع أن أدعوك للعشاء ذات يوم؟

الدكتور : هذا لطف بالغ.

راحيل : سأتلفن لك قريباً.

الدكتور : اتفقنا.

راحيل : إلى اللقاء إذن.

الدكتور : إلى اللقاء.

(تمضي راحيل، ويبقى الدكتور منوحين).

الدكتور : بدت قلقة، وكأنها تريد أن تفضي بشيء ما. خشيت أن تعاودها نوبات الاندفاع التي يعقبها همود كئيب. كان لديها طفلٍ عمره أشهر قليلة. وكانت حماتها امرأة مليحة ومتكبرة. القلب أخدعُ كل شيء وأخبثُه، فمن يعرفه؟!

(ينسحب الدكتور منوحين).

سفر النبوءات / المقطع الثاني

(غرفة الجلوس في بيت إسحق بنحاس، تظهر الأم وهي تهدهد طفلاً في المهد).

الأم : شطّفنا المحبوب وحفّضناه. صرت تعرف جدّتك.. آ.. ماذا تريد؟ أبوك أيضاً كان يضحك حين يريد شيئاً من أمّه. أغنية أم حكاية! هل نكمل حكاية داود الجميل؟ أنت تفهم ما أحكيه لك. أعرف.. أعرف أنك تفهم.. ونظر جوليات داود، فاستخفّ به لأنه كان غلاماً أشقر جميل المنظر. وقال جوليات لداود.. هلمّ فأجعل لحمك لطير السماء ووحش القفر. وكان لما نهض جوليات، وازدلف لملاقاة داود، أن داود مدّ يده إلى الكتف وأخذ منه حجراً، وقذف بالمقلاع، فأصاب جوليات، وانغرز الحجر في جبهته فسقط على وجهه. ولم يكن في يد داود سيف. فركض داود ووقف على الفلسطيني. **(تدخل راحيل)** وأخذ سيفه، وقطع به رأسه.

راحيل : ترفّقي بالطفل يا أمّاه. أذناه الغضّتان لا تتحمّلان هذه العبارات.

الأم : إنها قصّة سميّه داود.

راحيل : سيسمعها كثيراً حين يكبر.

الأم : يجب أن يحفظها قبل أن يعيها. لقد أحسنت تربية ابني،

وسأحسن تربية حفيدي.

راحيل : طيّب.. طيّب، حملت لك بطاريّات للراديو.

الأم : شكراً.

راحيل : **(تنحني على المهد)** وبنّوتتي الحلوة كيف مزاجها. فرحانة لأن ماما عادت!

الأم : **(بجفاف)** لاأحب أن تؤنّثيه.

راحيل : أترى كيف تحرص الجدّة على ذكورتك؟ أرني أشياءك الصغيرة إذن. لاشكّ أنّها مبلّلة.

الأم : غيَّرت له منذ قليل.

راحيل : لا تترك لنا الجدّة ما نفعله. هل تلفن إسحق؟

الأم : لا.. لم يتلفن. ولكن جاءتك رسالة.

راحيلة : رسالة!

الأم : إنها على الطاولة.

راحيل : **(تتناول الرسالة)** غريب.. إنها من عمتي التي تعيش في أمريكا. منذ وفاة أبي لم تكتب لي.

الأم : خير لها أن تأتي وتعيش في وطنها بدلاً من الثرثرة عبر الرسائل. كم أزدري هؤلاء الذين يعتقدون أن الوطن يكفيه لغو الرسائل وبعض المال.. **(وأوأة الطفل)** أعرف.. أعرف أن وقت الحليب حان.

راحيل : سأذهب لإعداده.

الأم : اقرأي رسالتك بهدوء **(تهمّ بالذهاب، ثم تتوقف فجأة)** متى تنتهي إجازتك؟

راحيل : تعرفين أن إجازتي مفتوحة.

الأم : ألا تفكّرين في العودة إلى المدرسة؟

راحيل : هل تريدين التخلّص مني؟

الأم : أشعر أن العودة للعمل ستفيدك. إنك تقريباً لا تخرجين.

راحيل : إني مبسوطة في البيت.
الأم : وإسحق؟ هل هو مبسوط؟
راحيل : ولماذا تسألين؟
الأم : أراه معظم الوقت متجهّماً.
راحيل : لاشيء. إنه متعب قليلاً. يبدو أن العمل كثير هذه الأيام.
الأم : هل يتذمّر من العمل؟
راحيل : لا.. إنه متعب فقط.
الأم : عليه ألا يتذمّر من عمله. وعليك أن تزيلي تعبه.
راحيل : إنه لايتحدث أبداً عن عمله. لاتقلقي.. إنه بخير.
الأم : سأذهب لتحضير الحليب.

(تنصرف راحيل إلى قراءة الرسالة. يدخل إسحق. تخفي الرسالة، وتخفّ لملاقاته).

إسحق : مرحباً يا عصفورتي.

(تحتضنه راحيل بعنف. يمسح على ظهرها بضيق وحرج).

راحيل : إني سعيدة لأنك جئت.
إسحق : مابك؟
راحيل : لاشيء. مشتاقة لك. هل تبقى الليلة معنا؟
إسحق : إلا إذا استدعوني.
راحيل : عظيم. سأحضر لك الحلوى التي تحبّها.
إسحق : والمحبوب كيف حاله؟
راحيل : رائق جداً. انظر كيف يبتسم.
إسحق : هل تبتسم لبابا.. تريد أن ألاعبك.. تعال..
راحيل : حين دخلت كانت ماما تسألني عنك. لا يفوتها شيء.
إسحق : تعرفين تعلّقها بي **(تدخل الأمّ ومعها الرضّاعة)** أهلاً ماما.
الأم : أهلاً يا بني.
راحيل : أماه.. سيتعشى إسحق معنا.
الأم : فعلاً!

إسحق : إني اليوم محظوظ. العشاء تطهوه أمي. والحلوى تعدّها زوجتي. من مثلي! وفي الانتظار سأعزف على الكمان مسرَّتي.

الأم : **(بامتعاض)** هذا الكمان!. **(تتردّدلحظات، ثم تخرج).**

إسحق : منذ زمن طويل لم أعزف عليه. نفسي مترعة بالبهجة، وأريد أن أحتفل.

راحيل : أتريد حقّاً أن تحتفل؟

إسحق : ولِمَ لا.. انظري.. إن دافيد يهزّ يديه وكأنه يرقص. أتحتفل أنت أيضاً؟

راحيل : هل تشعر بالبهجة فعلاً؟

إسحق : لا أدري.

راحيل : ألم تقل ذلك؟

إسحق : أحاول أن أبدّد شكوكها. ولعلّي أقنع نفسي.

(تدخل الأم حاملة خفاً منزلياً. تضعه أمام إسحق).

الأم : اخلع حذاءك مادمت ستبقى.

(يطيع إسحق أمه مثل طفل. يخرج مسدساً يتمنطق به، ويضعه على الطاولة، ثم ينحني ويخلع حذاءه. الأم تحدّق فيه).

الأم : وجهك شاحب. هل تشعر بالإرهاق؟

(الطفل يصرخ).

إسحق : أبداً.. إن حالتي ممتازة.

الأم : **(تهدهد الطفل)** لاتغضب يا ملكي.. شغلني أبوك قليلاً.. تعال نشرب حليبنا بهدوء. **(تدفع المهد، وتخرج به، وهي ترتّل)** تقلّد سيفك على فخذك. وبجلالك اقتحم. شعوب تحتك يسقطون. اسمعي يا بنت وانظري. انسي شعبك وبيت أبيك. الملك يشتهي حسنك، فاسجدي له.

إسحق : ماذا تنشد؟

راحيل : مزاميرها المعتادة. ما أقسى حبّها! تودّ لو تستأثر بكما دوني.
إسحق : أرجو أن تتحمّليها.
راحيل : لا.. لا تظن أنّي أشكو، إننا نتفاهم ونمرح معاً.
إسحق : ماذا كنت تقرأين حين دخلت؟
راحيل : إنها رسالة من عمّتي. كتبت ترجوني زيارتها. يبدو أنها تعاني من الوحشة والخوف.
(تمسّح به راحيل، وتداعبه. يبدو إسحق محرجاً).
إسحق : وما رأيك؟ أيمكن أن تلّبي الدعوة؟
راحيل : وأتركك أنت ودافيد! طبعاً لا. إني لاأكاد أعرفها. ومنذ وفاة أبي لم تكتب لي. ألا تقبلني؟
(يضمّها إسحق، ويقبّل عنقها بارتباك).
راحيل : آه.. كم اشتقت إليك!
إسحق : أشعر بالخجل.
راحيل : لا تقل ذلك. ضمّني واسكت.
(يحاول التملّص من عناقها).
إسحق : هذا يحرجني، انظري.. بدأت أتعرّق.
راحيل : أفسدك الدلال.
إسحق : بحقّ الرب لاتسخري مني.
راحيل : **(بحنان)** إنك تهوّل الأمر. لماذا لاتقاسمني متاعبك. إنك لاتحدّثني أبداً عن عملك.
إسحق : ليست لدي متاعب. وعملي هو عملي. لم يتغيّر شيء.
راحيل : ولكننا لانكاد نراك.
إسحق : هذه الفترة لدينا عمل كثير.
راحيل : أترى! إنه إرهاق العمل إذن.
إسحق : مرت أوقات كنت فيها أكثر إرهاقاً، ومع هذا لم يحدث أنّي عجزت. هذا غير مفهوم.

راحيل : **(وهي تعانقه)** اتفقنا ألاّ ننزعج، وألاّ نستسلم.
(يتملص إسحق من عناقها، فتبتعد عنه متجهمة وكسيرة).

إسحق : أرجو أن تفهمي ضيقي.

راحيل : كنت أحاول التعبير عن حناني.

إسحق : راحيل.. تعرفين أني أحبك. بل إنني الآن.. أشعر أني متعلّق بك أكثر من أي وقت مضى.. ولكن.. كيف أقول ذلك.. الإلحاح يزيد إحساسي بالحرج.

راحيل : لاتخطئ فهمي.. إني لا أطلب شيئاً. والمسألة كلّها عابرة.

إسحق : وإذا لم تكن عابرة؟ لن تتحمّلي ذلك.

راحيل : **(تعانقه)** أنا.. زوجتك.

إسحق : **(يتملّص منها)** لا أطيق هذا العذاب.

راحيل : مارأيك باستشارة الدكتور منوحين؟

إسحق : لاينقصني إلا ذلك. سأغدو أضحوكة المكتب إذا علموا.

راحيل : إنه طبيب.

إسحق : ولكنك تعرفين ماذا يعني طبيب الأمراض النفسية! وماذا يفعل هؤلاء الأطباء؟ إنهم يزيدون الناس ارتباكاً.

راحيل : أخبرتك أنه أفادني كثيراً.

إسحق : ما أفادك هو الزواج لا الطبيب.

راحيل : اليوم التقيت به، وتمنّى أن يتعرف عليك. تأكد أن بوسعنا الاعتماد عليه. يمكن أن نذهب معاً إذا شئت.

حق : سيكون ذلك مخجلاً. لا.. لا أستطيع.

راحيل : **(يائسة)** كما تشاء..
(تأتي الأم وهي تحمل كوباً فيه دواء فوّار).

الأم : اشرب.

إسحق : ما هذا؟

الم : دواء للبرد.

إسحق : قلت لك..

الأم : اشرب فوجهك شاحب. **(يذعن إسحق مثل طفل، ويشرب الدواء)** لن يأكل الحلوى إذا لم تهزّي خصرك.

راحيل : إني ذاهبة.

(تخرج المرأتان. يبقى إسحق وحده. يبدو عليه الإنهاك والقلق. يقترب من التليفون متردّداً. يبحث في الدليل بعصبية. يرفع سماعة الهاتف، وهو يتلفت حوله حذراً. يركّب الرقم).

إسحق : آلو.. عيادة الدكتور منوحين.. أريد موعداً.. اسمعي يا آنسة إني مشغول جداً ولا أستطيع المجيء إلا اليوم.. اعتبريها حالة عاجلة.. لا.. لايزعجني الانتظار في العيادة.. الساعة الخامسة.. اتفقنا.. بنحاس.. الاسم بنحاس.. شكراً... إلى اللقاء.

(يضع السماعة وعلى وجهه ارتياح. يغادر الصالون إلى غرفة أخرى. بعد قليل يتناهى عزف جميل على الكمان. يستمر ذلك فترة. أثناءها يعلو الضوء في المكتب. يظهر جدعون وهو يتلفن. يرن الهاتف في غرفة الجلوس. تأتي راحيل مسرعة من المطبخ وترفع السماعة.. عزف الكمان مستمر..).

راحيل : آلو..

جدعون : السيدة بنحاس..

راحيل : نعم.. من يتكلم؟

جدعون : إنه جدعون الذي يتموّج ويرتعش كلما سمع صوتك.

راحيل : قلت لك.. لا أحب هذا المزاح.

جدعون : مزاح! ومن يمزح! إذا كان الوجد والشوق والرغبة مزاحاً فلا شيء جادّ في الدنيا.

راحيل : إنك تتجاوز الحدود.

جدعون : وهل يعرف المسلوب تمييز الحدود!

راحيل : سأغضب إن واصلت.

جدعون : جميلة وأنت غاضبة. جميلة وأنت هادئة. جميلة في كل حالاتك.

راحيل : هناك اعتبارات يا سيد جدعون.

جدعون : منذ رأيتك أول مرة عرفت أني عاجز عن مراعاة أي اعتبار. فيك شيء لايقاوم. شيء تفتقده كل النساء الأخريات.

راحيل : أرجوك لا تسخر مني.

جدعون : أتسمّين الهيام سخرية؟

راحيل : لديّ متاعب كثيرة فلا تزدها.

جدعون : ألا يمكن أن أكون نافعاً.. جرّبي الاعتماد علي.

راحيل : مع هذه التصريحات، كيف يمكن أن أثق بك!

جدعون : ما الذي لا أفعله كي أكسب ثقتك؟

راحيل : إني بحاجة إلى الصداقة. إلى العون والنصيحة لا أكثر.

جدعون : أهذا ماتحتاجينه فعلاً؟ إن حياتنا قاحلة يا راحيل.. وهي لا تجود..

راحيل : إني متعبة. ولن أصغي إليك.

جدعون : لك ماتريدين، سأذبح قلبي، وأقدّم لك هذا الصديق.

راحيل : أتفعل؟

جدعون : تعرفين أني أسيرك. وأنك قادرة على صياغتي كما تشائين.

راحيل : ما أبرع لسانك!

جدعون : لو عرفت مشاعري لوجدت أن لساني مترجم ركيك.. لا.. لا.. اعذريني لن أتحدّث عن مشاعري بعد الآن. هل أستطيع أن أكلّم إسحق؟

راحيل : لحظة.. سأناديه لك.

(تضع السماعة جانباً. يطفو على ملامحها تعبير غريب. تطرق الباب بهدوء ثم بعنف. يتوقّف عزف الكمان، ويأتي إسحق..)

إسحق : ماذا هناك؟

راحيل : مخابرة لك.
إسحق : **(يتناول السماعة)** آلو.. أهلاً جدعون.. ما الأمر؟
جدعون : بابا مائير يريدك في المكتب.
إسحق : متى؟..
جدعون : هذا المساء.
إسحق : ولكن بابا تركني حراً هذا المساء.
جدعون : طرأت أعمال جديدة. عاد الشحرور من المستشفى.
إسحق : ألا يمكن أن تنوب عني؟
جدعون : عندي مهمّة خارج القسم.
إسحق : ابعث موشي أو دافيد.
جدعون : بابا يصرّ على مجيئك شخصياً.
إسحق : لديّ موعد مع الطبيب.
جدعون : دعك من الدلال. ليس لديك ما تشكوه.
إسحق : أؤكد لك أن موعدي في الخامسة.
جدعون : يمكنك أن تتأخّر بعض الوقت. أم أقول له إن العمل يثقل عليك؟
إسحق : لا تكن أحمق.
جدعون : إذن.. عانق زوجتك الفاتنة وتهيّأ. لديك اليوم حفلة دسمة.
إسحق : طيب.. طيب.. **(يضع السماعة بغضب)** رجل فاجر..
راحيل : أتنوي زيارة الطبيب حقاً؟
إسحق : كانت مجرد ذريعة. أحضري لي الحذاء. أنا آسف. غداً سنتغدّى معاً.
راحيل : لا تنس سلاحك.
إسحق : آ.. نعم.
(يرشق قبلة على شفتيها.. وتتلاشى الإضاءة).

سفر الأحزان اليومية / المقطع الثاني

(غرفة فقيرة ومرتبة.. تجلس الفارعة على حصير، وفي حضنها الطفل وعد. تهدهده وهي تغني بصوت خافت وشجي).

الفارعة : باب الجفن مفتوح
إن طال هجرك عليّا
لكسروا واعملوا لوح
وأعلم الحمام والعصافير وأَقُلها تنوح
مع السلامة اِحنا رايحين نروح
وإن طال هجرك عليّا
لكتبو على اللوح
وإن غلق باب المحبة
باب الجفا مفتوح
وأعلم الحمام يبكي والعصافير تنوح

(يدخل محمد متجهماً. يحمل كيساً صغيراً. يسلم ويجلس على كرسي واطئ من القش).

الفارعة : وها هو أبوك. أعرف ألاعيبك. لاتتظاهر بالنوم. قم وسلم عليه.

محمد : دعيه إذا كان نائماً.

الفارعة : يبدو أنه نام بالفعل.. سأضعه في فراشه. **(تنهض وهي تبسمل)** عوذتك من الشيطان. اسم الله عليك وحولك.

(تضعه في السرير وتغطيه) تصور يا محمد. زرت اليوم السيد بشير البوسي والد دلال. قلت لعلها تكون مناسبة للصفاء، والدم لايصير ماء. حين أخبرته عن ابنته غسلنا بالشتائم.. هي وأنا معها. خافت أن تسبب له متاعب مع السلطات، فسمانا قحاباًومخربين.. إي والله سمانا مخربين، وأقسمَ أن يتبرأ منها أمام الحاكم العام والملأ أجمعين..

محمد : هذا هو الفالح.. إنه يتر العضو الذي يؤلمه.
(ينهض بحركة عصبية. يأتي بكأس ماء.. يخرج من الكيس زجاجة عرق).

الفارعة : قطع الله الفالحين أمثاله. إنها ابنته.

محمد : الله زيّن الدنيا بالمال قبل البنين.

الفارعة : هذا مال تفوح منه رائحة الخيانة والعار.

محمد : **(وهو يصب كأس العرق)** المال لا رائحة له.. هؤلاء يا أخت هم الفالحون. إنهم يلهفونها أيام الاحتلال، ويتصدرون المجلس إن زال الاحتلال. وأخوك محمد يقول.. في حياتنا الفانية لن نرى زوال الاحتلال.

الفارعة : فأل الله ولا فألك. كيف يزول الاحتلال إذا كان البعض ينسى ولده وبلده من أجل المال، والبعض الآخر يغرق نفسه بالكحول. ألم تَعِد سهام بالإقلاع عن الشرب!

محمد : اعفيني من المواعظ.

الفارعة : هذه المرة لن أعفيك من المواعظ.. ولن أتركك تدمر نفسك أكثر مما فعلت.

محمد : أختاه.. إن كيلي طافح.

الفارعة : وأختك أيضاً كيلها طافح.

محمد : هل تعبتِ من الصغير؟

الفارعة : الصغير حبة عيني. لكني تعبت من الكبير.

محمد : أتريدين أن أترك البيت؟

الفارعة : هذا بيت أبيك فلماذا تتركه؟.. افهمني يا محمد. كل ما أريده هو ألاّ تدمر نفسك.

محمد : لن يزيد العرق دماري.

الفارعة : لماذا تحب دائماً أن ترثي لحالك؟

محمد : لأن هناك مايستحق الرثاء. رفضوا طلبي الثاني لجمع الشمل. ولن يكون بوسعي أن أعيش مع امرأتي وولدي كما يعيش كل الناس. ستظل في إربد. وأنا هنا. وفي اللقاءات المسروقة يتوالد أطفالنا كاللقطاء.

الفارعة : هذا هو الاحتلال.. ومن يرَ مصيبة غيره تهن عليه مصيبته.

محمد : لو توفرين عليَّ هذه الأمثال! شقيت كثيراً في حياتي. لو بدأت أحكي لكِ ما لاقيت لما فرغت حتى الصباح. وكانت الحلاوة الوحيدة التي ذقتها هي سهام. إذا فقدتها سأضيع، ولن يبقى في حياتي إلا الشقاء.

الفارعة : ولكن ماذا نستطيع! إنهم كفار ولايعرفون الرحمة. انظر ماذا حلَّ بأخيك وامرأته.

محمد : لاشأن لي بأخي وامرأته.

الفارعة : لماذا تبدو كالملدوغ كلما ذكر أخوك؟

محمد : لا شأن لي بأخي.. له طريقه ولي طريقي.

الفارعة : محنتنا واحدة يا محمد، فكيف يمكن أن يكون لكل منا طريق!

محمد : دعيني بعيداً عن إسماعيل ومشاكله. هو اختار.. وأنا اخترت.

الفارعة : وماذا اخترت؟

محمد : أن أجرب كل الوسائل كي أجمع شمل عائلتي.

الفارعة : وماذا لديك من الوسائل؟

محمد : قيل لي.. إن العمل في ورشاتهم يسهل الموافقة على الطلب.
الفارعة : (**يحتد صوتها**) تريد أن تعمل في ورشات الإسرائيليين!
محمد : كله عمل.. هنا أو هناك.. ما الفرق؟
الفارعة : أتساوي بين المحتل وابن البلد؟
محمد : ابن البلد! أنت تعرفين القصة ومافيها. يأكلون حقوقنا باسم الوطن والدين. ألم تصل بيني وبين المتعهد «أبو قحطان» للسماء؟ قلنا له الأجرة ناقصة. فنبر في وجهي وصاح لماذا اللف، تريد أن تبيع وطنك ودينك لليهود! اذهب.. لا أحد يمنعك. قلنا له.. الذي يبيع وطنه ودينه، هو الذي يأكل حقوق أهله. وكلمة من هنا.. وكلمة من هناك. لولا أولاد الحلال لقضى واحد منا على الآخر.. هذا هو العمل مع ابن البلد.
الفارعة : ومع هذا لا أصدق أنك جاد.
محمد : ولماذا لا أكون جاداً! قد أحصل على الموافقة، والأجور هناك أفضل.
الفارعة : الأجور أفضل لأنكم مع العمل تعززون الاحتلال.
محمد : فضّي هذه السيرة يا أختي. الاحتلال معزز سواء عملنا معهم أم لم نعمل. لو سافرت مثلي، ورأيت كيف تجري الأمور في البلاد العربية، لعرفت أن الاحتلال معزز، وأن بوسعهم احتلال المزيد لو شاؤوا.
الفارعة : أعرف كيف تجري الأمور في البلاد العربية.. ولكني أعرف أيضاً كيف أميز رنة الاستسلام.
محمد : إذن سجليها بالأحرف التي تروقك.. أنا مستسلم.
الفارعة : يا عيب الشوم.. لاريب أن عظام أبي ترتعش في قبرها. من يصدق أن ابن حسين الصفدي، هو الذي يقول هذا الكلام!
محمد : لا تحاولي محاصرتي بحسين الصفدي؟

الفارعة : هل يلدغك ذكر أبيك أيضاً؟

محمد : اسمعي يا أخت. سأخبرك أمراً لا تعرفينه. لاحقني حسين الصفدي سنوات طويلة. كان ظله يتبعني كفرقعة السوط. خوف غامض لايجعلني أستقر أو أثابر على عمل. سافرت من الضفة هارباً، ولكنه لم يتركني أهدأ. تركت عمان، ورحلت إلى دمشق. تركت دمشق ورحلت إلى بيروت. ولم أفلح في شيء. وكان حاضراً على الدوام كي يغضبَ ويَشمت. لم تخف وطأته إلا بعد أن تعرفت على سهام، وأحببت..

الفارعة : أكنت تكرهه؟

محمد : لا أدري من كان يكره الآخر! ولكني أعلم أنه شوّه حياتي فترة كافية.

الفارعة : كان يقسو عليك أحياناً، لأنه أراد أن تتعلم.

محمد : كان يقسو علي دائماً، لأنه لم يحبني. وكان يقسو على أمّنا لأنه لم يحبها. وكان يرتب الأمور كي يكون إسماعيل ابنه، وحامل رايته. هل تذكرين يوم سأل كلاً منا ماذا يريد أن يكون في المستقبل! وأسرع إسماعيل يصيح.. سأنهي دراستي، وأنضم إلى المقاومة. وبقيت صامتاً. لكن حسين الصفدي التفت نحوي ونخسني.. والكديش ماذا يريد أن يكون؟ فأجبت، وحتى هذه الساعة، لا أدري كيف واتتني الجرأة.. سأكون عتّالاً. وضحكتم جميعاً. وقال حسين الصفدي وهو يتفّ. هذا ما يليق بالكديش. ثم نفش ريشه، وبدأ يقص أخبار بطولاته. يوم معركة الكرامة جعلنا الإسرائيليين يتشهدون.. و.. وإلى آخر تلك الأسطوانة.

الفارعة : كان أبونا بطلاً يستحق أن نفخر به.

محمد : تقاسمي بطولته مع إسماعيل وتغذّيا بها. أما أنا فتكفيني حياة

عائلية بعيدة عن البطولات.

الفارعة : لا ترفع بيننا وبينك سوراً من المرارة. نحن عائلة واحدة يا محمد. ولدنا من صلب واحد. ورضعنا الحليب ذاته. إنك تؤجج مشاعر الغبن، كي تظل ناشزاً ووحيداً. علامَ تلومنا! ألم أبذل كل جهدي كي تواصل تعليمك! ألم أتوسل إليك كيلا تسافر! كم رجوتك أن تكون سيد البيت، وأن تساعدني بعد وفاة والدتي!

محمد : بعد وفاة والدتي، ماكان أحد يحتاجني. المسكينة.. هي الأخرى كان ظله يطاردها، ويجعلها امرأة بائرة. مرة خلع نطاقه وانهال عليها. مازلت أرى الاحتجاج المذعور في عينيها.. كان الدم..

الفارعة : توقف. لماذا تمعن في تشويه ماضينا وذكرياتنا؟

محمد : لأن ماضينا كان مشوهاً. ولأن تلك هي الذكريات الحلوة التي وشم حسين الصفدي ذاكرتي بها.

الفارعة : لم أكن أعلم أن روحك مدمرة إلى هذا الحد!

محمد : أترين! وقليل من العرق لن يدمرني أكثر.

الفارعة : إذن.. أنت مصمم على العمل هناك رغم أن أباك شهيد وأخاك معتقل.

محمد : إن أباكِ وابنه ابتلعا كل المآثر، ولم يتركا لي إلا البحث عن حياة عائلية بسيطة. أجل يا أخت إني مصمم، وغداً سأنضم إلى الذين يركبون الباصات.

الفارعة : أتوسل إليك يا أخي ألاّ تكون غصة في قلوبنا. إننا نحبك، ولايجوز أن تقطع المرارة أواصرنا.

محمد : لا تقلبيها عاطفية. ماحدث حدث. وغداً ينبغي أن أستيقظ باكراً.

الفارعة : تعرف أن هذه غصة لا أستطيع ابتلاعها.

محمد : الزمن يبلع كل الغصص.

الفارعة : هذه الغصة ستبقى في حلقي، ولن أستطيع التحدث معك بعد اليوم.

محمد : ليس بيننا مايقال. وإذا ضجرتِ من الصغير يمكنني أن أتدبر أمره.

الفارعة : ما أشد الظلمة في نفسك!

(تتلاشى الإضاءة..).

سفر النبوءات / المقطع الثالث

(عيادة الدكتور أبراهام منوحين..)

الدكتور : ويل لي يا أمي لأنك ولدتني إنسان خصام ونزاع للأرض كلها. لم تزرعي في قلوب أبنائك إلا الكبر وكراهية الأغيار. كيف ينسى المرء تلك الرهبة المليئة بالبغضاء التي تغذّى بها طفلاً! وحين يكبر كيف ينقذ روحه من الاعتلال، أو يتفادى القسوة والعدوان! دفعت الكثير من الوقت والعناء كي أتخلّص من غذاء طفولتي. ولكن هؤلاء الذين يحرصون على غذاء طفولتهم يدفعون ثمناً أغلى.. ذلك اليوم جاء إسحق بنحاس إلى عيادتي، وتدبرت الأمر كيلا ينتظر طويلاً.

(يدخل إسحق متجهّماً ومرتبكاً).

إسحق : مساء الخير يا دكتور.

الدكتور : مساء الخير. سبق لي التعرّف على السيدة زوجتك. ويسعدني أن ألتقي بك.

إسحق : شكراً.. أما المريض هذه المرة فهو أنا.

الدكتور : تفضل بالجلوس. **(يمد له علبة سجائر)** أتريد سيجارة؟

(يضحك إسحق بعصبية وهو يتناول سيجارة.. يشعلها له الدكتور).

إسحق : شكراً. اعذرني إذا ضحكت. بادرتني بما أبادر به الآخرين عادة.

الدكتور : هل تقدم السجائر؟
إسحق : نعم.. ولكن لندع هذا جانباً.
الدكتور : تفضل.. ما الأمر؟
إسحق : ليس الأمر سهلاً.
الدكتور : إني هنا لمساعدتك. استرخ، وابدأ من أي نقطة تشاء.
إسحق : لعلّ من الأفضل.. أن أقول كل ما لديّ دفعة واحدة.. منذ فترة وأنا لا أستطيع القيام بواجباتي الزوجية.
الدكتور : هل تخيفك الكلمة؟
إسحق : أي كلمة؟
الدكتور : العجز. تريد أن تقول إنك تعاني عجزاً جنسياً.
إسحق : نعم.. وهذا يرعبني كثيراً.
الدكتور : لنحاول إيضاح المسألة. هل تشرع في الجماع، ولا تستطيع إنجازه أم أنك لاتشعر أساساً بالرغبة؟
إسحق : أحاول ولا أستطيع. لكن لا أعرف إن كنت حقيقة أشعر بالرغبة. زوجتي تبذل أقصى ما في وسعها لإنعاشي وإثارتي، ولكن لافائدة. أحياناً لايحدث شيء على الإطلاق، وأحياناً يتمّ القذف دون توقّع، وقبل أن أستكمل الوضع اللازم.
الدكتور : حتى الآن لا ينبغي أن تقلق. هذه الأعراض مألوفة، وتحدث أكثر مما يظنّ الناس عادة.
إسحق : يسرّني أن أسمع ذلك يا دكتور.
الدكتور : هل مررت بتجربة مماثلة في ظروف أخرى؟
إسحق : أحياناً لم أكن أشعر بشهوة. لكن هذا عاديّ فيما أعتقد.
الدكتور : والقذف دون توقّع.. هل عرفته من قبل؟
إسحق : لم يحدث لي من قبل.
الدكتور : هل أنت رجل حادّ المزاج يا سيد بنحاس؟
إسحق : لنقل إني صاحب مزاج خاصّ.

الدكتور : هل تحب زوجتك؟

إسحق : أكثر من أي امرأة أخرى.

الدكتور : ألا يمكن أن تشعر ولو لفترة عابرة أنك مُتعَب منها؟

إسحق : لا.. يا دكتور.. في البداية خطرت لي هذه الفكرة، وقلت لنفسي يستحسن التنويع. بعد الزواج لم أعاشر إلا زوجتي، وقرّرت أن أجرّب امرأة أخرى. من أجلها.. من أجل أن أعود إليها.. وذهبت بثقة بالغة إلى امرأة كنت أحبّها كثيراً من قبل.. كانت تجربة مذلّة ومهينة. وبعدها استبدّ بي الخوف.

الدكتور : كم ساعة تعمل في اليوم؟

إسحق : أعمل كثيراً، لكنني أتمتّع بصحّة جيدة. لا.. لست مرهقاً ولامسمّماً. لا أشرب ولا أدخن إلا نادراً. وأكثر من ذلك.. في الأيام الأخيرة أخذت حقن هرمونات. طلبتها من طبيب الإدارة متذرّعاً بأنني أمرّ بمغامرة خاصّة، ولا أريد أن أهمل زوجتي أثناءها. وكل هذا بلا جدوى.

الدكتور : يبدو أنك معافى من حيث القوّة الجنسية.. والآن أجبني بصراحة. أرجوك فهذا هو الأفضل.

إسحق : عن أيّ شيء؟

الدكتور : هل شعرت وأنت كبير بميل جنسي، مهما كان ضئيلاً، نحو الذكور؟

إسحق : إطلاقاً.

الدكتور : وأنت صغير؟

إسحق : على ما أذكر.. أبداً.

الدكتور : ألديك مع النساء ميول أخرى غير ممارسة الحب؟

إسحق : ما الذي تعنيه بالميول الأخرى؟

الدكتور : الاكتفاء بالمداعبة. القسوة. الامتناع إرادياً عن إتمام العملية.

إسحق : إنني أتمّ العملية دائماً. والخشونة تثير نفوري سواء بدرت منها

أو مني.

الدكتور : إذن فأنت طبيعي أكثر من المعتاد يا سيّد بنحاس. اطمئنّ، سنجد العلّة. ماهو عملك؟.

إسحق : أنا؟ موظف حكومي.

الدكتور : وما وظيفتك؟.

إسحق : لسنا معتادين على الصراحة في هذا الموضوع. ثم إني لا أفهم العلاقة بين عملي وما أشكوه.

الدكتور : هل تنتمي إلى أحد فروع الأمن؟

إسحق : ليكن.. لا ضرر إن عرفت.. أنتمي إلى الفرع الداخلي في الأمن القومي.

الدكتور : الفرع الذي يهتمّ بالسكان المحليين؟

إسحق : نعم.. وأرجو أن تكون ممن يقدرون أهميّة عملنا.

الدكتور : كيف بدأت العمل في الأمن؟

إسحق : وماذا يفيدنا الخوض في هذا الحديث؟

الدكتور : ربما كان مفيداً.

إسحق : أعمل في الفرع الداخلي وهو مانسمّيه القسم السياسي منذ ثلاثة أعوام. أما جهاز الأمن فقد التحقت به بعد فترة تدريبي العسكري.. أي منذ عشرة أعوام تقريباً. مات والدي وأنا صغير.

الدكتور : كم كان عمرك؟

إسحق : ست سنوات وبضعة أشهر.

الدكتور : وماذا كان يعمل أبوك؟

إسحق : كان يعطي دروساً في الموسيقى. وعلى كل، لا أكاد أتذكّره.

الدكتور : ألا تعتقد أنه ترك فيك أيّ أثر؟

إسحق : ربما.. حبّ الموسيقى. إنّي أحبّ العزف على الكمان. بعد موته ربّتني أمي، وتعهّدت حياتي حتى الآن. لم تكن تحب

أن أعزف على الكمان، أو أن أتابع دراستي الجامعية. اقترح رئيسي، وهو صديق للعائلة أن يعدّني للالتحاق بالأمن.. وهكذا بدأت الخدمة. وحين رأى أني نضجت سياسياً نقلني إلى القسم الذي يرأسه.

الدكتور : هل أفهم أنك أجبرت على هذا العمل؟

إسحق : طبعاً لا.. حين كنت صغيراً لم أكن أقدّر مصلحتي جيداً. أما الآن فأنا أحبّ عملي، وأشعر بالاعتزاز لأني أخدم وطني.

الدكتور : عظيم.. في رأيك ماهي الأسباب الممكنة لهذا الاضطراب الذي تعانيه؟ أسألك.. لأن المريض أحياناً يشكّ بشيء ما.. وشكه يضيء لنا الطريق.

إسحق : أنا.. لا أعرف.

الدكتور : فكّر معي.. ألم يعرض لك في الفترة الأخيرة أمرٌ له علاقة بالجنس؟ حلم. قصة.. تجربة رأيتها أو سمعت عنها.

إسحق : لا..

الدكتور : لماذا لاتنظر إليّ؟

إسحق : قلت لك لا.

الدكتور : لماذا طرفت عيناك حين طرحت السؤال؟

إسحق : مجرّد صدفة.

الدكتور : لا.. ليست صدفة. أنت رجل أمن، وتعرف مغزى هذه الاستجابات العفوية.

إسحق : هذا لا علاقة له.

الدكتور : وما أدراك! احك.. حتى ولو بدا لك الأمر بلا أهمية.

إسحق : ولكنه أمر لا علاقة له بما نحن فيه. إضافة إلى أنه شيء من أسرار المهنة.

الدكتور : وأساس مهنتي هو حفظ الأسرار يا سيّد بنحاس. هنا يأتي الناس ليقصّوا عليّ أسرارهم.

إسحق : مهما كان.. لايجوز أن أبوح به.
الدكتور : كما تشاء. ولكن في هذه الحالة لا أستطيع مساعدتك.
إسحق : طيب.. سأحكي مادمت مصمماً. إلا أني لا أرى العلاقة بين هذا و..
الدكتور : تكلّم يا سيد بنحاس.
إسحق : إنها أمور قد يساء تقديرها، لكنها ضرورية.
الدكتور : أنا هنا لأعالج لا لأحكم.

(ينمو الضوء تدريجياً في مكتب مائير، وتظهر كتلة السلالم المخيفة).

إسحق : هناك.. نحن نتعامل مع حثالات.. قرود تسير على قائمتين، ولا تحسن إلا الشرّ والكذب.
الدكتور : من تعني؟
إسحق : العرب طبعاً.
الدكتور : طيّب.. أرجوك تابع.
إسحق : منذ ثلاثة أسابيع تقريباً، كان علينا أن نعامل بصلابة واحداً من تلك الحثالات. وقد أرادني بابا إلى جانبه.
الدكتور : بابا؟
إسحق : هكذا نسمّي رئيسنا مائير، وهو رجل عظيم.
الدكتور : أأنت من سمّاه كذلك؟
إسحق : لا أذكر. كلنا نناديه بابا.
الدكتور : هل هو صديق العائلة القديم؟
إسحق : هو نفسه.
الدكتور : استمر من فضلك.

(ينهض إسحق، ويتّجه نحو السلالم، ثم يبدأ بالصعود إلى المكتب).

إسحق : في الفترة الأخيرة كثرت عمليات التخريب. وتعرف

حساسيّتنا تجاه كل مايمس الأمن. إن العرب الذين سحقناهم في الحروب، تحوّلوا كأي جبان إلى أعمال الإرهاب والتخريب. وقد علّمنا تاريخناأن خير وسيلة لمواجهة الشر! هي استئصاله قبل أن يستفحل. إن مهمّتنا شاقّة. ولولا يقظتنا لتهدّد أمن الدولة اليهودية. هل نعاملهم بقسوة؟ ولكن هذا ضروريّ. إن اللغة الوحيدة التي يفهمها هؤلاء الهمج هي الشدّة.

(يدخل إسحق إلى المكتب، ويتقدّم من مائير. يؤدي له التحية).

إسحق : سيدي.. ها هو اعتراف المتّهم الذي كلفتني به.

مائير : هذه سرعة قياسية.

إسحق : إنه خرقة براز. لم يتحمّل إلا قليلاً من الضغط.

مائير : هل باض نيئاً أم مطبوخاً؟

إسحق : لا أعتقد أنه طريدة حقيقية.

مائير : وما الفرق! عملنا أن نمحق الإرهابيين، وأن نروّع الآخرين.

إسحق : لكن إسماعيل طريدة حقيقية.

مائير : سيأتون به الآن. وسنحمله على الاعتراف مهما كلّف الأمر.

إسحق : ما الذي لم نجرّبه معه؟

مائير : لدي دائماً مليّنات احتياطية. أريدك إلى جانبي وأنا أدير هذه الحفلة.

(يقرع جرس المكتب.. يرن الهاتف، فيرفع السماعة)

مائير : آلو.. نعم.. تقارير صحفية عن حالة المتعقلين. لن أوسخ مؤخرتي بها.. هذا شأنكم.. لاأبالي بالمحامين الدوليين. خذوهم لزيارة حائط المبكى أو القدس القديمة.. نعم هناك حملات اعتقال واسعة. لم نحرّر يهوداً والسامرة، كي يعشّش فيها الإرهاب.. أرجوكم.. نحن نعمل عملنا، وعلى

السياسيين صياغة التصريحات المنمّقة.. أنا مشغول الآن.. إلى اللقاء **(يضع السماعة بحنق)** هؤلاء المدنيّون المخنّثون يثيرون أعصابي.

(يدخل دافيد وهو يقود إسماعيل المكبّل بالأغلال).

مائير : فك قيوده يا دافيد **(يفك دافيد قيوده. يتحسّس إسماعيل معصمه. يقترب منه مائير)** هل كانت القيود ضيّقة؟

دافيد : ليست ضيقة. ولكن أي احتكاك يؤلمه بسبب الحروق.

مائير : آ.. الحروق. ماهذه إلا لسعات بسيطة. آثار شرارات تطايرت من المعدن. كم مرة وضعناه تحت التيار يادافيد؟

دافيد : لاشيء يا سيدي.. ست مرات فقط.

مائير : أرني أظفارك **(يمسك يده اليسرى)** نحن لانحبّ الضيوف العنيدين. لماذا لاتتعلمون؟ **(يضغط على أطراف أصابع اليد. يكتم إسماعيل تأوهاته)** ألم تدفعوا ثمن العناد غالياً.. أربع حروب وأربع هزائم. الأبله وحده هو الذي لايستوعب الدرس بعد أربع هزائم. **(يشتد ألم إسماعيل)** لا تتباكَ.. فنحن لم نمسّ بعد يدك اليمنى. إننا نحتفظ بها سليمة للتوقيع.

(يدخل موشي حاملاً ورقة وعلى وجهه أمارات الظفر).

موشي : سيدي.. أخيراً باضت فرختي أسماء وأمكنة اتصال ولقاءات.

مائير : **(يتناول الورقة، ويتفحصها)** ماذا تأمل بعد ذلك؟ كلهم تخلّوا عن البطل. اعترفوا ووقّعوا. اقترب.. أيهمّك أن ترى اعترافاتهم؟ انظر إذن..

(يتطلع إسماعيل بفضول واهتمام إلى الورقة، ثم ينفجر بالضحك).

موشي : **(يهجم عليه)** أتضحك يا ابن الزانية؟

مائير : دعه يا موشي. علام تضحك؟
إسماعيل : هل اعترفوا بالعبرية؟
مائير : أتريد أن نستخدم العربية في محاضرنا؟
إسماعيل : علام وقّعوا إذن؟
مائير : على اعترافاتهم.
إسماعيل : اعترافاتهم المكتوبة بلغة لايفهمونها.
موشي : اسمعوا ابن الشرموطة. وفوق هذا يماحك.
مائير : هل تظن أننا زوّرنا الاعترافات؟
إسماعيل : لا أدري.. هذا شأنكم.
مائير : دعك من المكابرة. كلهم خانوك، وتساقطوا كالبراز. أعطه سيجارة يا إسحق.

(يتاول إسحق علبة سجائر عن الطاولة، ويمدها لإسماعيل الذي يتجاهلها).

إسحق : خذ..
مائير : أتخشى على طهارتك! ليكن.. دعه على راحته يا إسحق. قرّرنا اليوم أن نكون ودودين معك. ولكن لا تخدع نفسك. صارت لدينا لوحة شبه كاملة. لم تبق إلا بضعة تفاصيل صغيرة وتنتهي ضيافتنا. في العاشر من الشهر الماضي، التقيت زائراً جاء من خارج البلاد، وأعطاك رزمة حملتها إلى مكان وشخص نعرفهما. كل ما نريده هو اسم الزائر، وهل أدخل الرزمة معه، أم أعدّ محتوياتها هنا؟
إسماعيل : لم ألتق أي زائر، ولم أحمل أي رزمة.
مائير : الشخص الذي تسلّم الرزمة، وأصيب في العملية، ذكر اسمك قبل أن يموت.
إسماعيل : قلت لكم لا أعرفه.
مائير : لدينا اعترافات عديدة تؤكّد صلتك به.

إسماعيل : ومع هذا لا أعرفه.

مائير : هذا العناد محزن، إنك لاتساعد نفسك. ألا تحنّ إلى بيتك وزوجتك؟ أعتقد أنك لم تتزوّج منذ زمن طويل.

موشي : منذ ثلاثة أشهر فقط.

مائير : مازلت في شهر العسل. لماذا تفرّط بسعادتك مجاناً؟ ألا تحبّ أن تنجب طفلاً! ومن يدري لعلّها حامل.. بكل أريحيّة أقترح عليك أن تعترف.

إسماعيل : أخبرتكم بما لديّ.

مائير : أتسمع يا إسحق. لقد أخبرنا بما لديه. نادوا جدعون **(يذهب دافيد إلى باب غرفة الانتظار)** أمتأكد أنه لم يبق لديك ما تخبرنا به؟

إسماعيل : أخبرتكم بما لديّ.

مائير : إذن دعونا نتهيّأ لاحتفال عائلي بسيط.

(من غرفة الانتظار، يأتي جدعون، وهو يدفع دلال المقيّدة بالسلاسل أمامه).

جدعون : ها هي العروس يا سيدي.

(يبدو إسماعيل مصعوقاً. أما دلال فعلى وجهها تعبير ذاهل، وفي عينيها بريق غريب).

إسماعيل : عونك يا رب..

دلال : **(هامسة)** إسماعيل! ها نحن نلتقي.

إسماعيل : اغفري لي يا دلال.

مائير : ألا تعانق عروسك؟ أحبّ مشاهد العشق.

إسماعيل : هي لا شأن لها. عذّبوني كما تشاؤون. افعلوا بي ماتريدون. ولكن دعوها بعيدة عن هذا الجحيم.

مائير : أنقذها إن كنت تحبّها إلى هذا الحدّ.

دلال : قالت لي الفارعة لا تخافي.. أنتِ أقوى منهم.

مائير : هل أخبرتنا بكل ما لديك؟
دلال : وقالت ارفعي رأسك. وإذا ضايقوك ابصقي في وجوههم.
إسماعيل : ليس لدي ما أخبركم به.
مائير : لنبدأ العرس.
(دافيد وموشي يجران إسماعيل. وجدعون يمسك عجيزة دلال ويدفعها. الجميع يتجهون إلى الغرفة الداخلية).
جدعون : تعالي يا وافرة الخيرات **(تبصق عليه)** آه.. هكذا أريدك. شرسة. أريد عروسي يا رفاق. إني أنتصب كجبل جلعاد.
إسماعيل : كلاب.. كلاب.
(تردّد الكلمة بإيقاعات مختلفة، حتى تتحول إلى مايشبه الحشرجة. يختفون في الغرفة الداخلية).
مائير : سترى كيف تُحلّ عقدة لسانه. لايهزّ المرء إلا مايمسّ رجولته. وهؤلاء البهائم يودعون كل كبريائهم في فروج نسائهم.
إسحق : وإذا لم يتكلّم؟
مائير : لابدّ أن يتكلّم. هذه الوسيلة أكثر فاعلية من التيّار الكهربائي. هل تمتشق عصاك، وتبدأ الاحتفال؟
إسحق : دع جدعون يبدأ.
مائير : وودت لو أنك البادئ. لايهمّ.. ستدير الحفلة معي. **(يلفه بذراعه، ويمضيان نحو الغرفة)** لا أدري إذا كان بوسعك أن تفهم ذلك يا بنيّ. هذه الحفلات تثير فيّ نشوة تكاد تكون دينية. نعم.. دينية.
(يدخل مائير إلى الغرفة، فما يعود إسحق إلى العيادة. تبدأ الإضاءة بالانحسار عن المكتب).
إسحق : وهكذا مضت الحفلة حتى نهايتها.
(يرين صوت متوتّر. الدكتور مطرق الرأس).
الدكتور : هل تكلّم الرجل؟

إسحق : أصابته تشنّجات قلبيّة، وانهار قبل أن يتكلّم. بعد الحفلة نقلناه وزوجته إلى المستشفى. لكنه سيعود إلى المركز.

الدكتور : وماذا فعلت في الحفلة؟

إسحق : وما أهمية هذه التفاصيل؟

الدكتور : هل شاركت في الاغتصاب؟

إسحق : لا..

الدكتور : لماذا؟

إسحق : تلك العربيات! من يضمن.. خفت أن تنقل لي عدوى ما.

الدكتور : ماذا فعلت إذن؟

إسحق : **(متردداً)** كان يجب أن نكسر خصيتيه تماماً. وضعت قدمي بين فخذيه، ورحت أضغط وفق طريقة تعلّمناها من بابا. وكان جدعون شديد الهياج.

الدكتور : وأنت؟ هل تهيّجت؟

إسحق : في البداية.. حين راقبت جدعون وهو يروّضها. ولكني فترت فجأة.

الدكتور : واكتفيت بالمراقبة!

إسحق : ولكن هذا كله بلا معنى.

الدكتور : أرجوك.. تابع. إننا نقترب ماذا فعلت؟

إسحق : كانوا يتوالون عليها. وكان ثمة صراخ وشتائم وموسيقى صاخبة. إننا نستخدم الموسيقى في مثل هذه الحالات، وفجأة بدأ يضيق صدري.. لا.. لا أرى فائدة من سرد هذه التفاصيل.

الدكتور : **(بحزم)** تابع.

إسحق : إنها توافه يا دكتور.

الدكتور : قلت لك تابع..

إسحق : فجأة بدأ يضيق صدري.. ثم تحوّل الضيق إلى غضب أعمى،

فتناولت شفرة واقتربت منها. أنت تعرف أن العربيّات يحلقن شعر العانة. كان فرجها أملس وملطخاً بسوائل الآخرين. وأحسست أني محموم. انحنيت عليها وبدأت أشقّ أثلاماً صغيرة في لحمها. شطبت عانتها وثديها ثم أوقفني مائير. كان العرق يتصبّب مني. وكان كلاهما قد فقد وعيه.

(يخيّم صمت رصاصيّ ومديد. إسحق منهك ومتوتّر).

الدكتور : هل أنت نادم على مافعلت؟

إسحق : نادم! ولِمَ الندم.! كان ذلك جزءاً من واجبي.

الدكتور : ولم تتقزّز مما فعله زملاؤك؟

إسحق : طبعاً لا.. بل كنت ألوم نفسي لأني لا أملك خشونة وعفويّة جدعون. خفت أن يظنّ بابا أني أقل صلابة مما يأمل.

الدكتور : الحالة واضحة يا سيد بنحاس.

إسحق : واضحة..

الدكتور : تقول إنك لم تندم، ولم تتقزّز.

إسحق : ليس هناك ما أندم عليه، أو أتقزّز منه. كانت حادثة عرضية مما يقع لنا كل يوم في عملنا. هؤلاء المخربون أحطّ أنواع المجرمين.

الدكتور : ليتك شعرت بالندم.

إسحق : لا أفهم.

الدكتور : لقد اخترت لاشعورياً التعبير عن ندمك بالمرض. إنك تعاقب نفسك على ما فعلتموه بالمرأة وزوجها، وربما بدأ هذا العقاب وأنت في الحفلة.

إسحق : اسمع يا دكتور.. لقد قرأت شيئاً عن هذه الأمور، ويؤسفني أن أقول لك إنها غير مقنعة.

الدكتور : ركّز انتباهك يا سيد بنحاس. هناك صوت في أعماقك الخفيّة يقول إن ما فعلتموه، ماكان يجوز أن تفعلوه، حتى ولو

أكّدت أن العمل أو الواجب يقتضيه، ولكي تشفي.. عليك إما أن تقرّ بصورة واعية أنك ارتكبت جرماً رهيباً لا يمكن تبريره، وإما أن يتوفّر لك الاقتناع المطلق بأن هذه الأعمال عادلة وجديرة بالاحترام. ولا أظن أن أحداً يمكن أن يقتنع في أعماقه بشيء كهذا.

إسحق : إني مقتنع بعدالة عملي. وإذا صحّ تحليلك فهو يعني أن أعصابي مازالت تخونني، أو أنني لم أصل درجة النضج الكافية.

الدكتور : نعم يا سيد بنحاس.. في تربيتنا الصهيونية يعلّموننا الكراهية بصورة دؤوبة، ولكنهم لايبالون بالحدود التي يمكن أن تتحمّلها بنيتنا الإنسانية. إن الكراهية المطلقة هي الحدّ الذي يمكن أن يسوّغ كل شيء، ويمنع الاختلال، ولكن من هو الإنسان الذي يصير كراهية مطلقة ولا يتداعى؟

إسحق : زملائي في العمل لايشكون من شيء. وأنا أيضاً سأعرف كيف أتفوق على ضعفي.

الدكتور : وما أدراك أن زملاءك لايشكون من شيء؟ ربما ليس لديهم ضمير يَخِزُهم، ولكنهم ليسوا أصحّاء أكثر منك.

إسحق : على الأقل.. هناك واحد لايتطرّق إليه الشك.

الدكتور : رئيسك؟

إسحق : نعم..

الدكتور : لعله يعاني من الأرق وأوجاع المعدة.

إسحق : ليست لديه أوجاع. كل هذه التحليلات النفسية لغو أجوف.

الدكتور : لم أجبرك على المجيء..

إسحق : أريد الشفاء.

الدكتور : لايمكن إصلاح ماحدث. أنت لاتستطيع أن تردّ لتلك المرأة كرامتها، أو لذلك الرجل المسكين رجولته.. ولهذا فقد

قضيت على رجولتك. إنها مفارقة غريبة، ولكن هي الحقيقة. شفاؤك يكمن في مرضك. ولعلّه من صالحك.. لكن..

إسحق : أكمل يا دكتور.

الدكتور : لاشيء.. لايمكنني متابعة حالتك. كان يجب أن تدفع ثمناً غالياً لما فعلت. ولكي تكفّ عن دفع هذا الثمن ينبغي أن تدفع ثمناً آخر لايقلّ عنه جسامة.

إسحق : وماهو هذا الثمن؟

الدكتور : لا أدري.. قد تحتاج إلى تحوّل كبير. ربما تضطر إلى هجر عملك أو البحث عن كفّارة صعبة الأداء. ولكنك لم تعد شاباً صغيراً، ولا أحسب أنك تجرؤ على تحطيم مستقبلك وجزء هامّ من شخصيتك.. لا.. لاأستطيع أن أتركك تزورني مرة بعد الأخرى دون فائدة.

إسحق : أنت تصرفني لأني أثير نفورك. ولكن هلّا تساءلت عن سبب نفورك؟ هيا اعترف.. اعترف أنك كنت تجادلني وتقبّح عملي، كي تجرّني إلى الموقف المتشكّك. موقف هؤلاء المخنثين الذين لايكفّون عن التذمر. إذا انتصرنا تذمّروا، وإذا حرّرنا أراضينا خافوا. وفي النهاية ليس لديهم مايقدمونه لدولة إسرائيل إلا الوساوس والشكوك. طبعاً أنت لست صهيونياً، وأنت تعيش في إسرائيل، ولم تفعل إلا عرقلة قيامها وازدهارها.

الدكتور : إسمع يا سيد بنحاس. لاتظن أني أخاف من إعلان رأيي. إن ولائي ليس للقانون بل للعدالة. وليس فيما تفعلونه أيّ عدل. وليس في احتلال الأراضي أيّ عدل. وليس في التزمّت الصهيوني الذي تأسّست عليه دولة إسرائيل أيّ عدل. نعم.. إني من هؤلاء المخنّثين أمثال موشي منوحين وجوليوس كاهن

وإينشتاين ودويتشر. ونحن نفخر بوساوسنا لأنها حمتنا من البؤس الروحي الذي تغرق فيه دولتنا المعجزة. لا.. لا أقبل ما تفعلونه مهما كانت ذريعته.. والآن يمكنك أن تشي بي، أو تتخذ ما تراه من الإجراءات.

إسحق : كنت أعلم أن هذا ما تفكر به. كم يجب أن أدفع لهذه الزيارة؟

الدكتور : لا شيء هذه المرة.. مع السلامة.

(يخرج إسحق. فترة صمت. الدكتور مجهد وحزين).

الدكتور : وقال الربّ اكتبوا هذا الإنسان عقيماً رجلاً لا يفلح في أيامه ولا يفلح من ذرّيته أحد. جاء يطلب معونتي ولم أستطع أن أقدّم له أي عون. حين روى لي ما فعلوه شعرت بالاعتلال، وبما يشبه التورّط. كان يجرّني معه شاهداً على تاريخنا. على تاريخه وتاريخي. وماكان بوسعي أن أختبئ وراء قناع مهنتي. مافعله لم يكن جريمة فرديّة تخصّه وتخصّ علم الأخلاق، بل كان حدثاً له مغزاه وأثره على تاريخنا جميعاً. مرضى وأطباء. فحولاً ومخنّثين. لا.. ماكان بوسعي أن أختبئ خلف قناع الطبيب البارد والمحايد.. ولا تدخل بيت الوليمة لتجلس معهم وتأكل وتشرب.

(يتلاشى الضوء عن العيادة والطبيب).

سفر الأحزان اليومية / المقطع الثالث..

(يبدو محمد مذهولاً ومرتبكاً. في زاوية معتمة ثمة وجه مقنّع.. ينبغي أن يتخذ المشهد طابع الحوار الذاتي).

المقنع : هل تحب زوجتك كثيراً؟

محمد : لم أعرف أن الحياة يمكن أن تكون حلوة إلا بعد أن التقيتها.

المقنّع : لاشك أن حضنها شهي.

محمد : كيف أقول! لا.. لست خجولاً. نعم.. إنه شهي.

المقنّع : وهو دافئ.

محمد : نعم إنه دافئ.. في حضنها عرفت الدفء الحقيقي والطمأنينة.

المقنّع : كنت شقياً وضائعاً.

محمد : وكانت البلسم السحري. حنانها داوى شقائي، ووضّح لي دربي.

المقنّع : حنان فيه حب وأمومة.

محمد : لعلها تشبه أمي.. لكن الأم نضبت وجفّ حنانها. كان يدفعها نحو الموت، فتمضي مستسلمة وهشة. كانت غريبة بينهم.

المقنّع : وأنت أيضاً كنت غريباً بينهم!

محمد : نعم... كنت أحس أني منبوذ أو يتيم. إذا حضر أحسست أني البغل المذعور، وإذا غاب دفعتني قوة إبليسية لعصيان

أوامره ومخالفة أمانيه. بالمخالفة والعصيان كنت أضاعف حالتي كمنبوذ، ولكن تلك كانت وسيلتي للتوازن.. وحين قتل في مخيم الوحدات فوجئت بفراغ رهيب في داخلي. ظننت أن هذا الفراغ هو الحرية التي كنت أبحث عنها. ولكن كم كنت واهماً.. لقد باغتني ظله وأنا أروز حالتي الجديدة.. ثم لم يفارقني حتى التقيت امرأتي.

المقنّع : وإذن ماذا تنتظر!

محمد : أنتظر!

المقنّع : لماذا لا تأتي بها؟

محمد : لم يوافقوا.

المقنّع : أنت تعرف أن موافقتهم سهلة. إذا كانت سهام هي السعادة التي تحميك من القلق وتهديد الأشباح، فإن كل ماتبذله من أجلها رخيص.

محمد : نصحوني أن أعمل هناك.. وأنا الآن أعمل في ورشة بناء في تل أبيب. خاصمتني أختي التي تربي طفلي.. ولكني لن أتراجع.

المقنّع : هذه بادرة طيبة يمكن أن تدعهما بخدمة صغيرة، وتحصل على الموافقة.

محمد : أهي فعلاً خدمة صغيرة؟

المقنّع : إنك تتردد..

محمد : لا أدري.. رغم كل شيء.

المقنّع : إنك تتردد. لاأصدق أنك تحبها كما وصفت.

محمد : هذه هي الحقيقة التي لا يمكن الشك بها..

المقنّع : اصغ إلي.. هل تعتقد أن الألعاب الخطيرة التي ينهمك فيها أخوك ورفاقه يمكن أن تفضي إلى شيء؟

محمد : أخي! لاأعلم.. ربما لا.. لا أقرب هذه الشؤون، ولا

أتعاطاها.

المقنّع : ليس عليك أن تقرب هذه الشؤون. راقبهم فقط.

محمد : راقبهم..

المقنّع : ينبغي ألا ندعهم يهلكون أنفسهم.

محمد : راقبهم..

المقنّع : هذا هو كل شيء.

محمد : راقبهم..

المقنّع : إنك ترتعش.

محمد : راقبهم..

المقنّع : سيدفئك حضنها ويداويك.

محمد : إني أرتعش.

المقنّع : لعلك فوجئت.. ستمر الرعشة، وتحصل على الموافقة.

محمد : إن عظامي نفسها ترتعش. أين أنت يا سهام! دفئيني. اقتربي. لا.. تريّثي. إن الثمن فاحش. لا.. لاتناديني.. أقول إنه فاحش.

المقنّع : خذ وقتك وفكر..

محمد : نعم.. سأفكر. إنها حلاوتي الوحيدة. ولكنه فاحش يا سهام. حقاً.. إن الثمن فاحش.

(تتلاشى الإضاءة..)

سفر الأحزان اليومية / المقطع الرابع..

(إضاءة على غرفة دلال. تظهر الفارعة أولاً، ثم نتبين دلال في حالة غياب).

الفارعة : حين أفرجوا عن دلال أدركت فظاعة ما حل بها. استلّوا شبابها، ورموها في كهولة مبكرة. كانت هادئة وصامتة. كان فيها وقار مرعب يشبه اللغم.

(تكشف الإضاءة دلال وهي في حالة غياب).

الفارعة : دلال.. احكي لي. ماذا فعلوا بكِ.

(صمت)

دلال : أين الطفل؟

الفارعة : إنه نائم.

دلال : لو أنه بقي في الرحم، ولم يخرج إلى الظلمة.

الفارعة : حدثيني.. فضفضي عن نفسك.

(صمت).

الفارعة : ماذا أرادوا منك؟ عمَّ سألوك.

(صمت).

دلال : هذه الرائحة! هذه الرائحة!

الفارعة : أية رائحة؟

دلال : رائحة لا تزيلها عطور مصر والشام، ولا تغسلها مياه الأردن والفرات.

الفارعة : هل أهيء لكِ الحمّام؟

(صمت)

الفارعة : يجب أن تخبريني. هل عرفت شيئاً عن إسماعيل؟

دلال : لايُجبر إناء الخزف إذا كُسر.

الفارعة : ماذا تعنين؟ هل حدث له شيء؟

دلال : لا يستطيع المرء أن يخلع بدنه كما يخلع سروالاً وسخاً.

الفارعة : ولكن ماذا جرى؟

(صمت.. تتغير الإضاءة بخفة ومرونة).

الفارعة : خفتُ من هدوئها وعباراتها المفككة. ولم ألحظ أنها خلف وقارها الصامت، كانت تستكمل مخاضها.

دلال : الأرض ضيقة يا ابنة العم.

الفارعة : إنها أرضنا.

دلال : أرضنا التي لا نملك فيها حتى أجسادنا.

الفارعة : أعرف أن تجربتك كانت قاسية.

دلال : الأرض لا تتسع لنا ولهم. إما نحن وإما هم.

الفارعة : الأرض مباركة. ولولا نزعة العدوان لكانت كريمة ورحبة.

دلال : الأرض أضيق من القبر، إذا لم يزولوا جميعاً. إما نحن وإما هم.

الفارعة : لولا الصهيونية لما كانت بيننا وبين اليهود عداوة.

دلال : وهؤلاء الذين يحاربون، ويعذبون، وينتهكون كل شيء. من يكونون؟.. هل شققتِ صدورهم، وعرفت ما تخبئ قلوبهم؟ لا.. إما نحن وإما هم.

الفارعة : هذه عبارة متهورة قد تتحول ضدنا.

دلال : لا أحبك حين تتفاصحين.

الفارعة : نحن مناضلون يا دلال، ولسنا قتلة. قضيتنا عادلة، وهدفنا هو أن ندحر الصهيونية، لا أن نقتل البشر.

دلال : وهل إسرائيل شيء والصهيونية شيء آخر؟ اسمعي يا ابنة العم.. في بيت أهلي لم أعرف شيئاً عن إسرائيل. كان أبي يعيش في قوقعة من الثراء والتجارة. يخاف من الثورة والرعاع، ونادراً ماكان يذكر إسرائيل. حتى حرب الـ ٦٧ لم تهزه، ولم يخفِ شماتته بعبد الناصر وأنصاره. وحين تزوجت أشفق عليَّ زوجي، ولم يحدثني الكثير عن إسرائيل. لكنني الآن أعرف إسرائيل كما أعرف جسدي. أتعلمين أن لإسرائيل رائحة؟

الفارعة : لم أفكر في هذا..

دلال : رائحة فظيعة، تملأ أنفي وجوفي ومسامي. ختمت إسرائيل هويتها على جسدي، ولن يمحو هذا الختم الرهيب إلا الموت. ما عرفته يا ابنة العم يكفيني. وأنا الآن جاهزة للانضمام إلى المقاومة.

الفارعة : ألا تتمهلين قليلاً؟

دلال : ولم التهمل؟

الفارعة : هل فكرت في الأمر وعزمت؟

دلال : كل العزم.

الفارعة : كم كنت آمل ذلك! ولكن دعينا نبدأ بالمهمات اليسيرة.

دلال : لا.. من صاحب الموت لا تليق به إلا المهمات الكبيرة. وأقول لكِ منذ الآن.. عليهم أن يقبلوني بحقدي ويأسي.

عة : لا أريدك أن تندفعي تحت وطأة اليأس.

دلال : يأسي هو قوتي. وهذا العدو لن يوجهه إلا حاقد ويائس.

الفارعة : وإسماعيل؟

دلال : مع تعاقب الفصول.. وإلى آخر الزمن، سيبحث كل منا عن الآخر، ليلملم جسده المبعثر، وينفخ فيه الحياة.. وكلما تناثرت أعضاؤنا بدأنا مع تعاقب الفصول رحلة جديدة..

(تنسحب الإضاءة عن دلال، وتتريث على الفارعة..)

الفارعة : وانضمت إلينا. حملت يأسها كالحقيبة وانضمت إلينا. كانت قذيفة تتأهب للانفجار. تروح وتجيء، وحولها ترن تلك العبارة كأجراس كنيسة القيامة. إما نحن وإما هم.

(تتلاشى الإضاءة).

سفر النبوءات / المقطع الرابع

(الدكتور في زاوية نصف مضاءة. ثم يعلو الضوء في مكتب مائير. نرى مائير وإسحق).

الدكتور : جعلوا كرمي خراباً ينتحب إليّ. قد خربت الأرض لأنه لا إنسان يتأمل في قلبه.

(الإضاء كاملة في المكتب. مائير يتحدث في الهاتف).

مائير : هاتوه حالاً. **(يضع السماعة)** إنني متلهّف للقائه. لم أشأ تأجيل ذلك إلى الغد.

إسحق : وماذا نأمل منه؟

مائير : لا مفر أمامه. يجب أن يتبرز ما لديه.

إسحق : لم يبق لديه ما يفيدنا.

مائير : بل بقي شيء هام. أتظن يا إسحق أن ما يشغلني هو المعلومات؟ إلى الجحيم بالمعلومات. لدينا ما يفيض عن حاجتنا الأمنية. ولكن ماذا عن كبريائه؟ هل نسمح لهؤلاء القتلة أن يتدرّبوا على الكبرياء؟ هذه بيضة الأفعى التي ينبغي أن نحطمها قبل أن تفقس.

إسحق : لا أظن أنه سيتكلم.

مائير : ستجعله يعوي ويبيض. أريدك أن تقود الحفلة.

إسحق : كنت..

مائير : ما أمرك يا إسحق! هل أنت متوعّك؟

إسحق : لا.. لاشيء على الإطلاق.

(يرن الهاتف، فيرفع مائير السماعة).

مائير : آلو.. أهلاً دكتور.. أتخشى على قلبه! هؤلاء الإرهابيون ليست لديهم قلوب.. لا تخف.. هذه مسؤوليتي. **(يضع السماعة)** كيف حال الوالدة؟

إسحق : بخير يا سيدي. وهي كالعادة تبعث بأصدق تمنياتها.

مائير : كم أرجو أن تكون فخورة بنا!

إسحق : إنها تمتدحك دائماً يا سيدي.

(يدخل موشي ودافيد وهما يقودان إسماعيل. مشيته أقرب إلى الجرجرة وعلى وجهه تعبير فارغ يكاد يتّصف بالعدمية. يتأهب موشي لفك قيوده).

مائير : **(مقترباً)** لاتفكّ قيوده.

دافيد : **(هامساً)** مازال ضعيفاً. لن يتحمّل التيار والمغطس معاً.

مائير : لاشكّ أنهم دلّلوك في المستشفى. انظروا، ألا تبدو الصحّة على وجهه؟ أعتقد أنه صار عاقلاً. لم نكن نريد أن نصل إلى هذا الحد. أخبرتك أن العناد حماقة، ولكنك لم تصغ إليّ. على كلٍّ مافات مات. عرفت بعض فنوننا، ويمكنك أن تجنّب نفسك معرفة الباقي.. هيا.. برهن أنك صرت أعقل **(إسماعيل صامت)** لا تخدع نفسك.. ولا تضاعف حماقتك. هل ستتكلم أم لا؟..

إسماعيل : أتعرف أيها السيد ما هو الموضوع الذي يكدُّ عقول الفلسطينيين؟

مائير : من هم الفلسطينيون؟ لا يوجد فلسطينيون.

إسماعيل : ومع هذا فإن بعض الفلسطينيين يشحذون خيالهم، كي يتصوروا دولة كريمة تتسع لي ولك. دولة حقوقنا فيها متساوية. وحرياتنا مكفولة. إنهم يحلمون بأنك ذات يوم

ستهدم هذا المخفر الحضاري، وستقبل بالحقوق التي توفرها المواطنية لا القوة. وسنعمل معاً، أنا وأنت، كي تزدهر قابلياتنا الإنسانية فتصور أيها السيد أيَّ أوهام نغذّي؟

مائير : وما هذا اللغو المسهل؟ من توسل إليكم كي تخططوا لنا مستقبل وطننا!

إسماعيل : وطنكم!

مائير : نعم.. وطننا الذي لم تكتمل حدوده بعد.

إسماعيل : ووطني.. أين وطني إذن؟

مائير : وما أدراني! اذهب وفتش عنه عند خصيانك العرب.

إسماعيل : لا.. أيها السيد. هنا وطني وهذه أرضي. هنا ولدنا. وهنا ولد آباؤنا وقبلهم أجدادنا. منذ قرون وقرون ونحن نحيك مع هذه الأرض العلاقات والمواثيق. تبادلنا الترويض والملاينة. وَشَمَتنا ووشمنَاها. غذَّتنا أحياء وتغذَّت بنا أمواتاً. اصعد الجليل أو انحدر صوب حيفا، تأمل أسوار عكا أو تفيأ زيتون الخليل، فستجد أينما توجهت وَشْمَاً له سيماؤنا، وينبئ بتاريخنا. خذ أي زيتونة معمرة، واسلخ لحاءها، فسترى كيف يتدفق في نسغها عصير أجدادي، وعرق آبائي. خلال قرون وقرون ونحن نعجن الطين والماء والهواء بخمائرنا. خمائر البشر الذين يحزنون ويفرحون ويثمرون.. وبهذا التخمر البطيء والمديد تتشكل الأوطان. لا.. أيها السيد هنا وطني. هنا تاريخي وحبل مشيمتي. وينبغي أن يكون التاريخ قرصاناً مختلاً، كي يعطي حق الوطن لنزعة إمبريالية تسترها خرافة، وتحملها دبّابة.

مائير : هل انتهيت! لماذا لا تصفقون له! أرأيتم كيف يفكر الإرهابيون!

موشي : سأضع زيتونك وعظام أجدادك في طيزك.

مائير : اهدأ يا موشي! أتسمي ميثاق الرب والوعد الإلهي نزعة إمبريالية؟ نحن هنا لأن الرب وعدنا، ولأن الرب أعطانا، ولأن الرب أقسم أن يسقط في أيدينا كل أعدائنا. ولن تسقط كلمة واحدة من جميع ما كلّم به الرب بني إسرائيل.

إسماعيل : لكم هو مخيف هذا الرب الذي تحكي عنه! هذا الرب الذي يصطفي العنصري..وتشغفه المضاربة على الشعوب والأراضي.. وتلذه رؤية المجازر. لا.. حاشا الله تعالى أن يريد الظلم. أو أن يكون عوناً للمغتصبين والقتلة!

موشي : **(وهو يصفعه)** وماذا تعلم أيها الوثني عن الرب!

مائير : لا فائدة.. هاهم الإرهابيون. وها هي فصاحتهم.

إسماعيل : حقاً لا فائدة. ولكن هل ستكون هناك فرصة كي أخبرهم أننا نطارد السراب. ستكون هناك حروب، تتلوها حروب، وستُسفك دماء كثيرة حتى يحسم الصراع.

مائير : أهذا ما تخططون له! لقد حُسم الصراع أيها الأبله.

إسماعيل : لا.. لم يُحسم بعد أيها السيد..

مائير : إذن.. خذوه وبرهنوا له أن الصراع محسوم. هيا يا إسحق. أريدك أن تقود العملية. ولاتخفف ضغطك حتى يعترف.

(موشي ودافيد يدفعان إسماعيل إلى الغرفة الداخلية. يتبعهم إسحق ومعه مائير.. المكتب فارغ، وثمة بقعة ضوء تكشف الدكتور منوحين).

الدكتور : يداوون كِسْرَ بنت شعبي قائلين سلام سلام.. ولا سلام. ويلٌ لي على انسحاقي. إن ضربتي لا شفاء منها.. وعلمت أن الصراخ ظل ينبعث من تلك الغرفة حتى انقضى الليل، وانبثق الفجر متعثراً خجلان. فجأة ساد الصمت، وانفتح الباب.

(تتغير الإضاءة في المكتب. من الغرفة الداخلية يأتي مائير مكفهراً.. يتبعه موشي ودافيد اللذان يجرّان إسحق. يرفع

مائير سماعة الهاتف).

مائير : رشّ عليه قليلاً من الماء يا موشي..

دافيد : إسحق.. إسحق.

موشي : **(وهو يرشّ الماء)** انهض يا دلوعة ماما.

مائير : لا أريد تعليقات.

موشي : اصفرَّ وانهار مثل الأوانس.

مائير : قلت لا أريد تعليقات، عندما أضع ثقتي في شخص فأنا أعرف عملي. أتفهم؟

موشي : حاضر يا سيدي.

مائير : **(في الهاتف)** دكتور.. اصعد فوراً. نعم.. نعم. المعتقل. توقّف نبضه. اصعد ولاتماحكني **(يضع السماعة).**

(يستفيق إسحق، وقد بدا عليه الاصفرار والإرهاق).

إسحق : ماذا جرى؟

مائير : **(لدافيد وموشي)** اذهبا ورتبا الأمر مع الطبيب **(يخرجان)** وأنت ماذا دهاك؟ لقد أخجلتني.

إسحق : ولكنه مات فعلاً.

مائير : نعم.. لقد مات فعلاً. والميت فيهم أفضل من الحيّ. ماذا جرى لك؟ إني أكاد أنكرك. أهذا من ربيّت ودرّبت؟ قائد الحفلة يصفرّ ويُغمى عليه كالنساء. شيءٌ مخزٍ.

إسحق : اعذرني.. إني متعب. أعتقد أني مريض.

مائير : سأعطيك إجازة للراحة. ولكن احذر. عليك أن تكون بكامل لياقتك حين تعود.

إسحق : حاضر.

مائير : بلّغ تحياتي للأم.

(إطفاء تدريجي).

سفر الأحزان اليومية / المقطع الخامس..

(غرفة دلال، الطفل ممدد على أريكة، والفارعة ترفع بلاطات وتهيء حفرةٍ في أرض الغرفة).

الفارعة : اصغ جيداً يا وعد.. واحتل الصليبيون القدس، وأسَّسوا الممالَك والقلاع.. وظنوا أن الأمر استقام لهم.. لكن القائد صلاح الدين الأيوبي أعدَّ عدة الحرب، وانقضَّ عليهم بفرسان مصر والشام. والتقى العسكران في حطين. فدارت الدائرة على الصليبيين، وهزمهم صلاح الدين هزيمة.. منكرة.

(تدخل دلال. بطنها متكور وكأنها حامل في الأشهر الأخيرة..)

الفارعة : هل تأكدت أن أحداً لا يتبعك؟

دلال : نعم.. كانت الطريق خالية.

الفارعة : ومحمد! هل رآكِ؟

دلال : لا أظن.. لم ألمحه.

الفارعة : ذلك أفضل.

دلال : لماذا؟

الفارعة : لاشيء.. من الأفضل أن يظل بعيداً عنّا. أسرعي وضعي حملك. المخبأ جاهز.

(ترفع دلال أذيال فستانها، فتظهر حزمة مربوطة على بطنها. تساعدها الفارعة في فك الحزمة).

الفارعة : تمنيت أن يكون حبلكِ الأول أقل خطورة.

دلال : الشباب يتوقعون المداهمات في أي لحظة.

الفارعة : ألم تخافي؟

دلال : انتابتني مشاعر عنيفة ومتنوعة، ولكن الخوف لم يكن بينها. حين وضعت الحزم، وثقل بطني، شعرت أن ثمرة تتفتح في رحمي. ثمرة تشبه الدراق، وتفوقها جمالاً. ثم تكوّر إسماعيل نفسه جنيناً في داخلي. وحين مشيت ببطني الحامل، كانت قدماي صلبتين والأرض مستقرة برخاء. وتخيلت أني أنفجر، وأن ذلك المكان ينفجر، وأن جسدي يتطهر، ويخفق في الفضاء كفراشة نقية. حين كنت أنفجر ارتعشت، واستحيت من اللذة الخفية التي تدافعت في عروقي.

(ترتبان الحزم المستطيلة في الحفرة).

الفارعة : لاتستحي من لذتك. استرخي في مائها وتمتعي.

دلال : هل عرفت مثلها؟

الفارعة : في ليالي القلق والوحشة يزورني عمر. عمر الذي يتنفس ويعانق ويعرق. كيف أشرح لك. إن خيالنا هو مملكتنا السحرية. وعلينا أن نشحذه كي يضفي على الأحلام والصور كثافة الواقع. إن عمر الذي يزورني حقيقي وحي. لذتنا ملموسة، وكذلك تعبنا. وحين نتخيل المستقبل، نلمس تكوّنه كما يلمس المعماري ارتفاع الحائط بين يديه.

دلال : عنيت لذة أخرى. كانت أصابع الديناميت تضغط على سرتي. وكانت اللذة تنبجس عنيفة حين أتصور أني أنفجر بها، وأتبدد حرائق وخرائب. يتداخل الموت بالشهوة، والنشوة بالطهارة. إن الانفجار هو رعشتي.

الفارعة : ما يسيطر عليك هو الانتقام، لا النضال من أجل وطن حر

وجميل.

دلال : الوطن الحر والجميل هو بالنسبة لي حلم غامض وبعيد. أما الانتقام فبسيط وواضح. لو أن كلاً منا غذى سببه الخاص للانتقام، وصمم حقاً على الانتقام، لما كان وضعنا مزرياً ومعقداً.

الفارعة : لايمكن أن نحوّل قضية شعب إلى عمليات انتقام فردية.

دلال : العين بالعين والسن بالسن. تلك هي الشريعة. إذا لم تحرقنا شهوة الانتقام، فإننا سنظل ننزف ونصعِّد الأنّات.

الفارعة : أحب تصوراتك العفوية والمستقيمة.

دلال : إن جسدي هو دليلي..

الفارعة : ليت هذا الدليل يكفي.

(تتناهى ضجة خفية قرب الباب. بحركة عفوية تجلس دلال فوق الحفرة، وتخفيها بفستانها. تنهض الفارعة بحذر. تنصت قليلاً ثم تفتح الباب بسرعة. يبدو محمد مرتبكاً)

الفارعة : **(غاضبة)** ماذا تفعل هنا؟

محمد : **(متلعثماً)** لاشيء.. أريد..

الفارعة : ماذا تريد؟.

محمد : أن أرى الصغير.. نعم.. أن أرى الصغير.

الفارعة : دع الأكاذيب.. وقل ماذا تريد؟

محمد : لا تصرخي في وجهي.

الفارعة : أتراقبنا؟

محمد : **(مصعوقاً)** ماذا؟

الفارعة : قل.. أتراقبنا؟

محمد : أختي..

الفارعة : وحق الأخوة والأبوة والبنوة لو صح شكّي..

محمد : أختي.. إني بحاجة إليك.

الفارعة : علامَ تلف وتدور؟ أجبني..

محمد : إني وحيد وخائب.

الفارعة : هذا أعرفه.. ولكن ماذا تفعل هنا؟

محمد : أختي.. أرجوك.. لاتزيدي طريقي عسراً. كل شيء يحتاج إلى قوة، وأنا خائر القوى. لم أستطع أن أكون شهماً، ولم أستطع أن أكون نذلاً. أتعلمين أن النذالة تحتاج إلى قوة داخلية رهيبة!

الفارعة : ما معنى هذا الكلام المضطرب؟

محمد : إني مضطرب.. وإني بحاجة إليك..

الفارعة : ولكن ماذا كنت تفعل؟

محمد : ليكن.. لاأريد مساعدتك.. استطعت دائماً أن أستغني عنكم.

الفارعة : انتظر.. أين تمضي؟

محمد : إلى الجحيم..

دلال : أتظنين!

الفارعة : لا أدري.. إنه يائس.. ومرارته تخيفني..هيا نغيِّر المخبأ..

(تتلاشى الإضاءة..)

سفر النبوءات / المقطع الخامس

(إضاءة على غرفة بيت جدعون. يظهر جدعون نصف عارٍ، وراحيل تتمرغ على الأرض مشعّثة الهيئة، وممزقة الملابس.. يظهر عري جسدها في أكثر من موضع).

راحيل : يا إلهي! إلى أيّ حضيض نهوي! كيف أمكن أن تفعل ذلك؟

جدعون : آسف من أجل الثياب، يمكن أن نرتّب الأمر.

راحيل : سافل.. أهذا ما تأسف من أجله؟ وماذا عنّي أنا؟

جدعون : إذا لم تكتفي يمكن أن نكرّرها.

راحيل : كيف تستطيع أن تكون منحطاً وحقيراً إلى هذا الحد؟

جدعون : إذا واصلت شتائمك، فلن أستطيع ضبط نفسي. إنك شهيّة حين تغضبين **(يداعبها)** وشهيّة حين تقاومين.

راحيل : لا تلمسني. يا إلهي.. كيف سوّلت لك نفسك؟

جدعون : أرجوك لا تلعبي معي لعبة البراءة. كنت تعرفين جيداً ما أريده منك.

راحيل : وهل كنت أعرف أنك ستناله بهذه الطريقة؟

جدعون : هذه الطريقة أو تلك.. ما الفرق؟ أعترف أني أفضل الخشونة في الحبّ.

راحيل : خشونة! ولكنك اعتديت علي.

جدعون : لست من هؤلاء الرجال الذين يذوبون كقوالب الزبدة.

لديك في البيت قالب زبدة، وهذا يكفي.

راحيل : لايهمني ما أنت بين الرجال، ولا أدري إن كنت تحسب منهم. لقد هتكتني.

جدعون : لاتنسي أنك جئت بمحض اختيارك.

راحيل : جئت لأنك وعدتني بالصداقة، ولأني بحاجة إلى معونة صديق.

جدعون : كان ذلك أسلوباً في التودّد إليك.

راحيل : أو قل أسلوباً لاستدراجي، وخداعي.. يا إلهي.. ومن تستدرج؟ إني زوجة صديقك.

جدعون : ومن قال إن زوجك صديقي؟ ليس لدي أصدقاء. القوة هي صديقي الوحيد.. أنا من أجيال الصابرا يا راحيل، من هؤلاء الذين يتعلمون أن الرجل الفعلي لا يحتاج إلى أصدقاء، وأن عليه ألا يثق بأحد.

راحيل : وأغانيك عن الرشد المسلوب، والمشاعر التي لايترجمها لسان!

جدعون : الحب بالنسبة لي هو الرغبة. وكانت رغبتي عارية.

راحيل : يا إلهي.. كيف ورّطتني الأكاذيب! وإلى أيّ حضيض هويت!

جدعون : إسمعي يا حبّوبة، لم تتورّطي، ولم تنخدعي.. كنت تعرفين بوضوح إلى أين أنت قادمة. ربما لم يعجبك الأسلوب. ولكن بالنسبة لي هذا هو الحب.. إنه عنف وسيطرة.

راحيل : لماذا لاتقولها؟ إنه الاغتصاب.

جدعون : حين كنا صغاراً علمونا أن نحذر الشفقة والحنان، وأن ننتزع ما نريده انتزاعاً. نعم الاغتصاب. وكلما ازددتُ ضراوة، ازداد تقدير بابا لي.

راحيل : بابا؟

جدعون : أعني رئيسنا السيد مائير.

راحيل : وهل تخبر السيد مائير عن غزواتك؟

جدعون : لا داعي لإخباره، فهو يرى بنفسه. إننا نقضي أوقاتاً ممتعة في المركز.

راحيل : أتشتركان معاً في هذه الأمور؟

جدعون : إننا نشترك جميعاً. ألم يحدثك إسحق عن الحفلات التي نقيمها؟

راحيل : إنه لايحدثني عن العمل. أيشارك هو أيضاً؟

جدعون : وماذا تظنّين؟ لكن ليست له قامتي. فيه خَوَر أنثوي. منذ أيام أغمي عليه كالنساء. لا أعتقد أن امرأة مثلك يمكن أن تكون راضية معه.

راحيل : ومانوع الحفلات التي تقيمونها؟ أهي حفلات اغتصاب؟

جدعون : اغتصاب وأشياء أخرى..

راحيل : يا إلهي.. مامعنى هذا!

جدعون : إنه عملنا. نحن نتعامل مع مخلوقات كان يجب أن تُباد لولا الاعتبارات الدولية. إن أمن إسرائيل لايمس،ولهذا فإن علينا أن نكسر عظامهم كي يبيضوا مالديهم من نوايا وشرور.

راحيل : وهل هذا مرهق؟

جدعون : بل إنه ممتع. الرجل الذي تربّى على الوحدة وصداقة القوة، لايمكن إلا أن يستمتع به.

راحيل : وإذن.. فإن عملكم الفعلي هو التعذيب..

جدعون : إنها اللغة الوحيدة التي يفهمها الإرهابيون.

راحيل : وتستخدمون تلك الوسائل التي نقرأ عنها في الكتب؟

جدعون : عدتنا أحدث من أيّ كتاب. ولدينا أدوات لم نجرّبها بعد.. لكن كما يقول بابا.. ليس هناك ماهو فعّال مثل كسر الخصيتين، أو مباعدة فخذي المرأة أمام زوجها.

راحيل : ويشارك إسحق في هذا كله؟

جدعون : طبعاً. ولكن فيه رخاوة لا تخطئها العين. منذ فترة أتينا بزوجة أحد المعتقلين، وأقمنا حفلة صاخبة. لكن إسحق حاول أن يتفوّق في القسوة. أمسك شفرة وراح يشطب عانتها وثدييها.. ثم قطع حلمة نهدها الأيسر. **(يقترب منها. ومع الكلام يتنامى هياجه)** كرزة حمراء دامية. حملها بين إصبعيه، ثم رماها بنفور وهلع. كان وجهه محتقناً، وعيناه تبرقان في وميض يائس. الموسيقى صاخبة، والدم يسيل مع انحناءات الجسد. وحلمة نهدها كرزة حمراء ملقاة على الأرض.

راحيل : **(برعب)** لا تلمسني.

جدعون : شهيٌّ رعبك. شهيٌّ غضبك.. شهيَّةٌ شراستك..

راحيل : لا تلمسني. ابتعد عني، وحوش. إنكم وحوش. يا إلهي إلى أيِّ حضيض نهوي؟

(يسيطر عليها، وتبدأ عملية اغتصاب جديدة.
تتلاشى الإضاءة).

سفر النبوءات / المقطع السادس

(غرفة الجلوس في بيت بنحاس. يجلس إسحق شارداً. الأم تقرأ في مجلة. وبحركة آلية تمدّ يدها إلى راديو ترانزيستور. تفتح الراديو. ينطلق صوت المذيع.. تعدّل الصوت).

صوت المذيع : قصفت طائرات الجوّالإسرائيلي قواعد للمخرّبين في جنوبي لبنان. وقد أفاد الطّيارون بأنهم أصابوا الأهداف إصابات مباشرة. أصدر الحاكم العسكري أمراً بإغلاق جامعة بيرزيت على خلفية الإضطرابات التي شهدتها المناطق..

إسحق : **(متأففاً)** أرجوك.. أغلقي المذياع.

(الأمّ تغلق المذياع بانزعاج).

إسحق : تأخّرت راحيل.

الأم : إنها تحب التسكّع في الأسواق.

إسحق : أماه.. حاولي ألا تكوني قاسية عليها.

الأم : خير لها أن تعود إلى عملها.

إسحق : لا تستطيع أن تترك الطفل.

الأم : الطفل مسؤوليتي. إني أفعل له كل شيء. وأريد أن أربّيه كما يجب.

إسحق : وأمّه! ألا يحق لها أن تشارك في تربيته؟

الأم : ليست لديها الخبرة. منذ أيام سمعتها تناغيه بحكايات سخيفة.. البرقوق الذي تزوج الحلاوة. والحلاوة التي وضعت

طفلاً من السكر.. وتفاهات من هذا النوع. أنا على الأقل ربيتك. وحين أراك الآن أشعر بالزهو.

إسحق : لست متأكداً أن لديّ مايبعث على الزهو.

الأم : لا أسمح لك. إياك أن تظنّ أن التواضع فضيلة.

إسحق : أماه.. أودّ لو تحدثينني عن أبي.

الأم : مابك يا بني؟ حالك في الفترة الأخيرة لا يعجبني.

إسحق : حدّثيني عن أبي.

الأم : دع الموتى راقدين في قبورهم.

إسحق : كنت دائماً تتحاشين الحديث عنه. أحياناً يخيّل إلي أن جوزيف بنحاس لم يوجد وأنه مجرّد انطباع عابر من انطباعات الطفولة.

الأم : ذلك أفضل، لأنه ماكان يصلح قدوة لابنه.

إسحق : هل كان سيئاً إلى هذا الحدّ؟ أذكر رجلاً دافئ النظرة يعزف على الكمان. كان المساء ملوناً، واللحن ينساب بين الألوان مثل جدول عسلي.

الأم : نعم.. الكمان. هذا ماكان يحسنه، بينما الرجال يتدرّبون على السلاح، ويخطّطون لمستقبل الدولة، كان رجلاً خائر العزيمة، مثقلاً بالمرارة.

إسحق : ولِمَ المرارة؟

الأم : وما أدراني.! ربما لأنه وافق على المجيء معي. وربما لأنه لم يجد له مكاناً في المجتمع الذي يتأسّس.

إسحق : ألم يكن راغباً في العودة إلى أرض إسرائيل!

الأم : كان موسوساً. لم يشاطرني حماستي للصهيونية، ولكنه لم ينقدها كما كان يفعل بعض المتحذلقين والشيوعيين. ظننت أن دفعة صغيرة تكفي كي أتغلّب على موقفه المتردّد. وحين فاتحني بالزواج، اقترحت عليه أن نهاجر بعد الزواج، وأن

نبني حياتنا هنا، فاستخفّته الفكرة ووافق.

إسحق : هل كنت تحبّينه؟

الأم : وأنت.. هل تمارس دور المحقّق مع أمك!

إسحق : تكلمي يا أماه.. أريد أن أعرف.

الأم : ربما أحببته في البداية، أو بالأحرى خُدعت به. جذبني استقلاله ومزاجه الفني. كان يبدو واعداً. ولكن بعد مجيئنا تبيّنت أن ذلك كله قشرة يخفي بها عدميّته.

إسحق : أذكر رجلاً يجلس على الأرض، وحوله أوراق وقصاصات ملونة. كان يصنع طائرة ورقية لها ذنب مدهش.

الأم : نعم.. كان يفتنه اللهو، وكل ماهو عقيم.

إسحق : أذكر الطائرة وفرحتي بها.

الأم : لو تركتك له لأفسدك. آه.. كم كنت خائفة عليك!

إسحق : كيف هاجرتما؟ وكيف عشتما هنا؟

الأم : لم نحمل معنا إلّا الكمان وصندوق كتب وملابس. حين وصلنا أرض إسرائيل كنت كالمحمومة أتّقد حماسة، وانفعالاً. أما هو فكان فاتراً لايكفّ عن التذمر. استقرّ بنا المقام في أحد الكيبوتزات. تلك الأيام.. بدت لي الحياة إمكانية مذهلة، فانغمست فيها بفرح وشجاعة. لكن أباك ظل متباعداً، وعجز عن إتقان أيّ عمل. ثم بدأ تذمّره يتزايد حتى تحوّل إلى نوع من العداء المرير. كانت الهوّة تتسع بيننا كل يوم. وكان يعرف أنه يخسرني إلى الأبد.. وربما كان هذا أيضاً من أسباب مرارته.

إسحق : وعلام كان ينصب عداؤه؟

الأم : على كل مانؤمن به، الحركة الصهيونية، والهجرة، والوطن القوميّ.

إسحق : هل كان يُسِرُّ لك بأفكاره؟

الأم : بل كان يعلنها بوقاحة صاخبة. في فترة من الفترات أصابه ولع الدفاع عن العرب. كان يريد مناكدتنا. صار يجمع أقوال اليهود الموسوسين من أمثاله ويتشدّق بها أمامنا. قال فلان وقال علّان. وكنت أحمرّ خجلاً، وأتميز غيظاً. وذات يوم سمّانا وكالة للرأسمالية اليهودية والعالمية، فأمسكه مائير من ياقته، وقال له بصوت باتر.. ابلعه. فبلع لسانه وسكت. كان جباناً رغم ضوضائه.

إسحق : ألم يكن السيد مائير صديقه؟

الأم : مائير صديقه! كان يحتقره، ويعتبره خطراً على قضيتنا. من أجلي لم يتّخذ ضده أيّ إجراء.

إسحق : وهل مات فعلاً بالتليّف الكبدي؟

الأم : هذا ما قاله الطبيب.. كانت به علل كثيرة، لكن المرارة هي التي قتلته.

إسحق : هل مرض فترة طويلة؟

الأم : لا.. لم يطل مرضه. لازم الفراش نهاراً، وفارق في الليل. كان موته مريحاً ومناسباً.

إسحق : لمن؟.. لك وللسيد مائير!

الأم : للجميع. وأولهم أنت.

إسحق : أنا؟

الأم : طبعاً. كان يهيئ لك تربية عدميّة. عارض إرسالك إلى حضانة الكيبوتز، وحاول أن يحبسك في البيت، كي ينقل إليك تأثيراته الضارّة. كم عانيت كي أبعدك عنه! وكم خفت حين بدأت تتعلّم العزف على الكمان! لولا مائير ما كنت أعرف كيف أتحمّل محنتي معه.

إسحق : أحياناً يخطر لي أن السيد مائير هو أبي الفعلي.

الأم : إسمع يا إسحق. لا تحسب أني سأتصنّع الحياء أمامك. أنت

من صلب جوزيف بنحاس، ولكن كنت أودّ بكل جوارحي لو أنك من صلب مائير. وعلى كل إذا كان الأب هو الذي يربّي، ويساعد الابن على بناء شخصيته، ومستقبله، فإن مائير هو أبوك الفعليّ. لقد قاسمني مسؤوليتك، وعلّمني كيف أصوغ حياتك ومستقبلك.

إسحق : لماذا لم تتزوّجا بعد موت أبي؟

الأم : لأن ما بيننا يسمو على أي عقد أو زواج.

إسحق : هل فضلتما العلاقة الحرّة؟

الأم : ربما صار من حقك أن تعرف. لايوجد مايشبه علاقتنا يا إسحق. بعد فترة من إقامتنا في الكيبوتز التقيت به. كنا نحضر اجتماعاً للحركة. ونهض أمامنا شابّ ملكي في وقفته وقامته. كانت لحظة خارقة. رأيت سليل داود يهب من بين الأموات متلفّعاً بالسحر والجمال. كان مهاجراً جديداً. وحين قُدِّمت إليه، تملّكتني رعشة، وقلت في نفسي هذا بوصلتي إلى وطني ومجدي.. وسرنا معاً.

إسحق : إذن كانت النزاهة تقتضي، ألّا تبقي مع أبي؟

الأم : تلك كانت رغبتي، ولكن مائير كانت لديه فكرته الخاصّة عن النقاء.

إسحق : وما هذه الفكرة؟

الأم : آه.. كيف أشرح لك. الأفضل لو تركنا هذه الذكريات.

إسحق : لا.. لا نستطيع أن نتركها قبل أن أعرف.

الأم : إنك تقلقني هذه الأيام.

إسحق : وضّحي لي يا أماه.. أيّ نوع من العلاقة كانت تربطك بمائير؟

الأم : أحبّني كما أحب الربّ إسرائيل. وأحببته كما يحب اليهوديّ المسيح. كان حبّنا صياماً ومكابدة.

إسحق : لم أفهم شيئاً.

الأم : كان مائير يفكر أن حلمنا لايحقّقه إلا جيل مفعم بالوجد والطهارة. كان يقول ينبغي أن نكون روحاً شفافة كالفجر، صلبة كالنصل كي تكتمل المعجزة.

إسحق : أية معجزة؟

الأم : إسرائيل ومجدها. نحن جيل تعّهد أن يصحّح تاريخاً طويلاً من الخطأ والآلام. وعلينا أن نكتشف في أعماقنا ينابيع قوة بكر. لأن المعجزة لا تبنيها إلا قوة بلا خطيئة. هكذا كان يتكلّم.. وكنت أحسّ أني كائن أثيريٌّ يطفو فوق حلم.

إسحق : هل كان يؤمن بذلك فعلاً؟

الأم : كما يؤمن بقضيته.

إسحق : وأنت؟

الأم : حين كنت أصغي إليه، كنت أحسّ أني في حضرة نبيّ. نفذ إيمانه إلى أعماق روحي، فبدأت أرّوض جسدي، وأتعلّم لذة المكابدة والتسامي.

إسحق : وأبي؟

الأم : هجرت فراشه إلى الأبد.

إسحق : وحافظت مع مائير على طهارة العلاقة؟

الأم : مرة.. ولكن مالنا وهذا الحديث!

إسحق : مرة..

الأم : مرة كدنا نضعف. أو للحقّ، أنا التي ضعفت. ويبدو أننا تورّطنا بصورة مزرية. حين انتبه، هبَّ واقفاً وقال ببرود غاضب.. أخطأت أورشليم خطأً فلحقها الطمث. ومكرّموها ازدروها لأنهم رأوا سوأتها. آه.. تمنيت لو تنشقّ الأرض وتخفيني عن عينيه. لقد انكسر جمالي، وفقدت حظوتي في قلبه. قال مازالت فينا أرجاس. وبعدها

لم يخلُ بي أبداً.

إسحق : ولهذا انقطعت زياراته؟

الأم : ولكن حبّنا ظل حياً.

إسحق : حبّ عصابي وعاقر.

الأم : إنه الحبّ الذي بنى المعجزة.

إسحق : معجزة لا تفرح ولا تنجب.

الأم : إياك أن تقول ذلك. تطهّرنا، وكابدنا لكي تفرحوا أنتم وتنجبوا.

إسحق : ألا يمكن أن يكون مائير؟

الأم : أن يكون ماذا؟

إسحق : لاشيء.

الأم : إسمع يا بني. إن مائير رجل كامل، وبأمثاله تحقّقت معجزة إسرائيل. عاش كالراهب الذي نذر نفسه لقضيته. وبطولاته في الأرغون مأثورة. أنتم جيل مدلّل، لأنكم حظيتم بآباء مثل مائير. لو تعلم بأي دأب وحنّو كان يخطّط لمستقبلك. وها أنت الآن تعيش ذلك المستقبل. عمل خطير، ورئيس كالأب. لقد نجح رهاننا، وأرجو أن ترقى السلّم الذي رفعه لك مائير بما يليق من التفاني.

إسحق : نعم... لقد خطّط لكل شيء، ولكن لم يخطر لأيّ منكما أن يسألني، إذا كنت أريد هذا العمل..

الأم : وكيف لا تريده.. إنه واحد من أجلّ الأعمال في دولتنا. إنك العين التي تحمي هذه القلعة التي بنيناها. ولا يتاح للكثيرين هذا الشرف، وهذه الرتبة.

إسحق : عملنا شاقّ يا أمّاه.

الأم : هذه النغمة المتذمّرة جديدة علي. إن إحساس الأم لا يخطئ. هناك شيء ما لايسير. قل لي مابك!

إسحق : إني متعب.

الأم : سأحضر لك قرصاً فوّاراً.

إسحق : لا.. لا.. التعب هنا.. في أعماقي. لم أعد متأكداً أن ما نقوم به جليل.

الأم : من المؤكد أنه جليل.. إن الإيمان أقوى من الحقيقة يا إسحق. ولايجوز أن يتزعزع إيمانك لئلا تضيع. أخشى أن يكون ذلك من تأثير زوجتك. هل تحدّثها عن عملك؟

إسحق : لا.. إنها لاتعرف شيئاً.

الأم : هذا أفضل، فهي كائن هش! **(صراخ طفل)** آه.. استيقظ حبيبي. إني قادمة يا داوودي.. إني قادمة يا ملكي.

(تهرع الأم خارجة)

إسحق : متعب ومشوّش. أذكر رجلاً عذب الوجه، بارع اليدين، يتناول المعجونة ويصنع مها أرنباً، وشجرة، وكماناً.

(تعود الأم حاملة الطفل).

الأم : ملكي غاضب.. عفوك.. عفوك.. تقلّد سيفك على فخذك، وبجلالة اقتحم.. نعم.. نعم.. هذا بابا **(تعطي الطفل لإسحق)** لاعبه قليلاً ريثما أحضر الماء والحليب.

(تخرج الأم. إسحق يناغي الطفل. تدخل راحيل مشعّثة الهيئة وملتفّة بمعطفها).

إسحق : أين كنت؟ كدت أقلق عليك.

(تنتزع الطفل منه، وتنزوي في ركن قصيّ. تدخل الأم).

الام : **(مقتربة من راحيل بخطوات حاسمة)** يجب أن أغيّر له، وأرضعه **(تحاول راحيل التشبّث بالولد. الأم تحاول انتزاعه من بين يديها)** إنه مبلّل وجائع. تعال يا ملكي تعال **(فجأة تتخلّى راحيل عن الطفل بحركة يائسة.. تحمله الأم، وتمضي به)** شعوب تحتك يسقطون. اسمعي يا بنت وانظري. انسي

شعبك وبيت أبيك.

إسحق : (**يقترب من راحيل**) لماذا تأخّرت؟

راحيل : يا إلهي.. إلى أيٍّ حضيض نهوي!

إسحق : (**يلمسها**) ماذا حدث؟

راحيل : (**مرتاعة**) لا.. لا تلمسني.

إسحق : ماذا هناك؟ ولم هذا الهلع كلّه؟

راحيل : لاتلمسني.

إسحق : هل تتقززين مني؟ كنت أعلم أنك لن تتحمّلي الأمر. لا ألومك. شابّة بمثل حرارتك لايمكن أن يرضيها زوج كالأخ.

راحيل : يا إلهي.. إلى أيٍّ حضيض نهوي!

إسحق : أعرف أنك تقاسين. وأن حياتنا تتدهور. ولكن.. كنت آمل ألا تتخلّي عني. لو تعلمين كم أنا بحاجة إليك! لا.. لا أحاول أن أستدرّ شفقتك، فالشفقة تزيد وضعنا زيفاً. إني وحيد.. وكم هو فظيع أن يكون الرجل وحيداً مع عجزه.. ألا تقولين شيئاً؟

راحيل : يا إلهي، إلى أيٍّ حضيض نهوي!

إسحق : إذا كان هناك رجل آخر، فإني أستطيع فهم ذلك. هناك ثمن يجب أن يُدفع. (**مستدركاً يحاور نفسه**) ولكن ما مبرّر أن يكون هناك ثمن! ما الخطأ! إننا نقوم بواجبنا. ألم يعلّموني أن أكون حادّاً كالموس؟ وحيداً وقاسياً كالخوف؟ ألا نعرف أن كل شيء سيتقوّض إذا تركنا العطف يتسرّب إلى قلوبنا.. إذن لماذا الثمن؟ من أجل بعض المخربين العرب! أليس العربي الطيّب هو العربيّ الميّت! فعلام الندم إذن!

راحيل : يا إلهي.. إلى أيٍّ حضيض نهوي!

إسحق : حقاً.. لقد هوينا. كم كنا سعداء قبل ذلك! أتذكرين أوقاتنا الجميلة.. ذلك المساء حين اشتعلت الرغبة في جسدينا ونحن

في الحديقة. وما فعلناه في السينما. و.. كنّا سعداء فعلاً. والآن.. أيّ خراب! كان مائير يريد أمي بلا طمث. أتتصوّرين! تحابّا سنوات ولم يحدث بينهما شيء. هي قالت لي. والجميع ينظرون إليه كما ينظرون إلى الرجل الإله. أشمّ رائحة كذب وعقم وخواء. أعرف أني أفقد تقديرك لي، ولكن يجب أن أبوح بما يجيش في داخلي. إني في نفق لايبدو له مخرج. عملنا كريه يا راحيل. هو ضروري، إلا أنه كريه. تعبت، ولم أعد أحتمل. إني طبيعة هشّة. نعم. أقولها لك بصراحة. إني ابن أبي. منذ لحظات كانت تقول أمي إن موت أبي كان مناسباً ومريحاً. هو الآخر كان طبيعة هشّة. لايجوز أن نعطف على أعدائنا. هذا أدركه. ومع ذلك فإن تغذية الكراهية تستنفد القوى كتغذية الحب، لا أدري عما أتكلم. إن ذهني مشوّش يا راحيل. ولكن يجب أن أتكلم، حتى ولو ازداد نفورك مني. إنك لا تعرفين الأشياء الفظيعة التي نفعلها كي نحافظ على أسطورتنا. اسعفيني بكلمة.

راحيل : أريد أن أتقيّأ.. يا إلهي.. إلى أيّ حضيض نهوي!

إسحق : هل بلغ النفور هذا الحدّ! ذهبت إلى الدكتور منوحين. لقد شخّص لي مرضي. إنه نوع من عقاب النفس. إنه تعبير جسدي عن ندم خفيّ؟ طبعاً لاتستطيعين أن تفهمي ذلك. فأنت كالجميع تعتقدين أن كل مايحقّق نجاحنا هو نظيف ومشروع. وإذن فعلامَ الندم!. كان علينا أن نقوم بعمل رهيب يا راحيل. هناك مخرّب عنيد لا يريد أن يعترف. وطلب مائير أن نضغط عليه بطريقة مفزعة. جئنا بزوجته، و.. حطّمنا رجولته. إنه الآن في داخلي يعاقبني ويعوّق رجولتي.. أو هناك إنسان في داخلي يتولى عقابي. إنسان آخر.

راحيل : **(تصاب بالفواق وكأنها ستتقيأ، ثم تهدأ)** يا إلهي.. إلى أيِّ حضيض نهوي!

إسحق : لم يكن حشرة. ولم يكن قمامة نرميها في المزبلة. كان رجلاً له عينان مروّعتان، ووجه تتكلّم ملامحه وتصرخ. كان إنساناً.. وقبل أيام مات بين يديّ. كابرت أمام الطبيب. ولكن ماالفائدة! لم تقنعني كل التبريرات. ولم تهدّئني دروس الكراهية التي حفظناها. تستطيعين كإسرائيليةأن تحتقريني، ولكن أقول لك دون مواربة. إن هذا فظيع، وإني أتقزّز من نفسي. لا أحتمل هذا العمل. ولا أريده. ساعديني يا راحيل. أريد أن أخرج من هذا النفق المظلم. ربما لم تفت الفرصة.. آه.. ليتنا نبتعد.. نبتعد ومتاعنا طفل وحب وكمان.

الأم : **(داخلة)** لماذا تحطم نفسك يا بني؟

إسحق : أمي! نعم.. تعالي أنت أيضاً. هل سمعت اعترافاتي كلّها؟

الأم : سمعت ما سمعت. أسألك.. لماذا تحطّم نفسك؟

إسحق : بل أحاول لملمة حطامي يا أماه. إننا نتشوّه، ونحن نشوّههم.

الأم : لن تزيدهم تشويهاً. وماتفعلونه أقل مما أوصانا به الربّ.

إسحق : ربما لم يتخيّل الرب أننا سنطوّر فنون التعذيب إلى هذا الحدّ.

الأم : لاتجدّف. أوصانا الرب ألّا نعفو عنهم، وأن نقتلهم رجلاً وامرأة طفلاً ورضيعاً، بقراً وغنماً، جملاً وحماراً.

إسحق : كان عليه أن يخلقنا على نحو آخر، إذا كانت تلك وصيته.

الأم : العيب فيك وليس في خلقه. ومن المخيّب أن أكتشف أن مابذلته خلال هذه السنوات لم يصلح ذلك العيب الوراثي. تلك جرثومة أبيك، ولن نسمح لها بالتكاثر والنموّ. لحظة الضعف هذه يجب أن تمرّ.

إسحق : لن تمرا. فالشكوك تنخر روحي.

الأم : إلامَ ترمي بحقّ الرب؟

إسحق : لست مقتنعاً أن مانفعله عادل.

الأم : مادام ضرورياً لمنعة إسرائيل ومجدها فهو عادل.

راحيل : وهل ضروري لمنعة إسرائيل ومجدها أن أُغتصَب أنا أيضاً!

إسحق : ماذا تقولين؟

الأم : **(باحتقار)** وماهذه القصّة أيضاً؟

راحيل : لقد اغتصبني زميلك الفعال جدعون.

إسحق : أعيدي ماقلت.

راحيل : لقد اغتصبني جدعون.

إسحق : يا إلهي.. حقاً إلى أي حضيض نهوي!

الأم : الزنى شيء، والاغتصاب شيء آخر.

راحيل : اغتصبني كما يغتصبون العربيات أثناء عملهم المجيد. حدّثها عن حفلاتكم يا إسحق. حدّثها عن حلمة النهد المبتورة.

إسحق : يا إلهي.. إلى أيٍّ حضيض نهوي!

الأم : زانية..

راحيل : أنت يا امرأة الحليب الفاسد. كنت أحاول مساعدة ابنك، وهذا مانالني. **(تفتح معطفها، فتظهر ثيابها الممزقة وخدوش جسدها)** انظري جسدي وثيابي يا مرضعة الذئاب. ذئاب ضارية في بريّة هجرها الله تقزّزاً.. تقزّزاً.

(تضع يدها على فمها لتمنع اندلاق القيء، وتهرع خارجة).

إسحق : يا إلهي إلى أيٍّ حضيض نهوي!

الأم : كنت أعلم أن هذه المومس ليست منا **(تداعب شعره)** اصغِ إليّ يا بني. لن نتركها تهدم كل مابنيناه.. تعالَ.. تعالَ إلى حضن أمك **(إسحق يقاوم)** منذ زمن طويل لم نقرأ سيرة الميلاد والبطولة. استرخِ يا بني دع أمك تهدهدك، وتحكي لك ماتحتاج إلى سماعه.

(إظلام تدريجي).

سفر الأحزان اليومية / المقطع السادس..

(إضاءة على مشهد مظاهرة.. صياح وإطلاق رصاص. الفارعة تترنح.. إنها مصابة. بوق سيارة إسعاف تقترب من بعيد..)

الفارعة : رصاص.. لاشك أنه رصاص. لماذا لايركض هذا الولد! اركض.. اركض. ساقاي رخوتان. كل شيء بدأ من الجنازة. الله أكبر. عاد إسماعيل في تابوت مسمّر. لم يسمحوا لنا أن نرفع الغطاء، وأن نرى التعبير الأخير على وجهه. رصاص. لاشك أنه رصاص. جنود مقنعون ومدججون بالسلاح. وسط الدموع كبّرنا وهتفنا. كانت الجنازة مهيبة. ولم يضطرب الموكب حتى واريناه التراب. ريقي جاف. أين دلال؟ لم تبكِ. ولكنها انفجرت كالديناميت. اتسعت المظاهرة. وبدأت الصدامات. ساقاي ألين من القطن. إني عطشانة. الجنود مقنعون ومدججون بالسلاح. رصاص وغيمة سوداء. عاد أخي وابني الذي لم ألده في تابوت. وعمر.. **(تتداعى ببطء)** آه يا عمر.. إني عطشانة. ودلال.. لماذا لا تسمعني؟. رصاص.. يارب.. إنها دلال.. وقامتها تسمو وتعلو.. هي الفارعة يا إسماعيل.. انظر إليها.. إنها تتقدم وحولها زوبعة من الرنين..غيمة ثقيلة.. أريد هواء.. رصاص، وتابوت، وعتم.. أسمع الرنين حول

دلال. كانت محقة. لاتحبي المتفاصحين يا دلال؟. لاتحبي الموظفين وتجار الكفاح. أريد ماء.. رنين.. رصاص ورنين.. إمّا هم.. وإمّا نحن.

(تغيب عن الوعي، ويعلو بوق سيارة الإسعاف بشكل مصمّ).

سفر النبوءات / المقطع السابع

(ضوء ينير ركناً يظهر فيه إسحق وراحيل).

إسحق : هل خسرنا كل شيء؟

(تهز راحيل كتفيها بحركة عاجزة ومتعبة).

إسحق : هل خسرنا كل شيء يا راحيل؟.

راحيل : ربما..

إسحق : هل نستسلم بهذه السهولة؟

راحيل : لم يبق ما نقاوم من أجله.

إسحق : إني بحاجة إليك. لو وقفت إلى جانبي فقد نجد مخرجاً من هذا النفق.

راحيل : لا أستطيع.

إسحق : لماذا؟ هل انطفأ حبّك تماماً؟

راحيل : إني مكسورة، وأحتاج من يجبر كسوري. لا.. لا أستطيع مساعدتك.

إسحق : لاتظنّي أني سأترك جدعون يفلت بفعلته. لا أريد أن أكون أخرق، ولكني سأصفّي المسألة.

راحيل : لايهمّني الأمر. معدتي تجيش. لا أريد أن أسمع شيئاً عن هذا كله.

إسحق : هل اتخذت قراراً ما؟

راحيل : ربما..

إسحق : ماهو؟
راحيل : قد ألبي دعوة عمتي. كلانا الآن محتاج للآخر.
إسحق : ونحن.. أنا والصغير محتاجان لك أيضاً.
راحيل : ليس لديّ ما أقدمه لكما.
إسحق : أتتخلّين عن الصغير أيضاً؟
راحيل : ملعونة تلك الساعة التي أنجبته فيها. ألم تنتزعه أمك مني؟
إسحق : إني أفهم ما تعانين. أعرف أن الأمور تعاقبت بصورة مريعة، أمي ومرضي وجدعون.. ولكن أعطينا فرصة. كنا زوجين متحابين وأنجبنا ثمرة جميلة. دعينا نعالج أمورنا بتروٍّ.
راحيل : سأجنّ لو بقيت هنا. هذا الغثيان.. وهذه الكوابيس.. إني أتدلّى في فراغ مرعب.
إسحق : سأترك العمل، وأنتقل إلى وظيفة مدنيّة في الخارج.
راحيل : هذا شأنك.
إسحق : يمكن أن نسافر معاً. أن ننقذ أنفسنا ونبتعد.
راحيل : ستكون أمامنا فترة طويلة حتى تلتئم الجراح، وقد لا تلتئم.
إسحق : دعينا نجرّب.
راحيل : جرّب إذا شئت ولكني لن أبقى هنا.
(تنقبض ملامحها. إنها تغالب الغثيان).
إسحق : هل صمّمتِ؟
راحيل : نعم..
إسحق : أمهليني قليلاً.
راحيل : لا أحتمل هذا البيت. لا أحتمل رؤيتك. لا أحتمل أمك، لا أحتمل جسدي، وهذا الغثيان.. لا.. ينبغي أن أهرب، وإلا نفقت كما تنفق الكلاب.
(تضع يدها على فمها، وتهرع إلى الداخل).
إسحق : ماذا ينتظر المسيح حتى يظهر؟ لا فائدة من المماطلة.

(يخرج إسحق.. تبدأ الإضاءة بالخفوت تدريجياً.. تدخل الأم وهي تدفع مهد الطفل أمامها).

الأم : وأقبل جميع شيوخ إسرائيل إلى الملك في حبرون. فقطع معهم الملك داود عهداً في حبرون أمام الربّ، ومسحوا داود ملكاً على إسرائيل. وأخذ داود حصن صهيون وأقام في الحصن، وسمّاه مدينة داود. وكان داود لايزال يتعاظم والربّ إله الجنود معه.

سفر الأحزان اليومية / المقطع السابع..

(الفارعة مضمدة وممددة على سرير مستشفى. تجلس دلال على طرف السرير..)

الفارعة : كنت كمن ينهض من الموت.

دلال : وكيف وجدت الموت؟

الفارعة : الموت حق. ولكنه موحش ومخيف. هل طالت غيبوبتي؟

دلال : قرأنا الفاتحة مرات. وفجأة انتفض بدنك، وقرر أن يحيا.

الفارعة : يموت الغالي ويحيا الرخيص..

دلال : أنت أغلى مما تتصورين. لو تعرفين كم شاباً تبرع لك بالدم!

الفارعة : هل أعطوني من دمهم؟

دلال : كنت بحاجة إلى دم كثير، فتدافع الشباب للتبرع. الآن.. كل الدم الذي يتدفق في عروقك شاب.

الفارعة : هم أحوج إلى دمائهم من عجوز مثلي.

دلال : الدم يعوَّض أما الفارعة فلا تعوض.

' عة : حماكم الله.. وأنتِ يا دلال.. هل تجاوزت المحنة؟

دلال : لا أريد أن أتجاوزها.. إنها تزيد خياري يقيناً ووضوحاً.

الفارعة : في غيبوبتي رأيتك كالشجرة المباركة، فرعك في السماء، وجذرك في الأرض.. كنت تمشين وخلفك أهازيج وعبارات ورنين. وقلت لإسماعيل.. انظر إليها.. لم تكسرها اللوعة.

دلال : ألم نتعلم معاً كيف نتغلب على الموت والغياب!

الفارعة : نعم.. هذا ماتعلمناه.. أن نحضن الموت، ونواصل الحياة. كم عدد الضحايا؟

دلال : ما حان الوقت كي نحصي ضحايانا.

الفارعة : ماذا تعنين؟ أخبريني.. ماذا يجري.

دلال : إنها تشتعل وتمتد..

الفارعة : هل تمتد فعلاً؟

دلال : نعم.. من بيرزيت إلى غزة.. ومن الخليل إلى القدس.

الفارعة : هذا أفضل خبر يسمعه العائد من الموت. وماذا تخبرينني عن الطفل ومحمد؟

دلال : الطفل بخير، وسأحمله لك في الزيارة القادمة. أما محمد فإن حالته تُوجع قلب الكافر. حبس نفسه في الغرفة.. طالت لحيته وتعفرت هيئته.. لا يأكل، ولا ينام. وعيناه خاويتان. أحياناً ينتفض كالمحموم ويُعول كالمذبوح.. وحين يهدأ، يغطيه العرق وتصطك أسنانه.

الفارعة : هل انقطع عن العمل؟.

دلال : أي عمل!. لقد أشعل ناراً هائلة.. وبحركة احتفالية ألقى بطاقة العمل.. وراح يتفرج عليها كالممسوس. أردت أن أحمله إلى الطبيب، لكنه رفض.. نظر إلي نظرة غريبة وانخرط في البكاء.

الفارعة : هذا هو مخاضه، وإذا لم تخذله قواه، فسيولد، ويكون ابن أبيه. أرجوك أن تعطفي عليه.

دلال : لا تشغلي بالك.. إننا نتدبر أمورنا.. **(تُخرج راديو، وتقدمه للفارعة)** ولكي تتابعي مايجري، حملت لك هذه الهدية.

الفارعة : واشتريتِ لي راديو!

دلال : إنها هدية منّا جميعاً. ولاتنسي أن الطبيب حذّر من الانفعال والجهد.

الفارعة : لا تخافي علي..
دلال : (هامسة) غداً المظاهرة الكبيرة. يجب أن أمضي الآن.. هل تريدين شيئاً؟
الفارعة : كم أتمنى لو كنت معكم..
دلال : هي أيام وتكونين معنا.

(تقبلها وتخرج. الفارعة تفتح الراديو.. ينبعث نشيد وطني من إحدى المحطات العربية..)

الفارعة : لو أنهم يرسلون بدل الأناشيد بعض الدم والطحين. حقاً.. هذا مانحتاجه بعض الدم والطحين.

(تتلاشى الإضاءة..)

سفر النبوءات / المقطع الثامن

(ضوء على الدكتور منوحين.. وأثناء كلامه يعلو الضوء في المكتب ويظهر إسحق وهو يتسلّق السلم، ويدخل إلى المكتب).

الدكتور : لقد انكسر قلبي في داخلي. ورجفت كل عظامي، وصرت كإنسان سكران وكرجل غلبته الخمر لأن الأرض امتلأت بالفجار، وناحت من أجل اللعن وييست مراتع البريّة، وصارت مساعيهم غير مستقيمة، وجبروتهم شريراً. لم يكن أمام شخوص هذه القصّة أي سبيل للتراجع، وكذلك الأمر بالنسبة لي. عرفت كل شيء، ولا أستطيع أن أخفيه.

(يخرج الدكتور.. ويدخل إسحق إلى مكتب مائير).

مائير : أرجو أن تكون قد استعدت لياقتك. على كلٍّ جئت في وقتك. قمنا باعتقالات جديدة، والمركز يغصّ بالزبائن.

إسحق : سيدي.. لقد اضطربت حياتي فجأة، وإني بحاجة إلى بعض التفهّم والعطف.

مائير : وما هذه القصّة الجديدة.. هل الوالدة بخير؟

إسحق : الوالدة بخير، ولكن زوجتي.. وأنا.. لن أصدّع رأسك بالمتاعب. جئت ألتمس منك معروفاً.

مائير : ما هو؟

إسحق : لولا اضطراب حياتي ما فكرت في طلب كهذا. هل يمكن

أن تساعدني في الانتقال إلى وظيفة في الخارج؟ لايهمني البلد. المهم أن أسافر فترة من الزمن، وأن أكون نافعاً.

مائير : هذه نغمة مفاجئة. المكان الوحيد الذي يمكن أن تكون نافعاً فيه هو هنا في إسرائيل. وفي هذا المركز بالذات.

إسحق : إن زوجتي تعاني من اضطرابات عصبية حادّة.. وربما..

مائير : **(يقاطعه)** أنت تعرف أننا لا نحبّ الذين يقصّون حكايات. لن تخبرني عن بيتك ما لا أعرفه. أتظن أني لا أفهم ماذا يجري لك؟ فجأة بدأت ترى هؤلاء العرب بشراً. ولكن تذكّر ماذا يفعلون والخطر الذي يمثّلونه. لو تمكّنوا منا لأبادونا. هل تشكّ في ذلك؟

إسحق : طبعا لا..

مائير : كيف تشفق عليهم إذن!

إسحق : أنا أشفق عليهم!

مائير : أعرف كيف أميز جرثومة الإشفاق. الإغماء الذي أصابك، وهذا الطلب الآن. أقول لك.. احذر يا بني. إن الشفقة في عملنا خطيرة كالخيانة.

إسحق : في لهجتك رنّة تهديد يا سيدي.

مائير : تعرف أني أحيطك برعاية خاصة. إنك ربيبي. ولا أريد أن أراك تضعف. هنا.. نحن صمام الأمان للدولة اليهودية، ولذا ينبغي أن نكون مادّة فولاذية لا تلين ولا تنكسر. زملاؤك ليسوا أفضل منك، فلا تترك الجو يخلو لهم. أثبت من أنت. أتريد أن تخيّب أمك؟. **(يرنّ جرس الهاتف)** وتخّيبني معها. **(يرفع السماعة، ويتكلم في الهاتف)** آلو.. نعم، تجدّدت أعمال الشغب.. قلت لكم لا حلّ إلا بالاستيطان المكثّف والترويع.. علينا أن نضغط، ونضغط حتى نجبرهم على الرحيل.. الأمم المتحدة زريبة لا تصلح حتى للخراء.. ستنتهي

التحقيقات خلال أيام، ونقدّم لكم كل المعلومات.. لا.. اطمئن.. طيّب.. مع السلامة **(يضع السماعة)** هل سمعت؟ القتلة يواصلون التخريب، وأنت تأتيني بهذه القصص التي تبعث على النوم. هيّا.. خذ هذه الملفّات الثلاثة، وابدأ العمل.

إسحق : أخشى أني لا أستطيع الآن.

مائير : هل تعي ما تقول؟ هذا تمرّد.. هذا عصيان.

إسحق : لأني ربيبك أرجوك أن تساعدني. بيتي ينهار. ومن حقّي أن أحاول إنقاذه. إن السفر خشبة الخلاص لي ولزوجتي.

مائير : حتامَ أغفر لهذه الجماعة المتذمرة عليّ؟ طلب غير معقول، ولو شاع أمره لثار حولك لغط وشكوك.

إسحق : لايهمّني ما يثور حولي. أريد أن أحمي أسرتي.

مائير : أسرتنا الفعلية هي الدولة لا الزوجة. اسمع يا إسحق. أنت تمرّ في لحظة ضعف لا يبرأ منها إنسان، ولا تحسب أن الدكتور المعادي هو الذي سيساعدك على عبور اللحظة.

إسحق : وتعرف هذا أيضاً؟

مائير : نعم.. وأعرف أنك تثير ضوضاء كبيرة من أجل عضوك التناسلي.

إسحق : إنك تنبش حياتي الخاصّة. إنك تراقبني كأيّ مشبوه.

مائير : ليس هناك حياة خاصة لمن يعمل معنا. إننا نراقبك لكي نحميك من العثرات.

إسحق : وكرامتي! أي كرامة بقيت لي؟

مائير : الكرامة الفعلية هي أن تكون فولاذاً لا تلويه العواطف.

إسحق : أي أن أعذّب وأقتل، كما أتنفّس؟

مائير : إنّك لا تعذّب ولا تقتل، بل تحمي وطنك من القتلة.

إسحق : ولكننا نقتلهم.

مائير : قتل القتلة عدالة وليس قتلاً.

إسحق : ألا نلعب بالتسميات كي تلائمنا؟ نسمّيهم قتلة لكي نسمّي التعذيب والقتل عدالة!

مائير : هل وصلت هذا الحدّ من الانحراف؟

إسحق : لا أدري أين وصلت. كل ما أعرف هو أننا نغوص في الوحل.

مائير : أنت وحدك مَن يغوص في الوحل. لقد فسد إيمانك تماماً.

إسحق : ربما.. لا أدري إن كنت تفهم ذلك. اكتشفت ومن خلال جسدي، أن مانفعله ليس مقنعاً، وأن من نسميهم القتلة، لهم عيون ومشاعر، ويحسّون بالظلم.

مائير : ولم لا تقول إن قضيتهم عادلة؟

إسحق : لم أعد متأكداً أن الحقّ كلّه إلى جانبنا.

مائير : لا.. لايمكن.. هذا تجديف. منذ طفولتي علّمني والدي الذي قتله الألمان وهو ينشد الهاتكفا أن اليهود يجب أن يرجعوا إلى أرض إسرائيل، وأن يعيدوا تأسيس مملكتها الكبرى. هذا هو الحقّ الواضح البسيط الذي يشبه إشراق الشمس ودورة الأيام. وكل من يعترض سبيلنا يجب أن نزيله بلا رحمة.

إسحق : وهل كان أبي عقبة تجب إزالتها بلا رحمة؟

مائير : ماذا تخرّف؟ إنك مخيّب جداً أيّها الشاب. كم تعبنا، أنا والمسكينة أمّك كي نصوغ منك رجلاً حقيقياً!

إسحق : وهل تظنّ أن علاقة عقيمة غذاؤها الكراهية والقتل يمكن أن تصوغ رجالاً؟

مائير : صدق جدعون.. ما أنت إلا عنّين يبول على نفسه.

إسحق : وأنت.. ما أنت؟ أتظن أن القتل يصنع رجالاً؟ قتلت أبي، وتريد أمي بلا طمث.

مائير : توقف.

إسحق : لا.. لن أتوقف. أأنت تتحدث عن العنَّة؟ أتظن أننا لا نرى عنَّتك؟ تلك العنَّة الفخمة.. العنَّة التاريخية التي تتلألأ خلف أقنعة الترفّع والعزلة والقسوة.

مائير : إنك تهلك نفسك.

إسحق : بل أستردّ نفسي. أنظر في عيني إن كنت تجرؤ. **(يدخل جدعون)** أهذا المسلخ المريع هو المكان الذي هيأته لظهور المسيح؟ أهذه هي رسالتنا الروحية؟ **(يشير إلى جدعون)** أمع هؤلاء السوقيين ستبني المملكة المقدسة؟ لاشك أنك تعرف ما فعله هذا الوغد.. وربما هنّأته. يا للحضيض! نعم..هذا هو إنجازك الكبير. لقد أقمت مملكة للحضيض. **(يمدّ كل من مائير وجدعون يده إلى مسدسه)** العبا بالطرّة والنقش على حيازة هذه المأثرة. كلاكما محترف. ولكن.. لو خيِّرت، فإني أفضّل أن يقتلني قاتل أبي.

(يرفع مائير مسدسه بيد ثابتة، ويطلق عدة رصاصات، يتكوم إسحق في الأرض).

مائير : شيء محزن.

جدعون : لم يكن إلا ضراطاً.

مائير : دعني وحدي.

جدعون : حاضر.

(يخرج جدعون. يرفع مائير سماعة الهاتف.. يعلو الضوء في غرفة جلوس بيت بنحاس. يركب مائير رقماً. يرنّ الهاتف في بيت بنحاس، ترفع الأم السماعة).

مائير : كان ثمرة فاسدة يا حبيبتي.

الأم : وقطعت الثمرة؟

مائير : لم يكن هناك مجال.

الأم : أحقاً لم يكن هناك مجال!. أصدّقك.. أصدّقك فأنت أدرى.

مائير : هل أستطيع أن أقف إلى جانبك؟

الأم : وكيف أفعل إن لم تقف إلى جانبي؟

(في حركتين متوازيتين يضع كل منهما سماعته).

الأم : ولدي.. ولدي.. وغداً يسألني دافيد عن أبيه فماذا أقصّ له؟ في البدء خلق الله السموات والأرض. وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة.

(ينطفئ ضوء المكتب، ثم يتلاشى ضوء البيت ببطء متناه).

سفر النبوءات / المقطع التاسع

(ضوء على العيادة.. يظهر الدكتور.. وراحيل التي تجهّز حقيبتها).

الدكتور : وأبيد منهم صوت الطرب وصوت الفرح. صوت العروس. وصوت العروسة صوت الرحى ونور السراج.

راحيل : أذاعوا أنه مات في حادثة عرضية.

الدكتور : كان ينظف مسدسه وانطلقت رصاصة استقرّت في صدره.

راحيل : ولكننا عرفنا الحقيقة.

الدكتور : عرفنا الحقيقة ودونّاها.

راحيل : كانت الجنازة هزيلة.

الدكتور : نعم.. هزيلة كانت الجنازة. بدت الأم جافّة، وليس في عينيها دموع. وكان مائير منتصب القامة، يطفو على وجهه تعبير مترفّع وبارد. أما راحيل فقد انهارت.. واضطررتُ إلى ملازمتها حتى تحسّنت حالها، ورتّبت أمور سفرها.

راحيل : هل دونتَ كل شيء؟

الدكتور : نعم.. وها هي الأوراق.

راحيل : حان الوقت.

الدكتور : هل تشعرين بغصّة من أجل الطفل؟

راحيل : وما نفع الغصّات! هو لهم.. أخذوه، ولن أستطيع استرداده.

الدكتور : يجب ألا تيأسي أبداً من استرداده.

راحيل : ربما فيما بعد.. حين أجمع حطامي.
الدكتور : لاينبغي أن نيأس. انشري القصّة على أوسع نطاق. لن نتواطأ معهم، ولن نسمح لهم بمصادرة المستقبل.
راحيل : أرجو ألا تخذلني قواي..
الدكتور : ستنجحين يا راحيل. يجب أن تنجحي.
راحيل : آه.. هل أشكرك؟
الدكتور : لا.. لا داعي للشكر.
راحيل : أخيراً.. ربحت إنساناً وصديقاً.
الدكتور : اعتني بنفسك..

(تعانقه بانفعال وحميمية، ثم تحمل حقيبتها وتمضي..)

سفر الخاتمة

لافتة: حوار محتمل بين الدكتور أبراهام منوحين وسعد الله ونوس.

(مازالت العيادة مضاءة، والدكتور فيها. يقف الكاتب في بقعة الفارعة).

الدكتور : أين سعد الله ونوس؟

سعد الله : ها أنذا..

الدكتور : بلغنا الذروة، واكتملت هذه الشخصية التي سميتها أبراهام منوحين، فمن أين استقيت ملامحها؟

سعد الله : في البدء كانت أمنية، ولكن مواقف وشهادات بعض اليهود الشجعان أكدت لي أنها ممكنة.

الدكتور : وإذن فأنت تؤمن بأن وجود أمثالي محتمل..

سعد الله : بل مؤكد. إذا لم يوجد أمثالك يصبح التاريخ أفقاً مظلماً.

الدكتور : لعلك تفرط في الثقة.

سعد الله : لاتبدو ثقتي مفرطة، إذا ماتذكر المرء قائمة المفكرين اليهود، الذين رفضوا الصهيونية وقاوموها.

الدكتور : ومع هذا.. هل تعتقد أن بوسعي أن أكون نزيهاً إلى هذا الحدّ؟

سعد الله : من اختار الولاء للعدالة لا للقانون لابد أن يكون نزيهاً.

الدكتور : ولو أدّى ذلك إلى التخلّي عن أهلي وشعبي؟

سعد الله : إنك لا تتخلى عنهم، بل تحاول حمايتهم. إنك تبصر أن الدرب التي يسلكونها خطيرة، وأن الصهيونية التي يستهدون بها ورطة. هل تخلّى إرميا عن أهله وشعبه؟ كان لسانه يرعد باللعنات، أما قلبه فكان يتفطّر حناناً.

الدكتور : ولكن من أصغى إلى إرميا؟

سعد الله : سيأتي وقت، وسيصغون. في الفترات الرثّة، من المهم أن تظهر شخصيات تنحّي الأكاذيب، وتطلّ على أفق تاريخيّ جديد.

الدكتور : الشجاعة وحدها لا تكفي. إنك لاتعرف القوة الروحية، التي يحتاجها أمثالي، كي يكونوا يهوداً ومعادين للصهيونية في وقت واحد.

سعد الله : أستطيع يا سيدي أن أتخيّل ما يحتاجه المرء من طاقة كي يتجاوز شرطه. وأنا نفسي شحذت الكثير من طاقتي كي أميّزك، وأقدم صورتك.

الدكتور : أهو شاقّ أن تقدم شخصية مثلي؟

سعد الله : كان ينبغي أن أتخطّى الكثير من الحواجز. الريبة التاريخية التي تمنع الاعتراف بوجودك. والغوغائية السياسية التي تحول دون تمييزك، وخوف المهزوم من الخديعة، وبرزخ الضحايا والجراح، وفوق هذا مكائد الشرطة وصائدي الجواسيس. نعم.. كان يجب أن أتخطّى هذه الحواجز كلّها كي أقدم شخصية الدكتور أبراهام منوحين.

الدكتور : ولكنه شخصية مفعمة بالرفض والاحتجاج..

سعد الله : ويدرك أن الصهيونية ورطة للعرب واليهود على حدّ سواء.

الدكتور : إذا شئت.

سعد الله : ومع هذا كان عليّ أن أشحذ طاقتي كي أتخطّى الحواجز في داخلي وحولي.

الدكتور : لم أكن أعلم أن تعارفنا محفوف بكل هذه المخاطر. ولكن مادام كل منا يريد أن يتجاوز شرطه، فإني أسألك.. هل كانت النزاهة متبادلة في هذه القصةّ؟

سعد الله : إلامَ تُلمّح؟

الدكتور : أفزعتني تلك العبارة التي ترنّ في المسرحية: «إمّا نحن وإمّا هم».

سعد الله : هل تعتقد أن بوسعنا، أنت وأنا، أن نتعايش مع مائير وجدعون وموشي؟

الدكتور : هؤلاء... لا.. ولكن قد توحي العبارة بمعانٍ متطرّفة ومفزعة.

سعد الله : ليس للعبارة إلا هذا البعد. لا نستطيع أن نخرج من الورطة مادام الفكر الذي يمثّله مائير وجدعون، هو الذي يسود على الضفّة الأخرى.

الدكتور : طيّب.. وماذا عن السجون؟ ركزت على مايحدث في السجون هنا، وتجاهلت مايحدث في السجون العربية..

سعد الله : اسمع.. تردّدت طويلاً قبل أن أكتب هذا العمل، وكان سبب تردّدي هو هذا الشعور المرّ بأن المسرحية قد تبدو ضرباً من المراوغة. نعم يا سيدي.. يجب أن تكون النزاهة متبادلة، ويجب أن أعترف أن السجون على ضفّتنا ليست أكثر رأفة، ولا أقلّ وحشية. ولكن هل تظن أن هذه الأنظمة وسجونها تمثّلنا، أو تشغلها قضية صراعنا مع إسرائيل؟ لا.. يا سيدي. إن مشكلتنا مزدوجة. وإن للصهيونية الآن امتدادها العضوي في النظام العربي الراهن. الذين استسلموا لإسرائيل مائير، والذين يتهيأون للاستسلام، الذين يقمعون شعوبهم ويدوسونها. الذين ينهبون ثروات هذه البلاد ويبددونها..

هؤلاء جميعاً هم بعض امتدادات الصهيونية في الجسد العربي. إن الورطة على ضفتنا معقّدة وإن الخروج منها يقتضي نضالاً مركباً وصعباً. نعم يا سيدي. إن النزاهة يجب أن تكون متبادلة حتى ولو كان ثمنها فادحاً. وهذه الورطة التاريخية لا يمكن تجاوزها إلا بأثمان باهظة.

(يدخل جدعون وموشي ودافيد إلى العيادة..).

الدكتور : والآن كيف تتخيّل خاتمتي في هذه المسرحية؟

سعد الله : فأمر الملك صدقيا أن يودع إرميا في دار السجن، وأن يعطى رغيفاً من الخبز كل يوم من سوق الخبّازين، إلى أن ينفد الخبز كله من المدينة. إنهم يأتون بلطف، يبتسمون، ويحشرونك في القميص، ثم يمضون بك إلى إحدى المصحّات.

(يكونون قد قيدوا الدكتور بقميص المجانين..)

الدكتور : وأنت.. ماذا ينتظرك؟

سعد الله : عداوة الصهاينة الإسرائيليين والصهاينة العرب.

الدكتور : إذن.. دعنا نتبادل الإشفاق.

سعد الله : الإشفاق.. وربما الأمل.

(يخرجون بالدكتور.. يخلو المسرح.. إظلام تدريجي).

(ستار)

١٩٨٩

«الاغتصاب» / ملحق وثائقي

حين نشرت مسرحية الاغتصاب، في نهاية عام ١٩٨٩، أثارت نقاشات واسعة، وردود فعل تراوحت بين الترحيب والإعجاب، وبين النفور، ومهاجمة العمل، وكأنه فضيحة أو خيانة.

لم يزعجني ذلك النقاش الواسع، بل اعتبرته علامة على الصحّة والخصب. كما أني تقبلت حدة المهاجمين برحابة صدر، ولم تؤذني مواقفهم، إلّا في الحدود التي نمت فيها عن قراءة مبتسرة ومغرضة للعمل.

وبما أن النقاش كان مستمراً، ومواكباً للتدريبات المتعثرة التي كان يجريها المخرج جواد الأسدي على النص، فقد اقتنعت بعد ندوة مفتوحة وهامة أقامتها مجلة «الهدف» لمناقشة المسرحية، بضرورة تعديل الخط الفلسطيني في النقاط التالية:

١ ـ اختزال الميل الشائع إلى تحويل كل كلام حول القضية الفلسطينية إلى خطاب.

٢ ـ تعميق حبكة الحكاية الفلسطينية.

٣ ـ إضفاء خصوصيات فردية على الشخصيات، وتعميق بعدها الذاتي والإنساني معاً.

وفي هذا المنظور، كتبت الصياغة الجديدة للحكاية الفلسطينية، كما وردت في النص الذي تتضمنه هذه الطبعة. وقد يُعجب القارئ لو أن هذه الصياغة الجديدة قد أنجزت في أوائل صيف ١٩٩٠، وقبل العرض الذي قدّمه جواد

الأسدي بعدة أشهر. لكن مراوغة الفنان، أو تخاذله أمام ابتزاز النقد، إضافة إلى عنف الهجوم الذي كانت تتعرض له المسرحية. كل هذا أدّى إلى تغييب الحكاية الفلسطينية، وتبسيط العمل إلى هجاء سطحي للعدو.

إن الجو الذي أحيطت به هذه المسرحية بعد نشرها، وأثناء التحضير لعرضها، (وهنا لا أعني النقد والحوار، بل المراوغة وسوء الطوية. والقراءة العشوائية) جعلني أهمل الصياغة الجديدة، وأتقاعس عن إرسالها للمترجمتين الإيطالية والألمانية، اللتين كانت تعملان على ترجمتها. والآن بعد أن صدرت الترجمتان، ألوم نفسي، وأشعر بالأسف لأن الترجمتين لم تتضمنا الصياغة الجديدة للحكاية الفلسطينية.

وقد وجدت أن من الضروري، ولو من باب التوثيق، أن أنشر في هذا الملحق الحكاية الفلسطينية كما وردت في الطبعات السابقة.

المؤلف.

سفر الأحزان اليومية / المقطع الأول

(تظهر الفارعة وهي امرأة فلسطينية ذات حضور قويّ.. تحمل لفّة طفل رضيع، وكيساً مما توضع فيه حاجيات الأطفال).

الفارعة : هم يذبحون ونحن نتوالد. هم ينسفون ونحن ننهض من بين الأنقاض. ما عدنا نولول. وأنا التي كنت نائحة في المآتم أقلعت عن النواح. هذا العالم الأنانيّ لايبالي بالضحايا، ولايميّز العدالة إلا إذا كانت مقاتلة جسوراً. لا.. ما عدنا نولول.. والحقّ لايضيع ما دام وراءه مطالب.

(تدلف إلى غرفة دلال، والإضاءة تتبعها. غرفة فقيرة لكنها نظيفة ودافئة. دلال شابّة وجميلة.)

دلال : ماذا تحملين؟..

الفارعة : اصطحبت معي ضيفاً ساحراً. انظري كم هو جميل!

دلال : من هو؟

الفارعة : طفل يبدأ حياته بلا مأوى.

دلال : وأهله؟

الفارعة : أدخلوا أمّه إلى المستشفى. تداعى قلبها حين رأت منزلها يتهاوى. وزّعنا الذين نُسفت بيوتهم على أهل الحيّ، وأبقيت هذا الصغيرة كي نعتني به معاً.

دلال : وأبوه؟

الفارعة : إنه حيث يجب أن يكون.

دلال : وهذا الطفل البريء يدفع الثمن.
الفارعة : الثمن مقرّر قبل أن يولد. وكما يقولون، من ليس له وطن، ليس له في الأرض مقام.
دلال : ضاع الوطن، وأخشى أننا نضيّع القليل الذي بقي لنا.
الفارعة : إذا ضاع الغالي لايؤسف على الرخيص يا ابنتي.
دلال : كم بيتاً نسفوا؟
الفارعة : ستة بيوت.
دلال : ومنذ يومين خمسة. هل يأتي دوري؟
الفارعة : العراء أفضل من السكن في بيوت الذلّ.
دلال : ولكن ما نهاية هذا كله؟
الفارعة : أن يكون لهذا الأمير وطن وقليل من العدل.
دلال : إنك تحلمين يا خالة.
الفارعة : في حالتنا، الاستسلام أو اليأس كلاهما يعني الفناء. ونحن لانريد أن نفنى.. في عروقنا حياة لن يستطيعوا قهرها.
دلال : لو أن لي إيمانك وقوّتك.! ماذا نفعل؟ هل نطعمه؟
الفارعة : دعي الأمير نائماً. حين يستيقظ سنغيّر له ونطعمه. في الكيس حليب وحفاضات وكلّ مايحتاجه.
دلال : كل صباح كنت أحسّ أني متخمّرة وناضجة. وقبل أن يعتقلوه بيومين تحدّثنا عن طفلنا الأول. سمّيته زاهر، وسمّاه جهاد. كنت متيقّنة أن في بطني بذرة تتكوّن. ولكن لم يكن هناك إلّا الفراق.
الفارعة : لاتتحدثي عن الفراق. سيعود، وستتعبين من الإنجاب.
دلال : هل سألت اليوم عن أخباره؟
الفارعة : وحياتك سألت. ما زالوا في فرع التحقيق. لو نقلوهم إلى السجن لعرفنا وفوراً.
دلال : على صدري حجر ثقيل. يحدّثني قلبي أن إسماعيل ليس

بخير.

الفارعة : دعيك من الوساوس. أنا أعرف زوجك كما أعرف أولادي. إنه صخرة، والإسرائيليون لن يغَنموا شيئاً من مناطحة الصخر.

دلال : وهذا ما يزيد خوفي. لن يحتملوا كبرياءه وعناده.

الفارعة : هل كنت تفضّلين زوجاً يبّول في سرواله!

دلال : لا أدري ماذا أفضّل. كل ما أريده هو أن يعود. لو تعرفين كم أشعر بالوحشة والخوف في غيابه... لم يمض على زواجنا إلا ثلاثة أشهر. وحين ضمّتنا هذه الغرفة في ليلتنا الأولى أحسست أني أضعف من أن أتحمّل سعادتي. لم تهمّني معارضة أهلي، ولا لغط الناس حولي. كنت أفكر فقط في الأيام البهيّة التي سنحياها معاً. هو وأنا وهذا العشّ. لم يخبرني شيئاً. ولم أعرف أن له حياة سرّية هي الأغلى، وهي الأهمّ.

الفارعة : أراد ألا يفزعك، أو ينغص فرحتك. لقد تردّد طويلاً قبل أن يعزم على الزواج.

دلال : نعم.. تردّد طويلاً، وكدت أيأس. كان عليّ أن أواجه أهلي، ولغط الناس، وفوق ذلك تردّده. أحياناً كنت أشكّ في حبّه، فأشعر أن أهلي محقّون وأني رخيصة.

الفارعة : وكان يتنهّد وهو يتحدّث عن حبّه. يحكي لي عن فتاةٍ أهلها من أعيان الضفّة، ويرفضون مصاهرة معلّم متواضع الأصل والمال. وفي حديثه كان يخلطها بالأرض والمطر والزيتون، ثم يغمغم.. إنها أغلى من أن أورّطها ببؤسي ومخاطري.

دلال : عارضت أهلي، ورضيت خصامهم. وحين ضمّنا هذا العش حسبت أن المستقبل صار ملكي. بدأت أرسم أياماً ملوّنة، وسعادة لاتنضب. ولم يقل لي شيئاً.

الفارعة : ماكان يستطيع أن يقول.

دلال : أو ما كان يبالي. تصرّف وكأن زواجنا حدث عابر في حياته. كان الجوهريّ بالنسبة له هو عمله السرّيّ الذي واصله بعيداً عني. لم يراعِ حبنا، ولم يحسب له أيّ حساب.

الفارعة : لا تظلميه يا ابنتي. كادت عزيمته أن تضعف من شدّة الحرص عليك. كنت خفقة الضوء في حياته، وكان صوته يرتعش كلما أوصاني بك.

دلال : ومع هذا لم تكفه سعادتنا.

الفارعة : لا أحد يستطيع أن ينجو بسعادته في هذه الظروف.

دلال : كنّا سعداء يا خالة. الليالي أعراس، والصباحات أحلام ولهو. لقد خاطر بالسعادة الملموسة من أجل حلم غامض كالسراب.

الفارعة : ربما حمتك براءتك من رؤية ما حولك. ولكن في ليالي العناق، ألم تلاحظي أن وجه إسماعيل كان يشحب أحياناً؟ وأحياناً كان يدق قلبه بعنف. وربما فكّ عناقه، وهمس سأرتاح قليلاً.

دلال : هل كان يروي لك هذه التفاصيل؟..

الفارعة : لا.. كان أعفَّ من الخوض في هذه التفاصيل. ولكني أعرف إسماعيل. وأعرف أن الواقع كان يطارده حتى في الفراش. يشحب وجهه حين يرى المداهمات. ويدقّ قلبه حين يتناهي وقع أقدام الدوريّة، ويشعر بالتعب حين يسمع الغارات تدك القواعد والمدن، كان يرى ما لا ترين وكان يعلم أن عناقكما محاصر.

دلال : أكان هذا القلق كلّه يشاطرنا الفراش؟

الفارعة : تلك هي الحقيقة يا دلال.

دلال : ولكنْ حولنا آلاف يواصلون حياتهم، ويعيشون بأمان.

الفارعة : إنه أمان كاذب. لم يغتصبوا بلادنا لكي يوفّروا لنا الأمان. إنهم يريدون الأرض وخدماً تخلّوا عن هويّتهم، وقبلوا العمل بلقمتهم. لا.. ليس الأمان أن نبقى على قيد الحياة. بل الأمان هو أن نحيا أحراراً في وطن حرّ. أتعرفين من علّمني هذا الكلام؟ إنه زوجك ورفاقه. وربما حان الوقت كي تتعلّمي مثلي.

دلال : لم يطلب منّي شيئاً. ونادراً ما ناقشنا هذه القضية.

الفارعة : لقد بالغ في الإشفاق عليك. رآك تصنعين من عواطفك وبراءتك قفصاً تقيمين داخله، فلم يشأ أن يصدمك. ولكن حان الوقت كي نخرج من القفص ونتعلّم. لن يخفّف شقاءك إلّا الكفاح ضد شقائنا جميعاً.

دلال : أتطلبين مني الانضمام إليكم؟

الفارعة : ليس هناك مخرج آخر.

دلال : لا أظن أن لديّ قوتك أو إيمانك. تصوّرت حياتي على نحو آخر.

الفارعة : لا ينقصك الإيمان ولا القوّة. لكن الأوهام التي غزلت حياتك منها تقيّدك **(يبدأ الطفل بالصراخ)** وتشوّش أفكارك.. استيقظ الأمير. لنسخّن الماء. ابقي أنت إلى جواره.

(تأخذ الفارعة الكيس وتخرج إلى مطبخ داخلي. تقترب دلال من الصغير. تحمله بحذر وتبدأ بمناغاته.)

دلال : ما اسمه يا خاله؟

الفارعة : **(من الداخل)** اسمه وعد.

(تنصرف دلال إلى مناغاة الطفل. فجأة يطرق الباب بعنف.)

دلال : تعالي يا خالة. لا أدري من يدقّ الباب.

(تهرع الفارعة إلى الباب، ومعها أنبوب حليب ورضّاعة.)

الفارعة : من؟
جدعون : **(من الخارج)** افتحوا.. أمن إسرائيلي.
دلال : ماذا نفعل يا خالة؟
الفارعة : تماسكي ولا تقولي شيئاً.
جدعون : **(من الخارج)** افتحوا وإلّا حطّمنا الباب.
(تفتح الباب بهدوء. يقتحم الغرفة جدعون وموشي ودافيد، هم يشهرون أسلحتهم.)
الفارعة : على مهلكم... أفزعتم الطفل.
جدعون : أهذا بيت إسماعيل الصفدي؟..
الفارعة : نعم.
جدعون : **(نحو دلال)** هل أنت زوجته؟
الفارعة : **(تتاول منها الطفل، وتقف أمامها في وضع حماية)** ماذا تريد منها؟
جدعون : هل أنت زوجة إسماعيل الصفدي؟
دلال : نعم.
جدعون : **(إلى موشي)** خذها.
الفارعة : إلى أين؟
جدعون : ليس شغلك.
الفارعة : خذوني بدلاً منها.
موشي : **(يزيح الفارعة بعنف، ويمسك دلال)** ابتعدي.. نريد زوجته.
الفارعة : لاتدفع.. كسر الله يدك.
جدعون : اخرسي.. من أنت؟
الفارعة : أنا فلسطينية. يناديني الناس الفارعة. زوجي الأول مات مسلولاً..
جدعون : خلاص.. خلاص. عرب نجاسة. من هذا الطفل؟
الفارعة : أتريد اعتقاله؟
جدعون : تأدّبي وأجيبي.. أهو ابنها؟

الفارعة : لا.. إنه ابني. هل تريدون اعتقاله؟
جدعون : سيأتي وقته... يا الله..
(موشي ودافيد يجرّان دلال، ويتّجهان نحو الباب.)
دلال : إني خائفة يا خالة.
الفارعة : لاتخافي يا دلال. إنّك أقوى منهم.
دلال : أخبري أهلي.
الفارعة : سأخبرهم. ارفعي رأسك، وإذا ضايقوك ابصقي في وجوههم. إني أنتظرك هنا. كلّنا ننتظرك هنا. كم خاف عليك.. وكم حاذر أن يوقظك. ولكن اليقظة الآن ستكون خشنة ومرعبة. أمدّك الله بالقوة والحكمة. وأنت يا أميري. لا.. لم أنسك. من أجل عينيك نقاسي ما نقاسيه.. ياالله.. ها هو الحليب. هل تستطيع أن تعي حكايتك منذ الآن؟ إذن اسمع. هذه هي حكايتك. الدجاجة لها بيت. بيت الدجاجة اسمه القنّ. الأرنب له بيت. بيت الأرنب اسمه الجحر. العصفور له بيت. بيت العصفور اسمه العشّ.
(تبدأ الإضاءة بالخفوت والصوت بالتلاشي.)
الفلسطينيّ لا بيت له. والخيام والبيوت التي يحيا فيها، ليست بيت الفلسطينيّ. بيت الفلسطينيّ يحيا فيه عدوّ الفلسطينيّ. من هو عدوّ الفلسطيني(*)؟

(*) من قصة «البيت» لزكريا تامر.

سفر الأحزان اليومية / المقطع الثاني

(ضوء على الفارعة، ثم يظهر ابنها محمد)

الفارعة : ما أخطأَ إسماعيل حين قال إن الطريق طويلة وشاقّة. نعم إنها طويلة وشاقّة. ذهبت إلى والد دلال. هي أوصتني، وأنا قلت لعلّها تكون مناسبة للصفاء، والدم لايصير ماء. أبوها ماشاء الله عنده وكالات بالجملة، ويلعب بالملايين. حين أخبرته عن ابنته غسّلنا بالشتائم تغسيلاً. هي وأنا معها. خاف أن تسبّب له متاعب مع السلطات فسمّانا قحاباً ومخرّبين.. أي والله سمّانا مخرّبين، وأقسم أن يتبرأ منها أمام الحاكم العام والملأ أجمعين. والاعتقالات لم تهدأ.. وابني محمد زاد على رأسي الهموم. ركب رأسه، وانضم إلى الذين يركوبون الباصات كل صباح، ويذهبون للعمل هناك. قلت له..

الفارعة : يا ابني لاتكن غصّة في قلبي.

محمد : يامّه.. كلُّه شغل.

الفارعة : لا.. الشغل مع ابن البلد شيء.. والشغل مع المحتلّ شيء آخر.

محمد : مع ابن البلد.! أنت تعرفين القصّة وما فيها. اشتغلنا مع أولاد البلد وأكلوا حقّنا. وصلت بيني وبين أبي قحطان للسماء. قلنا له الأجرة ناقصة، فنبر في وجهي وصاح.. لماذا اللّفّ.

تريد أن تبيع وطنك ودينك لليهود الله معك. لا أحد يمنعك. قلنا له.. الذي يبيع وطنه ودينه هو الذي ريَّش مع الاحتلال، وصارت عنده وكالات إسرائيلية وتعهّدات. فصرخ كالمسعور.. وتعيّرني يا ابن الفاعلة.. وكلمة من هنا، وكلمة من هناك. لولا أولاد الحلال لقضى واحد منا على الآخر. وفي النهاية ما أخذت من حقّي النصف.

الفارعة : لم تخبرني أنك تهاوشت مع أبي قحطان.

محمد : وما الفائدة؟ حاولت ألا أصدّع رأسك بهذه المتاعب.

الفارعة : ومع هذا لاتخلو البلد من أهل الخير. ابق هنا. ولا تنس أن العمل عند الإسرائيليين يغذّي الاحتلال ويعزّزه.

محمد : يامّه.. اتركي الخطابات وكلام الإذاعات. الاحتلال معزّز، ولن نقاومه بالجوع والجيب الفاضي.

الفارعة : يا ابني أنت تعرف مايقال عن الذين يعملون هناك.

محمد : إذا كانوا لايريدوننا أن نعمل هنا فليبنوا لنا معامل أو يقدّموا لنا معونات تنعش البلد. يبيعوننا خطابات، ويحدّثوننا عن الصمود ولكن الكلام لايملأ الجيب الفاضي. أتعرفين كم ينفق بعض الأمراء والفرسان العرب في ملاهي وكازينوهات الغرب؟ أتعرفين كيف يعيش زعماؤنا في المنفى! دعينا يامّه ولاتفتّقي لنا المواجع.

الفارعة : إسماعيل نفسه انتقد العمل في مزارعهم وورشاتهم.

محمد : لو كان إسماعيل بلا شغل لتردّد في الانتقاد. وعلى كلٍّ أين إسماعيل الآن؟ الله يهوّن عليه وعلينا. اتركيني يامّه. الحياة صعبة وأنت تعرفين أن من يأكل العصيّ لاكمن يعدّها. أوقظيني مع الفجر.

الفارعة : ألن تراجع نفسك؟

محمد : اتكلي على الله.

الفارعة : لا إله إلا الله. لم أعرف كيف أقنعه. ولم استطع القسوة عليه. أحسست غصّة في قلبي، وأدركت أن اسماعيل ما أخطأ حين قال. إن الطريق طويلة وشاقّة.

(تتلاشى الإضاءة)...

سفر الأحزان اليومية / المقطع الثالث.

(إضاءة على غرفة دلال.. تظهر الفارعة أولاً، ثم تتبيّن دلال. تجلس في حالة غياب..).

الفارعة : اتسعت حملة الإعتقالات، وازداد عدد البيوت المنسوفة، وكنت لا أكاد أستقرّ في مكان حين أفرج عن دلال. منذ رأيتها أدركت فظاعة ما حلّ بها. خلال أيام استلّوا شبابها، ورموها في كهولة مبكرة. كانت هادئة وصامتة. كان فيها وقار مرعب يشبه اللغم الموقوت. أنهمر عليها بالأسئلة، فتحملق فيَّ مترفعّة عن الإجابة.

(إلى دلال) قولي.. ماذا فعلوا بك؟

(صمت)

دلال : أين الطفل؟

الفارعة : عاد إلى أمه.

دلال : لو أنه بقي في الرحم، ولم يخرج إلى الظلمة.

الفارعة : حدّثيني يا ابنتي. فضفضي عن نفسك.

(صمت)

الفارعة : ماذا أرادوا منك؟ عمَّ سألوك؟

(صمت)

دلال : هذه الرائحة.. هذه الرائحة..

الفارعة : أية رائحة؟

دلال : رائحة لاتزيلها عطور مصر والشام، ولاتغسلها مياه الأردن والفرات.
الفارعة : هل أهيّئ لك الحمام؟
(صمت)
الفارعة : تكلمي.. اصرخي.. لاتحصري الرعب في قلبك.
(صمت)
الفارعة : يجب أن تخبريني. هل عرفت شيئاً عن إسماعيل؟
دلال : لايُجبر إناء الخزف إذا كُسر.
الفارعة : ماذا تعنين؟ هل حدث له شيء؟
دلال : لايستطيع المرء أن يخلع بدنه كما يخلع سروالاً وسخاً.
الفارعة : ولكن ماذا جرى؟
(صمت)
الفارعة : خفت من هدوئها وعباراتها المفككة. ولم ألحظ أنها خلف وقارها الصامت، كانت تستكمل مخاضها.
(تتغير الإضاءة)
دلال : الأرض ضيّقة يا خالة.
الفارعة : إنها أرضنا.
دلال : أرضنا التي لانملك فيها حتى أجسادنا.
الفارعة : أعرف أن تجربتك كانت قاسية.
دلال : الأرض لاتتّسع لنا ولهم. إما نحن وإما هم.
الفارعة : الأرض مباركة. ولولا نزعة العدوان لاتسعت للجميع.
دلال : الأرض أضيق من القبر إذا لم يزولوا. إما نحن وإما هم.
الفارعة : يا ابنتي.. لولا الصهيونية لما كانت بيننا وبين اليهود عداوة.
دلال : وهؤلاء الذين يحاربون، ويعذّبون، وينتهكون كل شيء.. من يكونون؟ ألديك ميزان للقلوب.. لا... إما نحن وإما هم.
الفارعة : هذه عبارات قد تتحوّل ضدنا.
دلال : لا أحبّك حين تتفاصحين يا خالة.

الفارعة : لا أدري يا ابنتي... هذا ماتعلّمته من الشباب. قالوا لي نحن مناضلون ولسنا قتلة. قضيّتنا عادلة. وهدفنا هو أن ندحر الصهيونية لا أن نقتل البشر.

دلال : وهل إسرائيل شيء، والصهيونية شيء آخر؟ اسمعي يا خالة.. في بيت أبي لم أعرف شيئاً عن إسرائيل. كان أهلي يعيشون في قوقعة من الثراء والتعالي. يخافون من الثورة والرعاع ونادراً ما كانوا يذكرون إسرائيل. حتى حرب الـ ٦٧ لم تهزَّهم. وأبي لم يُخفِ شماتته بعبد الناصر وأنصاره. وحين تزوجت أشفق عليّ زوجي، ولم يحدّثني الكثير عن إسرائيل. لكنني الآن أعرف إسرائيل كما أعرف جسدي. أتعلمين أن لإسرائيل رائحة!

الفارعة : لم أفكر في هذا.

دلال : رائحة فظيعة تملأ أنفي وجوفي ومسامي. ختمت إسرائيل هويّتها على جسدي، ولن يمحو هذا الختم الرهيب إلا الموت. ماعرفته يا خالة يكفيني. وأنا الآن جاهزة. خذيني إليهم.

الفارعة : ألا تتمهّلين قليلاً؟

دلال : ولِمَ التمهّل؟

الفارعة : هل فكرت في الأمر وعزمت؟

دلال : كل العزم.

الفارعة : كم كنت آمل ذلك.. ولكن دعينا نبدأ بالمهمات اليسيرة.

دلال : لا.. من صاحب الموت لاتليق به إلا المهمات الكبيرة. وأقول لك منذ الآن.. عليهم أن يقبلوني بحقدي ويأسي.

الفارعة : لا أريدك أن تندفعي تحت وطأة اليأس.

دلال : يأسي هو قوّتي. وهذا العدوّ لن يوجعه إلا حاقد ويائس.

الفارعة : وإسماعيل؟..

دلال : مع تعاقب الفصول وإلى آخر الزمن سيبحث كل منا عن الآخر، ليلملم جسده المبعثر، وينفخ فيه الحياة. وكلما تناثرت أعضاؤنا بدأنا مع تعاقب الفصول رحلة جديدة.

(تخرج دلال.. وتبقى الفارعة.)

الفارعة : وانضمت إليهم، حملت يأسها كالحقيبة وانضمت إليهم. بقي معي مفتاح وغرفة فيها رائحة منزلية، وعبارة لاينقطع لها رنين. إما نحن وإما هم.

(يتلاشى الضوء عنها....)

سفر الأحزان اليومية / المقطع الرابع

(إضاءة على الفارعة وهي تترنح.. إنها جريحة. صياح وإطلاق رصاص. بوق سيارة إسعاف تقترب من بعيد.)

الفارعة : رصاص.. لاشك أنه رصاص. لماذا لايركض هذا الولد؟. اركض. ساقاي رخوتان. كل شيء بدأ من الجنازة. الله أكبر.. عاد إسماعيل في تابوت مسمَّر. لم يسمحوا لنا أن نرفع الغطاء وأن نرى التعبير الأخير على وجهه. رصاص.. لاشك أنه رصاص. جنود مقنّعون ومدجّجون بالسلاح. وسط الدموع كبّرنا وهتفنا. كانت الجنازة مهيبة. ولم يضطرب الموكب حتى واريناه التراب. ريقي جافّ.. إني عطشانة. أرى ماء ولكن كيف أصل إليه؟ عاد إسماعيل في تابوت مسمَّر، فانفجر الغضب المحتقن في الصدور. اتّسعت المظاهرة، وبدأت الصدامات. ساقاي ألين من القطن وأنا عطشانة. في يوم واحد كبر الأطفال سنوات.. حملوا غضبهم ونزلوا إلى الشوارع. الجنود مقنّعون ومدجّجون بالسلاح. رصاص، وغيمة سوداء. عاد ابني الذي لم ألده في تابوت. **(تتداعى ببطء)** مات زوجي الأول مسلولاً، وكانت مهنتي النواح في المآتم. ريقي جافّ. زوجي الثاني أنساني الأول، ومنعني من النواح. سافر إلى لبنان، وفي المطلّة مات.

عاد إسماعيل في تابوت.. رصاص. ثلاثة من أولادي تفرقوا خارج البلاد والرابع هناك.. دلال سافرت. حملت عبارتها وسافرت. أريد جرعة ماء. هل تستطيع دلال أن تقاوم فصاحة الموظّفين وتجّار الكفاح؟ تجّار.. غيمة ثقيلة وخانقة... رصاص.. وتابوت. عتم.. أريد ماء. رنين.. رصاص ورنين.. إمّا نحن.. وإمّا..

(تغيب عن الوعي، ويعلو بوق سيارة الإسعاف بشكل مصمّم.)

سفر الأحزان اليومية / المقطع الخامس

(الفارعة مضمّدة على سرير مستشفى. يجلس ابنها محمد على طرف السرير.)

الفارعة : كنت كمن ينهض من الموت.

محمد : (مازحاً) وكيف وجدت الموت؟

الفارعة : الموت حقّ. ولكنه موحش ومخيف. هل طالت غيبوبتي؟

محمد : قرأنا الفاتحة مرات. ولكننا اجتزنا الخطر، وقرّرنا أن نحيا.

الفارعة : يموت الغالي ويحيا الرخيص.

محمد : أنتِ أغلى مما تتصوّرين. لو تعرفين كم شاباً تبرع لك بالدم.!

الفارعة : هل أعطوني من دمهم؟

محمد : كنت بحاجة إلى دم كثير، ولم يقبلوا في المستشفى أن يأخذوا مني المزيد. فتدافع الشباب للتبرّع. الآن.. كلّ الدم الذي يتدفق في عروقك شاب. وعندما تنهضين بالسلامة ستعودين صبيّة.

الفارعة : أنتم أحوج إلي دمائكم من عجوز مثلي.

محمد : الدم يعوَّض، أما الفارعة فلا تعوَّض.

الفارعة : حماكم الله، ورعى شبابكم. هل كان هناك كثير من الضحايا؟

محمد : دعيك الآن من هذا. عليك أن تهتّمي بنفسك كي تشفي بسرعة.
الفارعة : إني بخير.. كم كان عدد الضحايا؟
محمد : ما حان الوقت كي نحصي ضحايانا؟
الفارعة : ماذا تعني؟... أخبرني.. ماذا يجري؟
محمد : إنها تشتعل وتمتدّ.
الفارعة : هل تمتدّ فعلاً؟..
محمد : نعم.. إنها تمتدّ في الضفّة والقطاع.
الفارعة : هذا أفضل خبر يسمعه العائد من الموت. وأنت؟
محمد : ماذا تظنّين.. مهما فعلت فأنا ابن أبي وأمي. رميت البطاقة، وملأت مكانك الشاغر في الصدامات.
الفارعة : الآن.. اكتملت فرحة أمك.
محمد : ولكن بعد اليوم، عليك أن تركني في البيت. أصبحت كبيرة على المظاهرات ورمي الحجارة.
الفارعة : وأنت... ألست صغيراً على توجيه التعليمات إلى أمك.. لم تعطوني دمكم كي أركن في البيت. ولكن قصّ عليّ أخباركم. أريد أن أعرف كل شيء.
محمد : **(يخرج راديو ترانزستور من علبة، ويقدّمه لها)** حملت لك هذه الهدية كي تعرفي ما يجري.
الفارعة : واشتريت لي راديو..
محمد : إنها هدية منا جميعاً. ولكن لاتنسي أن الطبيب حذّر من الانفعال والجهد..
الفارعة : لاتخف عليّ.
محمد : يجب أن أمضي.. هل تريدين شيئاً؟
الفارعة : سلامتك وسلامة رفاقك. قبّلهم وبلّغهم سلامي.
(يقبّلها ويخرج.. الفارعة تفتح الراديو.. ينبعث نشيد وطني

من إحدى المحطات العربية.)

الفارعة : لو أنهم يرسلون بدل الأناشيد بعض الدم والطحين حقاً..
هذا ما نحتاجه، بعض الدم والطحين.
(تتلاشى الإضاءة).

يومٌ من زماننا

المؤلّف : كان صباحاً غائماً وبارداً. كان صباحاً ككلّ صباحات أوائل الشتاء. وكانت السّاعات تدور.. قرعت المدارس أجراس الدّخول، وفتحت الحكومة أبواب وزاراتها، ودوائرها الظّاهرة والخفيّة. وكانت السّاعات تدور.. انتشرت في أوصال المدينة صياحات الباعة المتجوّلين، وضراعات المتسوّلين. وتلألأت في واجهات المتاجر الأنوار والبضائع. وكانت السيّارات تدور.. ترادفت في الشّوارع أرتال السيارات، وتزاحمت على الأرصفة أرتال المشاة.. وكانت الأشجار الهزيلة والمتباعدة تنثر أوراقها الصّفراء تحت الأقدام الشّاردة. كان صباحاً غائماً وبارداً. كان صباحاً ككلّ صباحات أوائل الشّتاء.

وكانت السّاعات تدور..

المشهد الأول

(غرفة الإدارة في مدرسة ثانوية. مدير المدرسة عبد العزيز.. بدين ومتوتّر. يقتحم المعلّم فاروق باب الإدارة كأنّه عاصفة. المعلّم فاروق شاب أنيق تدلّ ملامحه على حدّة المزاج. عُلّقت في صدر الغرفة صورة لرئيس الدولة وهو في لباس جنرال عسكري).

فاروق : أمر مُرَوِّع يا حضرة المدير. يجب أن تفتح تحقيقاً على الفور.

المدير : هل مررت بالمراحيض؟

فاروق : انتقلت المراحيض إلى الصفوف.

المدير : أنا مريض ولا أحتمل هذه الخضّات. أهناك كتابات في الصفوف أيضاً؟

فاروق : بل أقوال صريحة واعترافات مرعبة. يا فاطر السموات والأرض.. ما سمعته زلزل كياني. أَطْلُبُ يا حضرة المدير أن تبدأ التحقيق على الفور.

المدير : مَن التي تجرّأت واعترفت؟ مَن الفاعلة؟

فاروق : اعترافات شائنة تراشقن بها دون حياء ودون وجل. يا فاطر السموات والأرض.. من يتخيّل أنّ الانحلال وصل إلى هذا الحدّ؟

المدير : أنا مريض.. عندي سكّري وارتفاع الضغط. ستقتلني هذه العصبة من بنات إبليس، ولكن من هنَّ وكيف اعترفن؟

فاروق : أرجو أن تتمالك أعصابك، ما سأقصّه عليك غاية في البذاءة والشّناعة.

المدير : هاتِ ما لديك.. هذه المدرسة هي مدجنة إبليس، وستقصف عمري قبل أوانه.

فاروق : المدجنة في مكان آخر، ولكن البيوض تفقّس هنا. يا فاطر السموات والأرض.. ينتفض بدني كلّما تذكّرت ما حدث.

المدير : كنت أعلم أنّ هناك أصابع خارجيّة.. من هنّ وكيف اعترفن؟

فاروق : حين دخلت الصفّ كان ثمة صياح وفوضى. يا فاطر السموات والأرض.. رأيت ميسون القاضي وهيفاء معلًّا تتضاربان وسط هرج الفتيات وصراخهنّ العاهر. كان الصفّ مقلوباً عاليه سافله. حسبت أنّي أدخل سوق الدّعارة لا صفّاً في مدرسة. صرختُ فلم تستجب إلاّ بضع فتيات جلسن على مقاعدهنّ. واستمرّ العراك والهرج. فرّقتُ بينهما بصعوبة، لكنّهما واصلتا التّدافع والسّباب. ولكلّ منهما زمرة تشدّ أزرها. يا فاطر السموات والأرض.. أتعرف ماذا كانت تقول هيفاء؟

المدير : أهي التي اعترفت؟

فاروق : اعترفت، وكشفت السّتر عن فضيحة مروعة.

المدير : أرجوك أوصلني إلى لبّ القضيّة.

فاروق : كانت هيفاء تصيح في وجه ابنة القاضي: يا ميسون يا قوّادة السّت فدوى.. يا فاطر السموات والأرض.. نعم كانت هيفاء تتّهم ميسون بأنّها قوّادة السّت فدوى. وأنّها أغوت لها عدّة طالبات، كانت حنان الزّمر آخرهنّ. وتبيّنت أنّ حنان الوديعة والهادئة تخفي في إهابها نمرة شرسة. هجمت على هيفاء وأنشبت أظافرها في وجهها. وكانت ميسون تقول

باستهتار صفيق.. لو كان فيك عرق جمال لزرت البيت قبلنا. ولكن ما العمل!. بيت السّت فدوى لا تدخله كرعوبة مثلك. أعترفُ يا حضرة المدير أنّ دمي فار، وأنّ حالة من الهيستيريا تلبّستني. لا أدري ماذا فعلت.. لعلّي لطمت الفتاتين معاً. أو لعلّ صراخي أرعبهنّ. وحين هدأ الصف، أردت أن أعرف المزيد، لكنّ ميسون قالت هازئة.. خير لنا جميعاً ألاّ تسرف في الأسئلة يا أستاذ!

المدير : **(ضجراً)** أرهقتني بالحكايات العرضيّة، ولم تصل بي إلى الجوهريّ.

فاروق : ألا تجد ما رويته لك جوهريّاً؟!

المدير : والكتابات. ماذا قلن عن الكتابات؟

فاروق : ماقيمة الكتابات والاعترافات صريحة؟!

المدير : بدأ الألم في مؤخرة رأسي. ولكن من يبالي؟ الكتابات هي الفضيحة الحقيقية.

فاروق : أيّة كتابات؟ أتريد يا حضرة المدير اعترافات مكتوبة؟

المدير : وإذن فأنت لا تعلم شيئاً!

فاروق : ألا يكفي ما علمته؟

المدير : هذا الصباح اكتشفنا كتابات جديدة في المراحيض. أنا رجل مريض ولن يَدَعوني أصل إلى تقاعدي بسلام.

فاروق : لدينا الآن ماهو أخطر من الجهالات التي تكتب في المراحيض.

المدير : ما كُتب هو الفضيحة، وهو الخطر الفعلي. لم يقولوا لك إذن! إنّها كتابات سياسيّة. وفيها شتائم تطال الر.... **(يتلفّت حوله خائفاً وحذراً)** فعلاً إنّ هلاك الإنسان بين فكّيه.. هل فهمت الآن في أيّ ورطة نحن؟ يريدون أن يوقعوا بي. وأنا مريض لا أتحمّل هذه الهزّات. أنتظر أن تساعدوني جميعاً،

ينبغي أن نتحرَّى بهدوء الثغرة التي ينفذ منها الفساد.

فاروق : ما يهبّ من بيت الست فدوى هو الفساد يا حضرة المدير. والثّغرة التي ينفذ منها بدأت تنكشف.

المدير : أرجوك لا تثقّلها على رأسي. يكفيني ما أنا فيه.

فاروق : يا فاطر السموات والأرض.. أيمكن أن تشغلك هذه الخبرشات الصبيانية عن الوقائع الفاضحة التي ذكرتها لك؟

المدير : خربشات صبيانيّة! أتسمّيها خربشات صبيانيّة؟! قلت لك إنّهم يشتمون الـ.. اسمع يا أستاذ فاروق. ربّما كان لك ظهر يحميك، أمّا أنا فلا ظهر لي إلاّ سنوات خدمتي الطويلة.

فاروق : لاظهر لي ولا بطن، ولكن في أعناقنا أمانة وواجب.

المدير : ماذا تراني أفعل! آكل خراء أم أؤدّي الأمانة والواجب. آخ.. رأسي.. أوصاني الطبيب أن أتحاشى التوتُّر. لو أنّ جنابه مكاني، هل يستطيع أن يتحاشى التوتر؟ يا فاروق أنت أستاذ مشهود له بالكفاءة وأيّ مدرسة تعلّم فيها هي الرّابحة. ولكن اسمح لي أن أقول لك، وأنا بمثابة والدك. إنّ خبرتك العمليّة هزيلة. أتعرف لماذا احتفظت بمنصبي كلّ هذه السّنوات؟ وأؤكد لك أنّ الذين يتربّصون بي كثيرون. الآن.. الآن ونحن نتبادل الحديث، هناك من يدبِّج التقارير، ويطيِّرها إلى مختلف الجهات. إنّي رجل مريض، وليس حولي من يرحم. لقد احتفظت بمنصبي كلّ هذه السنوات لأنّي أعرف واجبي وأؤدّيه بأمانة. وواجبي الفعلي هو أن أحمي المدرسة من جرثومة السّياسة، وأن أربّي الطلاّب على الولاء والطّاعة.

فاروق : وواجبك كمعلّم ومربٍّ وقدوة!

المدير : قم للمعلّم وفّه التّبجيلا كاد المعلّم أن يكون رسولاً، وهلمَّ جرّاً وهلمَّ جرّاً.. أما قلت لك مازلت تعيش في عالم من المثل والأفكار الملوّنة؟ هذا جميل.. ولكن الواقع مختلف.

من يبالي اليوم بالمعلِّم؟ فَقَد التّقدير وصارت مكانته في المجتمع هزليّة. حين أمرّ على البقّال، أحسّ رنّة السخرية في صوته وهو يقول أهلاً بالأستاذ. وأنا لا ألومه. كيف ألومه والأستاذ المحترم لم يستطع منذ عام أن يغلق حسابه عند البقّال. كلّ شهر يبقى مبلغ يُدوَّر إلى الشهر التالي. هذا هو حال المعلّم. انحطّ شأنه، وتدهورت مكانته. إنّه يتخبّط في القاع كي يظلّ مستوراً، ونادراً مايجد السّترة إلاّ في الموت.. وأنا فوق أمراضي تتواتر عليّ المشاكل كي تقصف عمري. يا أستاذ فاروق.. أتعلم لماذا صنّفوا مدرستنا بين المدارس النّموذجية؟. قد تظنّ أنّ السبب هو نسبة النجاح التي حقّقناها في الثانوية العامة. لا.. لا أحد يهتم بنسبة النجاح. باختصار.. إنّنا مدرسة نموذجية، لأنّي أميّز في أداء واجبي بين العابر والجوهري.

فاروق : مهما قلت يا حضرة المدير، ومهما ساءت أحوال المعلّمين، فإنّ حماية الأخلاق مسؤوليتنا. يا فاطر السّموات والأرض.. أنقف مكتوفي الأيدي، ونحن نرى الانحلال يتفشى بين طلابنا؟

المدير : يا فاطر السموات والأرض.. وهل تراني أقف مكتوف اليدين! هذه المماحكة ستسبّب لي الجلطة. مادمت تتشدّق بالحديث عن الأخلاق والانحلال الخلقي، هل تستطيع أن تخبرني ما هي أمّ الفضائل في زماننا؟

فاروق : أعرف ما هي الفضائل التي ينبغي أن تتحلّى بها الأجيال، ولا يهمني ترتيبها.

المدير : لا.. إنّ ترتيبها مهمّ جداً. وأحمد الله أنّي لست من الواشين ولا أضرّ زملائيّ. إنّ أمّ الفضائل يا أستاذ فاروق هي محبّة

(يشير إلى الصّورة) والولاء له. أمّا مايرتكبه المرء بعد ذلك فلا يُعدُّ إلاّ من الهنات الهيّنات.

فاروق : أعترفُ يا حضرة المدير أنّي لم أهتمّ يوماً بالسياسة. ولا شكّ أنّك أقدر منّي على معرفة سبلها ومقتضياتها. ومادمت تقول إنّ تلك هي أمّ الفضائل، فلا ريب أنّها كذلك. ولكن يمكنك أن تشنقني قبل أن أوفق على أنّ الدّعارة من الهنات الهَيّنات. يا فاطر السموات والأرض.. كيف يمكن أن تكون الدّعارةُ مجرّد هَنَة وهَيِّنة أيضاً! (يطرق الباب).

المدر : أرجوك، أجّل لي هذا الجدل العقيم.. تفضّل..

(تدخل ثريّا وهي موجّهة في المدرسة)

ثريا : أخيراً استطعت أن أحصي كلّ الطالبات اللواتي دخلن المراحيض هذا الصّباح. وهذه هي القائمة.

المدير : (يستعرض القائمة) ما هذا! مئة وسبع عشرة طالبة! إنّي مريض. وهذه المحنة ستقصّر أيّامي.

ثريّا : لا قدّر الله. ربّما كان العدد أكبر، ولكن لم أسجّل إلاّ من تأكّدت أنّها دخلت المرحاض.

المدير : ويمكن أن يكون العدد أكبر! هل يجئن للدراسة أم لقضاء الحاجات؟! إن المراحيض العامة في السوق الرئيسية، لايدخلها طوال النهار مثل هذا العدد. لاشكّ أنّ هناك خطأ، أو تضليلاً مقصوداً. هؤلاء الجنّيات يضلّلن الشيطان نفسه.

ثريّا : يا حضرة المدير، لست بنت البارحة، ولا أُخدع بسهولة. تحرّيت أقصى الدقّة قبل أن أسجّل الأسماء.

المدير : لاأقصد الإساءة. ولكن ماذا تريدين أن أفعل بهذه القائمة؟ كيف أجد الفاعلة بين مائة وسبع عشرة طالبة؟ كمن يبحث عن إبرة في كومة قشّ. لا.. الإجراء الثاني أكثر نجاعة.

ثريّا : أن نجمع الدفاتر؟

المدير : كلّ الدّفاتر.. بلا استثناء. وسأطلب خبير خطوط. هل أقفلت مسرح الجريمة، أعني المرحاض؟

ثريّا : الأقفال مخلوعة كما تعرف. لهذا فرزت واحدة لحراسته ومراقبة المكان.

المدير : أهي موثوقة؟

ثريّا : لولا ثقتي بها ماكلّفتها.

المدير : ينبغي إصلاح الأقفال، وتنظيف المراحيض. من يعرف؟ قد يزورنا مسؤولون، ولكن هذا يحتاج إلى همّة، إلى تعبئة عامة. ماذا يفعل المدرّسون؟

ثريّا : إنهم يتبادلون الوشوشات.

المدير : هم يتبادلون الوشوشات، وأنا أتراقص في المقلاة.

ثريّا : إذا أردت رأيي يا حضرة المدير.. اللّامبالاة في مثل هذا الموقف نوع من التواطؤ.

المدير : هذه فطنة مدهشة يا آنسة ثريّا. نعم.. إنّه تواطؤ، وللتواطؤ ثمن.

ثريّا : حين كنت أجمع معلوماتي.. نَخَرت المدرِّسة سلوى، ونظرت إليَّ نظرة فيها ازدراء وشماتة.

المدير : تلك المأنوفة! سأشير إلى نظرتها في التقرير (**يلتفت إلى فاروق، ثمّ يستدرك مرتبكاً**) أعني في السجل. لاشكّ أنّ هناك بعضِ الشّامتين. إنّها مكيدة مدبّرة بِلَيل. وإلاً لماذا لم تحدث إلاّ هذا العام.. ومرّتين خلال فصل واحد؟ أريد همّتك يا آنسة ثريّا. اجمعي الدّفاتر وتَحَرَّي كلّ مايمكن أن يرشد إلى المجرم.

ثريّا : أنا جاهزة يا حضرة المدير. ولكن ليتك تكلّف من يساعدني.

المدير : ما رأيك يا أستاذ فاروق؟ لن تبخل عليَّ وعلى الوطن بهذه الخدمة.

فاروق : (مرتبكاً) أفضِّل أن ننهي موضوعنا أولاً.
المدير : ألم ننهِ الموضوع؟!
فاروق : لم ننهِ شيئاً بعد.
المدير : اللّهم ألهمني طول البال. طيّب.. اذهبي يا آنسة ثريّا، وسأنضمّ إليك شخصياً. آه.. هذا الألم في قحف جمجمتي!
ثريّا : لديّ ملاحظة صغيرة قبل أن أذهب. مانحن فيه يقتضي أقصى التركيز. ولذا أرجو الأستاذ فاروق أن يغضَّ الطرف عمّا حدث في صفّه.
فاروق : أتعرفين ما حدث في الصفّ؟
ثريّا : مهمّتي أن أعرف كلّ ما يحدث. ورغم انشغالي اليوم، وجدت الوقت كي أعرف.
المدير : إنه حظّ كبير أن تعمل معي موجّهةٌ مثلك.
فاروق : ومع هذا تطلبين منّي أن أغضّ الطرف! يا فاطر السّموات والأرض.. إنّي لا أفهم.
ثريّا : هنّ فتيات ناضجات. ولاؤهنّ لا تشوبه شائبة. وآباؤهنّ لهم مراكز ونفوذ.
فاروق : ماذا تعني المراكز، وماذا يعني الولاء؟! المسألة تتعلّق بالشرف ومستقبل المدرسة.
ثريّا : قلت مالديّ.. والسيّد المدير يستطيع أن يقدّر الأمور أفضل منّي. سأذهب الآن.
المدير : نعم.. اذهبي، وسأنضمّ إليك عمّا قليل. إنّه حظّ طيّب أن نعمل معاً يا آنسة ثريّا.
ثريّا : شكراً يا حضرة المدير.
(تخرج)
المدير : أرأيت يا أستاذ فاروق كيف توزن المسائل؟!

فاروق : لم أرَ إلّا إصراراً على لفلفة الموضوع رغم خطورته. ماذا تعني المراكز ونفوذها! أنخون ضمائرنا، لأنّ أبا هذه الفتاة أو تلك موظّف مسؤول؟! أيرضى هؤلاء الآباء أن تكون بناتهم.. وأخجل من لفظ الكلمة!

المدير : اللّهم ألهمني طول البال.. رأسي! أين وضعت علبة الدّواء! هذه ثالث حبّة أتناولها اليوم. كنت أعلم أنّك مستقيم، وأنّك فلتة في الرّياضيّات، ولكنّي لم أكن أعرف أنّك عنيد ومماحك إلى هذا الحدّ.

فاروق : إنّني عنيد لأنّي مصعوق يا حضرة المدير. ما تكشّف أمامي شنيع، وتجاهله أشنع.

المدير : يا أستاذ فاروق لا يخلو الشجار من شتائم وبذاءات.

فاروق : يا فاطر السموات والأرض.. يبدو أنّك لم تستوعب يا حضرة المدير مارويته لك!

المدير : ولماذا لا تقول إنّي غبيّ ودماغي سميك! ما كان ينقصني اليوم إلاّ لجاجتك يا أستاذ فاروق!

فاروق : معاذ الله.. ولكن لعلّك لم تنتبه. تبادلت البنات تهمة الدّعارة، ويبدو أنّ بعضهنّ يتردّد على بيت الستّ فدوى.

المدير : لايعنيني، ولا يدخل في نطاق عملي ما يحدث خارج المدرسة. ألا ترى أنّ لدينا في المدرسة مشاكل كافية ووافية؟

فاروق : يا فاطر السّموات والأرض.. ألا تعنيك حماية الطّالبات من الانزلاق إلى الدّعارة! إنّ بيت السّت فدوى يمدّ أروقته داخل المدرسة. إنّه يقتحمنا، ويهدمنا من الداخل.

المدير : يخيّل إليّ أنّ لديك لوثة اسمها السّت فدوى.

فاروق : ألا ينبغي أن تكون لدينا جميعاً هذه اللّوثة؟ من يجهل ما يحدث في بيتها! إنّ حياتي الاجتماعيّة ضيّقة.. من البيت إلى المدرسة، ومع هذا لا أجهل ما يجري لديها.. بيتها

لايخفي أسراراً. ونحن نصطدم بزبائنها وسيّاراتهم الفخمة في اللّيل وفي النّهار. وهنا.. هنا في المدرسة، كم تحدَّث المدرّسون عن البيت وخطره على الحيّ. حتّى أنت، إذا لم تخنّي الذّاكرة سمعتك تستنكر ممارسة الرّذيلة بهذه العلانية.

المدير : لا أذكر أنّي تناولت السّت فدوى بسوء.. لاسيّما بعد أن تعرّفت عليها. أعوذ بالله.. ها نحن نثرثر كالعجائز، وكأنّه ليس لديّ ما أفعله.

فاروق : يا فاطر السّموات والأرض.. هل قلت يا حضرة المدير إنّك تعرّفت عليها؟

المدير : نعم.. تعرّفت عليها. وهي امرأة كريمة وخدومة.

فاروق : هل تدافع عنها أيضاً؟

المدير : لا أدري عمّا أدافع؟ ألا تفهم؟ لديّ الآن ما هو أخطر وأهمّ.

فاروق : أي أنّك لن تتّخذ أيّ إجراء؟..

المدير : **(متأففاً)** طيّب.. أعطني أسماء الطالبات، وسأوجّه إليهنَّ توبيخاً خطّياً.

فاروق : أهذا كلّ شيء؟

المدير : ماذا تريد إذن؟!

فاروق : أن تباشر تحقيقاً فوريّاً لمعرفة أبعاد المسألة.

المدير : قلت لك ألف مرّة إنّي أحقّق فيما هو أهمّ.. آخ رأسي.. اسمع يا أستاذ فاروق.. لقد أدّيت واجبك وأخبرتني بما حدث في الصفّ، والآن دع الأمر لي وعد إلى دروسك.

فاروق : لا أستطيع أن أدع هذا الأمر، إذا لم أتأكّد أنّ تحقيقاً سيجري.

المدير : اسمع يا بنيَّ نصيحتي. انسَ الأمر وعد إلى دروسك.

فاروق : لن أسمع نصيحتك، ولن أنسى الأمر. يا فاطر السموات والأرض.. طالبات يمارسن الدّعارة، وتقول لي انسَ الأمر!

المدير : إنّنا نحقّق في قضيّة أخطر. واللاّمبالاة هي نوع من التواطؤ.

فاروق : هل تهدّدني؟

المدير : بل أنبّهك إلى المزالق الّتي يدفعك إليها العناد.

فاروق : إنّي مصرّ على متابعة هذا الموضوع.

المدير : تابعه إذن خارج المدرسة.

فاروق : ليكن، لابدّ أن يكون في هذا الحيّ من تثور حميّته، ويقف في وجه هذا الانحلال المرعب.

المدير : من سلّطك عليّ.. واليوم بالذات؟! اذهب وفتّش عن رجل الحميّة، اذهب إلى الشيخ متولّي إذا شئت. ولكن أقول لك بأبوّة.. لاتثر ضوضاء لا تعرف عمّا تسفر، ولاتوغل كثيراً في تقصّي هذا الأمر.

فاروق : ماذا تعني؟

المدير : لا أعني شيئاً. رغم عنادك، أنا أحاول أن أجنّبك الأذى.

فاروق : تجنّبني الأذى، أم تحاول التستّر على الستّ فدوى؟!

المدير : اخرج.. ضيّعت وقتي، وعرقلت التحقيق في قضيّة مصيريّة وتاريخيّة. اخرج وتخبّط في هذا الدّرب الوعر كما يحلو لك.

(نقر على الباب).

المدير : تفضّل.. أمّا أنت يا أستاذ فاروق فلا داعي لبقائك.

فاروق : سأمضي، وسأتابع هذا الأمر وحدي.

(تندفع إلى غرفة المدير الآنسة ثريّا، ومعها الطالبة منى زيدان).

ثريّا : وجدت لك شيئاً مثيراً يا حضرة المدير.

المدير : هل عرفت الفاعلة؟

ثريّا : بدأنا نمسك الخيط. انظر ماذا تقرأ الآنسة منى.

المدير : ما هذا؟

ثريّا : كتاب طبائع الاستبداد.

المدير : طبائع الاستبداد! ماذا يفعل هذا الكتاب في مدرستي؟ منذ سنوات منعنا تداوله، وأتلفنا كلّ النّسخ الموجودة في مكتبة المدرسة.

ثريّا : تقول الآنسة منى، إنّها جاءت به من مكتبة أبيها.

المدير : ولماذا تأتي به إلى المدرسة! من أين تطلع علينا هذه العفاريت؟! ومن أين تأتينا هذه الفضائح؟!

ثريّا : أعتقد أنّ الفضيحة واحدة، لكنَّها أكثر تشعُّباً ممّا قدَّرنا.

المدير : أيتها الفتاة.. أتعرفين ماذا تقرئين؟

منى : إنّي أقرأ كتاباً لواحد من أعلام النهضة العربيّة، اسمه عبد الرحمن الكواكبي.

المدير : هكذا.. وتجرؤين على قول ذلك بالفم الملآن؟ ماذا يجري في هذه المدرسة؟! ألا تعلمين أنَّ العهود البائدة هي التي سمّته عَلَماً من أعلام النهضة! أمّا في هذا العهد المبارك فقد انكشف المستور، وعرفنا من هو عبد الرحمن الكواكبي. رجل مشبوه في صلاته، وكتاباته، احترف التّحريض وزعزعة الاستقرار. وهذا الكتاب الموتور يحفل بالنمائم والتوريات الحاقدة.

ثريّا : وانظر يا حضرة المدير الفقرات التي وضعت الآنسة منى تحتها خطوطاً حمراء.

المدير : (**يقلّب الكتاب ويقرأ**) الحاكم المطلق مستبدّ.. ويعلم من نفسه أنّه الغاصب المعتدي، فيضع كعب رجله على أفواه الملايين من النّاس يسدّها عن النطق بالحقّ، والتداعي لمطالبته. المستبدّ عدوّ الحقّ، عدوّ الحرّية وقاتلها. المستبدّ يودّ أن تكون رعيّته كالغنم درّاً وطاعة، وكالكلاب تذلُّلاً وتملُّقاً. أعوذ بالله.. آه.. رأسي.. هذه أقوال فظيعة. كلّها تحريض وفتنة.

(**يرمي الكتاب على الطاولة وكأنّ لسعة أصابت يده**) أعوذ بالله.. إذن هذه هي العبارات الملغومة التي استهوتك يا فتاة! افتحي التّحقيق يا آنسة ثريّا.. لا.. لن تتحوّل مدرستي إلى وكر للمعارضين والخونة. وسترون شدّتي في هذه المسائل.. ولكن ما أبقاك يا سيّد فاروق! لماذا تلكأت في الانصراف؟

فاروق : (**كمن يستيقظ**) آه.. حقّاً.. يا فاطر السموات والأرض.. إنّي منصرف. (**يخرج**).

المدير : يافاطر السّموات والأرض.. سأذكر في التّقرير لا مبالاتك.

ثريّا : تعمدت الإشارة أمامه إلى العلاقة بين اللاّمبالاة والتواطؤ.

المدير : كانت ملاحظة ثاقبة يا آنسة ثريّا.. والآن ابدأي في تسجيل المحضر.

(**يتخذ المشهد هيئة محكمة تحقيق، فيما تتلاشى الإضاءة**).

المؤلف : وكانت الساعات تدور...
خرج فاروق من المدرسة، وكأنه يفِرُّ من بناء يتصدّع. كان مشوّش الذهن، ولكنَّه كان مصمّماً على متابعة هذه القضيّة. ناضجات وولاؤهنّ مؤكّد. المستبدّ عدوّ الحق. عبد الرحمن الكواكبي. ألم يكن يدرَّس على أيّامهم؟! لو لم يكن ممنوعاً لأعاد قراءته.. في الشارع انتبه إلى انحلال ربطة عنقه، وتجعّد قميصه. توقّف لحظة. سوَّى ربطة العنق، ومسَّد القميص، وغمرته عذوبة دافئة.. هذا الصباح قالت له: اشتريت لك هديّة، ثمّ أخرجت من علبة كرتونية أنيقة قميصاً وربطة عنق غالية. احتجَّ، ولامها على الإسراف، إلاّ أنّ موجة من الحبّ والزهو كانت تغمره. ساعدته في ارتدائهما. مسَّدت طيّات القميص، وسوَّت الرّبطة، ثمّ أبعدته بطرف يدها، وتأمّلته بفرح. يا الله.. ما أجمل فرحها! وودَّ أن يعود إلى البيت. انعطف إلى الشارع الرّئيسي، وتناهت إلى أذنيه تلاوة من القرآن الكريم، أخذت تعلو تدريجيّاً. توقّف المارّة على رصيفي الشّارع. كانت عربة دفن الموتى تتقدّم ببطء وخلفها رتل من السيّارات والولولات. سمع المارّة يترحّمون على الميت. ومن ترتيل المقرئ الّذي تضخّمه المكّبرات التقط نُتَفاً من الآيات.. ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِن عَجَلٍ سأُريكم آيَاتي فلا تَستعجلونِ..﴾ فاضت نفسه بالرهبة، وودَّ لو يعود إلى البيت. ولكن عناداً غريباً كان يسوق خطواته، ويتّجه به إلى الجامع.

المشهد الثّاني

(الشيخ متولّي يتصدَّر أحد أروقة الجامع، وإلى جواره مذيعٍ يسجّل له برنامجه اليومي. أثناء التسجيل يدخل فاروق حاملا حذاءه بيده، ويجلس قريباً منهما..)

المذيع : وجاءت رسالة من الأخ ابراهيم العجّان يقول فيها إنّه أعسر. وهو يسأل عن آداب الاستنجاء والدّخول إلى الخلاء، وعمّا إذا كانت هذه الآداب تتغيّر إذا كان الرّجل أعسر..

الشيخ متولي : بسم الله الرّحمن الرّحيم. الاستنجاء هو إزالة النّجاسة، أو تخفيفها عن مخرج البول أو الغائط. وحكمه الوجوب، وهو يجوز أن يتمَّ بالماء، كما يجوز بكلِّ جامد خشن يمكن أن يزيل النّجاسة كالحجر ونحو ذلك. والأفضل أن يستنجي المرء أوّلاً بالحجر ونحوه، ثمّ يستعمل الماء. لأنّ الحجر يزيل عين النجاسة، والماء بعده يزيل أثرها دون أن يخالطها. وإن اقتصر على أحدهما فالماء أفضل، لأنّه يزيل العين والأثر بخلاف غيره. وإن اقتصر على الحجر ونحوه، فيشترط أن يكون المُستعمَل جافّاً، وأن يُستعمَل قبل أن يجفّ الخارج من القُبُلِ أو الدُّبر، وألاّ يجاوز الخارج صفحة الإلية أو حشفة الذّكر، ومايقابلها من مخرج البول عند الأنثى. كما يشترط أن لا تقلَّ المسحات عن ثلاثة أحجار أو ما ينوب مَنابَها. فإن لم ينظّف المحلّ زيد عليها، ويُسَنُّ أن يجعلها وتراً، أي منفردة

كخمسة أو سبعة ونحوها. روى البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «أتى النبيّ ﷺ الغائط فأمرني أن آتيه بثلاثة أحجار». أمّا الآداب المتعلّقة بالدخول إلى قضاء الحاجة والخروج منها، فيستحبّ لقاضي الحاجة أن يقدّم رجله اليسرى عند الدّخول ويمناه عند الخروج، لأنّه الأليق بأماكن القذر والنجاسة. ولا يجمل ذكر الله تعالى، ومثله كلّ اسم معظّم. كما يستحب أن يقول الأذكار والأدعية التي ثبتت عن رسول الله قبل دخول الخلاء، وبعد الخروج منه. فيقول قبل الدّخول (بسم الله، اللّهمّ إنّي أعوذ بك من الخُبُث والخَبَائث) والخُبُث جمع خبيث، والخبائث جمع خبيثة، والمراد ذكور الشياطين وإناثهم. وبعد الخروج يقول: (غفرانك، الحمد لله الّذي أذهب عنّي الأذى، وعافاني، الحمد الله الّذي أذاقني لذّته، وأبقى فيَّ قوّته، ودفع عنّي أذاه). وهناك آداب تتعلّق بالجهة، إذ يحرّم على قاضي الحاجة أن يستقبل القبلة أو يستدبرها إن كان في الفضاء، أو في بناء غير معدّ لقضاء الحاجة. فإن كان البناء معدّاً لقضاء الحاجة جاز الاستقبال والاستدبار. وهناك آداب تتعلّق بحال قاضي الحاجة، فعليه أن يعتمد على يساره، وينصب يمناه، ولا ينظر إلى السّماء ولا إلى فرجه، ولا إلى ما يخرج منه، لأنّه لا يليق بحاله. وعلى قاضي الحاجة أن يستعمل شماله لتنظيف المحلّ بالماء أو بالحجر ونحوه، لأنّه الأليق بذلك. ويكره أن يستعمل يده اليمني لهذا، كما يكره له أن يمسّ ذَكره. وإن احتاج أن يمسك الذّكر لينظّفه بالحجر ونحوه من الجامدات، أمسك الجامد بيده اليمنى دون أن يحرّكها، وأمسك الذّكر باليسرى، وحرّكها لينظّف المحل. روى البخاري ومسلم عن

أبي قتادة رضي الله عنه، عن النّبي ﷺ قال: (إذا بَالَ أَحَدُكُم فلا يَأخُذَنَّ ذَكرَهُ بيَمِينه ولا يَستَنج بِيَمِينه). وهذه الآداب لا تتغيّر إن كان الرّجل أعسر، وحكمه هو حكم الآخرين على السّواء. والله أعلم.

المذيع : جزاك الله خيراً، وبهذه الإجابة نختم بحمد الله حلقة اليوم من برنامج «أسئلة وفتاوى»، وكان معنا كالعادة فضيلة الشيخ محمّد حسين متولّي. جزاه الله خيراً، ونفعنا بعلمه وتقواه. اللّهم سدِّد خطانا واهِدنا إلى صراطك المستقيم، ولا تَجعلنا من الضَّالِّين. آمين.

(يغلق المذيع آلة التّسجيل، ويلفّ الأشرطة، ثمّ يرتّبها في حقيبة الكتف الّتي يحملها).

المذيع : شكراً يا شيخي. لقد أفضت وتألّقت. كانت حلقة اليوم رائعة.

الشيخ متولّي : تتملّقني بالكلام لكي تصرفني عن الموضوع الجوهري.

المذيع : آه.. يا شيخ.. ماذا أقول! لعن الله البيروقراطيّة.

الشيخ متولي : تجاوزنا العشرين حلقة، ولم نقبض شيئاً.

المذيع : حقّك يا شيخ. ولكنّ المحاسبة مشغولة هذه الأيّام بالجرد. إنّ القسائم جاهزة.. وعلينا أن ننتظر حتّى يفرغوا من أعمالهم.

الشيخ متولي : تحدَّث إلى المدير. لايجوز أن يماطلوا معي.

المذيع : أعدك أن أفعل.

(ينهض المذيع. يحيّي الشيخ ويخرج. يزحف فاروق حتّى يصير إلى جوار الشيخ).

فاروق : السّلام عليكم يا شيخ.

الشيخ متولي : وعليكم السّلام.

فاروق : أريدأن أسألك يا شيخ.. هل يجوز أن يسكت المرء على المنكر؟!

الشيخ متولّي : معاذ الله.. كيف يجوز السكوت، والرّسول ﷺ قال: «من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده، وإن لم يستطع فبلسانه، وإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» اللّهم قوّنا وقدِّرنا على محاربة المنكر باليد واللّسان والقلب جميعاً.

فاروق : إذن هذا هو وقتك يا شيخ. إني أستنجد بمروءتك ودينك.

الشيخ متولّي : اللّهمّ اجعلنا من أهل المروءات، وانصرنا على جاهليّة هذه الأيّام. ولكن ماذا هناك.

فاروق : يا فاطر السموات والأرض.. إنّ الحيّ يغرق في الرّذيلة، والموبقات وصلت إلى المدرسة.

الشيخ متولّي : تخبرني أنّ الموبقات وصلت إلى المدرسة. ولكن هذه المدارس التي سميّتموها مدنيّة هي الموبقات بعينها.

فاروق : أتعني أنّ المدارس بذاتها!

الشيخ متولّي : نعم.. إنّ المدارس بذاتها هي الموبقات..

فارق : ربّما طرأ عليها بعض الفساد. وهذا ما جئت من أجله.. ولكن المدارس هي الّتي تربّي الأجيال، وتزوّدهم بالمعارف والعلوم.

الشيخ متولّي : وماهي هذه المعارف والعلوم؟! أهي المعارف والعلوم النافعة، أم تلك الّتي يوسوس بها الشيطان؟ إنّ العلم النّافع هو ما يزيد في خوف المرء من الله تعالى، ويزيد في بصيرته بعيوب نفسه، ويزيد في معرفته بعبادة ربّه، ويقلّل من رغبته في الدّنيا، ويزيد في رغبته بالآخرة، ويفتح بصيرته بآفات أعماله، حتّى يحترز منها، ويطلعه على مكايد الشّيطان وغروره حتّى يجتنبها. هذا هو العلم النافع الّذي حضّنا الله ورسوله على طلبه وابتغائه. وكلّ علم لا يدعونا من الدّنيا إلى الآخرة، فالجهل أعوَد علينا منه. وإنّي أستعيذ بالله من علم لا ينفع. قال ﷺ: «اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِن عِلمٍ لايَنفَعُ، وقَلبٍ لايَخشَعُ، وعَمَلٍ لايَرفَعُ، ودُعَاءٍ لايُسمَعُ» فهل نجد هذه

العلوم في مدارسكم المدنيّة؟! لا.. تصفّحت علومكم، فلم أجد إلاّ فضولاً زيَّنه كفّار الغرب وسمّوه علماً. وما تلك الفلسفة والاجتماعيات والطبيعيّات والفلك والرّياضيّات إلاّ وسوسات شيطانية، وضعها الكفّار، كي تُضِلَّ المرء، وتزرع في قلبه الشكّ، وترمي به إلى هاوية الاستكبار والإلحاد.

فاروق : لا أدري يا شيخ. لم يخطر لي أن يكون هذا هو رأيك بالمدارس!

الشيخ متولّي : وهل خطر لك من قبل، أن تعرف رأيي بالمدارس؟! كم مرّة جئت إلى الجامع؟

فاروق : (مرتبكاً) أعترف أنّي مقصّر.

الشيخ متولّي : من السهل أن تقول الآن، ودون رهبة، إنّي مقصّر. ولكن حين تقف صغيراً وعارياً في حضرة الخالق جلّت قدرته، ستودُّ لو يفقأون عينيك، أو يجزُّون لسانك، ولا تضطرّ لقول هذه العبارة.

فاروق : (مضطرباً وحانقاً) إنّك تربكني يا شيخ. حين جئت، لم أتوقّع أنّنا سنخوض هذا النّقاش. ولذا أرجو أن تعذرني إذا بدوت مرتبكاً أو حائراً. إنّي مؤمن والحمد لله. وقد ربّاني أبي، وكان شديد الورع والتّقى، على حبّ العلم، والاستزادة منه، وحين توفّي، وكنت صغيراً، قال لي، وهو على فراش الموت.. ما تزال كلماته محفورةفي ذاكرتي كأنّي الآن أسمعها.. «تعلّم وادخل الجامعة». ورغم الفقر، وضيق الحال نفّذت وصيته، ونلت إجازة في الرّياضيات. ولم أشعر في أيّ يوم أنّ دراستي مسّت إيماني في شيء. ولكن.. واجهني اليوم حادث خطير، وظننت أنّك الوحيد الّذي يمكن أن يساعدنا في علاجه.

الشيخ متولي : قبل أن تقصّ عليّ حادثك الخطير، أريد أن تعدني بالتردّد على الجامع، وحضور دروسي. ولعلّنا نواصل الحديث عن المدارس، ويهديك الله إلى الحقّ.

فاروق : أعدك أن أفعل..

الشيخ متولي : ماهي حكايتك؟

فاروق : هذا الصّباح.. اكتشفت أنّ بعض الطالبات يتردّدن على بيت الستّ فدوى. ولا ريب أنّك تعرف يا شيخ، ماذا يعني التردّد على بيت الستّ فدوى!

الشيخ متولّي : وماذا يعني التردّد علي بيت الستّ فدوى يا أستاذ؟!

فاروق : يا فاطر السموات والأرض.. ألا نعلم جميعاً ما يحدث في بيتها؟

الشيخ متولّي : إذا كنت تعرف.. أفصح وقل لي ماذا يحدث؟

فاروق : منذ سنتين، حين اكتمل البيت، وبدا واضحاً ما يدور فيه، ثار في الحيّ لغط كثير. وقيل لي إنّك استنكرت مع المستنكرين، وأنّك أشرت إلى البيت في خطبة الجمعة، واعتبرته علامة على التفسّخ والانحطاط.

الشيخ متولي : قيل لك، ولم تسمع بأذنيك!

فاروق : يا فاطر السموات والأرض.. كان الجميع يتحدّثون عن ذلك. في المدرسة، وخارج المدرسة. وسرت شائعات أنّ أكابر الحيّ يفكّرون في هدم البيت وإزالته. جرت، ومازالت تجري أحاديث كثيرة عن الفجور الّذي يحدث فيه.

الشيخ متولّي : هل تعلم يا أستاذ أنّك تخوض في أعراض النّاس بلا احتشام؟ وهل تعلم أنّ الغيبة أشدّ من ثلاثين زنية في الإسلام؟ ومعنى الغيبة أن تذكر إنساناً بما يكرهه لو سمعه. فأنت مغتاب، ظالم، وإن كنت صادقاً، ويكفيك زاجراً عن الغيبة قوله تعالى: ﴿ولا يَغتَب بَعضُكم بَعضاً، أَيُحِبُّ أَحَدُكُم أَن يَأكُلَ

لَحَمَ أَخيهِ مَيتاً فَكَرِهتُموه﴾ لقد شبّه الله سبحانه وتعالى المغتاب بآكل لحم الميتة، فما أجدرك أن تحترز منها! وهناك أمر لو تفكّرت فيه لمنعك من غيبة المسلمين. وهو أن تنظر في نفسك هل فيك عيب ظاهر أو باطن، وهل أنت مقارف معصية سراً أو جهراً؟ وإن نظرت إلى ظاهرك وباطنك، فلم تطلع فيهما على عيب ونقص في دين أو دنيا، فاعلم أنّ جهلك بعيوب نفسك أقبح أنواع الحماقة، ولا عيب أعظم من الحمق. ولو أراد الله بك خيراً لبصّرك بعيوب نفسك. فرؤيتك نفسك بعين الرّضا غاية في الجهل والغباوة. ثمّ إن كنت صادقاً في ظنّك، فاشكر الله تعالى عليه، ولا تفسده بثلب النّاس، والتّمضمض في أعراضهم، فإنّ ذلك من أعظم العيوب. وإنّ الله سبحانه وتعالى رأف بنا فأمرنا أن ندرأ الحدود بالشّبهات. وسيّدنا عمر رضي الله عنه طبّق حدّ القذف على ثلاثة من الرّجال الأربعة الّذين اتّهموا المغيرة بن شعبة بالزّنى، لأنّ رابعهم لم يستطع أن يجزم أنّه رأى الميل في المكحلة. فانظر إلى تحوّط عمر، وخوفه من إقامة الحدّ مع وجود الشبهة، ولو كانت ضئيلة. منذ قليل تباهيت بإيمانك وعلمك والآن تأتي وتتحدّث بطيش وخفّة عن بيت فجور وزنى. فهل يتفّق هذا مع خلق المؤمن أو العالم؟!

فاروق : يا فاطر السّموات والأرض.. لست ممّن يخوضون في أعراض النّاس، ولم أكن يوماً نمّاماً أو مغتاباً. ولكنّي أعلم أنّ النّاس يتحدّثون عن ذلك وكأنّه بداهة. ولي زملاء يتعوّذون ويحوقلون حين يذكر البيت أمامهم، أو حين يمرّون قربه.

الشيخ متولّي : لولا الظّنّة لدخل الإنسان الجنّة. قل لي يا أستاذ.. هل تعرف من يعمّر مساجد الله؟ ﴿إنَّمَا يُعَمِّرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَن آمَنَ باللهِ

واليَوم الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاة وآتَى الزَّكَاة ولَم يَخشَ إلاَّ اللهَ﴾ صدقَ الله العظيم. فهل يجوز أن نصف هذا المؤمن الّذي يعمّر المساجد بالفاجر الزّنيم، أو بقرين الشّيطان الرّجيم. ما دفعته الستّ فدوى لرفع مآذن هذا الجامع، وتزيين قبابه يربو عمّا دفعه أي محسن في هذا الحي. وهي تغدق في الهبات والصدقات، ولديها الكثير من المشاريع التي سيعمُّ خيرُها الحيَّ كلّه. ومع هذا تأتي لترميها بالنّمائم والشُّبهات.

فاروق : شيء لايُصدَّق!. يا فاطر السّموات والأرض.. قلبت رأسي. لا أعرف ماذا أقول!. إن أفكاري تتشابك وتختلط. تدافع عنها بحميَّة وحماسة! هذا شيء لايصدّق! شيء غريب وغامض!

الشيخ متولّي : أتمنّى فعلاً أن أقلب أفكارك، وأن أجعلك ترى أن الفساد هو في المدرسة التي تعمل فيها، وهو في العلم الّذي تعلّمه، وبدلاً من تصيُّد الشُّبهات، والخوض في أعراض النّاس، ليتك تواجه الفساد الّذي تحيا فيه **(يرتفع صوت المؤذّن داعياً لصلاة الظهر. يمسح الشيخ متولّي وجهه)** الله أكبر. قم إلى الصلاة، وطهِّر قلبك بالتّقوى. إذا غسلت باطنك بالتّقوى، ترتفع الحجب بينك وبين ربّك، وتنكشف لك أنوار المعارف، ويتيسّر لك من العلوم ما تستحقر به هذه العلوم المحدثة، الّتي لم يكن لها ذكر في زمن الصّحابة والتّابعين. وإن كنت تطلب العلم من القيل والقال والمراء والجدال فما أعظم مصيبتك، وما أكبر خسرانك! **(ينهض)** هيّا.. ألن تنضمّ إلى الصلاة؟

فاروق : إنّي.. إنّي..

الشيخ متولي : لعلّك جنب..

فاروق : نعم.. نعم.. لم أغتسل من الجنابة.

الشيخ متولّي : أنصحك أن تستدرك أمرك، وتصلح حالك قبل أن يفوت الأوان. ولا تنس وعدك بالتردّد على الجامع. يجب أن تسمع دروسي حول الجاهليّة الّتي يغرق في كفرها مجتمع هذا الزّمان.

(يمضي الشيخ. يبقى فاروق جالساً وذاهلاً لفترة).

فاروق : **(مغمغماً)** سأفعل..

(تتلاشى الإضاءة).

المؤلف : وكانت السّاعات تدور..

اجتاز فاروق صحن الجامع مترنّحاً، وحاملاً حذاءه. فاضت معدته. ودهمه غثيان حاد ومؤلم. خرج مسرعاً، واتّكأ على حائط الجامع محاولاً أن يتقيّأ. جاشت معدته، وارتفعت في تشنجات متلاحقة، ولكنه لم يخرج شيئاً. كانت تنبعث من فم الشيخ متولي رائحة كريهة. رائحة بخر يتصاعد من طعام متعفن، ومن غائط. ارتدى حذاءه، ومسح العرق الذي غطّى وجهه رغم برودة الجو. خف الغثيان، واشتد الطنين في رأسه. اللا مبالاة تواطؤ. المدارس هي الموبقات. وجه ثريّا واللّؤم المتيبّس عليه. المدير. الستّ فدوى ترفع مآذن الجامع، وتزيّن قبابه. أصلح حالَك. قم إلي الصلاة. أين يعيش؟ ماذا حدث بالضبط؟ أهو يومٌ ككلِّ الأيّام! يومٌ حقيقيّ أم أنّه حلمٌ وهلوسة! ودَّ أن يعود إلى بيته. حقّاً.. لماذا لايعود إلى بيته؟! استوقفه رجل رث الهيئة، مشروم الشفتين، وقال له بلهجة هي أقرب إلى الأمر منها إلى السؤال: أعطني سيجارة. فأجابه مرتبكاً: آسف.. إنّي لا أدخّن. عقّب الرّجل ساخراً: ولماذا لا تدخّن؟.. وارتبك فاروق: لا أدري.. هكذا.. إنّي لا أدخّن. أمسك الرّجل كمّه، وتفرّس في وجهه. يا الله ما أبشع وجهه! ثمّ قال مهدّداً: المرّة القادمة أنصحك أن تدخّن. ثمّ تركه ومشى. أهذه هي المدينة التي يحيا فيها أم أنّها مدينة أخرى! ماذا يحدث؟ وما قاله الشيخ متولّي لايمكن أن يكون حقيقيّاً. هو يذكر جيّداً غليان النّاس وهياجهم، حين تلألأ البيت، وانكشف مايجري فيه. ويذكر

أيضاً أنّ اسم الستّ فدوى كانت تلوكه الألسنة كوصمة أو شتيمة. كان ذلك منذ سنتين تقريباً. وتوقَّف برهة. الآن يلاحظ أنّ هياج النّاس لم يستمرّ طويلاً، وأنّه منذ سنة أو أكثر، لم يعد يسمع أحداً يذكرها بسوء. وهذا فعلاً محيِّر وغامض. كان يتجه نحو السّراي. وهو الاسم الذي يطلق على المبنى القديم الّذي يوجد فيه مدير منطقة المزرعة. وميسون القاضي هي ابنته. لم يكن يستطيع التراجع. لقد دخل نفقاً وحيد الاتّجاه، وكان مصمّماً على المضيّ إلى نهايته. كان يحثّه شعور بالمسؤوليّة. وفضول غامض وجامح لا يعرف سببه.

المشهد الثّالث

(مكتب مدير المنطقة عدنان القاضي. مكتب واسع تزيّن جدرانه صور مبتذلة لبعض المناطق الأثرية، وفتيات بالأزياء الشعبيّة. على الحائط خلف المكتب صورة كبيرة لرئيس الدّولة بالثياب المدنيّة. تكتظّ الغرفة الواسعة بأثاث متافر، بعضه شرقي، وبعضه الآخر عصريّ جدّاً. السيّد عدنان القاضي ومدير مكتبه أحمد الدّبغي).

أحمد : سيّدي.. حالة جلال السّاطي مقلقة.

مدير المنطقة : ماذا.. هل عاوده الجنون؟

أحمد : وأي جنون! نوبة اليوم تجاوزت كلّ الحدود.

مدير المنطقة : ماذا فعل؟

أحمد : في الصباح كان هادئاً وطبيعيّاً.. وفجأة رفس كرسيّه، واعتلى مكتبه، وراح يصيح «أيّها الخصيان.. الموت ولا التّعريض مع دولة هذه الأيام». نهض رئيس الدّيوان وسائر الموظّفين، وحاولوا تهدئته، فأخرج عضوه، وبال عليهم، ثمّ قفز خارجاً إلى بهو السّراي، وراح يصرخ وسط دهشة النّاس.. «الموت ولا التّعريض مع دولة هذه الأيّام».

مدير المنطقة : أعوذ بالله.. هذه فضيحة مجلجلة. وأين هو الآن؟

أحمد : بصعوبة، تمكّن ثلاثة من رجال الشرطة أن يحملوه، ويحجزوه في غرفة المصلّى. وهم الآن ينتظرون أوامرك.

مدير المنطقة : لا.. هذه المرّة ينبغي أن نهذّبه قبل أن نسلّمه إلى مستشفى المجانين. قل لهم أن يحجزوه في الانفراديّة، وأن يرتّبوه على ذوقهم. لقد تحمّلته على مسؤوليتي مرّتين وهذا يكفي.

أحمد : لا ريب أنّه مجنون، أفزعني منظره يا سيّدي. كان متغيّر السّحنة كأنّ مسّاً أصابه. عيناه جاحظتان والزّبد يتطاير من فمه. أف. منظر فظيع.. كان ينبغي أن نعرف منذ النّوبة الأولى.. **(متردداً)** لماذا لا نحوّله إلى الأمن، ونتخلص من هذه القصّة!

مدير المنطقة : **(ينظر إليه غاضباً)** لا.. دع الأمن جانباً. أحياناً تنقصك يا أحمد لمعة الذّكاء. لكي نتخلص منه يجب أن يبقى تحت سيطرتنا، فهو موظّف قديم، ويعرف الكثير من أسرار المديريّة.

أحمد : نعم..هذا هو الرّأي السّديد، آه يا سيّدي كم ينبغي أن أتعلّم منك!

مدير المنطقة : طيّب.. طيّب.. ماذا هناك أيضاً؟

أحمد : الأستاذ فاروق ينتظر في مكتبي.

مدير المنطقة : أدخله..

أحمد : حاضر.

(يخرج أحمد، وبعد قليل يدخل فاروق مرتبكاً ومكفهرّ الوجه، ينهض المدير من وراء مكتبه، ويستقبل فاروق ببشاشة كبيرة، ويقوده إلى كنبة قرب المكتب، ويدعوه للجلوس).

مدير المنطقة : أهلاً.. أهلاً... كنت أتمنّى هذه الزّيارة منذ زمن بعيد.

فاروق : **(مازال مرتبكاً)** شكراً على ترحيبك. لم يخطر لي أنّك تعرفني، وأخشى أنّي أتطفل على وقتك الثّمين.

مدير المنطقة : كيف لا أعرفك، ومدير المدرسة لا يَملّ من الحديث عن أستاذ الرّياضيّات، الّذي لا يُشقُّ له غبار! وعليك أن تضيف مدائح ابنتي وزميلات ابنتي. لا.. إنّي أعرفك جيّداً يا أستاذ

فاروق. واليوم بالذات كنت أتوقّع زيارتك، وما كنت لأجعلك تنتظر لولا هذا الحادث المؤسف، هل رأيته حين دخلت إلى السّراي؟

فاروق : من؟

مدير المنطقة : موظّف، اختلّ عقله، وداهمته نوبة جنون مفاجئة، فراح يصرخ في النّاس، ويخرّف في الكلام.

فاروق : نعم رأيت رجلاً غريب الأطوار وسط حشد من النّاس، ثمّ جرّه رجال الشّرطة وأخذوه بعيداً.

مدير المنطقة : هذا هو، إنّه جمال السّاطي. شيء مؤسف، حقّاً إنّه شيء مؤسف، هل تصدّق؟ كان هذا الرّجل، وطوال عشرين سنة، موظفاً مثاليّاً. كان هادئاً، مجدّاً مخلصاً، لم تبقّع سجلّه الوظيفي ملاحظة، أو هفوة. وذات يوم منذ بضعة أشهر بدأ يظهر عليه الاختلال. هكذا.. فجأة، رمى المعاملات الّتي كانت بين يديه، واقترب من رئيسه بهدوء ودسّ يده بين فخذيه وصاح «رئيسنا ليس له خصيتان»، وكان ذلك غريباً. وأصيب الجميع بالذهول. أمّا هو فقد راح يدور على زملائه، ويكرّر معهم الحركة ذاتها، ثمّ يصرخ «وهذا أيضاً ليس له خصيتان». وكانت حركته سريعة، ولم يستطع أحد أن يمسك به. دار على الغرف وتسلّق السّلالم، وهو لايفتأ يكرّر حركته ويصرخ «وهذا أيضاً». كان الوضع مؤسياً ومضحكاً معاً. والطّريف أنّ الوحيد الّذي وجد لديه خصيتين هو عامل البوفيه الّذي يقدّم الشّاي والقهوة. كانت حالة هيستيرية واضحة. ولم أشأ أن أتّخذ أيّ إجراء قانوني يضرّ به. كلّ ما فعلته هو أنّي أرسلته إلى طبيب نفسي. وبالفعل بدأ علاجه، وفي غضون فترة قصيرة تحسّنت أحواله، وعاد ذلك الرّجل

الهادئ، الصموت، المجدّ. وبعد شهرين أصابته نكسة جديدة، وعالجناه مرة أخرى، ولكن يبدو أنّ الحالة صارت مستعصية إلى حدّ ما. يعتقد الطبيب أن ليس لديه مشاكل جنسيّة، أمّا أنا فأظنّ أنّ مشكلته الأساسيّة ومشكلة كثيرين أمثاله هي، باختصار، الجمود والعجز عن التكيّف. نعم.. هذه هي المشكلة الجوهريّة الّتي تواجه مجتمعنا اليوم.

(يدخل عامل البوفيه حاملاً صينيّة عليها فنجانا قهوة، يضع فنجاناً أمام فاروق والآخر أمام المدير، المدير يغمز فاروق، ويشير نحو العامل، يخرج العامل).

مدير المنطقة : هذا هو الرّجل الّذي باركه الأخ جلال ووهبه خصيتين. تفضّل يا أستاذ **(يتناول علبة سجائر ويقدّم سيجارة لفاروق).**

فاروق : **(وهو يمدّ يداً ترتعش لتناول سيجارة)** أنا لا أدخّن، أقلعت عن التدخين منذ سنة، لكنّي اليوم أحتاج إلى سيجارة.

مدير المنطقة : دخّن يا أستاذ **(يشعل له سيجارة بولاّعة من ذهب)** ومهما كان التدخين مضرّاً فإنّ الضغوط العصبيّة والقلق أشدّ ضرراً وفتكاً بالإنسان. كنّا نتحدّث عن هذا المختلّ. نعم إنّي أعتقد أنّ مشكلته الجوهريّة هي التزمّت وعدم التكيُّف. نحن نعيش وسط التغيّر. إنّه تغيّر هائل يطول كلّ شيء. إنّ كلّ ما تعلّمناه من آبائنا وأجدادنا، وما حسبناه صلباً وثابتاً ها هو يضمحلّ، ويتحوّل إلى دخان. المبادئ والتصوّرات، القيم والأخلاق. كلّ شيء.. كلّ شيء يتغيّر ويتحلّل إلى غبار. وأنا لا أبالغ إذا قلت إنّنا نعيش تحوّلاً ثوريّاً عميقاً. نعم يا أستاذ أسمّيه ثوريّاً، لأنّ الثورة الحقيقيّة ليست طنين الشّعارات وترتيل العقائد والمحفوظات، بل هي الانفتاح على العصر ومنجزاته، وعلى العالم وأسواقه. هذه هي الثّورة

الحقيقيّة. إنّ الّذين حاولوا أن يسوّروا البلاد، وأن يحجزوا العصر على الحدود، انهزموا، ولم تبق منهم إلاّ بعض الذكريات المريرة. وهذا الرّجل العظيم **(مشيراً إلى الصورة)** هو الّذي أدرك أنّ البلاد لا تسوَّر، وأنّ العصر لايُحتَجَز على الحدود كأنّه مسافر مشبوه، وأن الانفتاح على العالم وأسواقه هو الثورة الفعليّة، وهو الازدهار الحقيقي. لاحظ، خلال عقدين من الزّمن تبدَّل وجه البلد. ورشات بناء وأموال ومشاريع. أخيراً إنّنا ندخل العصر. ودخول العصر لايمكن أن يتمّ دون هزّات وتوتّرات. هذه المرحلة لا يمكن أن تتعايش مع التزمُّت والأفكار الجامدة والأخلاقيّات البالية. هذه المرحلة تحتاج إلى روح مرنة وانسيابيّة. ومن لا يستطيع أن ينمّي في داخله مثل هذه الرّوح، فسيضيع أو يُرمى في مصحّ عقلي. إذا كانت أمراض القلب والسّكر والأورام والحالات العصابيّة في ازدياد، فلأنّ النّاس في بلادنا لم يستطيعوا أن ينسلخوا عن قديمهم وجمود قيمهم، ويدخلوا إلى مغامرة العصر. ولكن هل نتوقّف من أجل بعض المرضى والبائسين؟ طبعاً لا.. فالتوقّف يعني الانتحار. لأنّ العصر كالتيّار الجارف إذا ضيّعنا إيقاعه ضعنا، ولايبقى لنا مكان في التّاريخ. سمعت كثيرين يتذّمرون من تدفّق المصطافين العرب على البلد، ويروون لك قصصاً وسوالف عن انحلال الأخلاق وهدر الكرامة. ولكن هل يعلم هؤلاء أن السياحة هي صناعة وتنمية؟ ليس لدينا بترول، ولكنّنا نملك طبيعة جميلة ومناخاً لطيفاً وشعباً خدوماً. وهذه كلّها في مفاهيم العصر رساميل تُثَمَّر وتُنتِج ازدهاراً وبحبوحة. يريدون أن يستمتعوا! ليكن.. ولماذا لايستمتعون! إنّهم لا يأخذون أيّ شيء بالمجان. وإذا لم

أوفر لهم المتعة الّتي يريدون شراءها، فإنّهم سيجدونها موفورة حتّى في أشدّ البلاد ازدهاراً وتقدُّماً. رأيت الأوروبيّين بكلّ مدنيّتهم وتعاليهم يغرفون المصطفاين العرب كما تُغرف الكنوز. ولم أسمع أحداً في بريطانيا أو فرنسا يتحسَّر على الكرامة أو الأخلاق. لقد دخلنا العصر، ولكن مازالت عقليّة الكثيرين تراوح في زمن البداوة، أو المفاهيم القرويّة الضيِّقة. وهذه الازدواجيّة خطيرة إذا استمرّت، لأنّها في الواقع ستكبّل خطانا، وستمنع بلادنا من التفتّح العصري الكامل، ومن مجاراة الأمم في موكبها المتدافع إلى التقدّم والرّفاه. إنّ الكلمات والنّعوت هي الأخرى يمكن ان تتحوّل إلى قيود تشلّ الحركة. خذ مثلاً هذه الألفاظ: «الرشوة»، «النهّب» «الفساد»، «الإثراء»، «النّصب»، «الاحتيال». كلّ هذه الألفاظ الخارجة من قاموس بائد، هي قيود يستخدمها المتزمّتون كي يعرقلوا عمليّة الانفتاح، وكي يمنعوا تحديث البلاد. إنّ العالم العصري ألقى هذه الألفاظ والقاموس الّذي يحتويها في مكبّ النّفايات. إنّه يستخدم كلمات «المنفعة» و«العمولة» و«الرّبح» و«اقتناص الفرص» و«العصاميّة» و«المرونة» و«العلاقات العامّة». وفي الواقع لايمكن أن نكون في العصر، وأن نستخدم في الوقت ذاته لغة عصر تجاوزه الزّمن واضمحلّ. نعم كلّ شيء يتغيَّر، ويقتضي أن نتغيّر. لاشكّ أنّي أثقلت عليك، وما قلت إلاّ ما تعرفه أفضل منّي. إنّ أستاذاً لامعاً في الرّياضيّات الحديثة يعرف عن روح العصر، أكثر ممّا يعرفه رجل تخبّط في كليّة الاقتصاد سنوات عديدة، ولم يحصل على شهادته إلاّ بشقّ النفس. هل أطلب فنجاناً آخر من القهوة؟ **(يرنّ الجرس قبل أن يجيب فاروق)**

نعم إنّ فنجان قهوة ضروري الآن، كي تنفض من رأسك ثرثرتي. جرفتني الحماسة لأنّي لا ألتقي كلّ يوم عصريّاً أستطيع أن أبوح له بما يدور في ذهني دون تحفّظ أو مراوغة. **(يدخل الآذن)** هات لنا قهوة مظبوطة وماءً بارداً **(يلتفت إلى الأستاذ)** أم لعلّك تريد شيئاً آخر!

فاروق : **(مجفلاً)** لا.. لا شيء **(يتردد)** أريد سيجارة.

مدير المنطقة : طبعاً.. طبعاً **(ويقدّم له سيجارة، ثمّ يشعلها بالولاّعة الثمينة)** أترى هذه الولاّعة! إنّها غالية جدّاً بالنسبة لي، لا لأنها من ذهب، وثمنها غالٍ، بل لأنّها هديّة من ابنتي ميسون.. آه هذه البنت! إنّها تدهشني. ربّما لم يتح لك وسط ازدحام الصفّ وانشغالك بالدروس، أن تتعرّف عليها جيّداً، ولكنّها حقيقة مدهشة، لا أقول هذا لأنّها ابنتي، بل لأنّها كذلك فعلاً. أحياناً أفكّر أنّ العصر هو الّذي أنجبها، وغذّى أنسجتها. إنّ قابلياتها، وإيقاعها، والآلية التي يعمل بها عقلها، كلّها تدهشني، وتعطيها منزلة خاصّة في قلبي. إنّها مختلفة عن إخوتها. ولا أخجل إذا قلت لك إنّي أحياناً أتعلّم منها، وأحياناً هناك مشاكل لا أستطيع حلّها، إذا لم تمدّني برأيها.

فاروق : يا فاطر السّموات والأرض.. ولكنّي جئت كي أتحدّث معك عن ميسون.

مدير المنطقة : أحقاً.! ماذا تنتظر إذن! حدّثني.. أهو أمر يتعلّق بالدراسة!

فاروق : لا.. لا ليست الدّراسة، بل هو أمر أخطر.. كيف أقول لك! يا فاطر السّموات والأرض.. هل تعرف يا سيادة المدير أنّها.. أرجوك لا تؤاخذني.. ولكنّي سمعت ذلك بأذني. إحدى زميلاتها قالتها، وهي لم تكذّبها.. هل تعلم أنّها تتردّد على بيت الستّ فدوى!

مدير المنطقة : نعم.. وهي تحبّ زوجتك كثيراً.

فاروق : زوجتي؟!

مدير المنطقة : إنّهما تلتقيان عند الستّ فدوى. وهي تقول لي إنّ زوجتك هي الوحيدة التي استحقّت صداقتها.

فاروق : ماذا تقول! يا فاطر السّموات والأرض.. زوجتي عند الستّ فدوى؟

مدير المنطقة : والستّ فدوى هي الأخرى تحبّ زوجتك كثيراً وتدلّلها. إنّك محظوظ يا أستاذ. لديك زوجة متميّزة تثير الإعجاب وتميل نحوها القلوب. إنّ ابنتي لا تصادق بسهولة، والستّ فدوى صعبة المراس ولا تدلّل أيّاً كان. لاشكّ أنّ زوجتك متميّزة كي تكسب صداقة ابنتي ودلال الستّ فدوى.

فاروق : يا فاطر السّموات والأرض.. إنّي لا أصدّق. **(ينهض)** لا.. هذا مستحيل.. لايمكن أن أصدّق.. يا فاطر السّموات والأرض.

(يندفع خارجاً وهو يردّد كالممسوس يا فاطر السّموات والأرض).

مدير المنطقة : ألن تشرب القهوة يا أستاذ!

(يبتسم ابتسامة ملغزة.. يضع سيجارة في فمه، يشعل الولاّعة عدّة مرّات، وبينما يشعل سيجارته يتلاشى المشهد).

المؤلّف : وكانت السّاعات تدور..

لم يكن يسير، بل كان يهوي في جروف عميقة، يغطّي قيعانها ضباب صدئ اللّون، وتتزاحم فيها شتّى أنواع الزّواحف والأفاعي. كلّ شيء صلب يتفتّت، ويتحوّل إلى غبار. القيم والمفاهيم والأخلاق. وميسون تحبّ زوجته، والغيبة أشدّ من ثلاثين زنية في الإسلام. ورائحة الشيخ.. رائحة الشيخ الّتي تثير الغثيان. والولّاعة الذهبيّة. أين هو؟! وماذا يجري! تعلّق بأذيال سترته عنقود من المتسوّلين الصّغار قذرين، دبقين، مفزعين. كان فظّاً وقاسياً، أوقع فتاة، وركل صبيّاً، وحين أفلح في التخلّص من إلحاحهم، لاحقه سيل من الدّعوات والشتائم البذيئة. هذه مدينة لا يعرفها، ولم يسر في شوارعها! أيمكن أن تتغيّر المدن في يوم واحد؟! وأسرع الخطى. كان الجحيم يناديه، وكان محكوماً بالذهاب إليه. ولطمه شاب كثّ الشاربين يرتدي ثياباً خضراء مرقّطة، وصاح فيه: «انظر أمامك يا حمار». ولكنّه تظاهر أنّه لم يسمع، وتابع طريقه. لا.. لم تعد المدينة هي المدينة.

المشهد الرابع

(غرفة الست فدوى.. غرفة باذخة ومكسوة بحميمية خاصة. تتوزّع على جدرانها مرايا كبيرة مختلفة الحجوم ومرتّبة بصورة تبرز المرء من كلّ جهاته وبكلّ أوضاعه. الإضاءة موزّعة توزيعاً أنيقاً. في تجويف في الحائط يتخفّى سرير عريض يستر ترفه بغشاء شفّاف من الحياء والذّوق. وفوق السّرير عُلّقت لوحة لإمرأة عارية تدير ظهرها للناظر بينما يلتفت رأسها بحركة خفيّة ونظرة غامضة. إنّ الانطباع الذي تخلفه اللّوحة هو الحياء وليس الإثارة. ولكن كلاً من السّرير واللوحة معاً يطفحان، وربّما بسبب الحياء بالذات، بالغواية.. ترتدي فدوى ثوباً منزلياً سابغاً، ووجهها خال من المساحيق. تتمشّى في الغرفة بخفّة الظّلال. تدخل نرجس، فتاة صغيرة تبدو كالدمية بسبب مكياجها الفاقع وملابسها الصّارخة. حين تتكلّم أو تتحرّك يتعزّز الإحساس بأنّها دمية، كما أنّ التناقض الصّارخ بينها وبين فدوى في اللّباس والمكياج، يضفي على الأولى مزيداً من الوقار واللّطافة الإنسانية).

فدوى : هل وصل الأستاذ؟

نرجس : **(هامسة بصوت مستعار)** نعم.. لقد وصل الأستاذ. إنّه مخيف يا معلّمتي. أخشى أن يؤذيك.

فدوى : أدخليه وابلعي لسانك. لا أريد أيّ ثرثرة.

نرجس : حاضر.. ولكن..

فدوى : **(تقاطعها بحسم)** قلت لك أدخليه، واحملي لنا عصيراً طازجاً.

(تخرج نرجس.. تجلس فدوى بحركة أنيقة على إحدى الكنبات. خلال لحظات يدخل فاروق مشعّث الهيئة زائغ العينين).

فاروق : **(كالمذهول)** وإذن.. هذه أنت!

فدوى : أي نعم.. هذه أنا.

فاروق : لديَّ سؤال واحد، وأريد الإجابة عليه.

فدوى : تمنَّيت هذا اللّقاء، فلا تفسد عليَّ متعته. تفضّل واجلس.

فاروق : لا... لاأريد أن أجلس. هو سؤال وجواب ولاشيء آخر.

فدوى : **(تنهض وتجرّه برفق إلى الكنبة)** أرجوك أن تجلس. أعرف ما تعانيه، وأعرف أنّك متعب. دعنا نهدأ قليلاً. دعنا نسترخِ قليلاً. سنتحدّث كثيراً، ولكن ارتح واسترخ أوّلاً.

(يجلس فاروق كالمنوَّم، يختلس المكان بنظرات خاطفة ومبهورة. تفاجئه صورته وهي تتكرّر في المرايا إلى مالانهاية. يبدو وكأنّ خدراً يسري في أوصاله).

فاروق : **(يردّد مسحوراً)** يا فاطر السّموات والأرض.. **(يهبّ بغتة وكأنّه يقاوم)** لا.. لا أريد أن أجلس. لن تأكلي عقلي بهذه الأجواء الشيطانية. هو سؤال واحد وأريد جوابه.

فدوى : ليتنا نستطيع أن نبدّد غموض الحياة بسؤال وجواب **(تقترب منه وتزداد رقّة)** اجلس يا فاروق. حذفت كلمة الأستاذ، لأنّها كالحجاب تفصل بيننا، وتمنع تلامسنا.. وأنا أريد أن نتلامس. **(يصبح مطواعاً)** تعال واجلس. **(يجلسان معاً على كنبة واحدة)** هل تعرف أنّ الحياة والواقع وهذا العالم أعقد من سؤال وجواب؟

فاروق : ماذا تحاولين؟! لن تخدعني الألاعيب. لديَّ سؤال واضح، وأريدأن أسمع منك جواباً واضحاً.

فدوى : **(تمسح على شعره فينتفض مبتعداً عنها)** ليكن.. ليكن.. ستحصل على جوابك الواضح ولكن أنا.. أنا الّتي تلاحقها يا فاروق منذ الصباح، وتثير ضدّها المدرسة والجامع والسّلطة، ألا يحقّ لي أن أطرح سؤالاً، أو أوضح نفسي قليلاً. تمنّيت أن ألقاك لأنّي خمّنت أنّك الرّجل الّذي أستطيع أن أتحدّث إليه. أن أشرح له نفسي. ما أنا بالنسبة لك؟

فاروق : إلى أين تستدرجينني؟

فدوى : إنّي لا أستدرجك يا فاروق. منذ الصباح وأنت تلوك سيرتي، فلماذا لاتقول لي، وفي وجهي ما أنا بالنسبة لك؟

فاروق : يا فاطر السّموات والأرض.. هل تظنّين أنّي سأتراجع، أو أخاف. إنّكِ.. إنّكِ..

فدوى : **(بعذوبة)** قل يا فاروق.. إنّي..

فاروق : الستّ فدوى.

فدوى : لا.. لاتراوغ يا فاروق.

فاروق : إنّي لا أراوغ.. الستّ فدوى.. العاهرة.

فدوى : **(تتخلّل شعره بأصابعها)** والقوّادة.

فاروق : إنّكِ تخربين البيوت، وتغرقين الجميع في وحل الفساد والرّذيلة.

فدوى : ربّما كنتُ شيئاً من هذا كلّه. أتعلم؟! لم تخيّبني.. كنت أنتظر رجلاً يقول لي ذلك في وجهي.. كنت أنتظر رجلاً لايأتي إليَّ متهافتاً. لأنّه سيكون الرّجل الوحيد الّذي يغريني بأن أشرح نفسي قليلاً. هل تصدّق؟ رغم كلّ شيء، إنّي أشعر بالوحدة مثلك. في أيّ عام تخرّجت؟ **(تدخل نرجس حاملة صينيّة عليها كوبان من عصير البرتقال، تقدّم له العصير**

لكنّه يرفض).

فدوى : ضعيها على الطربيزة، لاشكّ أنّك جائع، أحضري بعض الشطائر. **(بعد تردّد قصير تخرج نرجس).**

فدوى : **(تتاول كوب العصير وتقدّمه له.. برقّة شديدة)** أعرف أنّك ظمآن وجائع، اشربه.

فاروق : **(ينتفض غاضباً وينهض)** يا فاطر السّموات والأرض.. ما معنى هذا؟ ما جئت لأشرب أو لآكل. أريد أن أعرف.

فدوى : لاتتعجّل.. حتّى الآن عرفت أشياء كثيرة. **(تتاول علبة سجائر)** هل تريد سيجارة؟

فاروق : نعم إنّي أريد سيجارة.

فدوى : إذن، اجلس وتناول شيئاً من العصير. لن أدعك تدخّن على معدة فارغة.

فاروق : يا فاطر السّموات والأرض.. إنّك تنسجين حولي شبكة من خيوط حريريّة. إنّك تصضـ.. تصط.. يا فاطر السّموات والأرض.. إنّك تستادينني.

فدوى : طيب.. طيّب اجلس وتناول شيئاً من العصير. **(يطاوعها)** أؤكد لك أنّي لا أحاول اصطيادك. أريد أن نتلامس، أن يعرف كلّ منا شيئاً عن الآخر. ويبدو أنّ هذه هي المعرفة الوحيدة الممكنة. هل جرّبت أن تعرف نفسك؟ أمّا أنا فقد ضيّعت الكثير من الوقت والجهد، لكي أكتشف أنّ الإنسان يولد ويموت، ولايعرف نفسه. **(تقدّم سيجارة وتشعلها)** هل رأيت مرّة ظهرك أو قفاك؟ انظر. لقد ركّبت هذه المرايا لكي أرى جسدي من كلّ جهاته. ولكن هل رأيت جسدي دفعة واحدة ومن كلّ جهاته. كنت أريد رؤية كالإشراق المفاجئ، وما رأيته هو أعضاء وتكوينات تتكرّر، وتتعاكس في تعقيد لانهائي. وفي النهاية هذه هي الحياة. سألتك في أيّ عام

تخرّجت، لأنّي أعتقد أنّنا كنا في الجامعة في فترة واحدة تقريباً. كنت في السّنة الرّابعة أدب فرنسي حين تزوّجت. كان زواجاً عائليّاً ومرتّباً أرادوا أن يشفوني به من قصّة حبّ كئيبة.

(تدخل نرجس حاملة صينيّة فضيّة عليها صحن تكوّمت فيه شطائر متنوعة. تضع الصحن وتهمّ بالخروج).

فدوى : ابقي قليلاً. كانت ليلة صيفيّة جميلة، وكنت قد أرضيت نفسي، وتركت الأمور تمضي في مجراها **(إلى نرجس)** اذهبي إلى السرير.

نرجس : **(بفرح طفولي)** أتريدين أن نلعب اللعبة!

فدوى : **(وهي تنهض)** نعم.. وانتبهي جيّداً فاليوم لدينا متفرّج، حاول أن تكوني معتدلة ومقنعة.

نرجس : ألا أحضر الشوارب؟

فدوى : ليس ضرورياً. المهمّ أن تتذكّري العبارات جيّداً.

نرجس : إنّي أتذكّرها ويمكنني أن أزيد عليها.

فدوى : لا.. لاأريد أيّ زيادات، اجلسي هنا على طرف السرير وضعي رجلاً فوق رجل.

نرجس : والشطائر؟! ألا نلعبها عادة، وهو يأكل بشراهة، ويتساقط مع الكلام فتات من الطعام؟!

فدوى : طيّب.. تناولي شطيرة بسرعة. **(بينما تحضّر نرجس الشّطيرة تندسّ فدوى في الفراش)** كنت متكوّرة في فراشي. كانت العمليّة مقرفة وسريعة. كان قد نهض كالفاتح. تناول طبقاً وضع فيه أفخاذ دجاج وفطائر وأشياء أخرى. جلس على حافة السّرير عارياً. وضع رجلاً على رجل وملأ فمه بفطيرة. **(تجلس نرجس على حافة السرير تضع رجلاً على رجل، وتملأ فمها بلقمة كبيرة من الشطيرة).**

الزّوج : **(وهو يمضغ)** هذا هو الأمر إذن! لم تخبروني أنّ البضاعة مغشوشة.

فدوى : أرجوك لا تكن مبتذلاً.

الزّوج : أأنا المبتذل! وماذا تسمّين ما اكتشفناه منذ لحظة، أهو وقار؟! **(يتساقط فتات على وجهها فتمسح وجهها وتكشّر باشمئزاز)** قولي.. أهو وقار أن تكون القناة سائبة بلا باب أو مغلاق؟! أهو وقار، أن أشتري بضاعة مختومة فأجدها مستعملة وبلا ختم؟!

فدوى : وددت لو أموت. كنت أغوص في الفراش تقزّزاً. قلت.. أرجوك لا تسمّيني بضاعة. اسمع، سأشرح لك. يمكننا أن نتفاهم.

الزّوج : لا.. لا.. لا تحدثّيني عن التفاهم. إنّي مخدوع.. إنّي مطعون.. إنّي أنزف، ولن يتوقّف النّزيف إلاّ إذا غسلت جرحي وعاري.

فدوى : ماذا تنتظر؟ تناول سكّيناً واذبحني.

الزّوج : أذبحك!.

فدوى : أقسم إنّي لن أقاومك، وأعدك ألاّ أصرخ.

الزّوج : إم.. ولِمَ أورّط نفسي؟! أنت تستحقين الذّبح، ولكن البازار لم يكن معك. كان مع أبيك، ومعه وحده يجب أن تُعالَج هذه القصّة.

فدوى : **(صائحة)** لا.. دع أبي جانباً.

الزّوج : كيف أدعه.! هو الّذي باع، وهو الّذي غشّ.

فدوى : **(تنهض وتجثو عند قدميه)** أتوسّل إليك.. إنّ أبي رجل ضعيف. جنّبه هذه المهانة، وافعل بي ما تشاء.

الزّوج : **(ينهض ويتمشّى كالمتباهي)** ولماذا لم تجنّبيه أنت هذه المهانة؟ لماذا أفسدتِ البضاعة، وهي في بيته وتحت رقابته!

فدوى : لست بضاعة، ولا يليق هذا الكلام برجل مثقّف.. أرجوك، إنّنا ناضجان ويمكننا أن نواجه هذه المشكلة بهدوء. فقط دعني أشرح لك. لم تجمعنا قصة حبّ، ولكنّي وطدت العزم على أن نبني يوماً بعد يوم عشّاً يزهر فيه التفاهم والحبّ. قبلت الزّواج وأنا مصمّمة على نجاح هذا الزواج، فلا تترك ردّة فعل غاضبة تفسد مشروعنا.

الزّوج : يا غشائي الضائع، وبكارتي المهتوكة. المشروع الّذي يُبنى على غشّ لا مستقبل له. إنّي مطعون.. إنّي أنزف. وشأني مع أبيك لا معك.

فدوى : وتوسّلت وبكيت، وتمنّيت لو تكون لديه الجرأة، ويغرز سكّيناً في عنقي.

نرجس : والزّوج لا يشبع. **(تتناول شطيرة أخرى)** ويتناول صحناً آخر.

فدوى : ولو كان محزوناً لوَاسيته، ولو كان مجروحاً فعلاً لتحوّلت ضمادة له. كان شيئاً مقزّزاً في ابتذاله وتفاهته. وبعد أن أنهى صحنه الثاني حاول أن يضاجعني ثانية، وهو يدمدم مازلت امرأتي، وشأني مع أبيك لا معك. تلك الليلة ماتت فدوى التي كانت طفلة محبوبة، وتلميذة لامعة، وصبيّة تضجّ بالأماني والأشواق.

نرجس : وفي اليوم التالي ذهبت، أنا الزّوج المطعون طعنة يتدفّق منها دمي وكبريائي إلى الأب، لكي أعرض عليه جراحي وأطلب تعويضي.

(تتخذ نرجس وفدوى وضعيّة الزّوج والأب).

الزّوج : جزاك الله خيراً يا عم. زوجتي بضاعة مغشوشة.

الأب : ماذا تقول يا ابني؟

الزوج : العذراء لم تكن عذراء، ومكان العفّة لم يكن مختوماً.

الأب : أعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم، ولا حول ولا قوّة إلا بالله

العظيم. هل أخبرت أحداً سواي؟

الزّوج : أستغفر الله يا عم.. هذا سرّ لم يتعدّنا، ولن يتعدانا.

الأب : بارك الله فيك يا ابني. حقاً إنّهن صويحبات إبليس. هذا العارُ لم نعرفه في عائلتنا. ولك عليَّ رغم شيخوختي أن أذبحها بيدي.

الزّوج : لا يا عم، استهدِ بالرحمن. ماجئت لكي أحرّضك على ذبحها. وعلى كلّ ليست لنا مصلحة في الفضيحة، وإثارة زوبعة من القيل والقال، لا يعلم إلاّ الله متى تهدأ أو تتوقّف. قد نموت وذكرنا مايزال على ألسنة النّاس.

الأب : **(وهو يبكي)** هذا العار لايمكن أن أقبله، أو أداريه.

الزّوج : اهدأ يا عم.. اهدأ. كلّ المشاكل يمكن أن تحلّ إذا توفّرت النّية الطيّبة.

الأب : وأنا الّذي لم أكن أطلب من الدّنيا إلاّ السترة في الآخرة. ملعونة أنت. ملعون ذلك البطن الّذي حملك. اسمع يا ابني. أنت صاحب الحقّ وكما تفصّل ألبس.

الزّوج : أعتقد أنّ السترة مصلحة الجميع. لو فاحت رائحة، أو ثارت فضيحة، لصار مقامك في هذا الحيّ مستحيلاً ولبارت تجارتك. هذه التجارة الّتي أنفقت عمرك، وأنت تبنيها وتنّميها لبنة لبنة.

الأب : هذا صحيح.. ولكن ما ذنبك كي تحمل هذه الغصّة طوال حياتك؟ يشهد الله أنّي أحبّك كابن لي، وأنّي سأوافق على أي حلّ يناسبك. وكما قلت لك أنت صاحب الحق ففصّل وأنا ألبس.

الزّوج : يمكنك أن تتصور أنني لم أنم الليل، وأنّي قلبت الأمر ظهراً وبطناً. سأسامح وسأكون ستراً لك ولعائلتك. ولكن أعتقد أنّك لن تبخل عليَّ بإكراميّة أو تعويض.

الأب : اطلب وإن شاء الله ستجد يدي مفتوحة.

الزّوج : أرجو يا عم ألا تنسب طلبي إلى الطمع. ولكنّنا عائلة واحدة، وأعتقد أن السرّ الذي بيننا زاد قرابتنا عمقاً ولحمة، ولو أعطيتني جزءاً من تجارتك فكأنّك تعطي من يدك اليمنى إلى يدك الشمال.

الأب : هل تطلب جزءاً من تجارتي؟

الزّوج : النّصف أو حتّى الثّلث. إنّي أترك تقدير الأمور لك. وكما قلت نحن في النهاية عائلة واحدة، يجب أن نلتمّ على بعضنا، وألاّ يظهر منا إلاّ الحبّ وطيب الرّائحة.

فدوى : وطأطأ أبي رأسه، وضرب أخماسه بأسداسه. كانت تلك التجارة هي شقاء عمره، وهي حياته. وفكّر يوماً وليلة، ثمّ رضخ ودفع لزوجي تعويضاً يوزاي نصف عمر من التدبير والتوفير. وجاءني زوجي ضاحكاً.

الزّوج : أرأيت؟ لقد تفاهمنا مع الرّجل المستقيم. كلّ شيء يمكن إصلاحه. أستطيع الآن أن أصيح ومن فوق المئذنة.. كانت عذراء.. تلك الفتاة الجميلة الكريمة الحسب والنّسب.. كانت عذراء. وفي ليلة عرسنا تدفّق دمها فبلّل الشرشف والفراش.

فدوى : وعرفت ما حدث.. وتقيّأت. خلال ثلاث أيام، وأنا أتقيّأ. ولكن وسط القيء، وفي المرحاض كانت فدوى تولد.. فدوى أخرى، لا يكاد يربطها بتلك التي ماتت إلاّ ملامح الوجه والجسد. وحتّى هذه صارت أحلى، وصارت أكثر فتنة وإغراءً ومعرفة. **(تومئ إلى نرجس كي تنصرف، تقترب بحركة لدنة، وتجلس قرب فاروق)** وفدوى التي ولدت في المرحاض وسط القيء، استردّت تجارة أبيها، وحوّلت زوجها مستخدماً في متجر صغير لها، وهي الآن تبني مملكة من

الثّروة والمشاريع والطموحات.

فاروق : يا فاطر السّموات والأرض.. ما هذه الدّنيا الّتي أتعرَّف عليها؟

فدوى : إنّها الدّنيا الحقيقيّة يا فاروق. الدّنيا المبنيّة من الطين والدم والشهوات والشّراهة. الدّنيا الملموسة والعنيفة والقاسية. باختصار.. الدّنيا الفعليّة الّتي نحيا بها. أمّا تلك الّتي كنت تظنّ أنّها الدّنيا، فليست إلاّ أوهاماً ونفاقاً وتزاويق كاذبة. أصغِ إليَّ يا فاروق.. كنت فعلاً أنتظر هذا اللقاء. في فترات قصيرة قد تكون الأوهام جميلة، وأحياناً ضرورية. لكنّ المرء لا يستطيع أن يتغذّى بالأوهام طويلاً، ولا يستطيع أن يبني على الوهم إلاّ الخيبة والمرارة. لا أدري.. أعتقد أنّه وضع شاذ، أن يضيّع رياضيٌ متألّق مثلك حياته في مدرسة لا تقيم له وزناً. أريد أن تكون إلى جواري. إنّي أحتاج إلى شخص مثلك، ويغريني كثيراً أن أثبّت قدميك في دنيا حقيقيّة لا وهميّة. ومهما بدت الدّنيا الحقيقيّة قاسية وعنيفة، فإنّ لها أيضاً سحرها الخاص. إنّه سحر أسود مسكر، لا تقاس به مذاقات الأوهام الفقيرة والمغثية. ولكنّك لم تنهِ كأس العصير، ولم تأكل شيئاً.

فاروق : **(ينتفض ويثب واقفاً)** يافاطر السّموات والأرض.. هل تريدين شرائي! إنّك تجعلينني أضحوكة.. إنّك جنّية رهيبة تنصبين الشّباك وتتلاعبين بالعقول. لديَّ سؤال واحد فقط.. سؤال يتوقّف عليه مصيري، وأريد جوابه حالاً.

فدوى : ليتك تسلسُ قيادك لي. الطّفل أو الأحمق هو الّذي يعلّق مصيره على جواب واحد.

فاروق : قولي ماتشائين، ولكنّي أريد جواباً واضحاً. هل تأتي زوجتي

إلى هذا البيت؟

(تسود فترة صمت ثمّ بحركة هادئة وطقوسيّة تتناول فدوى علبة السجائر، وتقدّم له سيجارة. يتردّد، يتناول سيجارة، والرّجفة واضحة في يده. تشعلها له ثمّ تعود وتسترخي على الكنبة).

فدوى : أتعلم! إنّ لديك جوهرة نادرة، وأخشى أنّك لا تستحقّها. أشعر بالحزن حين أرى رجلاً ذكيّاً ولا معاً يحيا ويسلك مسلك الحمقى. فتحت لك قلبي وأبواب مملكتي، وهذا لا أفعله لأيٍّ كان، لكن ها أنت تتصرّف كالحمقى. تنسحب إلى محارتك اللّعينة، كي تسبح في مخاطك وأوهامك عاجزاً عن الحياة وعن المبادرة.

فاروق : يا فاطر السّموات والأرض.. علامَ هذا اللّف والدوران؟ سألتك هل تأتي إلى هذا البيت فأجيبيني.

فدوى : **(بهدوء شديد)** نعم.. إنّها تأتي.. وإنّها أحبّ بناتي إلى قلبي.

فاروق : **(يزداد امتقاعاً وارتعاشاً)** يا فاطر السموات والأرض.

فدوى : وهل تعلم أيّها الرّجل التّابه لماذا تأتي زوجتك إلى هذا البيت! المسكينة.. إنّها تأتي لأنّها متيّمة بحبّك. إنّها تأتي، لأنّها على صغر سنّها تريد أن تكون أمّك وحبيبتك وزوجتك. إنّها تأتي لأنّها تعرف أنّ زوجها لا يعيش في زمانه. إنّها تأتي لأنّها تعتبر زوجها آنية خزفيّة ثمينة، ستتحطّم إذا خرجت إلى الدّنيا الحقيقيّة. إنّها تأتي يا أستاذ فاروق لكي تواصلَ الاستمتاع بالسباحة في موادك المخاطيّة، وأوهامك اللزّجة!

فاروق : يا فاطر السّموات والأرض!

(يبدو وكأنه ينقصف في وسطه، يتهالك على الكنبة، ويخفي وجهه بين يديه).

فدوى : إنّك مخيّب يا أستاذ فاروق. وعلى كلّ أردت الجواب وحصلت عليه، فامضغه على الضرس الّذي يريحك.

(تخرج وتتركه وحيداً في الغرفة، بعد قليل يرفع يديه عن وجهه. يتطلّع حوله، تباغته صورته المتكرّرة والمتعاكسة إلى ما لانهاية. يحملق بذهول فترة من الزّمن، ثمّ ينهض بإعياء، ويجرّ قدميه خارجاً فيما تتلاشى الإضاءة).

المشهد الخامس

(في المطبخ. فاروق يجلس وحيداً على كرسي خشبيّ، ويمسك بيده سكين مطبخ. عيناه زائغتان ووجهه شديد الشحوب).

المؤلّف : وكانت الساعات تدور..

هبط الليل، وبدأ يمتصّ المدينة. وفي صدره كان يتدافع ليل أشدّ ظلمة من ليلة المدينة. حين دخل البيت أدرك أنّها تعلم، فانزوى في المطبخ. احتسى زجاجة من الماء، وظلّ فمه جافّاً. نزع ربطة العنق والقميص، وبدأ يمزّقهما. وحين تعبت يداه، تناول السكّين وقطع البقايا حتّى صارت نسالة، غطّت أرض المطبخ، ثمّ أشعل سيجارة، وجلس. كان متعباً وخاوياً، وكان يفتّش عن الغضب فلا يجد إلاّ مواءً خائراً وشاحباً، والآن ماذا يفعل؟. جرّ إبهام يده على النّصل العريض، وتحسّس الحدّ المرهف حذراً. في ذلك اليوم حين حمل السكّين إلى البيت، تأمّلتها ضاحكة وقالت: «هل اشتريتها من القصّاب؟» فأجاب «نعم من القصّاب اشتريتها. ولا تقولي بعد اليوم، اشتريتَ لي سكيناً لا تقشّر خيارة». وكان يحلو له أن يجلس في المطبخ ويراقبها، وهي تفرم وتقشّر وتقطّع. أصابعها النّاعمة تلتفّ على المقبض الخشبي. كان يحسّ هذا الالتفاف لدناً ومثيراً. لا..

دع الصور. دع الذّكريات. وتأمل عارك بعينين مفتوحتين. الليل يتقدّم، واللّحظات تتوتّر، ثمّ تمضي مثقلة بالخجل. فعلامَ تماطل أو تتمهَّل؟ هذا الجرح لا يشفيه إلاً الدّم. دم. دم.. وجاشت معدته. حين كان طفلاً رأى دماً يسيل على فخذ أمّه، فلجمه الرعب، ودخل في اللغز. فيما بعد فهم وتعلّم، ولكنّه لم يبرأ من الرّعب. ولم يخرج أبداً من قلق اللّغز. مازال الدّم يروّعه، ومازال هذا اللّغز يحيّره. والألغاز تتكاثر. في الجامع ألغاز. وفي المدرسة ألغاز. وفي المديريّة ألغاز. وفي المدينة ألغاز. وهناك. هناك في ذلك البيت تلتقي الألغاز والغوايات معاً. تلك المرايا، تلك الفتنة التي تسيل من الصوت والحركة، من الجسد والأثاث. هي الفوضى تكتسح الدّنيا. فوضى مرعبة، تغرقه وتبلعه في دوامتها المظلمة. والآن.. ماذا يفعل؟ إنّه وحيد وضائع. لم يعد له زمان، ولم يعد له مكان. وقواه خائرة. ليته يغفو قليلاً، أو ليته ينكبّ على مسألة رياضيات. حين تستغرقه مسألة رياضيّات ينسى العالم ونفسه، ويشعر أنّه يسبح في فضاء بلّوري نقي. ولكن الرّياضيات بعض وساوس الشيطان، وأخوه كان يسخر منه دائماً أو يقول: «إن الرياضيات كالشّعر، لاتعلّمك شيئاً عن الحياة» حقّاً. ماذا يعرف هو عن الحياة؟ ماذا يعرف عن العالم الذي يديره الشيخ متولي، والستّ فدوى وعدنان القاضي، وثريّا، ومدير المدرسة، وذلك الشّاب المشورب والمبرقع، وامرأته؟ وامرأته! كن رجلاً.

فاروق : لا.. لا المكان مكاني ولا الزمان زماني. رأسي عجين رخو من الصور والبذاءات والكلمات. لو أغيب. لو أغيب.

(يدار مقبض الباب بارتباك، وتدخل نجاة).

نجاة : **(بصوت متعثر)** دعني أفعل لك شيئاً. دعني أساعدك.

(فاروق يعرض عنها ولا يجيب).

نجاة : أعرف أنّي لوّثت كرامتك. أعرف أنّي جرحتك جرحاً عميقاً، وما تفكر به عادل وسليم. **(تقترب بحياء، وتقف إلى جواره. تمدّ أصابعها إلى السكين)** نعم.. هذا هو الحلّ. إنّك تحمل همّاً تنوء تحته الجبال. تخلّص منّي ومن هذا الهم. إنّ حياتي الوضيعة لا تساوي شيئاً أمام هذا العذاب الّذي تعانيه. ارفع هذه السكّين. ارفعها يا حبيبي. استجمع قواك، واغرسها هنا في نحري. حرّرني من دمي الملوّث. حرّرني من قذاراتي. ادفن شقاءك في لحمي. ابصقه هنا في قلبي. ارفع يدك يا حبيبي. **(تمسك يده، وتحاول أن ترفعها)** ارفعها يا حبيبي.

فاروق : **(ينتر يده منها)** دعيني وحدي.

نجاة : لا أستطيع أن أدعك تتحمّل كلّ هذا الشّقاء.

فاروق : قلت لك دعيني الآن. لا أريد أن أراك. لا أريد أن أسمع صوتك. لا أريد أن أشمّ رائحتك. دعيني وحدي.

نجاة : **(بذلّ وخضوع)** حاضر يا حبيبي.

(تزحف على الأرض وتنزوي في ركن قصيّ).

المؤلف : هي ابنة خالته. وأحبّها كما لم يحبّ أحداً في الدّنيا. وكانت تقول إنّها تحبّه كما لم تحبّ أحداً في الدّنيا. ولم يكن أبوها راضياً عن هذا الحب. لكنّ إصرارها وضغط العائلة أجبراه على القبول. ويوم زفافهما، انتحى به الأب وقال له.. «إنّي أسلّمك جوهرة، فاعرف كيف تحافظ عليها».. كانت حقّاً جوهرة حتّى تقوّض العالم، وانهار في غرابة هذا النّهار. لو أنَّ رأسه يصفو. لو أنّه يستطيع أن يمدّ

يده داخل جمجمته، وينظّفها من الطّنين والأقذار والكلمات الرّديئة. ماذا يفعل؟! أيذهب إلى أخيه السّاخر؟! سيصفّق ويقهقه، ويقول.. «هذه هي الدّنيا الحقيقية يا ابن أبي البكر». سيقول.. «حاولت أن أعلّمك السّباحة في بحر الحياة، ولكنّك رفضت وتعاليت». هل يذهب إلى أمّه كما اعتاد أن يفعل منذ مات أبوه؟.. كان في العاشرة حين مات أبوه، كان مسجّىً على السّرير، شمعيّ اللّون وضامراً، وكان يلهث وهو يتكلّم. قال له: (تعلّم، وادخل الجامعة). وقال له: (عليك أن تصير رجلاً قبل أوانك). ولكن أمّه أعفته من هذه المهمّة، ولم يصبح رجلاً قبل الأوان. بعد الدّفن أمسكت البيت بحزم، وأدارت كل شيء. كانت قويّة ومدبّرة، وعرفت كيف تربّي ولديها، وتصل بهما إلى الشهادة والوظيفة. وهي التي اختارت ابنة خالته قبل أن يلحظها، وقبل أن يحبّها. وودّ الآن لو يندسّ في حضنها. لو تفلّي رأسه من الصئبان والهموم، وتهدهده بتمتمات شجيّة لايذكر منها كلمة. تلك أيام لن تعود، والأم ترقد مطمئنة في قبرها. إنّي وحيد مع هذا الهول، وعليك أن تواجهه وحيداً، ولكنّك متعب ولا تستطيع التركيز. النوم أمنية مستحيلة. وأن تنسى أمنية مستحيلة. وأن تدير ظهرك أمنية مستحيلة. لم يعد لك مكان، ولم يعد لك زمان، وليس أمامك إلاّ هذا الفراغ المظلم. لو تستطيع أن أسفك الدّم. دمها.. دمك... كل الدماء.

(تنهض نجاة، وتأتي إليه وهي تشهق بالبكاء).

نجاة : لا.. لا أتحمل ما تفعله بنفسك. لماذا تتردّد! ساعدني قليلاً،

وأنا سأنفّذ الحكم بِنفسي **(تخطف السكين من يده. بلهجة انتصار)** ها هي السكين التي اشتريتها من عند اللحام. وبيدي هذه سأغرسها في قلبي الذي تلوّث دمه.

(ينهض فارِوق ليمسك بها، فتفلت إلى زاوية المطبخ، وهي ترفع السكّين بيدها).

فاروق : هاتي السكّين..

نجاة : لن تأخذها إلاّ بعد أن أصبغها بدمي. أليس هذا ما تريده؟. وما تريده عادل. أنا أقول لك إنّه عادل. لقد أفسدت كلّ شيء. أفسدت كلّ ما هو جميل في حياتنا. وكانت حياتنا جميلة. ألم تكن جميلة يا فاروق؟! ولكني غبيّة.. ولكني حمقاء. تركتها تغويني، وتركت البريق الكاذب يخدعني، وظننت أنّ شيئاً من الترف يزيد بيتنا دفئاً، ويزيد سعادتنا تنوُّعاً وعمقاً. قبل أن نفترق.. أريدك أن تعرف يا فاروق أني أحبّك، وأنّ الحبّ هو الّذي دعاني إلى التهوّر، والبحث عمّا يريحك. بدأ الأمر كما تعرفه تماماً. علمت أنّها تريد مطرّزات، وأنّها تدفع أسعاراً مجزية. كنت أراك مرهقاً في ترتيب معاشك كي نمضي الشهر دون عوز وديون. كنت أريد أن أساعدك، ووجدت التطريز فرصة سانحة، فانهمكت في العمل. أحياناً كنت أنهض في الليل، وأنت لا تدري، كي أتمّ قطعة ينبغي أن أسلّمها في الصباح. لماذا أقول لك هذا كلّه!. في البداية كانت تريد مطرّزات، ولكن لم يمرّ وقت طويل حتى اكتشفت أنّ المطرّزات ستار. وأن.. قاومت يا فاروق أكثر مما تظن!.. وكنت أشعر دائماً أنّي أنوس بين الثّلج والنّار. الحياة تزداد عسراً، وسعادتنا العائليّة لايمكن أن تصمد، إذا ضغط عليها

الفقر والحرمان. وكان يغمّني أن تستهلك نفسك في الدروس الخصوصيّة، وأن تنفق وقتك وأعصابك مع أولاد مدلّلين لا يستحقون تعبك. لا.. لا.. إنّي لا أبرّر نفسي.. أردتك أن تعرف فقط أنّي أحبّك، وأردت أن تغفر لي إن استطعت.

(تحاول إغماد السكّين في صدرها. يندفع فاروق هلعاً، ويمسكها من يديها).

نجاة : يا خيبتي! إنّها لم تمسّ ثوبي. إنّي أكره نفسي. إنّي جبانة. أرجوك غالب نفورك من الدّم، وساعدني. أمسك يدي.. أمسك يدي وحرّكها. أغمدها في صدري.

(توجّه قبضتها التي يمسكها فاروق نحو صدرها، لكنّ فاروق يضغط على يدها بشدّة، ويوقفها).

فاروق : اتركي السكين..

نجاة : أرجوك ساعدني **(وهي تشهق بالبكاء)** لا أريد أن أحيا.. لا أريد أن أحيا.

فاروق : **(ينزع السكّين من يدها. محتداً)** هذا لعب. إنّك تعرفين أنّي لا أستطيع. وأنا لا أفهم لماذا تطلبين الموت.. أنت تسبحين في مائك. تكيّفتِ مع التيّار، وتعلّمت كيف تزدهرين فيه. المدينة مدينتك. والبيت المتلألئ بالغواية والمرايا بيتك، إنّ الوقت وقتك يا نجاة، ولا يلائمك أن تطلبي الموت. هناك واحد آخر.. واحد لم يعد له وقت، ولم يعد له مكان، هو الذي يجب أن يغيب.

نجاة : أنا تكيّفت! لو تعرف يا فاروق كم كابدت، وكم عانيت! لو تعرف كم مرّة هجرت، وكم مرّة خاصمت! ولكن من يتورّط لا يبقى له قرار. لا.. ما تكيّفت. وكيف يمكن أن يتكيّف المرء مع حياة ممزّقة ومشروخة! إنّ غربتي أعمق ممّا

تظنّ. واليوم حين أخبروني صعقت، وتثلّجت أطرافي. ولكن بعد قليل هدأت أنفاسي، وشعرت بالارتياح. نعم.. ارتحت، لأنّي اليوم سأنتهي من تمزّقي، وعذاباتي الطويلة. سأودّع القلق، ولسعات النّدم، وأستريح. أنا الّتي أخطأت، وتورّطت، وأنا التي ينبغي أن تموت.

فاروق : (**يمسك كتفيها، وينظر في عينيها بتركيز**) أحقاً تريدين أن تموتي؟

نجاة : نعم.. وفي هذه اللحظة بالذات.

فاروق : ألا تتظاهرين!

نجاة : وهل بقي مجال للتظاهر يا فاروق!

فاروق : يا فاطر السّموات والأرض.. أين كان يختبئ هذا الشّقاء كلّه؟ لم يبق شيء. خراب.. خراب شامل لا يترك لنا خياراً إلّا الرّحيل.. منذ عدت، وأنا أنبش غرائب هذا اليوم، وأشحذ عزيمتي على الرّحيل.

نجاة : لا.. ولماذا ترحل! لا.. ليس أنت.. اقتلني كالكلبة، وتابع حياتك. والحياة أمامك فسيحة.

فاروق : لم يعد لي زمان، ولم يعد لي مكان. ما اكتشفته في المدرسة والجامع والشارع والمديرية وبيت الستّ فدوى، لم يترك لي في هذا العالم جحراً صغيراً أتطوّى فيه. إنّي وحيد وضائع.

نجاة : لا.. لست وحيداً. سأكون ظلّك في كلّ ما تريد.

فاروق : سقط النّقاب عن وجه العالم، فبدا دميمياً، مشروم الشفتين، يا الله ما أبشع وجهه!. غريب.. كلّ شيء غريب، ولم يبق لي إلاّ الرحيل.

نجاة : أهذا قرارك يا فاروق؟

فاروق : وهل هناك خيار!

نجاة : إذن سنرحل معاً.

فاروق : يا فاطر السّموات والأرض.. أينبغي أن تكوني معي في رحلتي الأخيرة؟

نجاة : نعم.. سنكون معاً. وسيكون رحيلنا كالزّفاف. هل تذكر تلك الليلة؟ كان كلانا عديم الخبرة، وشهق كلّ منّا، واعتقدنا أنّنا نموت. نعم.. كتلك الليلة سنشهق معاً، ونموت معاً.

فاروق : ونمضي في البياض. في فضاء من البياض. بعيداً عن رائحة الشيخ متولّي، ومرونة السيد المدير، وهذه المسوخ التي تتسافد في الوحل والقمامة. بعيداً.. بعيداً. ولكنك ملوّثة، وستبقّعين البياض. يا فاطر السّموات والأرض.. كيف كنت تفعلين.! نتعانق ونتمدّد في السرير، وأنت تعلمين أنّ جسدك ملطّخ بأنفاسهم، وبصاقهم، وشهواتهم.. قولي.. أكنت تستمتعين؟

نجاة : أرجوك لا تفسد الحلم. أستمتع! سامحك الله.

فاروق : لم تكوني حجراً.

نجاة : بل كنت حجراً. تريد أن تعرف كيف كنت أتغلّب على القرف والاشمئزاز؟ كنت أبحلق في السّقف، وأفكّر.. سأشتري لفاروق كذا وكذا، وسأشتري للبيت كذا وكذا. لا.. لقد لوّثت جسدي، ولكنّ عواطفي وروحي ظلّت نقيّة، وأقسم لك أنّ هذا الجسد لم يختلج مع إنسان سواك. وفي الليل حين تضمني، كنت أشعر أن قذارتي تتبدّد، وأن خلاياي تتجدّد، وأنّني نجاة التي هي لك، ولك وحدك. سيظلّ البياض ناصعاً، فدعنا نمضِ.

فاروق : أحقاً تريدين الرحيل معي!

نجاة : نعم.. ولن أفارقك أبداً.

فاروق : أتحبينني إلى هذا الحدّ!

نجاة : وربما أكثر..

فاروق : ما أشد وحشة هذا العالم!.

نجاة : ضمّني.. ولنرحل عن وحشة هذا العالم.

(بحركات هادئة يغلق فاروق النّافذة جيّداً، ويقفل باب المطبخ، ثمّ يقطع الأنبوب الّذي يصل جرّة الغاز بالبوتوغاز، ثمّ يمضي إلى الجرّة الاحتياطية، ويفتحها هي الأخرى).

نجاة : والآن.. تعال يا حبيبي. هذه ليلة زفافنا الثّانية.

فاروق : **(وهو يتمدّد إلى جوارها على أرضيّة المطبخ)** نعم.. إنّها ليلة زفافنا الثانية.

(تتناثر العبارات، وهما يخلعان ثيابهما، ويتطارحان الحبّ).

نجاة : هل رفعت الشراع؟

فاروق : نعم.. والرّيح تدفعه بقوّة.

نجاة : والمجذاف.. ألن نحتاج إلى مجذاف؟!

فاروق : والمجذاف جاهز.

نجاة : إني أحبّك.

فاروق : كنت أخاف أن أرحل وحدي.

نجاة : وكيف ترحل وحدك!

فاروق : إننا نبتعد عن الخراب والوحشة والفوضى.

نجاة : نعم.. إنّنا نبتعد، وندخل في البياض.

فاروق : رأيت اليوم رجلاً كان يغطي الزبد فمه. كان يريد أن يصرخ، وكان يصرخ.. أتعلمين ماذا كان يقول..؟

نجاة : ماذا كان يقول يا حبيبي؟

فاروق : كان يقول: الموت ولا التّعريص مع دولة هذه الأيام.

نجاة : نعم.. الموت ولا التّعريص مع دولة هذه الأيام.

فاروق : يا فاطر السّموات والأرض.. ما أشد وحشة هذا العالم!

نجاة : حقاً.. ما أشدّ وحشة هذا العالم!

(تتلاشى الإضاءة ببطء شديد).

المؤلف : كان يوماً غائماً وبارداً. كان يوماً ككّل أيام أوائل الشّتاء. وكانت الساعات تدور..

ستار.

١٩٩٣

أحلام شقيّة

المكان: بيت عربي صغير يتألف من غرفتين متقابلتين تقريباً، بينهما فسحة سماوية ضيقة تتوسّطها فسقية صغيرة جافة. وفي زاوية من الفسحة أقيم مطبخ طولانيّ ضيق، وإلى جواره حمّام ومرحاض. وهناك درج يفضي إلى غرفة علوية، أمامها سطح صغير على شكل شرفة.

طبعاً يمكن الاستعاضة عن كلّ ذلك بمستويات، أو بأيّة صيغة مكانية يتخيلها المخرج ومصمم الديكور. ولكن مهما كان الحل الذي يلجأ إليه العرض، فإنّ من المهم الحفاظ على انطباعين يوحي بهما البيت، وهما: الانغلاق والضيق.

من المفترض أنّ أحداث هذه المسرحية تدور في خريف عام ١٩٦٣. وهذا التحديد لايخلو من قيمة أو مغزى.

المشهد الأول

(غرفة ماري صاحبة البيت، وزوجها فارس. وهي أعلى من أرض الدار بثلاث درجات. الغرفة واسعة، ومزدحمة بالأثاث والأشياء. في صدر الغرفة سريرٌ له قوائم نحاسيّة عالية يلتفّ عليها داير من قماش أبيض، ويُزاح الطرفان في المقدّمة للوصول إلى السّرير. في الغرفة ديوانة تستخدم هي الأخرى كسرير. وهناك خزانة وصندوق قديم وأمتعة كثيرة على ظهر الخزانة وفوق الصندوق. وفي الوسط ماكينة خياطة حولها أقمشة وقصاصات قماش.

ماري نائمة في السّرير، ولا نراها. وعلى الديوانة ينام فارس متقوقعاً على نفسه.

ليلة خريفية باردة. والنوّاسة الصّفراء تلقي في الغرفة ضوءاً واهناً وبارداً).

فارس : ماري.. ماري.. إنّي بردان. **(يرفع رأسه المغطّى بقبّعة صوفيّة، ويلتفت نحو السّرير)** ماري.. ردّي عليّ. لن تخدعيني. أعرف أنّك لم تنامي بعد.. بكّر البرد هذا العام. إنّي أرتعش. لا أستطيع النوم إذا لم تدفأ عظامي. هذه الليلة باردة جداً. **(يزيح الغطاء، وينهض من الفراش. يصكّ أسنانه بعضها ببعض)** هل تسمعين.. سينكسر فكّي. ماري.. لماذا لاتردّين؟ لعلّي مريض. هذه رعدة مرض. **(يقترب من سريرها).**

ماري : عد إلى فراشك.

فارس : سأفطس من البرد. انظري.. إنّي أرتعش.

ماري : عد إلى فراشك.

فارس : لا أريد شيئاً.. سأتدفأ قليلاً ثمَّ أعود إلى فراشي.

ماري : أف.. إنّك تمنعني من النّوم.. أنزل بطانيّة أخرى عن ظهر الخزانة.

فارس : البرد في عظامي يا ماري. والأغطية تثقل عليّ دون فائدة.

ماري : لن تدخل سريري. عد إلى فراشك، ودعني أنم.

فارس : ماما الحلوة.. أنا بلدان.. حطّيني بحضنك.. ماما لدّي عليَّ **(يقلّد صوت طفل يبكي)** أنا بلدان.. أنا بلدان.

ماري : عد إلى فراشك.

فارس : **(مواصلاً لعبته)** ماما زلعانة منّي! ليش زعّانة.. ماما أنا خايف.. فيه عفريت. ماما خبّيني بحضنك.

ماري : يا الله ما أثقل دمك! عد إلى فراشك.

فارس : هل صار دمي ثقيلاً؟ كنت تضحكين حين ألاعبك، وأقلّد لك الأطفال الصّغار.

ماري : **(بعنف)** كنت أضحك من القهر، ومن الشّفقة أيضاً.

فارس : ما الذي يضايقك!. إنّك تزدادين قسوة يا ماري. ونحن واحدنا للآخر. ليس لي أحد سواك، وليس لك أحد سواي.

ماري : **(تنهض من فراشها منتفضة)** ومن قال.. ليس لي أحد سواك!

فارس : **(يحاول أن يجلس على طرف السّرير)** ماري.. وسّعي لي قليلاً.

ماري : **(صائحة)** انهض.. كم مرّة قلت لك. لا أريد أن تلمس فراشي.

فارس : **(ينهض خائفاً)** لايحقّ لك أن تعامليني بهذه القسوة. من لك سواي؟

ماري : ألا تعلم من لي سواك؟ لي ابن.

فارس : أتجعلينني أجنّ.. من أين تخترعين لنا أبناء؟

ماري : هس.. إنّه في الغرفة العلويّة. ألا تسمع وقع خطواته؟. عد إلى فراشك، وإلاّ ناديته وقلت له.. إنّه يعذّب أمّك يا بشير.

فارس : لاشكّ أنَّ هذا الداهية خطف عقلك. أعرف.. منذ سكن هذا الغريب الذي لانعرف من أين أتى، ولا ماذا يعمل، تغيّرت أحوالك، وقويت عينك عليّ.. ومن هو حتّى تعامليه معاملة الابن؟

ماري : إنّه ابني الذي عاد إلى أمّه بعد سنين طويلة من الغياب.

فارس : أهذا كلام! أتصدّقين نفسك حقّاً؟ هذا وهم يتلاعب بك.

ماري : إياك أن تسمّي ابني وهماً. أعرف لماذا تتحامل عليه.. ألم يكشف فساد روحك؟ ألم يقل لك.. لاتعذّب أمّي؟

فارس : ماري.. هذا جنون. نحن في عمر نحتاج فيه إلى التعاطف.

ماري : (مهتاجة) وهل تعرف التعاطف أنت؟ متى كنت متعاطفاً؟ كان عمره ستّة أشهر حين ولدته.. وماذا فعلت آنذاك؟ أتذكُر؟ جمعت لعابك النّتن في فمك، ثمَّ بصقت على الأرض وكأنّك تهيل عليه التّراب. لم تنظر إليه، ولم تبالِ بالأمر. كأنّك رأيت جيفة في الطريق، وكأنّه لم ينزل من صلبك الهالك.

فارس : لايحقّ لك أن تفتحي هذه السيرة الآن.

ماري : نعم.. ينبغي أن نفتح هذه السيرة. دائماً تريد أن تطوي كلّ شيء، لكي لاتكدر عيشك. ثلاثون سنة من النسيان. أنت تطوي وتلهو، وأنا أتقرمد في الشّقاء، وفي ترتيب الحياة حولك كي تلهو بلا منغّصات.

فارس : هذه قسوة فظيعة. كيف يخطر لك أن تفتحي دفاتر العمر في هذه الليلة الباردة؟ ما الّذي غيّرك يا ماري؟ كنت دائماً

وديعة كاليمامة راضية كالمغموسة بالنعمة. لم تكوني تتذمّرين، أو تناكدين. لا أعرف ماذا فعل بك هذا الدّاهية! منذ استأجر هذه الغرفة، وأنت تتحوّلين.

ماري : طبعاً لا يعجبك أن يظهر ابني بعد هذا الغياب الطويل. وأن يقف إلى جانبي في الشّقاء الذي سببته لأمّه. في البداية.. حين لم تكن تعرف إلى جانب مَن سيقف، كنت تحبّه، وكنت لا تمل من التغني بمزاياه. في البداية.. حين كان يزوّدك كلّ صباح ببعض السجائر، ويلاعبك بالزّهر مسايراً قلّة همّتك وكسلك. ألم تكن تحبّه؟ قل.. ألم تكن تمدحه على الطالعة والنازلة؟

فارس : (مرتبكاً) أعترف أنّني أحببته في البداية.

ماري : وما الذي بدّل المحبّة نفوراً؟!

فارس : انظري.. لقد قلب حياتنا. ألم يقلب حياتنا يا ماري؟ إنّه يخيّم علينا، ويبذر النكد بيننا. لم أعد أشعر بالارتياح في هذا البيت، ولا حتّى في القهوة. أحسّه كالظلّ ورائي كيفما تحرّكت. وهو لايتعب من لومي. دائماً يلومني. وفي النهاية.. من هو.. إنّه غريب يستأجر لدينا غرفة.

ماري : لا تقل إنّه غريب. ولو كان غريباً، لما باليت إن لامك. طبعاً.. أنت تكرهه، وتخاف منه، لأنّه جاء كي يرتّب ما تبقّى من حياة أمّه، ويخفّف قليلاً من الشّقاء الذي قاست منه. الشّقاء الذي تجرّعته ثلاثين سنة وهي صامتة وراضية. أتعرف ماذا قال لي اليوم؟ قال لي.. حين تصعدين إلى السّماء يا أمّي، ستجدين الملائكة حائرة، تتساءل كيف نعوّض هذه المرأة عن الشّقاء الذي تكبّدته. وأيّ فرح يمكن أن يغسل روحها من العذابات التي تحمّلتها؟ آه يا أمي..

ستَرِفّ الملائكة حولك كطيور من نور ولطف، وستغني بأعذب الأصوات كي تواسيك، وتملأ قلبك بالفرح. وأنا الآن.. أعيش في كنف ابني الذي عاد، منتظرة تلك الرّحلة المهفهفة بالطّهارة. كلّ ليلة أتطهّر، وأطهّر فراشي، وأنتظر. وماذا تعرف أنت عن الفرح الذي أنتظره؟! ستكون شهقة لطيفة، ثمَّ أسمع رنين أجراس فضيّة يموج حولي كالأنسام النّديّة، ثمَّ أرحل عنك وعن هذه الدنيا المتعفّنة.

فارس : لن تفعلي.. لايمكن أن ترحلي، وتتركيني وحيداً. أنا بردان، وليس لي أحد سواك.

ماري : وهل فعلت شيئاً حتّى يكون لك أحد؟ حتّى الولد رفضته، وكفّنته بالبصاق.

فارس : ألا تتعبين من لومي؟! أنا أيضاً كان لي نصيبي من هذا الشّقاء.

ماري : أأنت تتحدّث عن الشقاء! تذكّر كيف مضت حياتنا.

فارس : بحق الله.. دعي الماضي يا ماري. إنّي بردان.. ولعلّي لن أبقى حيّاً حتّى الصّباح.

ماري : أعرف هذه النغمة. كلّما أردت شيئاً، تلوّح لي بالموت الوشيك.

فارس : لا أريد إلاّ أن تدعي الماضي، وتوفّي لي حقّي. لي عليك الطّاعة يا ماري.

ماري : أنفقت حياتي في طاعتك، وماذا جنيت؟! العقم، وتبديد العمر. هل تذكر ماذا أهديتني في عرسي؟ كانت ماري عمياء لا تعرف شيئاً عن الرّجال، وأهداها عريسها في ليلة زفافها داءً لوّث طهرها، وهدم صحتها. هل تذكر دفقات النّار في جوفي.. وكنت تردّ عليّ بمجون ساخر.. إنَّ لذّة الرجال موجعة يا ماري. كنت أتعفّن، ولا أفهم لماذا!

وكانت أوجاعي تزداد، ولا أجرؤ على الاستفسار أو الشكوى. كنت دائماً مطيعة، ولم أجنِ من الطّاعة إلاّ العقم والسّقم والبلوى.

فارس : لا يا ماري.. ما حدّثتني مرّة بهذه القسوة. أنا أيضاً كنت جاهلاً، ولم أكن أعرف الكثير عن النّساء.

ماري : تلك الأيام.. كم تباهيت، وعاندت!

فارس : كل الرّجال يحبّون التّباهي قليلاً. كنت مسكيناً ووحيداً مثلك يا ماري. ولم أعاند إلاّ لأخفي هذه الحقيقة. يا الله.. ماذا دهاك؟. مرّت سنوات لم تفتحي فيها هذه السيرة. والليلة فجأة يخطر لك أن تنبشي كلّ آلامنا.. هل حرّضك هذا الغريب عليّ؟ قولي يا ماري.. هل كشفت أسرارنا، وتفاصيلنا أمام هذا الغريب؟

ماري : من حقّ ابني أن يعرف ما قاسته أمّه.

فارس : **(يخفي وجهه بكفّيه، ويتراجع لينهار على الديوانة)** لا.. لا.. يا عيب الشّوم. هذه كبيرة يا ماري. فضحتني أمام غريب. أين أختبئ وجهي؟! **(يبدأ بالانتحاب)** إنك تكرهينني يا ماري. ليتني متّ قبل أن أرى ماري اللطيفة والرّحيمة تتحوّل إلى مخلوق غاضب وأناني. يا ربّ.. أبتهل إليك أن تخلّص روحي الليلة. أنا مقطوع من شجرة، والمرأة التي هي سندي فضحتني، وتنكّرت لي. إنّي وحيد وبردان. عظامي تتفكك، وأحشائي ترتجف. وأنا وحيد لايحنو عليّ أحد. يا ربّ.. لم أكن أطلب إلاّ سترة الآخرة فأيّ عقاب تنزله بي؟!

ماري : **(خائرة)** بحق الله اسكت.. إنّك تجعلني أبكي. **(تنهض من فراشها، وتقترب من الديوانة، تجبر فارس على التمدّد، وتدثّره بالأغطية)** لا أعرف صدقك من هزلك.. ولكن لا أحتمل أن تبكي.

فارس : نعم.. هذه هي ماري التي أعرفها. هاتي يدك كي أقبّلها. أنا أعلم أنَّ قلبك ناصع كالثّلج، لكن هذا الغريب دخل بيننا كالجنّي..

ماري : اهدأ، ونم. هل تريد أن أضع لك بطانية أخرى؟

فارس : أترين.. ما أصفانا حين نكون وحدنا! ماكان يجوز أن تنشري سرّنا أمام غريب.

ماري : (بعنف) قلت لك هذا الغريب ابني. منذ سنوات طويلة. وأنا أترقّب عودته.

فارس : باسم الصليب.. هل أنت ممسوسة يا ماري؟! لاشكَّ أنَّه سَحَرك، أو عمل لك عملاً. لا.. لن أسمح لغريب أن يخرب حياتنا، ويهتك آخرتنا. غداً سأطلب منه أن يحزم حقيبته، ويرحل.

ماري : وبأيِّ حقّ تطلب منه أن يرحل؟ هو في بيته.. هو في بيتي.. ألم يكن أبي هو الذي اشترى لي هذا البيت؟! ألم يكن هو الذي اشترى لي ماكينة الخياطة التي تأكل منها؟! ألم أشترِ بتعبي وكدّي كلّ ما لدينا! وأنت! ماذا كنت تفعل؟ كنت تلهو بين البيت والمقهى.

فارس : قولي إنّي رمّة. قولي إنّي علقة.

ماري : لا أريد أن أقول شيئاً. نم، ودعني أسترح.

فارس : ألا تلاحظين.. ماكنت امرأةً تمنّن.. هذا الشاب سمَّم روحك يا ماري. لا.. لن أتركه يسمِّم روحك النَّقيّة. ينبغي أن يرحل. ولا تنسي أنَّ في البيت عائلة أخرى، وهناك أمور تحدث.

ماري : اسكت ولا تزد كلمة.

فارس : أتريدين أن يغدو بيتنا وكراً للمشاكل؟ أتتحمَّل في عمرنا هذا سوء السّمعة والفضيحة؟ وليتنا نعلم مَن هو.. افتحي عينيك

جيّداً يا ماري. ماذا نعرف عنه؟. يقول إنّه طالب. هل رأيت طالباً لايغادر غرفته إلاّ في الليل! لماذا لايحمل كتباً، ويذهب إلى الجامعة كالطلّاب الّذين عرفناهم من قبل؟ افرضي أنّه متورّط في السّياسة.

ماري : اسكت.. اسكت.. أمنعك أن تثير الشكوك والأقاويل حول ابني.

فارس : لاتجعليني أجنّ. من أيّ أب أنجبت هذا.. الابن؟

ماري : من أب يعشّش في صلبه المرض، وتأكل الغيرة قلبه. حين وُلد لم تبالِ به، وحين كبر ونضج أصبحت تغار منه، وتخافه.

فارس : استيقظي يا امرأة.. إمّا أن يرحل، وإمّا أن نجنّ جميعاً.

ماري : اسمع يا رجل.. إذا لم تعجبك عودة ابني، فارحل.

فارس : ماري.. أتطلبين منّي الرّحيل.. أتتخلّين عنّي من أجل صعلوك لا نعرف أصله أو فصله.

ماري : ما قلته واضح. ولا أريد أن أسمع كلمة أخرى. هذا بيتي، وابني عادَ لي، وأنا أريد الآن أن أصفو وأستريح.

فارس : أنت لاتعرفين زوجك إذن. إذا صمّم فارس..

(تطفئ ماري النوّاسة، وتندسّ في فراشها).

فارس : ماذا فعلت؟ إنّي أكره الظّلام. إنّي بردان، وأكره الظّلام. هذه الليلة رهيبة يا ماري. أقسم لك أنّها رهيبة.

ماري : **(بصوت خافت وخاشع)** أبانا الذي في السموات.. ليتقدّس اسمك... ليأتِ ملكوتك.. لتكن مشيئتك كما في السّماء، كذلك على الأرض..

(تتلاشى الإضاءة).

المشهد الثاني

(غرفة في بيت ماري يسكنها مساعد في الجيش اسمه كاظم وزوجته غادة، وابنهما ذو السّنوات الثلاث أو الأربع واسمه ثائر. كاظم يرتدي بيجامته، ويجلس على بساط مفروش على الأرض، وأمامه طبق من القشّ عليه صحون مازة وفروج مشويّ وكأس عرق. غادة تجلس في زاوية وفي حضنها دفتر رسائل تكتب فيه.. الولد نائم.)

كاظم : أين البصل؟ الا يمكن أن تضعي المازة إلاّ ناقصة! يوماً لا أجد الزيتون، ويوماً لا أجد المخلل. إنّك تحضرين مازتي، وكأنّها عقوبة.

غادة : هل نسيت البصل؟

كاظم : إي نعم يا ست.. نسيت البصل.. يا الله.. فزّي، وهاتي بصل.

(تضع غادة الدفتر جانباً، وتنهض بهدوء. تخرج من الغرفة لتأتي بالبصل).

كاظم : **(يرشف من كأسه، ويدندن مع الأغنية)** سائليني يا شآم.. **(ينهض ويتفحص ابنه، فيجده نائماً. يناديه بصوت خافت)** ثائر.. ثائر.. إنَّه يحبّ الفرّوج. لو أطعمته قبل أن ينام.. سأخبّئ له الفخذ. إنّه كأبيه يحبّ الأفخاذ. **(تدخل غادة حاملة صحناً فيه شرائح من البصل)** ألم تلاحظي أنَّ ثائر

كأبيه، يحبّ الأفخاذ.. اقطعي له فخذاً كي يأكله في الصّباح.

غادة : عندما تنتهي.

كاظم : لا.. اقطعيه الآن.

غادة : طيّب.. طيّب. اتركه في الصحن.

كاظم : حين أطلب شيئاً، نفّذي ولا تعانديني.

(تتاول صحناً فارغاً، وتقتطع فخذاً من الفرّوج المكتَّف، وتضعه في الصّحن).

كاظم : أنتِ أيضاً يمكنك أن تأكلي قطعة من الفرّوج.

غادة : شكراً.. تعشّيت مع ثائر.

كاظم : اليوم مزاجي رائق يا غادة، ولا أريد أيّ تعكير. **(يمدّ لها الكأس)** خذي رشفة.

غادة : تعرف أنّي لا أحبّ طعمه.

كاظم : خذي رشفة صغيرة.

(تتناول الكاس، تضعه على شفتيها، ويبدو النفور على ملامحها).

كاظم : اشربي، ولاتخافي. هذا يقوي الدّم، ويجلو الرّوح. **(تعود إلى ركنها، وتتناول الدفتر)** ألم تنتهي من الكتابة لأخيك؟ اكتبي له أنّ صهرك يقرئك السّلام، ويشرب على البعد كاسك. ولاتنسي أن تخبريه أنَّ الثَّورة تقوّي مركزها بعد أن دحرت الانفصاليين والوحدويين الخونة من جماعة طاووس مصر. إي.. إي.. قولي له هذه المرة لن تنقش مع عبد النّاصر. هو يغنّي أكلك منين يا بطّة، ونحن نجيبه.. «يا كركدن لا تحسبن تاتقبضن.» نعم اكتبي له هذا كلّه على لساني. وقولي له لا نحتاج إلى علم الأجانب. وعليه أن يعود لكي يخدم الثورة. لماذا لاتكتبين؟

غادة : لن أكتب له ذلك.

كاظم : هاتِ الدفتر. سأكتب له بيدي.

غادة : إني أحبّ عبد الناصر.

كاظم : ماذا قلتِ؟ هل جننت؟

غادة : إنّي أحب عبد الناصر.

كاظم : ومتى كان هذا الحبّ المفاجئ! هذه أول مرّة أسمع هذه القصة. أتبحثين عن الشر!. قولي.. أتبحثين عن الشرّ!

غادة : إنّي أحبّ عبد النّاصر.

كاظم : قلت لك الليلة مزاجي رائق، فلماذا تريدين استفزازي؟

غادة : إنّي أحبّ عبد النّاصر.

كاظم : **(وهو يهبّ غاضباً)** إي سألعن أجدادك على أجداد عبد الناصر. سأكسر رأسك، وأعجنك بدمك. **(يمسكها من شعرها)** أتتحدين مبادئي؟! أتريدين خراب بيتي! خذي إذن..

(يشرع في ضربها. تستسلم غادة ولا تحاول المقاومة).

غادة : اضرب..

كاظم : لم يعرف عمّي كيف يربّيك، أمّا أنا فأعرف.

غادة : اضرب..

كاظم : والله سأشفيك من هذا العناد. **(يزداد في الضرب والرَّكل)** يا بنت الصّرماية.. علامَ ترفعين أنفك في وجهي.. ألأنّ شهادة الكفاءة تعثّرت بك! أم لأنَّ أخاك المحروس ملأ رأسك بالتحلّل والفساد! أنت هنا.. أنت مع كاظم الذي لايحبّ أن يسمع إلاّ كلمة حاضر.

(يستيقظ الولد مفزوعاً، وهو يصرخ باكياً).

ثائر : ماما.. ماما.

كاظم : نم أنت الآن.

ثائر : اترك ماما.. اترك ماما..

كاظم : **(للطفل)** اسكت، ونم. يلعنك، ويلعن أمّك معك. العمى.. ألا تكفي هذه السّنوات لترويضك؟ والله سأدفنك حيّة، إن لم تبدّلي هذه الطّباع اللئيمة. لقد زوّجني عمّي آفة لا امرأة. **(تذهب غادة، وتأخذ الولد من السرير. تضمّه بحنان، وهي تبكي)**.

ثائر : وجّعك.. وجّعك ماما..

غادة : لا تخف يا حبيبي.. لاتخف..

كاظم : طار الكأس، وطار الرّواق. العمى.. ما هذه المصيبة؟ **(صارخاً)** هنا أنا الله. في هذا البيت أنا ربّك الذي تعبدين. ليس لكِ كلمة، ليس لك قول. ألم تفهمي بعد؟ ما أريد هو الطّاعة.. **(يصب كأساً ويكرعه دفعة واحدة)**.

ثائر : ماما.. خائف.

غادة : لا.. لاتخف يا حبيبي.

ثائر : ماما..دم.. دم.

غادة : **(تمسح فمها، وتلاحظ الدم على كفّها)** لاشيء.. لاشيء. الآن أغسل وجهي، ويروح الدم. نم أنت الآن.
(تضع الطفل في فراشه، تصلح هيئتها قليلاً، وتغسل وجهها).

كاظم : أينبغي أن تدفعيني دائماً إلى ضربك؟! كنت الليلة رائقاً. كنت أنوي أن تكون سهرتنا لطيفة. ما الذي يركب رأسك فجأة؟

غادة : كان خطأً.

كاظم : أتعترفين أنَّك أخطأت..

غادة : كان كلّ شيء خطأً منذ البداية.

كاظم : اسمعي يا بنت الحلال.. أعترف أنَّ مزاجي فائر، ولكن قلبي أبيض. أما آن لك أن تتعلّمي كيف تدارينني؟ تأخذين عيوني

إذا عرفتِ كيف تدارينني. وفي النّهاية أنت ابنة عمي. إنّك من لحمي ودمي، ويعذّبني ضميري كلّما قسوت عليك.

غادة : كان كل شيء خطأً منذ البداية يا ابن عمّي.

كاظم : لا تحملي عليّ. ألا تعرفينني؟ إنّي سريع الغضب، سريع الرّضا ياغادة. ألم تتعمّدي أن تفوّري دمي! مالك وعبد الناصر.. هل صرت تشتغلين بالسياسة؟ تعالي واجلسي قربي.

غادة : سأنهي رسالة أخي.

كاظم : طيب سأدعك حتى تروقي.

(يكرع كاظم كأسه، ويفسخ بيدين نهمتين الفرّوج، ويبدأ بالتهامه فيما تحاول غادة أن تتمّ الرّسالة).

كاظم : **(يحمل قطعة من الدجاج، ويقترب منها)** افتحي فمك.

غادة : لا أريد.

كاظم : افتحي فمك.. هذه لقمة للمصالحة.

غادة : لا أريد.

كاظم : **(بغضب)** لاتكوني سوداء القلب. خذيها من يدي. **(تفتح غادة فمها باستسلام، فيدسّ لها قطعة اللّحم)** ولَو.. اعتبريها مالحة. صحّة.. هل أعتبر أنّنا تصافينا؟

(تنهض غادة، وتتجّه نحو الباب).

كاظم : إلى أين؟

غادة : **(وفمها محشو بالطعام)** إلى بيت الخلاء.

كاظم : طيّب.. لاتنسي أن تسلّمي على رئيس البرلمان.

(تخرج غادة فيما يقهقه كاظم على طرفه، ويعود إلى التهام طعامة بشراهة).

المذيع : **(مع خلفيّة موسيقيّة ناعمة)** الليل والشّعر. **(يعلو صوت الموسيقى، تستمر لحظات ثمّ تخفت تدريجياً)**

عيناك غابتا نخيل ساعة السّحر..

(يغير كاظم مؤشر المذياع حتّى يستقرّ على أغنية خفيفة. تعود غادة)

كاظم : بحياة أخيك.. تعالي إلى قربي. أنا مصرٌّ أن تكون هذه الليلة رائقة.

غادة : ماذا تريد؟

كاظم : إنّ اللبيبة بالإشارة تفهم.

غادة : حاضر.

(وتبدأ بخلع ملابسها)

كاظم : **(وهو ينظر إليها بشبق)** أترين.. ما أسهل أن تكون حياتنا كلّها وفاقاً وهناء! يا الله.. سأغسل فمي، وأوافيك **(يخرج من الغرفة)**.

غادة : كان كل شيء خطأ. **(يجفل الولد في نومه، ويشهق، تهرع غادة)** اسم النبي عليك.. حوّطتك بالله.. نم يا حبيبي نم.. نم يا حبيبي.

كاظم : **(وهو يدخل هامساً)** هل استيقظ؟

غادة : لا..

كاظم : **(وهو يفرك يديه)** عظيم.. عظيم.

(يطفئ النور في الغرفة).

المشهد الثالث

(في غرفة ماري. ماري تجلس وراء ماكينة الخياطة وفارس يتربّع على الديوان ويدثّر ساقيه بالأغطية. يتناول من سترته القريبة عقب سيكارة طويلاً. يسوّيه بإصبعه ثمَّ يشعله).

فارس : ما القصّة! رأيته اليوم يخرج مبكراً.

ماري : مَن؟

فارس : المستأجر.

(تتوقف ماري عن الخياطة. تلتفت إليه، وترشقه بنظرة مركّزة وقاسية).

فارس : فعلاً.. لم أره مرّة يخرج مبكراً.

ماري : يقبر عظامي.. من أجل راحة أمه، يبدِّل عاداته ويبكِّر في الخروج.

فارس : ماري طلع النَّهار.

ماري : نعم.. طلع النّهار. أنا أكسر ظهري أمام هذه الماكينة، وأنت تقضي اليوم في الجلوس والخمخمة.

فارس : أعني أنَّ النهار يبدّد أوهام الليل وخرافاته.

ماري : (غاضبة) ماذا تقصد بالأوهام والخرافات؟

فارس : أقصد تلك الحكاية التي نغّصت ليلتنا. ماري.. أفيقي.. ليس لنا ولد.

ماري : أتريد أن أخاصمك، وألاَّ أبادلك الكلام حتّى الممات؟ إنّه

ابني.. هل تعرف لماذا بكّر في الخروج؟

فارس : يا دين المسيح.. أخبريني لماذا بكّر في الخروج؟

ماري : أضاف الله من عمري على عمره.. خرج ابني مبكّراً كي يرتّب سفري. بكى حين فاتحته بالأمر، ولكن حين ألححت، وقلت له.. ليس لديَّ من أعتمد عليه، قَبِلَ وهو يشهق بدموعه. سيختار لي تابوتاً زاهياً، وسيوصي الرَّخَّام على رخامة تغطّي بجمالها شقاء هذه الدنيا.

فارس : **(يقفز كالملدوغ)** ماذا تقولين؟ فضّلت أن تكلّفي هذا الغريب بدلاً منّي!

ماري : اسكت، ولاتدعني أخرج ما في بطني. كم مرّة كذبت، وكم مرّة أنفقت ثمن التابوت!

فارس : أعترف أنّني أخطأت، ولكن هذه آخرتنا ويجب أن نرتّبها معاً. عشنا معاً طوال هذا العمر، ولن نفترق عند حافة القبر.

ماري : لا يا فارس.. يكفي هذا العمر. سيكون ظلماً لا يرضاه الرب إذا تبعتني إلى الآخرة.

فارس : **(متباكياً)** وأنا! هل ترمينني كالأيتام؟ ألن يكون لي تابوت؟ ألن تكون لي رخامة؟

ماري : أنفقت ثمن الرخامة مرتين.

فارس : لا أفهم.. هل تنتقمين منّي؟!

ماري : انقضى العمر، وفات الأوان. ذات يوم.. لو ملكت الجرأة. لكن لا.. دَع مافي النّفس راقداً في النّفس.

فارس : **(مازال يتباكى)** أنا يتيم.. حقّاً إنّي يتيم.. ستحملين وزري عند الربّ. لن أبادلك الكلام بعد اليوم. نعم.. سأحرد، وسنقضي بقيّة العمر كالغرباء.

ماري : ليكن.. إنَّ الله بصير، وهو يعرف من حمل الأوزار فعلاً.
(يدخل ثائر).

ثائر : سباح الخير..
ماري : صباحك الخير والبركة.. تعال حبيبي.. ماذا تحمل؟
ثائر : هذا طرزان..
ماري : أهذا طرزان الشّجاع؟
ثائر : نعم.. بيد واحدة يهدّ البناية.
ماري : يهد البناية كلّها! من اشتراه لك؟
ثائر : بابا..عندي سر.. **(يخفض صوته)** أنا لا أحبّ بابا.
فارس : عيب يا ولد.. يجب أن تحب بابا.
ثائر : لاأحب بابا، ولا أحب عمّو فارس.
ماري : **(ضاحكة)** والله ماقصّرت.. ولماذا لاتحب بابا؟
ثائر : لأنه يضرب ماما. **(يمدّ يده إلى ذراع الماكينة)** هل أدوّرها؟
ماري : لا.. لا.. أبعد يدك.. واوا...
فارس : سأخرج. هل تريدين شيئاً من السوق؟.
ثائر : شكولاته..
فارس : اسكت أنت..
ماري : لا تصرخ في الصبي. لا أحتاج شيئاً.
فارس : طيّب.. **(يتّجه نحو البابا، يتردّد لحظات، يعود متصاغراً)** ماري. لا أستطيع الخروج وأنت زعلانة.
ماري : لا تشغل بالك. لست زعلانة.
فارس : هل أجد معك ليرة؟ لن أصرفها، سأضعها في جيبي للأمان.
ماري : ألم تحرد! ألم تزاعلني!.
فارس : كيف أحرد! ومَن لي في الدّنيا سواك! أنت زوجتي، وأمّي، وأبي.
ماري : وابني!
فارس : ليكن..هو ابنك.. هو ابننا إذا شئت.
ماري : **(تمدّ يدها إلى صدرها، وتخرج قطعة نقود)** خذ.. هذه نصف ليرة.

فارس : اجعليها ليرة يا ماري.
ماري : لافرق بين الليرة ونصف الليرة ما دمت لن تصرفها.
فارس : **(متذللاً)** اجعليها ليرة يا ماري.
ماري : **(تمدُّ يدها إلى صدرها بغضب، وتخرج قطعة نقديّة أخرى)** أنا أكسر ظهري وراء هذه الماكينة، وأنت تكشّ الذباب وتقول هاتي. خذ.
فارس : كثّر خيرك.
(يتناول القطعة بلهفة، يدسّها في جيبه، وينفتل خارجاً من الباب).
ثائر : خالة ماري.. يا حرام.. طرزان، برداان. ما عنده ثياب.
ماري : ماعنده تياب!. فهمت عليك. تريد أن أخيط له لباساً.
ثائر : أي خالة ماري.. أريد تنورة.
ماري : تنورة لطرزان!. لا.. سأخيط له بذلة عسكرية مثل بابا.
ثائر : لا.. لا أريده مثل بابا.
(تدخل غادة).
غادة : هل جئت تعذّب الخالة ماري؟!
ماري : هو يعذّبني؟ إنّه يسليني، ويبهج نهاري.
ثائر : خالة ماري.. خيّطي تنورة لطرزان.
ماري : تكرم عيونك.. سنعمل تنورة لطرزان.
غادة : ألا يكفي الخالة ماري ما لديها من شغل.. بماذا أساعدك؟
ماري : هل تقرشين لي هذا الكم، ينبغي أن أنهي فستان نوّار اليوم. **(تخرج المقصّ، وتناوله لها ثمّ تتناول قصاصات من القماش، وتعطيها لثائر)** خذ العب بها الآن.
غادة : أي حبيبي.. اخرج إلى الدّار.. والعب هناك.
ثائر : والتنورة!
غادة : سأحملها لك معي.
(يخرج ثائر).

غادة : رأيتك تصعدين في الليل إلى غرفته.
ماري : هل سمعت صراخه؟
غادة : نهضت من الفراش مذعورة، ووقفت خلف النافذة أتنصّت.
ماري : يا حبة عيني. لاشكّ أنّه عانى كثيراً في غربته. قلت له أن يفتح صدره، ولكنّه تهرّب، ولم يشأ أن يثقل على أمّه.
غادة : هذه ثاني مرّة أسمعه يصرخ في الليل.
ماري : إنها كوابيس عابرة. وعندما يصحو يبتسم، ويطيّب خاطري. قولي لي.. هل تحبيّنه؟
غادة : آه يا خالة.. ماذا أقول! كنت أسأل أخي دائماً.. ما هي علامات الحبّ؟ وكان يجيبني.. تكون الأيّام رتيبة والرّوح راكدة، فإذا أحبّ المرء يشعر أنّ الأيّام لاتتشابه وأنّ الدّنيا تتجدّد وتزدهر، وأنّ حواسه تستفيق على مذاقات عجيبة.. كلّ شيء يغدو بهجة ولهفة. لا أذكر كلّ ماقاله، ولكن أعرف اليوم أنّ لكلّ كلمة قالها معنىً حقيقيّاً، وأنّ عباراته وحدها هي التي تصف ما أشعر به، وما يجيش في داخلي. نعم.. منذ التقينا وأنا أشعر أنّي أعيش في دنيا جديدة.
ماري : لماذا لم تنتظريه إذن؟
غادة : وهل كنت أعلم!. سامح الله أخي. تخلّى عنّي، وتركني أواجه هذا كلّه وحدي. كان أخي صديقي وحبيبي والنّافذة التي أرى منها الضوء. آه يا خاله ماري. كنّا لانتعب من الحديث وكنّا لانتعب من السّهر. ورغم أنّي أصغر منه، ولا أعرف شيئاً بالقياس إليه، إلاّ أنه كان يعاملني كرفيقة له يحكي لي عن أحلامه وقراءاته. لم يكن يشبع من القراءة، وأسعد لحظاته تلك التي يحمل فيها كتاباً جديداً، ويغوص في صفحاته. كان يختار لي الكتب. كان يشاركني خبرته في الحياة. وكنّا نحلم أن نتابع الدراسة معاً. حزت الكفاءة،

وحاز البكالوريا في سنة واحدة. وكان متفوقاً كعادته وغاب عنّي ذلك الصيف في ترتيب منحته وسفره إلى الخارج. قرّر الوالد أن أكتفي بالشهادة المتوسطة. ولم يبذل أخي مجهوداً فعليّاً كي يعود أبي عن قراره. قال لي.. أنت تعرفين أبي وقسوته. لا أريد الآن أن أفسد سفري بالمشاكل. ابقي في البيت، حاولي أن تواصلي الدراسة وسأكتب له من الخارج، وأحاول إقناعه. نعم.. تخلّى عنّي أخي، وسافر. وكان أبي قد أعطى كلمةً لأخيه. وكنت أشعر بالموت بعد سفر أخي. لم أعرف كيف أقاوم، ولم تكن المقاومة ممكنة. وتزوّجت ابن عمّي كاظم، الذي أنفق ثلاث سنوات حتّى حاز الابتدائية. كان تقصيره موضع فكاهتنا وسخريتنا، ولكنّه بعد الزواج عرف كيف ينتقم من الفكاهة والسخرية. لا أخبر أهلي شيئاً عمّا أعانيه. كنت أجد عزائي في الرّسائل الطويلة التي أرسلها إلى أخي. ولكن أخي سرقته الحياة هناك، وصار يزداد بُعداً يوماً بعد يوم. آه يا خالة ماري.. كم مرّة قرّرت أن أقتل نفسي! ولم يكن يردُّني إلاَّ هذه الزّهرة التي أنجبتها. كنت جثّة.. كنت أعتقد أنَّ الحياة لن تكون إلاَّ تكراراً سقيماً للبلادة والعذاب وخواء الرّوح. وفجأة.. تبدّل كلّ شيء. أزهرت الدنيا، وتجدّدت. توهّجت الحواسّ، ولم تعد الأيّام متشابهة.. ولو كنت أعلم، لواجهت العالم كلّه وانتظرت.. لكن كما ترين.. لم تأتِ الأشياء في أوانها.

ماري : حقاً.. لا تأتي الأشياء في أوانها. كان ينبغي أن أنتظر ستّةً وعشرين عاماً. ومع هذا.. ينبغي ألاَّ ندعهم يخطفون هذا الأمل.

غادة : من تقصدين؟

ماري : فارس.. وزوجك.. وربّما آخرون.

غادة : لا.. لم أعد أستطيع أن أتخيل الحياة بعيداً عنه.

ماري : أتسطيعين مواجهة زوجك وأهلك والناس؟

غادة : لاأدري.. يجب أن أستطيع.. ماعاد يهمّني الضّرب، ولن يكون هناك عذاب أشدّ وطأة من فراقه.

ماري : آه يا حبيبة.. لو عرفت ماري كيف تواجه، لوفَّرت على نفسها شقاء ثلاثين سنة. إيه.. انقضى العمر. ولم نذق منه إلاّ المرار.

غادة : هل شقيت كثيراً يا خالة! لماذا لا تفتحين لي قلبك؟

ماري : طبعاً.. طبعاً.. ذات يوم سأفتح لك قلبي كما فتحته لابني. ولكن مصيرك هو مدار الحديث يا غادة. أنت الآن في أوانك.. عليك أن تكوني قويّة، وأن تعزمي على المواجهة.

غادة : علّميني يا خالة.. ماذا ينبغي أن أفعل.. لم أعد أبالي.. ويوماً بعد يوم أشعر أنّي أزداد قوة.

ماري : علينا أن نغسل غربته، وأن نحميه.

غادة : سأفعل كلّ ما يطلبه منّي. ولكنَّه لا يطلب شيئاً.

ماري : نعم.. إنَّه يفضل أن يعطي. منذ أيامّه الأولى شعرت أنَّه جاء كي يقاسمني همومي. ناداني أمّي.. وبلطف حنون استدرجني كي أحكي ماقاسيته من الجور والحرمان. تحدّثت.. وتحدثت. وكنت أحسّ أني أتناول روح النعناع.. صدري يتّسع، ويتفتّح.. والهواء ينفذ بارداً ومنعشاً إلى رئتيّ.

غادة : نعم.. إنَّه يحسن الإصغاء، ويغري بالبوح. منذ سافر أخي لم يصغ إليّ أحد. في عينيه لمعة حزن تفتّت القلب، وتجعل المرء ينسى نفسه. أحياناً أشعر أنَّه لم يسكن هذا البيت إلاّ لكي يرتّب سفره القادم. هل أخبرك مرّةً كم ينوي الإقامة؟

ماري : لا.. لم يخبرني. ولكن قلب الأمّ دليل يا غادة، وأنا أعرف

أنّه لم يأتِ لكي يلبّي لهفة أمّه فقط، بل جاء بحثاً عنك أيضاً.

غادة : أتظنّين.. لا نكاد نتبادل البوح حتّى ينفتل ويبتعد محزوناً. لا أدري ماذا يخفي!

ماري : إنّه يخاف عليك.. وهو يكبس على جرحه كي لايسبّب لك المتاعب والأذى. تصوّري لو أنّنا في هذا البيت نحن الثلاثة فقط.

غادة : والطفل يا خالة؟

ماري : نعم.. والطّفل معنا. أتعلمين.. سأرتّب له حياته كما يرتّب لي آخرتي. سأجدّد أثاث غرفته، وأجهّزها للعرس.

غادة : أي عرس؟

ماري : عرسكما يا غادة.

غادة : أتحلمين يا خالة؟

ماري : يجب أن تحلمي يا غادة. ستختاران ليلة، وسيكون لكما عرس بهي.هل يمكن أن تحدث بيننا مشاحنات الكنّة والحماة.

غادة : أعدك ألا نتشاحن أبداً.

ماري : طبعاً لن نتشاحن. أنت فتاة طيّبة، وحنونة. وأنا لا أريد إلاّ أن أموت ميتةً رضيةً بين يدي ابني، الذي انتظرته طويلاً.

غادة : لاتقلبي الفرح حزناً.. أطال الله عمرك.

ماري : إن الموت بالنسبة لي هو الفرح. إنّي أترقّبه يا غادة، كما تترقّبين ليلة عرسك. هناك.. سأجد المباهج والأفراح التي فاتتني في هذه الدنيا.

(يدخل ثائر حاملاً قبّعةَ أبيه العسكرية).

ثائر : ماما.. ماما.. طرزان عملها. بالطّاقية. حسبها نونية.

غادة : **(تتناول الطّاقية المبلّلة)** ماذا فعلت بالطّاقية.. هل تريد أن

يضربك أبوك؟

ثائر : لا أحبّ بابا..

ماري : والله ما قصرت..

ثائر : لازم يضرب طرزان لأنَّه حسبها نونيّة.

ماري : تقبرني.. ما أذكاك! لايستحقّ إلاّ نونية.

غادة : وفي النهاية.. لن تطلع الدقّة إلاّ برأسي.

ماري : علامَ اتفقنا؟

غادة : نعم يا خالة ماري.. سأواجه، وسأحلم أيضاً.

ماري : هذا هو الكلام. سنواجه، وسنحلم أيضاً. هل يتغدّى من يدك أم من يدي؟

غادة : سيكون الغداء عليّ. يا الله ياثائر..

ثائر : **(وهو يتبع أمّه)** والتنّورة! أريد تنّورة لطرزان.

ماري : تكرم عيونك.. ستكون جاهزةً بعد الغداء.

(تتلاشى الإضاءة).

المشهد الرابع

(كاظم وفارس يجلسان في ركن منزوٍ من مقهى شعبيّ. كاظم يرتدي ثيابه العسكرية).

كاظم : **(يصفق بيديه، ويتلفّت نافد الصّبر)** أين هذا البطيخ؟

فارس : **(وهو ينهض بتذلّل)** لعلّه لم يسمع. سأحضره لك.

كاظم : لا يا زلمة.. عيب.. ابق جالساً. **(يعلو صوته)** يا أخ.. يا أستاذ..

النادل : حاضر.. حاضر.. إنّي آت.

فارس : إيه.. أيّام زمان، كان الجرسون أخفّ من الطّير. يقف بين يدي الزبون قبل أن يجلس على الكرسي.

النادل : أهلاً يا أبا الفوارس.. ماذا تأمران؟

فارس : خذ طلب كاظم أفندي..

كاظم : لا أفندية ولا بكوات. كم مرّة قلت لك! هذه ألقاب رجعيّة، والثّورة قضت على الرجعيّة وألقابها.

النادل : يا عيني على الكلام الظّريف.. لا أفندية ولا بكوات وكلّ الناس قهوتهم سادة. ماذا تأمران؟

كاظم : لاتطوّل لسانك.

النادل : معاذ الله.. وهل هناك أحلى من أن يكون النّاس كلّهم سادة؟!

كاظم : ماذا تطلب يا عمّ؟

فارس : لا.. اطلُبْ لك. أنا لا أريد شيئاً.
كاظم : لايجوز.. ينبغي أن تشرب شيئاً.
فارس : **(بذلة)** لا أريد أن أكلفك.
كاظم : أهذه كلفة؟ اطلب يا رجل.
النادل : اطلب يا أبا الفوارس، المقهى على حسابك.
فارس : طيِّب.. هات لي فنجان قهوة وسط ونرجيلة.
كاظم : وهات لي فنجان قهوة سادة.
النادل : حاضر.. **(وبصوت مرتفع)** وعندك واحد وسط، وواحد سادة.
فارس : توصَّ بالنرجيلة. أريد التنباك عجمياً.
النادل : **(وهو يبتعد)** لاتوصِّ حريصاً يا شارب الـ عشت.
فارس : امش، خزاك الله.. أربكتني يا كاظم أفندي.. كيف تريد أن أناديك؟
كاظم : ناديني.. حضرة المساعد أو سيِّد كاظم، ولكن دَعْني من الأفنديّة والبكوات.
فارس : معك حقّ.. ولكن ماذا أفعل؟! آخذ لساني على كلمة أفندي وكلمة بيك.
كاظم : والآن.. درّب لسانك على كلمة يا سيّد أو كلمة يا رفيق.
فارس : حاضر يا كاظم أفندي.. العفو. قصدي ياحضرة المساعد.
كاظم : طيِّب.. دعنا ندخل في الموضوع. ما هو الأمر الهامّ الذي تريد أن تحدّثني به؟
فارس : آه يا سيِّد كاظم.. من أين أبدأ؟ لا أستطيع أن ألوم أحداً سواي. **(يضرب وجهه بمبالغة مكشوفة)** نعم.. أنا الملوم، وأستحق الضرب على رأسي بالصّرامي.
كاظم : ماذا هناك؟
فارس : **(يمدّ يداً متردّدة)** هل أستطيع أن أستعير سيجارة؟

كاظم : خذ سيجارة وخلّصني.. ماذا هناك؟

فارس : لن يرتاح ضميري إذا لم أضعك في الصّورة.. إنَّه المستأجر الّذي يسكن الغرفة العلويّة. تصوّر.. أنا الذي أجرّته، وحملت له حقيبته.

كاظم : وما له المستأجر! بخشت أذني، وأنت تمدحه لي. شاب مثالي تربّي على الأصول والأخلاق الحميدة، وأنَّه أحيا فيك البهجة والأمل.

فارس : أنا الملوم، وأستحقّ الضرب على رأسي. تصوّر.. ضحك على ذقني، وأقنعني أنَّه سيعلمني بعد هذا العمر القراءة والكتابة. كان يحضِّر الشاي، ويدعوني للجلوس. يا الله.. ما أدهاه! إنَّه يفتل عقل الإنسان كما يشاء. تصوّر! كدت أعتقد أنَّ لديَّ الإمكانيات، وأنَّ عجوزاً مثلي مازالت أمامه فرص وآمال.

كاظم : هذا شيء طيّب.. يعلمك القراءة، وأنت تشرب الشاي، وتدخن.

فارس : كان ذلك احتيالاً. إنّه داهية بسبعة وجوه. لو اقتصر الأمر عليّ، لتحمّلت ولكنَّه فتل عقل.. تلك المسكينة ماري. ومن يدري ماذا يفعل أيضاً!

(يأتي النادل حاملاً القهوة ونرجيلة).

النادل : هنا قهوة سادة.. وهنا قهوة وسط.. وهذه هي النّرجيلة يا أبا الفوارس.

فارس : هل توصّيت بالتنباك؟

النادل : توصيت وزيادة.

(يبتعد النادل، يتناول فارس النربيش بحركة نهمة، ويشفط عدة أنفاس متلاحقة، بينما يرتفع صوت بقبقة الماء في النرجيلة).

فارس : تصوّر يا حضرة المساعد.. لعب بعقل المسكينة ماري، وأقنعها أنّه ابنها وأنّها أمّه.

كاظم : حتّى الآن لم أفهم شيئاً. هل تعني أنّه يلاطفها! ويناديها أمي!

فارس : لا يا حضرة المساعدة.. ليست ملاطفة.. الأمر أخطر.. أقول لك إنّه محتال كبير. لو تسمعها كيف تتحدّث عنه! إنّها موقنة أنّه ابنها، وأنّه ذلك الطرح، الذي أسقطته منذ ستّة وعشرين عاماً.

كاظم : ما هذه القصّة.. أيبلغ الوهم هذا الحدّ!

فارس : لا أدري إن كان وهماً أو جنوناً.. تقول سَحَرَها، وسيطر عليها!. إنّه محتال كبير. تصوّر. منذ أيّام كشّر في وجهي وقال لي.. لا تعذّب أمّي. وهي كالممسوسة لا تتعب من الحديث عن ابنها الذي عاد من الغربة. وأخشى الآن أن تسلّمه الحيلة والفتيلة.

كاظم : قل لي.. لماذا لم تنجبا أولاداً؟

فارس : إرادة الله.. منذ ستّة وعشرين عاماً حملت، وأسقطت في الشهر السادس. (هامساً) العيب فيها.. هي تعتقد أنّي السّبب. وقلت في نفسي.. يا ابن الحلال لاتصدمها مادام هذا الاعتقاد يريحها.

كاظم : لم أعرف حتّى الآن أين هي المشكلة.. إذا كنت مقتنعاً أنّه محتال، وأنّه يضمر لك الأذى، فلماذا لا تطرده؟

فارس : وكيف أطرده؟

كاظم : قل له.. نريد الغرفة، وافرقنا بريح طيّبة.

فارس : البيت لماري. وماري تبدّلت، ولم تعد هي ماري التي أعرفها، والتي أمضيت عمري معها. يا الله.. هي الطيّعة الوادعة تنقلب لبوة شرسة، إذا حاولت أن أكذّب يقينها وأكشف حقيقته! لا.. لن تسمح ماري بطرده. وإنّي أعتمد عليك يا

حضرة المساعد في هذه المسألة.

كاظم : تعتمد عليّ؟ وماذا تريد أن أفعل؟

فارس : (**بلهجة مراوغة**) أعتقد أنّ من واجبك أن تتدخّل.

كاظم : لماذا.. هل تعتقد أنّه معادٍ.. بالمناسبة لم تقل لي.. ما هي آراؤه؟ وهل لديه ميول سياسيّة؟

فارس : إنَّ أحواله تثير الشكوك. تصوّر.. حتّى الآن لانكاد نعرف عنه شيئاً. يقول إنَّه يدرس الحقوق، ولكنّه يظلّ طوال النّهار في البيت، ولايخرج إلاّ في الليل. هذا السلوك وحده يثير الشّكوك.

كاظم : ألا يتحدّث عن الثّورة والأوضاع التي تمرّ بها البلاد؟

فارس : لاشكّ أنَّه يخفي شيئاً. ولكنَّه أدهى من أن يترك لك مأخذاً. أستطيع أن أجزم أنَّ وراءه سرّاً، وأنَّه ليس بعيداً عن السّياسة. ولكن ما أخشاه هو أمر آخر.. سيعذّبني ضميري إن لم أكشف لك عن مخاوفي. نعم.. أنا الملوم. كان ينبغي أن أتبصّر في الأمر منذ البداية. ما كان يجوز أن أقبل عازباً في بيت تسكنه عائلة كريمة ومحترمة.

كاظم : (**متضايقاً**) إنَّك الآن تغنّي موالاً غريباً. إلامَ تلمّح؟

فارس : لاشيء.. هذا خطئي من البداية. كان ينبغي أن أقدّر أنَّه لايجوز وجود شاب عازب، وامرأة تقطر ذوقاً وحلاوةً في بيت واحد. ولكن.. هل كنت أعلم أنَّه سيلزق في البيت طوال النّهار، بينما يشقى الرّجل في عمله وأداء واجبه؟ أقسم لك أنّي فزعت حين أدركت الوضع، وقرّرت ألاّ أغادر البيت إلاّ لطارئ لا يؤجّل.

كاظم : عمّ تحكي أيّها الرّجل؟ كفاك لفّاً ودوراناً. هل لاحظت مايشين زوجتي؟

فارس : لم ألاحظ إلا أموراً صغيرة، وإبليس كما تعلم يدخل من خرم

الإبرة. لا.. سامحني يا ربّ.. لا أضع بذمتّي أيّ شيء رديء.

كاظم : وما هي هذه الأشياء الصغيرة؟ تكلّم بصراحة، وإلاً حشوت رأسك برصاصة.

فارس : دخيلك.. ليتني قطعت لساني، ولم أتكلّم. لا أريد أن تغضب. أنت تعرف معزّتك عندي، ويشهد الله أنَّ عرضك هو عرضي. ما قصدته هو أنَّ الحذر واجب، وأنَّ علينا أن نبعد أسباب الفتنة قبل وقوعها.

كاظم : حقّاً.. إنَّك رجل وضيع. أتثير الشّبهات حول امرأتي كي أخلّصك من مستأجر يضايقك؟

فارس : يا حضرة المساعد يقولون.. لادخان بلا نار. والشبهات لاتولد بلا أسباب. خذي هذا الكتاب.. وهل قرأت هذه الرّواية؟ ودعوة على فنجان قهوة..

كاظم : سأقتلك أيّها العجوز.. ما تقوله خطير. احذر.. أريد أن أعرف. هل رأيت شيئاً مؤكداً؟

فارس : لا.. إنّي لا أضع شيئاً في ذمّتي. هي خواطر وأشياء صغيرة.. وأشعر أنَّ ضميري لن يرتاح إذا لم أخبرك بها.

كاظم : اسمع.. أنا الليلة مناوب، وسأجعلك تدفع غالياً ثمن هذه الخواطر والتلميحات الوضيعة.

فارس : حلّفتك بالله لاتغضب.. إنّي أقوم بالحراسة.. يا سيّدي اعتبرني كلب الحراسة في البيت.. وأنا أعتبر عائلتك مسؤوليتي، ومن مصلحتنا جميعاً أن نتخلّص من هذا المحتال. وكما يقول المثل، لاتنم بين القبور ولا ترَ منامات مفزعة. إذا تخلّصنا منه يهدأ البال، وتنقطع الشبهات.

كاظم : أعرف أنَك لست خالص النية. ولكن معك حقّ. لا أحتمل أن تحوم الشبهات فوق بيتي.

فارس : يا سيِّدي.. أنا بين يديك. فعلت ما يفعله الحارس الأمين، والباقي عليك.

كاظم : أيها العجوز.. هيّئ نفسك عند منتصف الليل. ومادام هناك قيل وقال، فلن يبيت هذه الليلة في البيت.

فارس : هكذا يكون الكلام.. حيَّ الله الرِّجال.. ستجدني معك، وإلى جانبك. والمهم أن نتخلّص من هذا المحتال.

كاظم : إذن موعدنا الليلة.

فارس : ستجدني جاهزاً.

(ينهض كاظم، ويغادر المقهى، بينما يسترخي فارس متلذِّذاً برشف نرجيلته).

فارس : ومن يحتاج إلى ابن! لاتفرحي يا ماري.. لن أقبل أن يزيحني ابن من حضنك ورعايتك.

(تستمر قرقرة النرجيلة فترة، ثمَّ تتلاشى مع الإضاءة ببطء).

المشهد الخامس

(الغرفة العلويّة التي يقطنها المستأجر بشير. المكان مرن ومتغيّر وكلّ شيء ينوس بين الحلم والواقع. يبدو بشير مسترخياً، وهو يضع رأسه في حضن ماري، التي تبدو متغيّرة الهيئة).

ماري : آه يابني.. أين سافرت؟

بشير : ابتعدت عن النّهر لأنّي أخاف منه.

ماري : الماء يجري، ويجري.. وأنا في مكاني أنتظر.. انتزعه منّي، ورماه في النهر ثمّ بصق. والماء يجري وأنا في مكاني أنتظر.

بشير : غنّي لي أغنية.

ماري : نسيت أغاني الأمّهات.

بشير : كان يهدهدني صوتك الشجي، وهو يموج بأغنية أبو الزلوف.. ما أبعد أيّام الطفولة.. هل عذّبك أبي؟

ماري : لاتقل أبي.. آه.. كلّ يوم حقنة.. حقنة غليظة كالمسلّة.. انظر.. ازرقت عجيزتي، وامتلأت بالدمامل والانتفاخات. **(ترفع رأسه، وتشمّر فستانها فتكشف عن عجيزتها المترهّلة)** انظر كيف صارت عجيزتي!

بشير : **(متحاشياً النظر)** لا.. لا، غطّي فخذيك يا أمّي.

ماري : **(وهي تضحك ضحكة غريبة)** هل تخجل! أنا أمّك. انظر كيف تشوّهت عجيزتي.

بشير : لا أستطيع أن أنظر.

(ماري تجذبه من رأسه، وتعيده إلى حضنها).

بشير : يجب أن أنهض.

ماري : لاسفر بعد اليوم..

بشير : لا أريد العيش قرب النّهر.

ماري : الماء يجري ويجري وأنا أنتظر في مكاني.

(تسقط بقعة ضوء شديدة السّطوع على فارس وقد تبدّلت هيئته قليلاً، إنّه صارم الملامح، ثابت النظرة وله شاربان غليظان، ويعتمر كوفيّة وعقالا).

فارس : تعال يا ولدي..

بشير : هل تأخّرت عن الحصاد يا أبي؟

فارس : أنت بكري يا بشير، وهذه السنة أمامك حصادان.

بشير : لا تشغل بالك.. سأنوب عن حصّادين.

فارس : ماذا تعلّمك المدارس؟ هل أضعفت فيك النّخوة؟ لنا عادات وتقاليد لايتخلى عنها المرء مادامت فيه مروءة أو حياة.

بشير : عرفتك.. عرفتك.. إنّك فارس.

فارس : ماذا تقول يا ولد؟ أنا أبوك.. وقد حان الوقت كي تحمل إرثي، وتطهّر سيرتي.

بشير : أبي..ماذا تريد منّي؟

فارس : إني أتكلّم عن أختك.

بشير : ما لها أختي؟

فارس : فضحتنا بين الأهل والأعداء، ولن يستحق ابني البكر مكانته في العشيرة، إذا لم يطهّرنا من هذه الوصمة.. انظر.. انظر **(يشق قميصه فتبدو على صدره الأيسر كتلة لحميّة زرقاء داكنة تشبه الضرع أو الثدي)** ماذا أصاب أباك؟

بشير : **(مجفلاً)** ماهذا؟

فارس : هذا هو العار الأسود. نعم.. صار لأبيك ثدي كالنّساء. **(يمسك بيديه كتلة الثدي)** نعم. ثدي وله حلمة. تعال..المسه.

بشير : (يتراجع) لا.. لا أريد.

فارس : وفيه حليب أيضاً.. حليب أسود وسامّ. انظر كيف يسيل الحليب حين أعصره.

(يعصر الكتلة فيسيل منها سائل شديد السّواد واللّزوجة).

بشير : ما أفظع الرّائحة!

فارس : نعم.. هذه هي الرّائحة التي فوّحتني بها أختك.

بشير : ماذا فعلت؟

فارس : ألا تشمّ بخرها؟ تفو.. لقد أحبّت. خبأت لك المهمّة. ستكون البكر الذي يسند ظهر أبيه، ويحمل ميراثه.

بشير : أبي..

فارس : لا أريد اعتراضاً أو فتوراً. خذ.. **(يسحب من حزامه خنجراً مرصّعاً، ويقدّمه لبشير)** هذا خنجر أبيك.. طهّره واحتفظ به. اصحبها إلى الحقل المجاور للنهّر. وحين تنتهي من الحصاد، اغسل يديك بدمها. لاتقتلها قبل أن ينتهي الحصاد. وأقول لك.. لن يهدأ غضبي وتختفي عاهتي إلاّ إذا رأيت دمها يقطر من خنجري. **(يقترب منه وهو يعصر الكتلة السّوداء في صدره. والسّائل الأسود يجري بغزارة على كمّه وثيابه)** املأ خياشيمك بالرّائحة. شمّها ...

(• يحاول فارس أن يضع صدره في وجه بشير، الذي يتراجع متقزّزاً وخائفاً).

بشير : لا أستطيع..

فارس : شمّها.. املأ رئتيك بها.

(يقهقه قهقهة لها صليل معدني ويختفي. يرفع بشير أصابعه عن أنفه، ويقلب الخنجر بين يديه، يسحبه من غمده ثمّ يعيده بحركة نافرة. تظهر غادة في ثياب فلاّحة وهيئة مختلفة).

غادة : ما هذا؟ هل تحمل خنجراً؟

بشير : إنّه خنجر أبي.
غادة : **(برنّة حزينة)** حقاً.. إنَّه خنجر أبي. هل تريد أن تقتلني؟
بشير : لا أدري..
غادة : **(ضاحكة)** أحب الحصاد. سنتسلّى كثيراً أنا وأنت.. وحدنا في الحقل. يا الله.. هيأت المؤونة والزوّادة. احمل عدّة الحصاد واتبعني.
(تختفي بحركة رشيقة).
ماري : **(دون أن نراها)** ابق هنا..
بشير : يجب أن أمضي.
ماري : لا تصغ إليه. ما رأيته على صدره قديم جداً. اسألني أنا.
بشير : ومع هذا.. يجب أن أذهب.
ماري : إنّ الدمامل تملأ عجيزتي، ولا أستطيع أن أتبعك. ابق هنا.. منذ عرفته وهو ينشر الموت حوله. لا ترحل يا بني.. لا ترحل يا بني..
(يتغيّر المشهد.. خيمة في العراء، أكوام من حزن السّنابل، ليلة مقمرة، غادة نائمة وقد انحسر فستانها عن فخذها.. يجلس بشير قريباً منها.. يختلس نظرات إلى فخذها، ثمَّ يحوّل وجهه بحياء. بعد قليل يمدّ يده إلى الفخذ المكشوفة ويلمسها برقّة. يسحب يده كالملسوع، يتناول الخنجر، يخرجه من غمده، ويتلاعب بانعكاسات ضوء القمر على النّصل. فجأة ينكبّ على الفخذ، ويقبّلها. تدهمه رعشات متلاحقة فيبتعد، ويضغط حضنه بيده).
بشير : ملعون أنت.. لا.. لا تقذف.. إيّاك أن تقذف.
(تنهض غادة بهدوء، وتتربّع جالسة).
غادة : هل لمستني أم كنت أحلم؟
بشير : **(غاضباً)** لم ألمسك.. أنت قليلة الحشمة. لماذا لاترتدين

سروالك؟

غادة : غسلته، ولم يجفّ بعد.. لماذا لم تدعني أغسل ثيابك؟

بشير : انتهى الحصاد.

غادة : نعم.. لقد انتهى الحصاد. انظر إلى القمر.. كم هو قريب ومضيء!

بشير : نعم، إنَّ نوره فضّاح.

غادة : أما حان الوقت؟

بشير : نعم.. لقد حان الوقت.

غادة : هل سحبت الخنجر كي تقتلني؟

بشير : نعم..

غادة : لو تفعلها وأنا نائمة.. لاتؤلمني كثيراً.

(ينخرط بشير بالبكاء، ويميل برأسه على كتفها ويعانقها).

بشير : **(وهو يَشرَقُ بدموعه)** لا أستطيع.. لا أملك الشجاعة.. إنّي أحبّك.

غادة : أتبكي؟ لا يا أخي.. أنا لا أساوي دمعة من عينيك.. اهدأ.. اهدأ.. سأجنبّك هذا الامتحان. آه.. ما أجمل القمر هذه الليلة! ما هذا الشّعر الذي تردده دائماً.. ردّده لي مرّة.

بشير : نسيت الشّعر.

غادة : حين تتذكّر.. ردّده، وسأسمعك أينما كنت.

(تقبله على جبينه، وتنهض بحركة بطيئة، تتناول السّروال المنشور على شمائل القمح، ترتديه وتمضي بخطى هادئة وحالمة).

بشير : أين تذهبين؟

غادة : إلى النهر.

بشير : أحقاً تذهبين؟

غادة : النّهر ينادي.. وسأفعل ما ينبغي فعله. اذهب إلى قبر أمّي،

وسلّم عليها.

بشير : عيناك غابتا نخيل ساعة السّحر/ أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر. يا ربّ.. إنَّ النّهر يهدر.. إنّها تغيب.. ما الذي يشلّ ساقيّ؟! لماذا لا أستطيع أن أتحرّك؟. أريد أن أنقذها. انزع قدميك من الطّين.. وأسرع.

(يحاول جاهداً أن يرفع ساقيه ولكنَّه يعجز. إنّهما تغوصان في الأرض. يبدو عليه العناء والفزع).

بشير : إني أغوص.. **(صارخاً برعب)** الطّين.. الطّين.

(فجوة معتمة تستمرّ فترة. ثمَّ تظهر غادة وهي ترتدي منامة شفّافة. المكان غامض يشبه عليّة في بيت ريفي).

غادة : **(وهي تمسح على رأسه)** لاتخف.. **(تمدّ له قدحاً من الماء)** اشرب.. إنَّ ريقك ناشف.

بشير : لم أستطع قتلها. رمت نفسها في النّهر كي توفّر عليّ الامتحان. كنت أغوص في الطّين والماء يبلعها. تخلّيت عنها. تخلّيت عنها.

غادة : هذا منام.. ألا ترى! إنّي قربك.. ولم تتخلّ عنّي.

بشير : جمّدني الرّعب.. ولكن كيف أتيت؟

غادة : ألا تريدني أن آتي؟

بشير : لا أريد أن تتهوّري. سأمقت نفسي لو تعرّضت للأذى.

غادة : لا تقلق.. هذا الفرح الذي أحسّه يعوّض أيّ أذىً، ويشفيه.

بشير : أتظنين؟!

غادة : بل أنا متأكدة. كنت أختنق وأهترئ. زنخ وهواء فاسد، وفجأة جئت.. حاملاً الشّمس والهواء النقي. آه.. كم انتظرتك!

بشير : وأنا.. كم بحثت عنك؟ لا أصدّق أنَّ مثلي يمكن أن يحمل الشمس والهواء.

غادة : ولماذا لا تصدق.. ألا ترى كيف تغيرت حياتي؟
بشير : أين هو.. هل رأيت أبي؟
غادة : لا.. لم أره.البيت خال، والحي خال، ولا يوحد إلاّ أنا وأنت.
بشير : هذا فخّ. ينبغي أن أعيد له الخنجر.
غادة : لن تجده. ذهب الجميع وراء الجنازة.
بشير : نعم.. الجنازة. كان يجب أن أدسّ الخنجر في طيات الكفن.
غادة : لا.. احتفظ به. لن تستطيع أن تعيش دون خنجر.
بشير : أتعلمين.. قبّلت فخذك، وأنت نائمة؟
غادة : كنت أتظاهر بالنّوم.
بشير : أكنتِ دائماً تتظاهرين بالنّوم؟
غادة : نعم.. وكنت أرتعش رعشات غريبة.
بشير : هذا مستحيل.. بيننا موت ودم حرام.
غادة : نعم.. مستحيل. لكن.. ما باليد حيلة.. انظر.. إنّنا نرتعش.. هات يدك.. المس صدري. آه.. لمساتك طيّبة ولذيذة..
بشير : إنّي أتبلّل. **(برعب)** ابتعدي.. ابتعدي.. جاء أبي.
(تختفي غادة، بينما يتّخذ بشير وضعية مخاتلة وبريئة).
بشير : **(بعذوبة)** عيناك غابتا نخيل ساعة السّحر/ أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر.
(فجوة معتمة، بعد قليل يقتحم كاظم وفارس المكان).
كاظم : هذا هو المشبوه إذن! جبان.. خائن.. تتسلّل من وراء ظهور الرّجال، وتعبث بالأعراض.
بشير : كنت أقرأ الشّعر.
كاظم : نحن نعرف ماذا يعني شعر المشبوهين والخونة.
فارس : إنّه عدو الثّورة.
بشير : الشّعر بريء وجميل.
(يسحب كاظم مسدّسه، ويطلق عليه رصاصة في صدره).
كاظم : اذهب.. وأقرأ شعرك للأموات.

فارس : حيّاك الله. محتال مثله لايستحقّ إلاّ رصاصة.

كاظم : هيّا شمّر عن زنديك، وساعدني.

فارس : ماذا تريد أن أفعل؟

كاظم : سنحمله، ونرميه في برميل الزبالة.

فارس : نعم.. هذا مايليق به.

بشير : **(وهما يحملانه)** لست ميتاً.. لا.. لم أمت. عيناك غابتا نخيل ساعة السّحر..

(يختفي المشهد ببطء.. وتتلاشى الإضاءة).

المشهد السادس

(غرفة كاظم وغادة. الصّغير نائم وغادة تبدو وكأنّها استيقظت من حلم فظيع. يدخل كاظم باشّ الوجه).

كاظم : ألم تنامي بعد؟

غادة : الآن صحوت. لماذا عدت مبكّراً؟

كاظم : اشتقت لك.

غادة : كأني سمعت ضجّة وأصواتاً.

كاظم : لاشيء.. دحرجت ذلك الشّابّ المحتال، ورميته مع حقيبته خارج الدار.

غادة : **(منتصبة)** ماذا فعلت؟

كاظم : طردته من البيت.

غادة : وبأي حقّ تطرده. أهي دارك؟

كاظم : وفيمَ يهمّك أمره! إنّه مشبوه، وليحمد الله أنّي رميته في الزّقاق لا في السّجن.

غادة : ولكنّه مستأجر مثلنا، والبيت له أصحابه. فما علاقتك أنت؟

كاظم : كان صاحب الدّار معي. ولكن قولي لي.. لماذا يضايقك طرده؟

غادة : إنك تتصرّف وكأنّك الحاكم بأمر الله.

كاظم : نعم إنّي الحاكم بأمر الله في هذا البيت. هل تعتقدين أنّي غافل عنك؟ تدور حولك أقاويل يا ابنة العمّ. ماذا كان بينك

وبينه؟

غادة : **(تواجهه بغضب يائس)** أتريد حقّاً أن تعرف؟

كاظم : احذري.. ولا تجعلي براكيني تتفجّر.

غادة : أتريد أن تعرف أم لا؟

كاظم : ستجعلين هذه الليلة جحيماً.

غادة : هي الجحيم في كلّ الأحوال يا ابن عمّي. لا تَجرِ وراء الأقاويل، واسمعها منّي.. أعتقد أنّي أحبّه.

كاظم : **(ببلاهة)** أعيديها.

غادة : إني أحبّه.. إنّي أحبّه.. إنّي..

كاظم : **(بصوت مرتفع ومتوسّل)** لا.. لا.. لاتكرّريها. يا ربّ. هل أنت يائسة إلى هذا الحد! أتفتشين عن الموت؟

غادة : لايهمني الموت.

كاظم : قصمت ظهري يا ابنة عمّي. ربّما قسوت عليك، ولم أعرف كيف أعاملك معاملةً طيبة. ولكن ينبغي أن تعلمي أنَّ قلبي لم يتعلّق بامرأة سواك. بيننا طفولة وقرابة وحياة. أنا أعرف كيف ربّاك عمّي.. ولا أصدق ما تقولين. سأنسى ما سمعتُ، وانسي ما قلتِ. لا تدعي الشّر يدخل بيننا.

غادة : **(تنفجر بالبكاء)** طلّقني يا كاظم. يبدو أنَّ زواجنا كان خطأً فادحاً.

كاظم : لا يا ابنة عمّي.. في عائلتنا لايوجد طلاق. ولاتنسي أنَّ أبوينا ربطا، ومنذ الطفولة، بين قدرينا، ولن أفكّ رباط الآباء إلاّ بالموت.

غادة : إنَّ بقاءنا معاً عذاب لا يحتمل.

كاظم : ألا ترين أني ألاينك، وأحاول أن أُمسك شيطان غضبي؟ سمحت لك أن توجّهي لي إهانة لا يتحمّلها إلاّ الديّوث من الرّجال، فاستري الطابق، ودعي الليلة تمرّ على خير.

غادة : طلّقني يا كاظم.
كاظم : اخرسي.. ولا تكرّري هذه اللّفظة مرّة أخرى.
غادة : دعنا نتكلّم بهدوء.
كاظم : انتهى الكلام، واعلمي أنَّ مصيرك مقرون بمصيري حتّى الممات. يبدو أنّي أخطأت إذ لاينتك، وأخطأت إذ تجاوزت كبريائي، وحدّثتك كالمراهقين عن حبّي.. أنت ملكي وأنا مستعدّ للخوض بالدّم من أجل ما أملك. كيف استطعت أن ألجم غضبي؟ أنت تحتي وستظلّين تحتي حتّى يلفّك الكفن.
غادة : طلّقني.
كاظم : لم أكن أريد، حاولت أن ألجم شيطاني، ولكن يبدو أنَّكِ لاتستطيعين النّوم دون بهدلة.
غادة : طلّقني.
كاظم : **(ينهال عليها ضرباً ورفساً)** أتريدين الطلاق؟ خذي إذن.
غادة : **(كالمنومة وهي تتلقّى الضّربات دون أن تحاول تفاديها)** طلّقني.
كاظم : **(أنفاسه تتلاحق)** توقّفي.. توقّفي..
غادة : طلّقني.
(تسقط غادة، يستيقظ الصغير وهو يبكي ويصرخ).
ثائر : ماما.. ماما.. لاتضرب ماما.
كاظم : ابق في فراشك يا بني. خزى الله الشيطان.
(يحضر ماءً ومنشفة. ينحني على غادة ويمسح وجهها بالماء، ويجفّف الدّم ثمّ يحملها بحنان ويضعها في السّرير).
ثائر : ماما.. ماما.. **(يترك فراشه ويأتي إلى أمّه)** ماما.. ردّي عليّ.
كاظم : لاتخف.. ستردّ عليك بعد قليل. اتركها الآن وتعال معي.
ثائر : لا.. أنا خائف.. ماما.
غادة : **(تتحامل على نفسها وتمدّ يدها لترفعه إلى السّرير)** يا عيون

ماما.. تعال جنبي.

(ينخرطان معاً في البكاء، بينما يشعل كاظم سيجارة ويدخنّها بشراهة).

كاظم : خزى الله الشيطان.. هذه الليلة بالذات ماكان يحقّ لك. أفسدتِ فرحتي. تخلّصت من ذلك المحتال، ونزلت كي أخبرك. إنَّ أمامي مستقبلاً طيّباً يا غادة. اليوم أخبروني.. سيوكلون لي وظيفة مرموقة في الأمن. هذا باب واسع ينفتح أمامي. طبعاً.. سيعلو مقامي ودخلي. ستكون أمامنا حياة رغيدة، وسننسى هذه المناكدات. نعم.. ستتغير حياتنا. لا أطلب منك إلا الطّاعة ومداراة عِرق الغضب في صدري. آن الأوان كي تكون لنا حياة لائقة. ووظيفتي الجديدة تقتضي أن تكون حياتي العائلية لائقة.. وأن يكون بيتي حصيناً لايلطّخ بياضه القيل والقال. نعم.. يجب أن تتغيّر حياتنا.

(يفرغ من تدخين سيجارته.. ينهض إلى النّوم، يطفئ الضّوء على شهقات بكاء مكتوم).

المشهد السابع

(أرض الدّار. غادة تقرفص أمام مواعين وسطل ماء، وتنهمك في تنظيف كرش خروف. تنزل ماري على الدّرج الذي يؤدي إلى الغرفة العلويّة وهي تحمل صينيّة عليها ركوة وفنجانا قهوة. تجلس قرب غادة).

ماري : لم يعد لقهوة الصّباح نكهة. كلّ يوم، كنت أصحو ملهوفةً ونشيطة. أهيّئُ ركوة القهوة، وأصعد إليه. نشرب قهوة الصباح على مهل. كان مذاق القهوة ودوداً وطيّباً. كان يغمرني بالدّفء والطمأنينة.. يسألني عن أيّامي الفائتة فيطيّب نفسي، ويقسم أن يعوّض لي بعض عذابي.. مازلت أحمل الصّينية، وأطلع إلى الغرفة أفضفض عن صدري بالبكاء، وأحدّثه عن الوحشة التي خلّفها غيابه. ظهر، واختفى كأنّه منام.. أما زلتِ تلومينني؟ إنَّ وجعي أعظم من وجعك. لا أدري ماذا حلَّ بي تلك الليلة. كان نومي كابوساً ثقيلاً. طوال الليل، وأنا أسمع من يناديني، وأحاول النهوض فلا أستطيع. كنت كالمشلولة، وثقل رهيب يكبس على صدري. لا أستغرب أن يكون قد دسّ لي بنجاً في كأس النعناع، الذي أشربه في المساء. لا أستغرب أن يفعل أيّ شيء. إنّه رجل فاسد.. فاسد ومنتن. هل تبكين؟

غادة : لا أدري ماذا أفعل. إنّهما أقوى منّا. لم يتحمّلا أن نحلم، أو

أن تظهر لمعة فرح في حياتنا. والآن.. لم يبق لدينا شيء.. سنعود إلى الانتظار.. انتظار قلق موجع كالبرداء والحمّى لا.. لم أعد أحتمل.

ماري : معك حقّ.. منذ رحيله أشعر أنّي كالضّائعة.. ضاق المكان، وصار كالسّجن. نعم..هذا هو حالنا. إنّنا محصورتان في حبس.

غادة : وليس أمامنا إلاّ أن نبلع قهرنا، نتغذّى به..

ماري : لو بلعتِ قهرك، فستنتهين عجوزاً بائسة وممرورة مثلي. لا... هذه المرّة يجب ألاّ نبلع قهرنا.

غادة : ماذا نستطيع أن نفعل؟

ماري : هل تحضّرين القشّة للغداء؟

غادة : لا.. يشتهي حضرته أن يتناول القشّة على العشاء. واصطحب معه الصغير كيلا يلهيني.

ماري : وفارس يحبّ القشّة أيضاً. ما أوخم الرّجال! إنّهم أمعاء تأكل أمعاء. سأغيب لحظة، وأعود لأساعدك. **(وهي تنهض)** انظري ماذا وجدت تحت مخّدته. **(تخرج من ثيابه كتاباً، وتناوله لغادة)** لاشكّ أنّه تركه لك.

غادة : **(وهي تنظر في الكتاب)** نعم.. هذا هو الشّعر الذي لم يكن يملّ من قراءته. شعر قرأه لي اثنان.. أخي وهو.. يا الله.. كم هما متشابهان!

(تختفي ماري في غرفتها، وتقلّب غادة في الكتاب تقرأ بصوت خافت).

غادة : وتغرقان في ضباب من أسىً شفيف * كالبحر سرّح اليدين فوقه المساء * دفء الشّتاء فيه وارتعاشة الخريف * والموت والميلاد والظلام والضياء * فتستفيق ملء روحي رعشة البكاء * ونشوة وحشيّة تعانق السماء..

كان صوته يختلج عذباً وهو يقرأ هذه الأبيات. كان حلماً جميلاً وكنت أنتظره.. يا ربّ.. لماذا تكون الأحلام الجميلة سريعة الزّوال؟! أكان حقاً هنا.. أم أنَّ امرأتين بائستين كانتا تحلمان؟

(تخرج ماري من الغرفة، وهي تحمل علبة ملفوفة بأطواق عدّة من القماش).

ماري : هل حضًّرت التبلة؟

غادة : نعم.. إنَّها جاهزة.

ماري : إذن خذي.. **(تناولها العلبة).**

غادة : ما هذا؟

ماري : إني أحتفظ بها منذ عشرين سنة أو أكثر.. إنّي امرأة خائرة. ضيّعت عمري في التردّد والشّفقة. كم مرّة فتحت هذه العلبة ثمَّ أغلقتها! وفي النهاية نفضتُ يدي، واستسلمت. قلت يا ماري هذا نصيبك.. سأحكي لك.. نعم حان الوقت كي أحكي لك.. حين تقدّم فارس للزواج منّي، فرح أهلي ولم يدقّق أبي في السّؤال عنه. لم أكن جميلة كأختي. كنت قد بلغت الخامسة والعشرين من عمري دون أن يتقدّم أحد، ويطلب يدي.. كان أبي وأمّي عجوزين كبيرين، وكانا يخافان أن أظلّ وحيدة في هذه الدّنيا بلا زواج أو عائلة، خاصّة وأنَّ أختي هاجرت مع زوجها، ولم يرِدنا الكثير من أخبارها.. المهم قَبِلَ أهلي واشترى أبي لي هذا البيت وماكينة خياطة كي يجنّبنا الحاجة، وتزوّجت فارس. واكتشفت بعد الزواج أنَّه أعمانا بالأكاذيب.. كان بلا صنعة، ولايصبر على عمل، وفوق هذا.. كان مقامراً، وكانت يده طويلة، وكان لايعاشر إلاّ الأوغاد، وكان يدفعني إلى حياة كلّها وحل وأقذار وأكاذيب..

بعد ليلتنا الأولى بأيّام، بدأت أشعر حرقة في البول، ويلطخ سروالي سائل عفنيّ اللون.. آه يابنيّتي.. إنّي أشعر بالخجل، ولكن أريد أن تعرفي كيف عشت. وكيف امتلأت نفسي بالقرف من جسدي ووجودي. لم أكن أجرؤ على الكلام ولم أعرف ماذا أفعل!. في البداية حسبت أنَّ هذا هو الزواج، وأنَّ هذا ما تفرزه العلاقة بالرّجال. وكان هو يفعل ذلك الشيء المقرّز ثمَّ يدير ظهره، وينام غير عابئ بشيء. وكانت الحرقة تزيد، والسّوائل العفنية تتكاثر. وبدأت أشمّ رائحتي.. وهاتي يا ماري الصابون والماء، وتشطّفي كلّ يوم مرّات ومرّات. وماكنت أستفيد شيئاً، فالسّوائل لاتنقطع، وبدأت الأوجاع تزداد. ملأني شعور بالنّجاسة، وبأنَّ جسدي حلّت عليه اللّعنة. وكانت أمّي مريضة، وخجلت أن أسألها عن هذا الطارئ الذي ألمَّ بي. وعلى كلّ لم يمهلها المرض طويلاً، ورحلت وهي تظنّ أنّي راضية ومستورة، ولم يعش أبي طويلاً بعدها. كان الحزن يتلو الحزن وأنا أهترئ في وسطي، ويزيد نفوري من نجاستي وبدني. مرّةً.. استجمعت شجاعتي، وسألت فارس عن هذه العوارض، فاستخفّ بي، وقال وهو يمجّ سيجارة.. إنّ وسخ النّساء كثير، والمرأة نجاسة مكشوفة.. آه كم خجلت يومها، وكم كرهت نفسي! بعد سنتين من الزواج أو أكثر، بدت عليّ أعراض الحمل. وفي غمرة الفرح نسيت أوجاعي ولم أعد أبالي بالبقع على سروالي. عانيت كثيراً أثناء الحمل، ولكن هذه المعاناة لم تكن تنغّص فرحي إلاّ قليلاً. وفي الشّهر السّادس.. بعد أن اكتمل في بطني، وتميّزت صورته بدأت أنزف، وأفلت ابني منّي..

كان كامل الخلقة حين طرحته.. بصق فارس وهو يلفه بقطعة قماش ثمّ ذهب ورماه، وحتّى اليوم لم أدرِ هل رماه في الزّبالة أم في النّهر! وقالت لي الداية التي اعتنت بي.. إنّ ظهرك رخو، فتجرأت وأخبرتها عن أوجاعي، والسوائل التي تنزل منّي، فأكدت لي أنَّ هذه علامة الرّخاوة. وبعد أن فقدت ولدي يا غادة.. زادت آلامي حدّة، وصار وضعي لايطاق. وكنت وحيدة.. لا أعرف ماذا أفعل.. ثمَّ أجرنا الغربة التي تسكنينها الآن لزوجين شابّين. وفي البداية.. لم أطق الصبيّة. كنت أنفر منها كما ينفر المرء من فضيحةٍ أو من عار. ما أكثر غرائب البشر! تصوّري.. كانت تصدر في الليل أصواتاً تملأ الدار، وتجعلني أنتفض خجلاً في فراشي.

غادة : وما هذه الأصوات؟

ماري : ماذا أقول لك!. شهيق ونخر، وصيحات، وكلمات داعرة. أوّل ليلة سمعتها.. لم يغمض لي جفن. بقيت حتّى الصّباح أغالب شعوراً بالغثيان. وبعد أيّام، كنت أخجل من النّظر إليها، وأتقزّز من مبادلتها الكلام. سألتها هل هي مريضة! وما سر تلك الأصوات التي تملأ الدّار في اللّيل؟ فاستغرقت في الضّحك حتّى كادت أن تنقلب على قفاها، وقالت.. ولَو يا جارة.. كيف يخفى عليك هذا الأمر؟ هذه هي.. اللّذة الّتي ما بعدها لذّة. قولي لي يا غادة.. هل عرفت هذه اللذة؟

غادة : (خجلة) ما هذا السّؤال يا خالة!

ماري : أتخجلين منّي؟

غادة : لا أدري.. ربّما عرفتها بيني وبين نفسي، أو في المنام. وأنت؟

ماري : أتسألينني! لاشيء إلاّ التقزّز والنفور. ألم يكلّم الرّبّ موسى قائلاً.. كلّ فراش يضطجع عليه الّذي له سيل يكون نجساً، وكلّ ما يركب عليه ذو السّيل يكون نجساً، وإناء الخزف

الذي يمسّه ذو السّيل يكسر. من يبدأ زواجه بالسّيل، لن يخبر إلاّ النّجاسة والقرف..

غادة : وماذا كانت علّتك يا خالة؟

ماري : عندما ساء حالي، أخبرت تلك الجارة رغم نفوري منها عن أعراضي. فقالت.. ولكن يا جارة.. هذا مرض، وينبغي أن تزوري طبيباً. وصرخت.. أعوذ بالله.. وكيف أدع رجلاً يكشف عورتي؟ فضحكت وقالت.. أنا أذهب معك. وظلّت تلحُّ عليّ، وتخوّفني من العواقب، حتّى وافقتها وذهبنا إلى الطّبيب. ماذا أقول لك يا غادة! والله تمنّيت لو أنّ أمّي لم تلدني. قال لي الطبيب، وكان غاضباً.. أما كان بوسعك أن تبكّري قليلاً، إنّك مصابة بسيلان مزمن. وقد استفحل، وتفاقم بعد الإجهاض. وحين سألته.. ومن أين جاء هذا المرض! قال لي.. هل عاشرت رجلاً غير زوجك، فغضبت، وأردت أن أشتمه.. فهدّأ خاطري وقال لي.. إذن جاءك من زوجك.

غادة : ومن أين يأتي هذا المرض؟

ماري : من البغايا.. لاشكّ أنّه التقطه من إحدى البغايا. والله وحده يعلم منذ متى.

غادة : أكان مصاباً حين تزوّجك؟

ماري : نعم.. ونقله لي في ليلة دخلتي.. تصوّري ماذا كانت هديّة عرسي!

غادة : وهل عالجك الطبيب؟

ماري : أصرّ الطبيب على معاينة زوجي.. وقال لابدّ من معالجتنا نحن الاثنين.. عدتُ إلى البيت، وأخبرت فارس، ففار دمه وغضب، وحلف لوأنَّ في ديننا طلاقاً لطلّقني فوراً.. قال.. أنا رجل كامل، وليس فيَّ أي عيب. حاولت وتوسّلت ولكنّه

ظلّ على عناده، فعدت إلى الطبيب، ورجوته أن يحاول مداواتي دون زوجي.. ووصف لي يا غادة خمسين حقنة، واحدة في الصّباح وواحدة في المساء وتحجّرت عجيزتي وامتلأت بالدمامل، ولم أشف. لأنّ أصل الدّاء فيه، ولاتنقطع العدوى. أفّ.. تضيق روحي كلّما تذكّرت ما قاسيته تلك الأيام. وليته كان ينفع لشيء. منذ تزوّجته، لم يلزق في مهنة أو عمل أكثر من شهر.. يبدّد وفري ثمّ يعود إلى البيت. يتباكى ساعة من الزمان، ثمّ ينسى كلّ شيء، ويعود للاختيال كأنّه ديك الحارة.. وأنا أشقى وأشقى كي أنفق على البيت وعليه.. وعندما طاوعني، وقبل كارهاً أن يزور الطبيب معي، اكتشفنا أنّ المرض أعقمه تماماً. وصار حظّي في الخلفة ضئيلاً. يومها، اشتريت هذه العلبة، وكنت مصمّمة على أن أختم هذا الشقاء، وأن أنظّف هذا البيت من نجاسته ودناءته وقلّة همّته. ولم أستطع.. مرّت أيّام، وأنا أحاول.. لم أستطع. كنت أشعر أنّه بائس ووحيد وهزيل الرّوح، فاستسلمت. أبعدت فراشي عن فراشه.. ورحت أنتظر ملهوفة ومحروقة ابناً يأتي، ويقول.. أمّي. آه كم شقيتِ يا أمي!

غادة : أتلك كانت حياتك يا خالة؟

ماري : نعم.. تلك كانت حياتي. وحين لاح فرح وتحقّق حلم، فارت فيه الغيرة والنذالة من فرحي وحلمي. وأنت أيضاً.. فقدت الفرح والحلم. تصوّري.. لم يتحمّلا أن نحلم. لم يتحمّلا أن نعيش فرحاً صغيراً. إنّهما يشوّهان كلّ ما هو جميل، ويجعلان الحياة وقتاً لا يطاق. أنا أعرف ما هو خلاصي. جهّزت ثوبي وتابوتي ورخامة قبري. أمّا أنت فهل

تريدين أن تنتهي مثلي؟

غادة : **(وهي تبكي)** آه يا خالة.. إنّك تضاعفين غمّي ويأسي.

ماري : ألا تريدين أن تتخلّصي من الغمّ واليأس؟

غادة : ليتني أعرف التّبيل.

ماري : ألا تريدين أن تفرحي، وتحلمي، وتجدي ما يصبو إليه قلبك وجسدك؟

غادة : لاتزيديني حسرة على حسرة.

ماري : دعي التحسّر الآن. لن يكون هناك فرح أو حلم، ماداما يخيّمان علينا كظلّ العفونة. خذي العلبة وافتحيها..

غادة : **(تتناول العلبة وتفتحها)** ما هذا؟

ماري : ليس ضرورياً أن تعرفي ما هو..

غادة : **(تدوّر عيناها)** أتعنين؟

ماري : ما لم أستطع أن أفعله في أوانه، يجب أن تستطيعي فعله في أوانه. لا.. ليس وحدك.. سنفعله معاً.. ولكنّني أحتاج إلى عزمك وإرادتك.. انظري في داخلك، وتأمّلي كم أنت مقهورة.. ألست مقهورة؟

غادة : نعم.. إنّي مقهورة.. ولكن.

ماري : ألا تريدين أن تخرجي من هذا السّجن إلى فضاءٍ حافلٍ بالوعود؟ ألا يحقّ لنا أن نزيحَ عن أرواحنا هذا الشّقاء! ألا يحق لنا أن نحلم؟

ادة : نعم.. ينبغي أن يحقّ لنا.. قولي ماذا أفعل؟

ـرس : سنفعل معاً.. هاتي التبلة..

(تنهض غادة، وتذهب إلى المطبخ كي تحضر التبلة).

ماري : سل عمري يوماً يوماً، وأنا أتردّد. وحين جاءتني فرحة صغيرة، بدّدها وأطفأها.. اغفر لي يا ربّ.. اغفري لي أيتها العذراء.. ألم أقض حياتي كلّها، وأنا أدير له الخدَّ الأيمن!.

لكن هذه المرّة.. أشعر بالغضب والغبن.. حرمني الولد في صباي وفي شيخوختي.. لا.. لا أستطيع أن أدير له الخدّ الأيمن.. إنّي أشفق على نفسي..وأشفق على هذه الصبيّة التي ستنطفئ وهي تنتظر.. **(تأتي غادة حاملة طبق التبلة).**

غادة : ها هي التبلة.

ماري : اقسميها نصفين.. هل أنت متردّدة؟

غادة : **(وهي تقسم التبلة في صحنين)** لا.. لست متردّدة.

ماري : نعم.. يجب ألاّ نتردّد.. لم يحتملا أن نحلم، وأن تكون لنا فرحة صغيرة.. أنا ماري التي رتبت موتها وكأنها ترتب فرحها، أقول لك.. لن تكون الحياة ممكنة ولن يكون الموت راحةً وسلاماً ماداما معنا..

(تعجن ماري نصف التبلة بالزرنيخ)

ماري : أي قطعة من القشّة يفضلها زوجك؟

غادة : **(تتناول قطعة المعدة)** هذه هي التي نسميها قبّعة القاضي.

ماري : أمّا فارسي.. فيحبّ السجقات الغليظة..

(يبدآن في حشو القطع بالتبلة).

ماري : ما أوخم هذه الأكلة! الآن أتذكّر شهيق تلك الجارة.. كانت طيّبة وصاحبة لهفة. لكن لم أستطع التغلّب على تقزّزي طوال المدّة التي سكنت فيها هذه الغرفة.. آه لو سمعت تلك الأصوات!

غادة : ربّما كانت سعيدة..

ماري : نعم.. لم تكن تخفي سعادتها، وكانت تقول.. تلك هي اللّذة التي ما بعدها لذّة..

غادة : ربّما كان صحيحاً ما تقوله!

ماري : أتظنّين؟ كيف تولد اللّذّة مع الدّنس والفجور وأفعال البهائم؟

غادة : آه يا خالة.. نحن امرأتان شقيّتان، لا تعرفان عن السّعادة

واللّذّة إلاَّ التّخمينات والأوهام..

ماري : هذا حقّ يا غادة.. ما نحن في النّهاية إلاَّ امرأتان شقيّتان..

(يستمرّ المشهد فترة وهما تحشوان الأمعاء، ثمَّ تتلاشى الإضاءة ببطء).

المشهد الثامن

(في أرض الدّيار. وُضعت طاولة يجلس حولها كاظم وفارس. على الطاولة مازات وعرق)

كاظم : هذه ليلة ملوكيّة بعد موجة البرد، عاد الجوّ خريفيّاً ولطيفاً. هل أنت بردان؟

فارس : وهل يجتمع البرد مع هذه النّار المباركة؟ كاسك!

كاظم : أي والله.. كاسك يا أبا الفوارس.. الآن احلوَّ المكان، وصار المرء يشعر أنّه يسكن في بيت. لا أخفي عليك.. بعد حادثة هذا المحتال فكّرت بالبحث عن بيت آخر. ولكنّي أشعر اليوم أنّي أحبّ هذا البيت، وأحبّ هذه الجيرة.

فارس : البيت بيتك يا حضرة المساعد.. وأعدك ألاّ تتكرّر تلك الغلطة.

كاظم : يا سيّدي.. لماذا لا نسدّ باب الغلط من أصله، ونرتاح؟ أفكّر أن أستأجر الغرفة العلويّة.

فارس : سيكون ذلك عظيماً. ولاشكّ أنّ ماري سترحّب بالفكرة.

كاظم : كن رجلاً يا فارس.

فارس : لاتجرؤ ماري على كسر كلمتي. والغرفة على حسابك منذ هذه اللّحظة.

كاظم : أي هذا هو الكلام..

(يدخل ثائر حاملاً صحناً فيه بصل مقطّع).

كاظم : هات يا ثائر.. البصل زينة الطاولة. تعال يا بني.. **(يحمل كاظم ابنه، ويضعه في حضنه، يقرّب الكأس من فمه)** اشرب قرفة..

ثائر : **(مشيحاً بوجهه)** لا أحبّه..

كاظم : ألا تريد أن تصبح رجلاً؟ الرّجل تفطمه أمه على حليب السّباع.

ثائر : آخ.. حرقني..

كاظم : طيّب.. طيّب.. خذ.. ألا تحبّ اللّوز والبندق؟

فارس : ماشاء الله.. إنّه أكبر من سنّه وجواباته على رأس لسانه!

الأمّ : **(من المطبخ)** ثائر.. تعال يا ثائر..

(ينزل عن حضن أبيه، ويذهب إلى أمّه).

كاظم : قل لأمّك أن تعجّل بالقشّة.. اشرب يا رجل..

فارس : سأشرب نخب مقامك الجديد.

كاظم : أتيت بها في وقتها.. نحتاج همّتك يا أبا الفوارس.

فارس : أنا جاهز.. ولكن بماذا أستطيع أن أخدم؟

كاظم : أنت هنا ابن الحي، وتعرف جميع أهله.. ويمكن أن تطّلع بسهولة على أفكار الناس وأحاديثهم. إنَّ الثورة تحتاج إلى حماية يا أبا الفوارس. وفي البلد طابور خامس من الرجعية، وعملاء الناصرية، ومأجوري الشيوعيّة. وهؤلاء كلّهم جراثيم إذا لم نفتك بهم، فتكوا بالثّورة. الثّورة قويّة، ولكن اليقظة واجبة. والشّعب الطيّب هو الذي ينبغي أن يحمي ثورته، ويفضح الّذين يعادونها أو يتآمرون عليها. أنا أعرفك مواطناً صالحاً، وأعرف أنَّك من مؤيّدي الثّورة.

فارس : طبعاً.. أنا أؤيّدكم. في حياتي كلّها، لم أعارض الدولة ولم أكن من أهل المشاكل.

كاظم : طيّب.. في البداية لا أريد إلاَّ أن تتشمّم أخبار النّاس في الحيّ

وتنقل لي أحاديثهم. ينبغي أن تزور النّاس في بيوتهم، وأن تفتح معهم أحاديث، وتتعلّم كيف تجرجرهم إلى الكلام. ولا تنسَ المقهى.. المقهى مكان عليك أن تتردّد عليه يوميّاً، وأن تصغي إلى مايقال خلسة، ودون أن تثير انتباه أحد.

فارس : آه يا حضرة المساعد.. أنا أخدمك بعيوني، ولكن كما تعرف اليد قصيرة. المقهى يحتاج إلى نفقات.. ومن تزوره في بيته يجب أن تستقبله في بيتك، وتحضر له الضيافة.

كاظم : فهمت.. فهمت.. إنّي لا أطلب منك خدمة بالمجان. سنصرف لك نفقة. وربّما استطعت أن أوفر لك معاشاً شهريّاً.

فارس : **(مذهولاً)** أنا.. يكون لي معاش شهري؟

كاظم : ولِمَ لا؟ إنَّ الثورة كريمة مع من يخدمها، ويدافع عنها.

فارس : أتعني أنّي سأكون كموظّفي الدّولة، ولي راتب أقبضه كلّ شهر؟

كاظم : نعم.. إذا أبديت همّة، وقدّمت لنا خدمات طيّبة.. فإني أعدك أن تغدوَ موظفاً، وأن تخشخش الفلوس في جيبك آخر كلّ شهر..

فارس : **(مبهوراً)** وحياة شواربك.. هذه تحتاج إلى فتلة.. **(ينهض عن كرسيّه، ويتهيّأ للرّقص)** أنا الّذي أمضيت عمري بطّالاً ويسمّيني النّاس رمّة لا تصلح لشيء، سأدخل الحكومة وأصير موظفاً! إنّ عقلي يكاد يطير.. حقّاً.. يحتاج الأمر إلى فتلة..

(يصفّق بيديه، ويبدأ بالتمايل راقصاً).

كاظم : اتّفقنا؟

فارس : بارك الله فيك. طبعاً.. اتّفقنا. منذ الآن اعتبرني خاتماً في إصبعك.

(يصفق كاظم بحمية وبهجة.. بينما يتفتل فارس حول الطّاولة راقصاً. تدخل ماري ووراءها ثائر حاملة صينيّة، رُصّت فيها قطع القشّة، وتضعها على الطاولة).

ماري : يا عترتي.. هل سكرت.. أم جننت!

فارس : عندمًا أحكي لك يا ماري، ستغيّرين لهجتك، وربّما تفتَّلتِ معي..

ماري : لا كان ذلك اليوم.. احترم شيبتك، وعد إلى كرسيِّك.

ثائر : **(وهو يضحك)** ماما.. ماما.. تعي تفرّجي.. عمّو فارس سكران..

ماري : خزيت العين.. فرجة لا تُفوَّت.. أي والله سكران. اجلس يا رجل وكفاك بهدلة.

كاظم : لاتزيديها يا جارة، نحن أهل، وفارس اليوم فرحان، فدعيه يأخذ راحته.

فارس : **(وهو يجلس)** عندما أحكي لك، ستعرفين أنَّ الأمر يستحقّ الرّقص.

ماري : طيّب.. طيّب.. اجلس مثل الخلق، ولا تجعل نفسك مسخرة.

(تتركهما ماري وتخرج. يبقى الصغير يحاول تقليد فارس، ويضحك).

كاظم : **(بصوت خافت)** ما هذا يا فارس! هذا الشّغل لا ينفع معه اللسان الفالت..

فارس : هل أخطأت؟

كاظم : نعم.. أخطأت.. ما اتفقنا عليه يجب أن يظلّ سرّاً، لا يعرفه أحد في العالم.

فارس : ولا ماري.

كاظم : ولا أي مخلوق.. إذا انكشفتَ أو شاع أمرك، فلن تستطيع

أن تفيدنا في شيء. ينبغي أن تظلّ هذا الرّجل الدرويش الذي يسمّيه الجميع رمّة لا تصلح لشيء. حتّى لا يتحاشوك، أو يحاذروا من الكلام في حضرتك. لم أعرض عليك هذا الشغل إلاّ بعد تدبّر. فأنت.. لا مؤاخذة لا يعبّرك أحد. ولن يخطر ببال إنسان أنّك مخبر.. وأنَّ لك صلة بالأمن. ينبغي أن تكون كتوماً، وأن تحافظ على مظهر الفقر والكسل وقلّة الهمّة. على كلّ سأدرّبك على العمل شيئاً فشيئاً. ولكن إيّاك أن تفوه بكلمة واحدة عمّا دار بيننا.

فارس : حاضر.. قلت لك.. اعتبرني خاتماً في إصبعك..

كاظم : عظيم.. كاسك..

(يرفعان كأسيهما، وبعد الدقّ يرشف كلّ منهما جرعةً كبيرةً من كأسه).

كاظم : أي.. يا أبا الفوارس. ماذا تحبّ في القّشة؟

فارس : في الحقيقة.. أنا أحبّ السجقات الغليظة..

كاظم : أمّا أنا.. فأحبّ هذه المدوَّرة التي نسميها قبعة القاضي.. اسمع.. ليس بيننا تكليف.. أنا عادة لا آكل إلاّ بعد أن أعبّئ مخّي، كلّ واحد وله مزاجه، فلا تنتظرني ومدًّ يدك. أنت لاتحتاج إلى دعوة.

فارس : والله إنّي مثلك. أفضّل الأكل على مخّ عامر. وأنا كما قلت لا أحتاج إلى دعوة **(موجّهاً الكلام إلى ثائر)** وطرزان الصغير.. ماذا يفضّل. قبّة القاضي أم السجقات؟

ثائر : **(مقترباً من الطاولة)** أنا أحبّ هذه.. **(ويشير إلى السجقات)**.

فارس : عظيم.. طرزان يحبّ السجقات **(يتناول قطعة مصران ويمدّها إلى ثائر)** خذ.. كلها بالعافية والهنا.

ثائر : لا. منعتني أمي أن آكل عندكم..

كاظم : ولماذا تمنعك! هذه امرأة خسيفة العقل، وإذا أطعتها يا ثائر لن

تصبح رجلاً.. أنت رجل ويجب أن تأكل مع الرّجال..
خذها من يد عمّك فارس.

ثائر : أمّي تزعل..

كاظم : دعني من أمّك وخذها..

(يأخذها ثائر، ويبدأ في التهامها).

ثائر : ماما.. أنا أكلت مع بابا..

(يتناول كاظم قطعة أخرى، ويمدّها إلى ثائر).

كاظم : أي كُل.. حبيبي.. كُل..

ثائر : ماما.. بطني..

(تأتي غادة، راكضة وماري تهرول إثرها).

غادة : ماذا فعلت؟

ثائر : جبرني بابا..

غادة : **(بصوت مفجوع)** لا.. لا..

كاظم : ماذا دهاك؟

ثائر : **(يصرخ كمن يلتهب جوفه)** بطني.. بطني.. **(يقع على الأرض.. ويبدأ في التقيّؤ، بينما يتحوّل لونه أزرق مخضرّاً.. بصوت واهن، ومحشرج)**.. ماما..

كاظم : ماذا هناك!.. أفهمونا.. ما القصّة؟

(تلفلف غادة الطّفل الذي يتمرّغ في قيئه، ويختلج اختلاجات مختنقة، بينما ترتعش ساقا ماري.. وتسقط على الأرض)..

غادة : **(مولولة)** سمّمت ابني.. أنا سمّمت ابني.. **(تنظر إلى كاظم بحقد)** وأنت.. لماذا لم تأكل! كُل.. قتلت لي صغيري ولم تأكل.. انظر إليّ.. أنا سآكل. وهل بقي لي إلاًّ أن آكل؟ **(تمد يدها إلى الصّحن، وتحاول أن تغرف ملء يدها، يمسك كاظم معصمها، ويرمي الصحن على الأرض).**

ثائر : **(يحشرج متلاشياً)** ماما..

غادة : يا عين ماما.. **(تشدّ ذراعيها على الولد، وتدور في أرض**

الغرفة دوراناً هيستيرياً) تعالي يا ماري، وانظري. لامجال للحلم.. لا مجال للتمنّي.. لاشيء إلاّ الموت.. لا شيء إلاّ الظلام والموت.. أين أنت يا أخي! أين الشّعر في هذه الدّنيا!. أين غابة النّخيل والشرفة التي ينأى عنها القمر! لا الحلم ممكن، ولا التمنّي ممكن. لاشيء إلاّ الظلام والموت.

(يهرع فارس نحو باب الدّار. يلاحظه كاظم الّذي بدأ يتخلّص من ذهوله، ويستعيد تماسكه).

كاظم : **(بحدّة)** أين تذهب؟

فارس : سأستدعي طبيباً..

كاظم : لا نريد طبيباً.. **(يمسك امرأته ، ويدفعها نحو غرفتهما)** وأنت كفى ولولة.. وادخلي إلى الغرفة.

غادة : **(تتّجه نحو الغرفة كالمنوّمة)** وما الفائدة! سيظلّ لهباً لاصقاً في الصّدر إلى الممات. لن أفارقه، ولن يفارقني.. سينام معنا. وسيفصل بيننا كجدار من الكراهية والدموع..

كاظم : **(وهو يدفعها)** قلت.. ادخلي إلى الغرفة..

غادة : وما الفائدة! ستحرقني ناره أينما كنت..

(تختفي في الغرفة).

كاظم : والآن.. أصغيا إليّ جيداً. لم يحدث شيء. كان قضاءً وقدراً. لا أريد لغواً، ولا أريد لتّاً وعجناً. ولو فاحت رائحة أو فضيحة، فإنّكما ستدفعان الثّمن غالياً. هل بلغك كلامي يا فارس؟

فارس : نعم يا حضرة المساعد.. وأعدك ألاّ تفلت من فمي كلمة.

كاظم : إذن.. ادخلا غرفتكما. وانسيا ما حدث...

(يساعد فارس ماري التي تشهق بالبكاء على النهوض.. ويمضيان بخطوات متعثّرة إلى غرفتهما..).

كاظم : تذكّرا.. لا أريد همساً ولا وشوشة..

فارس : مفهوم يا حضرة المساعد.. مفهوم..

(يغيب فارس وماري في غرفتهما.. يظلّ كاظم وحده. يتناول كأسه المليء ويرشفه دفعة واحدة).

غادة : **(تتناهى ولولتها من الغرفة)** يا عين ماما.. سأحفر صدري وأمدّدك فيه. قتلكِ ولم يأكل. لا الحلم ممكن. ولا التّمني ممكن.. لاشيء إلاّ الظلام والموت..

(يتّجه كاظم نحو الغرفة.. وتتلاشى الإضاءة).

المشهد التّاسع

(في غرفة ماري، ماري في فراشها. وفارس متمدّد على الديوانة)

ماري : **(بصوت هامس وخاشع)** أبانا الذي في السّماوات.

فارس : تأخّرا في العودة من البلد.

ماري : ليتقدس اسمك.. ليأتِ ملكوتك.

فارس : ماري.. أحقّاً كنت تريدين أن أموت!

ماري : كان ينبغي أن نفترق منذ زمن بعيد. أن يموت أحدنا أو كلانا.

فارس : يا الله.. كم غيَّرك ذلك الولد المحتال!

ماري : لا تذكره على لسانك..

(فترة صمت)

فارس : أيمكن أن تتركيني بلا تابوت؟

مارس : اسكت الآن.. ودعني أكمل صلاتي..

فارس : بعد هذه العشرة، يحقّ لي أن أحصل على تابوت لطيف كالتّابوت الذي أوصيتِ عليه، ودفعتِ ثمنه.

(فترة صمت).

فارس : أنا لا أفهم كيف طاوعك قلبك على شراء تابوت ورخامة لك وحدك ماري.. أنا أيضاً أريد أن أرتّب موتي..

ماري : اسكت.. ودعني أنم..

فارس : لا أستطيع أن أنام.. تصوّري أن أموت اللّيلة، وليس لدي تابوت. من حقّي عليك أن تشتري لي تابوتاً.

ماري : نم الآن.. وغداً يفرجها الله..

فارس : هل وافقت؟

ماري : **(بحنق مقهور)** وماذا أفعل؟ سأحمل عبأك في الموت، كما حملت عبأك في الحياة.

فارس : هذه هي ماري التي قلبها من ذهب.. ماري العذبة واللطيفة.. نعم هكذا هي ماري التي أعرفها وأريدها.. كدت أعتقد أنّي ضيّعتك، الآن سأنام مرتاحاً. حقّاً.. إنّي مرتاح..

ماري : أبانا الذي في السّماوات.. ليتقدّس اسمك..

فارس : خبّأت عنك سرّاً.. أتعلمين!.. كان ممكناً أن أغدو موظّفاً في الدولة والمسألة هيّنة. لايطلبون منّي إلاّ مراقبة أهل الحيّ، ومعرفة ماتحت ألسنتهم.

ماري : هذا هو العمل الذي يليق بك؟ أن تتعيّش من التلصّص، وأذى النّاس.. يا الله.. ما أوخم روحك يا فارس!.

فارس : مقبولة منك يا ماري. على كلٍّ، فَرَطت قبل أن تبدأ، وبعد وعدِك لم أعد أبالي. لايهمني أيّ شيء إلاّ رضاك يا ماري.. هل أنت صافية وراضية؟

ماري : نم.. ولاتقاطع صلاتي..

فارس : قولي.. إنّك راضية عنّي..

ماري : **(صائحة بغضب ونفاد صبر)** إنّي راضية.

فارس : سأنام مرتاحاً.. حقّاً إنّي مرتاح..

ماري : **(تتمتم بنرفزة)** أبانا الذي في السّموات.. ليتقدّس.. أبانا الذي في السموات ليتقدّس اسمك.. ليأت ملكوتك.. لتكن مشيئتك كما في السّماء كذلك على الأرض.. أعطنا يا ربّ

خبزنا الجوهري كفاف يومنا.. ولاتدخلنا في التّجارب..
ولاتدخلنا في التجارب..
(يتلاشى الصّوت والضّوء ببطء).

ستار

١٩٩٤

مُنَمنَمَاتٌ تارِيخيَّة

المنمنمة الأولى

الشيخ برهان الدين التاذلي أو الهزيمة

مؤرّخ قديم :.. ثم دخلت سنة ثلاث وثمانمائة والخليفة أمير المؤمنين المتوكّل على اللّه والسلطان الناصر فرج بن برقوق. وكان سعر غرارة القمح خمسين درهماً، والشعير والفول بثلاثين فما دونها، والأرز بمائة وخمسين درهماً. وهذا الغلاء في مصر والشام لم يعهد من قبل.

وفي التاسع من المحرم قدم البريد من دمشق بأن تيمور لنك نزل على سيواس.

وفي ثاني عشره يوم الخميس، استقرّ القاضي نور الدين بن مكي الدميري قاضي قضاة المالكية عوضاً عن القاضي ولي الدّين عبد الرحمن بن خلدون على مال وعد به.

وفي سلخه انحصر السلطان من قاضي قضاة المالكي ابن مكي الدميري فعزله وأعاد ابن خلدون المالكي.

وفي صفر، أوّله الثلاثاء، في ثانيه وُجد شاب أمرد قد قتل ورُمي في التربة التي بالحدرة، فأُخِذ وغُسّل وكُفّن بوزره، ولم يعرف من هو، ولا من قتله، نسأل اللّه العفو. وفي سابعه وصل إلى دمشق مبعوث السلطان الأمير آسبنغا ومعه رسالة إلى النائب والقضاة بخروج العساكر الشاميّة إلى حلب، وفيها يحضّ على قتال تيمور، ويقول وإنّا واصلون عقب ذلك.

وفي خامس عشره خرج نائب دمشق ومعه العساكر الشامية قاصداً حلب، ونودي في البلد بمنع النّاس من كراء الدواب للسفر وبمنع الناس من المسافرة، ونودي أيضاً بأمر القضاة بالكفّ عن المنكرات.

وفي ربيع الأوّل، في ثانيه، عمل السلطان المولد النبوي على العادة.

وفي خامس عشره وصل بريدي إلى دمشق ومعه بطاقة بكسرة العسكر الشامي وسقوط مدينة حلب في يد تيمورلنك. وقد فعلوا فيها من الأفعال الشنيعة ما تشيب له النواصي على ما سنبين، نسأل الله النجاة. ونودي على النّاس بالتحوّل إلى البلد، والاستعداد للعدوّ. فاختبط الحال، وحصل الضجيج والبكاء، وأخذ النّاس في النّقلة من حول البلد إلى داخلها.

وفي ثامن عشره وصل الهاربون من حلب وحماة، وأخبروا أن تيمور لنك متوّجه بعساكره إلى دمشق.

وفي تاسع عشره همّ نائب الغيبة في دمشق بالفرار، فوقف له العامّة وأهل القبيبات ينتظرونه، فلّما خرج، ضربوا بالمقاليع وسلّوا السيوف ونالوا منه، فرجع إلى دار السعادة.

وفي نهر بردى يجري الماء في غاية الضحالة وقد كثرت الضفادع فيه كثرة فاحشة.

* * *

تفصيل (١)

(ساحة صغيرة وسوق تجارية..)

المنادي : **(مع دقات الطبل)** برسم نائب الغيبة ويأمر. يا أهل الشام.. يُمنع إشهارُ السّلاح أو الضَّرب بالمقلاع، يا أهل الشام.. يُمنع التعرّض لمن أراد السفر، ونسلّم المدينة بالأمان.
(يعترضه شاب يتقلّد سيفاً، ويتجمهر النّاس، دلامة التاجر وابنه علاء وآخرون..)

أحمد : اخرس. قطع الله لسانك.

المنادي : إنها أوامر النائب.

أحمد : اذهب، وضع أوامر النائب في دبره.

المنادي : ومن تكون أيّها الغرّ؟! اشهدوا يا ناس.. إنّه يسبّ النائب.

أحمد : **(مجرّداً سيفه)** امش قبل أن أبتلي بك.

المنادي : **(وهو يخرج فزعاً)** انتظر حتى أخبر النائب. أيّها النّاس سأطلب شهادتكم.

أحمد : ومن يخاف هذه الحرمة! امش وإلاّ بعجت بطنك وطبلك.

دلامة : لماذا تحامقت عليه أيّها الشابّ؟

أحمد : ألم تسمعه.! إنه يحضّ الناس على الفرار.

دلامة : هذه شؤون خطيرة، ولا يجوز أن يخوض فيها إلاّ الكبار.

أحمد : بل يجب أن يخوض فيها الجميع.

دلامة : والله ما أفلحنا إذا صار كلّ واحد في هذه المدينة رأساً.

أحمد : والله ستضيع رؤوسنا، إذا بقي هذا النائب رأساً.

دلامة : ولكن أخبرنا من أنت؟

أحمد : أنا ابن الشاغور. قدوتي وشيخي برهان الدّين التاذلي، فأخبر بما علمت.

(يخرج).

بهاء : ما أعجب جرأته!

دلامة : تطاولٌ ولكاعة.. لا أصدّق! الشيخ التاذلي عالم تقيّ، وهو يعرف الأصول والمقامات.

(يدخل رجل غريب رثّ الهيئة يكاد يتساقط من الإعياء، ومعه غلام يسنده، يلتفّ حولهما النّاس).

رجل ١ : الرجل قادم من حلب.

رجل ٢ : أكنت هناك؟

الحلبي : إي وربّي الذي نجّاني من الهلاك.

دلامة : ماذا وراءك؟

الحلبي : الجوع والفزع.

دلامة : نسألك عن حلب وتيمور!

الحلبي : ضاعت حلب، ولم يبق فيها ما هو قائم إلاّ مئذنة من الجماجم.

رجل ٢ : مئذنة من الجماجم!

الحلبي : إي وربّي. بنى من رؤوس القتلى مئذنة لا مثيل لها محيطاً وارتفاعاً.

رجل ٢ : يا عفو الله!

رجل ١ : هذه أشراط الساعة.

دلامة : وعسكرنا؟!

الحلبي : عسكرنا؟ ماذا أخبركم! لم تبدأ المعركة حتى انهزم الأمراء والفرسان. داسوا المشاة وهم يولّون الأدبار. وسيوف الكفّار

وراءهم تنقضّ على الراكب والراجل. جرت مقتلة عظيمة، ولم يجر قتال. يقولون إن أمير حلب واطأ تيمور، واللّه أعلم بحقيقة الحال.

رجل ١ : لا يواطئ هذا الكافر إلا كافر مثله.

رجل ٢ : كم مرّة هزمتنا الخيانة دون قتال!

دلامة : دعكم من الأقوال والحكايات.. هذا العدوّ لايحتاج إلى مواطأة أمير. إنّه يقتحم الممالك والبلاد كأنّه إعصار.

الحلبي : إي وربّي إنّه إعصار من الدمار.

دلامة : وهل تعرف أين وصل الآن؟

الحلبي : في الطريق، علمت أنّه وصل حماة.

رجل ١ : إذن هو أقرب ممّا نحسب.

رجل ٢ : لعله الآن في حمص.

رجل ١ : ومع هذا لا شيء ينبئ بأن السلطان قادم.

رجل ٢ : ماذا نفعل؟

الحلبي : احملوا ما خفّ وغلا، واطلبوا أطراف البلاد.

رجل ١ : أهذا ما تنصح به؟

الحلبي : لو رأيتم بعض ما ارتكبوه في حلب، لقلتم هذه هي النصيحة.

رجل ٢ : ربّما كان الرحيل هو الحلّ.

(يبدؤون بالانسحاب)

دلامة : ما أعلنه النائب هو التدبير السديد. نسلّم المدينة بالأمان.

رجل ١ : يانجيّ الألطاف نجّنا ممّا نخاف.

الحلبي : يا أهل الخير.. لاتنسوا حاجتي.

دلامة : وماحاجتك؟

الحلبي : لقمة تسدّ الرمق ومكان آوي إليه.

دلامة : ألا تحمل مالاً أو ذهباً؟

الحلبي : والله يا أخي كان لي أهل وكنت ميسور الحال..
(يغص بالبكاء).

صوت : **(بين الأنين والصياح)** يمّه.. يمّه.

دلامة : جاء شعبان المجذوب.. عمي.. الجامع قريب، وقد تجد فيه رغيفاً وحصيراً.
(يدخل شعبان ـ وهو رجل مجذوب ـ ثيابه أسمال غريبة، يبتعد دلامة).

شعبان : يمّه.. يمّه.. هاتي بزّك يمّه. جوعان.. حليب.. حليب.. يمّه.
(يحدّق في الغلام الذي يندسّ في خاصرة أبيه. بهدوء مخيف) هاتي بزّك يمّه..

الحلبي : **(منتفضاً)** هذا غلام. إنّه ابني.

شعبان : يمّه جوعان.

الحلبي : ونحن أيضاً جائعان. منذ يومين لم نأكل شيئاً. ليتنا متنا مع أهلنا في حلب.

شعبان : **(بعذوبة)** جائعان!

الحلبي : يا ابن الحلال يكفينا ما نحن فيه.. **(يضم الغلام إليه)** لماذا نجونا.. أما كان الموت أستر؟!
(يُخرج شعبان من كيسه رغيفاً وسفرجلة، ويضعهما في حضن الرجل).

شعبان : يمّه هاتي بزّك يمّه.
(يدخل المنادي يحرسه مملوكان يشهران سيفيهما..).

المنادي : يرسم نائب الغيبة ويأمر.. يا أهل الشامّ.. يُمنع إشهار السلاح أو الضرب بالمقلاع. يا أهل الشام.. يمنع التعرّض لمن أراد السفر. ونسلم المدينة بالأمان.
(تتلاشى الإضاءة).

تفصيل (٢)

(ديوان في قلعة دمشق. نائب القلعة الأمير عز الدّين آزدار، ومعاونه شهاب الدين الزردكاش.. والشيخ برهان الدين التاذلي).

التاذلي : المدينة تجيش وتضطرب أيّها الأمير.

آزدار : ما الأمر؟

التاذلي : تبلبلت الخواطر، والنّاس تتزاحم على السفر.

آزدار : أيخلون المدينة؟

التاذلي : روّعتهم الأنباء، وليس من يقودهم في هذه الشدّة.

آزدار : ماذا يفعل نائب الغيبة إذن؟!

التاذلي : حاشا الحاضرين.. إنّه يخرأ في سرواله.

آزدار : يا شيخ!!

التاذلي : تلك هي الحقيقة. ما ظهر من جبنه وحمقه قطع حيل النّاس. ألا تعلم! لولا رجال القبيبات وفتياني، لفرّ تاركاً البلد وشأنه. وفي هذه الساعة يدور مناديه داعياً إلى تسليم البلد بالأمان.

آزدار : يسلّم البلد؟! ومن أجاز له ذلك؟ ما رأي السلطان؟ ما رأي العلماء والأعيان؟

التاذلي : وهل سأل أحداً رأيه؟

آزدار : لا.. لا نوافق على تسليم البلد. هذا طيش وحمق.

التاذلي : ولهذا فإن المدينة تستجير بك أيّها الأمير.

آزدار : ماذا يمكن أن أفعل؟ أنا أتصرّف في هذه القلعة. وقد حصّنتها أفضل تحصين، وتهيّأت مع رجالي لكل ما يأتي.

التاذلي : أعرف أنّك حصّنت، وأنك تهيّأت. مثلك أيّها الأمير لا يقال له ما ينبغي أن يفعل. لكنّ المدينة وقلعتها جسد واحد. وتحصين بعض الجسد لا يفيد، إذا كانت بقيّته مكشوفة يتناهبها الرعب والفوضى.

شهاب الدين : أيأذن لي الأمير؟

آزدار : تكلّم.

شهاب الدين : ما يقوله الشيخ صحيح. تحصين القلعة لا يكتمل، إلاّ إذا حُصِّنت المدينة، وضُبِط أمرها.

آزدار : هل أدّعي حقاً ليس لي!

التاذلي : في هذا الوقت، المدافع عن الحق له كل الحقوق.

شهاب الدين : ومن أجدر منك بحماية المدينة حين يتخاذل نائبها؟

آزدار : أخشى أن يُنسَب ذلك إلى الطمع، أو أن يغضب السلطان.

التاذلي : لايجوز أن تشغل بالك هذه الهواجس. إنّنا لا نبسط لك نفوذاً، بل نلقي على عاتقك أمانة ثقيلة. فكيف يمكن أن يُذكَر الطمع، أو أن يغضب السلطان!

شهاب الدين : من المهمّ أن تظلّ دمشق حصينة، سواء عزم السلطان على الحرب. أم قُدِّر علينا أن نواجه العدوّ وحدنا.

التاذلي : هل ترضى أيّها الأمير أن تسلّم المدينة بلا قتال؟

آزدار : أعوذ بالله.. كيف أرضى؟

التاذلي : إذن تولَّ أمرها، واضبط شؤونها.

آزدار : ونائب الغيبة! ماذا نفعل به؟

التاذلي : دعه يهرب، أو ارفعه إلى القلعة.

آزدار : لا أستطيع أن أرفعه إلى القلعة دون أمر سلطانيّ.

شهاب الدين : نطلب منه أن يسافر إذا أحبّ، أو يلزم قصره.

التاذلي : فليسافر، ولنغلق أبواب البلد خلفه.

آزدار : وهل يشاطرك العلماء، والأعيان رأيك يا شيخ؟

التاذلي : العلماء والأعيان أهل دين ونخوة. وهم يعرفون أنّهم مكلفون بحفظ البلد وحمايته. اللّهمّ صلِّ على محمّد وعلى آله، وصحبه أجمعين.. كنت أترجّح بين النوم والصحو، حين وافاني حبيب الله، النبيّ المصطفى. اقشعرت الظلمة حوله، وتهاربت. كان يلفّه سربال أخضر، وكان وجهه كالسراج المنير. اقترب، وفاض حولي خضرة ونوراً. وبصوت عميق حنون قال لي.. هذه المدينة عزيزة على قلبي، فانهضوا وحاموا عنها. والذي بعثني رسولاً، وأسكنني جنّته، لن تقوم لكم قائمة إذا دخلها عدوّي تيمور. ولا تخشوا الموت فأنا جالس على الضفّة. ثم انفتل عنّي وابتعد. فزعت من الفراش محموماً، فتراءت لي نجمة تنأى، وتختفي في العتمة. قل لي أيّها الأمير.. أهناك تكليف أوضح من هذا التكليف؟

آزدار : إن شاء الله، لن يدخلها ونحن أحياء.

التاذلي : إذن فلنبادر إلى تهدئة الخواطر، وتنظيم الدفاع عن الأسوار.

آزدار : ليحضر المنادي.

شهاب الدين : سأدعوه حالاً.

آزدار : وأنت يا شيخ، اجمع العلماء وادعُ النّاس إلى المصابرة والجهاد.

التاذلي : اتكل عليَّ في هذا الأمر.

(يتلاشى الضوء).

تفصيل (٣)

(بيت في المدينة. خديجة ومروان، زوجان شابان).

مروان : هل نتكّل على اللّه؟

خديجة : كما تريد.

مروان : لايبدو أنك راغبة.

خديجة : لا تهتمّ بي. قلت لك فصّل وأنا ألبس.

مروان : هل تفضّلين أن نبقى؟

خديجة : أفضّل ما تختاره.

مروان : أصدقيني القول.. هل تريدين السفر أم البقاء؟

خديجة : ألا تزعل؟

مروان : وَلِمَ الزعل؟

خديجة : أفضّل البقاء.

مروان : هذا رأي أخيك.

خديجة : لا.. لا علاقة لأخي، هذا ما أشعر به. ينعصر قلبي، كلّما فكّرت في السفر. ومن يدري.. قد نخسر بيتنا، والنّوْل الذي هو رزقنا.

مروان : نعم.. النّوْل! وهل يكسر رجليَّ إلاّ هذا النّوْل؟ تعبت كثيراً حتى ارتفعت من أجير إلى صاحب نول.

خديجة : ماذا يحلّ بنا إذا ضاع؟!

مروان : ولكن ما نفع النّوْل والبيت إذا خسرتك.. لم نكد نبدأ

حياتنا. إنّي خائف عليك.

خديجة : فوّض الأمر للّه يا ابن عمّي. لن يصيبنا إلاّ ما يصيب الجميع. وإذا بقي المرء مع أهله وقومه خير من أن يتشرّد في الدروب والفلوات.

مروان : لو علمت أفعالهم في حلب! فظاعات.. فظاعات تقشعر لها الأبدان! لا.. الأسلم هو أن نسافر حتى تنجلي هذه الغمّة.

خديجة : الصرّة جاهزة، وفيها كل مايمكن أن نحمله.

مروان : نعم.. السفر أفضل من البقاء. القادمِ من حلب قال لنا.. تلك هي النصيحة. نعم.. علينا أن نتوكّل على الله ونسافر. ألم تَنسي شيئاً؟

خديجة : كم مرّة تفقّدنا الصرّة؟!

مروان : كأنّك غاضبة.

خديجة : بل تعبت من التردّد والجدل. منذ الفجر ونحن نعذّب أنفسنا. إذا عزمت فلنمش..

مروان : أتظنّين أنّ القرار سهَل! أن أترك كلّ شيء.. النّول، والبيت وعملي.. أنا أيضاً متردّد. ولكن حين أتخيّل أنّهم يفعلون بـ.. بنا تلك الشناعات، ينطفئ الضوء في عينيّ.

خديجة : لاريب أنّك تقدّر الأمور خيراً منّي.

مروان : أتقولين ذلك مسايرة أم اقتناعاً؟

خديجة : يا ابن عمّي.. أعيد وأكرّر.. فصّل وأنا ألبس.

مروان : ما أحلى وجهك هذا الصباح! المال يروح ويجيء.. أمّا أنت. فأين أجد أنتِ؟ **(يضمّها، ويهويان معاً على السرير)** كيف يمكن أن أخاطر بك؟! هل أخاطر بالحرير، وفواكه الجنّة؟!

خديجة : ألن نسافر؟

مروان : دعيني أتزوّد من عسلك قبل السفر.

خديجة : لا.. ليس الآن. مروان..

(طرق على الباب)

مروان : (يقفز مبغوتاً، ويسوّي ثيابه) من؟.. تواري حتى أفتح الباب.
(يقترب من الباب) من؟..

أحمد : (من الخارج) أنا أحمد.

مروان : (وهو يفتح الباب) إنّه أخوك..

أحمد : (وهو يدخل) خفت ألاّ أجدكما..

مروان : (بعصبيّة وحزم) أنا وخديجة، قرّرنا أن نسافر اليوم.

أحمد : هل وافقت يا خديجة؟

خديجة : ربّما كان مصيباً يا أخي.

مروان : لن نعود إلى مناقشة الموضوع. يكفي نقاش الأمس.

أحمد : لم يعد هناك ما نناقشه.

مروان : ماذا تعني؟

أحمد : لا سفر بعد الآن.

مروان : هل تفرض علينا البقاء.!

أحمد : فارس القلعة وأميرها هو الذي يفرض على الجميع البقاء.
أغلق الأبواب ومنع السفر.

مروان : منع السفر؟!

أحمد : وقرّر أن يحصّن المدينة، ويسلّح الرجال.

مروان : لعلّها شائعة. إذا لم تكن متأكداً..

أحمد : منذ الصباح ومنادي القلعة يعلن الأوامر في المدينة، عمّا قليل
سيكون هنا في الحارة.

مروان : أرأيت ما فعله بنا التردّد؟

خديجة : وماذنبي؟! هل عوّقتك أو خالفتك؟

مروان : لم ألمس منك حماسة ولا قبولاً.

أحمد : خيراً فَعَلتْ.

مروان : (غاضباً) لماذا؟ ألا تعرف ماذا فعلوا بأهل حلب ونسائها.
أتظن أنّي قرّرت السفر خوفاً على نفسي؟ لا واللّه ما قرّرت

السفر إلا خوفاً على خديجة.

أحمد : الفرار لا يحمي خديجة.

مروان : ماذا يحميها إذن؟

أحمد : أن نقاتل من أجلها.

مروان : أقاتل؟! ولكنّي لم أحمل سلاحاً في حياتي.

أحمد : اليوم، يجب أن يحمل كل رجل سلاحاً.

مروان : إني صاحب نول. ولا أفهم إلاّ في الحياكة والحرير.

أحمد : لايحتاج السلاح إلاّ إلى العزيمة.

مروان : ما رأيك يا خديجة؟

خديجة : هذا أمر يقرّره الرجال.

أحمد : اسمع يا ابن خالي وصهري، باب السفر مسدود. ونحن في هذه المدينة أمام خيارين.. إمّا أن تستباح الحياة والأعراض، وإمّا أن نقاتل. فماذا تختار؟

مروان : هل تعتقد فعلاً أنّي أصلح للقتال؟

أحمد : ماذا ينقصك؟

مروان : لست مدرّباً، وليس لديّ سلاح.

أحمد : سأوفّر لك السلاح والتدريب.

مروان : متى؟

أحمد : اليوم.. بل الآن.

مروان : هيّا بنا.

أحمد : هل عزمت؟

مروان : قلت.. هيّا بنا.

أحمد : أخيراً وجدت مروان الذي أتمنّى.

خديجة : وأنا سأفكّ الصرّة، وأهيئ لكما الغداء. **(يخرجان)** حماكما الله.

المنادي : **(يتناهى صوته من بعيد، ثم يقترب تدريجياً)** يا أهل الشام..

يرسم نائب القلعة ويأمر.. من يهرب يُنهَب. والمدينة تُحصَّن وتُحفَظ.. ومن أراد سلاحاً أعطاه الأمير سلاحاً. يا أهل الشّام.. يرسم نائب القلعة ويأمر.. المدينة تحصّن وتحفظ.. ومن أراد سلاحاً أعطاه الأمير سلاحاً.. يا أهل الشّام من يهرب يُنهب.

(تتلاشى الإضاءة)

مؤرخ قديم : وفيه، ربيع الأوّل جاءت الأخبار بوفاة صاحب اليمن الملك الأشرف إسماعيل بن عبّاس، وكان كفواً لملك اليمن.

وفي واحد وعشرينه خرج من مقابر باب الصغير نجم كبير وجرى جرياً شديداً إلى جهة القبلة، وله هدير كهدير البعير، فأجمع الناس على السفر، وخرجت النساء حاسرات، واستغاث الصغار، وكان الوقت عجيباً.

وفيه أمر نائب قلعة دمشق بهدم وإحراق ما حول الخندق من البناء، فحصلت شدّة للنّاس، وأفحشت النساء في الدعاء على النائب ورجاله. ثم توقّف ذلك حتّى يؤمن لهم محلاّت للسكن. وقد حُصنت القلعة تحصيناً تاماً، وحمل إليها ما تحتاجه من تموين، ونُصِبَت المجانيق..

وفيه كثر القادمون من حلب وحماة فعظمت المخاوف، وانتشرت الأراجيف.

وفي ثامن وعشرينه جاء خبر بوصول السلطان مع عساكره إلى الريدانية فدقّت البشائر، واطمأنت خواطر النّاس، ثم تبيّن بعد ذلك أنّ العساكر المصرية لم تخرج، وإنّما جاء البريد من مصر.

وفيه حصل برد شديد دون أمطار، ومازال بردى على حاله من النقص وقلّة المياه.

تفصيل (٤)

(ركن في صحن الجامع الأموي، حلقة تضمّ الشيخ التاذلي، ومحيي الدين بن العزّ، وتقيّ الدين بن مفلح، وشمس الدّين النابلسي وكلهم قضاة مذاهب وعلماء. بعيداً عنهم، ثمّة حلقات أخرى من طوائف القرّاء والفقراء).

التاذلي : الأمانة ثقيلة أيّها العلماء.. وفي هذه الشدّة علينا أن ننهض رجلاً واحداً، وكلمة واحدة.

ابن النابلسي : إذا صفتِ النوايا اتّحدت القلوب.

التاذلي : النوايا صافية إن شاء الله.

ابن النابلسي : قولوا إن شاء الله.

الجميع : إن شاء الله.

التاذلي : سيزداد أمر النّاس بلبلة وفساداً إن لم نكن رأياً واحداً.

ابن النابلسي : إذا صفت النوايا اتحدت القلوب.

ابن العزّ : بعد الخمول الذي أبداه نائب الغيبة، لا نمانع أن يتولّى أمير القلعة حفظ المدينة. لكن ينبغي أن يترك لنا تصريف الأمور وإدارة شؤون النّاس.

ابن النابلسي : أو أن يشاورنا في كل ما يقرّر، أو يفعل.

التاذلي : قلت لكم هو زاهد في السلطة، ولولا إلحاحي ما قبل أن يخرج من قلعته.

ابن النابلسي : إذا صفت النوايا اتحدت القلوب.

التاذلي : النوايا صافية يا شيخ.

ابن النابلسي : ألن يمدّ يده إلى الأوقاف؟

التاذلي : ليس لديه مطمع في الأوقاف أو سواها. ولكن إذا أردنا التحصين، ألا ينبغي أن يعطي القائمون على الأوقاف والمقتدرون بعضاً من مالهم؟

ابن النابلسي : يعطي كل واحد ما يرغب في عطائه.

ابن العز : لماذا نختلف في الأمور قبل أوانها؟

ابن النابلسي : لأنه إذا صفت النوايا اتحدت القلوب.

التاذلي : النوايا صافية إن شاء الله. ونحن مكلّفون أيّها العلماء. كما أراكم الآن تراءى لي سيّد المرسلين، وبلغني أمره، قال عليه صلاة الله وسلامه، انهضوا وحاموا عن مدينتكم. فهل نخذل نبيّنا؟

ابن النابلسي : معاذ الله.

ابن العزّ : والله ارتعش بدني حين سمعتك تقصّ رؤياك.

التاذلي : وأنت يا ابن مفلح. لماذا لاتقول شيئاً؟

ابن مفلح : هناك بيوت وأملاك خارج الأسوار فماذا نفعل بها؟

ابن النابلسي : من حقك أن تطمئن على أرزاقك.

ابن مفلح : أرزاقي وأرزاق الكثيرين من النّاس.

التاذلي : يجب أن تحمى شأنها شأن المدينة.

ابن مفلح : لايضر لو فاتحنا الأمير، وطلبنا أن يرتّب لها الحماية اللازمة!

التاذلي : ولـمَ لا؟! سنفاتحه حين نلتقيه.

ابن النابلسي : إذا صفت النوايا اتحدت القلوب.

التاذلي : هل بقي في الخواطر شيء؟

ابن النابلسي : بقيت مسألة جمال الدّين بن الشرائجي.

التاذلي : نعم.. هذا الضالّ! (ينادي) هاتوا ابن الشرائجي.

ابن النابلسي : يجب أن نجعله عبرة لأهل الضلالات والأهواء.

التاذلي : لا تسامُحَ مع الذين أزاغ الله قلوبهم.

(يدفع رجلان معمّمان الشيخ جمال الدين بن الشرائجي إلى حلقة العلماء. وأحد المعمّمين يحمل كيساً من الكتب المخطوطة. يبدأ النّاس بالاقتراب محتشدين حول الحلقة).

التاذلي : أتخلّط في الدّين يا ابن الشرائجي! أخبرنا يا شمس الدّين ما علمت من أمره.

ابن النابلسي : بقي ابن الشرائجي يواظب على دروسي حيناً من الزمن. وكان مجتهداً ومؤدباً لولا ميل إلى الفضول طالما نهيته عنه. ثم أبدى لي الجفوة والجحود. وانقطعت عنّي أخباره، حتى علمت أنه انغمس في الضلال انغماساً فاحشاً.

جمال الدين : جفوت مجلسك يا شيخ حين عرفت أنّك رقيق العلم والدّين. تتوه في المسائل، وتستحلّ الأوقاف. فكيف يجوز لمثلك أن يرمى الناس بالضلال؟

ابن النابلسي : **(يهجم عليه ويصفعه)** أتتهمني في ديني وعلمي يا ثعبان الكفر والجحود؟

ابن العز : **(يصفعه بدوره)** وفوق الزندقة صفاقة يا ابن الفاعلة.

جمال الدين : ما أنت يا ابن العزّ من يحقّ له التعريض بأمّهات الناس.

التاذلي : **(متدخلاً بحدّة)** أقْصُر يا ابن الشرائجي، ولا تزد قضيّتك سوءاً.

جمال الدين : وما قضيّتي؟

ابن النابلسي : الكفر والزندقة. أيّها العلماء.. أخبرني شاهد عدل أن هذا الملحد يخوض في القدر، ويتعاطى مقالات الكفّار والزنادقة.

ابن مفلح : القدرية مجوس هذه الأمة.

التاذلي : أتخوض في القدر يا ابن الشرائجي؟

جمال الدين : ما وهبنا الله العقل إلاّ لكي نفكر ونتأمّل ونعتبر. قال سبحانه وتعالى ﴿فاعتَبِرُوا يا أُولي الأبصَار﴾.

التاذلي : ألا تعلم أن الجدل في الدين فتنة؟

جمال الدين : قال سبحانه وتعالى ﴿ادعُ إلِى سبيل رَبّك بالحكمة والمَوعِظَة الحَسَنةِ وجَادِلهم بالتِي هيَ أحسَن﴾. وأكمل مراتب الإيمان ما تحصّل بالحكمة.

ابن العز : هذه مقالات الكفّار من المتكلمين والفلاسفة.

جمال الدين : وهل يكفر المرء إذا عزّز الإيمان بآيات العقل؟

ابن النابلسي : يا ابن الأفعى.. هل تستجرّنا إلى الجدل؟ قل لنا هل تؤمن بالقدر خيرهِ وشرّهِ؟

(يتلكأ جمال الدين).

التاذلي : أجب.

جمال الدين : أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله. إنّي مسلم يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويعرف أهلي وجيراني أنّي منقطع عن الدُّنيا وزخرفها إلى العبادة والدراسة.

ابن النابلسي : والقدر؟

جمال الدين : لك ما تشاء يا ابن النابلسي، إن الله سبحانه وتعالى عادل، وإنّه لا يأمر بالظلم والفساد.. إذا لم تكن كلفة لم تكن مثوبة. ولولا أن الإنسان مخيّر وحرّ لما قال الله في كتابه العزيز ﴿فَمالَهم لايُؤمِنُون﴾ ولما قال ﴿ومَاذا عَلَيهِم لَو آمنُوا باللهِ واليَوم الآخِر﴾. فلو كان هو الفاعل لأعمالهم، لما خاطبهم، ولامَهم على ماكان منهم من تقصير، ولما مدحهم على ما كان منهم من جميل وحسن.. إنه سبحانه وتعالى يخاطبنا نحن الذين نعقل ونفهم. وإنّه يخاطبنا لأنّنا أحرار. نعم.. هذا هو الدّين. إنّنا أحرار ومخيَّرون.

أصوات : **(من الحشد)** أستغفر الله العظيم.

ـ شيطان رجيم.

ـ نعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

التاذلي : ويلك يا ابن الشرائجي.. ضيَّعت نفسك.

ابن النابلسي : تلك مقالته.. **(يتناول كتباً من أحد المعمّمين)** وهذه هي ضلالات الشيطان التي يتداولها.

التاذلي : **(وهو يتناول الكتب)** الرد على الجهمية والمجبرة. المغني في علوم التوحيد والعدل. فصل المقال. أعوذ بالله. أهذه هي التصانيف التي تنهل منها ضلالك؟ ألا تعرف أن هذه الكتب محظورة؟

جمال الدين : لايحظر هذه الكتب إلا الجهل والطغيان.

التاذلي : (يضربه) وتتّهم علماء الأمّة بالجهل والطغيان أيّها الفاسق؟

ابن العز : أقيموا عليه حدّ الكافر.

أصوات : أقيموا حد الكفر.

ـ استتيبوه.

ـ لعلها جهالة.

جمال الدين : من كفّر مسلماً فقد كفر.

ابن العز : أتعدُّ أهل الاعتزال والفلسفة والبدع بين المسلمين؟

جمال الدين : عالم يجتهد خير من عالم يحمل أسفاراً.

ابن مفلح : هذه مكابرة الشيطان.

ابن النابلسي : وكأنّه يتباهى بالإلحاد.. أهلكك فضولك يا ابن الشرائجي.

جمال الدين : والله لست مكابراً ولا مباهياً. ولكن الله وهبني عقلاً فلمْ أعطِّله.

ابن مفلح : قوّموه بالمقارع والتجريس.

جمال الدين : المقارع لاتقوّم إلاّ العبيد يا ابن مفلح. أمّا الأحرار فإنّهم أقوم من مقرعتك.

ابن النابلسي : الشيطان يتكلّم من فمه.

ابن العز : أقيموا عليه حد الكافر.

التاذلي : خذوه واضربوه حتى تكسروا كبرياءه. ثم ارفعوه إلى سجن القلعة ريثما ننظر في أمره..

جمال الدين : **(وهم يجرّونه)** ما أتعس حالنا إذا كان علماء الأمّة يسمّون الاجتهاد والعلم كفراً!

ابن العز : **(وهو يصكه)** اخرس.. قصّر الله لسانك.

ابن النابلسي : والكتب! ألا نحرقها؟

التاذلي : نعم.. احرقوها هنا في صحن الجامع.

(يوقدون ناراً في صحن الجامع، ويرمون الكتب فيها).

التاذلي : أيّها الناس. كيف نتّقي غضب الله إذا رقّ الإيمان، وتفشّت مقالات الملحدين؟! حين ظهر النفاق والبدع والفجور المخالف لدين الرسول، سلّط الله علينا الأعداء. فخرجت الروم إلى الشام والجزيرة مرّة بعد مرّة، وأخذوا الثغور الشاميّة شيئاً بعد شيء. وجاءنا المغول من الشرق، وكادت الأمّة تندثر ويفشل ريحها. وحين أقام النّاس ما أقاموه من الإسلام وقهر الملحدين والمبتدعين نصرهم الله على الكفار. تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿هَل أَدُلُّكم على تِجَارَةٍ تُنَجيكم مِن عَذَابٍ أَليِم. تُؤمِنُونَ بِاللّهِ ورَسولِهِ وتُجاهدونَ في سَبيل اللّهِ بأموَالِكُم وَأَنفُسِكم ذَلِكم خَيرٌ لَكم إنَ كُنتُم تَعلَمُون، يَغفِر لَكم ذُنُوبَكم وَيُدخِلكم جَنَّاتٍ تَجري مِن تَحتها الأنهَارُ وَمساكِن طيِّبة في جَنَاتِ عَدَنِ ذَلِكَ الفَوزُ العَظيم. وأُخرى تُحبُّونها نصرٌ مِنَ اللّهِ وَفَتحٌ قَريبٌ وبشّرِ المُؤمنين﴾.

أيها النّاس.. ونحن اليوم أمام شدّة..وقد تنادينا نحن علماء الأمّة، وأصدرنا فتوى بالجهاد لعدو الله تيمور اللعين.. أيّها الناس دعونا نمشي معاً في أسواق المدينة، وندعو المسلمين إلى تجارة تنجينا من عذاب أليم.. ليمشِ حاملو المباخر.. وأنتم أيّها العلماء.. افتحوا مصاحفكم، ولنمضِ على بركة الله.

(ينتظم موكب مهيب. تتقدّمه المباخر والعلماء ووراءهم حشود الفقراء والقرّاء.. ويخلو صحن الجامع تدريجيّاً من النّاس..)

العلماء : (يرتلون ترتيلاً منغوماً) ﴿وأَعِدّوا لَهُم ما استَطَعتُم مِن قُوَّةٍ وَمِن رِبَاطِ الخَيلِ تُرهِبُونَ بِهِ عَدوّ اللّهِ وعَدُوّكُم وآخَرينَ مِن دُونِهِم لا تعلمُونَهم اللّهُ يَعلَمُهُم وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيءٍ فِي سَبيلِ اللّهِ يُوفَّ إلَيكم وأنتُم لا تُظلَمُون﴾.

(صحن الجامع خالٍ.. والنار موقدة لاتزال. يدخل شعبان).

شعبان : يمّه.. يمّه أريد بزّك يمّه. جوعان يمّه (يقترب من النّار. يتدفأ. ثم يدور حولها) أين أنت يمّه. حليب حليب يمّه.

(فجأة يتوقّف. يرفع أذيال قمبازه. ثم يبول على النار).

(تتلاشى الإضاءة).

مؤرخ قديم : ودخل ربيع الثاني حاملاً الخير. فقد وقع مطر كثير جداً مع رعد وبرق، وجرت منه الميازيب. وقد وقع المطر بعد يومين من الحادثة التي جرت مع جمال الدّين بن الشرائجي، إذ أحرق القضاة كتبه، ورفعوه إلى سجن القلعة. وقيل إنه يبطن الإلحاد والزندقة. نسأل الله العفو.

وفي سادسه خرج السلطان وسائر الأمراء من القاهرة، ونزل بالريدانية. وتبعه الخليفة المتوكّل والقضاة الأربعة.

وفيه ضرب الجان طباخاً رافضياً بالخلاء حين بال قائماً. ولم ينطق بعدها إلى أن مات بعد أيام. نسأل الله الرّحمة.

وفيه اتّخذ التاجر دُلامة سريّة، واختلف النّاس هل هي جارية أم غلام. وهذه من النوادر.

وفيه بيع اللّحم بسبعة ثم بسبعة ونصف وهذا شيءٌ لم يُعهَد. والنّاس في غاية الشدّة، والسائلون يملؤون الطرقات والجوامع.

وفي ثاني عشرة جاء الخبر بأن السلطان خرج من الريدانية ومعه العساكر المصرية متوجّهاً إلى دمشق ففرح النّاس بذلك.

وفيه ظلّ جريان الماء في بردى ضعيفاً. ولكن بعد المطر خفّت روائحه.

تفصيل (٥)

(في السوق ـ محل دلامة التاجر. دلامة وابن مفلح)

ابن مفلح : سجّل كيساً ثانياً من الأرز، وجرّة من الدّبس.

دلامة : هذا احتكار يا شيخ.

ابن مفلح : الوقت صعب يا دلامة.

دلامة : نعم.. الوقت صعب والتهوّر لا يسهل الأوقات الصعبة..

ابن مفلح : هل أسرفت في الشراء؟

دلامة : ومن يتحدّث عن الشراء؟

ابن مفلح : ماذا تعني إذن؟

دلامة : بصراحة.. لايطربني هذا النفخ في مزمار الجهاد. هل تظن أن هياج العامة وسيوف الأحداث يمكن أن يوقفا تيمور؟

ابن مفلح : حاصَرنا الشيخ التاذلي، ولم يترك لنا مجالاً للاعتراض.

دلامة : هذا الشيخ أصابته لوثة. تهيّأ له أن النبيّ عليه الصلاة والسلام زاره في المنام، فتخبّل عقله. كان ينبغي ألا تسايروه. لقد عجبت إذ رأيتك، وأنت العالم المتروي.. تسير في ركابه، وتنفخ في مزماره.

ابن مفلح : قلت أسايره كيلا تفسد الخواطر، ويرمي بعضنا البعض بالخذلان.

دلامة : ولكن العوام هاجوا، والأحداث تسلّحوا. قد نعجز عن ضبط الأمور حين تحين ساعة القرار.

ابن مفلح : دعنا نأمل الخير، ولا نستبق الحوادث.

دلامة : إذا لم يأت السلطان.. أو إذا.. إنك تفهم قصدي. إن ساعة القرار آتية. أنت تعرف لغة العجم، ولك من حسبك وعلمك حصانة. لن نجد من هو أليق منك للسفارة وإنقاذ المدينة.

ابن مفلح : من أوحى لك بهذه الفكرة؟

دلامة : هي فكرتي.. وهي فكرتك أيضاً. ليس ابن مفلح من تدير رأسه المواكب وجعجعة العراضات.

ابن مفلح : اكتم هذه الأفكار، ولا تطلع أحداً عليها.

دلامة : لن ندع التاذلي يجرّنا إلى الخراب، ولن نكرّر غلطة حلب. هذه المحنة لا يمكن تجاوزها إلا بالتدبير والسياسة.

ابن مفلح : اضبط لسانك، وكل شيء بأوانه.

دلامة : إذن نحن متفقان. كنت أعلم أنّك الرجل الذي نحتاجه.

ابن مفلح : اللهم قدرنا على مافيه الخير والصواب.

دلامة : آمين.. يا رب العالمين.

ابن مفلح : غداً أُرسل الخادم والدَّابة لحمل البضاعة.

دلامة : دعه يأتِ قبل الفجر. لا أريد أن تفترسنا العيون.

ابن مفلح : هل صرت تبيع بالسرّ؟

دلامة : الوقت صعب يا شيخ.

ابن مفلح : إن الله لايحبّ المحتكرين.

دلامة : ولا النمَّامين.

مفلح : غلبتني يا دلامة.

(يخرج ابن مفلح ضاحكاً).

دلامة : هذا عالِمٌ راجح العقل. إذا ضاقت سيتولى الأمر. ويعقد لنا الصفقة. ما من عقدة لاتحلّها صفقة. شيء من الكياسة والسياسة. هم يبيعون ونحن نشتري، ثم نبرم الاتفاق. هؤلاء الحمقى يملؤون البلد هرجاً ومرجاً، لأنهم لا يعرفون كيف

يعقدون صفقة. لن نتركهم يجرّوننا إلى الدمار. فالبلد لنا لا للحمقى والمخرّفين. نحن نفهم الدنيا، ونعرف كيف تنشأ الوقائع والحوادث! هل جرّد ذلك التتري الجلف سيفه، وركب جموعه إلا ليغنم عظمة. وهل يتردّد سلطاننا، ويتخاذل إلاّ لأنّه يخشى أن يخسر العظمة التي يعضّ عليها! وكلاهما يخفي خلف السيف والدرع تاجراً أخرق. الخصومات، والفتن والحروب كلّها ألوان من التجارة. لكنّها تجارة خرقاء، لا يعرف القائمون بها أصول التجارة، ولايتحلّون بفضائل التجّار. لديّ أفكار. نعم.. لديّ أفكار.

(يدخل الابن بهاء متجهّم الأسارير).

دلامة : **(يباعد المشخّص بينه وبين الدّور)** وأحسّ دلامة التاجر الذي عاش في السنة الثالثة من القرن التاسع الهجري، أنّه يحلّق، وأن الأفكار تنفجر في رأسه كالبروق. جاء ابنه، وأخبره أن مخازنهم المكتومة ضاقت بالبضائع التي أرادوا إخفاءها. وكان في وجهه تجهّم وكدر. وبعد طول تردّد قال:

بهاء : إنّنا نستغلّ محنة النّاس يا أبي.

(لم يغضب دلامة، ولم ينهره كما تعوّد. بل قال له بحنان..)

دلامة : **(يستعيد المشخّص دوره)** اسمع يا بنيّ.. أنا تاجر، يعرف أصول التجارة، ويتحلّى بمزايا التّجار. والتاجر هو الذي يتكيّف مع الأوقات، ويغتنم المناسبات. إنّ الله سبحانه وتعالى حبّبنا بالربح وأغرانا به. تأمل هذه الدّنيا، وقل لي ماذا تكون، إنها دار تجارة، الإنسان فيها يبيع أعمالاً وعبادة وتقوى، والله ينقده ثواباً، ومُقاماً في الجنّة. وبضاعة الإنسان رخيصة، لكنّ الله سبحانه وتعالى يغريه، ويضاعف له الربح أضعافاً لا يحدّها عقل ولا قياس. التجارة محمودة، وربحها

محمود. ألم يشرّف اللّه التجارة ويضرب بها الأمثال.. ألم يشبّه حياة الإنسان وعمله بالصفقة؟ إن التاجر يهتدي برب العالمين، ويعمل على غراره. إنّه يستخدم الميزان والسجلّ والحساب والربح والخسارة. التجارة هي صورة الدُّنيا، وهي أصل النشاط والاستقرار والعمران. آه.. يا بنيّ، لو كان المُلك للتجّار لعمَّ الرخاء والأمان، وانتظم أمر البلاد انتظام أوقات الصلاة. وحتى لو قامت فتن أو حروب، فستكون فتناً وحروباً مدروسة لاتؤدي إلى الخراب، بل إلى ازدهار الأعمال والمنافع. لديّ أفكار. نعم.. لديّ أفكار **(يعود المشخّص إلى أداء المباعدة)** وكان دلامة التاجر الذي عاش في السنة الثالثة من القرن التاسع الهجريّ، يحسّ أنّه يطفو فوق فيض دافق من الإلهام. وأنّه أذكى من السلطان فرج بن برقوق، ومن العلج تيمور، وأنّ دمشق لن ينقذها إلاّ صفقة ذكية.

بهاء الدّين : أين نخبّئ ما تبقّى؟

دلامة : هل صرفت الحمّالين؟

بهاء : لا.. إنهم ينتظرون.

دلامة : إذن.. انقلوها إلى البيت ريثما نؤمّن مخزناً جديداً.

(فيما يخرج بهاء، يقترب الحلبي والغلام الذي يرافقه).

دلامة : كيف وجدت الإقامة بيننا أيها الغريب؟

الحلبي : ليتني قضيت مع أهلي وولدي، لاشكّ أن ذنوبي عظيمة. نجوت من هلاك تيمور لأذوق كل يوم ما هو أمرُّ من الهلاك.

دلامة : شدّة وتزول أيّها الغريب. أهذا الغلام ابنك؟

الحلبي : هو.. نعم.. هذا ما تبقّي من ولدي.

دلامة : ما أجمله! يجب أن تعلّق له حرزاً يحميه من العيون.

(يتحسّس وجه الولد، فيفزع، ويندسّ في حضن أبيه).

الحلبي : قيل لي إنّك عظيم الغنى.
دلامة : لا غني إلا الله سبحانه وتعالى. والنّاس تحبّ المبالغات.
الحلبي : لم أسأل أحداً عن أغنياء البلد إلا ذكر اسمك.
دلامة : وفيمَ يهمّك هذا الأمر؟
الحلبي : قد تكون ضالتي أيّها الكريم. تعبت، ولم أعد أتحمّل خوفي وجوعي.
دلامة : إذا كنت تطلب.
الحلبي : لا.. لا أطلب صدقة. لحقني من الخزي ما يكفي، أريدأن أعقد معك تجارة.
دلامة : تجارة! هل تخفي ما يُباع ويشترى؟
الحلبي : لم أنقذ من أهلي ورزقي إلاّ جارية، وهي أحبّ أولادي إلى قلبي.
دلامة : وهذا الغلام؟
الحلبي : استر علينا، سترك الله.. إنها الجارية. أخفيتها في ثياب غلام كي أحميها. ولكنّي لم أعد أستطيع. أضنانا القلق والجوع.
دلامة : إنها جارية.. ما أعجب هذه القصة!
الحلبي : استر علينا سترك الله.
دلامة : اطمئن.. اطمئن. هي جارية إذن! من حقّك أن تخاف عليها.
الحلبي : لا أنام إلا نوم المطلوبين. وأرتعش إذا حدّقت فيها العيون. والنّاس لاترحم، ولا ترتاح إلاّ إذا نبشت ما بدا وما خفي. **(يغصّ)** وفوق هذا الجوع، والذلّ، أولاد الحرام.
دلامة : أعانك الله. ولكن أين التجارة التي ذكرتها؟
الحلبي : قلت في نفسي أيّها الكريم.. لعلّ بك حاجة إليها.
(تصوّت البنت أصواتاً غريبة، وهي تختفي في حضن أبيها).
الحلبي : منذ رأت ما حلّ بأمّها وأخوتها انعقد لسانها. اهدئي يا

ابنتي.. هل تريدين أن تُبكي أباك؟

دلامة : أوجعت قلبي أيّها الغريب. قل لي بصراحة ماذا تطلب.

الحلبي : أن تشتريها، وتسترها.

(يعلو تصويت البنت، فيربت الأب على رأسها).

دلامة : هل تعرض عليّ شرائها؟

الحلبي : نعم.. أعرض عليك أن تشتري بضعة منّي كي أطمئن. كي يخفّ حملِي.. ويَشبع كلانا.

دلامة : إذن.. تعالَ معي إلى الداخل. هذه صفقة لا تعقد بخفّة. ينبغي أن نزن ونقلب.

(يختفي دلامة داخل المحل، ويتبعه الحلبي الذي يجرّ ابنته جرّاً).

شعبان : **(من خارج المسرح، وبعد اختفاء الجميع، يتناهى صوته بعيداً).**

أين أنتِ يمّه، جوعان يمّه.

(يتلاشى الصوت والضوء..)

مؤرخ قديم : وفي شهر ربيع الثّاني، في خامس عشره احتشد في الجامع الأمويّ خلق كثير من جماعات القرّاء والفقراء والبطالين. وكانوا يكّبرون ويهمّون بالخروج لكبس الخمارات، وإحراق البيوت التي فيها بنات الخطأ. لكن القاضي محيي الدّين بن العزّ ردّهم، ومنعهم من التشويش. وقد حصل كلام، ثم تفرّق الخلق ولم يحدث شيء.

وفي عشرينه وصل السلطان الناصر فرج بن برقوق إلى غزّة.

وفيه حصل برد شديد وزمتة للغاية.

والماء يجري في بردى على زيادة.

تفصيل (٦)

(ديوان في قلعة دمشق ـ نائب القلعة عز الدين آزدار ومعاونه شهاب الدين الزردكاش).

شهاب الدين : أخبرت الكشّافة أن تيمور وصل إلى بعلبك.

آزدار : ننتظر خبراً من السلطان، فتأتينا أخبار من تيمور.

شهاب الدين : أيمكن أن يتراجع السلطان بعد خروجه؟

آزدار : لا أدري.. لا أدري شيئاً. هل حصّنت السور عند الباب الصغير؟

شهاب الدين : رجال التاذلي يركبون المكاحل هذه الساعة. صارت المدينة حصينة كالقلعة.

آزدار : إذن دعنا نتفقّد الأسوار، ونرتّب المقاتلين.

شهاب الدين : مازال ابن أبي الطيّب يلحّ على لقائك.

آزدار : ولم هذه اللجاجة؟ هذا الرجل يحبّ اللّعب بذيله. ولا يحمل لنا إلا العداوة.

شهاب الدين : لا ضير لو منحه الأمير برهة من وقته.

آزدار : هل وعدته؟

شهاب الدين : لا.. ولكن أتمنّى أن تسمع ما لديه.

آزدار : طيّب.. دعه يدخل.

(يدخل محمّد بن أبي الطيّب).

محمد : السلام على الأمير.

آزدار : قل ما لديك، وأوجز.
محمد : لا بأس أيّها الأمير. سأقول ما لديّ، ولن أطيل. جئت أقدّم لك الولاء، وألتمس منك السلاح.
آزدار : أتطلب السلاح لك؟
محمد : لي وللرجال من قرابتي.
آزدار : وهل يحقّ لمثلك أن يطلب السلاح؟
محمد : يوم سمعت مناديك..
آزدار : نعم.. نعم.. سلّحت النّاس، وأسلّحهم. ولكن ذلك لا يشملك.
محمد : ألست من البلد وناسها؟
آزدار : لايسلّح المرء أعداءه.
محمد : سامح الله الأمير. أتساوينا بالأعداء؟ في الملمّات ينسى الأهل ما يفرّق بينهم ولايبقى إلاّ حنين الدم للدم.
آزدار : وأين كان حنين الدم للدم حين جاهرت بعداوتك للسلطان، وأيّدت متآمراً أشعل فتنة، وأراد أن يغتصب السلطة؟
محمد : هذا حقّ. كان لنا رأي، وكان لنا ولاء. ولكن تلك أيام سلفت.
آزدار : بل كانت خيانة أفسدت القلوب، وهزّت السلطنة.
محمد : ربّما أخطانا في ولائنا، ولم نحسن تقدير المصلحة.
آزدار : مازلت تراوغ وتقول ربّما. لولا فضل السلطان لالتف حبل المشنقة على عنقك.
محمد : ومن يجحد فضل السلطان؟ ومن يجهل أن عفوه هو الذي فكّ مشنقتي! ولكن أيّها الأمير، لماذا ننكأ الجراح، وننبش أسباب الخلاف، والخطر يدهمنا جميعاً؟
آزدار : لولا الشقاق والخلاف ما طمع فينا عدوّ.
محمد : وها أنا أرجو أن نطوي الماضي، وتصفو القلوب. إني أعلن

ولائي، وأطلب شرف الدفاع عن بلدي.

آزدار : وجوابي هو أن تلزم بيتك، وتترك هذا الأمر عنك.

محمد : ألزم بيتي! وكيف ألزم بيتي أيّها الأمير؟ إنّك تجرّدنا من المروءة، وتحكم علينا بالغربة. كيف سيكون شعورنا حين يقاتل الرجال، ونحن قعود في بيوتنا مع النّساء والأطفال؟ كيف نتحمّل الخزيّ والمرارة والغربة؟ لا.. هذه مهانة لاتطاق.

آزدار : إنّك تحصد ما زرعت.

محمد : هذه مدينتنا. فيها قبور الأجداد، وفيها الأهل والعمران، فمن أجدر منا بالدفاع عنها؟

آزدار : من يحرص على المدينة لا يورّطها في الثورات والفتن.

محمد : ليت الأمير ينسى.

آزدار : الخيانة لاتُنسى.

محمد : هذه المحنة تقتضي أن نجمع، لا أن نفرّق.

آزدار : هذه المحنة تقتضي رجالاً موثوقين لا تشوب ولاءهم شائبة.

محمد : أعطيتك كلمتي أيّها الأمير.

آزدار : لن أعرّض ظهري لتقلّبات الأهواء والأفئدة.

محمد : أهذا قرارك الأخير؟

آزدار : نعم.. ولا فائدة من الجدل.

محمد : في الوقت الصعب.. وحين يعزّ الرجال، لاتنسَ أيّها الأمير أنّك أبعدت رجالاً لاتنقصهم الحميّة ولا الشجاعة.

آزدار : لا أريد نجدة الخونة والمتآمرين.

محمد : واللّه إنّ رجالاً فيهم حميّة ورأي خير لك من العبيد.

آزدار : لا تتجاوز حدّك، واخرج قبل أن أغضب.

محمد : لابأس أيّها الأمير.

(يتراجع منسحباً).

آزدار : الزموا بيوتكم واحذروا، فلن أكون رحيماً لو بدر منكم شغب.

محمد : سمعاً وطاعة أيّها الأمير.

(يخرج.. يبدو آزدار مهتاجاً. يلتفت إلى شهاب الدين).

آزدار : وأنت ماذا تريد أن تقول؟

شهاب الدين : لاشيء.

آزدار : هل توقّعت أن ألبّي طلبه؟

شهاب الدين : لا أدري.. أمامنا معركة صعبة.. ربما كان أفضل لو ألفنا قلوب الجميع وشجعنا مبادراتهم.

آزدار : هؤلاء أفسدت قلوبهم الدسائس ولاخير فيهم.. لقد نشأت وتربيت على الولاء والواجب.. وخلال حياتي التي قاربت الآن على نهايتها، رأيت كثيراً، وتقلّب الحظ بي مراراً. ومع هذا ظلّت هاتان القيمتان كإيماني بديني لاتعدو عليهما قيمة أخرى. ما الذي وصل بنا إلى هنا.. إنّه جشع الأمراء، وتقلّب ولائهم. ولولا هذا الوضع لبادرنا تيمور قبل أن يعبر الفرات بدلاً من انتظاره كالنّساء في قلاعنا ومدننا. لا يا شهاب الدّين! القلوب الفاسدة إذا وجدت عند العدو مصلحة تحوّلت علينا، ولا أستطيع أن أخاطر بتسليحهم والاعتماد عليهم.

(يدخل الشيخ التاذلي وهو يحمل صندوقاً معدنياً).

التاذلي : أبشر أيها الأمير..

آزدار : أهلاً بالشيخ.

التاذلي : جاء بريديٌّ يخبر أن السلطان وعساكره وصلوا غزّة.

آزدار : إذن سيكونون بيننا خلال أيام. هل حُصِّن السور قرب الباب الصغير؟

التاذلي : إن رجالي يركَبون المكاحل هذه الساعة.

آزدار : سنقدّم للسلطان مدينة كالحصن المنيع.

التاذلي : تعبنا ونلنا أيّها الأمير.

آزدار : لا فضل لمن يؤدي واجبه.

التاذلي : ما أحلى تواضعك أيّها الأمير! في هذا الزمن المشوّش أداء الواجب مأثرة عظيمة. والآن لديّ هاجس شخصي أريدك أن تريحني منه. لا أحد يعلم كيف تدور الأحداث.. لديّ امرأة وابنة، وفي هذا الصندوق وفر عمري كلّه، سأودع الصندوق لديك، وإذا ما كتب الله لي الشهادة، فإنّي أرجو أن تصون امرأتي وابنتي كما تصون أهلك.

آزدار : هذه بسيطة. ولكن هل نعرف من يسبق الآخر يا شيخ؟

التاذلي : لم يتبدّ لي حبيب الله عبثاً. كان الضوء يومئ لي وهو يتناءى، وإذا قدّر الله سأتبع الإيماء، وأعبر الضفّة، وألتقي سيّد الأنام.

آزدار : خير يا شيخ.. إن شاء اللّه خير.. خذ الصندوق يا شهاب الدين.

(يتلاشى الضوء).

تفصيل (٧)

(في بيت دلامة التاجر. الضوء الشاحب. دلامة يختم صلاته وينهض. في الغرفة منقلٌ مليءٌ بالجمر. حين ينهض دلامة، تتراجع ابنة الحلبي على عجيزتها، وعلى وجهها علامات الخوف والاضطراب).

دلامة : وهل ينفعك الزحف وهذا الصدّ؟ تعالي.. **(تتراجع الفتاة أكثر)** إن الطقس بارد فاقتربي من النّار.. تعالي يا ريحانة.. إنّه ليس اسمك. ماذا أفعل؟ نسيت أن أساله عن اسمك. شغلتنا المقايضة، فلم يخطر لي أن أسأل أباك عن اسمك. لكن ماذا يهم! سمّيتك ريحانة، وإنّه اسم جميل يناسبك. اسم على مسمّى.. **(كلما اقترب منها تراجعت وازدادت تجمّعاً على نفسها)** اسمعي يا ريحانة.. لقد صبرت عليك أياماً عدة. قولي.. ألم أصبر عليك؟ وأنتِ لي.. أنت ملكي. لقد دفعت ثماني ذهبيّات رنانة. وضعتها الواحدة بعد الأخرى في يد أبيك. لم أحظَ عليك بالرخيص، وأبوك لم يفرط بك بالرخيص. كلانا عرف كيف يقدّرك، وكلانا عرف كيف يسعّرك. لا تستوحشي منّي.. سأدلّلك، وسأرضيك **(يحضنها، فتصدر أصواتاً غريبة ومروّعة. يفلتها بغضب)** لا.. إنّك تستغلين صبري ولطفي.. هل اشتريتك لكي أتفرّج عليك، وأسمع صراخك الأبله؟! لا أريد أن أكون قاسياً يا

ريحانة. ولكن سايريني قليلاً.. في النهاية ما من بنت تبقى في بيت أبيها. إذا أبديت لطفاً فسأعوض عليك الحزن والغربة. **(يتحسّس فخذيها)** أتعلمين حين ألمسك أشعر أن قواي تتجدّد. أبرمت صفقة رابحة، ولن أدعك تفسدينها. إن الأرض باردة. تعالي معي إلى السرير **(يحاول أن يحملها فتولول تلك الولولة الخرساء والمخيفة)** اخرسي.. يقشعر بدني من هذا العواء.. أنت أردتِ ذلك. لم ينفعِ الصبر، ولم تنفع الكلمة الحلوة، والذهب الذي دفعته لم يَغلُ عليَّ شيئاً حتّى الآن. أجل.. أريد أرباحي.. وهذه الليلة بالذات **(يتناول من درج في خزانة الحائط حبلاً ويأتي إليها. بعد تصويت ومقاومة شديدة يفلح في ربط يديها وتقييد ساقيها على قائمتي السرير. بعد أن ينجح في تقييدها، يفرك يديه وهو يلهث، تبدو الفتاة مغلوبة على أمرِها، عيناها جاحظتان وفمها يتقلّص بعنف وكأنّها تريد أن تقهر بكمها وتتكلّم).**

دلامة : **(تنفر الشهوة من عينيه، وهو يفرك يديه)** الآن سأجني أرباحي، وأقطف ثمارك الشهية **(يبدأ في تلمّس جسدها بشبق)** التفاح.. والرمّان.. وحلاوة الشهد **(ينبطح فوقها ومازالت تبذل جهداً خارقاً لكي تتكلّم)**

الفتاة : ات.. ات... ات.. ار.. ات.. ار.. تات.. **(وفي صيحة قوية)** تررري.. ت.... ري **(تتضح الحروف أكثر فأكثر، ثم تشكل هذه الكلمة التي تردّدها بصوت أقوى فأقوى)** تتري..

تتري.. تتري.

دلامة : **(غارقاً في شهوته)** سبحان من أنطقك!

الفتاة : تتري.. تتري.

(يتلاشى الضوء).

مؤرخ قديم : وفي عشرينه ربيع الثاني توجّه الفقراء إلى زقاق الدبّاغة، وكبسوا مكاناً تُعمل فيه الخمور فأراقوها وأمسكوا من يعملها.

وفي خمس وعشرينه وصل أهل بعلبك والزبداني وأخبروا بوصول تيمور إلى بعلبك. وجاء نائب حمص هارباً إلى دمشق فجفل النّاس وساء حالهم.

ودخل جمادى الأولى ودمشق مغطاة بالثلج. بدأ هطول الثلج بعد منتصف الليل بقليل واستمر حتى الضحى.

وفي الثاني منه وصلت طلائع جيش السلطان.

وفي السادس منه كان دخول السلطان الناصر فرج بن برقوق إلى دمشق. وكان لدخوله يوم مهول من كثرة صراخ النّاس وبكائهم والابتهال إلى الله بنصرته. وكان دخول الجيش مهيباً لولا كثرة الوحول التي لطّخت الفرسان والمشاة.

وطلع السلطان إلى قلعة دمشق وأقام بها إلى يوم السبت ثامنه.

وبدأ يقوى جريان الماء في بردى.

تفصيل (٨)

(غرفة الضيوف في بيت الشيخ برهان الدين التاذلي. في الغرفة ابن خلدون وتلميذه شرف الدين)

ابن خلدون : ماحالك؟ هل تبكي؟

شرف الدين : أشعر أني مبلبل الفؤاد. إنّها المرّة الأولى التي أرى فيها الثلج، سبحان الله ماأعجب منظره! ثم دخول العسكر وحماسة النّاس، وكرم الشيخ التاذلي، كل ذلك يبلبل فؤادي. لاتظنّ أنّي متعب بل إنّي متلهّف كي نبدأ العمل.

ابن خلدون : هذا البلبال طبيعي في سنّك وحداثتك. ولكن حين تريد أن تسجّل الوقائع ينبغي أن تسيطر على الانفعالات والعواطف، أو أن تلغيها تماماً.

شرف الدين : وهل يستطيع المرء أن يفعل؟

ابن خلدون : ينبغي أن يستطيع، لكيلا يجرفه الهوى، ويزوّر الوقائع. والآن.. دعنا نعمل قليلاً.

(يهيّئ شرف الدين القرطاس والدواة والريشة، ويتربّع على الأرض أمام منضدة صغيرة، ويتهيّأ للكتابة).

ابن خلدون : (يملي عليه) لما وصل الخبر إلى مصر بأن الأمير تمر ملك بلاد الروم.

شرف الدين : الأمير تمر يا سيّدي؟

ابن خلدون : نعم الأمير تمر.

شرف الدين : إنك تجلّه يا سيّدي. ألا تصفه بالكافر أو اللعين؟

ابن خلدون : **(بحدة)** لا.. لن أصفه بالكافر أو اللعين. إنّنا لانكتب إنشاء وهجاء، بل نكتب تاريخاً يا شرف، وكتابة التاريخ كما قلت لك منذ لحظة لا تستقيم مع الأهواء والتحيّزات. والتاريخ نفسه لايبالي بالشتائم والمفردات الأخلاقية الشائعة.

شرف الدين : عفوك يا سيّدي.. هذا درس لن أنساه.

ابن خلدون : لما وصل الخبر إلى مصر بأن الأمير تمر ملك بلاد الروم، وضرب سيواس ورجع إلى الشام، جمع السلطان فرج عساكره، وفتح ديوان العطاء، ونادى في الجند بالرحيل إلى الشام، وكنت أنا يومئذ معزولاً عن الوظيفة. **(طرق على الباب. يهبُّ شرف الدين لكي يفتح الباب).**

شرف الدين : من؟

سعاد : جئت كي أهيئ لسيّدي تغطيسة الماء الساخن.

(يفتح شرف الدين الباب، فتدخل سعاد وهي ابنة التاذلي الوحيدة. ترافقها خادمة تحمل طشتاً وإبريقاً ومناشف).

ابن خلدون : يا ابنتي لا أحتاج شيئاً.

سعاد : لاشيء يداوي مشاق السفر، والبرد مثل تغطيسة الماء الساخن.

ابن خلدون : غمرتمونا بفضل لا يوفّى.

سعاد : نزولك عندنا هو الشرف والفضل الذي لايُوفّى. هلا خلعت نعليك يا سيّدي؟

ابن خلدون : إذا كان لابدّ.. دعي الطشت والماء، ونحن نتدبّر الأمر.

سعاد : أوصاني أبي أن أدلّكَ قدميك بيدي. مثلك ياسيّدي لا يخدمه الخدم، بل ربّ البيت.

ابن خلدون : قدرني اللّه على مجازاة المعروف بمثله.

سعاد : أرخ قدميك يا سيدي.

(شرف الدين الذي يبدو مرتبكاً منذ دخول سعاد، يحاول أن يخرج من الغرفة).

سعاد : لا تخرج أيّها الشاب.
ابن خلدون : إنه تلميذي ورفيقي شرف الدين.
سعاد : لا تخرج يا شرف الدين. لقد ربّاني أبي، وأحسن تربيتي. الحشمة عندنا أصلب من أن يخدشها النظر أو الحديث.
ابن خلدون : لله درك يا ابنتي! والله إنّك لتليقين بأبيك.
سعاد : صبّي الماء يا طيرة. هل هو شديد السخونة؟
ابن خلدون : لا.. إنّه مناسب.
سعاد : تتمنّى أمي يا سيّدي لو تسعفها على أبي. إنّه يكلّف نفسه في هذه المحنة فوق ما يحتمل بدنه أو سنّه. ها أنت ترى.. لايبيت ليلة قبل أن يطلع إلى الأسوار، ويتفقّد المقاتلين، أما في النهار فإنّنا لانكاد نراه. إنه يجور على نفسه وكأنّه شاب في العشرين.
ابن خلدون : والله لاحظت أنّه لا يترفّق بنفسه.
سعاد : منذ بدأ هذا الأمر وهو فاتر المزاج، لايهنأ بطعام أو رقاد. إيّاك أن تظنّ أنّنا نريد أن نقعده عن الجهاد. لا.. الجهاد حق وواجب. ما نأمله هو أن تخفّف من اندفاعه بما يحمي صحّته.
ابن خلدون : سأحاول بإذن الله.
سعاد : ألن تكفينا العساكر السلطانية شر تيمور؟
ابن خلدون : هذا ما نرجوه جميعاً.
سعاد : كم كانت النّاس في انتظار قدوم السلطان! الأخبار تتضارب، والأراجيف تنتشر، والخلق في بلبلة عظيمة. لولا رجال مثل أبي ونائب القلعة، لخلت دمشق من أهلها.
ابن خلدون : أخبرني أبوك طرفاً مما قاسته المدينة.
سعاد : كاد اليأس أن يهلك الناس. ولهذا انفجرت المشاعر مجنونة يوم دخول السلطان. ألم يتردّد طويلاً قبل أن يعزم على المجيء؟
ابن خلدون : للسلاطين ظروف ومواقيت هم أدرى بها منّا.
سعاد : نسأل الله أن يحمينا وأن يكشف عنّا هذه الغمّة. ما كان

يليق أن نشغلك بهمومنا، ولكن أمّي قلقة.

ابن خلدون : طمئنيها.. سأبذل معه غاية جهدي.

سعاد : بارك الله فيك.. هل تحتاج شيئاً آخر يا سيدي؟

ابن خلدون : قوّاك الله وعافاك يا ابنتي.

(تخرج سعاد ومعها الخادمة)

ابن خلدون : هذه الفتاة مكرمة لأبيها. لايضاهي جميل قولها إلاّ رشاقة يديها. أراحتني هذه التغطيسة كأنّها البلسم.

شرف الدين : أدام الله عليك الراحة والعافية.

ابن خلدون : هل أنت محموم؟

شرف الدين : **(محرجاً من لمسات ابن خلدون)** لا.. لاشيء. ما سمعته عن حميّة أبيها زاد هياجي. في مثل سنّه يتقلّد عدّة القتال، ويقف على الأسوار!

ابن خلدون : والله إنه منغمس في أمر تيمور انغماس رجل فيه لوثة.

شرف الدين : هل تلومه يا سيّدي؟

ابن خلدون : بل أشاطر أهله الإشفاق عليه. وأخشى أن أحداً لن يستطيع أن يثنيه عمّا يفعل.

شرف الدين : وجود أمثاله يؤكّد الثقة بالنصر.

ابن خلدون : النصر!

شرف الدين : أتتنبأ لنا بالخسران يا سيّدي؟

ابن خلدون : لا أتنبأ بشيء. ما جئنا لنتنبّأ، بل لنعاين ونسجّل.. أين وصلنا؟

شرف الدين : وكنت أنا يومئذ معزولاً عن الوظيفة.

ابن خلدون : فاستدعاني الحاجب، وأرادني على السفر معه في ركاب السلطان، فتجافيت عن ذلك، ثم أظهر العزم عليَّ بلين القول. وجزيل الإنعام، فأصغيت، وسافرت معهم منتصف شهر المولد الكريم من سنة ٨٠٣ هجرية.

(يتلاشى الضوء).

تفصيل (٩)

(الوقت ليل.. في مكان ما على الأسوار.. أحمد ومروان)

أحمد : أين هم؟ لماذا يختبئون! إن دمي يغلي. عاهدت نفسي أن أذبح أوّل تتري ألتقيه، وأن أسلخ جلده كما تسلخ الدابّة.. هل أنت بردان؟ لماذا لاتتكلّم؟! من كان يصدّق أنّك ستتقن استعمال الحربة بهذه السرعة. **(يتاول من جيب داخلي زجاجة، ويتاول منها جرعة، ثم يمدّها إلى مروان)** طاوعني وخذ جرعة. إنّها أفضل ما يداوي البرد.

مروان : لا أريد.. هذا حرام وطيش.

أحمد : ما أشد تزمّتك؟! كيف تعيش معك أختي؟! إن رخصة الجندي واسعة، وكلّ شيء مباح إلاّ الجُبن والخيانة.. وأنا مقاتل. وسأصبح ذات يوم مقدّماً،أقود الكتائب من معركة إلى معركة ومن نصر إلى نصر. تخيّل بهجة الفاتح حين يدخل مدينة مستسلمة وراكعة، ومصيرها تحدّده كلمة واحدة منك. هذا السيف هو أنبل ما صنعه الإنسان. ومهنته هي أرفع المهن. حين تدور المعركة سيبرز معدني، وسأجعل نجمي يسطع. وأنت أيضاً يمكن أن يكون لك نصيب من المجد. لا أخفي عنك.. لقد أدهشتني. لم أتخيّل أبداً، أن يدَ الحرير الرخوة والناعمة يمكن أن تطوّع الحربة بهذه البراعة! أنت أيضاً ستكون لك حصة من المجد.

مروان : خذ حصّتي، فأنا لا أبحث عن المجد. وأعتقد أنّي لن أبقى على الأسوار هذه الليلة.

أحمد : هل تريد أن تهرب إلى بيتك؟! هل تترك الرجال لتختبئ في حضن زوجتك؟

مروان : اسمع.. لا تجعلنا نتحامق. اليوم روحي ضيّقة ولا أتحمّل لسانك الفلتان، وتشدّقك بالفارغ والمليان.

أحمد : ماذا تقول!. أأنت تقول لي ذلك؟! لولا أنّك.. لجعلتك غربالاً **(يحتسي جرعة من الزجاجة)** ماذا دهاك؟ لماذا اللفّ والدوران؟ قل إنّك بردان وخائف، وسنتدبّر الأمر. أما أن تهينني..

مروان : اخز الشيطان يا أحمد.. لم أقصد إهانتك، ولكن روحي ضيّقة. لم أعد أعرف موقعي. لم أعد أعرف كيف تدور الأحوال، أو ماذا ينبغي أن أفعل!

(يدخل الشيخ التاذلي ومعه مقاتل شاب).

التاذلي : حيّا الله الشباب.

أحمد : **(باندفاع وارتباك)** حيّاكم اللّه يا شيخي.

التاذلي : كيف الحال عندكم؟ ألا يرهقكم البرد؟

أحمد : من يبالي بالبرد؟! إنّنا على أتمّ حال يا شيخ، ولكن لماذا لايظهرون؟ لماذا لايخرجون من مخابئهم؟

التاذلي : لاتكن عجولاً.. سيظهرون، وستكون لنا معهم مطاولة رهيبة.

مروان : هناك شيء يثقل على صدري يا سيّدي.

التاذلي : قل ما لديك.

مروان : إني حائر يا سيّدي.. لقد بكينا فرحاً يوم وصلت العساكر السلطانية، وحسبنا أنّنا صرنا في أمان، ولكن رغم ترحيبنا وكرمنا.. أقسم لك يا سيّدي إن الجميع في السوق

يعاملونهم كالضيوف، ويراعونهم كما تُراعى العين الرمداء. إنّ أحداً لا يريد أن يربح منهم، بل ولا يبخل عليهم بهدية. ولكنهم يتصرّفون مع المدينة وكأنّها مباحة لهم، يستطيعون أن يأخذوا، ويغتصبوا ما يشاؤون. إني حائك على قدّ حالي، واليوم دخل عليّ ثلاثة عساكر، لو ترى كيف رحّبت بهم، وأردت أن أعانقهم، إنّهم عساكرنا التي جاءت لتحمينا، فكيف لا أرحّب بهم؟ سألوني عن أثواب الحرير وما لديّ، فأسرعت أفرش أمامهم شيئاً ممّا لديّ، ويشهد اللّه أنّي لم أكن أنوي أن أضيف على سعر الكلفة أيّ ربح، فهل تدري ماذا فعلوا يا شيخ؟! حملوا القماش وهمّوا بالخروج، سألتهم بكل لطف عن الثمن. فسلّوا سيوفهم في وجهي، وخرجوا، وهم يتضاحكون. ومثل هذا تكرّر مع سواي، وفي كل الأسواق. قل لي يا شيخ.. هل جاءوا ليحمونا أم لينبهونا!

التاذلي : في كل عسكر يوجد بعض الأوباش. لاتدع خسارة صغيرة تضعف روحك. نحن أمام معركة مصيرية ولا وقت للحسابات الصغيرة.

أحمد : **(يلكز مروان)** ما نحن فيه أهمّ من قطعة قماش يا مروان.

مروان : سأختنق إذا لم أتكلّم. رموا علينا ضريبة لطعامهم وعلف دوابهم، ولم نتذمّر. وسنسامح يا شيخ بالتجاوزات، وما يأخذونه عنوة. ولكن مقابل ذلك ألا ينبغي أن يعفونا من مشقّة القتال وحماية الأسوار!

التاذلي : **(محتداً)** أتريد أن يقاتلوا عنّا، ونحن جلوس في بيوتنا كالنسوان؟! لا.. نحن أمام خطر جسيم، ولن نفلح إلاّ إذا قاتلنا جميعاً بقلب واحد، وسيف واحد. لا.. ليس هذا وقت الحزازات والحسابات الصغيرة، اليوم ينبغي أن نعلو على

الصغائر، وأن نؤجّج في قلوبنا العزم والجسارة.

أحمد : لا يا سيّدي.. لاتخشَ شيئاً. سنكون كما تشاء في العزم والجسارة. ومروان لا يعني شيئاً.. كانت فشّة خلق لا أكثر.

التاذلي : هذا ما أتوقّعه منكم. والليلة بالذات ينبغي أن تكونوا في غاية الحذر. يخامرني إحساس بأن تيمور قد يباغت الأسوار كي يربك عساكرنا، ويلتفّ عليها. كونوا يقظين هذه الليلة، ولاتنسوا أن الحبيب المصطفى يساهركم. ويحنو عليكم. قولوا.. من يستطيع أن يغمض عينيه والحبيب المصطفى يساهره؟

أحمد : باطل يا سيّدي. لن يرفّ لنا جفن، ولن تغمض لنا عين.

التاذلي : بارك الله فيكم أيّها الشباب.

(يتركهم التاذلي ويمضي في جولته على الأسوار).

مروان : أكان ضرورياً أن تضعنا في هذا الموقف؟! أقمت الدنيا وأقعدتها من أجل خرقة من القماش.

أحمد : أتسمّيها خرقة؟! ولكن ماذا تعرف عن عملي؟ إني أضع روحي في كل منديل، أو قطعة كمخة أنسجها. قُلْ لي لماذا تعلّمت ضرب الرمح على كره منّي! أو لماذا أقف الآن على هذه الأسوار؟! ألم أفعل ذلك لحماية عملي ورزقي؟

أحمد : **(وهو يتناول جرعة من الزجاجة)** أهذا كل ما تفكّر فيه، نسيجك ومالك. اللّعنة على المال وعلى الرزق. إنّنا هنا من أجل الكرامة، من أجل العزّة. إنّنا هنا يا مروان من أجل البطولة. آه.. حين يكون المرء بطلاً، يتهاوى أمامه الأعداء، وتتساقط المدن **(يتركه مروان ويمشي)** أين تمضي؟ توقّف.. جاوبني.. ماذا دهاك؟

مروان : إنّني ذاهب إلى البيت.

أحمد : إلى البيت؟! وبعد كل ماقاله شيخنا التاذلي! إنّك تجعل

نفسك مضغة للأفواه.

مروان : لا أبالي ولم أعد أتحمّل.

أحمد : جبان.

مروان : قل ما تشاء.

أحمد : إنك عار على العائلة. إنّك عار علينا وعلى أختي.

مروان : العائلة صغيرة ويكفيها مجد واحد.

أحمد : إنك تقطع ما بيننا إذا ذهبت.

مروان : قد تغيّر رأيك حين تصحو.

احمد : **(شديد الغضب)** أتحسبني سكران؟!

مروان : **(وهو يغادر)** لست أدري.

أحمد : **(وهو يكرع من الزجاجة كرعات متلاحقة)** جبان.. أحمق.. حرمة.. نعم أنت كل هذا، وسيكون بيننا حساب.

(تتلاشى الإضاءة).

مؤرخ قديم : وفي العاشر من جمادى الأولى، حصلت وقعة بين القوات السلطانية ومعها عرب بني الغزاوي، وبين قوّات تيمور لنك. واستطاعت العساكر السلطانية أن تهزم جند تيمور. وقد أسروا منهم ونهبوا، وهرب الأمراء حاملين جراحهم.

وفي ثاني عشره، نودي بدمشق بأن من كان له على الأجناد والمستخبرين دين فلا يطالب به. وذهب للنّاس في ذلك مال كثير، ووقف حالهم زيادة على ما هم فيه.

وفي خامس عشره، اشتدّ البرد والزمتة وهطل ثلج خفيف مع مطر، وهذه ثاني مرّة تثلج فيها خلال جمادى الأولى.

والماء يعلو في بردى ويجري على قوّة.

تفصيل (١٠)

(بيت جمال الدين الشرائجي. ياسمين زوجة جمال الدين وإبراهيم الملكاوي. الضوء شاحب)

ياسمين : لا أصدق عيني. كيف تذكرتنا بعد هذا الغياب الطويل!

إبراهيم : علمت أمراً يجب أن أخبرك به.

ياسمين : إذن جئت رسولاً لا زائراً.

إبراهيم : **(متملّصاً وحرجاً)** علمت أن الشيخ جمال الدين أرسل من سجنه تظلّماً إلى السلطان، وأن العلماء أوغروا صدره، فرد التظّلم، وأمر بتشديد العقوبة.

ياسمين : ولماذا تبدي كل هذا الحزن؟ أليس هذا ما أراده لنفسه؟! ماأقساك يا إبراهيم الملكاوي!.. مرّ شهر وأنا أنتظر زيارة أو حتى إشارة. ماذا حدث؟ ماسبب هذا الجفاء، ولماذا تريد تعذيبي؟

إبراهيم : بل أريد تعذيب نفسي لا تعذيبك يا أم واصل! يشق عليَّ الحديث في هذا الموضوع.

ياسمين : هل كان الهوى لعباً.. وهل كان البوح والتودّد كذباً؟

إبراهيم : لا.. لم ألعب ولم أكذب. ولكنّي كرهت نفسي، ومازلت أكرهها. أعماني الهوى فجعلني أخون الصديق والمعلّم والعشرة. أتعلمين.. أنا الذي وشى بالشيخ جمال الدّين، وأنا الذي حرّض ابن النابلسي عليه. حين رأيته ذلك الصباح في

صحن الجامع الأموي، رافع الرأس لا يتراجع، ولا يلين، استصغرت شأني وكرهت نفسي، وقرّرت أن أخفي وجهي عن النّاس.

ياسمين : أآنت من وشى به؟

إبراهيم : نعم.. أنا الواشي الجبان. لقد فقدت احترامي لنفسي. وكنت أعلم أنّك لن تقبلي صَغَاري، ولن تستطيعي الامتناع عن احتقاري حين تعلمين إلى أيّ درك هويت.

ياسمين : أحقاً كان الهوى دافعك!.

إبراهيم : نعم.. هوى جامح، أعمى بصيرتي وأضلّ روحي. كانت زلّة فاحشة. وددت لو أخرج قلبي من صدري وأذبحه. قرّرت أن أخنق هواي، وأدفنه. ولم أكن أجرؤ على الاقتراب منك، كنت أخشى نفسي، وكنت أخشى احتقارك أيضاً.

ياسمين : ولم الاحتقار؟! وكيف أستطيع أن أحتقر شريكي في الوشاية!

إبراهيم : أآنت أيضاً؟ لا.. لا تقولي إنك..

ياسمين : لا.. لم أفعل شيئاً ولكن.. ألم يكن هوانا هو الذي فعل؟! ألم أرغب أن يغيب، وأن نكون معاً بلا حواجز؟! إنّي شريكتك يا إبراهيم، ولا أستطيع أن أحتقرك أبداً. من يحب لا يعرف الاحتقار أبداً.

إبراهيم : هذا كرم عظيم يا أم واصل، ولكن يبقى أمري مع نفسي. وسيمرّ وقت طويل قبل أن أتطهّر من خيانتي. الآن.. وأنا أقف هنا في بيته أشعر بالخزي. أشعر أنّه كبير، وأنّني حشرة صغيرة في طين الغدر والأهواء.

ياسمين : ولمَ المداورة؟ لماذا لاتقول بصراحة، ما عدت أحبّك؟

إبراهيم : ليتني استطعت أن أدفن هذا الحبّ في صدري! وأقول لك.. إنّي أتعذّب أكثر ممّا تظنّين. لن أستردّ احترامي لنفسي إلاّ إذا

قهرت هذا الهوى، وغسلت تلك الدناءة. كم مرّة فكرت أن أثير فضيحة في الجامع، لكي يرسلوني إلى السجن مثله، فأعترف له وأطلب غفرانه.

ياسمين : إني لا أفهم.. كل هذه الوساوس من أجل زلّة صغيرة يرتكبها أي عاشق! إنّنا لم نرتكب جريمة. وكان العلماء سيكشفون أمره عاجلاً أم آجلاً. أنت تعرف أنّه لم يكن متحفّظاً أو حريصاً في أقواله وأفكاره. كان يبدو وكأنه يريد المعركة ويستعجلها. إنكِ تؤذي نفسك بلا مبرّر. ليتك فكّرت في أمري كما فكّرت فيه! لم يخطر لك أن تسأل عن حالي، وما يجري لي خلال هجرك وبعدك.

إبراهيم : ألا تريدين أن تفهميني! لقد تحطّم شيء في داخلي. أشعر أني ملوّث. أنّي صغير. وأفضّل ألف مرّة أن يتحوّل حبّي إلى جرح متقيّح في صدري، على أن أستمرئ ضعتي واحتقاري لنفسي.

ياسمين : إني بحاجة إليك.. خلال شهر وأنا أقلب المشاريع في رأسي. تخيّلت أنّي أحصل على الطلاق، وتخيّلت أني أزَفّ لك.

إبراهيم : أرجوكِ.. أرجوكِ..

ياسمين : ألم يكن هذا ما نحلم به؟! ألم يكن هذا ما يطوف في خيالنا، ونحن نتبادل النظرات واللواعج والكلمات المخطوفة!

إبراهيم : رؤيته ذلك الصباح حطمت كياني. إني لا أستحق ما كان له. إنّي لاأستطيع.

ياسمين : لم أكن أحبّه، أبي أجبرني. وهو لم يكن يبالي بي. أنت لا تأخذ مايملكه.

إبراهيم : مهما قلت فأنا لا أستطيع. إنه هنا.. إنه بيننا الآن، وسيظلّ بيننا كلّما نظرت إليك، كلّما اقتربت منك، كلّما لمستك.. سأجده كالشبح بيننا.

ياسمين : ولكن هل هو سحر؟ هل هو عفريت؟ إنّك تتصرّف مثل طفل. إنّي بحاجة إليك يا إبراهيم.

إبراهيم : كل ما لديّ هو لك. سأكون خادماً لك في كل ما تطلبين. ولكن.. لن يكون شيء بيننا، قبل أن أتطهّر، وأستردّ احترامي لنفسي.

ياسمين : أهذه خاتمة الحكاية؟

إبراهيم : لو تعلمين كم أنزف!

ياسمين : وأنا.. تظن أني لا أنزف؟

إبراهيم : أقول لك الحق، أقول لك كلمة من القلب قبل أن أنصرف.. لا يستحقّ رجل مثلي أن تنزفي عليه. نحن الآن في محنة، ولو احتجت أيّ شيء، فإيّاك أن تتردّدي في طلبي.

ياسمين : وهل بقيت لي حاجة؟ أتستعجل الذهاب؟! اذهب إذن..

(يخرج إبراهيم مرتبكاً تتداعى ياسمين على الأرض والدموع تتساقط من عينيها، تتلاشى الإضاءة).

مؤرخ قديم : وفي ثماني عشرة من جمادى الأولى جاءت طلائع تيمورلنك من تحت الثلج، وكانوا نحو ألف فارس فبرزت إليهم طلائع العساكر السلطانية نحواً من مائة فارس، فأوقعوا مع عسكر تيمور لنك واقعة قويّة، فانكسرت طلائع تيمور وولّوا مدبرين.

وفي تاسع عشره، حصلت وقعة كبيرة بين العسكرين واندحر عسكر السلطان حتى قبّة يلبغا. لكن السلطان ومماليكه ثبتوا، وكسروهم، وظلّوا يطاردونهم حتى حال اللّيل بين المتقاتلين. وقُتِلَ في ذلك اليوم خلائق من العوام والفرسان ما لايعلم عددهم إلا اللّه.

ومازال البرد شديداً والأرض موحلة من الثلوج والأمطار.

تفصيل (١١)

(يتردّد صوته في الظلمة عبر شوارع المدينة)

شعبان : بردان يمّه.. جوعان يمّه.. هاتي حضنك.. هاتي بزك.. يمّه.. دفّيني يمّه.. اسقيني يمّه.. بردان.. جوعان.. يمّه..

(قاعة في القلعة، السلطان فرج بن برقوق، حاجب السلطان. آزدار. الشيخ التاذلي. ابن خلدون)

الحاجب : دعوناكم وأنتم صفوة الخاصة، كي نطلعكم على أمر خطير.

التاذلي : **(بتهوّر)** الله أكبر.. جاء نصر الله والفتح. **(ينظر إليه الحاجب بقسوة، فيطأطئ التاذلي رأسه، ويحسّ بالخجل).**

الحاجب : ما سأقوله سرّ خطير. أطبقوا صدوركم عليه. ومن أذاعه فرّط في حق سلطانه.

آزدار : معاذ الله..

التاذلي : كيف نفرّط بسرّ سلطاني!

ابن خلدون : السرّ في بئر إن شاء الله.

الحاجب : قرّرنا أن نرحل الليلة إلى مصر.

(يتبادل الجميع نظرات ذاهلة).

آزدار : والحرب!.

التاذلي : يرحل السلطان.. كأنّي لم أفهم!

الحاجب : جاءتنا أخبار مقلقة، تستدعي رحيلنا بلا إبطاء.

التاذلي : وهل هناك خبر أشدّ قلقاً من حربنا مع هذا الكافر؟

الحاجب : نعم.. أن يغتصب العرشَ طامع.

السلطان : **(بلهجة صبيانية)** اذبحوا الجركسي. واحفظوا لي عرشي.

الحاجب : في الجوّ فتنة. تسحّب أمراء تحت ستر الليل، وعادوا إلى مصر كي يولّوا لاشين الجركسي.

التاذلي : ما أهميّة هذه الفتنة الصغيرة أمام الطامة التي تهدّد الأمّة بأسرها؟ أنترك الخطر الجسيم لنتدارك الخطر الهزيل؟

السلطان : **(يهزّ كتف التاذلي بغضب)** أتعتبر ضياع عرشي خطراً هزيلاً!

آزدار : **(بلهجة مهدّئة)** إنّما يقصد الشيخ أنّ خطر تيمور مؤكّد، وهو أمامنا، أما خطر الجركسي فقد يكون دسيسة أو مبالغة.

الحاجب : وإن صحّ الخبر.. يتداعى البناء وراءنا ولايبقى لنا شيء.

التاذلي : **(يباعد المشخّص بينه وبين الدور)** في تلك الليلة.. ليلة العشرين من جمادى الأولى، سنة ٨٠٣ هجرية، لم يستشر السلطان وحاجبه، حين قرّر الفرار، أحداً من الخاصّة أو العامّة. ولكن حين شاع الخبر، فار التاذلي غضباً، وتمنّى أن يواجه السلطان، وأن يقول رأيه. **(يعود المشخّص إلى دوره)** يا مولاي.. في هذا الوقت الذي تخوض فيه معركة الأمّة، لن يجد المتآمر مؤيّداً أو نصيراً. حتى الحثالة من الرعاع ستمقت عمله، وتخيّب سعيه.

الحاجب : تعوّد الناس أن ينتصروا للغالب.

التاذلي : اليوم يختلف الأمر.. ما يهمّ النّاس جميعاً هو حرب التتار، لاحرب العرش.

الحاجب : لانقلّل من خطر التتار، لكن كيف نخوض الحرب إذا تداعى البناء وراءنا.

التاذلي : يا مولاي.. البناء كلّه هنا. في هذه الرقعة التي تفصل بيننا وبين جحافل العدوّ، سيتقرّر مصير العرش والسلطنة والأمّة.

الحاجب : إذا نجح الجركسيّ، فلن تكون الحرب هنا.. بل هناك في قلعة

القاهرة.

التاذلي : إذا واجهنا هذه المحنة، وكسفنا شمس هذا اللّعين، فإنّ الأمّة بمصرها وشامها ستلعن المتآمرين، وترفع للسلطان العرش الذي يليق بالظافرين.. عرش مسبوك من الحبّ والولاء.

السلطان : لا أستطيع الجلوس على الحبّ والولاء. أريد عرشي.

الحاجب : مافائدة أن ندحر تيمور إذا خسرنا المُلك؟

التاذلي : وما فائدة أن تربح المُلك إذا ضاعت المملكة!

الحاجب : المملكة يمكن أن تُستَرَدّ، أمّا المُلك فهيهات أن يستردّه من يخسره.. وعلى كلٍّ، الوقت يستحثّنا، ولم نجتمع بكم للجدل والمماحكة.

التاذلي : مرّة، حاصر العدوّ أحد السلاطين في قلعته، فنصحه قاضيه بالفرار، فأجابه السلطان «ليس هذا برأي مصيب، أنجو أنا، وأترك رعيّتي ليوم عصيب!» ونحن... أتتركنا يا مولاي أكلة لتيمور! ما شرط السلطان إن لم يكن حماية العباد والبلاد!

الحاجب : **(بدأ يحتدّ ويغضب)** شَرْطُ السلطان هو أن يوطّد سلطانه. علِّمه يا ابن خلدون لماذا يحارب السلاطين؟ ولماذا يسالمون؟ لماذا يقطعون ولماذا يصلون؟

ابن خلدون : فصاحة مولاي أبلغ من تعثّر عبارتي.

التاذلي : **(صائحاً)** أتسمّي الخذلان فصاحة يا ابن خلدون!.

ابن خلدون : السلطان أدرى منّا بما هو واجب وصواب.

التاذلي : إنّ سلطاناً لا يحمي بلاده وعباده يفقد شرعيّته.

الحاجب : أتخوض في شرعية السلطان؟! واللّه لو كان الوقت غير هذا الوقت لوسطتك بسيفي. ومن أنت أيّها العجوز المخرّف حتى تقرّر شرعية السلاطين؟

التاذلي : لو أن هذا السلطان يتمتّع بالشرعية لما أصابكم الهلع، لأنّ طامعاً خسيساً تآمر عليه. لو أنّ هذا السلطان يتمتّع بالشرعيّة

لما ترك بلاده نهباً للعدوّ، وفرّ في الليل شوقاً إلى قصره وكرسيه. أما مَنْ أنا.! فإنّي مجرّد واحدٍ من علماء هذه الأمة، نذرت نفسي للشهادة، ولا أبالي أن تأتيني الشهادة على يد سلطانٍ جائر، خائر، أو على يد عدوّ غاصب، كافر. إني مجرّد عالم، وإنّي أخلعك أيّها السلطان.

الحاجب : أيّها النائب.. خذه ووسّطه. هذه المماحكة ضيّعت لنا وقتاً ثميناً. أفضينا لكم بما لدينا، فاحفظوا السرّ وتدبّروا الأمر بعدنا. **(يخرج السلطان والحاجب، يلحق بهما ابن خلدون محاولاً الكلام مع الحاجب).**

التاذلي : **(إلى آزدار)** أتوسطني أيّها الأمير، أم تترك التتار يفعلون؟

آزدار : والآن.. كيف نواجه هذه المحنة؟

التاذلي : كما كنّا نفعل قبل مجيء السلطان، وإذا لم تشأ أن تنفّذ الأمر السلطاني، فسأذهب إلى موقعي على الأسوار.

آزدار : إذهب يا شيخ.. إذهب.

(تتلاشى الإضاءة).

مؤرخ قديم : فلما كانت آخر ليلة الجمعة، حادي عشرين جمادى الأولى، ركب الأمراء، وأخذوا السلطان الملك الناصر فرج في فرقة من الخيالة، وساروا به من على عقبة دمر يريدون الديار المصرية، وتركوا العساكر والرعية من المسلمين غنماً بلا راع. وأمّا بقيّة أمراء مصر وأعيانها من القضاة وغيرهم، لما علموا بخروج السلطان من دمشق، خرجوا إثره في طوائف يريدون اللحاق بالسلطان، فأخذ غالبهم التتار وسلبوهم، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً.

وكان أهل دمشق في الليل والنهار ملازمين الإقامة على الأسوار. وفي تلك الليلة صعد النّاس إلى مكان عالٍ، وإذا بأماكن مخيّم السلطان قد خلت من النار، ولم يعرف أحد ما الخبر، وأصبحوا وقد خلت الديار، ولم يبق في قبة يلبغا نافخ نار، وقال الناس: السلطان هرب، فانقصم ظهر الناس وتفاقمت الهموم، وتخبطت الأوامر والأمور.

تفصيل (١٢)

(على الأسوار.. حركة مضطربة، شباب يروحون ويجيئون، استعدادات قتالية. بعد قليل يظهر الشيخ التاذلي ويحتشد حوله جمع من النّاس، نرى بينهم أحمد ومروان، يخطب التاذلي فيهم).

التاذلي : أيّها النّاس.. أنتم اليوم بلا سلطان. هرب السلطان، وتركنا نواجه وحدنا هذا الكافر الجبّار تيمور لنك، وأعرف أن مجيئه وفراره على هذا النحو قد بلبل الخواطر وفتّ عزائم الرّجال. وأقول لكم الحق.. لو كنّا غير ما نحن عليه لكان لنا سلطان جدير بالسلطنة. سلطان يعرف كيف يقود الأمّة في شدّتها، وكيف يصون أرضها وناسها، وليس الظرف مناسباً كي أستفيض في شرح الأسباب التي أدّت بنا إلى هذا المآل، ولكنني أريد أن أخلص ذمّتي، وأن أعترف لكم بما اقترفته نفسي من الهوان، وماتتحمّله من فساد الأحوال. في زمن ليس ببعيد كان العلماء والفقهاء في مقدّمة أهل الحلّ والعقد، في كل ما يتوالى على الأمّة من عوارض وأحداث. وكان القادة والأمراء يبالغون في إجلال القضاة والفقهاء، ويرون أنّ بهم عرفوا دين الإسلام، وفي بركتهم يعيشون، وحَسْبُ أعظمهم قدراً أن يقبّل يد الفقيه والقاضي. ولكن الدُّنيا زينة وفتنة. وقد أغرتنا نحن العلماء زينة هذه الدنيا، فتهافتنا عليها، ورحنا نتوسّل الأسباب لكي نصل إلى المناصب. لم نتورّع عن الخُطّة وهدر

الكرامة، ولم نترّفع عن الرشوة وشراء العلامة، وأصبح يكيد بعضنا إلى بعض. وكلّنا نضطرب في هذه الدُّنيا وفتنتها ناسين علمنا، وناسين الأمانة الموكولة إلينا. وبدلاً من أن نكون طليعة الأمّة، وكلمة الحقّ التي تقوّم الأحوال، وتردع السلاطين، نزلنا من أهل الدولة منزلة سوء. وتكلّم فينا أقلّ المماليك شأناً، وأرذل الباعة بكل قبيح، عقوبة من الله لنا، لامتهاننا العلم، وخضوعنا في طلب الدُّنيا. وأنا نفسي أيّها النّاس، مرَّ عليّ حين لم أرعَ فيه مُقامي، ولم أحمل أمانتي. رشوت وتزلّفت لكي أحصل على منصب قاضي القضاة، ولكي أتقرّب من أهل السلطان والحظوة. وأني أستغفر الله على ماتقدّم وما تأخّر من ذنب. ولعل الرؤية التي زراني فيها النبيّ صلاة الله عليه وسلامه هي بشارة وعلامة. بشارة على الغفران وعلامة على الواجب الذي يتعيّن عليّ أن أتمّه. واجب الشهادة، والإسراع خفيفاً لملاقاة ربّي. أيّها النّاس.. قال لي الرسول الكريم «لن يكون الموت إلا كعبور جدول من الماء العذب». وهو وسط الخضرة، وسط الضوء والخضرة ينتظرنا على الضفّة الأخرى، لكي يمسح على جراحنا، ويبارك جهادنا. أيّها النّاس.. الآن وأنا أتأهب للشهادة، يمكنني أن أستردّ قَدري، وأن أؤدي الأمانة الملقاة على كاهلي، وأعلن، أنا القاضي المالكي، عزل السلطان، وتلك الطغمة من الأمراء، الذين ينتهكون الحقوق، ويتسلّطون على العباد. أيّها النّاس.. سأنوي الآن، وسأصلّي على نفسي صلاة الغائب. ومن شاء منكم فليتبعني. وليس أمامنا والله إلاّ المصابرة والقتال.

(ترتفع أصوات.. اللّه أكبر.. يبدأ التاذلي صلاته وخلفه كلّ الناس إلا قليلهم، وتتلاشى الإضاءة).

مؤرّخ قديم : ولما أصبح أهل دمشق وقد فقدوا السلطان والأمراء، غَلّقوا أبواب دمشق، وركبوا أسوار البلد، ونادوا بالجهاد، وزحف عليهم تيمور بعساكره، فقاتله أهل دمشق من أعلى السور أشدّ قتال، وردّوهم عن السور والخندق، وأسروا منهم جماعة، وأخذوا من خيولهم عدّة كبيرة، وقتلوا منهم نحو الألف.

وفي هذا اليوم، هبّت ريح باردة، تلزق على الوجه وتجعل الأنف كقطعة البلّور. وارتفعت المياه في بردى وصارت تجري على قوّة، وتجرف الأغصان والجذوع المتكسّرة.

تفصيل (١٣)

أصوات : **(في البداية تتناهى بعيدة، ثم تتوضّح أكثر، ثم تعلو وتتصاعد من حناجر كثيرة)** مات التاذلي.. مات التاذلي..

شعبان : **(يختلط صوته الذي يزداد عمقاً وانجراحاً مع الأصوات التي تنعى التاذلي)** يمّه.. هاتي بزّك يمّه.. عطشان يمّه.. أعطني حليباً يمّه.. هاتي بزّك يمّه.

المنمنمة الثانية

ولي الدين عبد الرحمن ابن خلدون
أو محنة العلم

تفصيل (١)

(بيت الشيخ التاذلي. شرف الدين، تلميذ ابن خلدون يجمع أمتعتهما، لكي ينقلها من البيت. تأتي سعاد وخلفها طيرة)

شرف الدين : (مرتبكاً) لا أعرف كيف أجد الكلمات. إني أشاطركم اللوعة مشاطرة الأهل.. ولا أدري هل ينبغي أن نبكيه أم نفرح له! لا تعرفين مقدار إعجابي به. وكم أثّر بنا المثل الذي قدّمه!

سعاد : كان يسعى إلى هذا الختام، وناله، ولعلّ مقامه الآن خير من مقامه بيننا. هل حضر سيّدي ابن خلدون الجنازة؟

شرف الدين : كان شديد التأثر والحزن، ولكن وعكة منعته من حضور الجنازة. يا الله! لم أرَ في حياتي جنازة احتشد فيها هذا الجمع من النّاس. كان النعش كأنه يطير فوق الأكفّ. وكانت الجموع تتفجّر انفعالاً وحماسة، وكأنّهم يقولون سنواصل دربك حتى نلحق بك، أو تزول هذه الغمّة.

سعاد : هل تركت سيّدك المتوّعك وسرت في الجنازة؟

شرف الدين :هو الذي شجّعني.. ماكنت أستطيع ألا أحضر الجنازة.

سعاد : كم كان أبي يُجِلّ سيّدك. لقد استبشر خيراً بمجيئه، واعتبره يداً وسنداً لنا في هذه المحنة. هل سمعت عن خطبته يا شرف الدين؟

شرف الدين : سمعت عنها! بل حفظتها وسجلتها. الناس جميعاً يتناقلونها،

ويحفظونها.

سعاد : يبدو أنه أسرف في القسوة على نفسه.

شرف الدين : أتسمّين هذا السموّ قسوة؟! نعم.. لقد سما على نفسه، وتجاوز صغائر هذه الدنيا، وختم حياته ختاماً طاهراً مجيداً. حقاً.. ما أسعد من يقتدى به، وينال حسن ختامه!

سعاد : لا أدري.. أعتقد أنه كان يرتّب المجريات بدأب وعناد، كي يفوز بهذا الختام. منذ تناهت أخبار تيمور، ومنذ رأى تلك الرؤيا، بدا إنساناً آخر، إنساناً انكشفت أمامه طريق جديدة، ولم يعد يستطيع التوقّف حتى يصل إلى غايتها. كان يبدو وكأن نداءً عميقاً ومتسلطاً يناديه. منذ فترة وقبل أن تأتوا، عرفت أنّه يمضي كما لو كان مسيّراً بقوّة خارقة، لكي يلبّي النداء الذي يناديه.

شرف الدين : لن ينال تيمور بغيته إذا عرف أهل الشام كيف يقتدون به.

سعاد : هل تعتقد أنّهم لن يسلموا المدينة؟

شرف الدين : (مستنكراً) ستكون كارثة إذا سلّموا المدينة.

سعاد : إنّي أعرف كيف يفكر علماء وأعيان المدينة. أعتقد أيّها المصري أنّ الكارثة قريبة، ولعلّها تقع غداً أو بعد غد.. نحن أيضاً جمعنا أمتعتنا، وحزمنا ما هو ضروري لنا.. اليوم سنترك البيت، وننتقل إلى القلعة. تلك كانت وصية أبي لنا، وتلك كانت وصيّته لأمير القلعة. أين ستقيم مع سيّدك؟

شرف الدين : في المدرسة العادلية.

سعاد : إنها مكان لائق.

شرف الدين : لن ينسينا أيّ مكان دفء وحفاوة هذا البيت.

سعاد : إنك طيّب أيّها الشاب. وددت، أنا وأمي، لو بادَرَنا سيّدك بكلمة عزاء.. ولكن هذا حمق نساء. عالم كابن خلدون هو دائماً معذور، ولا يجوز أن نبخس قدره بالملامة والعتاب.

هل وضبّت كل شيء، ألا تريد مساعدة؟

شرف الدين : **(مرتبكاً)** لا.. لقد انتهيت. **(متردداً)** لا أعرف كيف تجري الأمور.. ولكن إذا اقتضت الظروف.. هل تعتقدين أن الانضمام إلى القلعة ممكن؟

سعاد : بماذا تفكر أيّها الشاب؟

شرف الدين : لا أدري.. هو خاطر جال في ذهني بعد حديثك عن العلماء والأعيان.. **(متردّداً)** وربّما بعدما علمت أنّكم ستذهبون إلى القلعة.

سعاد : عندما يحين الوقت سندبّر الأمر. حيّ معلّمك وبلّغه سلامنا. أشكر تعاطفك يا شرف الدّين، ولعلّنا نلتقي في ظرف أفضل.

شرف الدين : **(مندفعاً)** أرجو فعلاً.. حقاً.. أرجو أن نلتقي.

(تمضي سعاد ومعها خادمتها، يقف شرف الدين ساهماً للحظات، ثم يصحو من شروده، ويبدأ برفع الأمتعة تأهباً للخروج، وتتلاشى الإضاءة).

مؤرخ قديم : وفي ٢٢ جمادى الأولى وبينما أهل دمشق في أشدّ ما يكون من القتال والاجتهاد في تحصين بلدهم، قدم عليهم رجلان من أصحاب تيمور من تحت السور وصاحا بعد.. «الأمير يريد الصلح، فابعثوا رجلاً عاقلاً حتى يحدّثه الأمير في ذلك».

ومازال البرد والزمتة على حالهما من الشدّة.

تفصيل (٢)

(العلماء.. ابن مفلح، وابن النابلسي، وابن العزّ ومعهم التاجر دلامة).

ابن مفلح : **(متمسكناً)** يا رب.. ولكن كيف يُعرَف الصواب؟!

ابن النابلسي : حقّاً.. هذا هو السؤال. كيف يُمتحَن الصواب؟!

ابن مفلح : طوال الليل وأنا أمخض هذا الأمر، وما حصلت على زبدة أو جواب. وخطر لي أن أخرج، وأقول للناس ليس لديّ إلاّ حيرتي، ولا أدري في هذا الظرف كيف يُعرَف الصواب!

دلامة : ليس الظرف مناسباً للمداورة ومداهنة العامة. كلّنا نعرف ما هو الصواب في حالتنا.

ابن العز : صحيح.. ينبغي أن نكون صلاباً في موقفنا، وقساة مع الناس في حملهم على رأينا.

ابن مفلح : هل يعني ذلك أنكم متفقون على أن تسليم المدينة هو الصواب؟

دلامة : لا تتلاعب يا ابن مفلح.. أنت أكثرنا يقيناً بأن هذا هو الصواب. كم مرّة تحدّثنا في الأمرّ إذا لم نسلّم الآن المدينة بالأمان فكم نستطيع الصمود! نعم.. إن أسوارنا قوية، وبعض الناس ولاسيما أولئك الأحداث يبدون اندفاعاً وحماسة للقتال. ولكن إذا استطاعت الأسوار أن تصمد أمام تيمور فترة من الزمن، كيف سيكون حالنا هنا في المدينة! ألن

تختلط الأمور، وتضيع المراتب، ويصبح الحال فوضى يهون أمامها الاحتلال... سيصير كل حامل سيف رأساً، وسيكون علينا أن نغذّي النّاس جميعاً من أرزاقنا وأموالنا.. وبعد أن تكون قد ضاعت الأموال والمقامات، يظلّ علينا أن نواجه غضب تيمور الذي لن يفلت منه حيّ أو جماد.

ابن العز : ولاتنسَ يا ابن مفلح أن أرزاقك كلّها خارج السور، وأننا إذا لم نسلم بالأمان، لن تستطيع حماية كل شيء من أرزاقك.

ابن مفلح : أعرف.. أعرف.. ولكني خائف من النّاس.. الدماء فائرة والعقول تلبّستها الأوهام بعد صمود يوم الجمعة ومقتل ذلك المخرّف.

ابن النابلسي : حظي هذا المخرّف بجنازة يحسده عليها السلاطين.

ابن العز : كان كثير الحركة، طلق اللسان، والناس تؤخذ بالأوهام وتنميق الكلام.. ولكن هذا لايعني أن البلد خلت من العقلاء، وأن علينا أن نسلّم مصيرنا وشرفنا لتهوّر بعض الأحداث. إذا رأينا أن التسليم هو الصواب وأعتقد أنه الصواب، فيجب أن نتّخذ القرار. وأن نواجه النّاس بحزم وإقناع.

ابن النابلسي : هل تعتقدون أن رأي ابن خلدون سيوافق رأينا؟

ابن العز : أعتقد أنه سيوافقنا الرأي. وعلى كل، بعد قليل سنعرف رأيه على اليقين.

دلامة : ما يهمّ الآن، هو أن نكوّن رأياً واحداً وألاّ نبدي لجلجة أو تردّداً. علينا أن نتّخذ القرار، وأن نتعهّد بالقسم على المضيّ به. وأبدأ بنفسي.. إنّي مع تسليم المدينة بالأمان، وأرشح ابن مفلح الذي يحسن الأعجمية، كي يقوم بالسفارة، ويتقدّم وفدنا إلى تيمور.

ابن العز : وهذا هو رأيي.. على أن نكون جميعاً في الوفد.

ابن النابلسي : وأن نتقاسم هذا الأمر، خيره وشرّه.

ابن مفلح : على بركة الله.

ابن العز : فلنقرأ الفاتحة.

ابن النابلسي : **(يباعد المشخّص بينه وبين الشخصية)** يصف مؤرّخ قديم، لعلّه الحافظ بن الحجي، شمس الدين النابلسي فيقول: ولم يكن بالمرضي في شهادته ولا قضائه، وباع كثيراً من الأوقاف بدمشق. قيل إنه ما أبيع في الإسلام من الأوقاف ما أبيع أيّامه وقلّما وقع منها شيء صحيح في الباطن. وفتح على النّاس باباً لا ينسدّ أبداً. ولما جاء تيمور لنك، دخل معهم في أمور منكرة، ونُسبت إليه أشياء قبيحة من السعي في أذى النّاس وأخذ أموالهم.

ابن العز : **(يباعد المشخّص بينه وبين الدور)** أما ابن العزّ فيصفه مؤرّخ قديم قائلاً: اشتغل بالقضاء فترة. ولما كانت فتنة تيمور، دخل معهم في المنكرات، وولي القضاء من قبلهم، ولُقّب قاضي المملكة، واستخلف بقيّة القضاة من تحت يده. وخطب بالجامع باسم تيمور ودخل في المظالم وبالغ في ذلك، فكرهه الناس ومقتوه.

ابن مفلح : **(يباعد المشّخص بينه وبين دوره)** وقال المؤرخ عن ابن مفلح: ألّف عدّة كتب، منها كتاب الملائكة وشرح المقنع ومختصر ابن الحاجب، وَعَدِمَ غالبَها في فتنة تيمور. انتهت إليه في آخر عمره مشيخة الحنابلة، ثم ولّى القضاء مستقلاً في رجب سنة ٨٠١ هجرية. ولمّا جاء تيمور، خرج إليه ومعه جماعة وجري منه لأهل دمشق أمور، وتفاقم الأمر وحصل عليه تشويش من تيمور فعذب حتى أعطب.

دلامة : **(يباعد المشخص بينه وبين الدور)** أما دلامة التاجر فقد أخطأ المؤرّخ حين أهمله، وجهل قدره، فلم يعرّفه.

(تتلاشى الإضاءة).

تفصيل (٣)

(قاعة في المدرسة العادلية، ابن خلدون وشرف الدين يرتّب القاعة، ويضع مقاعد بينما يدوّن ابن خلدون بعض الأفكار).

شرف الدين : صار المكان لائقاً لاستقبال العلماء والأعيان.

ابن خلدون : **(يتريّث فترة قبل أن يرفع رأسه)** العلماء والأعيان يقبلون عليّ لا على المكان.

شرف الدين : أعرف ذلك يا سيّدي. من يبالي بالمكان حين يكون في حضرة الشهاب اللامع سيّدي عبد الرحمن؟ لاشكّ أنّهم جاؤوا كي يضعوا الأمر بين يديك. وهل هناك رجل سواك يمكن أن توضع هذه الأمانة بين يديه؟

ابن خلدون : أية أمانة؟

شرف الدين : أن تهدّئ روع الناس وتحملهم على الجهاد.

ابن خلدون : ألاّ تعلّم يا شرف الدين أن صبغة الدين حالت، وأن عصبية العرب زالت، وأن الجهاد لم يعد ممكناً. لا.. لا يتحدّث عن الجهاد هذه الأيام إلّا رجل يضرب في الوهم، أو يريد أن يلبّس على الناس.

شرف الدين : لا أتحدث عن جهاد الصحابة والتابعين وأيام الفتوحات، وإنّما أعني مدافعة هذا الكافر تيمور، وأهل الشام يبدون عزماً على القتال، وهم لايحتاجون إلاّ عالماً مثلك يشدّ أزرهم، ويضيء قلوبهم بأنوار تجاربه وحكمته.

ابن خلدون : ماذا تخرّف يا شرف الدين؟ أتريدني أن أتحوّل إلى القتال! هل جئت إلى دمشق مقاتلاً أم عالماً؟ هل جئت كي أحمل السيف أم كي أسجّل الأحداث وأستصفي زبدتها وعبرتها؟ حذرتك مراراً أن الهوى والانفعال يفسدان البصيرة، ولكن يبدو أن هياج التاذلي وهلاكه غلّبا لديك انفعالية الدهماء على حكمة العلماء.

شرف الدين : عفوك يا سيّدي.. لا أنكر أني مأخوذ قليلاً بما فعله التاذلي. آه لو سمعت ابنته.. كان يجلّك إجلاله للأولياء، وكان يعتبر قدومك عوناً من السماء.

ابن خلدون : كان يريد أن يعلو تحت نجمي، وأن يستقوي بجاهي.

شرف الدين : أيمكن يا سيدي أن تزدريه رغم ما قدّمه من تفانٍ وكرم؟!

ابن خلدون : (باحتقار) لم يكن التاذلي إلا موسوساً وأنا أنفر من الموسوسين.

شرف الدين : ماذا تعني يا سيّدي بالموسوسين؟

ابن خلدون : هم هؤلاء الذي يأخذون أنفسهم بإقامة الحق ومواجهة الغزاة ولايعرفون ما يحتاجون إليه من العصبية، ولا يشعرون بمغبة أمرهم ومآل أحوالهم. إنهم كالمجانين أو الملبّسين، يطلبون بمثل هذه الدعوة رئاسة امتلأت بها جوانحهم، وعجزوا عن التوصّل إليها بشيء من أسبابها العاديّة، فيحسبون أن هذه الدعوات يمكن أن لا تصل بهم إلاّ إلى الهلاك وسوء العاقبة. وما يحتاج إليه هؤلاء الموسوسون هو المداواة إن كانوا من أهل الجنون وإما التنكيل بالقتل أو الضرب إن أحدثوا هرجاً، وإما إذاعة السخرية منهم وعدّهم من جملة الكاذبين.

شرف الدين : آه يا سيّدي.. أكاد لا أصدّق.. أيمكن أن تصف رجلاً مات وهو يقاتل العدوّ بالمجنون أو الكاذب؟

ابن خلدون : أليس مجنوناً أو كاذبا هذا الذي يتصدّى لأمر ليس له،

ولايملك أسباب القيام به!. من ندبه للقتال؟

شرف الدين : حميّته وحبه لأهله وبلده.

ابن خلدون : لا.. لم يكن حب الأهل والبلد إلّا دافعاً ظاهرياً، وما كان يدفعه على الحقيقة، إنما هو الرغبة في التّشوّف على النّاس ومباهاتهم.

شرف الدين : أيدفع حياته ثمناً للتشوّف والمباهاة؟

ابن خلدون : هؤلاء الموسوسون عميان البصيرة. وهم بالغفلة يرمون بأنفسهم إلى التهلكة. على أية عصبية كان يعتمد التاذلي فيما زعمه من القيام بالجهاد؟

شرف الدين : على عصبية أهل الشام وحماستهم للقتال. لقد تحدّثت مع الكثيرين أثناء الجنازة ولمست بنفسي عزمهم على الصمود والمقاومة.

ابن خلدون : **(متأففاً)** هذه ليست عصبية يا شرف الدين. تشدُّقُ الأحداث وهياج العامة والدهماء ليس من العصبية في شيء. والنّاس هنا أهل مدنية وحضارة، بلغ فيهم الترف غايته، وسقطت منهم العصبية بالجملة، يلبّسون على أنفسهم في الشارة والزيّ وحمل السيف والرمح، يموهون بها، وهم في الأكثر أجبن من النسوان في الحماية والمدافعة.

شرف الدين : هل أفهم يا سيّدي أنّك قرّرت أن تشير عليهم بالاستسلام؟

ابن خلدون : **(متضايقاً)** لم أقرر شيئاً بعد. عندما يأتون سنقلّب الرأي، ونمعن النظر.

شرف الدين : أخشى يا سيّدي...

ابن خلدون : **(مقاطعاً)** إذا لم تسيطر على فورة عواطفك فلن تحوز ملكة العالم وشروطه.

شرف الدين : إنّي أقدّر نصيحتك يا سيّدي ولكن هناك ما يحيّرني قليلاً.. لاشكّ أن من شروط العالم، أن يكون محايداً ودقيقاً حين

يسجّل أحداث عصره ووقائعه ولكن.. لا أدري.. إني أتساءل فقط يا سيّدي.. هل يجوز أن يسلك العالم إزاء المحن التي تصيب قومه وبلاده مسلك الحياد؟ وهل هذا من شروط العلم ونزاهته؟

ابن خلدون : هذا سؤال يفصح عن نباهة. وما أحبه فيك هو نباهتك وحياؤك، يبدو أنهم وصلوا. لن أنسى سؤالك، العشيّة سنبادر للإجابة. اذهب الآن، ورحّب بالعلماء والأعيان.

(تتلاشى الإضاءة).

مؤرخ قديم : وفي ٢٢ من جمادى الأولى، اجتمع الأعيان والعلماء مع ابن خلدون في المدرسة العادلية، وقد وافق فكرهم فكره، واتفقوا على التسليم، وإرسال ابن مفلح إلى تيمور، ليتداول معه شرط الأمان، ولكن أمير القلعة أنكر عليهم هذا الاتفاق، وأغلظ لهم في القول فلم يعبّره الأعيان، وقالوا له: أنت تحكم على قلعتك ونحن نحكم على مدينتنا. وكان النّاس في غاية التشويش.

وفي الغداة، أرسلوا ابن مفلح ومعه شخصان من الأعيان. أرخوهم من أعلى السور بسرياق، وكانوا يرفعون المصاحف فتلقّاهم رجال تيمور، ومضوا بهم إليه.

وفي هذا اليوم، سمعت أن أتانا ولدت كراً صغيراً له رأس إنسان وليس له ذنْب. وهذه من الغرائب والعلامات.

وانحبس المطر مع شدّة الزمتة. وبردى يجري بين السور وعسكر تيمور، والماء يغدق فيه غدقاً.

تفصيل (٤)

(الديوان في قلعة دمشق. آزدار ونائبه شهاب الدين)

شهاب الدين : والآن ما العمل أيها الأمير؟

آزدار : مقرف! أعيان وعلماء ينوحون كالنّساء! لاشك أنهم بيّتوا الأمر منذ وقت طويل. لم يكن اجتماع كلمتهم ابن ساعته. لم نقلّب أمراً ولا رأياً. كانوا متّفقين على رأي واحد، وتركوا ابن خلدون يقدّمه ويزيّنه. طراز من العلماء فاسد، جبان، متهالك!

شهاب الدين : هذا كلّه نعرفه. والغضب لن يبدّل قرارهم، وابن مفلح يتحرّق للخروج إلى تيمور، فما العمل أيّها الأمير؟

آزدار : لا أدري.. سأحرق المدينة على علمائها وأعيانها وعامتها.

شهاب الدين : هدئ غضبك أيها الأمير.. لن تحرق المدينة، ولن تطاوعك يدك على مسّها بالأذى.

آزدار : أعرف.. أعرف.. ولكن الغضب يخنقني.

شهاب الدين : أيّها الأمير.. هذا وقت التروّي لا الغضب. حشرونا في مأزق، وعلينا أن نجد حلاً قبل فوات الأوان.

آزدار : هل لديك اقتراح معيّن؟

شهاب الدين : الواقع لايوجد إلاّ سبيل واحد للخروج من المأزق الذي حشرونا فيه.

آزدار : وماذا ترى؟

شهاب الدين : أن نسيطر على المدينة؟! نوزّع رجالنا على النقاط الحساسة فوق الأسوار في المدينة، ونضمّ إلينا الشباب الذين يريدون المقاومة والقتال. أمّا العلماء والأعياء فندفعهم إلى سجن القلعة، أو نجبرهم على ملازمة بيوتهم، والامتناع عن الاتصال بالنّاس. هذا هو التدبير الوحيد الذي يحفظ المدينة، ويمنع عزل القلعة والاستفراد بها.

آزدار : وهل تعتقد أن رجالنا يكفون لأداء هذه المهمة؟! إنّها خطّة بارعة ولكن أخطارها هي الأخرى جسيمة.

شهاب الدين : أنا أعرف المدينة جيّداً، وأعرف أن معظم أهلها يريدون المقاومة لا الاستسلام.

آزدار : ومع هذا فإن الأهواء متضاربة والأفكار مشوّشة، والمسُّ بالعلماء والأعيان قد يشعل لنا فتنة تحرقنا جميعاً.

شهاب الدين : ربّما واجهنا حوادث متفرّقة ولكن لن تنشب فتنة.

آزدار : لن أفرّق رجالي الموثوقين، وأبعثرهم في فوضى المدينة. إنها مخاطرة جسيمة العواقب. افرض أن بعض الأحياء قاومت، أو أن الأعيان حرّضوا الأتباع، وجنّدوا الزعّار والسفهاء، ورجالنا عددهم قليل، والمدينة تتوزعهم وتفكّ اللحمة بينهم. لا.. هذه مخاطرة وخيمة.

شهاب الدين : ما نحن فيه يستحق المجازفة أيّها الأمير.

آزدار : لايمكن أن أجازف بالقلعة، وهي حصننا، وهنا سنرفع شرفنا، ونؤدّي واجبنا. ثم مالنا ولهذه المدينة المتقّلبة؟ مدينة، أعيانها وعلماؤها خائرون، ويتسابقون كي يلحسوا مؤخرة العدو.

شهاب الدين : المدينة هي ظهرنا، وما فيها من السلاح والرجال سيضاعف صمودنا.

آزدار : وإن ضاع رجالنا ولم نكسب المدينة؟ لا.. لن أجازف بالقلعة.

شهاب الدين : أخشى أن نندم بعد فوات الأوان.

آزدار : ربّما كتب علينا أن تكون هذه القلعة هي الحصن الأخير الذي يقاوم تيمور ويقول له لا..

شهاب الدين : ونترك المدينة تستسلم، وتفتح أبوابها للتتار؟!

آزدار : سنهدّدهم ونمنعهم من فتح الأبواب، ولكن موقعنا هو هذه القلعة، هنا سنصمد، وهنا سنقاتل إلى ماشاء الله.

شهاب الدين : طيّب. هل نضمّ إلى القلعة المتطوعين من مقاتلي المدينة؟

آزدار : لا أمانع.. ولكن عليك أن تحسب حساب المؤونة. لا أريد أن يفتقد الرجال الطعام والشراب وقت الحصار. تنتظرنا أيام مشهودة يا شهاب الدين.

شهاب الدين : نعم... ستكون أياماً مشهودة.

(تتلاشى الإضاءة)

تفصيل (٥)

مؤرخ قديم : **(مع كلام المؤرّخ يظهر مشهد إيمائي، ويمكن استخدام خيال الظلّ أيضاً لعدد من الرجال في صحن الجامع الأموي، يتجادلون ويتصايحون، يعلو الهرج تدريجيّاً حتى يتحوّل شجاراً واشتباكات تتخلّلها الصيحات الغاضبة)** وعاد ابن مفلح في نهاره هذا، منشرح الصدر والأسارير، وأخبر أن تيمور أكرم وفادته وتلطّف معه، وقال هذه بلدة الأنبياء والصحابة.

صوت أحمد : لانسلّم.. وكلام هذا الأعرج الدجّال كالضراط على البلاط.

مؤرّخ قديم : وقد أعتقها لرسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ صدقة عنّي وعن أولادي.

صوت ابن النابلسي : عساكره تغطي الأرض فما حاجته للكذب أو الخداع؟

صوت مروان : كم أمَّن وكم خان!

مؤرخ قديم : ولم يبقَ لي الآن غرض إلاّ العود، ولكن لابدّ من أخذ عادتي من الطّقزات. والطقزات على عادة ملوك التتار هي تسع من كل صنف من أصناف الهدايا، من المأكولات والمشروبات والدواب والملابس والتحف وسوى ذلك من الهدايا.

صوت ابن مفلح : ومن منّا يفضل الإمام ابن تيمية.. ألم يخرج ابن تيمية إلى سلطان المغول غازان ويستخلص منه الأمان لدمشق الشام؟!

مؤرّخ قديم : وشرح ابن مفلح عن تيمور محاسن كثير، وجعل يخذل أهل الشام عن قتاله، ويرغبهم في طاعته.

صوت رجل : في المدينة ميرة تكفيها سنوات، وأسوارها حصينة، ويمكن أن تصمد هي الأخرى سنوات، فلم الاستسلام؟.

صوت ابن العز : هذا كلام جهّال.

مؤرّخ قديم : وصار أهل البلد فرقتين، فرقة ترى ما رآه ابن مفلح، وفرقة ترى محاربته، ولم تسمع قول ابن مفلح.

صوت أحمد : أنتَ مَرَة..

صوت (محمّد بن أبي الطيّب): ألي تقول هذا يا بعرة الجمل؟!

(يتشابكان)

مؤرّخ قديم : وكان أكثر أهل البلد يرون مخالفة ابن مفلح، ولم يرجعوا عن قتال تيمور وهم الجم الغفير من أهل دمشق.

أصوات متداخلة : لا نسلِّم.

- بل نسلّم.
- إذا ضاعت الشام. ضاعت كل البلاد. وغداً يكبس القاهرة، ويتسلطن على عرش العاصمة.
- سنقاتل.
- الأمان يحمينا.
- لن نرمي سيوفنا.

صوت ابن مفلح : من استشار الجاهل ضلّ، ومن جهل موضع قدمه زلّ.

- لا نسلِّم.
- بل نسلّم.

(يتشابك النّاس في عراك، ترفع فيه السيوف).

صوت ابن مفلح : **(جهورياً وآمراً)** نحن العلماء والأعيان قرّرنا التسليم بالأمان. لا مقاومة ولاقتال، ومن خالف ذلك قُتِل وهُدِر دمه.

صوت شعبان : يمّه.. يمّه.. هاتي برّك يمّه.. يمّه.

(تتلاشى الإضاءة ببطء، فيما يستمر العراك)

تفصيل (٦)

(منزل ابن خلدون في المدرسة العادلية. السرج واهن الضوء، يحاول ابن خلدون إصلاحه فلا يفلح، يبدو متوتّراً، يذرع المكان جيئة وذهاباً، يدخل شرف الدين).

ابن خلدون : ما الخبر؟

شرف الدين : الناس يتشاجرون في الجامع الأموي، والغالبيّة ليست مع التسليم.

ابن خلدون : هذا خبر مقلق. أخشى أن يتوهّم تيمور أن لي يداً في هذا الانقسام. يجب أن نبادر إلى الخروج من المدينة مع السحر. انظر هذا السراج، ماذا دهاه!

(يعالج شرف الدين السراج، ويصلحه).

شرف الدين : ألن يخرج سيّدي مع الوفد؟

ابن خلدون : لا.. لا أريد أن أخرج مع الوفد. أريد أن أمثُل بين يدي تيمور وحدي. لقد سأل ابن مفلح عنّي، وأخاف أن تساوره الظنون حولي، إن تفاقمت الفتنة بين الناس.

شرف الدين : لم يفت الأوان بعد يا سيّدي.. نائب القلعة لن يسلّم، ومعظم النّاس يطلبون القتال.

ابن خلدون : أين الهدايا التي حضّرناها!. تعال نرتّبها.

(يحمل شرف الدين من زاوية الغرفة بعض الأشياء، ويتناولها ابن خلدون).

ابن خلدون : هذا هو المصحف.. (**يضعه على رأسه**) وهذه هي السجّادة.. كانت لقية ثمينة، ولم ندفع فيها غالياً. هل تظنّ أنّهم خدعونا بالسعر؟

شرف الدين : ألم ترَ شدّة توقيره يا سيّدي!. لو قبلت لقدّمها هدية لك.

ابن خلدون : نعم.. إنّ الناس هنا يعرفون مقامات الرجال أكثر من القاهرة. وهذه نسخة من قصيدة البردة في مدح النبيّ للبوصيري مع شرحي عليها، هدية العالم يجب أن تنمّ عن الذوق والكياسة. ألا تنمّ هديّتنا عن الذوق والكياسة؟

شرف الدين : وهل يعرف الأجلاف الذوق والكياسة؟!

ابن خلدون : لاتنسَ أنه ملك عظيم وحوله بطانة وافرة من أهل الخبرة والذكاء. لن نضع علب الحلاوة مع المصحف والسجّادة والقصيدة. هات كيسين من الحرير. في واحد علب الحلاوة، وفي الثاني المصحف والسجّادة والقصيدة.

شرف الدين : ألا يمكن أن يغيّر سيّدي رأيه؟

ابن خلدون : أغيّر رأيي؟! بل أريد أن أقصّ جناح الليل كي يبكر السحر في البزوغ. سألتني يا شرف الدين عن الحياد، وأقول لك إن ابن خلدون الإنسان ليس محايداً كما تظنّ، لكنه واقعي، ويعرف قوانين الأحداث ومجراها. جئت إلى الدُّنيا في زمن الاضمحلال. وكلّما كبرت وأمعنت النظر، ما وجدت حولي إلا آثار الاضمحلال وعوارضه. انقلبت أحوال المغرب الذي نحن شاهدوه وتبدّلت بالجملة، ونزل بالعمران شرقاً وغرباً في منتصف المائة الثامنة الطاعون الجارف الذي تحيَّف الأمم، وذهب بأهل الجيل، وطوى كثيراً من محاسن العمران ومحاها. جاء الطاعون للدوّل على حين هرمها، فقلّص من ظلالها.. وأوهن من سلطانها، وانتفض عمران الأرض بانتفاض البشر، فخربت الأمصار والمصانع، ودرست السبل

والمعالم، وضعفت الدول والقبائل. نعم.. كيفما تلفّت حولي، لم أكن أجد إلاّ الاضمحلال.. وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض، فبادر بالإجابة، والله وارث الأرض ومن عليها. وإذا تبدّلت الأحوال جملة، فكأنما تبدّل الخلق من أصله، وتحوّل العالم بأسره، وكأنه خلق جديد وعالم محدث، فاحتاج لهذا العهد من يدوّن أحوال الخليقة وأجيالها والعوائد والنحل التي تبدّلت لأهلها وهذا ما أخذت نفسي به، وما توفّرت على إنجازه. أما الغضب والتحسّر والمكابرة فقد تركتها للذاهلين والحمقى من غمار العامّة.

شرف الدين : **(يباعد بينه وبين دوره)** لاشك أن تلميذ ابن خلدون، إذا وجد، كان يحاوره عن زمانه وزماننا أيضاً، ولهذا غضاضة إن ساعدناه على صياغة شكوكه، وبلورة أفكاره.

ابن خلدون : نعم.. أن أقفو أثر مؤرّخ كبير كالمسعودي لزمن الاضمحلال هذا.. تلك هي بغيتي، وذاك هو شاغلي.

شرف الدين : أليس من مهمّة العالم يا سيّدي أن ينير للناس ضوءا، أو أن يهديهم إلى سبيل يخرج بهم من الانحطاط؟!

ابن خلدون : لا.. ليست تلك مهمّة العالم.

شرف الدين : ومامهمّة العالم إذن؟

ابن خلدون : مهمّة العالم أن يحلّل الواقع كما هو، وأن يكشف كيفيّات الأحداث وأسبابها العميقة.

شرف الدين : كان العلماء دائماً يحلمون، ويبحثون عن السبل التي يعالجون بها علل عصرهم، ويضعون للناس تصوّرات عن مجتمعات فاضلة تليق بالإنسان والمجتمع الإنساني. ألم يضع الفارابي كتاب (آراء أهل المدينة الفاضلة)؟ ألم يؤلّف المعلّم أرسطوا كتابين في الأخلاق والسياسة، وسواهم كثيرون؟

ابن خلدون : هؤلاء لم يعرفوا علم العمران. ولم ينكشف لهم ما يطرأ عليه من العوارض الذاتية، والتغيّرات الحتمية. هؤلاء لم يفهموا أن كل حادث من الحوادث ذاتاً كان أو فعلاً لا بدّ له من طبيعة تخصّه في ذاته، وفيما يعرض له من أحواله. إنّ للعمران قوانين ثابتة ومطردة كتلك التي تحكم الفصول في تعاقبها، واللّيل والنهار في اختلافهما. وهذا الجهل هو الذي جعلهم يتوهّمون أن أحوال الدول يمكن تغييرها بالوعظ والإرشاد، أو يمكن إقامتها على التمنّي والأحلام. إن كتب الفارابي وأرسطو والماوردي وسواهم هي كتب في السياسة المدنية والسياسة المدنية هي في العلوم أقل شأناً من علم العمران. هذا العلم يا شرف الدين مستنبط النشأة، ألهمني الله إليه إلهاماً، ولم يسبقني إليه أحد من الغابرين. ولو أضاء الله أنوار هذا العلم للفارابي وأرسطو وأفلاطون لأعرضوا عمّا كتبوه، أو بدّلوه بالكلية.

شرف الدين : أنا أعرف يا سيّدي أنك جئت بعلم لم يسبقك إليه أحد، ولكن سأصارحك القول.. كلّما قرأت فصلاً من فصول المقدّمة شعرت بالانقباض وأدركني اليأس. إذا كانت ظواهر العمران لاتحدث باختيار، وإنّما بضرورة الوجود وترتيبه، فماذا يبقى للنّاس؟! لايبقى لهم إلاّ الخمول والجريان مع هذه الدورة الجبّارة، التي تدور بهم من البزوغ إلى التلاشي والموت! ماذا يستطيعون أن يفعلوا حين تشرف دولتهم على الهرم؟ لاشيء.. لم تترك لهم إلاّ لبس الأكفان، والاستعداد للتفسّخ والانحلال.

ابن خلدون : ينتظرون ظهور المهدي، أو يرصدون نذر القيامة وميقاتها، حتى تقهرهم، وتسيطر عليهم عصبية جديدة أو غازية.

شرف الدين : كما هو حالنا الآن مع تيمور!

ابن خلدون : نعم.

شرف الدين : هذا علم محبط يا سيدي.

ابن خلدون : المعرفة على الحقيقة، لا تبالي بالإحباط. ومهما كان وقعها على النفس ثقيلاً، فإنّها أفضل من الزيف والدجل.

شرف الدين : وماذا يسعنا أن نفعل بهذه المعرفة؟

ابن خلدون : يمكن أن نفهم لماذا تداعى أمر السلطان وأفل نجمه. ولماذا يعلو شأن تيمور ويتألّق نجمه.

شرف الدين : سيّدي.. لماذا لاتقيم وزناً لجموع النّاس، ومايمكن أن يفعلوه إذا وحّدت بينهم فكرة ومصلحة، وانعقد لديهم عزم وإرادة؟

ابن خلدون : في غياب العصبية والشوكة، لاتنفع الفكرة والمصلحة. والعزم الذي يبدونه ليس إلاّ وهماً يخدعون أنفسهم به.

شرف الدين : ألا يمكن أن تغني الفكرة والمصلحة عن العصبية؟!

ابن خلدون : لا.. هذه كالدين تردف العصبية، لكنها لاتقوم مقامها، ولا تغني عنها. إن صلة الدم والنسب مع إرادة الاستيلاء والغلب، هي أصل الدول، ومحرّك الجماعات والأمم.

شرف الدين : بَعُدنا عن البداوة.. ولعلّ من طبيعة الأحوال، أن نفتّش عن عصبية جديدة. عصبية قوامها وحدة الأمّة ومصلحة العباد ومدافعة الطامعين والغزاة.

ابن خلدون : إن العصبية لاتصطنع، ولا تختلق، بل تصدر صدوراً طبيعياً. والعصبية في هذه البلاد وهنت ولم يبقَ لها شوكة.

شرف الدين : لو أنّ سيّدي يثق بالشعب، ويوليه ما أولى الملوك من النظر والاهتمام!

ابن خلدون : في هذا الغروب الشامل قد تكون قبسة الضوء الوحيدة هي وصف هذا الغروب والشهادة عليه..

شرف الدين : حين تلّم بنا الخطوب، ويهدّد الخطر وجود الأمّة، من المحزن

ألاّ يكون لدى العالِم ما يفعله إلاّ وصف المحنة!

ابن خلدون : حين تلّم بنا الخطوب ويهدّد الخطر وجود الأمّة، من المحزن ألاّ يكون لدى الأمّة من تستنجد به إلاّ علماء بلا قوّة أو شوكة.

شرف الدين : لماذا لم تسافر مع السلطان يا سيّدي؟

ابن خلدون : لا أريد أن أتورّط في فتنة بين سلطان وأمرائه. **(تغيب عيناه في تأمّل شارد)** وهناك سبب آخر.. طوال حياتي، وأنا أعاشر وأخدم أمراء وسلاطين ناقصين، لا تتوفّر لهم من شروط الإمارة أو الملك إلا أقلّها.. والآن، تتوافر الفرصة كي ألتقي الملك على الطبيعة، فهل أضيّعها؟! ولكن.. إذا ساورته الظنون والريب، فقد هلكت.

شرف الدين : هل أنت خائف يا سيّدي؟

ابن خلدون : هل أنا خائف؟! في زمن الغروب والهرج، حظٌّ كبير أن ينجو المرء بنفسه وعلمه. **(يتمطّى)** أرهقني هذا الجدل. لنسترح قليلاً، فأمامنا نهار حافل وعصيب.

(تتلاشى الإضاءة ببطء فيما يرقد ابن خلدون في فراشه).

تفصيل (٧)

(في بيت مروان. يدخل مروان حاملاً على ظهره صرّة كبيرة، تخفّ زوجته وتساعده على وضع الصرّة على الأرض).

مروان : هذا كل ما لدينا من الحرير. أين تقترحين أن نخبّئه؟

خديجة : استرح الآن قليلاً. ألا تريد أن تفطر؟

مروان : لا شهيّة لديّ.. في صدري ضيق وانحباس. منذ الفجر يتراءى لي غراب أسود يحوم فوق رأسي. لعلّي رأيته في المنام. لا أدري.. لكنه يتراءى لي، ويلازمني منذ الفجر.

خديجة : استهد بالله يا مروان.

مروان : لا إله إلا اللّه.. لا أخفي عليك. إني متطيّر، ولا أعتقد أننا سنعبر هذه المحنة.

خديجة : لا يا مروان.. إنك تخيفني. لا يجوز أن تفقد الأمل. اللّه رحيم ولن يتخلّى عنّا. هو الذي يكسر، وهو الذي يجبر أيضاً.. هل تذكّرت حلاوة طرابلس؟

مروان : نعم.. واشتريت لك أوقيتين منها.

خديجة : (بفرح) ماذا تنتظر؟ بدأ لعابي يسيل.

(يخرج من أحد جيوبه لفّة الحلاوة، فتلقفها خديجة بلهفة، وتلتهم بنهم غريب قطعاً منها).

مروان : أتشتهين الحلاوة إلى هذا الحدّ؟

خديجة : وما حيلتي يا ابن عمّي؟ لقد أخفيت عنك سراً صغيراً.

مروان : أيّ سرّ؟.
خديجة : إنّه الوحم. أتعرف ما هو الوحم؟
مروان : هل أنت حامل؟
خديجة : قل إن شاء الله.. ألا تأكل قطعة من الحلاوة؟
مروان : نعم سآكل. ألا نستحق البشارة! كم تاقت نفسي إلى هذه اللحظة. ولكن من يجرؤ على الفرح الآن؟!
خديجة : يجب أن نفرح. وسترى.. إن إيماني بالله كبير، ولن يمسّنا الأذى.
مروان : يا ربّ، وأنت القدير على كلّ شيء. نسألك اللطف والرحمة. **(يقترب منها ويتحسّس بطنها)** إن مشاعر غريبة تفيض في صدري. أريد أن أصرخ. أن أخبر الناس. لا.. لا.. لن نخبر أحداً. سيكون هذا سرّنا، والأمل الذي يقوّي عزيمتنا، لماذا لم تشعلي ناراً؟
خديجة : قلتُ أمسك يدي في إيقاد الحطب. أخشى أن ينفذ ما لدينا قبل أن تستطيع تدبير كيس آخر.
مروان : سندبّر. لا تخافي، صحتك الآن أهم شيء في الوجود، ولدينا وفر يكفينا، في هذه الصرّة، قطع من الحرير ثمينة جداً. أتعلمين؟ لقد ثأرت من ذلّ طفولتي. ينبغي أن تعرفي شيئاً عن هذا الذلّ، وضعني أبي حين كنت طفلاً عند عمّي كي يستعملني، ويعلمني الحياكة. كان يعرّيني، ويرفع رجلي إلى رأسي، كي يلفّ الخيوط على جسدي ويزردها. كان قاسياً، لايعبأ بي إن بردت أو تعبت. وكنت دائماً أشعر بالذلّ من عريي والطريقة التي يستخدم بها جسدي الصغير. ومنذ تلك الأيام قررت أن أصبح معلّم الصنعة. شهد لي معلّم الحريريين بأنّي ماهر وفنّان، وأن بعض القطع التي أحيكها، تحف رائعة. نعم.. صرت معلّماً، وتزوّجتك، وها

أنا أنتظر طفلي الأوّل. آه.. تبدّد ضيقي. أشعلي النار، وأنا سأفك الصرّة، وأبحث لها عن مخبأ.

(يفكّ مروان الصرّة، بينما تحمل خديجة قطع الحطب، وترتّبها في الموقد. طرق على الباب، يدخل أحمد مهتاجاً).

أحمد : أكاد أجنّ.. يقيناً سأفقد عقلي.. خرج الكلاب يا مروان، خرجوا محمّلين بالهوان، وبكل ما يخطر على البال من الهدايا. لا.. لم يخرجوا، لم يسمح لهم أمير القلعة بالخروج من باب النصر، فتلدّوا كاللصوص من فوق السور.. أكاد أجنّ.

مروان : اهدأ يا أحمد.. كنّا نعرف أن القرار اتُّخذ، وأنّهم سيخرجون.

أحمد : وسيدخل التتار إلى دمشق.

مروان : ماذا نفعل؟ غلبنا الأعيان والعلماء.

أحمد : هؤلاء العكاريت. هؤلاء الخونة.. هؤلاء السفلة.

مروان : اهدأ يا أحمد. ولا تضيّع علينا فرحتنا الصغيرة.

أحمد : أتتحدّث عن الفرح.. وهل هناك فرح؟!

مروان : إنّ خديجة حامل.. وسأصبح أباً.

أحمد : حقاً؟! هذا وقته. وماذا ستسمّي الولد؟ تيمور..

خديجة : لا يا أحمد..

مروان : ولماذا تريد دائماً مغاضبتي؟

أحمد : لأنّك كالنّساء العجائز، لاتفكّر إلاّ في شؤونك الصغيرة. حريرك.. وبيتك وسلامتك.. والآن طفلك..

مروان : وبماذا تريدني أن أفكّر؟ أهذا كلام يا خديجة؟

خديجة : فعلاً.. وعلام تلومه يا أحمد؟

أحمد : **(وهو يخرج زجاجة من جيبه)** ألا تدركان! إن التتار سيدخلون إلى دمشق. حين أتصوّر ذلك، أشعر بالجنون.

مروان : اسمع يا أحمد.. لقد بذلنا جهدنا. ألم نبذل جهدنا؟ ولكنّا غُلبنا، وعلينا الآن أن نهدأ. أن نتوخّى الحذر، ونتدرّب على الصبر وقوّة الاحتمال.

أحمد : **(وهو يكرع من الزجاجة)** أي أن نتدرّب على الخنوع والذل.

مروان : **(صارماً)** لا أريد أن تشرب هذا المنكر في بيتي.

أحمد : ماذا تعني! هل تطردني؟

مروان : إني خائف عليك.. ينبغي أن تهدأ، وهذا المنكر لن يساعدك على شيء.

أحمد : لا يهدأ إلاّ عديم الإحساس. كيف أتحمّل ما يجري إذا لم أشرب!

مروان : **(محتداً)** قلت لا أريد أن تشرب هذا المنكر في بيتي. إذا كنت غاضباً إلى هذا الحدّ، ولا تستطيع أن تتحمّل ما يجري، فاذهب إلى القلعة، وقاتل مع أهلها.

أحمد : آأنت أيّها الخَرِع من يطلب منّي القتال؟ تعال نذهب معاً إن كنت رجلاً.

خديجة : لا.. زوّدتها يا أحمد. مروان يريد مصلحتك.

مروان : اخزِ الشيطان.. عار علينا أن نتشاجر.

أحمد : هل يروقني الشجار مع واحد مثلك؟ ولدتَ صغيراً وستبقى صغيراً.

مروان : اخرج من بيتي.

أحمد : وأنت يا خديجة ماذا تقولين؟

خديجة : تجاوزتَ الحدّ يا أحمد.. أنا أيضاً، لا أريد أن يدخل هذا المنكر إلى بيتي.

أحمد : ليكن.. سأدعكما تتمرّغان في الذلّ والبحث عن الأمان. التتار يدخلون المدينة، وصهري العزيز يخفي الحرير، ويتدرّب على لحس الطيز.

(يخرج أحمد، بينما تبادل مروان وخديجة نظرات مشدوهة، تقترب خديجة، وتمسح بحركة حنونة على شعره).

خديجة : أرجوك لا تزعل.. إنّه دائماً متهوّر، ودمه فائر.

مروان : لم أزعل.. ولكنّي خائف عليه. سيهلك نفسه إذا استمرّ على هذا النحو. ساعديني. أين نخبّئ الحرير؟

خديجة : سنوزّعه في أكثر من مكان.

مروان : سيكون ذلك أفضل.

(طرق على الباب)

صوت امرأة : يا جارة.. ألديك حنّاء؟

خديجة : **(من وراء الباب)** نعم.. لديّ قليل منها. أتريدين؟

صوت المرأة : أأنت وحدك في البيت؟

خديجة : لا.. رجلي هنا.

صوت المرأة : طيّب.. المهمّ أن تخضّبي اليوم بالحنّاء.. لا تؤجّلي ذلك إلى الغد. عندما يذهب رجلك، سآتي وأخبرك كل شيء.

خديجة : ماذا يعني هذا!

مروان : وما المانع؟! نعم، خضّبي. من أجل البشارة، يجب أن تخضّبي، وهذه الليلة..

(يقترب منها، يضمّها، ثم يتهاوى ويضع وجهه على بطنها، فيما تتلاشى الإضاءة).

مؤرخ قديم : وفي ٢٣ منه، خرج الوفد إلى تيمور، وكان بينهم ابن مفلح وابن النابلسي، وابن العز، ومحمد بن أبي الطيب، دلامة التاجر، وقد حملوا معهم القماش، والفرو، والشواء، والحلواء، وكل مايُهدى، من كل صنف تسعة على عادتهم. وقالوا إن التقدمة أعجبت تيمور، وإنّه كتب أماناً لأهل دمشق جاء فيه، فليعلم الأشراف والمشايخ والتجّار والعوام أنهم آمنون على أنفسهم وأموالهم وحريمهم. واتّفقوا أن يستخرجوا له من أهل دمشق ألف دينار، وأن يحملوا إليه كل ما تركه السلطان وعساكره من أموال، ومماليك ودواب. وقد أكثر الوفد من الثناء على تيمور والكلام على محاسنه وفضائله.

وفيه أيضاً، أصاب نساء دمشق، مسّ الخضاب بالحنّاء، فكل امرأة أو بنت أرادت أن تخضب. وفُقِدت الحنّاء من الأسواق، وجرت في بعض المحلات عراكات.

وسألت عن السَبب، فعلمت أن عاتكة الباعونية رأت في المنام، أنّه جاءها ملك الجان. عمود من الدخان ظلّ يترجرج ويتلوّى حتى جمد، فإذا هو جنّيّ أطول من مئذنة الجامع، وقال لها: لا ترتعبي منّي، بل ارتعبي إن لم تفعلي ما آمرك به. قولي لبنات ونساء الشام أن يخضبّن بالحنّاء، وإلاّ جرى عليهن ما جرى على نساء حلب من جند تيمور، ثم لمس صدرها، وابتعد متلاشياً كأنه غيمة. وكان هذا هو سبب تزاحم النسوان على الحنّاء. والله علاّم الغيوب.

وفيه، هطل مطر خفيف. ومازال بردى يجري على العادة.

(تتلاشى الإضاءة)

تفصيل (٨)

(دار ابن خلدون في المدرسة العادلية، ابن خلدون يملي، وشرف الدين يكتب بشيء من الضيق، كما أن على وجهه أمارات امتعاض لا يحاول اخفاءها).

ابن خلدون : ومدَّ يده إليَّ فقبّلتها، وأشار بالجلوس، فجلست حيث انتهيت، ثم استدعى من بطانته الفقيه عبد الجبار، فأقعده يترجم ما بيننا، ففاتحته، وقلت أيّدك الله! لي اليوم ثلاثون أو أربعون سنة، أتمنى لقاءك، فقال: وما سبب ذلك؟ فقلت: أمران.. الأوّل أنّك سلطان العالم، وملك الدنيا، وما أعتقد أنّه ظهر في الخليقة منذ آدم لهذا العهد ملك مثلك، ولست ممّن يقول في الأمور بالجزاف، فإنّي من أهل العلم.

شرف الدين : **(يضع الريشة باحتجاج)** ألست يا سيّدي، من يقول: إن من أسباب وقوع المؤرخين في الكذب، التقرّب لأصحاب التجلّة والمراتب بالثناء والمدح وتحسين الأحوال وإشاعة الذكر! أيمكن أن يقال عن جزّار، وقاطع طريق، إنّه أعظم ملوك الدنيا منذ آدم؟

ابن خلدون : ماخطبك يا شرف الدين! إن لجاجك بدأ يضايقني فعلاً، أتظن أني أغفل عن هذا النقص، وأنا الذي فندت أخطاء المؤرّخين وأكاذيبهم! هذه مسوّدة، وهناك جملة ناقصة. أتريد أن تعرف ما هي هذه الجملة؟

شرف الدين : وما هي هذه الجملة يا سيّدي؟

ابن خلدون : (بحدّة) هذه الجملة، وزوَّرت في نفسي كلاماً أخاطبه فيه، وأتلطّف بتعظيم أحواله وملكه. ولكنّي فضّلت أن أضمر العبارة لأني لا آمن أن تقع هذه الأوراق في يد أحد من أمرائه أو رجاله. ومع هذا يجب ألاّ تنسى أن دول الشرق كلّها ركعت أمام سطوته وخضعت لسلطانه. لديّ عمل كثير، وأرغب ألا تقاطعني. أين وصلنا؟

شرف الدين : فإني من أهل العلم..

ابن خلدون : وأما الأمر الثاني مّما يحملني على تمني لقائك، فهو ما كنت أسمعه من المنجّمين، والأولياء بالمغرب عن ظهور ثائر عظيم في الجانب الشمالي الشرقي يتغلّب علي الممالك، ويقلب الدول، ويستولي على أكثر المعمور. وقد أكّد لي الخطيب أبو علي بن باديس، وكان ماهراً في هذا الفنّ، أن أخبار هذا الثائر ستنتشر عام سبعمائة وأربعة وثمانين. وكتب لي بمثل ذلك الطبيب ابن زرزر اليهودي. أمّا شيخي، إمام المعقولات محمد بن الآبليّ، فكان يقول متى سألته عن ذلك: أمره قريب، ولابدّ لك إن عشت، أن تراه. وقد سرّه كلامي، فتبسط معي في الحديث، فقال لي: وأين مولدك؟ فقلت: بالمغرب الجوّاني. فقال لي: وما معنى الجواني في وصف المغرب؟ فقلت: الداخلي أي الأبعد، لأن المغرب كلّه على ساحل البحر الشامي من جنوبه، فالأقرب إلى هنا يدعى برقة وأفريقية، أما المغرب الأوسط فإنّه تلمسان، والأقصى هو فاس ومراكش وهو معنى الجواني. فقال: لا ينفعني هذا، وأحبّ أن تكتب لي بلاد المغرب كلّها، أقاصيها وأدانيها، وجباله وأنهاره، وقراه وأمصاره، ومسالكه حتى كأنّي أشاهده. فقلت: «يحصل ذلك بسعادتك».

شرف الدين : (واجماً) أتنوي فعلاً أن تصف له المغرب ومسالكه؟
ابن خلدون : نعم.. وسأبدأ العمل فوراً. هاتِ القرطاس وحضّر لي كرّاساً.
شرف الدين : ولكن هل تقدّر يا سيّدي، خطورة عملك هذا!
ابن خلدون : وما خطورته؟! إنّه عمل علمي، وإني خير من يؤدّيه.
شرف الدين : أتستخفّ بي يا سيّدي؟! كيف يمكن أن تعدّه عملاً علمياً ولا شيء آخر!
ابن خلدون : وماذا يكون إذن؟
شرف الدين : أأنا من سيشرح لك ماذا يكون؟! أأنا من يدلّك على دلالته ومغزاه؟! إنّك تقدّم له يا سيّدي، المخطّط الذي يحتاجه لغزو بلادك.
ابن خلدون : إذا كان سيغزو المغرب، فإنه لن يعدم وسيلة، وحوله ما حوله من الخبراء والكشافة لمعرفة مسالك المغرب، وأمصاره.
شرف الدين : ولكن هذا لايبرّر أن تساعده في هذه المهمة. أن تتواطأ معه، وتقدّم له البلاد عارية، ومكشوفة، هذه يا سيّدي، وكنت أتمنى أن يُقصّ لساني قبل أن ينطقها، إن هي إلاّ خيانة.
ابن خلدون : أقصِر، وإلاّ جفوتك. تيمور نفسه يكلّفني عملاً، فهل أستطيع أن أقول له لا! وهو في النهاية، عمل علمي، والكرّاسات التي سأعدّها لاتملك جيوشاً ومدافع، ولا تستطيع أن تنظّم غزواً أو قتالاً.
شرف الدين : هذه الكراسات العلمية ستكون الدليل الذي يقود العساكر، وينظّم غزوهم.
ابن خلدون : إنّك تخيّبني يا شرف الدين. لن تغدو عالماً إذا ظلّت تكبّلك التوجسات والوساوس.
شرف الدين : وهل يقتضي العلم أن أفقد احترامي لنفسي؟ وهل يقتضي العلم أن أتملق وأخدم كل سلطان مهما انحطت خصاله؟! وهل يقتضي العلم أن أبيع أهلي وبلدي لقاء منصب أو وجاهة؟! في القاهرة لك وطن، وأهل وأصدقاء، وفي المغرب لك وطن،

وأهل، وأصدقاء، فهل يمكن أن تتنكّر لهم جميعاً، وأن تقدّم للعدوّ المخطّط الذي يحتاجه، كي يخرّب الأوطان، ويدمّر الأمصار، ويهلك الأهل والأصدقاء؟! هل تتحمّل يا سيّدي أن تمشي في ركابه وهو يغزو القاهرة، وتونس، وتلسمان وفاس؟

ابن خلدون : أتريد منّي أن أذرف الدموع؟! ليس لديّ دموع. وهذه البلاد التي تنوح عليها مهترئه، ومغزوّة بلا غزو. هل أتحمّل السير في ركاب تيمور؟ نعم.. ولِمَ لا! أريد أن أعرف وأن أسجّل. أريد أن أستكمل خبرتي، وأن أزيد علمي إتقاناً واكتمالاً. لقد سرت في ركاب أمراء وسلاطين لا يستحقّون أن يكونوا جزمة لتيمور. ولو حصرت نفسي في الوساوس، وهذه التّرهات العاطفية لما راكمت خبرة، ولما وضعت علماً لم يسبقني إليه إنسان في الخليقة.

شرف الدين : إنك تجعلني أخاف من العلم. هذا العلم البارد الذي يبرّر كل وسيلة، ويلتقط مقوّلاته من خراب أوطانه، ومذابح قومه واهله، هذا العلم الذي لايبالي بالأنين، والذي يحتقر الدموع، ويتورّط بالخيانة دون وسواس. هذا العلم يا سيّدي، لا نحتاجه، ولا يلهمنا إلاّ الأسى والخوف.

ابن خلدون : متى تدرك أيها الشاب، أن العلم هو العلم، وأن النعوت وتحيّزات الأخلاق تفسد العلم، وتملؤه بالضلالات؟

شرف الدين : لا أريد علماً هو العلم إذا كان لا يشغله مصير وطني، وشعبي، ومستقبلي. أعتقد يا سيّدي أن علينا أن نفترق.. ما تعلّمته منك كثير، وإني أعترف لك بالجميل، لكنّي أعتقد أنّ عليّ أن أسلك طريقاً أخرى في هذه الحياة.

ابن خلدون : ماذا تعني بالافتراق؟

شرف الدين : سأحمل أغراضي، وأغادرك يا سيّدي.

ابن خلدون : إلى أين؟ من يحميك في هذه المدينة؟ لا تكن غرّاً يا شرف

الدين. وهذا الجدال لم يضايقني، ويمكن أن ننساه.

شرف الدين : **(وهو يعدّ أمتعته)** لا يا سيّدي.. لن أستطيع أن أنساه، وعلى كل، كانت الفكرة تراودني وأنا أنتظرك في معسكر تيمور. سأغادر المدينة، وأنضمّ إلى أهل القلعة.

ابن خلدون : القلعة! هل أنت مجنون؟ حين كنت في حضرة تيمور استدعى المهندسين والقوّاد ووضعوا خطّة لاقتحام القلعة وتدميرها.

شرف الدين : سمّني غبيّاً أو أحمق. أفضّل أن أموت معهم على أن أبقى في المدينة.

ابن خلدون : لا تكن متهوّراً. مهما كان فأنا مسؤول عنك.

شرف الدين : أعتقد أنّي بلغت سن الرّشد يا سيّدي. وذهابي لن يؤثّر عليك. ستجد كثيرين يتمنّون خدمتك..

ابن خلدون : أتحدّث من أجلك، ولا أفكر الآن بالخدمة.

شرف الدين : سأتدبّر أمري **(يباعد بينه وبين دوره)** ماذا سيقول عنك التاريخ يا سيّدي؟

ابن خلدون : **(مباعداً بينه وبين دوره)** لن يذكر التاريخ إلاّ العلم الذي أبدعته، والكتاب الذي وضعته. أما هذه الأحداث والمواقف العابرة، فلن يذكرها أو يهتمّ بها إلّا موسوس مثلك، ومثل كاتب هذه الرواية.

شرف الدين : والآن وداعاً يا سيّدي.

(يخرج شرف الدين، يظلّ ابن خلدون، واجماً وساهماً خلال لحظات قصيرة، ثم ينهض فجأة، ويأتي بالقرطاس، ويبدأ الكتابة).

ابن خلدون : في وصف بلاد المغرب..

(تتلاشى الإضاءة)

المنمنمة الثالثة

آزدار أمير القلعة أو المجزرة

تفصيل (١)

(في الجامع الأموي، أمراء تتار وعساكر يقصفون في الجامع، ومعهم بعض بنات الهوى. يقف ابن العز على منبر الخطابة يلقي خطبة الجمعة، أفراد قلائل من المصلّين يبدون في حالة ارتباك، يختلسون النظر إلى التتار، ويلزّون بعضهم على بعض، ثم ينسحب أفراد منهم خلسة من الجامع).

ابن العز : وأوصاكم الله بطاعته وطاعة رسوله، وطاعة أولي الأمر منكم. وطاعة أولى الأمر من الإيمان، فلا تجادلوهم، ولا تخالفوهم، ولاتكونوا كالسفهاء والمستكبرين، فتحقّ عليكم اللّعنة، ويحقّ عليكم غضب الله.

وبعد الطاعة أوصيكم بالوفاء. فإن المسلم إذا أبرم عقداً، يجب أن يحترمه. وإذا أعطى عهداً، يجب أن يلتزمه. ومن حقيقة الإيمان أن يكون الإنسان عند الكلمة التي أعطاها، والعهد الذي قطعه على نفسه، إن الإسلام يوصي باحترام العقود، ويأمر بإنفاذ الشروط التي تضمنتها. وفي الحديث «المسلمون عند شروطهم». وقد بيّن الله عزّ وجلّ أن الغدر ينزع الثقة، ويثير الفوضى ويمزّق الأواصر فقال: ﴿ولاتَكونوا كَالّتي نَقَّضت غَزلَهَا مِن بَعدِ قُوَة أَنكاثا﴾ وقال سبحانه وتعالى ﴿وأُوفوا بالعَهدِ إنَّ العَهدَ كان مَسؤولاً﴾ فعلينا الوفاء بالعهد الذي عاهدنا، وعلينا تنفيذ العقد الذي أبرمنا، لأن الوفاء

واجب، ولأنّ في الوفاء نجاتكم ونجاة أبنائكم وأحفادكم.
(يرتفع صخب الأمراء، ويكرعون الخمر بكثير من المجون والفجور)

ابن العز : **(يبدو عليه الحرج فيسرع في إنهاء خطبته)** اللّهُمّ أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا. اللّهم إنا نسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك، لا تدع لنا ذنباً إلاّ غفرته، ولا همّاً إلاّ فرّجته، يا أرحم الراحمين. اللّهم وفّق وبارك سلطاننا محمود قان.

أصوات : آمين.

ابن العز : اللّهم وفّق الأمير تيمور، وافتح له على العبادة، اللهّم انصره على أعدائه.

أصوات : آمين.

التتار : **(بأصوات ثملة ومشوّشة)** آمين.. ايمين.. آمن.

ابن العز : اللّهم اجعل التوفيق حليفه كيفما اتّجه، وكيفما سارت خطاه. اللّهم وسّع ملكه، واجعل المشرق والمغرب بستانه. اللّهم أضعف أعداءه وبدّد عزيمة من يقاومه. اللّهم ثبّت أمر ولي العهد محمد بن تيمور.

أصوات : آمين.

التتار : **(صيحات استحسان)** آمين.. عظيم.. شيخ فهيم.

ابن العز : اللهمّ أكثر عليه الخير، واجعل السعد نجمه، واليمن طالعه. اللّهمّ وفّقهم جميعاً إلى مافيه خير العباد والبلاد.
(تمتمات آمين وصيحات استحسان. وفيما ينسلّ المصلّون خارج المسجد، يأتي أحد الأمراء متطوّحاً وبيده إبريق فضيّ مليء بالخمر، يمدّ يده إلى ابن العزّ ويجرّه عبر الجامع إلى مجلسه).
(تتلاشى الإضاءة).

تفصيل (٢)

(ريحانة قرب باب الدار، تحمل صرّة مليئة بالطّعام، وتتلفّت حذرة).

صوت شعبان : **(يتاهى مقترباً)** يمّه.. يمّه.. يمّه.. جوعان.

(تفتح ريحانة الباب، وتومئ إليه. يقترب، ينظر إليها بدهشة، تمسكه بذراعه. وتجرّه إلى الداخل، ثم تغلق الباب).

ريحانة : **(تتكلم ببطء شديد وأحياناً تستغرق وقتاً في البحث عن الكلمة)** هل أنت جوعان؟.. **(شعبان يحملق فيها بلهفة وانفعال)** خذ. حملت.. طعاماً كثيراً.. **(تفتح الصرّة وتبدأ بتقديم بعض الفطائر، يمسكها شعبان بحركة آلية، ويضعها في كيسه مواصلاً حملقته الملهوفة)** كل.. هل.. تريد.. أن أطعمك.. بيدي؟

شعبان : **(بصوت مفجوع وخافت)** يمّه..

ريحانة : سأكون.. أمّك.. هل.. هل.. تذكر.. السفرجلة.. كانت أطيب.. فاكهة.. ذقتها.. في.. حياتي.. **(تأخذ شيئاً من الطعام، وتضعه في فمه، يأكل بصورة آلية، بينما تبدأ الدموع تتساقط من عينيه)** لماذا.. تبكي؟

شعبان : يمّه.. يمّه.. تتر..

ريحانة : كلّهم.. تتار.. يا.. شعبان.. قومنا.. تتار.. والتتار.. تتار.. كلّهم تتار. ونحن.. أنا.. وأنت.. لن تَفرِقَ علينا.. ذبحونا..

ولن تَفرِقَ.. علينا.. كلّهم.. كلّهم.. تتار.. وأنا.. وأنت.. غريبان...

شعبان : **(وهو يشهق بالبكاء)** يمّه. هاتي بزّك يمّه.

ريحانة : أنت.. فقدت أمّك.. وأنا.. فقدت.. أبـ.. أبـ.. أبي.. باعني.. أبـ.. أبي واختفى.. لست.. زعلانة.. منه..

شعبان : **(بحنان)** يمّه.

ريحانة : **(تمسك رأسه برفق وتسنده إلى صدرها)** تعال.. ارضع.. كلّهم.. كلّهم تتار.. وأنا.. وأنت.. غريبان.

(شعبان يدسّ رأسه في صدر ريحانة، ريحانة تمسح على شعره بحنان فيما تتلاشى الإضاءة).

تفصيل (٣)

(ركن منزوٍ على أسوار القلعة. أمير القلعة آزدار ومعاونه شهاب الدين).

شهاب الدين : أرجوك أيّها الأمير أن تتوخّى الحذر. لايجوز أن تظلّ في مقدمة الأسوار. البارحة لولا تروس الرجال، لغربلتك النبال.

آزدار : هل تريد أن أختبئ في الديوان؟! كيف أقود الرجال إن لم أتقدّمهم في أوقات الشدّة والخطر؟

شهاب الدين : لا تحتاج جدارتك أو جسارتك لتأكيد، ولو أصابك مكروه، فستقصم ظهورنا جميعاً.

آزدار : دعنا من هذا.. نحن الآن جسد واحد، وكلّنا مقاتلون دون درجات أو مراتب. لماذا تظنّ أنّهم أوقفوا هجومهم!

شهاب الدين : لعلّها الخسائر الفادحة التي تكبدوها. ألم ترهم كيف تزايد سعارهم آخر النهار! كانوا يدوسون على قتلاهم ويندفعون تحت وابل النبال آملين أن يصلوا إلى حافة الخندق. أعتقد أنّهم يدرسون الآن خططاً بديلة.

آزدار : أدخلوا أعداداً كبيرة إلى المدينة، وأخشى أن يتحوّلوا إلى الهجوم علينا من الداخل، من منطقة الجامع وباب الجابية.

شهاب الدين : ذات يوم، اقترحت عليك أيّها الأمير..

آزدار : **(مقاطعاً)** أعرف.. أعرف.. ولكنّي لم أجد الاقتراح عملياً. إنّ قوّاتنا لا تكاد تكفي للدفاع عن القلعة فما بالك بالمدينة؟

وعلى كل هذا أمر فات. كيف حال الجرحى؟

شهاب الدين : أكثرهم سيعود إلى الأسوار غداً أو بعد غد. إن ابنة التاذلي بحميّتها وبراعتها تداوي الجروح، وتسكن الألم كأنها سحر، أو كأنّها نعمة ربانيّة.

آزدار : رحم اللّه والدها. كنت أودّ لو تصون نفسها، وتلازم مساكن الحريم، ولكن دم التاذلي يسري في عروقها. رفضت الانزواء مع الحريم، وأصرّت على أن تشارك في هذا الأمر. هل راقبت المصري جيّداً؟

شهاب الدين : نعم.. ولم أجد ما يشوبه. إنه لا يهدأ ولا يستقرّ، ينتقل بين الرجال خطيباً، ومحدّثاً، يقوّي عزائمهم، ويؤجّج غضبهم، وفي اللّحظات الحرجة يشاركهم القتال بما يستطيع دون خوف أو حذر.

آزدار : خفت أن يكون مدسوساً. بدا لي غريباً أن يترك معلّمه، وأن يأتي ليخبرنا ما يدبره تيمور، ويطلب الانضمام إلى مقاتلينا.

شهاب الدين : إنه يشعر إزاء معلمه بالخيبة والمرارة. حكى لي عن الذلّ الذي أحسّه حين كانت ينتظر معلّمه في معسكر العدوّ. وكيف أدرك أن الحقّ لايمكن أن يكون متعدّداً. وأن عليه أن يختار مصيره بنفسه. لا.. إنّه شاب عظيم الهمّة والشهامة، وصارت له في قلوب الرجال مودّة ومحبّة. لا أدري.. لماذا يتردّد الأمير في الإفراج عن جمال الدّين بن الشرائجي ـ أنا متأكّد أنه راغب في تعبئة الرجال، والمشاركة في القتال.

آزدار : لا أستطيع أن أفرج عن رجل اتّهمه التاذلي وسائر العلماء بالكفر والزندقة.

شهاب الدين : في الظلامة التي رفعها، لا شيء ينمّ عن الفكر. إنّه ينذر دمه للجهاد ضد التتار، فلماذا نحرمه الفرصة؟ بل سأقول أكثر من

ذلك.. لدينا في سجن القلعة ما يربو على الخمسين رجلاً فلماذا لا نخيّرهم بين القتال والبقاء في السجن؟ أعتقد أن معظمهم سيختارون القتال وباندفاع، وسيحاولون أن يثبتوا أنّهم جديرون بالحرية، وأنهم غيورون كالآخرين على كرامة الأمّة.

آزدار : نحن يا شهاب الدين رمز النظام، وقلعته الأخيرة. وإن ألغينا السجن، وتغاضينا عن العقوبات، إنّما نهدم النظام، في جوهره ومن داخله، نحن الآن الدولة السلطانية. والدولة ينبغي أن تحافظ على أساسها ونظامها في أوقات الحرب. ما قيمة صمودنا إذا هدمنا الحدود، واعتمدنا على المعارضين والمجرمين؟ كيف يمكن أن أضع إلى جوار هؤلاء المقاتلين المفعمين بالولاء والشجاعة، رجالاً ملوّثين بالدسائس والأطماع. رجالاً متّهمين في ولائهم وفي نواياهم؟ لا.. سيفقد قتالنا كل معنى إذا دمّرنا نظامنا من أجل القتال. سيبقى السجن سجناً، وسيبقى السجناء سجناء، ولن يحمي هذه القلعة إلاّ رجالها الأوفياء.

شهاب الدين : أحياناً لا أفهمك أيها الأمير، إنّي أتساءل ما الذي بقي من هذا النظام الذي تتمسّك بحرفيته بعد ذهاب السلطان، وهروب العساكر السلطانية! هل يمكن أن يكون كلّ منا، يقاتل من أجل هدف مختلف؟..

آزدار : ما الذي ترمي إليه؟

شهاب الدين : سأشرح لك كيف أرى الأمور. نعم.. إنّي معجب بك، وإني أشاطرك الرأي بأن القتال قدرنا المحتوم. ولكن يراودني الأمل بأننا نقاتل لكي نبتكر نظاماً جديداً، لا لنحافظ على نظام نعرف جميعاً أنه تداعى وانهار.

آزدار : إننا النظام.. وإنّنا نقاتل لكي نبرهن أنّ النظام لم يتداع، وأنه

قادر على الصمود والبقاء.

شهاب الدين : أرجو أن يتّسع صدر الأمير، وأن يقبل اختلافنا في هذه المسألة. طبعاً، كلانا يقاتل دفاعاً عن شرف هذه الأمّة. ولكن يحقّ لي أن أحلم بأن نظاماً جديداً، سيولد من مخاض هذه المحنة.

آزدار : لايدري أيّ منا ما الذي سيولد من هذه المحنة. ولكن لا أتخيّل أن يقاتل المرء من أجل دولة في الغيب. إنّي أقاتل من أجل الدولة التي أنتمي إليها. الدولة التي أعطتني مركزي، وحدّدت لي مسؤوليتي.

شهاب الدين : ليكن.. لايهمّ اختلافنا. كم كان يودّ المرء لو أنّ هذه الدولة وهذا النظام، يستحقان قتالاً.

آزدار : هذه شكوك خطيرة قد تؤدّي إلى التخاذل؟

شهاب الدين : لا.. إنّ الأمّة شيء وإنّ الدولة أو النظام شيء آخر. إنّي أستغلّ رحابة صدرك، وأصارحك أيّها الأمير أنّي أقاتل من أجل الأمّة لا من أجل دولتها أو نظامها.

آزدار : أخشى يا شهاب الدّين أن يأتي وقت أتلفت فيه فلا أجدك إلى جواري.

شهاب الدين : معاذ الله أيّها الأمير. لن تفتقدني ما دمت حيّاً. والرجال لا يحتاجون إلى الأيمان لتوكيد عهودهم.

آزدار : هذا أملي فيك، ولن يؤثّر علينا اختلاف في النظر أو الرأي.

(يأتي شرف الدين راكضاً ولاهثاً).

شرف الدين : سيّدي الأمير.. بدأ التتار يبنون برجاً مقابل الأسوار.

آزدار : إذن هذه هي خطّتهم.

شرف الدين : عبأ الرجال المكاحل والنفاطات، ويريدون أن يرموا عليهم.

آزدار : لا.. ليس الآن. هيا بنا يا شهاب الدّين.

(يمضون جميعاً على عجل، وتتلاشى الإضاءة)

مؤرخ قديم : في أوائل جمادى الآخرة، صار عسكر تيمور يدخل إلى المدينة، ويخرج منها كما يشاء.
وفي ٦ منه، خطب القاضي محي الدين بن العز بالجامع الأمويّ، ودعا للسلطان محمود قان ثم للأمير تيمور ثم لوليّ العهد محمّد سلطان. وقد أعطي ابن العزّ قضاء الحنفية، ونظر الأوقاف، وأخذ المعاليم، وزكاة الأيتام.
(يباعد المشخّص بينه وبين دور المؤرّخ).
يبدو أنه من العسير، أن نجعل مؤرّخنا يخفّف قليلاً من بروده وحياده، ولكن هل نستطيع نحن أن نكون باردين ومحايدين، ونحن نتهيأ لمشاهد الرعب القادمة! لن نزيّف مقالة المؤرّخ، لكن لانستطيع أن نسرد الوقائع دون شيء من التعاطف وقليل من الحسّ الفاجع.
(يعود إلى دوره).
وفيه، كَمُل المال الذي فرضه تيمور، وهو ألف ألف دينار، فحمله ابن مفلح وأصحابه إلى تيمور، ووضعوه بين يديه، فلمّا عاينه، غضب غضباً شديداً ولم يرضَ به، وقال إن المبلغ الذي طلبه هو عشرة آلاف ألف دينار. ولم يجد ابن مفلح بدّاً من الالتزام به.
وعادوا إلى البلد، وفرضوه على النّاس، فجبوا أجرة مساكن دمشق كلّها عن ثلاثة أشهر، وألزموا كل إنسان، من ذكر وأنثى، وحرّ وعبد، وصغير وكبير بعشرة دراهم.
(مشاهد متلاحقة حول تحصيل المال وماكان يجري على النّاس. يمكن أن يستخدم فيها التشخيص وخيال الظلّ أو أيّة وسيلة أخرى مناسبة).

تفصيل(٤)

(إبراهيم الملكاوي وياسمين)

إبراهيم : **(وهو يمدّ لها كيساً صغيراً)** حملت لك بعض المال الذي ادّخرته.

ياسمين : لم يبقَ شيء. تصوّر.. ألزموني أن أدفع عن جمال الدين وهو في سجنه. بعت مصاغي، وكلّ ما في بيتي، وأنا وحيدة في هذه المحنة.

إبراهيم : لا.. لن تكوني وحيدة. وهذا المال سيساعدك على تجاوز هذه المحنة.

ياسمين : وأنت.. كيف ستدبّر أمرك؟

إبراهيم : لا عليك.. مازالت لديّ بقيّة.

ياسمين : لا أريد أن تؤذي نفسك.

إبراهيم : لا.. لاتقلقي عليَّ. خذيها فقط.

ياسمين : **(وهي تتناولها)** أما زلت غاضباً وحزيناً؟

إبراهيم : لندع ذلك الآن.

ياسمين : أشعر بالوحدة. إنّي خائفة، ولا أعرف كيف أحفظ نفسي في هذه الأيام المظلمة.

إبراهيم : لا.. أريدك أن تكوني شجاعة.. وأريد أن تحافظي على نفسك.

ياسمين : ألا تبقى؟

إبراهيم : حافظي على نفسك **(يخرج)**.
ياسمين : ذاك في السجن، وهذا يتركني، وأنا.. كيف أحافظ على نفسي.
مؤرّخ قديم : وبدأ استخلاص الأموال والعقوبة. وعمّ العذاب جميع النّاس، وكان ابن العزّ وابن مفلح قد جمعا حولهما أرزال النّاس، كصدقة الجابي، وابن التكريتي، وتفرقوا حارات دمشق، وتباروا في الظلّم والقسوة. وكانوا يأتون بالواحد، ويقولون.. عليك عشرة آلاف.

(ابن العز، ابن مفلح، حرّاس، ومشنقة)
ابن العز : ستدفع يعني ستدفع.
الرجل : هل أقصّ من لحمي؟ أقسم إني لا أملك شيئاً.
ابن العز : بع ما لديك.
الرجل : وهل بقي ما يُباع! لم يبق إلاّ البيت، ولا أستطيع أن أبيعه.
ابن مفلح : لا تضيّع وقتنا. كلّ هذا لا يفيد.
الرجل : لن أدفع.
ابن العز : اشنقوه.
(يندفع حارسان ويمسكان بالرجال، ثم يرفعانه إلى المشنقة.. أنّة، وخوار مفزع).

مؤرّخ قديم : وبدا من النّاس في حقّ بعضهم بعضاً، من المرافعات أنواع قبيحة.
وبدا وكأنّ الخير مات فيهم، وفاضت الشرور في نفوسهم، فجرّوا بالفساد بعضهم على بعض، وصار كلّ منهم يتقرّب من الذين يستخلصون الأموال بالنميمة على الآخرين. وكل واحد عنده ضغينة من قريب أو جار، أو استغلّ الوقت لكي

ينتقم منه، ويعرّضه للعقوبة والبهدلة.

(مروان ودلامة)

مروان : أعرض عليك قطعاً من الحرير نسجتها بروحي. إنّها قطع لن تجد لها مثيلاً في دمشق.

دلامة : يا مروان، يا حبيبي.. أنا لا أعرف أن الروح تنسج. هذه قطع من القماش، ولن أدفع فيها إلاّ السعر الذي تعلمه.

مروان : إنّك تبخسني حقّي. إنك لاتدفع عشر ثمنها.

دلامة : وأنا لا أجبرك على البيع.

مروان : أنت تعرف حاجتي.

دلامة : كلّ النّاس في هذه الأيام محتاجة.

مروان : طيّب زدها قليلاً.

دلامة : لن أزيد درهماً واحداً.

مروان : يا اللّه.. ما الذي حدث لنا! ألم تبقَ شفقة؟ ألم تبقَ نخوة؟ إنّك تنهبني يا دلامة..

دلامة : اسمع.. لست فاضياً لك.. انظر.. هناك كثيرون ينتظرون للبيع والشراء. أنا لا أجبرك على شيء. تريد أن تبيع، أهلاً وسهلاً. لا تريد أن تبيع، مع السلامة.

مروان : ماذا أفعل؟ إنّي أبيع يا دلامة.. إنّي أبيع..

مؤرّخ قديم : وصارت العروض تباع بأبخس الأثمان، وفقد الناس القوت. ومن يوم هروب السلطان، لم يرَ أحد خبزاً في فرن إلاّ إذا كان بيتياً. ولايوجد القمح والشعير إلا بندرة، فإنّهم لما تسلّموا البلد، ختموا على جميع المحاصيل التي بالمدينة للغائبين والحاضرين. وكان القمح يباع كل كيل بـ «٣٦٠» ثم وصل في مدّة يسيرة إلى «١٤٨٠» للكيل الواحد.

واستمرّ الأمر على ذلك، ولا يوجد ولا يجسر أحد على الاعتراض لئلا يصيبه ما أصاب الشيخ إبراهيم الملكاوي.

(ابن العز، ابن مفلح، حرّاس، إبراهيم الملكاوي)

إبراهيم : لايوجد شيء.

ابن العز : يوجد البيت ومافيه.

إبراهيم : لن أدع واحداً منكم ينجّس بيتي.

ابن العز : أنحن أنجاس يا ابن الملكاوي؟!

إبراهيم : إنكم أنجس من النجاسة. يا للعار! أأنتم العلماء الذين وضعوا دمشق وأهلها أمانة في أعناقكم!.. بعتم المدينة، وأجّرتم دينكم، ونفوسكم وهذه العمائم التي تعلو رؤوسكم للتتار. بأيّ وجه تلقون الناس وبأيّ وجه ستلقون ربّكم!.

ابن العز : أتسبّنا يا ابن العاهرة؟!

ابن مفلح : إنك تسعى إلى حتفك يا ابن الملكاوي.

إبراهيم : في بلد، أنتم رعاتها وأولياء الأمر فيها، الموت عبادة. هل أسبّكم حقاً! وهل يُسَبُّ رجال خلو من الذمّة والنخوة والدّين؟! بعتم أهلكم من أجل مكسب خسيس، وتتبارون الآن لنيل حظوة عند عدوّنا.. واللّه لن تنالوا إلاّ الازدراء وسواد الوجه في الدنيا والآخرة.

(يدير ظهره لهم، ويدخل إلى البيت).

ابن العز : **(غاضباً ومزبداً)** احرقوه واحرقوا بيته.. تحرّكوا.. أوقدوا النّار.. أريد أن أراه وهو يشوى..

(يشعل الحرّاس النّار في بيت إبراهيم الملكاوي).

أصوات : يا لطيف...

ـ بيت الملكاوي يحترق..

ـ أحرقوا بيت الملكاوي..

- يا ناس.. حريق في بيت الملكاوي..
- لا.. هذا لايطاق..

صوت ياسمين: يا إبراهيم. يا إبراهيم.. أعطاني كل شيء وقرّر الموت. احترق إبراهيم. مات إبراهيم.. لم يبقَ لي شيء...

مؤرّخ قديم : واستمرّ الحال حتى كَمُل المال. وهلك الفقراء، وعَلَت الأغنياء. وبقي الإنسان لا يقدر يمشي من الموتى، ولا يدفن أحد أحداً.

كل هذا وأمير القلعة ممتنع بها، وتيمور يحاصرها، وقد نصب حولها مجانيق، وحدّافات، ومدافع كثيرة ترمى عليها.

وفيه، هطلت أمطار غزيرة، وزاد الماء في بردى زيادة كبيرة.

تفصيل (٥)

(في القلعة، سعاد، وشرف الدين وهي تضمّد له جرحاً أصابه في ذراعه)

سعاد : أيؤلمك..؟ **(يهمّ شرف الدين في الكلام، ثم يحمرّ ويسكت).** لماذا لا تجيب؟

شرف الدين : أخشى أن تزعلي لو أجبت.

سعاد : ولِمَ الزعل؟!

شرف الدين : هذا شعوري.. يداك كالبلسم الشافي.

سعاد : هل تتودّد إليّ؟!

شرف الدين : هذا ما شعرت به فعلاً.. سكن الألم فجأة.

سعاد : ليس الجرح خطيراً على كل حال. اخترق السهم اللحم، ولم يمس العظم. بعد يومين أو ثلاثة سيندمل الجرح. أتعلم.. فوجئت حين علمت أنّك جئت إلى القلعة!

شرف الدين : كان القرار صعباً، ولكن حين اتّخذته، شعرت أنّي نضجت، وصرت رجلاً.

سعاد : هل شجّعك وجودي هنا على المجيء؟

شرف الدين : لأدري.. ربّما.. نعم، كنت أفكر فيك. وكانت خيبتي بابن خلدون شديدة الوقع عليّ.

سعاد : أتعلم.. حمّلت مجيئك دلالة كبيرة. أيقنت أن التاذلي لم يمت مجاناً.

شرف الدين : ماذا تقولين! سيبقى ذكر التاذلي حيّاً في الأذهان أجيالاً بعد أجيال.

سعاد : كم نستطيع الصمود في رأيك؟

شرف الدين : أحرقنا الأبراج الثلاثة التي بنوها، بما احتشد فيها من العساكر، ولم يستطيعوا حتى الآن أن يلمسوا حافة الأسوار.

سعاد : وأبراجنا تهدَّم معظمها. والقذائق تنهمر علينا كالمطر الغاضب. رأيت البارحة مناماً غريباً.. كنت في مدينة ساحلية. لعلّها طرابلس أو بيروت، والأرجح أنها بيروت. وكنّا محاصرين كحالنا هنا، ولكن الوقت صيف، والشمس ساطعة وحارّة. ورأيت طيوراً غريبة تحلّق فوقنا، طيوراً لها هدير، كأنّها من فضّة أو حديد. وكانت ترمي فوقنا كتلاً نارية مرعبة، تدوّي، وتدمّر. ثم وجدت نفسي أصعد إلى سطح مرتفع، وتطلّعت حولي، فإذا نحن محاطون بأحياء بنيت على هضاب. وكان النّاس كلّهم يحتشدون على الأسطحة، ويشيرون نحونا ساخرين وشامتين، وحضر أبي إلى جواري، وقال لي كئيباً: «أتعرفين هذه الأحياء! فقلت له: لا. فأخذ يسمّي الأحياء واحداً، واحداً «هذا عرب نعير، وهذا عرب بني حارثة، وهذا عرب الشام، وهذا عرب مصر والقاهرة، وأولئك من عرب قحطان، وأولئك من عرب أفريقية». كانوا جميعاً يتفرّجون ولايبالون، وظلّلنا طائر كبير يهدر، وصرخت، ثم صحوت مقهورة وحزينة. كان مناماً موحشاً ومخيفاً.

شرف الدين : سبحان اللّه.. كأن الحقّ كشف لك الواقع وأحواله! كثيراً ما أتساءل، أيمكن أن تتهاوى الأمّة إلى هذا الدرك من التبلّد والخذلان؟ من العار أن تتحمّل هذه القلعة الوحيدة كرامة أمّة

تترامى على قارتين. إنّنا نفر قليل يحاول أن يصون شرف البلاد كلّها. حين أنظر من الأسوار، وأفكّر في كلّ هؤلاء العرب، أعجب كيف يستطيعون أن يأكلوا، وينامو، ويتابعوا لهو الأيام، غير عابئين بما نكابد، ونقاسي! أيظنّون أن حصارنا لن يطالهم؟! أم يظنّون أنّنا كبش الفداء الذي سينقذهم! ستكون الكارثة كبيرة إن لم ينتبهوا من غفلتهم قبل فوات الأوان.

سعاد : أحسب أنّك أكثر يأساً وحزناً منّي.

شرف الدين : لا.. لست يائساً. قال ابن خلدون، ولعلّه محقّ، إنّنا نعيش زمن الاضمحلال. ولكن إذا لم يعمل المرء شيئاً في مثل هذا الزمن، ففي أيّ زمن سيعمل؟! سألتِ كم سنصمد! وأقول لك.. إنّنا سنصمد حتّى يتغيّر شيء في هذه الأمّة، لابدّ أن يتغيّر شيء وإلاّ فقدنا حقّنا في الوجود. لا أدري.. أشعر أنّ هذه القلعة التي بدأ يشحّ فيها الغذاء والماء، ستكون هي الصيحة التي توقظ الأمّة من الغفلة.

سعاد : هل تحبّني؟

شرف الدين : يا الله!. كيف تستطيعين أن تسألي هذه الأسئلة؟

سعاد : أتعني أني بلا حياء؟!

شرف الدين : لا.. لا.. ولكنّك تفتحين خفايا نفسي بالسهولة التي تفتحين بها كتاباً.

سعاد : لا تدع الماء يتسرّب إلى الضماد. واعتنِ بنفسك.

شرف الدين : هل تذهبين!

سعاد : سأمرّ غداً لأبدّل الضماد.

(تتلاشى الإضاءة).

مؤرّخ قديم : وفيه، وقع مطر كثير جدّاً مع رعد وبرق، وسقط بَرَد بقدر البندق بكثرة زائدة، حتّى صارت الأرض بيضَاء من كثرته. كلّ ذلك في ساعة واحدة لم يعهد مثلها.

وصار تيمور لايهتمّ إلاّ بالقلعة وحصارها. وحين أعياه الأمر، طلب القضاة والأعيان، وقال لهم: «سمعت أنّ في المدينة طريقاً إلى القلعة تحت الأرض» فقالوا: «والله ما سمعنا بهذا ولا نعرفه» فقال: «تكذبون أنتم وآباؤكم وأجدادكم. عمركم في دمشق، وما تعرفون طريقاً إلى القلعة.. أنا ما أعرف. إلى ثلاثة أيام إن لم تبصروا طريقاً أعبر به إلى القلعة، أو ينزل نائبها ويسلّم، عبرت وحاصرت من الداخل. وما أقدر أن أردّ العسكر عما تفعل، وتخرب البلد».

وعندما عادوا إلى المدينة، كانت وجوههم مسودة من الخوف والكمد واجتمعوا، وضربوا الأخماس بالأسداس، ثم استقرّ الرأي على أن يرسلوا الشيخ شمس الدين بن النابلسي، ومحمد بن أبي الطيب إلى نائب القلعة. واتّجهوا جميعاً، ووقفوا تجاه الباب الذي من المدينة، وأخذوا بالصباح فدلّوا من القلعة سرياقاً مربوطاً بحبال، ورفعوا ابن النابلسي وابن أبي الطيّب.

وبعد المطر والبَرَد، فاض الماء في بردى، وغمر ما حوله على الضفّتين.

تفصيل (٦)

(على أسوار القلعة. الأمير آزدار ومعاونه شهاب الدين، وابن النابلسي ومحمد بن أبي الطيب. حراس).

آزدار : ماذا تبغون؟

ابن النابلسي : (متذلّلاً ومتصاغراً) أيها الأمير.. جئنا باسم أهلك وأبناء بلدك، نرجوك أن تحقن دماءهم، وأن تسعفهم على زوال هذه الغمّة.

آزدار : ألم يحقن دماءكم الأمان الذي اشتريتموه من تيمور؟!

ابن النابلسي : تقلّب علينا أيّها الأمير. إنه غاضب جدّاً، وسيخرّب البلد إن لم تشفق علينا.

آزدار : ماذا تجديكم شفقتي؟

ابن النابلسي : أقصد.. لاشك أنك بلغت في البطولة ذروة لن يصلها أمير بعدك، وذكرك سيتغنّى به الأحفاد وأحفاد الأحفاد. ولو طاوعتنا وسلّمت الآن، فستضيف إلى الشجاعة مأثرة المروءة.

آزدار : هل جئت تطلب منّي الاستسلام؟

ابن النابلسي : لن يضير الاستسلام شهرتك، وستنقذ أهلك من القتل وبلدك من الخراب!

آزدار : أتريدون أن أشاطركم الخزي الذي تتمرّغون فيه؟ أهذا ما تطلبونه؟ طوال هذا الحصار لم تلتفتوا إلينا، ولم تقدّموا لنا أيّ عون أو تعاطف، ومع هذا تأتون بكلّ عين وقحة وتطلبون منّا

أن نستسلم!

ابن النابلسي : أيّها الأمير.. إنّنا نحمل إليك ضراعة أهلك ومدينتك. وإن قبلت، فستزيّن شجاعتك بحلية إضافية هي الشهامة.

آزدار : ماذا حل بكم؟! هل فقدتم كل حياء؟! هل وضعتم جلود مؤخراتكم على وجهكم؟! كيف تطلبون منّي أمراً شائناً كهذا!.

محمد : أيّها الأمير.. إنّك تتلاعب بمصير مدينة.

آزدار : أأنا أتلاعب بمصير المدينة أم أولئك الذين تراموا على حذاء العدوّ، يلعقونه، ويسلمّون له أرواحهم وأموالهم؟!

محمد : ربّما لن يعجبك كلامي. لكن ألم يخطر لك أيّها الأمير أن تتساءل عمّن رمانا تحت قدمي العدوّ؟ تقول إنّنا بلا حياء، ولكن من الذي قتل حياءنا وبدّد عزمنا؟! أليس هو السلطان الذي تحمل رايته؟! أليس هو ذلك الغلام المشغول بذَكَره وخمره؟! والذي فرَّ بعساكره دون أن يقول لنا كلمة، أو يترك لنا تدبيراً أو خطّة؟! وأنت.. أنت أيّها الأمير ألم تقتل حياءنا، وتبدّد عزمنا قبل مجيء السلطان وهروبه الشائن؟! ألم تحرمنا السلاح حين طلبناه؟! ألم تجعلنا أغراباً في مدينتنا لأننا نخالفك الرأي، ولأننا لم نكن نوالي هذا السلطان الغلام، وما آلت إليه الدولة السلطانية؟! تقول إنّنا فقدنا الحياء، ودفعنا من ظهورنا للركوع أمام العدوّ. حتّى هذه اللحظة لي في سجنك أصحاب وأقارب، وكلّ ما اقترفوه هو أنهّم يخالفونك الرأي، ويرون أن الدولة السلطانية يشلّها الفساد والظلم. ورغم كلّ شيء جئتك قبل المحنة متطوّعاً، وتوسّلت أن نتجاوز الخلافات، وأن نكون قبضة واحدة في الملمّات. فماذا كان جوابك؟! سخرت منّي، ورميتني كما

تُرمى النواة. لم يكن يهمّك إلا رضى سلطانك وطغمة الأمراء حوله.

ابن النابلسي : اقصر يا ابن أبي الطيب. جئنا نتوسّل، لانجادل.

آزدار : لا.. دعه يكشف خبائث نفسه.

محمد : أيّها الأمير.. ما أردت الإساءة، ولكنّك ظلمتنا من قبل، وتظلمنا الآن. رميتنا بقلّة الحياء، ولكن هل كانت لدينا الفرصة كي نصون حياءنا!.

آزدار : هذه النفوس التي تربّت على الدسائس ما كانت لتنفعني في شيء. ورجل مثلك يمكن أن يبيعنا للشيطان إذا وجد عند الشيطان منفعة. رجل مثلك لا يستطيع أن يحيا إلاّ في الغدر والخيانة والتآمر. جئتم تطلبون منّي أن أسلّم، لأنّ موقف الشرف يفقأ عيونكم الكسيرة، ولأنّ موقف الشجاعة يقض مضاجعكم الذليلة. إن أمركم لا يعنيني، ولن تمسحوا مؤخرة تيمور بقلعتي، كما مسحتموها بالمدينة.

ابن النابلسي : والله لست بارّاً بأهلك ومدينتك.

محمد : وما أهميّة هذا الشرف الذي تغذّيه من لحم قومك؟ وما قيمة شجاعة ثمنها شعب ومدينة؟.. لا.. هذه ليست شجاعة، إنّها مباهاة عقيمة. كل ما تبحث عنه أيّها الأمير، هو شيء من التميّز حتى ولو كان على حساب جبل من الضحايا. لم تفكر يوماً بنا، ولم يشغلك أمرنا. إنّك رجل وحيد استغرقك البحث عن شي من الصيت، ورضى ذلك السلطان الرقيع.

آزدار : أيّها الحرّاس..

محمد : نعم.. يجب أن تنادي الحرّاس، فأنا أعرّيك. إني أراك عارياً أيها الأمير، وإني لا أجد في عريك إلّا الأنانية والوحدة وجفاف الروح.

آزدار : بل أنا الذي سأعرّيكم فعلاً. ولن يجد النّاس تحت ثيابكم إلاّ

الذلّ والهوان. أيّها الحرّاس.. جرّدوهما من ملابسهما..
(يبدأ الحرّاس تجريدهما من ملابسهما).

ابن النابلسي : **(وهو يقاوم الحرّاس)** كن حصيفاً أيّها الأمير، هذا لايفعله إلا المجان.

آزدار : ما العمل؟! علّمتمونا المجون على كبر يا ابن النابلسي.

محمد : عرّيتنا من ملابسنا، أما نحن فقد عرّينا فيك المظاهر والأكاذيب.

آزدار : الآن.. وأنتما عاريان، الآن.. وبعد أن أخرجت يا ابن أبي الطيب القيح الذي تخبّئه في صدرك، سأقول لكما كلمات أريد أن تبلّغوها أهل الشام. إنّي أتحصّن في هذه القلعة، وأكابد هذا الحصار لا لكي أرضي سلطاناً، أو لكي أحمي إمارة. إنّي هنا لكي لايموت الشرف في هذه الأمّة. إنّي هنا، لكي لا يُقال في قادم الأيّام، اجتاح تيمور هذه البلاد ولم يُوجَد من يقاوم، أو يقول لا. إنّي هنا لكي أبقي شيئاً من الكرامة لأطفالكم وأحفادكم، حين يأتي الوقت كي يرفعوا الأنقاض، ويفكّروا بالمستقبل. إنّي هنا كي أمنع تيمور من بدء المذبحة التي يحضّرها لكم. واللّه ما إن تسقط هذه القلعة، حتى تعمل السيوف في أعناقكم. أأنا الذي أضحي بالمدينة يا ابن الطيّب بحثاً عن صيت أو إمارة.. لماذا تظنّ أن تيمور لم يقتحم المدينة بعد؟

قل لأهل الشّام إن صمود القلعة هو الذي يؤمن لهم هذا السلام المؤّقت. وقل لأهل الشام إنّ الذين يضحون بالمدينة هم هؤلاء الذين تحوّلوا جلاوزة عند تيمور. هؤلاء الذّين كانوا في النهب وجمع المال أقسى من التتار. هؤلاء الذين باعوا المدينة من أجل بعض المغانم الهزيلة. قل لأهل الشام إن

كنت تجرؤ، إن الذي ضحى بالمدينة، وذبح أهلها هم علماء وأعيان يبحثون عن المناصب والوجاهة والغنيمة. ابن العز صار قاضي القضاة، وابن مفلح وزير المال، وابن أبي الطيب كاتب السرّ، وابن النابلسي يلملم مكاسب الأوقاف وأموال البرطيل والشفاعة، وكلّهم يتسابقون في خدمة تيمور غير عابئين بما يحلّ بكم من ويل وشقاء.

قل لأهل الشام إن كنت تجرؤ، ماجئت إليّ لكي تنقذ الشام، بل لكي تنال حظوة عند تيمور. قل لأهل الشام سلام عليكم أيها النّاس. إنّ الأمير يشفق عليكم من سادتكم.. وإن الأمير سيفعل ما يستطيع كي يؤجّل موتكم. أيّها الحرّاس.. ردّوهما إلى المدينة.

(يضع الحرّاس ابن النابلسي وابن أبي الطيّب في سرياق، ويدلوهما على جدار القلعة).

ابن النابلسي : هاتوا لنا ملابس وأغطية.

محمد : أيّها النّاس.. انقبوا القلعة.. هاتوا المعاول والفؤوس وانقبوا القلعة.

شهاب الدين : **(من فوق السور)** والله إنّكم تنقبون قبوركم.

محمد : **(وقد حطّ السرياق على الأرض)** انقبوا القلعة..

شهاب الدين : والله ستنقبون قبوركم لو فعلتم..

(تتلاشى الإضاءة، ويرتفع بعيداً كالصّدى صوت شعبان).

شعبان : يمّه.. يمّه..تتر.. يمّه عطشان.. يمّه هاتي بزّك يمّه...

تفصيل (٧)

(بيت مروان وخديجة، إنّهما يتناولان العشاء، ضوء السراج لايبدد العتمة وإنّما يملأ المكان ظلالاً).

مروان : **(يغرف لقمة من صحن الدبس)** هذه اللقمة لك..
خديجة : لا.. أنا اكتفيت، وأنت لاتكاد تأكل شيئاً.
مروان : أنتِ من يحتاج إلى الغذاء، لا أنا **(يمدّ اللّقمة إلى فمها)** افتحي فمك.
خديجة : والله اكتفيت. كُل أنت، والدّبس يدفّئ في هذا البرد.
مروان : للدفء.. هناك ما هو أفضل من الدّبس.
خديجة : **(ضاحكة)** إحذر.. لوّثت خدّي وذقني.
مروان : انتظري.. سأنظّف كل شيء. **(يقترب منها ويلحس قطرات الدّبس حول شفتيها. يتضاحكان، ويتدافعان).**
خديجة : كفى...
مروان : مازالت هناك قطرة.
(طرق على الباب.. يجفلان)
مروان : من يأتينا في هذه الساعة!.
خديجة : لا أدري..
(ترفع الطعام فيما يذهب مروان إلى الباب).
مروان : من؟
أحمد : **(من الخارج، وصوته مخمور)** أنا.. أحمد.. اشتقت لك يا

رجل، وأريد أن أسدي لك خدمة.

مروان : **(متردداً)** أهناك شيء ضروري؟!

أحمد : **(من الخارج)** نعم ضروري جداً.

(يلتفت مروان نحو خديجة كأنه يستشيرها. تهزّ خديجة كتفيها وكأنّها تقول لا أدري. بعد تردّد قصير، يفتح مروان الباب، يندفع أحمد متطوّحاً إلى الداخل وإثره يدخل تتريان، يبدو مروان مبغوتاً وكذلك خديجة).

أحمد : جئت أفكّ عسرك المالي، وأضمن لك الأمان.. ماذا تظنّ؟! أنت دائماً في البال يا مروان، والدم لايصير ماء. هذان الأميران يريدان حريراً فاخراً. وأنا قلت لهما، هناك رجل واحد لديه ما تريدان من الحرير الفاخر، وهما مستعدّان للدفع. انظر.. كلّ منهما لديه كيس ملآن. **(يحاول أحمد أن يعرض الكيس على مروان، فيدفعه التتري ويرميه أرضاً).**

أحمد : يا رجل.. نحن شربنا سوية. والذين يشربون سوية، يت.. يتآ.. يتآخون.

تتري (١) : **(وهو يلكز رفيقه فيما عيناه تلتهمان خديجة)** إن زوجك جميل أيّها الشاميّ.

مروان : **(مرتبكاً)** هل تريدان حريراً بالفعل؟

تتري (٢) : **(وهو يتقدّم نحو خديجة)** بعدين.. بعدين..

مروان : **(يريد أن يعترض طريقه)** انهض يا أحمد.. ماذا فعلت بنا!. خذهما واخرج.

أحمد : **(وهو يكرع من الزجاجة، وتزداد تعتعة صوته)** لا تخف.. لاتخف.. هما يحبّان المرح والمزاح.

(التتري ينحي مروان، ويتقدّم حتى يصل إلى خديجة، يمسكها بيديها ويحملق فيها، تتغيّر ملامح خديجة تحت وطأة الرعب، وينحبس صوتها. إنّها تصدر ما يشبه الفحيح).

مروان : **(وهو يهجم عليه)** اتركها.. اخرجوا جميعاً.. أيّها السافل، خذ صحبتك وارحل.

(يحمل التتري خديجة غير عابئ بشيء، ثمّ يضعها على الفراش. يغدو مروان كالمجنون، يسحب من جيب سترته سكيناً ويقفز على التتري، إلاّ أن التتري الثاني الذي يراقب كلّ شيء بعين فاحصة، يمتشق سيفه، ويعاجله بضربة تمزّق عنقه. تطلق خديجة صرختها المحبوسة، صرختها مفعمة بالرعب والغضب، تتلاحق الصرخات، والتتري يطبق عليها، ويشلّ حركتها لا مبالياً بشيء).

مروان : **(وهو يتمرّغ على الأرض ويشخر مذبوحاً)** أخوك.. لعنة الله.. الجنين.. أمّي.. خديجة.. انتهت الحرب.. انتهت الحرب..

خديجة : مروان!

(يضع التتري يده على فمها).

أحمد : **(ينهض وهو يتلفت بذعر)** يا ربّ.. ماذا فعلت!. يا رب.. ماذا فعلت!..

(ينسل ويختفي في العتمة. يغلق التتري الآخر الباب وراءه فيما تتلاشى الإضاءة ببطء شديد).

مؤرّخ قديم : وفيه، جمادى الآخرة، درّب تيمور عساكره نحو باب الجابية، وحاصر القلعة من داخل المدينة.
ولمّا بدأوا ينقبّون الأسوار، أبدى أهل الشام همّة عالية في مساعدة التتار على نقبها. وكان ابن أبي الطيب يقودهم، وينادي فيهم «الهمّة يا رجال، اقترب الخلاص». وكان تيمور قد نصب مناجيق وحدّافات، ومدافع كثيرة، ترمي على القلعة. وكانوا يرمون بالنشاب إلى الأسوار بحيث منعوا أحداً من الوقوف عليها.
وتهدّمت أبراج القلعة كلّها، والنقب من داخل المدينة شغّال.
وفيه، أوحلت الأرض من الأمطار والبَرَد.
ومازال الماء في بردى يفيض على الضفتين.

تفصيل (٨)

(في القلعة، شرف الدين وسعاد)

سعاد : انتهى كل شيء.

شرف الدين : (دامع العينين) غلَبنا الأهل والعدوّ والزمان.

سعاد : أين اللّه يا شرف الدين؟!

شرف الدين : لا أدري..

سعاد : هل تساورك الشكوك مثلي؟

شرف الدين : لا أدري..

سعاد : ألا يرانا! كيف تخلّى عنّا، نحن الذين ندافع عن الحقّ؟ كيف تركنا وحدنا دون نجدة أو رحمة؟ ألم يَعِد أمثالنا بالنصر! ألم يَعِدنا أنّه قريب منّا إذا نادينا وتضرّعنا! أيجوز أن يمكّن لتيمور في الأرض، وأن يهزم فئته التي تقاتل بالعدل، وتدافع عن الحق!.

شرف الدين : لا أدري.. لا أدري..

سعاد : نعم.. لاندري.. وربما لن ندري أبداً. قلْ لي.. هل بحر النيل جميل؟

شرف الدين : آه.. كم وددت أن نراه معاً! لا.. لم يعد هناك مكان جميل، ولم يعد هناك جمال.

سعاد : وأنا؟

شرف الدين : لا تجعلي قلبي يتفطّر.

سعاد : هل تتزوّجني؟
شرف الدين : يا ربّ.. كيف أفهم أسئلتك؟!
سعاد : افهمها كما هي. إنّي جادّة.. هل تتزوّجني؟
شرف الدين : كيف أستطيع أن أمنّي نفسي؟!
سعاد : دعك من الذهول. وأجبني.
شرف الدين : يا ربّ.. وهل هذا ممكن! طبعاً أتزوّجك.
سعاد : إذن.. هات يدك **(تمسك يده اليمنى وتضع منديلاً على اليدين)** أنا سعاد بنت المرحوم برهان الدين التاذلي أزوّجك نفسي على سنّة اللّه ورسوله.
شرف الدين : وأنا شرف الدين بن محمود الدسوقي أتزوّجك على سنّة الله ورسوله. فلنقرأ الفاتحة.
(يقرآن الفاتحة بصوت خافت).
سعاد : هكذا.. صرت زوجتك. إنّنا الآن متزوّجان.
شرف الدين : **(مذهولاً)** هل نخبر أمّك وأمير القلعة؟
سعاد : لا.. لن نخبر أحداً. سيكون زواجنا حلماً، أو أقصر من الحلم. غداً حين نسلّم القلعة، لايدري أيّ منا ماذا ينتظره.
شرف الدين : غداً، سنخرج من القلعة زوجين.
سعاد : ومن يدري. قد يترمّل أحدنا قبل أن يأتي الغد.
شرف الدين : **(خائفاً)** ماذا تعنين؟ أعطونا أماناً، ولن يحدث شيء حتى الغد.
سعاد : وما قيمة هذا الأمان! هل تقبل يا شرف الدّين أن تمتد يد تترية إلى جسد امرأتك؟
شرف الدين : ماذا تخفين يا سعاد؟
سعاد : لا أخفي شيئاً.. وهذا الجدل لا يليق بعريسين. ألا تريد أن تكون لنا دخلة؟
شرف الدين : إنّي قلق وخائف.

سعاد : مع القلق والخوف لن تعرف كيف تقطفني، وسنفوّت عرسنا.. اهدأ الآن، ودعنا نتأرجح على هذا الحلم العجيب. تعال..

شرف الدين : لو يطمئن قلبي؟!

سعاد : ومن يبحث عن الاطمئنان في مثل هذا الوقت؟ إنّنا نحلم.. دعنا نحلم.. دعنا نحلّق فوق الأنقاض والعذاب.. دعنا نبدع نصراً صغيراً يخصّنا نحن الاثنين. سنعلو على تيمور والتتار، سنعلو على المرارة والهزيمة، وسنحلّق في سماء صيفيّة زرقاء. أغمض عينيك، وانزلق إلى الحلم. إنّنا نطير. هل تحسّ أنّنا نطير؟!

شرف الدين : حقّاً.. إنّنا نطير.

(يتعانقان، يتماوجان، يتداخل جسداهما تداخلاً إيقاعياً وفاتناً. وببطء شديد تتلاشى الإضاءة فوقهما).

تفصيل (٩)

(أمير القلعة آزدار في أبهى حلله، يبدو كأنّه خرج لتوه من بين يدي المزيّن، يقف منتصب القامة، ويبدو واضحاً أنه يبذل جهداً كي يحافظ على انتصاب قامته. يدخل شهاب الدّين وهو الآخر تزيّن وأصلح هندامه وانتصبت قامته).

شهاب الدين : حان الوقت أيّها الأمير.

آزدار : لولا الأطفال والنساء، ويأس الرجال، لوددت أن أدفن في هذه القلعة.

شهاب الدين : ليت الموت أكرمني، وجنّبني هذه اللحظة.

آزدار : هل تفحصت كلّ شيء؟

شهاب الدين : تفحصت قيافة الرجال واحداً واحداً، وزوّدتهم بكل أوامرك. لاتقلق.. سيكون موكبنا مهيباً، وجديراً بمأثرتك.

آزدار : المأثرة لكم قبل أن تكون لي.

شهاب الدين : لولاك..

آزدار : **(مقاطعاً)** ماذا فعلت بابنة التاذلي؟

شهاب الدين : غُسّلت وكُفّنت وصلّى عليها شيخ القلعة. هي الآن في النعش، وسيحمل نعشها ستة من الرجال.

آزدار : حقّاً.. كانت ابنة أبيها. وسنصرُّ على دفنها إلى جواره. لعلّها فاقتنا حكمة. عجّلت موتها كي تتّقي العار، وتحمي شرفها من دنس التتار. هل نخرج؟

شهاب الدين : (**مغالباً الدمع في عينيه**) بعد أن نخرج، لن يعرف أيّ منّا مصيره.. وربّما لن نلتقي بعد الآن، ولا يتاح لنا أن نتبادل الكلام، أحب أن تعرف أيّها الأمير، أنّي فخور لأنّي كنت إلى جانبك طوال هذه الحرب. ولا أخفي عنك.. أحياناً كنت لا أفهم مواقفك. وأحياناً، كانت تساورني الشكوك. ولكن حين كنت تردّ على ابن أبي الطيب، بدّدت كثيراً من الشكوك وسوء الفهم. أعرف الآن أن صمودنا لم يكن من أجل أهداف صغيرة، كالسلطان والإمارة، وأن مفهومك عن الولاء والواجب يتّسع ليشمل الأمّة وكيانها. ومع هذا بقيت في نفسي غمّة. لو أنّنا حلمنا وجازفنا، تماماً كما يفعل الشعراء أحياناً، أما كان يمكن أن يتغيّر مجرى الأحداث.! وأن تكون هذه المأثرة بداية تحوّل وانبعاث.

آزدار : إنّي أفهمك يا شهاب الدين.. كانت قدرتك على الحلم ورغبتك في المجازفة تثيران إعجابي وحبّي. وأعترف أنّي تردّدت، وخفت أن أجاريك في الحلم والمجازفة. في أوقات الضعف والانحلال، الأحلام باهظة التكاليف. وكنت أخشى دائماً أن نتوه في الحلم، ونضيّع الممكن. لا أعلم.. ربّما كنت مخطئاً، أو تنقصني اندفاعة الشباب. ولكن منذ بداية هذه المحنة وأنا أتأمّل ما حولي، فلا أحد إلاّ واقعاً موحلاً، وزمناً سقيماً. وفي الواقع الموحل والزمن السقيم، قد يكون إنجاز الممكن هو الحلم، وهو المجازفة. نعم.. أحببت قدرتك على الحلم، ورغبتك في المجازفة، وأرجو ألا تنسب تردّدي وأخطائي إلى الضعف، أو إلى الحسابات الصغيرة.

شهاب الدين : هل تسمح لي أن أعانقك أيّها الأمير؟

(يتعانقان عناقاً طويلاً، والدموع تنسكب من عيني شهاب الدين).

شعبان : **(بعيداً كالصدى)** يمّه.. ماتت.. القلعة يمّه.. جوعان.. يمّه.. يمّه..

(تتلاشى الإضاءة).

مؤرّخ قديم : وبعد أربعين يوماً من الحصار، وبعد أن نفدت الذخيرة والمؤونة، واستحالت المقاومة، سلَّم الأمير قلعته.

وكان موكبه حين خرج من القلعة أمراً عجباً. كان يتقدّم رجاله، وكلّهم لاشُلَّت أيديهم، في أحسن هيئة، يشمخون برؤوسهم عالياً، ويتقدّمون بكل كبرياء وثبات.

وكان في الموكب نعش ابنه التاذلي التي قتلت نفسها كي لاتقع في أسر التتار.

وحين وقف أمير القلعة بين يدي تيمور، قابله بالسخط والغضب، وقال له: «أفنيت صاغيتي، وقضيت على حاشيتي، فإن قتلك مرّة واحدة لا يشفي غليلي، ولكن أعذّبك على كبر سنّك، وأزيدك كسراً على كسرك» فقيّده بقيد زنته سبعة أرطال ونصف، ولم يُعرَف له خبر.

وبعد أن تمّ لتيمور أخذ القلعة، طلب ابن مفلح وأصحابه، ولما وضعوا أمامه المال الذي فرضه، عبس في وجوههم، وقال:

«هذا لا يساوي في حسابنا إلاّ ثلث المبالغ، وظهر لي أنّك عجزتم» ثم قبض على ابن مفلح، وبعد أن ألزمه بكتابة جميع خطط دمشق، وحاراتها وسككها، أمر بضربه حدّ التلف.

تفصيل (١٠)

(في بيت ابن مفلح. ابن مفلح راقد على فراش الموت وعنده دلامة).

ابن مفلح : هل جئت تودّعني؟!

دلامة : أطال الله عمرك. هي وعكة وتمرّ.

ابن مفلح : إنّي أميّز الموت، وأحسّ دبيبه في جسدي.

دلامة : دعنا من الموت يا شيخ، وأجبني.. ماذا جرى، وأين أخطأنا؟.

ابن مفلح : إنّي أحاول أن أرتّب جواب هذا السؤال لأنّي سأحتاجه حين أقف بين يدي الخالق.

دلامة : وماذا وجدت؟

ابن مفلح : أين أخطأنا يا دلامة؟! منذ البداية أخطأنا. حين نزعنا من النّاس سلاحها أخطأنا. حين جرّدنا أسوارنا من دفاعاتها، أخطأنا. حين صدّقنا وعود العدوّ، أخطأنا. بين الأعزل الخائر، وبين العدوّ المدجّج بالسلاح، لايكون اتّفاق، ولا سلام بل إذعان واستسلام. إنّ أعترف أمام الله أنّي أخطأت. ونفسي الأمّارة بالسوء والتاجر دلامة، وابن خلدون، وعلماء السوء زيّنوا لنا الخطأ. لو قاتلنا، لما خسرنا ما خسرناه، ولما أصاب المدينة كلّ هذا الدمار. انظر.. لَم تُدمَّر بيوت الناس وأرزاقها فقط، بل دمّرت نفوسهم، وفسدت قلوبهم. ظهرت الخبائث، والأحقاد، والأنانيات، وصارت المدينة وكأنّها غابة

خلت من الدين والقيم والأخلاق. نعم.. منذ البداية أخطأنا، وكان الخطأ جسيماً.

دلامة : ولِمَ أخطأنا؟! عقدنا معهم تجارة. ونفّذنا ما علينا. ألم يكن العقد واضحاً؟ ألم يعطونا كلمة وميثاقاً؟! فأين الخلل؟

ابن مفلح : إنّك دعيٌّ معرفة يا دلامة. تحسب أنّ التجارة تستوعب المحنة وتحتوي العدوان. ولكن فاتك أن التجارة والعدوان توأمان. إنّ التجارة بين الأقوياء والضعفاء ليست بيعاً وشراءً. بل هي حرب وعدوان. أخطأنا يا دلامة، وها نحن نخسر كل شيء. اذهب ودبّر أمرك. قسَّم تيمور أحياء المدينة على أمرائه، ولن يبقَى في مخابئك ما يرنّ.

دلامة : ماذا تقول؟! أخبرني ما تعرفه. يجب أن أعرف..

ابن مفلح : اغرب عني، ودعني أمت بسلام.

دلامة : يجب أن أعرف.

ابن مفلح : **(يغمض عينيه واهناً)** اغرب عني يا دلامة.

(يتردّد دلامة فترة يبدو زائغ العينين ثم يخرج على عجل)

(تتلاشى الإضاءة)

مؤرّخ قديم : وفرّق تيمور المدينة على أمرائه، فساروا إليها بمماليكهم وحواشيهم، ونزل كل أمير في قسمه، وطالب سكّانه بالأموال.

حينئذ حلّ بأهل دمشق من البلاء مالا يوصف، وجرت عليهم من العذاب ألوان رهيبة كالضرب والعصر والإحراق بالنّار والتعليق منكوساً، وغمر الأنف بخرقة فيها تراب ناعم، كلّما تنفّس، دخل في أنفه حتى تكاد نفسه تزهق. وكان الرجل إذا أشرف على الهلاك، يُخلّى عنه حتى يستريح، ثم تعاد عليه العقوبة أنواعاً. ومع هذا تؤخذ نساؤه وأولاده الذكور، فيتقاسمهم الأمير وأصحابه.

وكان الرجل المعذّب يرى امرأته أو ابنته وهي توطأ، وولده وهو يلاط به، والبنت والولد يصرخان من إزالة البكارة واللواط، وكل هذا من غير تستّر في النهار وبحضرة الملأ من النّاس.

تفصيل (١١)

(في دار دلامة. أمير وعساكر من التتار. يبدو دلامة معلّقاً من رجليه ومنكوساً، وتحت رأسه كانون يوقد فيه الحطب، وقربه يقف ابنه مذعوراً ودامع العينين).

الأمير : أين المال؟

دلامة : **(محشرجاً)** أعطيت كلّ ما لديّ؟

الأمير : شرموط.. كّذاب..

دلامة : أقسم..

الأمير : شرموط.. أنت واحد لا يعرف الربّ. **(للعساكر)** انفخوا النّار.

(يؤجّج العساكر النار تحت رأسه، فينطلق دلامة بالصراخ والعويل).

الأمير : أين المال؟

دلامة : **(محشرجاً)** ألم تفتّشوا البيت كلّه؟! لا مال.. لا مال..

الأمير : كذّاب ابن كذّاب.. خذوا ابنه، وافعلوا به.

الابن : **(مرعوباً)** أبي..

(يجرّ عسكريان الابن، ويمضيان به إلى مكان جانبيّ).

الابن : **(صارخاً، متوجّعاً من مكانه)** أبي.. أنجدني يا أبي. أبي.. أنقذني يا أبي.

دلامة : اصبر يا بنيّ، وتجلّد.

الابن : **(صارخاً كالجريح)** لا أستطيع.. قل لهم يا أبي.. أخبرهم إذا كنت تخفي شيئاً.

(يتحوّل صوت الابن إلى خوار وحشرجة).

الأمير : أين المال؟

دلامة : لا مال..

الأمير : شرموط. سأرتي بك أهل الشام **(إلى العساكر)** غمُّوه، وهاتوا حريمه.

(يندفع عساكر إلى داخل البيت، بينما يملأ أحدهم خرقة برماد ناعم ثم يجمع أطرافهما، ويضعها على أنف دلامة المنكوس. ينفض رأسه ذات اليمين وذات الشمال، ويزرق وجهه، ويتصاعد من فمه لهاث مختنق، يخرج عسكريان من البيت هما يجرّان ريحانة وخلفها نساء).

ريحانة : الكلّ... تتار.. الكلّ.. تتار.

الأمير : جرّدوها من ثيابها.

ريحانة : **(وهي تتخبط بين أيديهم)** لا.. لا.. الكل.. تتار..

(يمسكها الأمير من يدها بعد أن تصبح شبه عارية، ويدوِّرها حول رأس دلامة).

الأمير : انظر.. هذه محبوبتك. هل تريد أن نفعل بها؟!

دلامة : **(كالمحتضر)** افعلوا ما تشاؤون.. لا مال..

ريحانة : **(تبرق عيناها.. تتكلّم كالطفلة)** ماذا.. تريدون.. أيّها التتار؟

الأمير : نريد المال.. أين يخبّئ هذا الشرموط المال والذهب؟

ريحانة : الذهب في الخراء.

دلامة : **(يشهق وكأنّه يلفظ أنفاسه الأخيرة)** اخرسي يا ابنة القحبة.

الأمير : **(يصفع ريحانة)** هل تسخرين منّي!.

ريحانة : إنّي.. لا.. أسخر.. والكل.. تتار.. هو.. لا.. يعرف.. أنّي.. أعرف.. الذهب.. في.. الخراء.

الأمير : فسّري ماذا تعنين..

ريحانة : اكسر.. أرض.. الكنيف.. وانزل.. في الخراء.. تجد.. صناديق المال.. والذهب.

دلامة : **(لافظاً أنفاسه)** قتلتِني.. أيّتها.. الـ..

الأمير : **(يقتل معصم ريحانه، فتنثني متأوّهة لتصبح في حضنه)** سنرى إن كنت صادقة **(إلى العساكر)** اكسروا أرض الكنيف، وانزلوا إلى الخراء.

(تضحك ريحانة ضحكات قصيرة متلاحقة، وكأنّ أحداً يدغدغها، ثم يتعالى ضحكها تدريجياً، ويختلط بالبكاء فيما تلاشى الإضاءة).

مؤرّخ قديم : واستمر هذا البلاء والعذاب بأهل دمشق تسعة عشر يوماً. آخرها يوم الثلاثاء، الثامن والعشرون من شهر رجب، فهلك في هذه المدّة بالعقوبة والجوع خلق لايعلم عددهم إلاّ الله.

تفصيل (١٢)

(ابن خلدون وشرف الدين على أهبة الرحيل والعودة إلى مصر)

ابن خلدون : الحمد للّه على الخلاص من ورطات الدُّنيا.

شرف الدين : وأين الخلاص؟!

ابن خلدون : ها نحن نعود بلا غرم كما جئنا. كلّمت تيمور مرّتين حتى رضي أن يفكّ أسرك.

شرف الدين : **(بامتعاض)** شكراً يا سيّدي.

ابن خلدون : ما الذي لا يرضيك؟!

شرف الدين : كيف تستطيع التحدّث عن الخلاص من ورطات الدنيا، والنّار تلتهم المدينة، والطرقات تسدّها الجثث والأعضاء المبتورة.. وامرأتي اختارت الموت، والأهل تفرّقوا بين السبي والقتل.!

ابن خلدون : زوجتك؟!

شرف الدين : لن تفهم شيئاً يا سيّدي.

ابن خلدون : لا تفقد حياءك وأدبك. تغيّرت كثيراً خلال هذه الرحلة. مافات فات، ولنحمد الله على سلامتنا.

شرف الدين : **(مباعداً بينه وبين دوره)** لم يفهم ابن خلدون شيئاً، كان مشغولاً بنفسه وطموحه، فلم تمسّه معاناة النّاس. لم يسمع بكاءنا، ولم يفهم أحوالنا. كانت هذه المحنة بالنسبة له،

ورطة عابرة سلِم منا، وتجاوزها. أما شرف الدين فكيف يحبس دموعه.. وكيف يعتبر البقاء على قيد الحياة خلاصاً وسلاماً؟

(تتلاشى الإضاءة).

مؤرّخ قديم : ولما قضى الأمراء الوطر من المدينة، أباحها تيمور للعساكر، فدخلوا كأمواج البحر. سيوفهم مسلولة، وهم مشاة. فنهبوا ما قدروا عليه من آلات الدور وغيرها، وسبوا النّساء والأولاد والرجال، وساقوهم في حبال، ثم طرحوا النّار في المنازل والدّور والمساجد.

وكان اليوم عاصف الرّيح، فعمّ الحريق جميع البلد حتى صار اللّهب يكاد أن يصل إلى السحب، وعملت النار في البلد ثلاثة أيّام بلياليها آخرها يوم الجمعة. احترق الجامع الأمويّ والأسواق والقياسر والحمامات والبيوت.

وصارت دمشق، بعد البهجة والوفرة، أطلالاً بالية ورسوماً خالية، لا تُرى بها دابة تدبّ، ولا حيوان يهبّ، سوى جثث احترقت، وصور في التراب تعفّرت. فإنا للّه وإنّا إليه راجعون لعظم هذه المصائب، وشناعة هذه النوائب.

تفصيل أخير

(الشيخ جمال الدين بن الشرائجي مرفوعاً على الصليب)

جمال الدين : أنا الشيخ جمال الدين بن الشرائجي. آمنت أن العقل خير من النقل، وأنّ الله عادل لا يقدّر على عباده الفقر أو الذلّ. فأذاع أحدهم أمري، فاستدعاني قضاة دمشق الأربعة. وبعد السبّ والضرب، وإحراق كتبي، رموني في سجن القلعة. وحين حلّ تيمور في ظاهر المدينة وجاء سلطان مصر والشام لمدافعته، أبكاني القهر، وعزَّ عليّ ألاّ أكون مع الأمّة في مواجهة هذه المحنة. فالتمست من السلطان النظر في أمري. فلمّا سأل وعرف مقالتي، غضب وأمر أن يضيّق عليّ في سجني. ثم رحل السلطان فجأة، وترك دمشق أكلة لتيمور. فقرّر القضاة والأعيان أن يسلّموا المدينة للعدوّ إلاّ قلعتها، فقد أبى الأمير آزدار إلاّ أن يقاوم ويقاتل، فاتّصلت بالأمير ورجوته أن يطلق سراحي، ويضمّني إلى مقاتليه، فخشي أن يلومه النّاس، أو أن يؤخذ بذنبي، وطلب منّي مترفقاً أن أتجمّل بالصبر، وأن أستعين بالله على بلائي. ثمّ انهزم صاحب القلعة، واستبيحت دمشق. وذات يوم قادني عساكر إلى حضرة تيمور. وكان يجلس عند قدميه نفر من علماء المسلمين عرفت منهم الشيخ محي الدين بن العز، والشيخ عبد الرحمن بن خلدون. فاستفسر عن خبري وفحوى

خطابي فلّما أخبروه بلسانه الأعجمي، علا وجهه الغضب، وأمر أن أُجلَد وأُصلَب حتى ينفذ فيَّ قضاء الله. فعجبت من اتّفاقهم في أمري على ماينهم من الحرب وسفك الدماء.

(يدخل شعبان متجرجراً وفزِعاً، يحملق في المصلوب ثم يفرّ صارخاً).

شعبان : **(وهو يركض بين الأنقاض)** يمّه.. فزعان.. الموت يمّ.. كلّه ميت.. يمّه فزعان.. يمّه الموت.. يمّه فزعان.. بزّك يمّه.. بزّك يمّه.. عطشان يمّه.. فزعان يمّه..

مؤرّخ قديم : وكان الماء يتدفّق في بردى بزيادة وشدّة لم تَعهَدهما دمشق منذ سنوات طوالٍ.

(تتلاشى الإضاءة).

ستار.

١٩٩٣

طقوس
الإشارات والتحولات

ملاحظة

في الجزء الأول من مذكراته(*)، أورد المجاهد فخري البارودي حكاية صغيرة، روى فيها كيف استعرَ الخلاف بين مفتي الشام ونقيب الأشراف فيها أيام الوالي راشد ناشد باشا. وكيف تجاوز المفتي الخلاف الشخصي، ومدّ يد العون للنقيب حين أوقع به قائد الدرك آنذاك، وقبض عليه وهو يقصف مع خليلة له.

هذه الحكاية هي النواة التي بنيت عليها هذه المسرحية، واستقيت منها معظم شخصياتها، وإن افترقت عن البارودي في التأويل والمغزى.

* ولعل من الضروري أن أشير إلى أن المكان، وهو في دمشق، والزمان، وهو النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ليسا إلا مكاناً وزماناً اصطلاحيين في هذه المسرحية. فلم يكن همي أن أقدم عملاً عن البيئة أو أن أقارب الحقائق الاجتماعية والتاريخية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

* ويقال نفس الشيء عن مناصب الشخصيات. فهي ليست مقصودة بذاتها، وإنما باعتبارها مكوّنات ثقافية ونفسية للشخصيات.

إن أبطال هذا العمل هم ذوات فردية تعصف بها الأهواء والنوازع، وترهقها الخيارات. وسيكون سوء فهم كبير إذا لم تُقرأ هذه الشخصيات من خلال تفردها وكثافة عوالمها الداخلية، وليس كرموز تبسيطية لمؤسسات تمثلها. إن أبطال هذه المسرحية ليسوا رموزاً ولايمثلون مؤسسات وظيفية، بل هم أفراد لهم ذواتهم ومعاناتهم المتفردة والشخصية.

* ومن نافل القول التنويه بأن ما أتوخاه من هذا العمل، سواء نجحت أم أخفقت، هو إثارة أسئلة ومشكلات أعتقد أنها راهنة، ومتجددة أيضاً.

(*) مذكرات البارودي، فخري البارودي، بيروت ١٩٥١.

الجزء الأول

المكائد

المشهد الأول

(بستان في غوطة دمشق. شجرة مشمش مثقلة بالأزهار البيضاء. بسط مفروشة على الأرض، وفرش وثيرة ووسائد صغيرة ملونة. عبد الله حمزة نقيب الأشراف والغانية وردة، وهي خليلة عبد الله. مجلس لهو ومجون. بينهما طبق كبير عليه أصناف من المازة والمشروبات. وبعيداً عنهما قليلاً ينهمك الخادم حارم، والخادمة بسمة في الشواء، وتحضير الطعام. وردة تمسك عوداً وتلاعب أوتاره).

وردة : (تغني بصوت ناعم يوشّيه المجون).

وإن كان قصدك بالغرّة   أنا مالي رايحة برّة
لنيمك على السرّة   وعلّمك شغل الهوى
يا نور العين..
وإن كان قصدك بنهودي   قم هات الدربكة والعودي
لنيمك على زنودي   وعلمك شغل الهوى
يا عين.. يا عين..
وإن كان قصدك بجسمي   قم هات لي بدلة على كسمي
لنيمك على جسمي   وعلمك لعب الهوى
يا نور العين..

عبد الله : يا محمد.. مدد، مدد.

وردة : (تجيبه متصنّعة الدلال، وتواصل النقر على العود). روح يا

مسكين.. خدودي تفاح الشام.

عبد الله : مدد، مدد.

وردة : روح يامسكين.. صدري عاج ورمان.

عبدالله : أحيِّ الظمآن، واعطني بوسة. **(يمد لها كأس العرق)** خذيها، واسقنيها من فمك.

وردة : ارفع هذا الحاجز أولاً.

عبد الله : أي حاجز يا حبة القلب!

وردة : حاجز الهيبة والوجاهة. **(وتغني بمجون)** صدرية عبد يا عبد.

عبد الله : تريدين أن أخلع الصدرية! حاضر.

(يخلع صدريته)

وردة : ومتيان عبد يا عبد.

عبد الله : وهذا المتيان.

وردة : ومحزم عبد يا عبد.

عبد الله : ونفك المحزم، لاحزمنا الله بغم أو هم.

وردة : قمباز عبد يا عبد.

عبد الله : وهذا هو القمباز. **(يرفع القمباز بحركة مخمورة، فيعلق في رأسه، يصرخ)** خلصيني من هذا الملعون..

وردة : الوجاهة خانقة يا عبودتي.. **(تضحك وردة، ويتضاحك الخادمان خفية)** والله إنه أليق وهو مقلوب. **(تقترب منه، وتدغدغه في خاصرته، فينط في مجلسه، وهو يضحك ضحكاً هيستيرياً)** ما هذا الخصر الوافر..! **(وتدغدغه)** ما هذا الإبط العاطر..!

عبد الله : **(كالمخنوق وسط الضحك والتشي)** لا.. لا.. تقتليني.. سأموت.. أرجوك، لا أحتمل الدغدغة.. يكفي.. يكفي. **(تساعده في خلع الرداء، وتسحبه من رأسه، فيتنفس بارتياح وعيناه تدمعان من الضحك)**.

عبد الله : يخرب شيطانك.. كدت أموت.. لا أحتمل الدغدغة.. والآن هاتي حقي.
(يضعها في حضنه، وينغمر في عناقها).

وردة : **(وهي تنفلت منه بدلال)** أخذت حقك وزيادة.

عبد الله : لا تبخلي على الظمآن.

وردة : لكل شيء أوان.

عبد الله : طيب.. جاء دوري. **(يصفق متمايلاً ويغني)** وسروال ورد يا ورد.

وردة : لا يطلع القمر في النهار.

عبد الله : **(وهو يجرع كأسه)** اليوم ستطلع النجوم والقمر في عزِّ النهار.

وردة : اسقني إذن. **(يملأ قدحها بالعرق ويرايشه بالماء، ثم يرفعه إلى شفتيها، فترشف منه رشفة نهمة)** أين الدربكة؟

عبد الله : **(صائحاً للخادم)** سخّن الدربكة، وهاتها.
(وردة، تتناول محزم عبد الله من الثياب المبعثرة).

عبد الله : انتظري.. سأعقده لك بنفسي. **(ينهض مترنحاً، ويحاول أن يربط المحزم. يطبطب على كفلها)** يا نمارق الجنة.. ما عاش من لم يتوسد مثلها.

وردة : أين العمامة الخضراء؟

عبد الله : إنها علامتي يا وردة..

وردة : سأضع علامتك على رأسي، وأزيّن بها رقصي.

عبد الله : ضعيها أنّى شئت. سأقول لك أمراً جاداً يا وردة. عبد الله لايقبل أن يشاطره أحد الماء الذي يحييه. لو علمت أن رجلاً آخر يمسّ هذه الكنوز..

وردة : وماذا يفعل رجلي الغيور إذا مسَّ رجل آخر هذه الكنوز؟.

عبد الله : ماذا أفعل! ستبرق الدنيا، وترعد. أجل.. ضعيها حلقاً في أذنك. ستبرق الدنيا، وترعد.

وردة : ما ألذّك! أتمنى أن أراك تبرق، وترعد. يا حبوبي الغشيم، المرأة التي تعرف عبد الله، لا يبقى لها غرض بالرجال.

عبد الله : الله أكبر.. تعالي.. (**ينحني، ويستند بيديه على الأرض، يقف على أربعة**) تعالي.. اركبي فوق ظهري.. افعلي بي ما تشائين. (**تركب وردة على ظهره وهي تضحك**) يا الله.. ما أخفّك. حرير دافئ يسترخي على ظهري. إلكزيني كي أشعر أنك جسد لا غيمة.

(**يأتي الخادم حاملاً الدربكة، وهو يجهد في إخفاء ضحكه**).

الخادم : الدربكة جاهزة يا سيدي.

عبد الله : هل سخّنتها جيداً؟

الخادم : نعم..

عبد الله : أسرع بالشواء.

(**يجلس عبد الله، يحتسي كأسه بجرعة واحدة، يضع الدربكة في حضنه، يجرّبها بنقرات خفيفة، ثم يضبط الإيقاع حتى يغدو راقصاً. تبدأ وردة بالرقص، وبين الحين والحين تقترب منه وتحني رأسها إلى الخلف باتجاهه، وكلما سقطت العمامة، أعادها إلى رأسها. ثم يستخفّه الطرب، فينهض وهو مستمر بالنقر على الدربكة، ويتلوى أمامها. تطوّق إليتيه بمنديلها، وتبدأ بتوجيه حركاته في جو مفعم بالضحك والنشوة والسكر. فجأة يقتحم المكان عزت بيك، قائد الدرك ومعه عدد من رجال الدرك. يصاب عبد الله ووردة بالذهول، يجمدان، وتتدور عيونهما**).

عزت : يا سلام.. يا سلام. أنس وطرب وغرام.

عبد الله : ما هذا! إني في بستاني. كيف تدخلون دون إذن أو دستور!

عزت : الحكومة لا تحتاج إلى إذن أو دستور.

عبد الله : وأنا.. ألا تعرف من أنا..!

(تحاول وردة أن تلملم نفسها، فترفع العمامة عن رأسها).

عزت : لا يا خانم.. دعيها على رأسك. يبدو أن السيد عبد الله أهداك نقابة الأشراف، وعليك أن تقبلي الهدية.

عبد الله : ماذا حدث! هل تغير الوالي! هل تغير السلطان!

عزت : ورأس أمي لم يتغير السلطان الأعظم، ولم يتغير الوالي.

عبد الله : إذن.. كيف تجرؤ! ألا تعرف من أنا! إني نقيب الأشراف.

عزت : لا أرى أمامي إلا نقيب الكيف والزِّنى. (للدرك) انظروا.. أتتعرفون على نقيب الأشراف في هذه القيافة! تعالي يا خانم.. سنتابع نزوات السيد عبد الله ومجونه. ارتدي الثياب، وأكملي هيئتك.

وردة : (محرجة) يا بيك.. استر، ستركَ الله.

عبد الله : إنك تتجاوز كل الحدود يا عزت بيك.

عزت : وأنت.. ألم تتجاوز الحدود! تعالي، ونفّذي الأمر.

وردة : أرجوك..

عزت : قلت تعالي.. وما همك أنتِ! ستتفرج عليكِ الشام، وأنت تتبخترين بثياب النقيب.

(يجرّها، ويجبرها على ارتداء ملابس النقيب).

عبد الله : هل جننت! هل تعرف عاقبة ما تفعل! إنك تهين كل الأشراف. إنك تشعل فتنة في المدينة.

عزت : ماذا تعلّك! هل تهدد الحكومة! سنرى إن كان الأشراف يحامون السكر والفسق والفجور. يا خانم.. أنت جميلة بهذا الزي. إنه يليق بك أكثر منه.

عبد الله : أعرف أن هذا تدبير المفتي. إنك تورّط نفسك يا عزت بيك في أمر لا يعنيك. هذه غلطة فاحشة، ستدفع ثمنها غالياً، أنت وذلك الثعبان الأرقط.

عزت : عندما يتبخّر العرق من رأسك، ستعرف من الذي ارتكب

الفواحش والأخطاء. **(إلى الدركي)** ضع القيد في يده.

عبد الله : أتقيدني أيضاً؟!

عزت : وستدخل دمشق في عراضة مهيبة. **(للدرك)** هاتوا بغلة السيد.

عبد الله : **(ينهار)** لا.. أرجوك يا عزت بيك. لا يمكن أن تفعل ذلك بي. **(بصوت هامس)** اسمع.. سلّفني هذا المعروف، ولن أبخل عليك.

عزت : منذ قليل كنت تهددني، والآن ترشوني!

وردة : **(تنحني على الأرض)** أبوس رجلك، استرنا.

عبد الله : أرجوك.. جنّبنا هذه الفضيحة. وأنا أصدقك النصيحة.. لاتضع يدك بيد ذلك الثعبان، ولا تأمن له. سيلدغك في أول فرصة. وإن زيّن لك التدخل في عداوتنا بالمال، فإن الجميع يعرفون أن يدي مبسوطة، وأني سأعطيك أضعافاً.

عزت : لا أعرف عما تتكلم! ولاتهمّني عداوتك مع المفتي في شيء. واجبي أن ألاحق ما يخالف الشرع والقانون، وأنا الآن أقوم بواجبي لا أكثر.

وردة : **(وهي تنهنه بالبكاء)** عبد الله له مركز ومقام. خذوني، واتركوه. أنا بنت الخطا، فخذوني ومالكم عليه شيء.

عزت : الخانم عاشقة. إنك محظوظ مع الغواني يا عبد الله. **(يحضر الخادم البغلة)** يا الله.. أركبوه، وأردفوا خليلته وراءه.

عبد الله : أتأخذني بهذه الثياب!

عزت : آخذك كما وجدتك.

عبد الله : **(متوسلاً)** أعطيك ماتشاء، وأشفق علينا.

عزت : يا الله.. فليتحرك الموكب.

عبد الله : **(يغضب ويزبد فيما يتحرك الموكب)** سترى.. إنك تضع يدك في نار ستحرقك.. هذا الخطأ سيدمرك أكثر مني.. سنرى

كيف تواجه غضب الأشراف وأعواني. إنك تشعل حريقاً.. إنك تشعل ثورة..

(يبتعد الموكب. قائد الدرك ورجاله يركبون خيولاً، ووسطهم عبد الله على ظهر البغلة مقيداً، ووراءه وردة بثياب نقيب الأشراف).

الخادم : **(دامع العينين)** يا حيف.. دالت دولة النقيب.

الخادمة : هل تعني أننا لن نتزوج!

الخادم : اتركي تصاريف الأيام، تقرر أمرنا.

الخادمة : يعني أنك تتراجع!

الخادم : لا أتراجع، ولكن بعدما جرى..

الخادمة : وما همّنا بما جرى!

الخادم : حقاً.. وما همّنا. على الأقل، سنأكل اليوم حتى التخمة، ثم.. انظري.. مازال الفراش ممدوداً **(يحضنها، ويختلس قبلة).**

الخادمة : **(تنفلت راكضة)** لا.. ابعد عني.

الخادم : **(يجري وراءها، وهو يدندن).**

إن كان قصدك بنهودي   قم هات الدربكة والعودي

(تلاشى الإضاءة)

المشهد الثاني

(إيوان الضيوف في بيت المفتي محمد قاسم المرادي. المفتي محمد قاسم المرادي ولديه ضيفان من الأعيان حميد العجلوني وإبراهيم دقّاق الدودة).

إبراهيم : هذه العداوة بينك وبين النقيب قسمت البلد، وأتعبت الناس.

حميد : والله يا شيخ.. أثّرت على تجارتنا، ومصالحنا. فالذين يقفون مع النقيب، لا يشترون إبرة من التجار المحسوبين عليك. والحمد لله، مؤيدوك هم الأكثر ولكن الحزازات بلغت حد الضغائن.

المفتي : وهل يسعدني هذا الوضع! ما تتحدثان عنه يسبّب لي الكمد والحسرة. كنا دائماً كالأسرة الواحدة، متحابين، متضامنين، لايدخل بيننا غريب. حتى اختاروا هذا النقيب، الذي لايملك من المؤهلات إلا أدناها. لم نقل شيئاً. اختاروه نقيباً، ليكن. قلنا خير وبركة. ولكن هو الذي بادر بالعداوة، وتطاول على مقامي.

إبراهيم : إنما نتحدث إليك، لأنك الماعون الكبير. والماعون الكبير يجب أن يسع الصغير.

المفتي : بذلت جهدي، وما أزال. تغاضيت عن الكثير من مضايقاته. وسكتُّ عن خفّته، وتجاوزاته. لم يدع سبيلاً للوفاق إلا وسدّه. ولو شئت أن أتحدث عما بذلت من جهد، لما كفاني

النهار بطوله. ومع هذا قولا لي، ماذا أفعل؟ إن كان لدى أي واحد من الأشراف والأعيان حلٌ لهذا الخلاف، فإني سأتعاون، وأستجيب.

حميد : بارك الله فيك يا شيخ. هذا ظننا فيك، ومثلك لايخيّب الظن.

المفتي : أستغفر الله.. إن مصلحة البلد أغلى علي من نفسي.

(يدخل زلمة المفتي. عبدو الدكّاك ووراءه يتدافع رجلان من العامة، هما العفصة وعباس السروجي. يحاول عبدو الكلام لكنهما يسبقانه).

العفصة : البشارة لك يا مفتينا، والحلاوة لنا.

عباس : رأت دمشق اليوم ما لايخطر على البال ولو في الخيال.

العفصة : رأينا عدوك مقيداً وعارياً إلا من الملابس التحتية. وقحبته تضع على رأسها عمامة النقيب، وترتدي ثيابه.

المفتي : ماذا تخرّفان؟

العفصة : نقول لك ما رأينا. أركبهما عزت بيك على بغلة، وساقهما في الحواري والأزقة، والناس تتفرج.

عباس : عجبت الناس وحوقلت، وانهال على عدوّك الصفير والبصاق واللعنات.

العفصة : وهما الآن في السجن يتابعان الوصال، والذي منه..

المفتي : **(غاضباً)** اخرس.. قطع الله لسانك ولسانه.

العفصة : أهذه بشارتنا! ألا يسعدك أن يقع عدوُّك هذه الوقعة! قامت دمشق، ولم تقعد. وما سمعته منا سيخبرك به الكثيرون. ولكننا أسرعنا كي نفرح قلبك، ونحصل على الحلاوة.

المفتي : **(ينظر إلى عبدو بغضب)** كيف سمحت لهما؟ كيف دخلا؟

عبدو : جاءا راكضين، وقالا إنهما يحملان لك خبراً عاجلاً وساراً.

المفتي : أهذا خبر سار! أيسرُّكم أن تهين مرتزقة الدرك أشرافكم! أن

يُمرِّغَ الأسياد والأكابر في الوحل! وكيف يتجرأ الواحد منكم على تناول نقيب الأشراف بهذه اللغة البذيئة، والخالية من كل توقير!

عباس : يا سيدي.. هذا ما رأيناه.

العفصة : وكنا نظن أنك ستفرح حين تعرف الوكسة التي حلَّت بعدوِّك.

المفتي : ليس نقيب الأشراف بالعدو. ربما كانت هناك خلافات في الاجتهاد والرأي، ولكن هذه الخلافات ليست عداوة. إن عدونا الآن، عدوّي وعدوّ الأشراف وعدوّكم أيضاً، هم هؤلاء الذين يحاولون الحطَّ من كباركم، وإهانة أشرافكم. إنهم يريدون أن ينكسوا رؤوسنا جميعاً، وأن يجعلوا الصغار يتطاولون على الكبار، والأوغاد على الأشراف. فهل يرضيكم ذلك؟

العفصة : ما ذنبنا إذا كان النقيب هو الذي أرخص نفسه!

المفتي : اخرس.. ولا أريد أن يلغو أحد بهذه القصة. اذهبا، وأخبرا عن لساني. لا أريد لغطاً في المدينة. وكل من يلغو بسيرة النقيب، سيكون حسابه معي.

العفصة : إذن، لاحلاوة يا شيخنا!

المفتي : **(إلى عبدو)** أخرجهما فوراً. والويل لمن يخوض في هذه القصة.

(يدفع عبدو الرجلين بفظاظة، ويخرجان).

حميد : **(مندفعاً)** دعني أتبرَّك فيك. **(يتناول يده، ويقبلها).**

المفتي : أستغفر الله.. أستغفر الله.

حميد : في مثل هذه المواقف، تعرف معادن الرجال. ما بدر منك أمامنا، زادك علواً وسمواً.

المفتي : كل امرىء يعمل بأصله، ولا أدري الآن، بعدما سمعنا ما

حدث، إن كنتما تجدان في جفائي للنقيب تجنياً أو تنافساً. هل يحقُّ لنقيب الأشراف أن يتصرف بمقامه ومنصبه بمثل هذا الطيش الأرعن!

إبراهيم : لا والله.. إذا صحَّ ما سمعناه، فإن هذا السلوك يشين الزَعَرَ، والعوام من الناس.

المفتي : وما يفعله واحد في مقامه، لا يسيء إلى نفسه فقط، بل يسيء إلى المقام ذاته وإلى كل المقامات. إنه يسيء إلينا جميعاً. ولا أعرف كيف يمكن أن يوقّر الناس بعد اليوم نقابة الأشراف، أو سواها من المناصب. إنه يضيّع هيبتنا، ويجعلنا مضغة في أفواه الرعاع والسوَقة.

حميد : وماذا تقترح يا مفتينا؟

المفتي : وماذا أقترح..! هو يخرأ، وعلينا نحن أن نمسح خراءه. لاينبغي أن تفوح هذه الرائحة بين العامة في المدينة. اذهبا الآن، واطلبا من الأشراف أن يوافوني في بيتي هذا المساء. عليهم أن يوحّدوا كلمتهم معي، وأن يساعدوني كي نجد تدبيراً، ينقذ شرفهم، بل وشرفنا جميعاً.

حميد : بارك الله فيك يا شيخ.. سنتقصى الأمر، ونذهب إليهم حالاً.

إبراهيم : لن ينسوا لك هذه البادرة أبداً.

المفتي : المهم أن تصفو القلوب، وأن يهدينا الله إلى تدبير مفيد.

(يحيّي حميد وإبراهيم الشيخ، ويخرجان).

المفتي : هذا فصل الختام يا عبد الله. وأعدك أن يكون فصلاً داوياً ومثيراً.

(يدخل عبدو).

عبدو : لقد قسوت على عباس والعفصة يا سيدي.

المفتي : ماذا كان بوسعي أن أفعل! أن أقسو عليهما خير من أن يقال،

أبدى المفتي ارتياحاً وشماتة.

عبده : على كلٍّ، حاولت أن أطيّب خاطرهما.

المفتي : حسناً فعلت. ولكن نبّه عليهما وعلى جميع الرجال من أنصارنا ألا يتجاوزوا الحدود، وألا ينسوا أن للمراكز حرمتها. إياهم أن يظنوا أن الفرصة سانحة، كي يتخطوا المراتب، ويلطخوا ببذاءاتهم الأشراف والأكابر.

عبدو : والله.. هذا ما قلته لعباس والعفصة، وبعدهما جاء كثيرون، يريدون أن يزفّوا لك البشرى، فنهرتهم، ولم أسمح لهم بالدخول.

(يسمع طرق على الباب).

المفتي : انظر من في الباب.

(يخرج عبدو مسرعاً، ثم يعود وهو يرحب بعزت بيك).

عزت : السلام عليكم يا شيخ.

المفتي : أهلاً وسهلاً. شرفت يا عزت بيك.

عزت : أخيراً.. أوقعته لك كالطريدة المبغوتة.

المفتي : هل أوقعته لي يا عزت بيك!

عزت : لي ولك إذا شئت.

المفتي : لا.. لا تدرجني في هذه القصة. وصيدك اليوم سيثير من المتاعب أكثر مما يحلّ.

عزت : ماذا..! هل تنفض يدك..!

المفتي : وما دخل يدي، حتى أنفضها!

عزت : من أبلغنا عن السيران إذن!.

المفتي : وما أدراني!

عزت : إنه واحد من رجالك.

المفتي : من رجالي!.. أعتقد أنك مخطئ يا عزت بيك.

عزت : ومن يكون العفصة إذن..!

المفتي : العفصة.! إنك تظلم رجالي إن اعتبرته واحداً منهم. منذ قليل، جاء يبشّرني بفضيحة النقيب، فطردته من بيتي. إن العفصة ضبع مقابر يعتاش من الوشايات والفتن والنمائم، ولايمكن أن أضم واحداً مثله إلى رجالي وأعواني.

عزت : دعني أفهم يا مفتينا. هل تريد أن تتنصّل من الأمر! هل انتهت العداوة بينك وبين النقيب!

المفتي : كنت أحسبك أكثر حصافة يا عزت بيك. أتعرف ماذا فعلت..! لقد رميت الطفل مع ماء الغسيل.

عزت : ورأس أمي.. لا أعرف ماذا تعني!

المفتي : أعني أنك غاليت، وتجاوزت في الصيد حدود المعقول. كان يكفي أن يشعر بالخزي أمامك. أما أن تخزيه أمام عامّة الناس، وتحقّر نقابة الأشراف، فهذا غلوٌّ واستهتار.

عزت : يا للعجب.! بدلاً من الشكر، أراك تنقلب علي. ما الذي تغيّر حتى تدافع عنه!

المفتي : لم أنقلب عليك، ولاتظن أني أدافع عنه. المسألة هي أن النظام في هذه المدينة يرتكز على مراتب وتوازنات. وما يضبط كل شيء هو عدد من المناصب التي ينبغي أن تحفظ حرمتها، وتُصان هيبتها. كما أن هيبة الدولة واحدة ومتضافرة، فكذلك الحال في مدينة الشام. اسمع.. لو أهان أحد منصب الوالي، ألا تصيب الإهانة الصدر الأعظم والباب العالي وكل الدولة!.

عزت : لا أفهم شيئاً مما تقول، ولا أعرف كيف يمكن أن تصيبك إهانة، لحقت بعدوّك اللدود.

المفتي : نعم.. إن الرجل عدوّي، ولكن نقابة الأشراف مرتبة تسند مرتبتي، وهيبتها تعزّز هيبتي. حين وضعت العمامة الخضراء على رأس قحبة، أهنت الأشراف، وأهنت عمامتي أيضاً.

ومن يعامل نقيب الأشراف بهذا الاستخفاف، قد يعامل المفتي لدى أول خلاف بالاستخفاف ذاته.

عزت : ألقمني أورادك بالملعقة يا حضرة المفتي. ماذا تريد أن تقول؟

المفتي : أردت أن أشرح لك أن الموقف معقّد. سامحك الله.. لو شاورتني في الأمر!

عزت : ظننت أنك تعلم، وأن الأمر لايحتاج إلى تشاور. ما الذي لايعجبك؟

المفتي : إن إفراطك في الإهانة نغّص علينا الفرحة. ماذا نفعل إذا غضب الأشراف، وأثاروا هياج العامة.

عزت : ولماذا يغضب الأشراف! هل رميته بتهمة باطلة! ألم أقبض عليه متلبساً بالفسق والسكر والعربدة!

المفتي : الفسق والسكر والعربدة، وأنت سيد العارفين، ليست أموراً نادرة في مدينتنا. والسلطات تعودت أن تغضّ الطرف، إلا في حالات الأذى العام، أو حين يكون في رأسها موّال.

عزت : وضّح لي، وأفدني. هل نحن حليفان أم لا؟

المفتي : نحن حليفان.. بالتأكيد نحن حليفان.

عزت : علامَ إذن هذا اللوم، والتقريع! كنت أتوقع أن تحتفي بي، وأن نحتفل معاً.

المفتي : تعبيري عن الحفاوة سيسبقك إلى البيت. والاحتفال سيكون له وقته، ولكن أرجو أن تفهمني.. إذا تعقّد الموقف، قد أجبر على التظاهر والمسايرة.

عزت : أتقف معهم ضدي!

المفتي : وهل يعقل أن أقف ضدك! لا.. لن ينالك مني إلا كل خير. وإذا اضطررت لاتخاذ بعض الخطوات، فلا تقلق. أنا أدرى بأهل الشام منك، فدعني أصرّف الأمور إذا تعقدت.

عزت : أنا الحكومة يا حضرة المفتي، والقرار في النهاية لي.

المفتي : أعرف.. أعرف.. ولكن هل تحتاج الحكومة الآن إلى شغب، ووجع رأس؟ قلت لك، اطمئن.. ودعني أصرّف الأمور.

عزت : ليكن.. ولكن أرجو أن تراعي ما بيننا. ولا أعتقد أنه سيكون مفيداً، أن يدبَّ بيننا الخلاف.

المفتي : معاذ الله أن يكون بيننا خلاف.

المفتي : هذا أملي.. سأعود الآن إلى المخفر، وأتابع ما يجري.

المفتي : الهدية تسبقك إلى البيت، والاحتفال سيأتي وقته.

عزت : وفّر على نفسك يا شيخ. ما جئت كي أتقاضى الثمن.

المفتي : يا عيب الشوم.. بين الأصدقاء لايحكى عن الثمن.

عزت : **(وهو يخرج)** سنرى..

المفتي : لم أبدد شكوكه، ولكن ماذا أفعل..! يا عبدو.. يا عبدو.. **(يدخل عبدو مهرولاً)**.

عبدو : حاضر.

المفتي : اسمع يا عبدو.. سأكلفك بمهمة دقيقة. هل استرضيت العفصة وعباس كما يجب؟

عبدو : نعم.. حاولت وسعي.

المفتي : طيب.. تذهب الآن إلى مدير السجن، وتقول له، حين يهبط الليل، وتعتّم العين، سنبدّل المرأة المسجونة مع نقيب الأشراف. وقل له، إذا عارض أو تردد، اعتبر نفسك بين الأموات.

عبدو : لن يجرؤ على الإعتراض.

المفتي : لو مانع، سيهدر دمه، ويضيع. وأوصيك بالكتمان. يجب أن يظل السر مصوناً بيننا.

عبدو : لا توصِ حريصاً.

المفتي : اذهب إذن، وعد سريعاً بالجواب.

(يخرج عبدو، وتتلاشى الإضاءة).

المشهد الثالث

(في مرجة منزوية على ضفة بردى. مفرش على العشب. العفصة وعباس يشربان، وبينهما بعض الأطعمة).

العفصة : هذا المفتي غميق.. يا لطيف.. إنه غميق جداً.

(يتاول عباس كأسه، ويحتسي جرعة كبيرة مشيحاً بوجهه، يبدو عليه الحرَد والانزعاج).

العفصة : أي أخي أبا الفهد.. لاتكن غضوباً.

عباس : إني غاضب. لا أستطيع أن أنسى الطاسة الباردة التي سكبها على رأسي.

العفصة : سكب علينا ماءً بارداً من جهة، وغمز عبدو من جهة ثانية. لولا أن المفتي أمَرَه، لما تجرأ عبدو على ملاطفتنا، وتطييب خواطرنا. كم توسل إلينا، كي نزرعها بذقنه! وكم أكد لنا، أن المفتي محكوم بظرفه! كانت محضورة يا أبا الفهد، وكان مجبوراً على التظاهر بالغضب. إن مفتينا غميق جداً. ومظهره لايكشف مخبره. إن المخبر ما قاله عبدو، لا ماقاله المفتي.

عباس : اسمع.. سئمت هذه السيرة. أنا رجل صريح، ولا أعرف التعامل مع المخبر والمظهر.

العفصة : وما العمل! نحن رجاله، وعلينا أن نسلّم أمورنا له.

عباس : أنا.. لا أسلّم أمري إلا لهذا الدبوس، وهذا الخنجر.

العفصة : ما لنا يا أبا الفهد.. بدأنا نغلط. أأنت الوحيد الذي يحمل دبوساً وخنجراً؟

عباس : لم أقل ذلك.

العفصة : الرجال، لايغيّرون ولاءهم كل يوم. ونحن، شئنا أم أبينا، محسوبون على المفتي.

عباس : إن الإهانة تقف في زوري.

العفصة : طيب.. كاسك. **(يرفع كأسه، ويدقها بكأس عباس)** سأقول لك مثل عبدو؛ لفّها وازرعها بذقني.

عباس : لا أدري.. أحياناً أتساءل، ما لنا وهذا كله!

العفصة : إنك صافٍ يا أبا الفهد، وبسيط أيضاً. أليس عيشنا من هذا كله! إن القبضاي مثلنا، يلزم أن يكون له مع الشجاعة ظهر ووجاهة. والذي يوفّر الظهر والوجاهة، هو رجلٍ كبير مثل المفتي، تنصره وتقضي حاجاته، فيقاسمك شيئاً من نفوذه وماله. **(يرفع كأسه)** اشرب أخي أبا الفهد.. اشرب.

عباس : **(وهو يرفع كأسه)** أخي.. هذا طبعي. أحب أن يكون كل شيء مستقيماً. إن نفسي تعاف اللف والدوران، أو التلبسة.

العفصة : لاتؤاخذني يا أبا الفهد. أنت أكبر مني، ولكن يبدو أن الحياة عركتني أكثر منك. شغل الكبار، كله لفٌّ ودوران. والمفتي يفتل البلد على أصابعه، بالسياسة والتلبسة. وهذا فن، مثل فن الكراكوزاتي، لايحسنه إلا أهل الكار، والأبرع هو الذي يكسب. كيف سقط النقيب هذه السقطة! لم يسقط إلا بالتدبير، والتلبسة.

عباس : فضَّ هذه السيرة، ودعنا نشرب. أريد أن أعبئ مخي.

العفصة : **(وهو يصبُّ في الكأسين)** هذا هو الكلام.

عباس : **(وهو يرفع كأسه)** نخب الطرخون!

العفصة : **(ضاحكاً)** ولماذا الطرخون!

عباس : خائن يا طرخون. ترزعه في مكان، وينبت في مكان آخر. قلت نخب الطرخون، وستشرب نخب الطرخون.

العفصة : **(يرفع كأسه)** نخب الطرخون يا أبا الفهد.

عباس : نخب الطرخون.

(يكرعان كأسيهما).

العفصة : يخطر ببالي أن اليوم مناسب، كي نذلّ أبا رياح.

عباس : هل تريد أن تذلّه؟

العفصة : نعم.. واليوم، ستكون شوكته مكسورة، بعد تجريس النقيب وسجنه.

عباس : منازلة الجريح خطيرة.

العفصة : ونحن لها.

(يظهر سمسم وهو يجتاز البستان وراءهم. وسمسم شاب مخنّث، يمشي مشية خليعة).

عباس : انظر من يأتي.

العفصة : **(يراه، فتتغير ملامحه بحدة)** لا تدعه يقترب من مجلسنا.

عباس : دعنا نتسلّى قليلاً. ما وراك يا سوس؟ هل ضيّعت الحبيب!

سمسم : **(ملتفتاً، بعد تردد قصير)** كيف أضيّع الحبيب، وهو يكلمني.

عباس : ومن الحبيب! تعال.. اقترب.

العفصة : لا.. لايصح. هذا نجاسة. إنك تدنّس مجلسنا يا أبا الفهد.

عباس : ما بالك! من يسمعك يظن أن مجلسنا في صحن الكعبة. أحب أن أناغشه قليلاً.

سمسم : **(متردداً)** هل دعوتني فعلاً!

عباس : تعال.. هل أنت خائف!

سمسم : **(وهو يقترب)** خائف..! فرطت أحشائي من الفرح.

(يتخذ العفصة هيئة حَردة، ويميل في جلسته عنهما).

عباس : خذ.. اشرب حليب السباع.

سمسم : أنا قتيل هذه الشوارب. بغيتي حليبك دون كل السباع.

عباس : يبدو أنها هائجة عليك.

سمسم : آخ يا أبا الفهد.. ولايشفيها إلا ضربة من خنجرك. أتذكر تلك المرّة اليتيمة! والله.. كأنك سللت روحي من بدني.

عباس : لا يا سوس.. الأصول، أن تراعي الحاضرين، وتوزع المحبة عليهم بالعدل.

سمسم : اتركها مستورة يا أبا الفهد.

العفصة : **(غاضباً)** امشِ من هنا. لا أريدك في حضرتي.

سمسم : أنا في حماك يا أبا الفهد.

العفصة : **(يسحب خنجره)** قلت امشِ وإلا جعلت جسمك غربالاً.

سمسم : **(يتراجع خلف أبي الفهد مذعوراً)** ولماذا تتبلّاني! هل تكلمت أو كشفت سراً!

العفصة : **(وهو يهب منتفضاً)** إي.. سأكشف أمعاءك، يا قحبة المقابر.

عباس : **(ينهض بدوره ملوّحاً بالدبوس)** ما القصة! ماذا أصابك يا عفصة!

العفصة : سأبعج بطنه.

عباس : **(محتداً)** لن تبعج شيئاً. هو في حمايتي. العمى.. طيّرت الكأسين من رأسي. ما الحكاية؟

العفصة : لا أطيق وجوده.

سمسم : **(بكيد نسائي)** هو لا يطيق وجودي، لأني أعرف بعض الأشياء..

عباس : وأنت يا ابن اللوطية.. ما معنى هذا الغمز واللمز!

سمسم : هل تحميني؟

(يقفز العفصة، ويحاول أن يطعنه، فيتصدى له عباس، ويلوي ذراعه).

العفصة : لا يا أبا الفهد.. أتبيعني من أجل هذا العِلق!

عباس : إي.. زدتها.. اهدأ، واجلس. وأنت أيها العرصة.. ماذا تريد

أن تقول؟

سمسم : أنا دخيل شهامتك.

عباس : تكلم.

سمسم : خبرناه، فلم نجد لديه إلا مثلٍ الرز، أو فتلة القماش. وعرفنا أن ما فينا فيه، وما يحكنا يحكه.

عباس : **(وهو يكتم الضحك)** الآن.. امشِ، ولا تلتفت وراءك. وإن كررت ما قلت، هلكت.

سمسم : **(محاولاً أن يختلس قبلة من أبي الفهد)** دعني أتزود بقبلة من حبيبي.

عباس : **(وهو يدفعه بصرامة)** إمشِ.

(يخرجِ سمسم، يجلس عباس، العفصة يطأطئ رأسه، وينظر في الأرض، يرين صمت ثقيل).

عباس : **(وهو يحتسي كأسه بهدوء)** اشرب يا عفصة.. اشرب.

العفصة : **(بلهجة ذليلة وعاتبة)** لو تركتني أسفح دمه!

عباس : وما الفائدة! تلوث يدك، ولا تغيّر من الأمر شيئاً.

العفصة : **(منكسراً)** هل سقطت من عينك؟.

عباس : وحياة الفهد وأبيه كانت لدي ظنون. لا.. أنت الآن حبوبتي، وسأضعك في عيني. اشرب..

العفصة : **(يحتسي جرعة وافرة)** هذه الملافظ تجرحني..

عباس : انكشفت علي مثل حلالي. ولا داعي للتظاهر بالحياء.

العفصة : **(وهو يمسك يد عباس، ويقبلها)** أبوس يدك.. استر.

عباس : **(وهو يضع يده على رقبته)** باطل.. وهل يفضح المرء حلاله!

العفصة : **(وهو يمرغ وجهه بيد عباس)** هل تعدني أن يظل كل شيء، كما هو في الظاهر؟

عباس : **(وهو يداعبه)** إذن سيكون لنا، مَخبر ومَظهر!

العفصة : ككل الناس يا عباس.. ككل الناس.

عباس : إذا كنت طيّعاً ومرضياً، فسأكون خيمة تغطيك، وتحميك.

العفصة : سأكون كما تشاء. آخ.. كم تعذبت وشقيت، كي أخفي هذا الأمر! كان كالدمّل يسممني في داخلي.

عباس : الآن.. انفقأ الدمل.. ويمكنك أن تستريح.

العفصة : نعم.. سأستريح. **(يدفن رأسه في حضن عباس)** انصب خيمتك فوقي.. وسأستريح.

عباس : **(وهو ينحني عليه)** ها هي خيمتي.! ستكون كما أنت.. ولن تشقى بعد اليوم.

(تتلاشى الإضاءة).

المشهد الرابع

(إيوانِ الاستقبال في بيت نقيب الأشراف. يجلس المفتي وحيداً في الإيوان، ويتشاغل بتفحص المكان. بعد قليل، تدخل مؤمنة، زوجة نقيب الأشراف. امرأة، فارعة القوام، تلتمع في وجهها عينان وهاجتان. ثيابها محتشمة).

مؤمنة : أهلاً وسهلاً يا شيخ.

المفتي : **(وهو يتفرس في وجهها)** كانت الحشمة تقتضي أن أرسل الحريم، ولكن المسألة حساسة، ولا أستطيع أن أعهد بها إلى خفة الحريم.

مؤمنة : كثّر الله خيرك. هل جئت كي تصفني بالخفّة!

المفتي : **(مرتبكاً)** لا.. عنيت حريمي.

مؤمنة : ألا يسموننا جميعاً، الحريم! ولكن لا يهم. لم تشرّفنا بالزيارة، كي نتبادل الحديث عن الحريم.

المفتي : هذا حق. أنت تعلمين..

مؤمنة : نعم أعلم.. ولا ألومك، ولو شعرت بالشماتة.

المفتي : لم أتحامل على نفسي، وأطلب هذه الزيارة كي أتشفى أو أشمت.

مؤمنة : هذا كرم منك. هل يحق لي أن أسألك عن غرض الزيارة إذن؟

المفتي : جئت كي أنقذ رجلك من ورطته.

مؤمنة : أنت..! تنقذه..!

المفتي : نعم.. أنا.

مؤمنة : وماذا يدفعك؟ ألم تكن تتمنى دائماً إزاحته، والتخلص منه؟

المفتي : واليوم.. أريد أن أنقذه. سمِّها ما تشائين. إن مروءتي تملي علي أن أمدَّ له يدي. هل ماتت النخوة! أينبغي أن نرمي كل بادرة طيبة بالظنون والريب! جئت ماداً يدي، فلا تجحديني.

مؤمنة : لا أريد أن أجحدك يا شيخ. ويجب ألا تستغرب إذا فاجأتني غيرتك، وساروتني بعض الشكوك. فنحن نعرف ما جرى، وما يجري بينك وبين نقيب الأشراف.

المفتي : دعينا ننسى ما جرى. ولنتعاون على حلٍّ هذه الورطة.

مؤمنة : ماذا تقترح؟

المفتي : هل أخبروك القصة، وتفاصيلها؟

مؤمنة : أخبروني كل شيء.

المفتي : إذن.. اصغي إلي.. عليك أن تتزوّقي قليلاً، وأن تتهيأي للخروج عندما يهبط الليل.

مؤمنة : وإلى أين تريدني أن أخرج!

المفتي : **(متلفتاً حوله)** أمتأكدة أن أحداً لايسمعنا؟

مؤمنة : لا.. كن مطمئناً.

المفتي : لقد دبّرت السجان، وكل شيء جاهز. حين يهبط الليل، سنأخذك إلى السجن، ونستبدلك بالغانية التي أمسكوها معه.

مؤمنة : والله إنه تدبير لطيف يا مفتينا. هذه فكرة لاتخطر إلا للدهاة من الرجال.

المفتي : ونجاحها مؤكد. ستنقلب الورطة على قائد الدرك، حين يعلم الوالي والناس، أنه قبض على النقيب وزوجته.

مؤمنة : وهل الفرق بين الزوجة والغانية طفيف إلى هذا الحد!

المفتي : المهم أن يُشكل عليهم الأمر، وأن نباغتهم بوجودك في السجن.

مؤمنة : وسأكون أنا التي جرّسوها، ووضعوا على رأسها عمامة النقيب!

المفتي : وحينئذ، سيلعنون أنفسهم، وتنقلب عليهم الورطة.

مؤمنة : **(عيناها شاردتان)** وسأكون تلك التي قبضوا عليها، وهي شبه عارية.. تلك التي كانت تتأود على الإيقاع الذي يضبطه نقيب الأشراف!

المفتي : سيهمل الناس هذا كله، حين يعلمون أن التي فعلت، هي الزوجة.

مؤمنة : والزوجة كانت سجينة البيت، تقرأ حكاية من ألف ليلة وليلة، وتسرح مع غمام الربيع. هل قرأت ألف ليلة وليلة يا شيخ؟

المفتي : ما هذه بالكتب التي يحتاجها الرجل العالم.

مؤمنة : سَتُطرّي قراءتها علمك الجاف.

المفتي : أترين أن علم الدين جاف يا مؤمنة..!

مؤمنة : لا أدري.. أحياناً أظن أنه جاف. ألا تظن أنه جاف؟

المفتي : وما أدراك بعلم الدين، حتى تتحدثي عن جفافه!

مؤمنة : هل أدهشك إذا علمت أني قرأت مكتبة أبي، ومكتبة نقيب الأشراف أيضاً؟

المفتي : **(مأخوذاً)** أعترف أنك تدهشينني.

مؤمنة : ومع الأيام، سأدهشك أكثر. ولكن لنعد إلى الموضوع. تريدني إذن أن ألعب في هذه القصة دور الغانية!

المفتي : حاشاك.. سنطرد الغانية كي تغدو الرفقة مع الزوجة.

مؤمنة : الزوجة ـ الغانية، والغانية ـ الزوجة. هذا تلاعب لطيف.. وخطير أيضاً. لا يا شيخ.. إنك تدفعني في طريق وعر، لا

أدري أين يفضي بي.

المفتي : (متحيراً) وما الوعر في الأمر! ستحلّين مع زوجك بعض الوقت. وحين يتأكدون من هويتك، تخرجان، وينتهي المأزق.

مؤمنة : ينتهي مأزق النقيب، ويبدأ مأزقي أنا.

المفتي : إني لا أفهم.. ألا تريدين أن تخلّصي زوجك من ورطته!

مؤمنة : ولماذا ينبغي أن أخلّصه! لكي أصونه للغواني! وهذا أمر، في الحقيقة، لايشغلني، بل ويمكن أن أتغاضى عنه. هناك ما هو أخطر. ما تطلبه مني، هو مقامرة مخيفة. هو سير على حافة الهاوية، والغواية. ماذا تشعر حين تقف على حافة هاوية؟

المفتي : أحاول أن أكون حذراً.

مؤمنة : هذا جواب الرجل المتزن والمستقر. أما بالنسبة لي، فإن الهاوية تهزّني من جذوري. يرعبني السقوط، ويغويني في الوقت نفسه. وبين الرغبة والرعب، أهتز اهتزاز الشجر في اليوم العاصف. هل تصدق..! معظم أحلامي، هي هذا المزيج من الرعب واللذة. ولكن لماذا أحكي لك هذا كله! أعتقد أني لا أستطيع أن أساعد زوجي أو أساعدك يا شيخ.

المفتي : أمرك غريب يا مؤمنة..! لم أتخيل أني سأتوسل إليك، كي تقدّمي خدمة زهيدة، تنقذ زوجك من ورطة كبيرة.

مؤمنة : أفهم عجبك يا شيخ، فأنت لم يخطر ببالك، أني حية، وأن لي أهواءً وأفكاراً. كان يشغلك النقيب، والأثر الطيب الذي ستخلّفه بادرتك. لا أعتقد أنك فكرت بي إلا كأداة طيّعة، أو شيء من أشياء النقيب.

المفتي : يجب أن تكوني طيّعة، وأنت في النِهاية، ملك النقيب.

مؤمنة : أرأيت.! هذا ما تفكر فيه. ما أنا إلا أَمَة، أو ملك من أملاك الرجل الذي تعاديه. وأنت لديك خطة، وتريد أن تظهر

مروءتك، وتنجد سيدي. فكيف لا أفرح، وكيف لا أطيعك في كل ما تدبّره!

المفتي : نعم. إن رفضك يثير عجبي وحيرتي يا مؤمنة.

مؤمنة : إني أرفض، لأني أقاوم الدخول في فتنة الغواية. لو قبلت، فسأنزلق إلى موقع الهشاشة. هشاشتي وهشاشة أوضاعنا. سأكون على طرف الهاوية. وأخشى هذه المرة، أن يجذبني نداء الهاوية بلا مقاومة.

المفتي : أعترف لك، أني لا أفهم مخاوفك، ولا أرى في ذهابك إلى السجن، ساعة من الزمان، كل هذه الأخطار المهولة التي تتحدثين عنها.

مؤمنة : هل اتفق لك، أن تنظر في دخيلتك يا شيخ؟

المفتي : الحمد لله.. ليس في دخيلة نفسي ما أخشاه، أو ما أخجل من إعلانه على الملأ. الحمد لله الذي جعل التقوى باطني وظاهري، وروّض لي النفس الأمّارة بالسوء على الطاعة والرضى.

مؤمنة : سعيد أنت يا شيخ. ومن يتراءى له، أنه يعرف نفسه لابد أن يكون سعيداً. إني أغبطك على ثقتك ويقينك.

المفتي : إن اليقين ضروري لمثلي. ولا أعتقد أن الوقت مناسب للحديث عن النفس وأهوائها. علينا أمر، ينبغي أن ننجزه. أنا أفهم انزعاجك. ومن الطبيعي أن تشعري بالمهانة، وأن تحاولي التعبير عن استيائك. ولكن هذا شأن بينك وبين ابن عمك، يمكن أن تواجهيه فيما بعد.

مؤمنة : أهذا ما فهمته من كلامي..!

المفتي : وماذا تريدين أن أفهم! إن المسألة أكبر من غيرتك، وتوجساتك. وذهابك إلى السجن، أمر تقرَّر ولايمكن أن تجادلي فيه.

مؤمنة : ومن قرره؟

المفتي : نحن قررناه. أنا وأشراف المدينة. وإن سمعتنا جميعاً مرهونة الآن، بنجاح هذه الخطة. إنك امرأة متكلّمة، وشخصيتك تثير التقدير. ولكننا في موقف حرج، لايسمح بألعاب الدلال، وتوهمات الخطر.

مؤمنة : أنا أتدلل! إنك لاتفهم شيئاً يا شيخ. وأقول لك للمرة الأخيرة. أنت تدفعني إلى منزلق خطير.

المفتي : لايوجد هذا المنزلق الخطير إلا في أوهامك.

مؤمنة : أهذا رأيك يا شيخ..! ليكن.. إذن، أنت والأشراف قررتم أن أتزوّق مثل غانية، وأن أحلَّ في السجن، غانية بدلاً عن الغانية. طبعاً.. أنا أعرف مغزى مروءتك، وغاية الإحسان الذي تسخو به. ما تريده، ليس إنقاذ النقيب، وإنما إذلاله بالجميل، وتطويق عنقه بمنّة لايستطيع الفكاك منها. إنك تريد أن تتحكم به، وتطرحه تحت رحمتك.

المفتي : هل عدنا إلى سوء الظن.!

مؤمنة : دعني أتمُّ كلامي. ليس قصدي التعريض، ولا أبالي كيف تصير العلاقة بينكما. أنا موقنة الآن أنك فزت، وأن تدبيرك إذا نجح سيجعل رسن النقيب بيدك. ولكن من الواضح لي ولك، أن التدبير لاينجح إلا إذا وافقت.. ومادامت حياتكم كلها مبنية على المساومات، فإني سأساوم بدوري قبل أن أوافق.

المفتي : وعلام تساومين! إنك تنسين دائماً أني أنقذ زوجك، وأنقذك أيضاً.

مؤمنة : هذا ما أريد أن أساوم عليه. سأتزوّق، وأذهب إلى السجن إذا ضمنت لي الطلاق بعد أن تختم هذه الحدوتة على هواك.

المفتي : **(مبغوتاً، وعيناه تبرقان)** أتريدين الطلاق..؟!

مؤمنة : نعم. ولن أذهب إلى السجن إلا إذا ضمنته لي.
المفتي : وكيف أضمنه..! هذا أمر لايتعلق بي. وربما يفوق طاقتي.
مؤمنة : حين يخرج، سيكون أطوع لك من بنانك. لن يستطيع أن يرد لك طلباً. وعلى كلٍّ، هذه هي رغبتي.
المفتي : لماذا لاتؤجلين الموضوع؟ هذه ساعة غضب. ولا تحمد القرارات في ساعة الغضب.
مؤمنة : لا.. لست غاضبة. وهذا شرطي النهائي، إذا أردت موافقتي.
المفتي : إنك عجيبة يا امرأة.. حقاً إنك عجيبة!
مؤمنة : هل قبلت؟
المفتي : سأفعل ما أستطيع.
مؤمنة : لا.. قل لي سآمر، وسأنفّذ.
المفتي : هذا غريب.. تزوّقي، وحين تظلم الدنيا سيأتي رجل كي يرافقك.
مؤمنة : والغانية.. ستكون جاهزة.
المفتي : **(وهو يخرج)** ما أعجب هذه المرأة! حقاً، ما أعجبها!
مؤمنة : والآن يا مؤمنة.. هل نلبي نداء الهاوية، ونبدّل كل شيء؟ في ظهري قشعريرة باردة. هل أجلس أمام المرآة، وأبدأ الزواق..؟ في ظهري قشعريرة باردة. هل أرمي اسمي، وأكسر أول قيد كبّلني منذ مولدي..؟ في ظهري قشعريرة باردة..
(تتلاشى الإضاءة).

المشهد الخامس

(زنزانة في السجن. يجلس عبد الله مُربدّ الوجه، ومتجمعاً على نفسه. تبدو وردة ضجرة ونافدة الصبر. هبط الليل، والقنديل العتيق المتسخ لايكاد يزيح الظلمة. في أرضية الغرفة طبق عليه بعض الأطعمة).

وردة : هل يمكن أن نقضي الليل هنا! لم يأت أحد. هل تخلى الجميع عنك! وانظر ماذا رموا لنا.. أهذا طعام يُقدم لنقيب الأشراف! أرجو أن تكلمني.. لا أستطيع أن أتحمل الصمت في هذا المكان. ماذا أصابك؟! لم تنظر إلي ولو مرة واحدة. تلفلفت على نفسك، وانعقد لسانك. أتعدّني مذنبة! وما ذنبي! ألم أطلب إليهم أن يعاقبوني بدلاً منك! لو طاوعتني، لما نجحت هذه المكيدة. كم مرة توسلت إليك أن تسجلني على ذمتك! ووعدت ثم ماطلت على عادة الرجال. لو كنت على ذمتك، لما جرؤ أحد على الاقتراب منا. واليوم، شاع أمرنا. **(تقترب منه)** عبودتي.. حبيبي..

عبد الله : **(يلتفت غاضباً)** لا تلفظيها مرة أخرى.

وردة : كنت تحب أن أناغيك، وأن أدللك. لايلائمك العبوس يا عبد الله. إنك تفقد جمالك وسحرك. أرجوك كلمني.. قل أي شيء. ليس عدلاً أن تتنكر لي. تقاسمنا الحلو وها نحن نتقاسم المر. فكر فيّ قليلاً. إني وحيدة. غداً يأتي أتباعك،

ويخلصونك. ولكن ماذا عني! هل تتركني لشماتة الناس وأذاهم..! وماذا أفعل إذا أهدر المفتي دمي! لاملجأ لي سواك. جعلتني أنذر نفسي لك.. ولم يبق لي سواك. أرجوك أن تسترني، وتحميني. ستكون شهامة، تكسف وجوه أعدائك. ستكون الرجل الذي يستحق أن تنذر المرأة نفسها له. ألم تقل لي إنك لم تعرف لذة المرأة إلا بعد أن عاشرتني! ألم تكن أوقاتنا فوارة بالحب والنشوة! **(تلف كتفه، وتداعب وجهه، فيبعدها عنه بحركة فظة)** أتبعدني الآن..! لايحق لك أن تعاملني، وكأني نجاسة. إني أحاول أن أمسح عنك الحزن. **(تمسح على شعره)**.

عبد الله : **(يزيح يدها بحركة عنيفة)** أوقفي هذا الطنبور، ولا تلمسيني.

وردة : الآن تقول لا تلمسيني.! كم جريت، وبذلت كي تنال لمسة مني. الآن لاتلمسيني.. وهذا الصباح، كنت ترقص على أربعة تحت عجيزتي.! يا خِسة الرجال. **(تضرب وجهها بكفها)** ولكن لماذا لاتتعلمين أيتها المعتوهة، أنك شرموطة بنت شرموطة. كم مرة اتفقنا ألا نثق بالرجال..! كم مرة تواصينا ألا نصدّق وعودهم وأكاذيبهم الدنيئة! منذ ساعات، كان يذوب وَجْداً، ويرعد غيرة، ويطلب أن أرصد جسدي وحياتي لنزواته وشهواته. منذ ساعات، كانت مؤخرتي نمارق الجنة بالنسبة له. والآن، يتقزز من لمساتي، وكلامي، ووجودي معه. ولماذا أنا هنا يا وردة! أليس بسبب السيد النقيب! والسيد النقيب يعاملني، وكأني العار الذي لحقه. إنك خسيس يا عبد الله.. أقول لك في وجهك، إنك خسيس.

(ينهض عبد الله غاضباً، يرفع يده ليصفعها، ثم يتوقف فجأة، تنكسر نظراته، ثم يتقهقر ويتداعى على الدكة التي يجلس

عليها).

وردة : (بدهشة وحزن) لماذا لم تصفعني؟ قل شيئاً. اشتمني.. اضربني.. يارب. ماذا جرى لك! لماذا تبدو منكسراً إلى هذا الحد! إني معك. وما قلته لا أعنيه. (تبدأ بالبكاء) إني وحيدة، وصمتك يضاعف وحدتي. هل أذنبت في شيء؟ ألم يكن السيران فكرتك! ووجودنا هنا، حادثة عابرة، وغداً تمر. لايجوز أن تنكسر عينك من أجل حادثة عابرة. غداً يأتي أهلك وأصحابك، فيطوون الحادثة، ويعاقبون المكيدة. وأناأرهقني الصمت والخوف. تخيّلت أن لي حظوة لديك، وأن هذه التجربة ستوحد مصيرنا. في البداية، فتنني أن نسجن معاً، ولم أتصور أن تتحول، وتنقلب علي. قل لي.. ألم تحبني ولو قليلاً؟

عبد الله : (هادئاً) إني أنساكِ.. إني أنسى ما سلف من الأيام.

وردة : لا يا عبد الله.. لا تستطيع أن تنساني الآن. ماذا أفعل.! إني خائفة. وحتى لو نجوت. ليس سهلاً أن أستأنف حياتي التي تركت. وأنت.. أنت بالذات من أجبرني على تركها.

عبد الله : مضت تلك الحياة التي كنت أعرفك فيها. مضت تلك الحياة التي كنت أعيشها. وغدي ظلام، لا أرى فيه منفذاً أو وميضاً.

وردة : أعرف الرجال يا عبد الله. وأعرف أنهم حين يقررون الهرب، يستخدمون جُمَلاً مبهمة، وألفاظاً ملتوية. كنت أظنك مختلفاً، ولكنكم لاتختلفون. تعودت أن أتعايش مع الخسة، والكذب والخفايا المنتنة. لن أنكسر مثلك. وإذا قررت أن تقطع، وتهرب، فسأجد القوة كي أتجاوز خوفي، وأواصل عملي. لست أول خيبة، ولن تكون الأخيرة. يا رب.. ما

أبشع هذا الصمت.. ألا تريد أن تعرف كيف بدأت هذا الطريق؟ نعم.. هي حكاية تروى. وماذا علينا! كلانا قال ما لديه. اسمع يا عبودتي.. يا من نسيت كيف كنت تمرّغ هيبتك وشاراتك وكيانك بين هذين الفخذين. يا من كنت تشهق على سرتي، وتنتف لحيتك من فرط اللذة. اسمع هذه الحكاية.. كان يا ما كان.. كان هناك بنت صغيرة. أحلى من البدر في ليل التمام. وكان أهلها يحتاجون الأكل، لا النظر إلى الجمال. فباعوها إلى أسرة ميسورة. وكان رب هذه الأسرة شيخاً جليلاً، له وزنه عند العامة والخاصة. وسيأتي يوم نكشف اسمه، ونعيّن صفته. كان الشيخ الجليل يلحظني بعنايته. وقبل أن أحيض، كان قد كشف لي الطريق، وسار معي فيه، كان يفسق بي، وهو يعلمني طبقات الفسق ومراتبه. وحين جاءني الحيض..

(صليل معدني مباغت. يُفتح الباب. يدخل عبدو ومعه مؤمنة التي اختفت في عباءة سوداء، وتنقّبت بحجاب أسود).

عبود : **(هامساً)** لا تقل شيئاً يا سيد الأشراف. ولاتحدث أي ضجة. **(إلى وردة)** هيا أيتها المرأة، وتعالي معي.

وردة : من أنت؟ ولماذا أجيء معك؟

عبدة : ابلعي لسانك، وتعالي معي.

وردة : ولماذا أبلع لساني؟ أمسكوني مع النقيب، ولا أريد أن أخرج إلا معه.

عبدو : امشي معي، وإلا حطمت وجهك.

وردة : على مهلك.. على مهلك.. كسرت يدي. أريد أن أمشي على ضوء. ومن المحروسة بسلامتها.؟

عبدو : **(وهو يجرها بقسوة)** لست فاضياً لطقّ الحنك.

مؤمنة : انتظر.. انتظر..

(**تخلع مؤمنة ملايتها ونقابها**).

وردة : أيهون عليك يا عبد الله ما يفعله بي!

مؤمنة : تعالي أيتها المرأة!

وردة : اسمي وردة يا من تسرقين مطرحي.

مؤمنة : (**برقة**) عاش اسمك يا وردة. خذي.. إلبسي الملاية، وضعي النقاب.

وردة : لا ياست.. أنا أحب السفور.

مؤمنة : اسمعي يا وردة.. أنا زوجته. وجئت كي أنقذك، وأنقذه.

وردة : (**مبغوتة**) زوجته..!

عبدو : افعلي ما تقوله لك.

وردة : (**مرتبكة**) كيف آخذ ملايتك ونقابك. أنا تعودت على السفور، أما أنت..

مؤمنة : إن الموقف يقتضي أن أكون سافرة. ولعلي سأتعوّد على السفور بعد هذه الليلة. يا الله.. الوقت ضيّق. إلبسيها.

عبدو : إلبسيها، وخلصينا.

وردة : (**وهي ترتدي الملاية، وتتنقّب**) وكيف أردّها لك؟

مؤمنة : لاتشغلي بالك. ربما زرتك قريباً.

وردة : وتزورينني..!

عبدو : (**وهو يجر وردة**) يا الله.. امشي.

(**يخرجان بخطئً متعجلة وخفية، ثم ينطبق وراءهما الباب، ويرتفع الصليل المعدني**).

مؤمنة : ألا تسأل لماذا جئت!

عبد الله : أخجل أن أسأل.

مؤمنة : لا تتصرف كطفل كبير. لماذا تُنكس عينيك، وتتحاشى النظر إلي؟

عبد الله : هذا اليوم، كسر عيني، وكسر روحي أيضاً. أود لو أغيب،

فلا أرى أحداً، ولا يراني أحد.

مؤمنة : هوّن عليك. ما هي إلا فضيحة صغيرة، ومجيئي سيمحوها من خواطر الناس. غداً، سيكون بوسعك أن تعود عبد الله الذي يختال بين أعوانه وغانياته.

عبد الله : يحق لك أن تغضبي، وأن تلومي.

مؤمنة : لست هنا كي أغضب أو ألوم.. ولكنك لاتسألني لماذا جئت!

عبد الله : لماذا جئت؟

مؤمنة : لأن الوالي قد يبعث رسولاً، كي يتأكد أن الغانية التي أوقفوك بسببها، ورموك في السجن معها هي زوجتك. انظر إلي.. ألا ترى كيف تزوقت، وماذا أرتدي؟ ينبغي أن أكون الغانية. ألا أشبه الغانية؟

عبد الله : ومن حَبَكَ هذه القصة؟

مؤمنة : وهل يستطيع أن يحبك هذه القصص إلا المفتي.

عبد الله : (ذاهلاً) المفتي..!

مؤمنة : نعم المفتي.. ولعله الآن ومعه الأشراف عند الوالي.

عبد الله : المفتي ومعه الأشراف..! هذا هو التلف الذي أخبرني أبي عنه.. من الصعب أن أشرح لك.. كم تقلّب حالي منذ دخلت هذه الزنزانة..! أشعر أني في مخاض صعب.

مؤمنة : كلنا الآن في هذا المخاض.

عبد الله : حين جلست في عتمة هذا المكان، وكانت لاتزال آثار السكر تغشى عقلي وبصري، تراءى لي والدي. لم يكن غاضباً، بل كان حزيناً. بصوته العميق والرخيم، سألني.. ماذا فعلت بميراثي يا عبد الله! وتمنيت لو تبلعني الأرض إلى قعرها. غضضت بصري، واحتواني العار كأنه جلدي. حقاً.. ماذا فعلت بميراثه! وقال لي، وكأنه يواسيني.. أتلفت

ظاهرك، فتدارك باطنك، وأنقذه من التلف. ولاتنسَ يا عبد الله أني عشت سبعين سنة. ووالله لو وضعوا هذه السنين السبعين على طبق وعرضوها أمام الخالق، لما خجلت من شيء فيها مهما صغر شأنه. نعم.. خلال ساعات قليلة يخيّل إلي أني ألقيت حجاباً على مافات، وأني أتحسس في القمة باباً إلى ما تبقى من فضلة العمر. لا أدري.. ولكن حياتي ستتغيّر أو تغيرت فعلاً. وأرجوك أن تسامحيني. أعلم أني آذيتك، وأعدك أني سأكفّر عن كل أذىً ألحقته بك.

مؤمنة : سيظل أبوك يلاحقك إلى مماتك يا عبد الله. وعلام أسامحك! لم تؤذني في شيء. تذكّر.. هل عاتبتك من قبل! هل سألتك يوماً، أين كنت، وماذا فعلت! هل استنكرت تلك الروائح التي كنت تحملها بلا حرج إلى فراشنا!

عبد الله : أعترف أنك امرأة من معدن نادر، وأنك بالتسامح والكياسة والكرم علوت علي كثيراً.

مؤمنة : لم يكن همي أن أعلو عليك. كنا منفصلين منذ ليلة زفافنا، وكان كل واحد يدور في حلقة نفسه. كنت مشغولاً عني، وكنت مشغولة عنك. ولم يكن هناك أي دافع جدي للغيرة أو النكد. ما كان بيننا إلا العقد، والسكن، وتلك العناقات المخنوقة تحت ثقل الحياء والهيبة والطهارة. لا.. لم يكن تسامحي كرماً، بل كان نوعاً من اللامبالاة. ولو حاولت أن أفكر في زواجنا، لما تذكرت إلا الصمت وبعض المظاهر، ولزوجة تلك العناقات. نعم.. إن أحداث هذا اليوم، ودخولنا هذه الزنزانة سيعجلان بالمخاض الذي ينتظره كل منا.

عبد الله : هل كان زواجنا سيئاً إلى هذا الحد!

مؤمنة : كان زواجنا، زواجاً لا أكثر.

عبد الله : سأكفّر عن كل لحظة فاتت.

مؤمنة : قلت لك.. ليس هناك ما تكفّر عنه. لا أحمل لك أي ضغينة أو لوم، ولم أشعر يوماً بالغيرة. أو إذا شئت الحق، كنت أغبط تلك الغانيات، ولكن ليس لأنك كنت معهن، بل لأنهن غانيات. يوم زفافنا أجلسوني على الأسكي، وأوصوني أن أغضّ طرفي، وأن أتجهم، وأن أخجل. ظهرت راقصة في الجوق الذي كان يحيي حفلة الزفاف. كان جسدها حراً. يكاد يضيق به فناء داركم الواسعة. كان جسدها يتدفق، يتماوج، يمتد، يضحك، ويشهق. كانت حرة كالهواء، وثوبها البرّاق يود لو يتساقط، ويتركها تجمع وتضيء الليل. كم تمنيت أن أنهض عن الأسكي. أن أمزق الثوب الذي يحزمني، ويصيبني كالقالب. وددت أن أقفز، أن ألتقط الإيقاع، وأنضم إلى الرقص. يومها أحسست أني قادرة على الرقص حتى الصباح. وكنت متيقنة أني لن أمس الأرض إلا مساً عابراً. سأظل في الجو، في الهواء، في هذا الفضاء الليلي المنعش. وسأكون حرة، حرة مثلها، حرة إلى الأبد. ويومها قلت في نفسي.. لعلي أفعل ذلك حين يخلو بي. الغرفة ضيقة، ولكني سأجعل الجدران تنزاح، وسأترك جسدي يتدفق، ويتضاعف (باشمئزاز).. وأنت تعرف الباقي. على كل، لم أغامر بالمجيء إلى السجن كي نتحدث عن زواجنا، ونتذاكر أيامنا. قل لي.. ماذا كنتما تفعلان عندما باغتكما الدرك؟

عبد الله : يا رب.. إنك مجروحة، وجرحك عميق. لاشك أن جرحك هو الذي يتحدث من فمك. وأنا لا أعرف إن كنت أتحمل مزيداً من الخجل فوق خجلي.

مؤمنة : لست مجروحة، ولا تلم نفسك. أجبني.. ماذا كنتما تفعلان؟

عبد الله : يا رب.. وفِّري عليَّ هذا الهوان. ولماذا تريدين أن تعرفي!

مؤمنة : لكي تكون الأفعالِ والأقوال متطابقة. هل كانت ترقص؟ (يومئ برأسه خجلاً) علامَ كانت ترقص؟

عبد الله : (مخفياً وجهه بيديه) لا أذكر..

مؤمنة : ينبغي أن تتذكر. انظر.. (تبدأ بالتلوي استعداداً للرقص) نعم.. أنا أرقص أيضاً. ينقصني شيء من المرونة والخفة. لكني قريباً سأتجاوز هذا العيب. يا الله.. أعرف أنك تضبط الإيقاع جيداً. لانحتاج إلى الطبلة. يمكن أن تصفق، وتُوقِّع لي اللحن.

عبد الله : يا رب.. ماذا تفعلين! أنت مؤمنة! أنت زوجتي!

مؤمنة : أنا الآن غانية، قبضوا عليك معها. ساعدني وإلا فسد التدبير كله. هل كنت تضبط الإيقاع بالطبلة أم بالزهر؟

عبد الله : (ذليلاً) بالطبلة.

مؤمنة : طيب.. عندما تتذكر اللحن، اتبعني.

(تبدأ مؤمنة بالرقص. في البداية تكون حركاتها مرتبكة وخشنة ثم ترقّ وتزداد إيقاعية وجمالاً).

عبد الله : (يتابعها مبهوتاً) يا رب.! يا رب.! يا رب.!

(تتلاشى الإضاءة).

المشهد السادس

(في دار الوالي. الوالي، ويبدو ناعساً ومنزعجاً. المفتي وحميد العجلوني وإبراهيم دقاق الدودة وصفوت العابدي وهو مندوب الأشراف في المدينة).

الوالي : يا محمد.. هذه قصة لاتدخل إلى العقل. أفكر.. وأفكر.. وأجدها لاتدخل إلى عقلي. بانتظار عودة الكشافة، يجب أن نستدعي قائد الدرك لكي يوضح لنا غرضه، وسبب هذا الفعل.

المفتي : لا يا حضرة الوالي.. لانقبل أن يضمّنا معه مجلس. هذا خصمنا والمفتري علينا. ونحن كما قلت ضاق بنا العيش، ولم يعد يأمن المرء على الاختلاء بأهله وحلاله. كيف يمكن أن نقعد في مجلسه بعد هذه الإهانة؟

صفوت : والله.. هذا رأينا جميعاً. بعد هذا التعدي على الحرمات! صار العيش في مدينتنا ذلاً وكرباً.

المفتي : لم نعرف كيف نهدئ الأشراف، ورجال الحارات. إنهم كالبارود الذي ينتظر شرارة. أعطوني مفاتيح دورهم، وسندات أملاكهم وقالوا لنا، أعطوها للوالي إذا كان يقبل لنا هذا العار، فما عادت الديار ديارنا، وماعادت المدينة أرض سكن لنا. وكما ترى.. المفاتيح والسندات بين يديك يا حضرة الوالي.

الوالي : أنتم تعرفون أني لا أحب المشاكل. وهذا الحديث عن البارود لايعجبني.

صفوت : كيف لايغضبون وهم يرون أن رجال الأمن لايوقرون لهم كبيراً! يقتحمون خلوة نقيب الأشراف مع حريمه دون حياء، ويجرونهما وسط البهدلة إلى السجن.

المفتي : نحن نعرف حرصك على الهدوء واستقرار البلد. وإننا لم نقصّر في تهدئة الأحوال وضبط الاستقرار، ولكن ما حدث اليوم لايمكن السكوت عليه. وما جئنا إلا لكي تنصفنا، وتعيد لنا حرمتنا. أما المفتري، فنترك أمره لعدلك وتقديرك.

حميد : الحقيقة أن شخصاً متهوراً مثل عزت بيك لايصلح أن يكون قائد الدرك.

صفوت : والعدل أن يرمى في السجن بدلاً من النقيب الذي افترى عليه.

الوالي : لا تملوا عليَّ ما ينبغي عمله مع موظفي ولايتي.

المفتي : لا أحد يملي عليك شيئاً يا حضرة الوالي. إنها أفكار نتداولها. هل يمكن لرجل حصيف ونزيه كوالينا أدامه الله، أن يترك هذه الحماقة الشنيعة بلا عقاب!

صفوت : ونقول لك بصراحة إن الخواطر لن تهدأ مالم يعاقب المفتري علينا.

الوالي : طيب.. دعونا ننتظر ما يأتي به الكشافة أولاً يا محمد.. هذه قصة لا تدخل إلى العقل.

(يدخل خصي الحريم).

الخصي : سيدي.

الوالي : ماذا! هل تقصيتم الأمر جيداً؟

الخصي : نعم. والمرأة المسجونة مع النقيب هي زوجته.

الوالي : أهذا أكيد؟

الخصي : لا مجال للشك يا سيدي.
الوالي : طيب.. انصرف.
المفتي : بان الحق وزهق الباطل يا حضرة الوالي.
الوالي : نعم.. نعم. والله، قصة تحيِّر العقل.
صفوت : بعد هذا.. أتلومنا إن غضبنا!
إبراهيم : الإهانة لحقت بالمدينة كلها.
الوالي : طيب.. طيب.. سنصلح الخطأ فوراً. سنفرج عنه، وسنعتذر له أيضاً. وأنتم.. لاتؤاخذوني. هذه القصة لم تدخل عقلي في البداية، لأني كنت أعتقد أن قائد الدرك رجل عاقل ويُعتمد عليه.
صفوت : من حقنا أن نطلب عقابه.
الوالي : سأرى.. سأرى. ولكن سأعتمد عليكم في تهدئة الناس، ومنع أي شغب، تعرفون حبي للاستقرار، ولا أريد أن تلطخ ولايتي الاضطرابات والمشاغبات.
المفتي : ما دمنا نتعاون، وحبل الود بيننا ممدود، فإني أعدك أن تظل الشام كالبركة الساكنة، لايعكر الموج سطحها.
الوالي : مشكور يا مفتينا. وإن شاء الله لاينقطع حبل الود ما دمت والياً على الشام. وأنا الآن مبسوط جداً، لأنه لم يعد هناك خلاف بينك وبين نقيب الأشراف.
المفتي : إهانة الغريب توحد الأهل، وتمحو الخلافات العابرة.
الوالي : هل تريد أن تذكّرني بغربتي!
المفتي : أستغفر الله.. أنت رأسنا، وأصبحت من عظام رقبتنا. والآن نستأذن في الانصراف. وسامحنا لأننا أيقظناك من جوف الليل، وأتعبناك في السهر معنا.
الوالي : لا.. لا.. كان ضرورياً أن تأتوا، وأن أعلم ما يجري. إذهبوا، وهدئوا الرجال. وأرجو أن تصحو المدينة غداً بلا عكر. قبل

أن تصلوا بيوتكم، سيكون النقيب قد أفرج عنه، وسنحاول أن نردَّ الاعتبار لكل الأشراف ووجهاء البلد. انتظروا.. لعلكم نسيتم المفاتيح والسندات.

صفوت : سنتركها أمانة حتى تقتصَّ لنا من الذي أهاننا.

الوالي : لا.. لا. خذوها.

المفتي : سنأخذها، وتأكدوا أن عدل حضرة الوالي لن يخذلنا.

(يحيّون، ويخرجون).

الوالي : ثعايين.. والله.. كلكم ثعايين. وهذا الخرا عزت. ماذا يريد! هل يحاول أن يشعل الفتنة في ولايتي! أيريد أن يزعزع مركزي! هل يجري الماء تحتي وأنا لا أدري! إف.. إني نعسان، والصباح رباح.

(تتلاشى الإضاءة).

المشهد السابع

(في السجن. عزت ودركيان يمسكان بذراعيه. السجّان. عزت شديد الغضب مكفهرّ الوجه وعلى زاويتي فمه زبد دبق. إنهم جميعاً أمام الزنزانة).

عزت : جنون.. ورأس أمي، هذا جنون. ألم تكونا معي! **(فجأة بلهجة آمرة)** اتركا ذراعيّ، وقدما سلاماً تعظيماً.

دركي (١) : لا تصعّب مهمتنا يا عزت بيك.

عزت : أنا قائدكم، وأنا الذي أعطيكم الأوامر.

دركي (١) : لعلك كنت.

دركي (٢) : الوالي فوق القائد. والوالي أمر أن توضع في السجن، ونحن لانستطيع أن نخالف أمر الوالي.

عزت : هذا الوالي رِمَّةٌ يتلاعب بها الواشون والخصيان.

دركي (٢) : **(لزميله)** تظاهر بأنك لم تسمع ما قال.

دركي (١) : وماذا قال! لا.. لم أسمع ما قال.

عزت : أتتشاطران يا أولاد الزواني! **(بلهجة آمرة، والدركيان يستجيبان بحركة لاشعورية ثم يتراجعان)** أنت وهو.. أجيبا.. البارحة، حين كبسنا نقيب العرصات. من وجدنا معه؟

دركي (١) : وجدنا معه امرأة.

عزت : أعرف أنها امرأة. ولكن من كانت تلك المرأة؟

دركي (١) : تبيّن أنها زوجته.

عزت : كيف تبيّن! ألم تكن تلك الغانية التي اسمها وردة!

دركي (٢) : نحن لا نعرف. قلت لنا إنها غانية، وصدّقنا. أمرتنا أن نقبض عليهما، ونفّذنا. ونحن ما أدرانا.. المرأة تشبه المرأة. واليوم علمنا أن المرأة التي قبضنا عليها كانت زوجته.

عزت : لم تكن زوجته.

دركي (١) : الوالي والناس جميعاً يؤكدون أنها زوجته.

دركي (٢) : وهذا يعني بالدليل واليقين أنها زوجته.

عزت : حلٍّ عن سماي، أنت وواليك. البارحة تفرجت عليهما الشام كلها، ولم يذكر أحد أنها زوجته. فماذا حدث اليوم! اسمع أيها السجان.. أنت رأيتها. قل لي.. هل كانت زوجته!

السجان : لم أنظر إليها. ولكن حين أرسل الوالي، أطال الله عمره، وفداً من حريمه وخصيانه، تبيّن أنها زوجته.

عزت : ألم يأت أحد إلى السجن قبل الحريم!

السجان : لم يأتِ أحد.

عزت : لعلك غفلت، أو ذهبت لأمر.

السجان : لا أغفل، ولا أغادر السجن.

عزت : أتقسم؟

السجان : أقسم برأس أمك. ليس لك علي يمين. لو تبصرت، وتحققت، لتجنبت هذه البهدلة.

عزت : جنون.. ورأس أمي هذا جنون. يريدون أن أفقد عقلي. وكأنني لا أعرف البلد ومافيها. وكأنني لا أعرف وردة، ولا أميّز وجهها. أيها الدركي.. اذهب، واحضر البنت وردة. ابحث عنها في بيتها، في أوكار المدينة وحواريها، وأحضرها إلي حالاً. هيا تحرك..

دركي (١) : (لزميله) ماذا قال؟

دركي (٢) : هل قال شيئاً؟

دركي (١) : يا الله يا أبا إبراهيم.. لماذا لاتفتح الزنزانة وتخلصنا!

عزت : ألم تعد لي طاعة أيها الجربوعان! انتظرا.. سأحل هذا اللغز، وسأعود إليكم. ماذا حدث! كيف تخفى الحقيقة في ليلة واحدة! كيف تنقلب الحقيقة خديعة، والخديعة حقيقة! هل جُنَّ الوالي..! هل جن الناس! هل جنت المدينة..!

دركي (١) : الكل مجانين، وأنت العاقل الوحيد.

عزت : **(صارخاً)** لم تكن زوجته، وكلكم تعلمون.

دركي (٢) : بل كانت زوجته.

دركي (١) : الوالي يؤكد، ونحن نؤكد، والناس كلهم يؤكدون.

دركي (٢) : لن نقضي النهار في الأخذ والعطاء. ماذا تنتظر يا أبا إبراهيم!

السجان : يجب أن نغيّر زيه قبل أن نضعه في السجن. القانون يمنع سجن الرتبة، والزي الحكومي.

دركي (١) : صحيح.. ألم يقل الوالي انزعوا رتبته، وارموه في السجن!

السجان : معلوم.. الزي والرتبة لهما حرمة.

دركي (٢) : وماذا يلبس؟

السجان : جلباب المساجين.

عزت : ولماذا لايكون قميص المجانين!

دركي (١) : إذا واصلت العناد والهلوسة، سيأتي دوره. هيا ساعدنا. واخلع هذه الملابس.

عزت : لاشك أن العالم اختل، والحقيقة ضاعت. كيف تضيع حقيقة بهذا الوضوح!

(ينزع الدركي الأول رتبته، يناولها للسجان فيما يفك الدركي الثاني أزرار سترته).

عزت : لم يخبرني مخبر، بل رأيت ورأوا معي. إنهم يعرفون الحقيقة ويخفونها. إنهم يكذبون. **(يسحب الدركي السترة من ذراعيه، ويبقى بقميصه الداخلي)** إنكم تكذبون. أخفيتم

الحقيقة كي تنالوا مني. كي أبدو مختلاً **(بعد فك الحزام والأزرار، يسقط البنطلون إلى قدميه، يلاحظ جسده شبه العاري، يستيشط غضباً)** ماذا فعلتم يا أولاد القحبة! **(يصفعه الدركي الثاني صفعة مدوية، فينظر إليه عزت ببلاهة، وهو يضع يده على خده)** أتصفعني..! كيف تجرؤ..!

دركي (٢) : ومن أنت حتى تشتم الدرك!

عزت : أنا عزت بيك.

دركي (٢) : طز.. ما أنت الآن إلا سجين مخبول. **(يحاول عزت أن يضربه، فيمسك الدركي يده)** اهدأ.. وإلا عفستك برجليّ. هات الجلباب يا أبا إبراهيم.

عزت : **(وهم يلبسونه جلباب السجن)** جنون.. ورأس أمي هذا جنون.. اختلت الموازين، وعميت العيون، ودفنت الحقيقة بمؤامرة وتدبير. لم تكن زوجته، ولو أجمعت السماوات والأرض على ذلك.

(بعد ارتداء الجلباب، يفتح السجان الزنزانة، ويدفع الدركيان عزت إليها ثم يغلق السجان الباب).

عزت : **(من وراء القضبان)** لم تكن زوجته. سأكشف هذا اللغز، وأعود إليكم يا أولاد الزواني.

دركي (١) : الآن.. بعِّر كما تشاء.

دركي (٢) : هيا بنا..

عزت : **(صارخاً)** انتظرا.. بحق العشرة.. هل أطلب منكما خدمة صغيرة؟

دركي (١) : ماذا تريد؟

عزت : ابحثا عن وردة، وقولا لها أن توافيني إلى السجن.

دركي (١) : أتحسبنا مجانين!

دركي (٢) : دع عنك هذا الهبل. ولا تزد غضب الوالي غضباً.

(يخرج الدركيان).

عزت : أقسم. إنها لم تكن زوجته. يريدون أن أجن.

السجان : اسمع.. لست قاضياً لك. ما أعرفه هو أن المرأة التي خرجت من السجن كانت زوجته.

(يدخل عبدو).

عزت : **(يصيح فرحاً)** ها أنت يا عبدو.. أين المفتي؟ انظر ماذا فعلوا بي.

عبدو : **(للسجان)** هل تأذن لي بالكلام معه؟

السجان : تفضل.. تفضل.. يا عبدو.

عبدو : **(وهو يواجه عزت من وراء القضبان)** جئت أحمل لك يا عزت بيك أسف سيدي وملامته.

عزت : ملامة.. وعلام يلومني!

عبدو : زدته حرجاً على حرج. كيف يجوز أن تقبض على النقيب وهو في خلوة مع حريمه!

عزت : لم تكن حريمه. قل للمفتي، وأكد له أنها لم تكن زوجته. صدقني في الجو ما يريب.

عبدو : اسمع يا عزت بيك. تحققنا، وتأكدنا أنها زوجته. والناس كلهم مقتنعون أنك قبضت عليه وهو في خلوة مع زوجته.

عزت : كانت وردة يا عبدو. أنت تعرف وردة، والعفصة يعرفها أيضاً. أرجوك.. قل للمفتي أن يطلبها، ويسألها.

عبدو : قلت لك.. تحققنا، وتأكدنا. كان النقيب مع زوجته. وهذه القضية انتهت. جئتك لأسألك إن كنت تحتاج شيئاً، وكيف يستطيع المفتي أن يساعدك.

عزت : لا أحتاج إلا إلى الحقيقة. وأطلب من المفتي أن يساعدني على كشفها.

عبدو : الجميع تقصّوا الحقيقة. الوالي والمفتي والأشراف. والجميع تأكدوا أن المرأة التي اختلى بها النقيب كانت زوجته.

عزت : (غاضباً) ورأس أمي.. ليست تلك هي الحقيقة.

عبدو : أيمكن أن يخطئ الجميع، وأن تكون وحدك على صواب! لاشك أن الغضب والتهور غشّيا بصرك يا عزت بيك. ألا تريد شيئاً آخر؟

عزت : لا.. لا أريد. وأخشى الآن أن يكون السم الذي يسري في جسدي وعقلي هو من بعض لدغات المفتي. جنون.. ورأس أمي هذا جنون. تريدون أن افقد عقلي، ولاشك أني سأفقده. قل للمفتي أن يفتينا في هذه القضية. أيكفي أن يجمع الناس على أمر كي يغدو حقاً وصواباً! ألا يمكن أن ينخدع الناس! أليس هؤلاء الذين يصدقون اليوم أنها زوجته هم الذين كانوا البارحة يصفرون ويستنكرون! أيجوز أن تخفى الحقيقة، وتُبدى حسب ما يشاء الهوى أو حسب ما تشاء المصلحة! هذه مسائل.. فهل يفتينا بها؟! أقول لك.. الحقيقة تظل هي الحقيقة. والمرأة التي قبضت عليها لم تكن زوجته.

عبدة : سيصلك الطعام كل يوم.

عزت : وفروا الطعام. لا أريد.. لا أريد شيئاً إلا الحقيقة. لم تخدعني عيناي، وما رأيته كان واضحاً.

عبدو : سأمر عليك بين وقت وآخر.

عزت : والمفتي.. ألن يمر علي؟

عبدو : سبّبت له ما يكفي من الإحراج. ولولا الودّ ما أرسلني.

(يخرج عبدو).

عزت : جنون ورأس أمي هذا جنون. ماذا أفعل! كيف اتفق أن أحداً لم يقف معي! كيف اتفق أني الوحيد الذي رأى! أحقاً رأيت! جنون.. ورأس أمي هذا جنون.

(تتلاشى الإضاءة)

المشهد الثامن

(في بيت عبد الله. عبد الله حافي القدمين، يدخل غرفة الضيوف متراجعاً بظهره وهو يرحب بضيفه. يدخل المفتي لا مبالياً بترحيب عبد الله، أو رد التحية له).

عبد الله : لو علمت أنك ستشرفني، لاستقبلتك حافياً من أول الحارة.

المفتي : حين زرتني، أغلقت بابي دونك كيلا تظن أن عداوتنا زالت. وجئت إليك الآن، والعداوة هي هي. ولكن بعد تلك الفعلة الشنيعة، هناك حساب ينبغي أن يُصفّى.

عبد الله : صدّقني.. مازلت أغسل قلبي حتى خلا من كل عداوة.

المفتي : ما جئت مصالحاً يا عبد الله.

عبد الله : لك صدر الدار، وصدر صاحبها ولو جئت تطلب خرابها.

المفتي : ألا تشعر بالحياء..؟

عبد الله : ألا أشعر بالحياء!. كلما فتر شعوري بالحياء، لطمت وجهي، وأنعشت ذاكرتي حتى يأخذني الصَّغار، ويصبغني الاحمرار. وحيائي بين يديك هيّن لو قيس بحيائي من خالقي.

المفتي : لا تتلاعب بالندم والزلفى إلى الخالق. خير لك الآن أن تستر طابقك، وتدفع ضريبة طيشك واستهتارك.

عبد الله : ماعاد لي مطمع في عرض من أعراض هذه الدنيا يا شيخ قاسم. وما تراه ضريبة مناسبة، سأدفعه في الحال.

المفتي : لطّخت نقابة الأشراف، ومرّغتها بأفواه العامة والقيل والقال.

ومثلك لا يليق لهذا المنصب، ولايؤتمن على هيبته وشرفه.

عبد الله : قلت لك.. تركت التعلق بزينتها وبرقعها. وإني الآن أتخلى أمامك عن منصب النقيب. وأترك لك وللأشراف اختيار نقيب يحل مكاني.

المفتي : هذا قرار لاتراجع عنه يا عبد الله.

عبد الله : أعطيتك كلمتي يا شيخ، وإن أردت شهوداً أحضرنا الشهود.

المفتي : الآن تتصرف بحصافة، وتقطع بعضاً من أسباب العداوة.

عبد الله : لن تبقى عداوة بإذن الله. صفا قلبي، وأرجو أن يصفو قلبك.

المفتي : لدي مرشح للنقابة، وأريد أن تدعمه.

عبد الله : إن تسامحت.. أود أن أظل بعيداً عن هذا الأمر. وإن أمرت.. فسأوفّيك شيئاً من معروفك، وأدعم مرشحك.

المفتي : أريد مرشحي نقيباً.

عبد الله : إذاً.. سأدعمه بما أستطيع.

المفتي : بقيت واحدة.

عبد الله : نعم.. بقيت دناءة تؤرقني، وتثقل على ضميري. أفكر بالذهاب إلى الوالي، والبوح بالحقيقة كي أنقذ ذلك الرجل المغدور.

المفتي : من تقصد؟

عبد الله : قائد الدرك.

المفتي : لا.. دعه في السجن كي يتربّى خلفه، ويتعلم توقير الأكابر، وعدم الاستخفاف بهم. ولو أعلنت الحقيقة للوالي، فستضعنا جميعاً في موقع الكذب والحرج. لا.. دعك من قائد الدرك، فقد تجاوز حدّه ويستحق ما أصابه. ما عنيته هو أمر آخر يحرجني الحديث فيه. ولكني قطعت على نفسي عهداً، ولا بد من وفاء العهد.

عبد الله : لاتتحرج يا شيخ، واطلب ما بدا لك.

المفتي : عليك يا عبد الله أن تطلق زوجك.
عبد الله : أطلّق زوجتي..؟! ولماذا؟!
المفتي : كان ذلك شرطها للذهاب إلى السجن.
عبد الله : أعرف أنها كانت مجروحة وغاضبة. ولكن أريد أن أصلح حياتي، وأن أعوّضها عن الجرح وحماقات الأيام الفائتة.
المفتي : أعتقد أن المسألة أصعب من ذلك. لم تكن لوامة، ولم تكن غاضبة. طبعاً أنت أدرى بحريمك مني. إلا أني لم أستطع إقناعها، إلا بعد أن انتزعت هذا الوعد مني.
عبد الله : ووعدتها!
المفتي : تلك إرادتها، ولم يكن أمامي سبيل آخر. لولا أن الظروف تحكمت، ما سمحت لنفسي أن أتدخل في شؤونك العائلية.
عبد الله : يا رب.. تلك إشارة أخرى تأتي. أهذا هو الطلاق الأصغر الذي تبلوني به، كي أقوى على الطلاق الأكبر!
المفتي : كنت مضطراً يا عبد الله، والوعد هو الوعد.
عبد الله : هل أفهم أنك تأمر بالطلاق؟
المفتي : الأمر ليس أمري. هي التي اشترطت، وهي التي رفضت الحديث عن إصلاح ذات البين. كان موقفها حاسماً، وقولها عجيباً، وأنت أعلم بأهلك مني. إذا شئت أن تجرّب، يمكن أن أمهلك وقتاً.
عبد الله : معك حق. لاحظت أنها تغيّرت. طلبت عفوها، فلم تبالِ. وحاولت الحديث عن أيامنا المقبلة، فنفرت ولم تصغ إلي. منذ تلك الليلة، وكلانا يهيم في دنيا من الصمت والوحشة. يا رب.. ساعدني.. أهي إشارة كي ألبّيها!
(ينحطّ على كرسي، ويغرق وجهه في غياب قلق).
المفتي : **(يمهله فترة، وهو ينظر إليه شامتاً ومتعجباً)** ما جوابك؟
عبد الله : **(يتمتم، وما زال غائباً)** هي إشارة.. لاشك أنها إشارة.

المفتي : ماذا ألمَّ بك! هل تنتظر وحياً من السماء! هذا جزء من الفاتورة يا عبد الله.

عبد الله : **(مجفلاً)** نعم.. هي إشارة. إنها طالق منذ الساعة يا شيخ.

المفتي : بارك الله فيك. لقد صفّيت الحساب كله. الآن، يمكن أن نقلب العداوة صلحاً وصداقة.

(يقترب المفتي من عبد الله، ويفتح له ذراعيه. لكن عبد الله يتجاهله، وينهض، فيتمشى في الغرفة كالمأخوذ).

عبد الله : يا رب.. ترأف بضعفي، وهشاشة حالي. يا رب.. علّمني كيف أميّز بين إشارتك وتخبّلات عقلي. يا رب.. قوّني على تحمل حالي، ومجاهدة حالي، وقهر حالي.

(يركع على الأرض، ويفتح يديه بحركة تضرع، ويرفع رأسه ناظراً إلى الأعلى. يتأمله المفتي لحظات ثم يهز رأسه كالمشفق، ويخرج. يظل عبد الله وقتاً طويلاً، وهو ساكن في وضعيته يهمهم ضراعات لانسمعها. يدخل الخادم.. ينظر إليه ببلاهة، ثم يقف منتظراً).

الخادم : **(يبدأ هامساً)** سيدي.. سيدي.. سيدي.. **(يقترب الخادم منه بخطئ مترددة، ويرفع صوته)** سيدي..

عبد الله : **(كمن يصحو بغتة)** آه.. ماذا..؟ أجفلتني يا حارم.

الخادم : سيدي.. خشيت أن تنسى.. الليلة عرسي. ألم أشرح لك! وعدت تلك الملعونة أن أعرّس عليها يوم عودتك إلى البيت بسلامة. وبالزور صبّرتها هذا الأسبوع. ستفضحني إن أجّلت، أو تهرّبت.

عبد الله : أتتزوج الليلة يا حارم؟

الخادم : هل حدث شيء يا سيدي! لم أحدّد الموعد إلا برضاك، وموافقتك.

عبد الله : نعم.. نعم.. أذكر. اذهب، تزوج.

الخادم : ألن يبارك سيدنا العرس!

عبد الله : لا.. إني طلّقتها ثلاثاً.. ثلاثاً.. بتاتاً. صارت الدنيا، وأعراسها حراماً.. حراماً. دعني في خلوتي.

الخادم : ألن أبقى في الخدمة يا سيدي!

عبد الله : ماعدت أحتاج خدماً يا حارم.

الخادم : هل يعني أنك تطردني يا سيدي!

عبد الله : وهل يستطيع المطرود أن يطرد!

الخادم : إني لا أفهم..

عبد الله : ومن الذي يفهم! إذهب إلى الدنيا التي تناديك، وعرّس.

الخادم : سيدي.. **(يشير له عبد الله بالخروج، يتراجع الخادم حائراً)** لا أستطيع التأجيل. ستفتك بي لو أجّلت. كنت أحلم أن يزيّن حضورك عرسي. **(هامساً)** وسيدتها وردة ستتكرم علينا وترقص في عرسنا. إني مبلبل الخاطر، ولا أستطيع التأجيل. **(ينتظر عند الباب، وحين يراه مستغرقاً في همهمته، يخرج. بعد قليل، يظهر شبح ولي يأتزر بثوب أبيض يشبه الكفن، ويخفي وجهه. حركاته بطيئة، وصوته رخيم. يسطع، وكأنما يحفّ به ضوء لانعرف مصدره).**

الولي : الطريق طويل، والزاد قليل.

عبد الله : أهو أبي الذي يتكلم!

الولي : أبوك من أرشدك. أُمرت أن أصطفيك مريداً، وسأكون لك مرشداً.

عبد الله : طلّقت امرأتي، وتشوشت أحوالي.

الولي : طلقت هماً وشهوة. وأحسن الصوفية المجردون، فدع الزواج لغيرك.

عبد الله : حين أفكر في دناءة حالي، وسوء أفعالي، وقبح خصالي، تنحصر نفسي وأقنط من رحمة ربي.

الولي : لاتكن عجولاً، وتذكر أن لكلِ أمرٍ بدءاً.
عبد الله : تلك هي المشكلة. من أين أبدأ؟ وكيف؟
الولي : تبدأ ببدن عار، وبطن جائع. خرّق ثيابك، واستر بدنك بمرقعة.

(ينهض عبد الله، يتناول من درج رقعة صوفية زرية ومرقعة. يهم بتمزيق ثيابه الفاخرة، ثم يلوح عليه التردد).

الولي : انزع الشك والتردد من قلبك. ولاتنسَ أن أباك أنقى رحم أمك قبل أن تلدك حين تزوجها، وزفها. لم يباشرها، أو يلامسها أربعين ليلة حتى علم أن لم يبقَ في جوفها أثر مما أكلته من قبل، وتناولته فيما عبر من الأيام التي كانت في بيت والدها خشية أن يكون دخل جوفها طعام أو شراب مسّه الحرام. اخرق ثيابك، فما هي إلا قشرة ترميها.

(يبدأ عبد الله بخرق ملابسه، وارتداء المرقعة. فيما يدور الولي حول نفسه، وهو يردد الله..)

عبد الله : **(وقد تسربل بالرقعة)** ثم ماذا أفعل!
الولي : الآن تبدأ المشاق والأهوال. عليك أن تنسلخ من نفسك كما تنسلخ الحية من جلدها.
عبد الله : كيف؟
اللي : أرشدتك إلى البداية، فابدأ.

(يختفي الولي. يتريث عبد الله قليلاً ثم يبدأ بالدوران حول نفسه وهو يردد.. الله.. تكون الحركة بطيئة، ثم تتسارع تدريجياً، فيما تتلاشى الإضاءة).

الجزء الثاني

المصائر

المشهد الأول

(في بيت المفتي. المفتي وعبدو).

عبدو : إنه لايأكل طعامنا. فهل نواصل حمل الطعام إليه؟
المفتي : كيف وجدته؟
عبدو : أعتقد أنه تخبّل. ليس لديه إلا هذه العبارات.. ورأس أمي هذا جنون.. لم تكن زوجته.. أحقاً لم تكن زوجته! وهو مايزال ينتظر فتاويك على المسائل التي طرحها.
المفتي : ألم تقل له إن الحقيقة في الإجماع!
عبدو : وهل يعي ما يقال له!
المفتي : إذن دعه يتخبط في خباله، ولاتحمل له الطعام بعد اليوم.
عبدو : نعم.. فليطوِ سيدي تلك الصفحة وغبارها. يحق لك أن تهنأ بعد أن راقت لك المدينة، وصار الأكابر يمشون بين يديك طالبين رضاك.
المفتي : نعم.. كانت الخلافات تكبّل يدي، وتضغط على مركزي، سنجلو الآن ما لحق بالمنصب من أوشاب، وسيعرف الناس أن سعادتهم في الطاعة، وأن للمفتي جلالاً وسطوة.
عبدو : ألن تصدر الفتوى التي كنت تنوي إصدارها، والتي يتمناها كل أوادم الشام؟
المفتي : أية فتوى؟
عبدو : أن تحرّم البغاء، وتبيح دم الغواني والعاهرات.

المفتي : آه.. هذه الفتوى! أعتقد أن علينا أن نتريث قليلاً، وأن نتدرج في الشدة. هناك أمر أريد أن تتولاه شخصياً.

عبدو : ليس على الشيخ إلا أن يأمر.

المفتي : أريد أن تتسقط لي أخبار وحركات زوجة النقيب بعد طلاقها. ولاينبغي أن تثير الانتباه، أو يلحظ أحد غرضك.

عبدو : لاتشغل بالك. سأعرف لك ماذا تأكل، ومتى تنام.

(يعلو أذان الغروب).

المفتي : الله أكبر..

عبدو : لا إله إلا الله.. أتريد شيئاً آخر يا سيدي؟ هل أساعدك في الوضوء؟

المفتي : بارك الله فيك.. لا أريد شيئاً.

(يخرج عبدو).

المفتي : أستغفر الله العظيم.. يا رب.. إني أحس في نفسي فتوراً عن الصلاة، ولا أدري لماذا. يا رب.. لاتستكثر نعمتك علي، ولا تجعلني من الجاحدين. بإلهامك دبّرت، وبفضلك نلت ما كنت أصبو إليه. آزرتني حتى ترقيت في المراتب، وحصرت قلوب أعدائي، وحسّادي، فانزاحوا عن دربي. يا رب وأنت الوهّاب الكريم، غمرتني بالنعم، وبوأتني المجد الذي تشوقت له نفسي. ولم يبق أمامي إلا خطوات يسيرة، وأصير مفتي السلطنة في مركزها وعاصمتها. يا رب نوّلتني هذا كله، فلمَ تحرمني الرضا؟ هل أضلّني إبليس..؟ أحس فراغاً في سريرتي، كدراً في قلبي. أكانت تلك المرأة أحبولة إبليس، وأداته؟ لماذا لايغمرني الرضا، ويفيض في جوانحي العرفان! إني فاتر الروح والجسد. لا أحس للنصر بهجة، ولا للمجد مذاقاً. هل تخلصتُ من أعدائي، كي يأتيني عدو من نفسي! علقت صورتها في خيالي، وعلق كلامها في ذاكرتي. يا لها

من امرأة بين النساء.. يارب.. قوني على الصلاة، وانزع هذا الكدر من قلبي، وطهّر روحي من حيل إبليس وألاعيبه. يا رب.. نويت الوضوء، ونويت الصلاة **(يعلو صوته آمراً)** هاتوا الطشت والإبريق. يا رب.. إني ألوذ بك من فتوري.

(تتلاشى الإضاءة).

المشهد الثاني

(في بيت وردة. وردة ومؤمنة).

وردة : **(محرجة وقلقة)** نوّرت البيت، أي والله.. أضاء البيت نور. غسلت الملاية، وبخرتها بالمسك. لو أرسلت الخادمة.. هذا شرف لا أستحقه.. أن تأتي بمقامك، وشرفك إلى بيتي.
(تتناول وردة الملاية المطوية والملفوفة بعناية، وتقدمها لمؤمنة).

مؤمنة : لم أزرك كي أسترد الملاية.

وردة : **(يزداد حرجها)** طيب.. تفضلي. **(تحاول مؤمنة أن تجلس على إحدى الطنافس المصفوفة في المكان، فتأخذ وردة بيدها)** لا.. لا.. الجلسة هنا أكثر راحة. **(تجلسان، تتعمد وردة الجلوس في مكان أوطأ، بينما تتفرس مؤمنة في المكان بعينين لاهبتين)** هل أنت مرتاحة؟

مؤمنة : لا تشغلي بالك.. فأنا مرتاحة. إن بيتك لطيف.

وردة : هو على قدّ الحال. رتّبته، وزيّنته بمقدار ما أستطيع.

مؤمنة : إنه كالعش.. ملوّن ودافئ.

وردة : هذا من ذوقك. **(تصفق بيديها عدة مرات. تظهر الخادمة بسمة)** أين الضيافة يا بسمة؟ هاتي ما يليق.. ولا تسوّدي وجهي أمام ست الأشراف.

مؤمنة : لا أريد شيئاً.

وردة : هل تكسرين خاطري؟ يا الله يا بسمة.. **(تخرج بسمة. يرين**

صمت، ووردة تتحاشى أن تلتقي عيناها بعيني مؤمنة) إذا أردت أن تسألي.. لا أدري.. إني مرتبكة. أتريدين أن تسألي.. عني وعن.. السيد النقيب؟.

مؤمنة : لن أسألكِ عن علاقتك بالسيد النقيب.

وردة : على كلٍّ.. لقد انتهت. كانت شيئاً عابراً مما يفعله كل الرجال. وأنا واثقة أن منزلتك في نفسه لم تتزحزح، ولو مقدار شعرة.

مؤمنة : هذا لايعنيني. أنا الآن طالق، وما بيني وبين عبد الله انتهى إلى الأبد.

وردة : طالق..! وهل كان ذلك بسببي! أماتني الله، وشواني بناره إن كنت السبب.

مؤمنة : لا.. لم تكوني السبب. لقد تهيأت الفرصة لكي يحدث ما ينبغي أن يحدث. ليس لدي ماألومك عليه، بل وأشعر بالامتنان لك.

وردة : ولم الامتنان!

مؤمنة : ربمَا لأنك هيأت الفرصة لكي يحدث ما حدث.

وردة : أكنتِ تكرهينه؟

مؤمنة : لا.. لا أكرهه.

وردة : إن عبد الله رجل يُفتقد.

مؤمنة : هل تفتقدينه؟

وردة : وما الفائدة؟ تعلمت ألا أتحسّر. حين تنتهي الحكاية أدير ظهري، وأتابع طريقي. مالنا.. لا مؤاخذة، حتى الآن لم أعرف سبب تشريفك لي.

مؤمنة : جئت أرجو أن تأخذي بيدي. أريد أن أنضم إليك، وأن أغدو واحدة من غواني هذا البلد.

(تهب وردة واقفة، وكأنما لسعها عقرب، تحملق بمؤمنة مبهوتة

وغاضبة. تبادلها مؤمنة نظرتها دون أن تنكسر عيناها).

وردة : ماذا قلت؟

مؤمنة : أريد أن أصير غانية مثلك.

وردة : (تنفجر) أجئت تتفقّسين علي! أجئت كي تزدريني، وتحطي من شأني! هل كُتب علي أن يلاحقني يتكم بالإهانة طوال عمري! من درّبني، وأسلكني هذا الدرب! أتذكرين.. لا.. لا تذكرين، أو لعلك لا تريدين أن تذكري. ألم أكن خادمة لديكم! ألم يكن الشيخ الجليل.. أبوكِ هو الذي علّمني طبقات الفسق ومراتبه قبل أن أحيض، ثم تناوب علي الابن مع الأب، ثم ألقوا بي في الشارع لأن العرق دساس، ولأن حركاتي تنم عن فسق مبكر! طويت صدري على سري. ذقت المرارة والإهانة والشقاء ولم أجرؤ على البوح بسري. وها أنت بعد هذه السنوات، تأتين بجلالك لكي تنكأي الجرح القديم، وتبصقي عليّ في بيتي.

مؤمنة : **(تنهض بدورها مذهولة، وكأنها تحدّث نفسها)** وإذن.. أنت واحدة منهن. من ذلك السرب الطويل الذي تعاقب على حضن الوالد. والشيخ الجليل لا تشبع طبيعته، ولا تستكين.

(تدخل بسمة حاملة صينية كبيرة عليها قهوة ومكسرات وفواكه مجففة).

بسمة : أين أضع الصينية يا معلمتي؟

وردة : ضعيها أنى شئت.

(تلاحظ بسمة الجو المتوتر، تضع الصينية، وتقف منتظرة).

وردة : **(بغضب)** ماذا تنتظرين؟ اخرجي..

(تخرج بسمة، تتحاشى المرأتان تبادل النظرات ويرين على الجو توتر مثقل بالغضب والدهشة).

مؤمنة : وخزتني الصدفة. ولكن لا شيء يحكى عن ذلك البيت

المكلّس بالشهوات والرياء، يمكن أن يدهشني.

وردة : إذن، أنت تعرفين قصتي!

مؤمنة : لعلي لم أسمع عنك بالذات. ولكن أعرف قصصاً كثيرة مما كان يدور في ظلمات ذلك البيت. صدقيني.. لم يخطر ببالي أن أهينك، أو أن أمسَّ مواجعك.

وردة : لا تحاولي أن تمكري بي. وقولي على بساط أحمدي ماذا تخفين وراء زيارتك؟

مؤمنة : قلت لك على بساط أحمدي.. أريد أن تساعديني كي أصير غانية.

وردة : أتحاولين مكايدة عبد الله..؟! أعوذ بالله من كيد الكبار.

مؤمنة : ينبغي أن تصدقيني.. أنا لا أعرف اللف والدوران، ولم أتعود على تدبير المكائد. إني أعني ما أقول، وليس هناك ما يدفعني إلا رغبتي وهواي.

وردة : حلّفتك بالله.. هل أنت جادة!

مؤمنة : كل الجد يا وردة.

وردة : **(ترفع عقيرتها، وتصفق بيديها)** الله.. الله.. تعالوا، واسمعوا. ست الأشراف تريد أن تصير غانية. إنها تحسدنا على هنائنا، وتريد أن تنازعنا فيه. وهل تظنين بسلامتك أن الكار بيت داشر، ومفتوح لكل من لها فرج ونهدان!

مؤمنة : لهذا طلبت مساعدتك.

وردة : ولماذا أساعدك؟

مؤمنة : لأني أتوسّم فيك السماحة. ولأني لن أضيّع لك تعباً. أعدك يا وردة أن أكون رفيقة لاتجحد المعروف.

وردة : اسمعي يا بنت الحلال.. هذا الكار لاتدخله الواحدة منا، إلا بالاضطرار والمطاحنة والبهدلة. أما أن تأتي امرأة تملك كل شيء، وليس لديها أي دافع إلا المزاج والشهونة، فإنها تهيننا

جميعاً، وتغبن العذابات التي تحملناها. كان يمكن أن أخرج من الباب، وأصيح في كل الطرقات.. ست الأشراف تطلب الدخول في سلك الشراميط. وكان يمكن أن أثأر بالشماتة والفضيحة لحياتي كلها. تصوري.. هل خطر ببالي أن الفرصة ستأتي، وسأرى بعيني ابنة ذلك الرجل الذي رماني إلى هذا الكار، تتوسل إلي كي تدخل فيه! حقاً.. إن الدنيا لاتخلو من العدل. لا يا بنت الحلال.. رغم كل شيء، لايطاوعني قلبي على الانتقام. خذي ملايتك، وانزعي وسوسة الشيطان من قلبك.

مؤمنة : يمكنك أن تشمتي، أو تثأري، وهذا أقل من حقك. ولكن لارجوع عن القرار. توسمت فيك وداً خفياً، فلا تخيبي رجائي. إذا لم تقبلي مساعدتي، فسألجأ إلى معلمة أخرى.

وردة : ما أعجبك يا امرأة.. من أين يأتيك هذا التصميم كله!

مؤمنة : هذا أمر يصعب تفسيره، ويطول الخوض فيه. يكفي أن تعلمي أني شديدة التصميم، وأني سأنفذ ما صممت عليه.

وردة : يا بنت الحلال.. ما حدث بينك وبين عبد الله يمكن إصلاحه.

مؤمنة : أنا طلقت عبد الله، ولا شأن له بهذا الأمر.

وردة : تمهلي بعض الوقت.. ومع الوقت قد تستردين بصيرتك. إنك لاتعلمين في أي موحلة ترمين نفسك. أتظنين أن حياة الغواني رغد ونعيم! إنها حياة مغمّسة بالقهر والعفن والخوف. نخاف من يحمينا، ونخاف من يشتهينا، ونخاف غدنا. ما الذي تظنين إنك فاعلة! وأنت ما أنت.. لك من جمالك ومركزك حصانة، وألف من يتمنى قربك. إذا لم يكن ما تطلبينه نزوة عابرة، فإنه جنون ما بعده جنون.

مؤمنة : ما أريده ليس نزوة. أرجوك أن توفري نصائحك، لأني

عجمتها، وعجمت ما هو أكثر منها قبل أن أعزم على المجيء إليك.

وردة : لا مجال لإقناعك!

مؤمنة : لا.. لامجال. تدبرت الأمر، وقررت.

وردة : وتريدين أن أكون المرشدة والمعلمة!

مؤمنة : إذا رغبت.

وردة : ستكونين بنتي، وحقي عليك الخضوع والطاعة والولاء. يا الله.! ولكن من يصدق.. أن يأتي يوم، وأصبح سيدة لستّ الأشراف! وأن تصير ابنة ذلك الشيخ الجليل بنتي في الكار! هل أنا أحلم..؟

مؤمنة : لا.. إنك لا تحلمين يا معلمتي.

وردة : **(وهي تصفق بيديها)** طيب.. دعينا نبدأ.

مؤمنة : فلنبدأ بالاسم يا معلمتي.

وردة : نعم.. سنختار لك اسماً يبرق كالمصباح **(تدخل بسمة)** نادي البنات يا بسمة، وهاتي الشربات.

مؤمنة : هل تسمينني نجمة؟

وردة : هو اسم جميل. دعيني أفكر.. إني أبحث عن اسم يبرق في حروفه ولفظه. ياقوتة.. لا.. اللفظ كامد. ألماسة..نعم، هذا يشع. ما رأيك؟ هل أعجبك؟

مؤمنة : نعم.. إنه يشعّ. ولمَ لا؟ صار اسمي ألماسة.

(تدخل بسمة، ووراءها ثلاث من بنات الهوى يتدافعن).

وردة : يا بنات.. لدينا تلبيسة. هذه الفتاة اسمها ألماسة. تريد أن تدخل الكار، وأن تتعلم فنونه. لن نسأل عن حكايتها، ولا يهمنا أن ننبش في ماضيها. إنها ألماسة، وأعتقد أنها ستكون بنتاً طيبة وبارعة. سنشرب شرباتها، ونحتفل بتلبيستها. هاتي ثوب الفتنة يا بسمة.

(بسمة تبدو غائبة في ذهولها ودهشتها).

وردة : مالكِ! هل أصابك الصمم!

بسمة : **(وكأنها تصحو من كابوس)** نعم.. نعم..

وردة : هاتي ثوب الفتنة.

(تحيط البنات بألماسة، ويبدأن بنزع ثيابها على إيقاع غنائهن).

البنات : **(يغنين ووردة تقود الغناء وحركاتهن)**

اسم الله.. اسم الله يا زينة — يا وردة جوة الجنينة
زهر القرنفل يا عروسة — والورد خيّم علينا
قومي العبي بحبل اللولو — وافردي شعرك على طولو
خليهن يحكو ويقولو — آه يا حلاوة يا عسلية.
قومي العبي بعرق الألماس — واللولو حارس هالبزاز
الله يجيرك من كلام الناس — آه يا حلاوة يا عسلية

(تدخل بسمة حاملة ثوب الفتنة وهو ثوب يميّز وردة، وترتديه للإغراء. تغدو ألماسة شبه عارية. لم يبق عليها إلا بعض الملابس الداخلية. أفرد البنات شعرها، ومشّطنه، فيما انهمكت وردة بتزويقها. حين تصبح جاهزة، يلبسنها مع الغناء والرقص ثوب الفتنة).

البنات:

عالدلالي.. عالدلالي — هالنقلة نقلة غزالي
لبست شلحة وشلحت شلحة — وتحت الشلحة شي ضوالي.
عالدلالي.. عالدلالي — هالنقلة نقلة غزالي
لبست بدلة وشلحت بدلة — تحت البدلة شي ضوالي.

(تتم التلبيسة)

وردة : دعيني أرى.. تفتّلي قليلاً.. الله.. خزيت العين. بدرٌ واكتمل. انظري إلى نفسك بالمرأة يا ألماسة.

(تنظر ألماسة إلى نفسها بالمرآة نظرة غريبة ومسحورة. تقترب منها وردة).

وردة : هل ألمح ندماً في عينيك يا ألماسة!

ألماسة : لا.. لاندم. هذا كالسحر. إني مبهورة.

وردة : هاتي كؤوساً وشراباً حقيقياً يا بسمة. بالخمر سنساعدها على تخطي العتبة. وبالخمر سنبارك الاسم والصحبة. وبالخمر سنسقي البهجة والموجة. يا الله يا بنات..

يا قضامة مغبرة ويا قضامة ناعمة شــوف عــيني شــوف

(تبدأ بالرقص، والبنات يرافقنها بالغناء والتصفيق. بعد عدة دورات تسحب ألماسة إلى الرقص لتحل محلها. بعد تردد قليل، تبدا ألماسة بالرقص بينما يشتد التصفيق. ترافقها وردة وكأنها تعلمها كيف تجعل أداءها أفضل).

(تتلاشى الإضاءة).

المشهد الثالث

(عباس. يدخل العفصة حليق الشوارب، ناعم الوجه، يتعمّد التخنث بحركاته وكلامه).

عباس : **(يرمقه باستغراب ونفور)** قاتلك الله.. ماذا فعلت بنفسك؟

العفصة : فكرت أن أقدم لك هدية يا نور عيني.

عباس : أي عفريت ركبك!

العفصة : لم يركبني إلا هواك.

عباس : وهل قلبت سحنتك من أجل هواي؟

العفصة : لا تجعلني أبكي.. أردت أن أحلو في عينيك. لاحظت أن ولعك يخف، وأنك تبتعد عني، فأصابني فزع رهيب. وفكرت.. كيف أرضي حبيبي.. كيف أرضيه..؟ وخطر لي أن اقدم لك أثمن ما لديّ وآخر ما يميّزني في عيون الناس. **(يخرج من جيبه منديلاً حريرياً معقوداً بأناقة، ويقدمه لعباس).** تفضل يا أبا الفهد.. إنها هديتي لك.

عباس : ما هذا؟

العفصة : افتحها، وسترى ما فيها.

عباس : **(يفك ربطة المنديل، فيظهر ما فيها)** أهي شواربك!

العفصة : نعم..هي شواربي، أهبها لك. ويمكنك أن تعلن في طول المدينة وعرضها أن شوارب العفصة ملكي، وأن العفصة كله ملكي.

عباس : أعوذ بالله.. ما الذي دهاك يا بني آدم!

العفصة : أخاف أن تهجرني. بعد أن كشفت روحي، وأذقتني مسرّة كنت أبحث عنها طوال عمري، لا أتحمل أن تبتعد عني. إنك لاتعلم ماذا فعلت بي! لقد غيّرتني، وقلبتني من أصلي.

عباس : ألم تكن تريد السترة، وتخاف البهدلة!

العفصة : لم أكن أعرف سطوة الحب وجنونه. السترة.! وهل يستطيع العاشق أن يستتر! لم أعد أبالي بشيء. إن جفوة منك أشد علي من ضياع اسمي وكرامتي ومكاني بين الناس. لايهمني أحد.. لايهمني إلا أنت. وأريد أن ترغبني، وأن تجدني حلواً وطرياً بين يديك. انظر.. نتفت شعري كله. ساقاي ويداي وكل شيء. ولو شئت أن تقطع لحمي، فإني مباح لك.

عباس : أعوذ بالله.. وهل تعتقد أنك ترضيني إذا تخنثت!

العفصة : وما الذي يرضيك؟ ألا تفضّلني ناعماً وطريّاً؟

عباس : إنك تثير نفوري. ما أنت الآن إلا علق يتدرب على المجون.

العفصة : إني علق لك. وأردت أن تعرف أني تحوّلت، وأن لدي الشجاعة كي أعلن تحوّلي، وأواجه الناس به. قل لي كيف تريدني؟

عباس : أردت أن تظل رجلاً إلى جانبي وبين يدي.

العفصة : لايهمني ما أكون. ولكني لك وبين يديك.

عباس : مع هذا التخنث السافر، أخجل أن تكون إلى جانبي. وأخجل أن يعرف الناس أن لي صلة بك. بهذه الهيئة، ما أنت إلا سمسم آخر.

العفصة : لاتقتلني يا أبا الفهد. ما فعلت هذا إلا من أجلك. وأنت تعرف أن ما فعلته باهظ التكاليف علي. إنه في بلدنا كالموت أو أسوأ من الموت. ولكنك تتظاهر بالغضب والنفور، لأنك تبحث عن حجة كي تقطع ما بيننا (**يغص وينخرط في**

البكاء) إني لا أتحمل هجرانك.. إني لا أتحمل أن ترميني بعد أن غيّرت تكويني. غدوت كالماء في صفائه ووضوحه. كيفما نظرت إلي، ستجدني واحداً. هيئتي هي سريرتي، وسريرتي هي هيئتي. ألم تقل إنك تنفر ممن له مظهر ومخبر! وما فعلته هو أني أظهرت مخبري، ولم يبق لدي ما أكتمه أو أخفيه. أردت أن أقوي أسباب الود بيني وبينك، وأن أعترف دون مداورة أو تستر أني أعشقك. هذا العشق هو الذي جرأني على نفسي وعلى الناس، وهو الذي يمدّني بالشجاعة والحياة.

عباس : ما هذا الهبل الذي تسكبه في أذني؟ إنك تتكلم مثل قحبة قرّحها الغرام والحرمان.

العفصة : أتكلم كما يتكلم العاشق.

عباس : وتتحدث عن العشق وأكل الهوى..! لايكون بين الرجال عشق وغرام.

العفصة : ماذا كان بيننا إذن!

عباس : أتريد الصراحة؟

العفصة : نعم.. حان وقت الصراحة ولو كان فيها مقتلي.

عباس : ما كان بيننا هو شهوة تزول مع قضاء الوطر. وكان يلذُّ لي أن أعلو رجلاً محسوباً على الزكرتيّة، وأن أرى قامته تنكسر وتتصاغر بين فخذي. أما الآن، فأي لذة سأجنيها من اعتلاء مخنث رقيع!

العفصة : أتعلم يا أبا الفهد.. إن مواجهة زكرتية البلد مجتمعين لايحتاج إلى الشجاعة التي احتجتها كي أفعل بنفسي ما فعلت.

عباس : دعنا من المنفخة.. أهي شجاعة أن تمسخ نفسك، وتصبح عرّة لمن يعاشرك أو يقترب منك؟

العفصة : تخليت عن كل ما يخصني، لكي أخصك وحدك، ولكي يعرف الجميع أني منذور لك. فهل يكون هذا التفاني عرّة تخجل منها، وتتحاشاها! لو كنت تبادلني العشق، لقدّرت ما فعلت من أجلك.

عباس : كلما تحدثت عن العشق، سقطت من عيني أكثر.

العفصة : سقطت من عينك لأنك تريد أن تقطع ما بيننا. لاتظن أني لاأعرف ما يجري. منذ أن طلبت منك قحبة الحسب والنسب الماسة أن تكون حاميها، بدأت تبتعد عني وتظهر الفتور لي. لايزعجني أن تكون حاميها. وسأعمل بين يديك خادماً وسنداً، ولكن لا تقطع ما بيننا. لا أعرف ماذا أفعل بحياتي إن تقطّع ما بيننا.

عباس : أشعر بالنفور، ولم يعد يلائم سمعتي أن تكون بيننا صلة.

العفصة : أرجوك تمهل..

عباس : هذا قراري، ولا تذل نفسك أكثر.

العفصة : أكنتُ مخدوعاً يا عباس! ألم يكن لديك إلا هذا المظهر الذي تتشبث به، وكأنه وجودك وعلامتك! لن أذل نفسي أكثر. ولكن لدي رغبة صغيرة أود أن تلبيها قبل أن نفترق.

عباس : وما رغبتك؟

العفصة : أن تنازلني في ليّ الذراع.

عباس : أتريد أن تمتحن قوة ذراعي!

العفصة : أعرف قوة ذراعك، ولكن لم أعد أعرف هل بقيت في ذراعي قوة.

عباس : وفّر على نفسك هذه المهانة.

العفصة : هذه المهانة هي رغبتي الأخيرة، فلا تخذلني.

عباس : سأسحقك.

العفصة : سحقت ما هو أهم من ذراعي، ولن يزيدني ألماً أن تسحق

ذراعي. تعال..

(يجلسان حول طاولة. تتماسك قبضتاهما، ويبدأ كل منهما في السد كي يلوي ذراع الآخر. يستمران فترة طويلة ولا يفلح عباس في ليّ ذراع العفصة. تحمرّ أوداجه، ويبدو الغضب على وجهه).

العفصة : هل نواصل؟

عباس : **(محتقناً)** لا.. هذا يكفي.

العفصة : **(قبل أن يرخي قبضة عباس، ينحني بلطف، ويقبّلها)** الآن.. وداعاً يا عباس.

عباس : **(وهو يتناول المنديل الذي يحتوي على شوارب العفصة)** خذ هديتك قبل أن تخرج.

العفصة : هي لك ولايهمني ما تفعله بها.

(يخرج العفصة).

عباس : ماذا دهاني؟ من أين جاءته هذه القوة؟ كاد هذا المخنث أن يلوي ساعدي. لعنة الله عليه. لقد أفسد مزاجي.

(يرمي الشوارب على الأرض، ثم يدوسها بغضب. وكما لو كان الغضب يتصاعد في صدره، فإن قدمه تدوس الشوارب بحركة متصاعدة العنف).

(تتلاشى الإضاءة).

المشهد الرابع

(في بيت عبد الله. حلقة ذكر في أوج احتدامها. وعبد الله في وسط الحلقة يدور ويترنح وهو يردد.. الله.. الله.. عيناه زائغتان، وملامحه تنم عن الغياب. وبعد قليل يسقط على الأرض، ويبدأ جسده اختلاجات لا إرادية ومتلاحقة. حين يهدأ جسده ينسحب الحضور انسحاباً خفياً. يظل عبد الله وحيداً، راقداً على الأرض. يدخل الولي).

الولي : أين بلغت؟

عبد الله : **(يرفع رأسه ويتلجلج صوته)** لاشيء.. وهن في الجسد، وغبش في العين.

الولي : إنك تبدأ الطريق. والطريق طويلة.

عبد الله : **(يعتدل في جلسته)** أشواقي محرقة، والوجد يملأ جوانحي. أحياناً، أحس أني أقترب.. أن بارقة ستسطع، وأن النور سيغشاني. ثم يغرق كل شيء في الظلام، وأعود إلى فقري.

الولي : لا نصل إلى النور إلا بالسوانح النورية.

عبد الله : وكيف السبيل إلى نيل هذه السوانح!

الولي : البعض ينفق السنوات الطوال، ويظل لا يبرح مكانه.

عبد الله : لاتضعف همتي. تحوَّل وجدي إلى حصر يغمُّ صدري. لا آكل إلا بُلعة من الطعام. ولي في كل يوم ثلاثمائة ركعة وثلاثون ألف تسبيحة.

الولي : أتمنّن الحق يا عبد الله؟

عبد الله : معاذ الله يا سيدي.. ولكن أشعر أن بيني وبينه حجاباً سميكاً، لايكاد يرقّ. حجاباً يوجع قلبي، ويملأني يأساً من نفسي.

الولي : نفسك هي حجابك، والنفس هي أصعب ما يعالجه المريد.

عبد الله : دعوته دعاء من لايرجو سواه. وناديته بالاستغاثة، فلم يلتفت إلى صدق دعائي ويأسي من نفسي.

الولي : دعاء السجين في نفسه لايخلو من الأنانية والشوائب.

عبد الله : أما من رسالة أو كتاب؟

الولي : لا خير في الكتب. من جاع جوع القوم وسهر سهرهم، رأى ما رأوه.

عبد الله : أما من نصيحة؟

الولي : أهمل بدنك حتى يتراكم عليه الوسخ، وعفّر وجهك ومرقعتك حتى يزدريك من يراك. لا تقصَّ ظفراً ولا شعراً، واترك القمل، يتناثر على وجهك وثيابك. ثم ادخل إلى حيّك الذي تُعظَّم فيه حتى ينظر إليك أصحابك، ويسقط باللوم جاهك، ويلاحقك الصبية بالتقريع والسخرية.

عبد الله : ألا يوجد سبيل آخر؟

الولي : ابتدئ بهذا قبل كل شيء حتى تُسقط جاهك، وتُذل نفسك، ثم عد إلى معتزلك خفيفاً، لاتملك شيئاً ولايملكك شيء. وكرّر النداء..

عبد الله : وهل يغيثني لو فعلت؟

الولي : حين تترك نفسك وراءك، تجده أمامك وبين عينيك. فهل تفعل؟

عبد الله : نعم.. سأفعل. لأن الوجد يهلكني.

الولي : إن تعظيم الناس يصرف عنه يا عبد الله.. وإن الدنيا لقمة

مسمومة. ومن يحب لا يزعجه لوم اللائمين. ولاتَنسَ أن هناك عشاقاً سبقوك، كانوا يبولون الدم إذا ذكر الله عز وجل. وسعيد من يرقى المقامات، ويصل إليه، فيفنى في غبطته.

(يختفي الولي).

عبد الله : ما أعظم أشواقي. اسقوني يا ثقاتي. قَطِّروه واسقوني. أسكروني حتى أفقد بصر عيني، وأبصر بعيني ذاتي. الله.. الله.. الله.. الله...

(تتلاشى الإضاءة).

المشهد الخامس

(في بيت المفتي. الشيخ محمد رسمي الخزار وهو والد مؤمنة التي صارت ألماسة. المفتي. ألماسة).

المفتي : زيارتك مشرفة وكريمة يا شيخ محمد. وإن كنا نودّ لو أن دواعيها مختلفة. هذه هي ابنتك.. أرجو الله أن تهديها إلى الصواب، وأن تسترجعها للعيش في بيتها وفي كنف أهلها.

الشيخ محمد : مشكور سعيك وترحيبك يا شيخ قاسم.

ألماسة : ألا تتعب من المكر والترتيب يا مفتينا!

المفتي : لا يلام فاعل الخير يا مؤمنة.

ألماسة : اسمي ألماسة. وأمرك مع الخير يحيّرني مكره والتواؤه.

الشيخ محمد : حقاً.. لقد تجاوزتِ في النشوز كل حد. ليس لك كلام وأنا موجود في الحضرة. هل تتكرم يا شيخ قاسم، وتتركنا برهة على انفراد!

المفتي : طبعاً.. طبعاً.. البيت لك. وأوصيك يا ابنتي أن توفّي أباك حقه من الطاعة والتوقير.

(ينسحب المفتي، ويترك الشيخ محمد مع ابنته).

ألماسة : هل وسَّطت المفتي كي تلتقي بي!

الشيخ محمد : لم يكن هناك سبيل آخر.

ألماسة : لماذا لم تطلب مني أن أوافيك في البيت!

الشيخ محمد : أنت تأتين إلى البيت! ألا تدركين أنك صرت عاراً يلطخ

البيت وأهله! إني أشعر بالامتنان لأن المفتي رضي أن تدخلي بيته. ما الذي حلّ بك! كيف سيطر عليك إبليس، وساقك كالعمياء إلى الرذيلة والفاحشة؟ أين أواري وجهي، وكيف نواجه الناس! إن فاحشتك لايكاد يصدقها الخيال. غدونا سيرة المدينة ومضغة في أفواه الرعاع.

الماسة : ما أفعله لايخص أحداً سواي.

الشيخ محمد : وترفعين عينيك في وجهي! من أين تعلمت هذا الاستهتار! في بلدنا سمعة الحرمة تخصُّ أهلها قبل أن تخصها. إنها بلاء على الأب والأخ والزوج والقريب. أهذه هي التربية التي أنشأتك عليها؟ أهذا هو التعليم الذي ميّزتك به عن بنات الآخرين؟ ماذا أصابك؟ لا يمكن أن تفعلي هذا الأمر الفظيع إلا إذا كنت مسكونة أو مجنونة!

الماسة : نعم أيها الرجل التقي.. إني مسكونة. مسكونة بالأشباح التي كانت تتخفى في القمة. مسكونة برائحة الشهوة التي كانت تملأ أعطاف البيت. كنت أميز الروائح التي تعرفتها طفلة، والتي أدمنتها بالغة. نعم.. مسكونة بالهمس المكتوم والفضائح المخنوقة. أتحدثني أيها الرجل التقي عن التربية! هل تعرف ما هي النار التي وشمت جسدي، وأنضجته قبل أوانه! إنها نار شهوتك التي لاتفتر، ومعها شهوة بكرك الذي تفاخر به. إنها نار الحرقة في دموع أمي، وصمتها الموجوع. إنها نار عينيك اللتين كانتا تلحقان بي في الدار وبيت الخلاء ومحل النوم والخلوة.

الشيخ محمد : اخرسي.. قطع الله لسانك. ما أنت ابنتي التي أعرفها. إن إبليس هو الذي يسكنك، ويتكلم من فمك.

الماسة : وهل كان إبليس هو الذي يعلم الخادمات طبقات ومراتب

الفجور، ويفضّهن قبل البلوغ، ثم يلقي العبء على الأم التي تذوي كي تكتم الفضيحة، وتغطيها! أتعلم أن الغانية التي شغلت الشام، وسَبت لُبَّ نقيب الأشراف كانت خادمة في بيتنا، وكنت معلمها الأول في فنون اللذة والفجور!

الشيخ محمد : **(يصفعها بعنف وهو يرتعش انفعالاً وغضباً)** اخرسي.. لعنة الله عليك. هل فقدت كل أدب؟ هل فقدت كل حياء؟

الماسة : لا تلم إلا نفسك يا أبي. أنت من مزَّق حيائي، وأنت من زرع الغواية في نفسي. نعم لقّنتني كلمات، لكن ما قيمة الكلمات وأنا أبصر كيف تمارسها، وكيف تختلس النشوة من أضدادها؟ حفّظتني القرآن، وعلّمتني في الوقت نفسه كيف يكون ترتيل القرآن ستاراً للتهتك والفسوق. إني ابنتك وأهوائي ثمرتك، وما أفعله الآن تخمَّر، ونضج بتلك الرائحة الحريفة التي كانت تنبعث من ظلمات البيت، وتنتشر في أرجائه.

الشيخ محمد : ملعونة أنت حتى يوم الدين. أتساوين نفسك بالرجال..؟ لولا حرمة المرحومة لقلت إنك لست من لحمي ودمي.

الماسة : إني من لحمك ودمك يا أبي. ولم أذكر ما ذكرت كي ألومك أو أدينك. أردت أن تكون مواجهتنا في الضوء، وأن يكون حوارنا صريحاً لايموّهه نفاق أو رياء. علمتني كيف أتلمس جسدي وكيف أكتشف ينابيعه. ورغم أنك تستنكر ذلك، فإني أعتبر ما تعلمته فضلاً كبيراً وكنزاً ثميناً.

الشيخ محمد : كأنك تتباهين بالنشوز والدّعارة! اسمعي.. إما أن تتوبي وتجنبي شيبتي هذا العار، وإما أن تهلكي.

الماسة : لا تهددني يا أبي.

الشيخ : إني أخيّرك، ولولا رقة الشيخوخة لما أمهلتك حتى الآن.

الماسة : لا تَنسَ يا أبي أن الفضائح ملفوفة بأغشية رقيقة. وإن أصابني

مكروه، فإن وردة ستمزّق الأغشية، وستعلن الفضيحة في كل المدينة، سيكون عليك أيها الرجل التقي أن تواجه بدلاً من البلاء بلاءات كثيرة.

الشيخ محمد : أهذا هو جوابك لأبيك؟

الماسة : تهديدك هو الذي أملى جوابي. أبي.. عشت هذا العمر الطويل مستوراً. وكنت بارعاً في تغطية أفعالك، ومحو الشبهات حولك. وأعتقد أنك تستطيع رتق نشوزي، والحفاظ على سمعتك العاطرة بعيداً عني. وفي النهاية، ألا نعرف أن أحداً لايحمل وزر الآخر، وأن لكل نفس ما كسبت، وعليها ما اكتسبت؟

الشيخ محمد : لاشك أن أمك تئن في قبرها.

الماسة : لا تذكر أمي. من جعلها تئن طوال حياتها، لايحق له الآن أن يتباكى عليها.

الشيخ محمد : متى ربّيت في صدرك هذا الحقد وهذا الجحود؟ أتريدين عقابي! أتريدين عقابنا جميعاً، لأن زوجك غرّته الجهالة، وأخطأ في حقك!

الماسة : لا أحاول الانتقام يا أبي. وزوجي لم يخطئ في حقي.

الشيخ محمد : إذن أنت ضحية عمل أو رصد. هناك من أعمى بصيرتك. عودي إلى رشدك يا ابنتي، واستري شيبة أبيك. سنقول إن مساً أصابك. ومع الأدعية والنذور، سنشفيك من هذا المس، ونطوي القصة في ذاكرة الناس.

الماسة : هذا مصيري يا أبي، وسيصيبني المسُّ لو تنكرت لمصيري.

الشيخ محمد : أعوذ بالله.. هذه مكابرة إبليس.

الماسة : ألم يكن إبليس يساكننا! ألم يرافقنا في الطفولة والصبا!

الشيخ محمد : لا أتعرف فيك على ابنتي. إنك بنت زنىً. لعنة الله عليك.. وإني أتبرأ منك أمام الله. لا ابنة لي ولم يعد لك أب.

وسنرى إلى أي منقلب تنقلبين.
(يصعق عليها، ويخرج).

ألماسة : **(وهي تمسح وجهها)** أيها الشيخ المسكين. هي بذرتك التي أينعت، وبرزت للنور. فعلامَ الغضب!
(يدخل المفتي منفعلاً).

المفتي : هل أغضبتِ أباكِ؟

ألماسة : لم نستطع تحاشي الغضب. لماذا دبّرت هذا اللقاء؟

المفتي : لأن أباك أراده، ولأننا جميعاً نحس بالصدمة والهول. كيف يمكن أن تنزلقي إلى هذا الحضيض! إنك تذهلينني.

ألماسة : ولمَ الذهول! ألم تكن تعرف!

المفتي : أتريدين أن تحمليني جريرة هذا العمل الفظيع؟

ألماسة : لا أريد أن أحملك شيئاً. ولكن أعتقد أني شرحت لك الكثير عن غواية الهاوية.

المفتي : قلت كلاماً لم أفهمه جيداً. وأنا لا أفهمك الآن. إني لا أفهمك أيتها المرأة، ولا أعرف كيف تفكرين، وكيف تسلكين!

ألماسة : ليس ضرورياً أن تتعب نفسك في فهمي.

المفتي : بل أحتاج إلى فهمك. إنك..

ألماسة : **(بعد أن استدرك نفسه وتوقف)** إني؟

المفتي : **(محرجاً)** لا أدري.. إذا كان تدبيري هو الذي رماك إلى هذا المصير، فإني مستعد لإصلاحه. لا أريد أن ينوء ضميري تحت وزر ثقيل.

ألماسة : وكيف ترى السبيل إلى إصلاح ما حدث!

المفتي : إني أعرض عليك الزواج.

ألماسة : أتتزوج عاهرة يا شيخ قاسم!

المفتي : لاتسيئي إلى نفسك.. إن معدنك أصيل. وما حدث هفوة

يمكن أن نتغاضى عنها.

الماسة : إنه عرض كريم، ولكن لا أعتقد أني أستحقه.

المفتي : إنك أفضل من يستحقه. سأنسى كل شيء، سأجعلك المدلّلة بين نسائي.

الماسة : وهل تفعل هذا كله كي تريح ضميرك!

المفتي : بل.. ولمَ لا.. أريد أن يكون ضميري مستريحاً.

الماسة : لا تحمل ضميرك أي وزر. كنت أنتظر أي صدفة كي أتبع غوايتي. وما أفعله هو خياري وحدي.

المفتي : ومع هذا.. ما زلت أعرض عليك الزواج.

الماسة : لم أطلق زوجي كي أتزوج قرينه.

المفتي : أترفضين عرضي!

الماسة : مقامي لايتيح لي أن أستحقه أو أقبله.

المفتي : ما أنت أيتها المرأة! ماذا تريدين، وعمَّ تبحثين؟

الماسة : إني أبحث عن شيء لايمكن أن يفهمه رجل مطمئن النفس مثلك.

المفتي : ومن قال إني مطمئن النفس؟

الماسة : ألم تقل لي إن دخيلتك صافية، وليس فيها ما تخفيه، أو ما تخجل منه!

المفتي : ربما قلت. لا.. لم أعد مطمئن النفس. أخبريني ماذا تريدين، وعمَّ تبحثين؟

الماسة : سيبدو ذلك غامضاً، ويصعب شرحه. حيث أتأرجح على الحافة، وتناديني الهاوية، يخيّل إلي أنه، وفي لحظة سقوطي، سينبت من مسامي ريش ملون. من جذور نفسي سيطلع الريش مزدهراً ومكتملاً، وسأحلق في الفضاء كالطيور والنسائم وأشعة الشمس. أريد أن أقطع الأمراس الليفية الخشنة التي تحفر لحمي، وتقمع جسدي. أمراس مجدولة من

الرعب والحشمة والعفة ومشاعر الدنس والقذارة.. من المواعظ والآيات والتحذيرات والأمثال ووصايا الأسلاف. صفائح فوقها صفائح، يذبل الجسد داخلها ويضمر. أريد يا شيخ قاسم أن أعتق جسدي، وأفك عنه هذه الحبال التي تمتص دمه، وتقمعه. أن يغدو حراً، وأن يستقر في مداره الذي خلق له، كالورد وأوراق الشجر، كالقمر وأعشاب الأرض، كالغزلان وينابيع السفوح، كالنور وكل ما هو حي في هذا الكون. أحلم أن أصل إلى نفسي، وأن أكون شفافة كالزجاج. ما تراه العين مني هو سريرتي، وسريرتي هي ما تراه العين مني. إن في قلبي مواجد محرقة، وأشواقاً كاوية، من العسير أن أشرحها، أو أجد تعبيراً يلائمها.

المفتي : عجيب أمرك يا مؤمنة!

الماسة : قلت لك.. اسمي الماسة، وأنا حريصة على حماية اسمي.

المفتي : عجيب أمرك يا امرأة! تقولين مالا يدركه العاقل. ماذا تقصدين؟ هل تزينين الانحلال؟ هل تعتقدين أنك ستجدين ما تفتشين عنه في الدعارة؟ هذا غريب.. هذا شاذ وغريب.. قولي لي إن هذا كله ليس إلا نزوة.

الماسة : نزوة..! لا يقلب المرء مصيره من أجل نزوة. وفي معاييرك ينبغي أن يبدو الأمر شاذاً وغريباً.

المفتي : لا معاييري فقط بل معايير الناس طراً.

الماسة : نعم.. وأول المقامات في رحلتي هو أن أرمي وراء ظهري معاييركم. ينبغي أن أتحلل من أحكامكم، ونعوتكم، ووصاياكم كي أصل إلى نفسي. ينبغي أن أتجاوز خطر الانتهاك كي ألتقي جسدي، وأتعرف عليه. صنعتم مني عورة هشة يمكن أن تنتهكها الكلمة والنظرة واللفتة. وجعلتم

دأبكم انتهاك هذه العورة، فصرنا جميعاً زواحف تتناهش في مستنقع من الأكاذيب والمظاهر والقيود. وأنا يا شيخ قاسم قررت أن أخرج من المستنقع النتن، وأصير بحراً لا ينتن. في الدعارة سأخلع عني صفة العورة وشرطها، وسأغدو خارج حدود الخوف والانتهاك. لا أعتقد أنك ستفهمني. وعلى كل لم يعد مهماً بالنسبة لي أن يفهمني أحد.

المفتي : دوختني يا ألماسة. في نبرتك وتصميمك ما يرعش بدن السامع. تمدّين يدك إلى المعاصي بتهور لم تسبقك إليه امرأة في هذه المدينة. أعرف أن في صدرك أهواءً عنيفة، ولكن هل أستطيع أن أتركك تمضين في هذا الدرب؟ إن امرأة لها عزمك وقدرتك على الكلام، يمكن أن تفسد سلطنة من النساء. إنك تقلبين مألوف حياتنا، ونظامنا، ومستقبلنا. لا.. لا أستطيع أن أسمح لك.

ألماسة : وماذا تريد أن تفعل؟

المفتي : إن سلاح الفتوى يستطيع أن يفعل الكثير.

ألماسة : هل أفهم أنك تعلن الحرب؟

المفتي : هذه حرب لا أريدها، ولا أتمناها. اصغي إلي.. من منا لاتراوده في خلوته أهواء وأشواق! من منا لاتوسوس له الشياطين في لحظة الغفلة!

ألماسة : أتعترف أن لديك أهواءً ووساوس!

المفتي : (محنقاً) نعم.. إن لدي أهوائي ووساوسي. ولكني أضبطها، وأكبت جموحها. إن أمرك يهمني، ورغم كل هذه الاعترافات ما زلت راغباً بك.

ألماسة : ستجعلني أظن أني بعض وساوسك.

المفتي : لا أدري إن كان وسواساً، أو حمقاً، أو جنوناً. منذ التقيتك وصورتك تلاحقني. إنك قلق في الفؤاد، واضطراب في

الروح. لا أدري ماذا أقول.. ولكن أرجو أن تعقلي، وأن تقبلي عرضي.

الماسة : أهو الحب يا مفتينا..!

المفتي : لا أدري ما هو، ولا تسأليني شيئاً. هل تقبلين الزواج أم لا..؟

الماسة : إن طريقينا مختلفتان. وأشواقي لايمكن أن يلبيها الزواج.

المفتي : أتوسل إليك.. لا تسرعي في الجواب. تمهلي، وفكري.. إني.. إني أريدك.

الماسة : هذا الاعتراف يمكن أن يشعر أي امرأة بالزهو، ولكن ما العمل.. قلت لأبي إن مصيري تقرر. ولا أستطيع أن أهرب منه، أو أتنكر له.

المفتي : في هذه الحالة، أنت من يعلن الحرب.

الماسة : لو نشبت الحرب، فستكون هي الأخرى جزءاً من مصيري. حين يترك المرء الحافة ويعوم في الفضاء، يستحيل عليه الرجوع إلى الوراء. والآن وداعاً يا مفتينا.

المفتي : ليس بعد الحافة إلا القاع.

الماسة : **(وهي تخرج)** هذا احتمال لم يغب عن البال.

المفتي : يا رب.. ما هذه المرأة! أين أنزلق، وكيف أهدئ هذا الخفقان في روحي! يا رب.. إني مأخوذ، وإني عاشق. لم تبقَ في هذا القلب أي مسرة.. لا شيء إلا الوسوسة والكدر.

(تتلاشى الإضاءة).

المشهد السادس

(في السوق. إبراهيم دقاق الدودة وحميد العجلوني أمام محلاتهما وثمة مارة في الطريق).

حميد : **(يصرخ من باب المحل)** يا ولد.. أسرع بالشاي.

الولد : **(من الداخل)** سأحضره حالاً.

إبراهيم : هل تسجل الوقائع المذهلة التي تجري حولنا؟

حميد : والله هذه غرائب تسلب الرشد، ما عرفناها على عهد آبائنا وأجدادنا. تقول حسدنا أنفسنا على الحياة الرائقة التي تميّز هذه المدينة.

إبراهيم : أتصدق.. صار النوم يجافيني. كلما فكرت أن مؤمنة بنت الخزار فتحت بيتاً وتسمّت ألماسة، أشعر بالحصر وبأن حياتنا مقبلة على الفوضى والجنون.

حميد : يا سيدي.. بدأ الجنون فعلاً. لا حديث على لسان أحد إلا ألماسة. بدأ العطارون يسمّون أفخر عطورهم ألماسة. وبائعو الذهب لايصنعون حلياً إلا كالتي تتزين بها ألماسة. وقيل لي.. سينزل إلى السوق حرير اسمه ألماسة. لقد جن الناس، وسيطر عليهم ما يشبه السحر الأسود.

إبراهيم : والمفتي..! أليس الواجب أن يتحرك، ويتصدى لهذا الجنون!

حميد : علينا أن نزوره، ونتداول الأمر معه. لاشك أن انزواءه يخفي سراً. **(هامساً)** يا سيدي.. يبدو أن سحر ألماسة لطش عقل

الوالي نفسه.

(يدخل الولد حاملاً صينية وطبلية صغيرة. يركزها أمامهما، ويصب الشاي لهما).

الولد : شاي ألماسة يا سيدي..

حميد : تأدب يا ولد.. ما هذا الكلام!

الولد : كل شيء فاخر اليوم يسمونه ألماسة يا سيدي. انظر.. شاي أكرك عجمي أصلي.

حميد : **(وهو يصفعه)** انقلع من وجهي.. **(يغيب الولد في المحل، وهو يضحك)** تفضل يا سيدي.. حتى الأولاد صاروا يلهجون بذكرها، ويتلمظون باسمها. إنها جائحة من الجنون.

إبراهيم : أعتقد أن هذا بعض تأثير الأجانب. إننا ندخل في فوضى لا أحد يعرف ماذا يكون ختامها.

حميد : معك حق. هذه الجائحة تفوح منها رائحة غريبة.

(يظهر سمسم في الشارع، وهو يتقصع في مشيته).

أحد المارة : كيف الشغل يا سمسم؟

سمسم : خَنٍّ طيزك. من كثرة المحلات سكرنا المحل. **(يتوقف قرب حميد وإبراهيم)** يا أهل الإسلام.. هل يجوز ما يحدث! كانت لي تجارة صغيرة على قدٍّ **(ويضرب بيده على مؤخرته)** هذه الراجحة. فضاقت عيون الجميع منها. الزكرتية فتحو من الوراء، والأكابر فتحوا من قدام. قولوا أيها الأوادم.. ألا تبور التجارة إذا كثرت البضاعة!

إبراهيم : هل اشتدت المنافسة في سوق البغاء إلى هذا الحد؟

سمسم : إنها كالحمى. وإذا لم يسعفني رجل فاضل مثلك وأجره عند الله محفوظ، فإن العنكبوت سيعشش في دكانتي ومهجتي.

حميد : اذهب قاتلك الله.

سمسم : يا حميد أفندي.. أنت لا خير فيك. لولا الجزر لكان حالك

صعباً مع أهلك.

حميد : **(يهبّ غاضباً)** تفو عليك وعلى مرباك.. امش من هنا.

سمسم : لا عليك يا حميد أفندي. ألا تحتمل مزحة صغيرة.! إنكم لاتؤاجرون، ولا تواسون. ألا أقصُّ عليكما خبر العفصة!

حميد : اذهب يا سمسم. لا نريد أن نسمع شيئاً.

سمسم : يا هو.. يا ناس.. لم يتركوا لمعلم الصنعة رزقاً. العفصة وست الأشراف ألماسة والذين يستعدون للنزول إلى السوق عشرات بل مئات. صارت ضيقة، ضيّق الله عليهم.

(يواصل سيره).

حميد : كيف سكتنا على مثله! أما كانوا يهدرون دم أمثاله!

إبراهيم : كان ذلك قبل أن يملأ أمثاله قصور السلاطين، وأولياء الأمر.

حميد : ينبغي أن نزور المفتي هذه الليلة.

إبراهيم : كما تشاء.

(ترتفع جلبة صبيان لا تلبث أن تتضح تدريجياً. ونرى عبد الله وقد علق كيساً في رقبته وملأه جوزاً، والأولاد يتدافعون وراءه).

الأولاد : **(يغنون ويصفقون)** يا عبد الله.. يا مجنون، ضروب الكف وخود الجوز.

(يقتربون تدريجياً في السوق، والناس تتفرج عليهم، وتحوقل).

عبد الله : **(إلى أحد الأولاد)** جاء دورك. **(يتردد الولد)** تعال.. هذه هي الجوزة. نعم.. نعم على الخد. لاتخف، وقوّها. **(يصفعه الولد على خده)** وهذه هي الجوزة. انظر إذا كانت فارغة، سأبدّلها لك.

الأولاد : يا عبد الله.. يا مجنون. ضروب الكف وخود الجوز.

(يندفع حميد وإبراهيم، ينهران الأطفال، ويحاولان تفريقهم).

عبد الله : دعوهم.. فإنهم يفكون أغلالي، وينقذونني منها.

حميد : مَ ينقذونك أيها السيد، وماذا تفعل بنفسك؟

عبد الله : ناديته بالاستغاثة.. إلهي! أدعوك دعاءً لم يبق له غيرك! فلما عرف صدق الدعاء من قلبي والإياس من نفسي، كان أول ما أورد علي من إجابة هذا الدعاء أن قال.. اترك نفسك وتعال. وحين تركت نفسي، نظرت إلى الخلق، فرأيتهم موتى، فكبرت عليهم أربع تكبيرات.

حميد : لايجوز يا سيد عبد الله.. إنك تحط من مركزك ومقامك.

عبد الله : وددت أن الله تعالى جعل الدنيا بزينتها ومراكزها لقمة واحدة، فأعطانيها حتى أنبذها بين يدي كلب، فلا يغترّ بها الخلق.

إبراهيم : طيب.. تعال. لندخل إلى المحل، ونتكلم.

عبد الله : إليكم عني. من عرف الله، بُهت ولم يتفرغ إلى الكلام.

حميد : يا سيد عبد الله..

عبد الله : إليكم عني. **(إلى الأولاد)** تعالوا يا أحبائي.. فأنتم رحمتي. تعالوا، وحرروني من اللّوامة، والأمّارة والسجّانة.

(يتابع طريقه ملوحاً للأولاد بكيس الجوز. بعد تردد قصير يتبعه الأولاد، وهم يغنون ويصفقون).

الأولاد : يا عبد الله.. يا مجنون. ضروب الكف، وخود الجوز.

إبراهيم : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ما الذي بدّل أحوالنا على هذا النحو!

حميد : لاشك أن عيناً أصابتنا.

إبراهيم : كأن زلزالاً ضرب هذه المدينة المطمئنة، فخرّبها، وأخرج خبائث بطنها. بدأت أتطيّر فعلاً مما تخبئه الأيام.

حميد : هذه الليلة، يجب أن نطلب من المفتي أن يتدخل قبل أن يجرفنا الخراب.

إبراهيم : نعم.. حان وقت المفتي.

(تتلاشى الإضاءة).

المشهد السابع

(في بيت العفصة يجلس العفصة حزيناً ومسحوقاً، وبين يديه حبل عقدت في طرفه أنشوطة. بحركات شاردة يحف الحبل بقطعة صابون كي يلين، ويصبح زلقاً).

العفصة : لم يعد هناك أمل أو رجاء. آه لو أحسن الكلام.. ولكن ما جدوى الكلام إذا لم يكن هناك من يصغي..! فقدت مكاني في عيون الناس، والذي كشفت سري من أجله، رماني وسمّاني عرّة. فماذا بقي أمامي..! هي خطوة محتومة، وعلي أن أخطوها. ما أغرب هذه الدنيا..! إن كتمت وأخفيت، عشت وتكرمت. وإن صدقت وكشفت، نبذوك وأخرجوك منهم. لم أعرف كيف أعبر له.. إني أشجع منه. أحبني حين كنت كذباً وهيئة، ثم ازدراني ورماني حين جئته صافياً كالبلور بلا كذب أو هيئة. هو الكذب، وهو الجبن. لم يفهم الشجاعة التي تحليت بها، والعذابات التي كابدتها كي أتصالح مع نفسي، وأغدو شفافاً. لا أستطيع أن أندم.. لا أستطيع أن أتراجع، ولا أستطيع أن أتقدم. أغلقت الأبواب، وهذه الدنيا ظالمة لايعيش فيها إلا المزوّر أو الكاذب.

(ويذهب إلى زاوية جانبية، يربط الحبل في عضاضة السقف، وتتدلى الأنشوطة.. يضع طاولة تحتها ويقف عليها. يضع الأنشوطة في رقبته).

العفصة : يا الله.. إني أخجل من مناداتك، ولا أعرف كيف سألقاك.
يا رب وأنت العادل الرحيم.. تثبّت قلبي، وصبّر أمي، واغفر لي.
(يدفع الطاولة من تحت قدميه، فتنزرد الأنشوطة على رقبته. حشرجات مخنوقة، ثم يعم صمت ثقيل، وتتلاشى الإضاءة).

المشهد الثامن

(بيت السيد محمد الخزار. الشيخ محمد ومعه ولداه. البكر عبد الرحمن والأصغر صفوان).

صفوان : **(منفعلاً)** لماذا نتحاشى الحديث في الموضوع! ومتى يقول الأب كلمته! فاحت رائحتنا، وزفّرت هذه القحبة اسمنا وعائلتنا.

الشيخ محمد : اسكت، ولاتتكلم بلا إجازة.

صفوان : إننا لانفعل شيئاً إلا التصفّن. ألا ترى يا أبي أننا سجناء، وأننا لانستطيع مواجهة الناس ما دامت حية!

الشيخ محمد : لا أحب اللغو يا صفوان. هل صالحت زوجتك يا عبد الرحمن؟

عبد الرحمن : فعلت ما أمرتني به يا أبي.

الشيخ محمد : أي.. الله يرضى عليك يا ابني. أنا اخترتها لك، وأنا كفلت عند أهلها حسن المعاملة. فأرجو أن تحفظ عهدي، وأن تظل على وفاق معها.

عبد الرحمن : كان خلافاً عابراً، وأعدك ألا يتكرر يا أبي.

الشيخ محمد : أريد أن أظل سيد بيتي حتى يحين لقائي مع ربي.

عبد الرحمن : إنك السيد يا أبي.

صفوان : أتريد أن تكون سيد الغرف والحجارة، أم سيد أهل الدار!

الشيخ محمد : لا ترهقني أيها الغلام. رأيت فيما يرى النائم يا عبد الرحمن

أن السماء تمطر حين أُقبض، وأن يداً نورانية تقشع الغيم عن وجه السماء حين أحمل، وأن شحروراً لطيفاً يكبّر حين أضجع في القبر. كأني الآن أراه، وهو يحوّم مسبحاً ومكبراً. أفليست تلك إشارة..!

عبد الرحمن : نعم يا أبي.. إنها إشارة وبشارة بعد عمر طويل إن شاء الله.

الشيخ محمد : إيه.. كانت حياتي مكابدة قاسية ومرهقة. خلقني الله وخلق معي، في ذاتي عدوّي. وأمضيت ردحاً من عمري، أعاند قضائي، وأتخبط في حربي مع نفسي. حرب رهيبة، يتواصل فيها الكر والفر. حين يغلبني، أخضع له وأشاطره عبثه. وحين أغلبه، يخضع لي ويشاركني صلواتي وخشوعي. كانت الحياة امتحاناً عسيراً، وعذاباً مقيماً. ثم ألهمني الله.. أني وعدوّي من خلقه وقضائه. وأن عليَّ أن أبدل الحرب مساكنة وصحبة. فقرّت نفسي، وعرفت الرضا والسكينة. ومازال الواحد يلبي نداء الآخر طوعاً وحباً.. لقد جزت الامتحان، وأشعر أني خفيف أمام ربي. والآن.. وأنا أتهيأ لملاقاته، لا أريد أن أثقل خفتي بالدم.. فما قولك يا عبد الرحمن..؟

صفوان : وأنا..! لماذا لاتعبّرني، ولا توجه الكلام لي!

الشيخ محمد : اسكت أنت.

صفوان : لماذا أسكت!

الشيخ محمد : لأنك ترغي كثيراً، وتدبّر قليلاً. أفسدتك أمك بالدلال.

صفوان : لماذا لا تجربني! كلفني أن أدبّر أمراً.

الشيخ محمد : لن أكلفك، ولن تفعل شيئاً. ماذا قلت يا عبد الرحمن..؟

عبد الرحمن : القول لك يا أبي.

الشيخ محمد : هل تريد أن تلطخ يدك بدمها؟

عبد الرحمن : سأفعل إذا أمرتني.

صفوان : وأنا جاهز.

الشيخ محمد : أخشى أن تفضحنا بالموت أكثر مما فضحتنا بالحياة. إني على حافة قبري، ولا أريد أن احمل معي في الكفن وزراً ودماً. يكفي أن نتبرأ منها، ونتركها في ضلالها.

صفوان : والناس.. بأي وجه سنلقى الناس! عافت نفسي هذا السجن. هي تسرح على كيفها، وأنا أنزوي خجلاً في هذا البيت.

الشيخ محمد : هل توافقني الرأي يا عبد الرحمن؟

عبد الرحمن : هذا هو الرأي الصائب. لماذا نضاعف الفضيحة دون فائدة. وأما الناس فسيعرفون أننا تبرأنا منها، وأننا لم نشأ أن نلوث أيدينا بدمها.

الشيخ محمد : كان المنام إشارة. يريدني أن ألقاه خفيفاً.

صفوان : هذا الرأي سيجعلنا سُبّة على الألسنة حتى أحفاد الأحفاد. لا.. لابد من سفك دمها.

الشيخ محمد : أنا أعرفك يا صفوان. كنت دائماً عِرق ضراط، فلا تتبجح أمامي.

صفوان : وأنا أعرف أنك تكرهني، لأن أمي ميّزتني، وأحبتني.

الشيخ محمد : لا أكرهك يا بني. لكن لا أحب أن تتشدق في حضرتي، ولا أقبل أن تخالف أمري..

صفوان : إنك تقرر لنا العار، وتأمرنا بقبوله.

الشيخ محمد : تأدب يا ولد.. حين يتكلم الكبار ليس عليك إلا أن تصغي.

عبد الرحمن : عيب يا صفوان.. أتخالف رأي أبيك!

الشيخ محمد : ومن الذي يخالفني! أنسيت يا ولد كيف يغمى عليك حين ترى دجاجة تذبح، أو دماً يقطر من جرح! دللتك أمك، ولم تعلمك الأدب. قم.. لا أريدك في حضرتي.

صفوان : (وهو يخرج) سترى يا أبي.. وسيأتيك خبري.

عبد الرحمن : أخشى أن يتهور.

الشيخ محمد : لا تشغل بالك. هو يرغي، ويتشدق لا أكثر. أفسدته أمك رحمها الله. وما أخشاه هو ألا يبلغ مبلغ الرجال أبداً.

عبد الرحمن : مازال صغيراً، وستنضجه الأيام. على كلٍّ اسمح لي أن أهدئه، وأن أحتاط عليه قليلاً.

الشيخ محمد : لابأس. ولكن علّمه أن يتأدب في حضرتي. هيا بنا.. حان وقت الصلاة.

عبد الرحمن : **(وهو يساعد أباه على النهوض)** يا الله..

(تتلاشى الإضاءة).

المشهد التاسع

(في بيت المفتي. المفتي وحميد العجلوني وإبراهيم دقاق الدودة).

حميد : فسد البلد، وتغيرت أحواله يا شيخ.

إبراهيم : لم يعد المرء يتعرف على الشام التي ألفناها. شام المحبة والغيرة. ألّمت بنا جائحة بدّلت العفة فجوراً، والأمن قلقاً وجنوناً. ألم تصلك أخبار ألماسة، وما فعلته بالرجال! لا أدري من أين تهب علينا هذه الفوضى! منذ حكاية النقيب تزلزلت المدينة، وانقلب عاليها سافلها.

حميد : وامتد البغاء إلى الرجال. تراهم يتبخترون في السوق على عيون الناس، وليس من يستنكر. لقد أصابتنا عين أو عُمل بنا شر.

المفتي : أعتقد أن لدي صورة وافية عما يجري.

إبراهيم : لن ينقذ المدينة إلا موقف حازم كتلك المواقف التي عوّدتنا عليها.

حميد : هل تتريث عن قصد!

المفتي : نعم.. لماذا أتريث..! لعلي أنتظر أن يسفر الشر عن وجوهه كافة.

حميد : ونحن نقول.. أسفر الشر عن وجوهه، وبالغ في السفور.

إبراهيم : هذا أوانك، ولن يوقف تدهور الأحوال سواك.

المفتي : حقاً.. ربما أزف الوقت كي نقمع هذا الفساد. تلك المرأة سمّمت حياتنا، وأرّقت نومنا، متّت عقولنا. تلك المرأة جسد يسكنه إبليس. ولن تعود المدينة إلى رواقها إلا إذا هتكنا إبليس، وطهرنا البلد منه. أيها الناس.. اطردوا إبليس، لاحقوه، ارجموه. أعوذ بالله.. وأستغفر الله.. **(ينهار على مقعده)**.

إبراهيم : هذا هو المفتي الذي نعرف. هذا هو الرجل الذي سيجابه الفوضى.

حميد : ما حالك يا شيخ! هل تشكو مرضاً؟

المفتي : ذكر الشيطان أنهكني. إني مرهق، أشعر انحلالاً في جسدي.

إبراهيم : عافاك الله.. هذا تعب الانفعال والغيرة. كيف كان يمكن أن تجري أمورنا، ولو لم يكرّمنا الله برجل مثلك؟

المفتي : **(متعباً)** هل تطلبان مني أن أفتي؟

إبراهيم : أنت أدرى منا. ولكن أعتقد أن هذه البلبلة لا تصلحها إلا فتوى حازمة.

المفتي : إذن.. ستكون فتوى رهيبة. فتوى تهدر الدم. وأي دم.! **(ينتفض، ويتكلم بشرود)** سنغوص في الدم.. إن المعركة مع الشيطان مهولة، لأن للشيطان حيله وألاعيبه. في كل واحد بعض منه. وكل واحد سيقاتل نفسه، ويذبح نفسه، ويسفك دم نفسه. إني محموم.. وهذه الحمى لاتفارقني نهاري أو ليلي.

حميد : شفاك الله.. أتريد أن نعود في وقت آخر؟

المفتي : لا.. هذه الليلة يجب أن يحسم المفتي أمره. ألست ملجأكم..! ألست مفتيكم..! يجدر بي أن ألملم شتاتي، وأن أقهر ضعفي، وأن أعلن حربي. نعم.. حرب ستطهرنا، وتعيد

ما تخلخل من أوضاعنا إلى مقامه ومكانه. **(بلهجة إعلانية)** إن مفتي الديار الشامية **(يتوقف)** كم أحتاج إلى الصلاة..!

إبراهيم : **(يخالس حميداً نظرات متحيّرة)** هل فاتت شيخنا صلاة العشاء!

المفتي : أتحدث عن النوافل. أريد أن أنغمر في الصلاة، كما ينغمر المرء في بحر دافئ. وحين أتأكد من نقاء نفسي.. لا.. لن يتردد المفتي، ولن يؤجل عمل الليلة إلى الغد.. اكتبا عني..

حميد : **(يفتش في جيوبه، ويخرج دفتراً صغيراً)** هذا دفتر حسابات، ولا يليق أن أكتب عليه.

(يتاول المفتي ورقاً، ويعطيه لحميد).

المفتي : خذ، واكتب.. إن مفتي الديار الشامية يهدر دم البغايا نساءً كانوا أم رجالاً. ويخصُّ بالذكر تلك البغي التي تدعى ألماسة لأنها تجاوزت كل حد، وأشاعت جواً من الرذيلة أفسد قلوب الرجال، وحاد بهم عن الفضيلة إلى حمأة الفجور والمعصية. إن مفتي الديار الشامية يحرّم أن تتزين امرأة بزيها، أو تتجمل على غرارها. إن مفتي الديار الشامية يحرّم أن تسمى أي بضاعة باسمها، وما وُجد منها يتلف.

حميد : يا شيخ..

المفتي : **(يشير إليه بالسكوت)** إن مفتي الديار الشامية يحرّم قراءة الكتب غير الدينية، ومن وجدت لديه مثل هذه الكتب فليحرقها، أو فليسلمها للمفتي. وقد تبيّن لنا أن من أسباب الانحراف والفساد قراءة هذه الكتب الشيطانية. إن مفتي الديار الشامية يحرّم الغناء والرقص، وكل ما ينتسب إلى الخلاعة، أو يؤدي إليها. إن مفتي الديار الشامية يأمر المسلمين بمهاجمة الأماكن التي تصنع فيها الخمور، ويحلُّ لهم إحراقها، وإهراق خمورها. كما يأمر بالقبض على من يشرب

الخمر، وجرّه إلى المحكمة الشرعية لإقامة الحد عليه. أعتقد أن هذا يكفي الآن.

حميد : **(مرتبكاً)** بل أخشى أنك تزيدت يا شيخ. للتجار مصالح، والناس لاتستغني عن الغناء واللهو البريء. ثم إن مسألة الخمور ليست ملحّة الآن.

المفتي : هل تريد أن نواجه بعض الشر أم كلّه!

إبراهيم : هذا حق.. ينبغي أن نواجه الشر بكل مظاهره وتجلياته.

حميد : أقصد.. لو تدرجنا في الأمر.

المفتي : فات أوان التدرج، وفات أوان التراجع. هذه هي الفتاوى. وتستطيعان أن تنشراها على الناس منذ الليلة.

حميد : ألن يصدّق عليها الوالي!

المفتي : وما علاقة الوالي! الفتوى مسؤوليتي، ولن يراجع مؤمن كلامي.

إبراهيم : ومن يجرؤ على مخالفة أوامر يصدرها.. مفتي الديار الشامية؟.

حميد : هل نمضي؟

المفتي : لحظة.. أعطني الورقة **(يمدّها له حميد)** لا.. لا أريدها. تلك هي الفتاوى، واعذراني فأنا متعب.

حميد : **(ناهضاً)** قوّاك الله يا شيخ.. ومتّعك بالعافية.

إبراهيم : وحياتك يا شيخ.. أزحت عن صدري غمامة ثقيلة. حين جئت، كنت متطيراً من الغد، وما يحمله. أما الآن.. فقد اطمأن بالي، وانقشعت الغمامة عن صدري. غداً تتوقف الفوضى بإذن الله، وتعود المدينة كما ألفناها. بارك الله فيك. **(يقبلان يد الشيخ، ويخرجان).**

المفتي : **(وحيداً)** وأخيراً.. تخطيت الوسواس، واستعدت زمام أمري. وغداً ترتج المدينة لذكري وهيبتي. وعدتها بالحرب، وها هي

الحرب تنشب. كيف قبلت هذا الخور والضعف! أنا الذي برعت في مقاومة أعدائي، والمكر بحسادي.. أترك وهماً من العشق يمكر بي، ويضيعني! وما شأنك أيها الرجل بالهوى وجنونه. للهوى صبية وحمقى.. أما أنت.. فهل يحق لك أن تلبّس على نفسك وهماً وهياماً..! آه.. إني أستيقظ من غفلتي وفتوري. ولكن في قلبي وخزة، وفي حشاشتي أنيناً. لن أصغي إلى الأنين، ولن أبالي بوخزات القلب وهذه السالفة طويناها. الليلة، طويتها. نعم.. إني أطويها.

(يتناول سجادة الصلاة، يفرشها على الأرض، يتوقف حائراً، يبدو عليه الحصر، يتهاوى على كرسيه، ويجلس مبحلقاً في الفضاء بعينين فاترتين وخاويتين).

(تتلاشى الإضاءة).

المشهد العاشر

(في قصر الوالي. الوالي وخصي الحريم. يبدو الوالي في حالة هياج وانزعاج).

الوالي : واقعته سوداء هذا المفتي. هل تخبَّل..! كيف يصدر هذه الفتاوى! أيريد ولايتي مقبرة ومأتما! ما الذي لم يحرّمه..!

الخصي : حرَّم حتى الكأسِ التي تروّق مساءك، وتضاعف مسراتك.

الوالي : لن يحرمني شيئاً. حفر حفرته بيده، وسأطمره بها. ماذا يريد..؟ وكيف يتجاوزني بهذه الصلافة..؟

الخصي : لاشك أن لديه خططاً. وربما كانت لديه اتصالات سرية بالباب العالي. هذا الرجل ماكر جداً. قبل أن يأتي عبد الله، ويكشف لنا ملعوب السجن مبرئاً ذمته أمام الله، اكتشفت ليلتها أن الأمر مريب، وأن المفتي ذاته هو الذي دبَّر هذا الأمر.

الوالي : ولماذا لم تتكلمِ يومها!

الخصي : وجدتك ميالاً للتخلص من قائد الدرك.

الوالي : والآن.. بعد ما فعلناه به لايمكن أن نطمئن له.

الخصي : انظر كيف يلقينا في دوامات مكره، ويورّطنا في تنفيذ مآربه. أعتقد أنه لم يصدر فتاويه إلا بعد أن عرف أنك مولع بألماسة.

الوالي : حقاً.. كدت أنسى. كيف تعيش ألماسة الآن..! ينبغي أن نتخذ الإجراءات التي تضمن حمايتها. يجب أن تذهب

إليها، وتطمئنها. وسأرسل الدرك كي يحموا بيتها.

الخصي : لا.. لاتقع في الفخ الذي نصبه لك.

الوالي : ماذا تريد..! لن أترك الرعاع يفتكون بها.

الخصي : لابد أن الناس تعيش اليوم حالة من الهياج والحمّى. وإذا قاومت واحدة من الفتاوى دون سواها، بدوت متحيزاً، ولايدفعك إلى المقاومة إلا غرض شخصي. وهذا قد يزيد هياج الناس، ويحقق للمفتي بغيته.

الوالي : ولمَ هذه المواربات، ووجع الرأس! سأصدر فرماناً، يعطّل الفتاوى كلها دفعة واحدة.

الخصي : وستبدو أمام الناس، وكأنك تدافع عن الفسوق والمعاصي، وتعارض إقامة حدود الدين.

الوالي : (غاضباً) أعترف أني لا أتمتع ببرودك وصفاء بالك. إنك تجعلني أغبطك على فقدان خصيتيك. أنت الوحيد المطمئن وسط هذه البلبلة، لايقلقك هوىً، ولا تعمي بصيرتك امرأة. قل لي.. كيف ندبّر الأمر! وكيف نحمي الماسة؟

الخصي : أرى يا باشا أن تؤيد الفتاوى، وتثني عليها.

الوالي : أتريد أن أرضخ لهذا الوغد! وإذا أيدت الفتاوى، فإن هياج الناس سيزيد، وستنفجر أحداث لانعرف كيف نسيطر عليها.

الخصي : لم تدعني أتمّ فكرتي. تؤيد الفتاوى ثم تعلن أن تطبيقها لايجوز أن يتم قبل أن تصدّق عليها مراجع الإفتاء في عاصمة الدولة العلية.

الوالي : سنعطيه مكسباً، ونرفعه مرتبة.

الخصي : ليرتفع، وليكسب الآن. المهم من يكسب أخيراً. ستأخذ مهلة تحاول أثناءها أن تقلب عليه الخواطر لدى الباب العالي، وربما هنا في الشام أيضاً.

الوالي : هذه طريقها طويل، والإلغاء أسهل وأضمن. لأني أخشى في الانتظار أن يحدث هرج وشغب.

الخصي : الإلغاء يعني المواجهة. والمواجهة الآن مع هيجان الناس قد يؤدي إلى شغب أكبر.

الوالي : إن الخطر يهدد ألماسة.

الخصي : إذا أبديت التأييد واقترحت التريث، فسيكون بوسعك أن تستخدم الدرك دون أن تستفز الناس، أو تعطيهم سبباً للشغب.

الوالي : أتعتقد أن هذا هو الصواب!

الخصي : نعم.. وفي هذه الحالة يمكنك أن تحمي بيت ألماسة دون أن تثير شبهة أو لغطاً.

الوالي : أتعلم.. إن تهور وجسارة عزت كان يمكن أن يفيدانا جداً في هذا الوضع.

الخصي : المسكين.. لم يعد فيه أي خير. لطش الملعوب عقله.

الوالي : وعلى كلٍ.. لا أستريح إليه. اذهب إلى ألماسة، وهدئ روعها. ولاتنسَ أن تحمل الهدية معك.

الخصي : وأنت يا باشا.. أصدر أوامرك للدرك كي ينتشروا في المدينة، ثم استدعِ الأعيان إلى السرايا. اشكر المفتي، واستكثر له البركات، وامتدح الفتاوى، واطلب منهم التريث والتأجيل.

الوالي : ليكن.

(تتلاشى الإضاءة).

المشهد الحادي عشر

(في السجن. يُدخل السجان عبد الله إلى الزنزانة التي يوجد فيها قائد الدرك عزت).

عزت : ما هذا..! من أنت..! إني أنتظر المفتي، ولا أريد أحداً سواه.

عبد الله : غفرانك يا عزت بيك. دعني أقبّل يديك. دعني أقبل رجليك.

عزت : ما هذا يا رجل! ومن أنت..!

عبد الله : أنا.. عبد الله.

عزت : ومن عبد الله! وماذا تريد!

عبد الله : لا أعرف عبد الله أكثر مما تعرفه أنت. ولكن جئت كي أزيح عن عاتقي وزراً ثقيلاً. جاءني هاتف في الليل، وأيقظني.

عزت : هاتف ما هاتف! ماذا تعلّك يا رجل!

عبد الله : إي والله يا عزت بيك.. هاتف رهيب أيقظني من نومي، وقال لي.. كيف تستطيع النوم، وإنسان مظلوم، يتعذب في السجن بسببك! ومع بزوغ الشمس، ذهبت إلى الوالي، وكشفت له براءتك، واستحلفته أن يعفو عنك، وأن يضعني في السجن بدلاً منك. ولكن الوالي لم يعبّر كلامي، وعزاه إلى الخبل.

عزت : نعم.. ورأس أمي إنك مخبول يا رجل. نعم.. لا.. كانت زوجته. نعم.. لا.. لم تكن زوجته. هي، هي.. هي ليست

هي..

عبد الله : سأكشف لك الحقيقة.

عزت : **(منتفضاً ومتراجعاً كأنه لُسع)** الحقيقة..! لا.. لا تقل الحقيقة. أين الحقيقة! ما هي الحقيقة!

عبد الله : قبضت على نقيب الأشراف وهو يتبذَّل مع غانية مأجورة لا مع زوجته.

عزت : وما فائدة هذا الكلام! ورأس أمي لن يصدقك أحد، حتى لو كنت النقيب نفسه.

عبد الله : ألم أكن النقيب نفسه، ثم أنقذني الله من وهدتي، وأضاء قلبي بطرف من نوره.

عزت : يا رجل.. من أدخلك علي! هل تسايرني كي تهديني! وما قيمة هذه الحقيقة التي تقترب مني بها! إذا أعلن الناس جميعاً أنها كانت امرأته، فماذا يصير ما تتشدق به الآن! إنه افتراء وضلال. أو هو الجنون.. نعم.. هل أنت مجنون؟ اذهب يا رجل، ودعني بحالي. انتظر.. تعال.. ألديك مطرح للسر..؟

عبد الله : من عرف سره، استقل كل الأسرار.

عزت : ألا تريد أن تعرف السر؟

عبد الله : البوح مودة، فتكلم.

عزت : الحقيقة.. هي ما وافق أهواء السادة، وما انقادت إليه العامة انقياد الأعمى. وعدا ذلك لاتوجد إلا الافتراءات والظنون.

عبد الله : إنك تتحدث عن تلبيسات الدنيا، ولغوها. هل خفَّ مقدار الحقيقة حتى تحملها الألفاظ! لو تمثلت الحقيقة رجلاً، لهلك كل من نظر إليها لفرط جمالها وحسنها ولطفها. ولبدا كل نور ظلاماً أما بهائها.

عزت : وما هي هذه الحقيقة يا رجل؟

عبد الله : معرفة وجهه، والفناء في حبه.

عزت : ماذا تخرف يا رجل..! لماذا جئت! هل أرسلك المفتي كي تهديني إلى صراط إبليسه!

عبد الله : لا.. لا.. ما أرسلني إلا هاتف أيقظني في باطن الليل، وأمرني أن أسعى في فكِّ ظلامتك. ومع طلوع الشمس، سعى الفقير إلى الوالي، وبذل غاية الجهد في كشف ما لحق بك من ظلم، ولكن الوالي لم يبال، فسعيت إليك كي أطلب عفوك، وأبرئ ذمتي مما أصابك.

عزت : والله عال.. تضعونني في السجن، ثم تستغفرون مني. إني سجين.. ألا ترى يا رجل! أنا الذي كان يرتجف السجن حين يسمع خطواتي، غدوت سجيناً يهزأ منه السجان والدرك والمساجين! كيف كان هذا الكيد.! وكيف وقعت كالذبابة في الشرك.! هي زوجته.. وهي ليست زوجته.. وأنا أتعفن في هذا المكان ويتسرب عقلي قطرة قطرة.

عبد الله : لا تبتئس يا صاحبي.. ما السجن إلا كسواه من الأمكنة. وهنا في هذا السجن، عرفت الإشراق وجاءتني الإشارة. إن السجن الفعلي، هو سجن النفس. ومن أدرك ظلامه وحصره، يعرف أن هذه السجون هي كالرياض وكالقصور.

عزت : وَلَك.. ألا يكفيني ما بي! هل جئت تزيِّن لي بلائي!

عبد الله : كان وليي ومعلمي، حين لا يلحق به بلاء أو يصيبه عناء. ينادي ربه فيقول.. إلهي.. بعثت إلي خبزي. وما بعثت إلي بلائي، آكله معه. وكان يقول.. البلاء للأولياء كاللهب للذهب. وهو غذاء الرجال من مرتادي الوصال، ومريدي الاتصال.

عزت : أأنت مجذوب يا رجل؟

عبد الله : ليتني أبلغ هذه المرتبة.

عزت : أفي غيبتي.. صار المجذوب رتبة!

عبد الله : إن العبد إذا تخلّق، ثم تحقّق، ثم جُذب، اضمحلت ذاته، وذهبت صفاته، وتخلص من السوى. عند ذلك.. تلوح له بروق الحق بالحق، فيطّلع على كل شيء، ويرى عند الله كل شيء، فيغيب بالله عن كل شيء، ولا شيء سواه.. وهذا أول المقامات.

عزت : ما هذا..! أجئت تزيدني خبالاً! من يحتاج إلى أورادك وتخاريفك! واحد يفسق مع عاهرة، والمفتي يبدّل بالعاهرة زوجة، وأنا أضيّع لحيتي بين الاثنين! والله سأربي بك هؤلاء السفلة. خذ جوابي.. **(يبدأ بضربه، ورفسه، وعبد الله لايريم حراكاً)** هذه للمفتي.. وهذه للنقيب.. وهذه لزوجة النقيب.. وهذه للوالي.. سأسحقكم جميعاً.

(يزداد انفعال عزت كلما أمعن في الضرب، وعبد الله مستسلم بما يشبه اللذة).

عبد الله : **(متمتماً)** حسبي الرب من المربوبين. حسبي الخالق من المخلوقين، حسبي الساتر من المستورين. حسبي القاهر من المقهورين. حسبي الذي هو حسبي. حسبي من لم يزل حسبي.

عزت : **(يصل ذروة الغضب، ويتحول صوته كالخوار)** العمى.. أليس فيك عرق رجولة! آأنت حجر، أم شجر، أم رمّة!

عبد الله : من توكّل، كان كالميت في يدي الغاسل، يقلّبه كيفما شاء. يا رب.. وعزتك وجلالك.. لو قطّعتني إرباً إرباً، وصببت علي العذاب صباً، ما ازددت لك إلا حباً.

عزت : **(وهو ينطُّ من الغيظ، ويرفس عبد الله رفسة تقلبه، وترميه نحو الباب)** يا ناس.. يا هو.. من هذا المخبول الذي أدخلتموه علي..!

(يصل السجان مهرولاً).

السجان : ما هذه الضجة! خزاك الله.. ماذا فعلت بالشريف عبد الله! وأنت يا سيد عبد الله.. كيف تخاطر، وتدخل على مجنون!

عزت : ومن هذا..؟

السجان : لاريب أنك أجَّرت الفوقاني. هذا السيد عبد الله نقيب الأشراف.

عبد الله : **(ينهض مذهولاً ومأخوذاً)** لقد بَلَغت. إن ضوءك يبهرني. إني أسيل كشمعة نحيلة، وأتلاشى فيك. أسبل علي ستور أنوارك، وغطني عما سواك. بعد الوصال، ماعاد للعاشق بغية إلا الفناء. إني أفنى، إني أفنى.

(يخرج من السجن فيما يراقبه الآخران مبهوتين).

عزت : كلهم عرصات.. كلهم أوغاد. رموني بهذه البلية، واختفوا.. وهذا جُنَّ.. يا فرحي.. يا فرحي.. جنون.. كله جنون.. ورأس أمي سيعمّ الجنون.

السجان : **(وهو يغلق الباب)** إي خراس.. أأنت من يحكي عن الجنون! اشتغل بنفسك، وفتش عن عقلك.

عزت : هي ليست هي. وأنا العاقل بينكم.

(يوجه له السجان حركة بذيئة، ويتركه).

السجان : لا حول ولا قوة إلا بالله. ماذا غيّر حال السيد النقيب! وأين اختفي!

عبد الله : **(يتناهى صوته مبتعداً)** هذا السجن مبارك. فيه جائتني الإشارة. وفيه أضاءتني الرؤية. بعد الوصال ما عاد للعاشق بغية إلا الفناء. ما أحلى الفناء فيك.. ما أحلى..

(يتلاشى الصوت والضوء).

المشهد الثاني عشر

(في السوق. حميد العجلوني وإبراهيم دقاق الدودة. يحمل حميد كراسة، يلوّح بها لإبراهيم).

إبراهيم : ماذا دوّنت عن أحوالنا؟

حميد : سأقرأ لك ما دوّنت. **(يفتح كراسته)** وفي هذه الأيام توالت على الشام هزّات، ما تعودنا عليها، ولانعلم لها مثيلاً في سالف الزمان.

قبل أيام شنق العفصة نفسه في داره بعد أن كشف الله سرّه، وتبيّن أنه عِلق، يُلاط به، وليس لديه من الرجولة إلا صورتها. ومن غرائب الأمور أن المذكور كان يُحسب على الزكرتية، ويُعدّ رجلاً بين الرجال. وقد كانت جنازته جرسة لم يحدث مثلها من قبل. اجتمع الأراذل والسفهاء، وراحوا يهزجون وراء الميت أهازيج سفيهة وبذيئة، ولم يقدّروا للموت حرمة. والفقير يقول.. إن حرمة الموت ضرورية، حتى ولو كان الميت لا يستحق الرحمة. وبعد نهاية الجرسة، ألقوه في حفرة دون أن يصلي عليه أحد. ولم يذرف أحد دمعه إلا أمه العجوز التي ظلت في البيت تنوح.

وفي هذه الأيام أصابت السيد عبد الله الذي كان نقيب الأشراف جذبة قوية، وتسربل بمرقعة زرية، وصار يطوف في الشوارع طالباً اللوم والزراية به. وقيل إنه سلك درب الصوفية

على غير طريقة تُعرف أو شيخ يرشده. وفاتحه إخوته في أرزاقه، فقال لهم: أتريدون أن تتقاسموا هماً ومربضاً في النار؟ خذوا ما شئتم واخرجوا عني. من عرفه لايشغله عني شيء.

وفي هذه الأيام أيضاً فشا الفسوق، وما عاد الناس يستخفون. وخاصة بعدما كان من السيدة الشريفة زوجة النقيب التي لحقت بنات الخطا، وصار لها لمعان وصيت.

وما كنا نعرف مآل هذه الأحوال لولا أن المفتي، أعزّه الله، تداركنا بفتاواه. وقد أحدثت هذه الفتاوى التي تقطع دابر الفجور، وتستأصل الشر من الجذور رجّة عظيمة بين أهل الشام، فغالى البعض في الحماسة، وغالى البعض في الإنكار. وكادت تحدث فتنة لولا أن الوالي اجتمع بالأعيان، واستمهل تنفيذ الفتاوى رغم موافقته عليها. وما أثار دهشة الحضور، هو تخلف المفتي عن هذا الاجتماع، ولم نعرف السبب إلا أن يكون ما لاح عليه من أعراض السقم يوم زرناه، عافاه الله وشفاه.

ويقول الفقير.. إن هذه الفتاوى على ضرورتها تجاوزت قليلاً حدود الاعتدال.

إبراهيم : وعليك أن تضيف.. وما زلنا على الحال نترقب ما تأتي به الأيام.

حميد : أتعلم.. كنت أتوقع البارحة مقتلها.

إبراهيم : أتظن أن مقتلها سهل إلى هذا الحد! صار وراءها والٍ وحزب من الرجال.

حميد : يدي على رأسك يا إبراهيم. ألا يغريك أحياناً أن تزورها؟

إبراهيم : (منتفضاً) فضَّ هذه السيرة يا حميد.

حميد : حلّفتك، فأجبني.

إبراهيم : أف.. ماذا أقول لك! والله هي التي تؤرق لياليَّ، وغوايتها هي التي تملأ صدري توجساً وقلقاً. إني خائف من نفسي.

حميد : الحال من بعضه يا إبراهيم. تحكى عنها أفانين عجيبة.

إبراهيم : أتخاف نفسك أيضاً.!

حميد : إني مبلل بالغواية. وحين أتخيلها، يتسارع دمي وتتلاحق أنفاسي.

إبراهيم : ما أغرب هذه الدنيا.. وكم هو هش مصير الإنسان فيها! أين الشاي؟

حميد : **(صائحاً إلي الداخل)** أين الشاي يا مقصوف الرقبة؟ **(يظهر الولد حاملا الشاي)**.

الولد : ها هو الشاي يا معلمي. شاي ألماسة مخمّر، ومعطّر.

حميد : اخرس يا ولد.

الولد : حاضر.. يا عيني على.. يا عيني على الشاي.

(تتلاشى الإضاءة).

المشهد الثالث عشر

(في بيت ألماسة. غرفة مفروشة بطريقة تنم عن الذوق. سجاد وفرش وثيرة ومساند ومخدات أنيقة بالإضافة إلى أريكتين من الخشب المصدّف ومنضدة واطئة من الخشب نفسه. ألماسة وتبدو مزدهرة الوجه والجسد، لطيفة الزينة، ترتدي ثوباً بديع الطراز، يبدي تفاصيل جسدها دون ابتذال. وردة التي تظهر في هيئة شعثاء وعدوانية. عباس يحتجز وردة، ويحاول تهدئتها).

عباس : ليس الوقت مناسباً يا وردة.

وردة : وهل بقيت أوقاتاً مناسبة يا كنّاس الأدبار!

عباس : الزمي حدك، وإلا رُميتم خارج الدار.

وردة : أتتقوى علي..! مرّت على هذا البطن شوارب أغلظ من شواربك. وما شأنك أنت! لن أخرج قبل أن أصفي حسابي معك يا ألماسة.

ألماسة : اهدأ يا أبا الفهد. ماذا تريدين أن تصفّي يا وردة؟

وردة : ألا تعرفين..! هل تلاحقونني كاللعنة حتى الممات! ماذا فعلت لكم، ومم تنتقمون؟ لم أكد أخلص من أهلك حتى برزت لي كضربة الغفلة، وأنا البلهاء.. وقعت في فخك. هل تذكرين أني معلمتك، وأن لي عليك حق الطاعة!

ألماسة : لا أنكر هذا الفضل، ولا أعرف ما الذي يغضبك الآن؟

وردة : اسمعوا يا ناس.. ولاتعرف ما الذي يغضبني! سرقت عزّي،

وأطفأت ضوئي، وها أنت تسببين بهدر دمي. ومع هذا تتصنعين براءة يوسف، وتسألين لماذا أنا غاضبة!

الماسة : وما حيلتي! أليست السكين فوق عنقي أيضاً!

وردة : أنت البلاء كله. أكسدت سوقنا، وهيجت الدنيا علينا، وأبحت دمنا. لعن الله الساعة التي عرفتك بها. من كان يصدّق أن تلك المرأة اللطيفة التي جاءتني متوسلة، تختزن في جسدها فنون ومجون ألفٍ من العاهرات! أتذكرين.. لم أكد أبدأ في تدريبك حتى تلألأت الأضواء فوقك، وخفتت أنواري..

عباس : قولي إن الحسد ينهشك.

وردة : نعم إن الحسد ينهشني. أينبغي أن يظلوا أكابر حتى في البغاء! أصابت الست الشريفة نزوة، فخطر لها أن تنافسنا في الكار. ودخول مثلها لا يتم بالمران والشقاء، وإنما بعراضة تهز المدينة وتسلب عقول الناس. لقد أفسدت حياتنا، ودمرت الهناءة المنغّصة التي كنا نحيا فيها. ماذا أفعل الآن! أين أذهب، وكيف أنجو! قولي يا ست الأشراف.. أشيري علينا.. ماذا نفعل؟

عباس : إننا ننتظر ضيوفاً يا وردة.

وردة : دع القِوادة الآن.. أعرف أن زبائنكم كثر، ولكن حياتنا أهم من متعة زبونك.

الماسة : اسمعي يا وردة.. لن يفيدنا اللوم أو الغضب. السكين فوق عنقي وعنقك، ولا حيلة لي فيما حدث. فماذا تريدين أن أفعل!

وردة : بلا لف أو دوران. أريد أن تفرقينا برائحة طيبة. أغلقي هذا البيت، وعودي إلى أهلك، أو زوجك لا أدري.. ولكن دعينا بحالنا. إذا خرجت من الكار، ستهدأ الزوبعة وسيزول عنا الخطر.

عباس : هل أكنسها؟
وردة : اذهب، واكنس دبر أمك.
عباس : تأدبي يا امرأة، وإلا عجنتك.
الماسة : توقفا..
وردة : هل تذكرين.! وعدت أن تحفظي حرمة معلمتك، وأن تطيعها.
الماسة : إني أحفظ حرمتك يا وردة، ولم يخطر لي أبدا أن أنافسك أو أسبب لك أذىً. وتذكرين أني أردت أن تظلي معي.
وردة : وماذا تفعل النواسة مع المصباح! حتى خادمتي بهرها الضوء، ولحقت بك. لا.. فضلت الابتعاد كيلا ينطفئ ذكري نهائياً.
الماسة : فماذا ذنبي إذن!
وردة : أثرت هيجاناً لا يحتمله هذا الكار، ولا تحتمله هذه المدينة. ولذا أطلب منك ومعي كل البنات أن تخرجي منا.
الماسة : إنك تطلبين المستحيل. لا أستطيع أن أتراجع.
وردة : أتعرّضين كل البنات للذبح من أجل نزوتك!
الماسة : إني أعرّض نفسي. والمطلوب هو رأسي قبل رؤوسكن.
وردة : لولاك لما صدرت الفتوى، فاخرجي منا كي تهدأ الضجة ونتدبر أمورنا.
الماسة : لا سبيل إلى الخروج. وحّدت الفتوى بيننا، وجمعتنا في مصير واحد. وأن نتضامن الآن خير لنا من أن نتنافر، وتنهش كل منا الأخرى.
وردة : لانريدك بيننا. إنك بلية.. إنك الموت. لانريد أن نموت من أجل لهوك ونزواتك. إذا لم تخرجي، سنكون حلفاً عليك.
عباس : أجئت تهددين يا بنت الأفاعي!
وردة : نعم إني أهدد، ولن نترك دماءنا تهدر كرمى لعينيها.
الماسة : تكثر التهديدات حولنا يا أبا الفهد.

(تدخل الخادمة مسرعة)

الخادمة : سيدتي.. وصل المفتي.

وردة : **(باندهاش ورعب)** المفتي..!

ألماسة : دعيه يتفضل. دعي الحمق والغضب يا وردة، وغداً سنواصل الحديث.

عباس : ألا أبقى؟ أخشى..

ألماسة : لا.. لا أريد أن يبقى أحد هنا. سأستقبل المفتي وحدي.

(عباس يدفع وردة أمامه فيما تتلكأ ذاهلة. يدخل المفتي. وجهه شاحب، وهيئته توحي بالمرض. تسرع وردة، وتلقف يده، وتقبلها).

وردة : أنا في عرضك يا شيخ. إني أتوب. أريد أن أتوب. أقسم بالله إني أتوب.

ألماسة : اذهبي الآن يا وردة.

عباس : **(وهو يجرها، ويخرج بها من الغرفة)** يا الله..

ألماسة : شرفت، ونورت يا شيخ.

المفتي : أهدرت دمك يا ألماسة.

ألماسة : وهل جئت تنفذ فتواك بيدك!

المفتي : أنفذ فتواي..! هيهات.. اكتشفت أني أهدر دم نفسي حين تجرأ لساني، وأهدر دمك.

ألماسة : أتريد أن تخفف عني!

المفتي : إني أتكلم من القلب. لم يعد بوسعي أن أخفي النار التي تتوقد في صدري. هذا شيء لم أعرفه من قبل. إنه مرض لايشبه ما يعتري الأبدان من الأمراض. وأنا لا أعرف كيف أقوله.. لا أعرف كيف أعبر عنه.

ألماسة : هذا غريب. تفتي بقتلي، ثم تداعبني بالحديث عن المرض والنار التي تتوقد في الصدر. ماذا تريد، وعم تبحث؟

المفتي : ترفقي بي يا ألماسة، فأنا سقيم إلى حد التلف. أنت أشد محنة واجهتها في حياتي. بل أنت المحنة ولن تكون بعدك محنة إلا الموت، لا أعلم كيف مكرت بي الأقدار، وأين كانت تختبئ هذه اللواعج والنيران! منذ التقينا وأنا أحاول الفرار. ولكن هل يفرُّ المرء من خفقات قلبه ورعشات روحه. ضوى جسدي، وأسقمني صراعي مع نفسي. أعترف لك أني لم أصدر الفتوى، إلا لكي أقهر هذه النفس، وأستعيد إرادتي المهدودة. لم أعرف من قبل جيشان الهوى، وصبوات الشباب. لم أجرب الحب، وما حسبت أني سأجربه.

ألماسة : في عمرك هذا.. ولم تعرف الحب!

المفتي : كنت أظن أن الحب فساد ابتكره المجان والبطالون.

ألماسة : ولم تراودك أشواق؟!

المفتي : أمضيت عمري في ترتيب سيرتي ونفوذي، وكانت تلك هي أشواقي التي تغذي عزيمتي.

ألماسة : والآن.. ألا تعتقد أن ما تشعر به ليس إلا فضولاً وتخيلاً!

المفتي : ليته كان تخيلاً.. إني مريض يذوي وجداً وشوقاً. تداعى العقل والعزم، ولم يبقَ إلا هذا الهوى الذي يحرقني، ويذهلني عن نفسي. لا أعرف لغة العشق، ولم أتدرب عليها. إني أحبك يا ألماسة. إني أسيرك ولك أن تفعلي بي ما تشائين.

ألماسة : والفتوى!

المفتي : سألغيها. سألملم ما بقي من عزمي، وأعلن فتوى أخيرة تبطل كل الفتاوى.

ألماسة : أتملك الشجاعة على مواجهة الناس، وإبطال الفتوى!

المفتي : بعد أن تجرأت على نفسي لم يعد هناك ما يخيفني أو يحبط جرأتي. حين غلبني الوجد وقررت المجيء إليك، أحرقت سفني ورائي. إن فيَّ الآن قوة العاشقين واليائسين معاً.

ألماسة : ها نحن نلتقي في الهاوية ووراءها. **(تُضجع الشيخ على الفرش المبسوطة، وترتب له المساند والوسائد)** استرح يا شيخ، واهدأ. لقد اجتزت مفازة وعرة، وأنجزت رحلة عسيرة. كيف نفذت إليك الغواية! وكيف تبدّلت الطمأنينة، قلقاً ووحشة!

المفتي : ومن يدري كيف تخادعنا الأقدار، أو كيف نخادع أنفسنا..! ما كنت أظنه طمأنينة لم يكن إلا حجاباً يستر الأهواء المقموعة، والأشواق المحبوسة. كان الوجد يتخمر، ويفور في الدنان المسدودة. حتى لاح ضوؤك، فإنزاح الحجاب وتدفق الهوى والشوق والوجد كنهر عظيم أفلت بعد انحباس. وحالي يا ألماسة هي حال رجل ضعيف، ينجرف ويتلاطم في عباب هذا النهر العظيم.

ألماسة : من كان يظن أن خروجاً على المألوف يمكن أن يخلق كل هذه الفوضى! ماذا تأمل أن أجيبك يا قاسم؟

المفتي : هل يستفتي السيد خادمه! إني أطمع بالكثير، ولكني أقنع بما تسخو به نفسك. يكفيني قرب أو التفات أو ظل. وأعتقد أن هذا العطش الذي يحرق جوفي لن يُروى أبد الدهر.

ألماسة : أتقبل بعطائي ولو كان زهيداً!

المفتي : إني في يدك وليس لي خيار.

ألماسة : مازلتُ في التجربة يا قاسم. لا أريد أن أتخاذل أو أنكص. أعرف أني خاسرة، وأن هذه الصبوة مستحيلة في بلد كل الناس فيها عبيد ومساجين. ولكن ما زلت أرغب أن أكون بحراً لا بركة آسنة. لا أريد أن يملكني أحد، وليتني لا أملك أحداً. الكل يريد أن يضع ختمه علي، وأنا أريد أن أظل طليقة بلا أختام. لم أجن إلا تفاهات مباذل. نعم.. إني خاسرة، ولعلي لم أعرف كيف أميّز أشواقي. ولكن لن

أتراجع، وسأظل أطارد هذا الحلم.. الحلم بأن أكون بحراً لايحتجز، ولا يفسد ماؤه.

المفتي : ما أشد نأيك، وكلما ازددت نأياً، ازددت هياماً. ليس حباً هذا الذي يطلب أجراً. ستكون اللفتة فيضاً، والبسمة سخاء، وهذا القرب عطاءً لا بغية لي وراءه. عدّيني ين المنذورين لك، وقلبي ما تبقى من عمري على هواك. ألا يتحمل البحر غريقاً يخبط في مائه وموجه!

ألماسة : نعم.. ولن يدعك البحر تغرق قبل أن تذوق مباهجه، وربما حنانه. ودِّع المودع الآن، وانزع هذه الأثقال عنك، ألا تريد أن تخف وتطفو..!

المفتي : ماذا أنزع!

ألماسة : هذه العمامة، وهذه الجبة. **(يتردد المفتي، فتساعده ألماسة في خلع ثيابه)** نعم.. اخلعها. انظر إلى جسدك. إنه كاللحد الذي يدفن وهج الحياة، وفورة الرغبة. ارفع الصفائح، وانبش هذا القبر. سنحتفل الليلة، وسنبعث الحياة من اللحد. **(تصفق بيديها، فتدخل الخادمة)** هاتي لوازم الفرح.

الخادمة : حاضر يا سيدتي.

ألماسة : الليلة سأرقص لك. سأدع جسدي يتفتح، ويتدفق. سأريك كيف يطير الجسد. كيف يتسع، ويفيض فيغدو بحراً.

المفتي : إن أعضائي تذوب، وتسيل. إن قلبي يكاد يفلت من صدري. هذا هو الفناء. إني أفنى فيك، وإني أولد جديداً في فنائي.

(تدخل عوادة تحمل عوداً، وتأخذ مكانها ثم تبدأ دوزنة العود. تلحقها الخادمة بصينية عليها شراب وطعام. تدريجياً تنتظم ضربات العود في نغمات إيقاعية. تنهض ألماسة، وتتهيأ للرقص بينما تتلاشى الإضاءة).

المشهد الرابع عشر

(الخادم والخادمة في غرفة متواضعة. يجلس الخادم على فراش ممدود على الأرض. بينما تنشغل الخادمة في تحضير مجمرة بخور).

الخادمة : أبطل المفتي فتواه، ووفى بوعده.

الخادم : المعتّر.. وهل بقيت له كلمة حتى يفتي أو يبطل!

الخادمة : لو رأيته.. كان كالميت بين يديها. ضائع اللب، مسلوب العزيمة. كنت أسمع أن الحب قتال. ولكن لم أصدق حتى رأيت المفتي، وعاينت أحواله.

الخادم : مهما أوغل المفتي في العشق، فإنه لن يصل إلى مرتبة سيدنا عبد الله. أحياناً أخشى أن يفارق الحياة من كثرة التوسل والبكاء.

الخادمة : ولكن عشق السيد عبد الله فيه هوسة.

الخادم : لعلها هوسة الأولياء. إنه مذهول بربه. يناديه كما ينادي معشوقاً، جماله يعمي الأبصار. إذا أحس إعراضاً، قتلته الوحشة وفاضت دموعه. وإذا لمس قبولاً، هزّه الطرب وفاض بالنور وجهه. وفي الحالين هو ذاهل عن الدنيا وما فيها.

الخادمة : هذا حال المفتي أيضاً. إنه يحب ألماسة حب العابدين. ناجاها كما يناجي الإنسان ربه، وقال لها كلاماً يفتت الصخر الجلمود. لماذا لاتقول لي كلاماً حلواً عن الحب!

الخادم : **(وهو يضربها على عجيزتها)** نحن نعيش الحب، فما حاجتنا إلى الكلام! ولكن لم تقولي لي.. لماذا تبخّرين الغرفة!

الخادمة : مرّت علينا بصّارة. قالت إن المدينة مسكونة، وأن هذه

الأحداث الغريبة هي من فعال أشرار الجن. وقالت إن دماً سيراق، وأن الهواء الأصفر سيأتي قبل أن يجف الدم.

الخادم : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. بسم الله الرحمن الرحيم.

الخادمة : نصحت المرأة أن نبخر البيوت كل ليلة.

الخادم : **(وهو ينهض)** أستغفر الله العظيم.. هيا نبخّره معاً.

(يسيران في أرجاء الغرفة، وهما يبخران الزوايا والأثاث).

الخادم : كنت أعرف تعويذة.. نعم.. نعم.. بسم الله الرحمن الرحيم. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. أيها الجن.. إن كنتم من المسلمين الصالحين، فالبيت لكم. وإن كنتم من الكافرين، أخزاكم الرحمن وأبعدكم.

الخادمة : قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق.

الخادم : أعوذ برب الفلق من شر ما خلق. بخّريني.. بخريني. **(تدور بالمبخرة حوله)** والآن.. هاتي كي أبخرك. **(يدور بالمبخرة حولها ثم يرفع ذيل فستانها، ويقرب المبخرة من فخذيها)** دعي البخور يتغلغل في جسدك كله.

الخادمة : يكفي.. دوّختني الرائحة.

الخادم : وأنا دوّختني المشاهد المبخرة.

(يضع المجمرة جانباً، ويسقطان على الفراش).

الخادم : أتريدين حديث الحب؟

الخادمة : وهل تحسنه؟

الخادم : اسمعي إذن. إن لحمي يحب لحمك، ودمي يحب دمك، وأنت نصفي وأنا نصفك، وليس لدي مزيد.

الخادمة : لا أطلب أكثر. أنا نصفك وأنت نصفي.

الخادم : أليس هذا هو الحب؟

الخادمة : هذا هو.. ما دام يكفينا ويسعدنا.

(تتلاشى الإضاءة).

المشهد الخامس عشر

(في زاوية السوق. عبدو وعباس).

عبدو : ألا تشعر بالخزي يا أبا الفهد!

عباس : ولِمَ الخزي..! لا أسمح لك..

عبدو : لم أقصد إهانتك. ولكن هل يليق بك يا سيد الرجال، هذا العمل الذي تقوم به!

عباس : وماله هذا العمل! الأفضل أن تنشغل بسيدك. ألم تعرف أن المفتي نفسه جاء، وزحف تحت كندرتها.

عبدو : لاتحدثني عن المفتي. إن ذكره يثير غضبي وتقززي. لا.. لم يعد المفتي شيئاً بالنسبة لي.

عباس : هل استغنى عن خدماتك!

عبدو : هو يستغني عن خدماتي..! أنا الذي تركته، ولم أعد أطيق رؤيته بعد تلك المسخرة.

عباس : ماذا تريد إذن!

عبدو : اصغِ إلي يا عباس.. إن أكابر البلد فسدت أحوالهم، وانحطت مقاماتهم. وهم لم يكونوا أكابر إلا على أكتافنا. قبضاتنا، وأذرعنا القوية هي التي كانت تسند المقامات، وتوفر الطاعة. نحن الأزلام، وأصحاب الخيزرانات الأعمدة التي يقوم عليها البناء. والآن.. انظر.. بعد أن تفسخ الأكابر وفاحت روائحهم، لن يحفظ النظام ويحمي القيم سوانا.

عباس : لاتؤاخذني.. هذا كلام غريب، ولا أعرف إلام ترمي!
عبدو : ما أرمي إليه واضح. إذا لم نوقف تدهور الأحوال، فإن البلد ستنزلق إلى الإنحلال والفوضى. لن يُحترَم مقام، ولن تُقدَّر الرجولة. وسينهار البناء علينا جميعاً.
عباس : إنك تخوض في أمور خطيرة.
عبدو : إني أخوض في أمور خطيرة، لأن الوضع خطير يا أبا الفهد.
عباس : وماذا تقترح!
عبدو : أن نشكّل أخوّة من الرجال، كي نحفظ الأمن والنظام، ونطبّق الفتاوى التي أصدرها المفتي قبل سقوطه، وانحطاط أمره.
عباس : والأكابر!
عبدو : سنكشف سترهم، ونجعلهم واجهات بلا حول وبلا طول. إننا الرجال يا أبا الفهد.. والبلد يحتاج الآن إلى رجولة الرجال. ينبغي أن نوقف الفساد، وأن نعيد للنظام هيبته. وأنا واثق أن الوالي لن يمانع، وأن الدولة العلية ذاتها قد تبارك مبادرتنا.
عباس : هل فاتحت آخرين بالأمر!
عبدو : تعرف أني أحبك. وأتمنى أن نقود معاً هذه البادرة.
عباس : إنك تأخذني على غرة. هذا عرض يحتاج إلى تفكير. ولاتنسَ أني عاهدت ألماسة على الإخلاص، ولا أريد أن يصيبها أذىً.
عبدو : دعنا من التفاصيل. إننا نغرق في الميوعة يا أبا الفهد. وعلينا نحن أن نعيد للرجولة حقها وكلمتها.
عباس : سأفكر في الأمر.
عبدو : فكر في الأمر، ولاتخذلني. لن يحفظ القيم، ويحمي النظام سوانا.

عباس : لعلنا نلتقي قريباً.
عبدو : هل أوصيك بالكتمان؟
عباس : أتريد إهانتي!
عبدو : معاذ الله.. اعتبرها زلة لسان.
عباس : لا عليك..
عبدو : هل نلتقي غداً؟
عباس : لا أدري.. دعني على راحتي. سأجدك حين أقرر.
عبدو : لا تقلبها كثيراً. وتذكر أني أنتظر.

(يفترقان. وتتلاشى الإضاءة).

المشهد السادس عشر

(في بيت ألماسة. تجلس ألماسة ساهمة ومعها الخادمة).

الخادمة : ألم يتأخر أبو الفهد!

ألماسة : وماذا يهم..

الخادمة : حين يغيب أبو الفهد عن البيت، تركبني الهواجس وأشعر بالخوف.

ألماسة : أتخافين علي..!

الخادمة : جعلني الله فداءك.. لا أدري.. إني أتوجس حين يغيب عن البيت.

ألماسة : دعينا من التوجس والخوف، وحدثيني عنك.

الخادمة : وماذا أحدثك يا سيدتي!

ألماسة : هل أنت سعيدة مع زوجك؟

الخادمة : إني أخجل يا سيدتي أن أقول.. إن قلبي لا يحتمل مزيداً من السعادة. طبعاً لولا نعمتك علي..

ألماسة : **(مقاطعة)** أتحبينه..؟

الخادمة : وهو يحبني. لا يعرف كيف يزيّن الكلام. ولكن حين يقولي لي.. أنت نصفي وأنا نصفك، أشعر أن الدنيا لاتسعني وأني أريد أن أظل في حضنه إلى الأبد.

ألماسة : إني أغبطك.

الخادمة : سيدتي تغبطني..!

(يقتحم صفوان الباب بعنف، ويدخل).

ألماسة : من..!

صفوان : ألا تريدين رؤيتي يا أخت!

ألماسة : صفوان..؟!

صفوان : نعم.. أخوك وابن أمك صفوان.

الخادمة : سيدتي.. هل أبحث عن أبي الفهد؟

ألماسة : لا.. دعيني مع أخي.

الخادمة : سأبقى إلى جانبك.

ألماسة : لا.. لا.. اتركينا. **(تخرج الخادمة)** نعم يا صفوان.. أية لفتة كريمة جاءت بك!

صفوان : جاءت بي الحمّية يا أخت.

ألماسة : هل أوفدك الوالد؟

صفوان : لا.. لايعتقد الوالد أني جدير بهذه الوفادة. جاء بي الغضب، وثقل العار يا ألماسة.

(يمتشق من جيبه خنجراً، ويرفعه في الهواء).

ألماسة : أتريد أن تقتلني يا صفوان!

صفوان : هذا العار لايطهره إلا الدم.

ألماسة : أعرفك رقيقاً، تنفر من الدم.

صفوان : وستعرفينني الآن رجلاً يسفك الدم.

ألماسة : أود لو تجنب نفسك هذا العناء يا صفوان. لن تستطيع قتلي.

صفوان : **(هائجاً)** إنك تتحدثين كأبي. شحذت عزيمتي دهراً، وراقبت هذا البيت أياماً. وسترين الآن أني أستطيع.

ألماسة : ليس هذا ما أعنيه.

صفوان : وماذا تعنين إذن..؟

ألماسة : أنا يا صفوان حكاية، والحكاية لا تقتل. أنا وسواس وشوق وغواية، والخناجر لاتستطيع أن تقتل الوسواس والشوق

والغواية.

صفوان : **(يقترب منها، فلا تتراجع. يتردد لحظات)** لا.. لا تجرجر عزيمتك في الكلام. أغمد خنجرك. خذي يا أخت.

(يغمد الخنجر في صدر ألماسة بينما يترامقان بنظرة غريبة).

ألماسة : **(وهي تتداعى)** آه يا أخي.. لم تفعل شيئا. إن حكايتي ستزدهر الآن كبساتين الغوطة بعد شتاء ماطر. إن ألماسة تكبر وتنتشر. إنها تنتشر مع الخواطر والوساوس والحكايات. حكايات. حكا..

صفوان : **(يصحو من بهوته)** قتلتها.. بخنجري هذا قتلتها.. إني رجل.. إني رجل.. انظر يا أبي.. إني الرجل بينكم.. إني الرجل بينكم.

(يخرج من البيت مبهوراً. وهو يكرر العبارة. تدخل الخادمة، وحين ترى ألماسة تطلق صيحة رعب).

الخادمة : **(مولولة بلوعة)** قتلوا ألماسة. قتلوا الألماسة.

(تتلاشى الإضاءة).

المشهد السابع عشر

(في السوق. حميد وإبراهيم).

حميد : وهاجت المدينة حين شاع فيها النبأ. وخيم على الناس تطيّر ووجوم. أما المفتي الذي أعفي، واستعفى من منصبه، فقد شق ثيابه، وأطلق صيحة مروعة، ثم لزم بيته، وأقسم ألا يذوق طعاماً أو شراباً حتى يأخذ الله أمانته. وانفرط عقد الأمان، وماعاد أحد يعرف ما يخبئ لنا الزمان. أتبكي يا إبراهيم..!

إبراهيم : إني أبكي، ولا أدري لماذا!

حميد : على كل، انتهت السالفة.

إبراهيم : أو لعلها بدأت.

(يدخل عبد الله عابراً السوق).

عبد الله : أنا هو.. وهو أنا. غطاني بنوره، فحجب عني الخلائق كلها. ثم سألني: ماذا تريد؟ قلت: أريد أن لا أريد. قال: قد أعطيناك. أنا هو.. وهو أنا. سبحاني.. سبحاني.. ما أعظم شأني! الله.. الله.. الله..

(يختفي وهو يردد كلمة.. الله.. وتتلاشى الإضاءة ببطء).

ستار.

١٩٩٣ - ١٩٩٤

ملحمة السراب

الفصل الأول

عودة عبود الغاوي الثالثة من المهجر(•)

(•) إن عناوين الفصول هي جزء من نسيج العمل، ولذا فإني أفترض إبرازها في العرض، سواء عبر أداء الممثّل، أو عبر لافتة مكتوبة تقدّم الفصل، أو تكون جزءاً من ديكور مشاهده المتوالية.

فاتحة

(ضوء باهر البياض، يمتصّ حدود الموجودات وظلالها. كما يحوّل الوجوه إلى بقع، تتماوج بين السواد والبريق. من الصعب تمييز الملامح، وكذلك تفاصيل المكان. ولعلّ الشيء الوحيد الذي يستوقف الانتباه، هو مزهرية سوداء فيها وردة ضخمة صفراء اللون. ولكن الذبول يجعل الصفرة تنحلّ إلى ألوان بنيّة، تتدرّج حتى الاهتراء. تتساقط أوراق الزهرة بإيقاع غريب، وصوت يشبه رنين جرس زجاجيّ صغير. عبّود الغاوي، والخادم).

الخادم : بدأ الركود يقرض أموالنا، مثل فئران جائعة، لم أعد أجد تسلية لا في المكتب ولافي البورصة.

عبّود : إني عليل.. أشعر أني شخت فجأة.

الخادم : متى داهمك هذا الشعور؟

عبّود : لا أعرف بالضبط. منذ فترة، وأنا أحسّ أن قواي تتسرّب من جسدي. في مفاصلي وهن وضعف.

الخادم : هذه مغبّة الإسراف. لم يكن الإنسان، في أيّ عصر من العصور، سفيهاً في تبديد قواه، كما هو اليوم في هذه المنطقة من العالم.

عبّود : لم أطلب تفسيراً أو موعظة..

الخادم : ماذا تطلب إذن؟

عبّود : إن بيننا اتفاقاً وميثاقاً. أليس بيننا اتفاق وميثاق؟

الخادم : وهل قصّرت يوماً في تنفيذ التزاماتي؟

عبّود : ماذا تنتظر إذن! ألا ينصّ الميثاق على أن تجدّد قواي، كلّما وَهِنت أو خارت!

الخادم : ومتى مانعت؟

عبّود : لماذا لا تبدأ إذن؟ افتح صندوقك، وأخرج ما لديك من خلاصات السّحرة، والأدوية المركّزة.

الخادم : لا تكن عجولاً. في هذا المناخ الراكد، والموبوء، لن تفيد الأدوية المقوّية، ولن نستطيع إجراء العمليّة اللازمة.

عبّود : أتحاول التملّص؟

الخادم : (بحدة) ماذا دهاك؟ هل فقدت ثقتك بي؟ إن عروقك المتآكلة تحتاج إلى دماء فتيّة طازجة، لا يمكن أن نجدها هنا.

عبّود : وماذا تقترح؟

الخادم : أن نسافر إلى دولة من دول الأرياف.

عبّود : أتريد أن نسافر إلى بلدي؟

الخادم : لا.. أفضّل أن نسافر إلى بلد آخر.

عبّود : ولماذا تفضّل بلداً آخر؟

الخادم : وهل تشعر بالحنين!

عبّود : لست عاطفياً إلى هذا الحدّ. ولكن أعتقد أن في البلد تسهيلات يصعب أن نجدها في بلد لانعرفه.

الخادم : لنكن صريحين.. حالتك تقتضي عمليّة شاقّة، لا يستطيع أن يُجريها إلا طبٌّ لا يعرف الرحمة، ولا يخاف الشفقة.

عبّود : وما الذي تخشاه؟

الخادم : لا أدري.. يغدو المرء هشّاً مع الناس الذين يعرفهم. أخشى أن تضعف، أو تشفق.

عبّود : كأنك تجهلني! ألا تعرف ماذا يوجد مكان القلب في

صدري!

الخادم : هو إجراء احتياطيّ لا أكثر.

عبّود : **(وهو يدقّ على صدره)** هنا.. يوجد صخر لا قلب. لا تحتاج إلي احتياطات. ولن نسافر إلا إلى البلد الذي نعرفه.

الخادم : كلّما عاشرتك، ازددت تعلّقاً بك. أتعرف ما الذي جعلني ألبّي نداءك في تلك الليلة الثلجيّة؟

عبّود : لم تخبرني قبل الآن.

الخادم : **(يقترب من المزهرية. يهزّها، فتتساقط عدّة أوراق، ويتماوج رنين زجاجيّ غريب)**، في تلك الليلة الجليديّة، بدوت لي قاسياً كالماس. صلباً كالفولاذ. لم يكن في رأسك أوهام، ولم يكن في قلبك شفقة أو حنان. كنت تنادي.. وكنت تشعّ. ولم يكن بوسعي أن أتجاهل هذا النداء المشعّ. لاسيما وأني كنت أجتاز وقتاً من الضجر والخمول.

عبّود : أنتْ! تضجر، ويصيبك الخمول؟!

الخادم : نعم.. إني أضجر، وأقرف أيضاً! خدمت سيّدين متواليين، كان كل منهما بلصة حقيقيّة بالنسبة لي. الأوّل صاحب مصنع، وكانت الصناعة معجزة العصر. والثاني رجل أعمال مفلس، تعاقد معي على القتل مقابل إنقاذه. وحين انتعشت اعماله، وكثرت أمواله، غرق في الندم، وطاردته الوساوس حتى نقض الميثاق، وراح يجوب العالم بحثاً عن الغفران. أمّا الأول.. أف دعنا منه. باختصار.. كان وقتي معهما أغبر، وكان بين الخير والشرّ تداخل وميوعة، أثارا قرفي ونفوري. كنت مثل حسناء.. كلّما ازدهر جمالها، تدنّى مستوى الرجال الذين تغويهم وتعاشرهم. من فاوست.. ذلك العالم الجريء، الذي يريد كلية المعرفة وكلية المتعة معاً، إلى رجل أعمال أخرق تركبه الوساوس، ويسوح في الدنيا بحثاً عن

الغفران.

عبّود : هل يعني هذا أنك مرتاح معي؟

الخادم : حين لفحني وهج عينيك، والصلابة التي جرحت بها يدك، كي تمهر الميثاق بالدم، شعرت أني أجوهر. ما كنت تحب دخان المصانع، أو الانغماس المباشر في التجارة. كنت تتوق إلى المطلق. إلى ثراء نقيّ، يتراكم كالبلورات مختزلاً المصانع والأراضي والممتلكات.

عبّود : لا داعي للإفاضة.. إن ضعفي يحثّني على السفر، فدعنا نبدأ الترتيبات فوراً.

الخادم : كم أحبّ هذه اللهجة التي تحسم وتقرّر!

عبّود : أشبعتني غزلاً، ما أحتاجه هو أن تبدّل هذا الوهن قوّة. فاتبعني.. كي نضع خطّة وترتيبات السفر.

الخادم : إني أتبعك...

(يختفيان. وفي الضوء المشع تتساقط ورقات من الزهرة الذابلة، مخلّفة رنيناً متلاحقاً. تختفي الإضاءة.. ويتواصل الرنين فترة).

مشهد ١

(امرتأن في أحد زواريب القرية. مريم الملقّبة بالزرقاء(*)، وفاطمة الموعي)

فاطمة : هل علمت يا خالة؟

الزرقاء : القرية كلها علمت.

فاطمة : رفضت أخته أن تحدّد موعد وصوله. قالت وكأنّها تمخّط الكلام.. قريباً سيكون بيننا.

الزرقاء : هذه الفاجرة.. تدلّت ساقاها في القبر، ومازالت تعمل قوّادة لأخيها.

فاطمة : ألا تبصرين يا خالة من اختارت هذه المرّة.. أو البيت الذي تحوم حوله؟

الزرقاء : منذ زمن بعيد فقدت قدرتي على الإبصار يا ابنتي..

فاطمة : كانت أمي تروي عنك حكايات عجيبة. قالت لي.. كنتِ تخبرين عمّا سيأتي، وكأنّك ترينه أمامك.

الزرقاء : نعم. كان ذلك يحدث أحياناً، ثم ضعفت هذه القدرة، واختفت نهائياً، بعد أن أنجبت ولدي الثاني مروان. بعد ولادته أحسست أن غشاوة لفّت بصيرتي، وألقت عليها حجاباً. كان آخر ما أبصرت هو داء الهواء الأصفر. أبصرته

---

* لأنها تبصر بعيداً في الزمن، وتتنبأ، لقبّت بالزرقاء تشبيهاً لها بزرقاء اليمامة، التي ضرب المثل بها في حدة البصر، وصدق الخبر.

قبل شهرين من حلوله، وأبصرت أنه سيزهق أرواحاً كثيرة.

فاطمة : وإذن.. لا تستطيعين الآن أن تبصري، أين ترمي تلك الحيزبون شباكها؟

الزرقاء : لا.. لا أستطيع.

فاطمة : أما أنا فلديّ شكوك، يحدّثني قلبي أنها وضعت عينها على رباب بنة ياسين.

الزرقاء : رباب.. ابنة ياسين! لا.. هذا حرام.

فاطمة : وهل يهمّها الحرام؟ منذ فترة، كانت تجرجر قدميها متوكّئة على عصاها. وحين مرّت رباب، وقفت وتفرّست فيها بنظرة كالمخرز. وقانا الله من تلك العينين. كيف أصف لك! بنظرة ثاقبة جسّت البنيّة وعرّتها، فوخزني قلبي، وأحسست أنها سترمي الشبكة هذه المرّة على رباب..

الزرقاء : هذه امرأة لا تخاف الله. جَنَت على صبيتين، كل واحدة كالفلّة، وها هي تريد أن تجني على أجمل وألطف بنات الضيعة. أيمكن أن يوافق أهلها؟

فاطمة : ومن رفض قبلهم؟ هل رفض بيت الطاهر حين قطف زهيّة! أو هل رفض بيت المرشد حين طلب كريمة! لا.. إن للمال قوّة لايستطيع أحد أن يقاومها.

الزرقاء : يلعن أبو المصاري. هل تعمي الناس؟ ألا يرون كيف يتزوّج عبّود الغاوي! يتسلّى مع الواحدة بضعة أشهر، ثم يعيدها إلى أهلها مطلّقة وبائرة.

فاطمة : معك حق.. صارت الحكاية مكشوفة ومفضوحة، لكن يبدو فعلاً أن بريق المال يعمي الأبصار. ولا تنسي أنه ليس بالرجل الهيّن. إنه خبير وماكر. قالت لي زهيّة.. إنها عرفت حقاً كيف تكون الحياة في الجنّة. بعد أن يغدق على الأهل، ويملأ عيونهم، يغدق على البنت، ويحملها إلى أجواء غريبة تسحر

العقول، وتبلبل الكيان. لا.. خذيها مني، إذا طلبها، سَيُجاب، وسيقطف هذه المرّة الصبيّة الطفلة رباب.

الزرقاء : والله لو كان في رجالنا نخوة، لمنعوه الدخول إلى هذه الضيعة.

فاطمة : إذا لم يمنعوه، يمكنهم على الأقل، أن يرفضوا تقديم بناتهم له. ولكن يبدو يا خالة أن المال قتل نفوس الرجال.

الزرقاء : يسلم فمك.. تلك هي الحقيقة، هل تذهبي إلى الدكان؟

فاطمة : نعم..

الزرقاء : إذن سأرافقك.

(تخرجان.. وتتلاشى الإضاءة)

مشهد ٢

(بيت ياسين، الشاعر والمغنّي.. غرفة مبنيّة من الحجر الخفّان، وأرضها من الإسمنت يبدو أنها بُنيت بصورة مرتجلة، إلى جوار البيت الريفيّ المبنيّ من حجر الدفش والطين، يجلس ياسين على كرسي واطئ من القشّ، وفي حضنه ربابة يعزف عليها. زوجته فضّة، وهي امرأة في أوائل الأربعينات يتّصف وجهها بالملاحة والجاذبية، وقامتها رشيقة مع امتلاء لطيف. تجلس على الأرض منهمكة في حفر الكوسا والباذنجان. وابنتهما رباب وهي صبيّة جميلة لم تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها، تمشّط شعرها، وتتهيّأ للخروج).

فضّة : **(بعد فترة من المشهد، وبعد أن يتميّز اللحن الذي يعزفه ياسين)** اترك هذه البطيخة من يدك. بدأ رأسي يؤلمني. في الليل والنهار.. ألا تشبع؟

رباب : إن عزف أبي جميل.

فضّة : وماذا جاءنا من عزف أبيك إلا العيب والتعتير.

ياسين : العيب على من يعمل العيب يا فضّة.

فضّة : **(كالملدوغة)** ماذا تعني؟

ياسين : لا أعني شيئاً. إن قوّالاً كانت تطرب له قرى هذه الديرة، وتأتيه دعوات، لو لبّاها لما نام ليلة في بيته، لا يمكن أن يعاب أو يوصف بالتعتير!

فضّة : لا.. لايجوز أن نتحدّث عن التعتير، ألا ترون العز الذي نحن فيه! لفّها يا ياسين، ولا تدعني أرمي هذه الحصوة من فمي.

ياسين : لا تتحرّجي، وارميها.

فضّة : ماذا أقول.. لم تحمل مسؤولية، ولم تحسن في حياتك إلا كرع العرق والتهريج للناس.

ياسين : **(منتفضاً)** أنا شاعر لا مهرّج. إني أرتجل المواويل والقصائد كما يتدفّق الماء من نبع الصخرة. يا ضيعة هذا العمر! شِختُ ولم تعرفي أبداً قيمتي ومقداري. لكن أولادي سيفهمون ذات يوم، وسيقدّرون. ألا تقدّرين يا رباب؟

رباب : **(وهي تقبّل جبينه)** نعم يا أبي، إني أحبّ مواويلك، وأحبّ عزفك. ولكن أتمنّى ألا يحدث بينك وبين أمي زعل.

فضّة : ولِمَ الزعل! هو كلام جرّنا بعضه إلى بعض.

ياسين : أين تذهبين؟

رباب : سأزور ابنة خالي. أريد أن أستعير كتاباً أقرأه. **(وهي تخرج)** أتريدين شيئاً من بيت خالي؟

فضّة : سلّمي على خالك والجميع. **(تخرج رباب من البيت)** لم يكن قصدي يا ياسين أن ألومك. كل ما أردته، هو أن تزيح الربابة، لأن هناك موضوعاً مهمّاً أحبّ أن أفاتحك به.

ياسين : وما هو هذا الموضوع المهمّ؟

فضّة : يا سيدي، القصّة وما فيها أن زنّوب الغاوي صار لها شهر أو أكثر، وهي تتحشّر بي، وتحاصرني بالتلميحات.

ياسين : وماذا تريد هذه الشمطاء؟

فضّة : لا.. لا تسبّها. المرأة قلبها علينا، وتريد أن يكون الحظّ هذه المرّة من نصيبنا.

ياسين : أيّ حظ! وأيّ نصيب! عمَّ تتكلمين؟

فضّة : ألم ترَ الموكب الذي دخل به عبّود الغاوي إلى القرية؟ ثلاث

سيارات عجيبة بطولها، وبريقها، ونعومة هديرها. في الأولى يتربّع الخادم الأحدب، الذي صحبه في كل زياراته، وفي الثانية كان يجلس الغاوي كأنه أمير أو ملك. وفي الثالثة تتكدّس الأمتعة والحقائب. ألم ترَ كيف أذهل الموكب عقول الناس، وخطف أبصارهم؟.

ياسين : الرجل مقتدر ولديه أموال لا تأكلها النيران. إيه.. زمن لئيم لا يُغدق خيره إلا على اللئام.

فضّة : (برقّة) انقضى العمر يا ياسين، ونحن نشتم الزمن! ها هو الحظّ يطرق بابنا. وإذا عرفنا كيف نسايره، فسيكون لنا نصيب من زماننا.

ياسين : دعيني من هذه الألغاز، وأفصحي عمّا لديك.

فضّة : قالت لي زنّوب.. هذه المرّة لن أزوّج أخي وضوء عيني إلاّ ابنتكم رباب.

ياسين : ماذا تقولين؟ هل جننت؟

فضّة : اهدأ.. اهدأ، النعمة تأتي حتى باب البيت، فلا تكشّر في وجهها.

ياسين : أيّة نعمة هذه! رجل بلغ الستّين، وابنتنا في الثامنة عشرة من عمرها! ثم ألا يتعلّم الناس من زيجاته السابقة! لا.. ينبغي أن يكون المرء مجنوناً كي يوافق على أمرٍ كهذا.

فضّة : مع مركزه وغناه، الكِبَر لا يعيبه، وأعتقد أنه سيطمرها بالمال والدلال كي يبقيها راضية. انظر إليَّ يا ياسين.. نحن لانبيع البنت، بل نزوّجها. وفي هذه الأيام الصعبة، سيكون حظّاً كبيراً أن تتزوّج غنيّاً ينالنا جميعاً شيء من خيره وماله.

ياسين : نعم.. المال. هذا ما يقلب رأسك، ويسلب الرشد منك.

فضّة : ولِمَ لا؟ ما الذي تستطيع أن تفعله بلا مال؟! ألا نحتاج إلى المال كي يَصلُحَ هذا البيت للسكن! ألا نحتاج إلى المال كي

نرتّب مستقبل ولدينا! أنت لا تفكّر بهذا كلّه. تتلاعب بربابتك، وتترك عبء البيت والأسرة على ظهري.

ياسين : **(بهدوء محتقن)** نعم.. إننا فقراء، ونحتاج إلى مال كثير، كي نصلح حالنا، ونؤمّن أولادنا. ولكن لن أكون نخّاساً، ولن أبيع ابنتي كي أحصل على هذا المال.

فضّة : ماشاء الله! اسمع.. قلت في نفسي، عيب يا امرأة، مهما كان، هو الرجل، وينبغي أن يشارك في الأمر. أما أن تتّخذ حضرتك قرارات، وتقول.. أسمح ولا أسمح، فهذه ثخينة يا سيّد الربابة.

ياسين : اليوم.. نعم اليوم بالذات.. سيقول ياسين الموّال الذي أخفاه في صدره تعفّفاً وكرماً. سيغنّي، وهو يشهق بدموعه، عن عفاف الزوجة التي لطّخت البراري بالفسق والخيانة. لا.. إني أعفّ من أن أجرد حسابك يا فضّة. من أجل الأولاد قبلت الهوان. ومن أجل الأولاد أقول لك الآن.. اقفلي على هذه السيرة، وإلا مَسَحتُ بك الأرض.

فضّة : ما هذه اللهجة؟ أتهدّدني؟ أنسيت أن لديّ أنا أيضاً موّالي، وأني إذا غنّيته لن يبقى لك قعود في هذه القرية؟ أنسيت ليلتنا الأولى، حين مزّقت العروس بكارتها بهذا الإبهام، وسهّلت عليك دخولها؟ حاولت العروس ليلتها أن تجنّبك الإذلال، وأن تجعلك تستوي رجلاً بين الرجال. لا.. خيرٌ لك أن تطوي على مالديك، وأن تنسى الموّال الذي تهدّدني به.

ياسين : اكشفي كل سترٍ، وقولي ما تشائين، لا أخشاك.. لا أخشى بذاءتك، ولا أخشى سفاهتك، لكن أقسم لك، ولست بالذي يقسم جزافاً، سأرتكب جريمة، لو مضيت في هذا

المشروع.

فضّة : أتخيفني، وماذا ستفعل؟

ياسين : هذه مسألة لاتقبل العبث، وقد يسيل دم يا فضّة.

فضّة : أأنت تهدّد بالدم؟!

ياسين : وسترين منّي وجهاً لا تعرفينه أبداً.

فضّة : لا أهابك، وافعل ما بدا لك. إني موافقة، وسأزوّج ابنتي لمن يسعدها.

(ينتفض ياسين ناهضاً بغضب وملوّحاً بربابته، تنهض فضّة متوثّبة وبيدها قوّارة الكوسا، يتواجهان).

ياسين : لن يكون هذا الزواج إلا على جثّة واحد منّا.

فضّة : ربما سأ.. **(طرقات متلاحقة على الباب.. يبدوان ذاهلين ثم يتباعدان، وكأنهما يخفيان شيئاً معيباً. بعد فترة تردّد يتّجه ياسين ويفتح الباب، فيجد أديب الناطور، وهو شابّ كثير الحركة والحيوية).**

أديب : عافاك الله يا عمّ ياسين.

ياسين : أهلاً وسهلاً يا بنيّ.

أديب : أوادم الضيعة مجتمعون عند محمّد القاسم، ويريدون أن تكون معهم.

ياسين : أيطلبون حضوري؟

أديب : نعم.

ياسين : وهل تعرف سبب الاجتماع؟

أديب : تعال معي، وستعرف السبب في حينه.

(بينما يرتدي ياسين حذاءه، تنقّل فضّة، التي تبدو كذئبة هائجة، بصرها بين الرجلين.. وتتلاشى الإضاءة).

مشهد ٣

(الإيوان في بيت محمّد القاسم، وهو أحد وجهاء الضيعة. يوجد في الإيوان الشّيخ عبّاس الملاّ، وهو شيخ القرية، وسالم العبد وهو المختار، وعبد الرحمن الدرويش وهو أيضاً من وجهاء القرية، وبسّام الراضي معلم المدرسة يصبّ الشاي ويقدّم الضيافة ولدٌ اسمه حمدان).

الشّيخ عبّاس : أخشى أن نخالف الشرع.

المختار : وفيمَ نخالف الشرع يا شيخ؟

الشّيخ عبّاس : لا أدري.. وجدته دائماً حريصاً على الأصول. رجل يريد الزواج على سنّة الله ورسوله، ويطلب رضى الأهل قبل رضى البنت، ويدفع ما اتّفق عليه في العقد، بل ويزيد. أي أنه يراعي شرع الله في كل ما يفعله.

بسّام : نعم يا شيخ.. مادامت جيوبه متخمة بالمال، فلماذا لايراعي هذه الشكليات؟! كلّنا نعرف أن المسألة في جوهرها، ليست أن يتزوّج، ويكمل نصف دينه، بل أن يشتري البنت كي يستمتع بها خلال زيارته، ثم يرميها لمصيرها.

الشّيخ عبّاس : ربما، إلا أنه يفعل ذلك كلّه في حدود الشرع.

محمّد : ما تقوله يا شيخ سليم. وهو فعلاً يتصرّف في حدود الشرع، وإن كنت أعتقد أن الشرع في جوهره لايقرّ أن يستغل المرء غناه، وأن يتزوّج على نيّة فاسدة.

الشّيخ عبّاس : وما أدرانا بالنوايا يا سيّد محمّد؟

محمّد : ما فعله بالفتاتين اللتين طلّقهما. إنه يتزوّج، وفي نيته أن يتخلّص من المرأة بعد أن يقضي الوطر منها.

(يدخل ياسين وأديب).

ياسين : السلام عليكم.

أصوات : وعليكم السلام.. أهلاً وسهلاً.. تفضّل خذ مكانك.

(يجلس ياسين وأديب، ويسرع حمدان فيقدّم لهما الشاي).

المختار : اجتمعنا يا ياسين، وكان للسيّد محمّد القاسم فضل البادرة، لكي نجد تديراً مع هذا البلاء، الذي يحلّ علينا كل بضع سنوات.

أديب : يا عمّ ياسين.. إنه يعني عبّود الغاوي، الذي تعوّد أن نهيئ له كلّما زارنا عذراء لم يمسسها جنّ ولا إنس.

بسّام : ويقال إن أخته زنّوب وضعت عينها على ابنتك المحروسة رباب. فما قولك؟

ياسين : اسمعوني أيها الأوادم.. سأقول لكم جواباً قاطعاً، ولكم أن تنقلوه عن لساني. لن يكون في عروقي دم، ولن تكون فيَّ نخوة أو ذمّة إن تمّ هذا الأمر. أفضّل أن أذبحها على أن أدفعها إلى زواج لايفضل البيع شيئاً.

بسّام : حيّاك الله يا عمي ياسين!

محمّد : هذا ما كنت أنوي قوله يا شيخ. إذا وقف كل الآباء موقف ياسين، فإنّنا نستطيع أن نحمي بناتنا دون مخالفة الشرع.

الشّيخ عبّاس : في هذه الحالة، ما تقوله سليم. لايصحّ الزواج دون موافقة وليّ الأمر.

محمّد : إذن لنعقد بين الرجال ميثاقاً. وليكن جواب الجميع ما قاله ياسين.

الشّيخ عبّاس : هذا أمر جائز على ألّا نغلب الناس عليه.

بسّام : لا تخف يا شيخ.. سيتمّ كل شيء بالإقناع.

محمّد : أراك قليل الكلام يا عبد الرحمن! هل أنت معنا في الرأي أم لا؟

عبد الرحمن : إني معكم. وأرجو أن يتمّ كل شيء باللطف ودون مشاكل.

محمّد : اطمئن يا عبد الرحمن، لن تكون هناك مشاكل.

أديب : والآن..

(يُسمع هدير محرّك سيّارة، يتوقّف بعد فترة وجيزة، ينتصب على باب الإيوان «خَلَف الدوري» وهو رجلٌ ذو بنية قويّة، ويعمل مرافقاً لعبّود الغاوي كلّما زار القرية).

خلف : الأمير عبّود الغاوي يستأذن. **(يلوّح بيده، وكأنه يرمي الكلمات)** سيشرفكم بالزيارة، فأوسعوا له المكان.. **(يدير رأسه إلى الوراء)** تفضّل يا سيّدي وأميري.

(يصاب الجميع بالبهوت، وبحركات آلية، ينهضون واقفين. يدخل عبّود الغاوي، وهو بسيط في مظهره ولباسه. وحركاته رغم أناقتها عفوية ولطيفة. مازال الرجال مبهوتين).

عبّود : السلام عليكم يا أوادم.

(يجيبون بغمغمات حائرة، فيما يتقدّم عبّود ببساطة، ويصافح الجميع واحداً بعد الآخر).

عبّود : تفضّلوا.. تفضّلوا.. أعذروني إن جئت دون خبر مسبّق. قلت في نفسي أنت لست غريباً يا عبّود، إنك ابن الضيعة وأهل الضيعة يزور بعضهم بعضاً دون تكليف أو مواعيد، فهل أنا مخطئ؟

الشّيخ عبّاس : **(بحماسة واضحة)** معاذ الله.

محمّد : **(بفتور)** الدار دارك، فتفضّل.

(يهمّ بالجلوس على طرفٍ فيندفع إليه الشّيخ).

الشّيخ عبّاس : **(وهو يرفعه)** لا والله.. لن تجلس إلاّ في مكاني.

عبّود : أستغفر الله يا شيخ! ليس بين الأهل تكليف أو مقامات. (**يتّجه المختار ومحمّد القاسم نحو عبّود**).

المختار : طيّب.. خذ مكاني.

محمّد : لن يأخذ مكان أحد. (**يرفعه ويجرّه بحدّة**) تفضّل واجلس هنا. (**يجلس عبّود متصدّراً المكان**) والآن تفضّلوا جميعاً، واجلسوا (**متوجهاً إلى عبّود**) أعتقد أنك تفضّل القهوة.

عبّود : ولِمَ! إني أحبّ الشاي مثلكم.

محمّد : تعال يا حمدان.. بدّل الكاسات، وخمرّ لنا إبريقاً جديداً من الشاي.

عبّود : أودّ أن أمتحن ذاكرتي، لا أريد أن تساعدوني. (**ينظر نحو محمّد القاسم**) طبعاً لا يمكن أن أجهل السيّد محمّد القاسم. حين كنّا صغاراً لم يكن يحبّ اللعب معي، وكان يرشقني دائماً بالحجارة، مرّةً شجَّ رأسي، وسال الدم على خدّي، ألا تذكر تلك الحادثة؟

محمّد : تلك أيام بعيدة.. ولا تنسى أنّنا شخنا، وشاخت معنا الذاكرة.

عبّود : فيك الخير والبركة يا رجل.. لاريب أنك نسيت الحادثة، لأنها لا تعني لك شيئاً. أما أنا فأذكرها كأنّها جرت البارحة. يومها جئت إليّ، ومسحت الدم عن وجهي، ثم أعطيتني ربع رغيف من الخبز الأبيض، الذي قمّره التنّور. لا أعتقد أني ذقت في حياتي شيئاً أطيب من ذلك الخبز.. أيامها لم نكن نعرف إلا خبز الشعير، نأكله ونغصّ به.

الشّيخ عبّاس : والله.. مرّت على الناس في هذه الضيعة أيام صعبة.

عبّود : ومع هذا يا شيخ، لا أذكرها إلا بالخير. طبعاً لن أخطئ في التعرّف على الشّيخ عبّاس، وهو عالم الدين وحاميه كما تعلمون.

أديب : اهنأ يا شيخ، فالمدائح تنسكب عليك كالمطر المدرار.
الشّيخ عبّاس : السيّد عبّود كلّه لطف وذوق.
عبّود : **(ناظراً إلى عبد الرحمن الدرويش)** وهذا الأخ الكريم، فعلى الشبه أقول، إنه من بيت الدرويش. أهو عزّت؟
المختار : لا.. إنه عبد الرحمن. أمّا عزّت فقد أعطاك عمره. مات بالسكتة وهو صغير.
عبّود : لا حول ولا قوّة إلا بالله.. إن شاء الله تكون آخر المصائب.
عبد الرحمن : مشكور يا أخي.
عبّود : **(مشيراً إلى أديب)** أنت صغير يا بنيّ، ولا عتب إن لم أتعرّف عليك.
الشّيخ عبّاس : هذا أديب ابن موسى الناطور، إن كنت تذكره.
عبّود : إيه.. ومن لا يذكر موسى الناطور وسوالفه التي لاتنتهي.
الشّيخ عبّاس : هذا الشاب ابنه، وهو موظّف في الدولة، وله كلمة عند المسؤولين.
عبّود : أحبّ الشباب الطموحين والفعّالين، وفي الأيّام المقبلة سنعرف كيف نتعاون.
أديب : وفي أيّ مجال يمكن أن نتعاون؟
عبّود : لا تستعجل.. لا تستعجل. **(مشيراً إلى بسّام الراضي)** وهذا الشاب الهادئ لم أعرفه أيضاً.
المختار : إنه بسّام الراضي معلّم المدرسة في القرية.

(يأتي حمدان حاملاً إبريق الشاي والكاسات، ويبدأ بتقديم الشاي).

عبّود : لا تعرفون كم أنا سعيد بوجودي في هذه الحضرة. نخبة الضيعة، ورفاق الصبا، وهذا الشباب، أما الأخ سالم، فلم أتعرّف عليه إلاّ بصعوبة، لأنّه، خزيت العين، يزداد شباباً سنة بعد سنة.

الشّيخ عبّاس : والله كلامك صحيح. لم أرَ أحداً لاءمته المخترة مثل أخينا سالم.

أديب : وفي المخترة منافع كثيرة.

المختار : الفعل لكم والصيت لنا، أكلتم كل المنافع، ولم تتركوا لنا إلا الفضلة.

محمّد : الفضلة للفضيل يا مختار.

المختار : هذا هو العزاء الذي بقي لنا.

عبّود : أتعلم يا مختار أني مازلت أذكر أباك. كان رحمه الله رجلاً مهيباً وعظيماً، وكنّا نجفل ونلتصق بالجدران، حين نصادفه في الطريق. ظلّ أبي، حتى مماته، يدعو له بالخير، ويروي لنا كيف شجّعه على السفر، بعد أن خطف الموت أمي، وبلغت بنا الفاقة حدّاً لا يطاق. وبالفعل باع أبي أرضه، وزوّج أختي على مهر، ثم حملني مع أخي الصغير وسافر. في بداية غربتنا عرفنا ألواناً من الشقاء، يحتاج وصفها إلى ساعاتٍ وساعات. في تلك الفترة فقدنا أخي الصغير، وكان أبي رغم تجلّده، لا يكاد يجفّ الدمع في عينيه. يغنّي مواويل الغربة ويبكي. نعم كان يرتجل المواويل مثلك يا ياسين.

الشّيخ عبّاس : هل عرفت ياسين أيضاً؟.

عبّود : ومن لا يعرف الشاعر ياسين، أو يسمع به على الأقلّ!

ياسين : (متأثراً) هذا لطف منك.

عبّود : فعلاً كنت أتمنى لو حفظت يا ياسين تلك المواويل الجريحة، التي كان يغنّيها أبي في الغربة. وحتى حين ابتسم له الحظ، وانفتحت أمامه أبواب الرزق، لم يَخِفَّ إحساسه بالغربة. وكانت دموعه تسيل كلّما عنّت على باله الضيعة. وأنا لا أسرد لكم هذا كلّه إلاّ لكي أخبركم عن وصيّته، وآخر ما نطق به لسانه. أمسك يدي، وهو على فراش الموت، وقال

بصوت متلجلج واهٍ.. أوصيك ألا تنسى البلد وأهلها.. واعلم أنّ لهم نصيباً مما أغدق الله علينا. تلك كانت وصيته التي صارت همّي، والعبء الذي أحمله على ظهري. أنا أعرف أنّ في الضيعة من يتّهمني بالسفاهة والتقصير، وهناك من يظن أنّ كل ما يشغل بالي هو المتعة والنكاح. ولكن هل يعلم هؤلاء، أني لم أعد مرة إلى البلاد، إلا لكي أقيم مشاريع تساعدها على التقدّم والازدهار. وأنّي في كل مرّةٍ كنت أصطدم بالقوانين، ويحبطني الانغلاق الذي تعيش في ظلّه البلاد. كنت أشعر بالخيبة، ولا أجد ما أفعله إلا تجديد جذوري في الضيعة عبر مصاهرة إحدى العائلات، وتوزيع شيء من المال على المحتاجين من أهلها وأقربائها.

أديب : الآن تغيّرت الأحوال، وعهد الانغلاق انطوى منذ سنوات.

عبّود : نعم.. اليوم تغيّرت الأحوال. هناك انفتاح حقيقيّ، وحماية للرساميل، وتسهيلات للاستثمار.. وهذا هو المناخ المثاليّ، كي أنفّذ الوصيّة، وأقيم المشروع الذي أحلم به. المشروع الذي أتخيّله ينعكس على الجميع ثراءً وازدهاراً. هنا، في هذه القرية الجبليّة، المحاطة بالمواقع الأثرية، والطبيعة الخلّابة، سنبني أهمّ مجمّعٍ سياحيّ عرفته البلاد. خلال إقامتي في العاصمة، فاتحت المسؤولين بالفكرة فتحمّسوا لها كثيراً، واتفقنا على معظم الأمور التنفيذيّة.

ياسين : **(بحماسة ساذجة)** هل تعني أنك لم تأتِ من أجل الزواج؟

عبّود : ومن يهتمّ بالزواج؟ ألم يخبركم أحد أن العلاقات بين الرجال والنساء في الغرب ميسورة وطبيعية، وأن النساء هناك جميلات، وخبيرات بكل فنون الحبّ واللّذّة! لا.. ما جئت كي نفتح سيرة الماضي. مسحت الإهانات، وكلام السوء

الذي كان يستقبلني ويودّعني، وجئت بسريرة صافية، كي نبني المستقبل ونحوّل هذه المنطقة إلى جنّةٍ عامرةٍ بالخير.

الشّيخ عبّاس : بارك الله فيك.

ياسين : كلام يسرّ القلب.

عبد الرحمن : هذا ما تحتاجه الضيعة، مشروع يشغل الناس ويحسّن أحوالها.

الشّيخ عبّاس : أترون! كدنا نظلمه، وهو الذي جاء كي يغدق خيره على الجميع.

المختار : ما يعرضه السيّد عبّود، سيُبدّل الحياة في هذا البلد بالكليّة.

عبّود : نعم.. هذا ما أطمح إليه. أريد أن يكون النفع عاماً، وأن تعرف هذه القرية بعد طول الحرمان والشقاء، حياة هنيئة ومنعّمة.

الشّيخ عبّاس : اللهم وفّقه، وأعطه على قدر نواياه.

محمّد : لا أعرف ماذا سيكون هذا المشروع؟.. وكيف سيبدّل الفقر نعمةً ورخاءً. ولكن ألا يحتاج الأمر إلى تحضيرات؟ هل حدّدت موقع المشروع، وخطة العمل، ووقت المباشرة؟

عبّود : هذه الأسئلة وجيهة، وهي تدخلنا فوراً إلى الجدّ. أصغوا إليَّ جيّداً.. لقد أعدّت مكاتبي في المهجر، كل الدراسات والتصميمات اللازمة للمشروع. وفي العاصمة حصلت على مباركة المسؤولين، وموافقتهم على مختلف الإجراءات التنفيذيّة. إني جاهز للبدء منذ الغد. ولكن المسألة تتوقّف الآن عليكم، فأنا بحاجة إلى الأراضي. وأصارحكم أن المشروع الذي أحمل تصميماته، يحتاج إلى مساحة واسعة. ولاشكّ أن المنطقة الغربيّة هي أفضل المواقع بالنسبة لي. أنا أعرف مدى تعلّقكم بالأرض، ولكن في أيامنا هذه، أصبح هذا التعلّق فكراً عتيقاً، يقيّد صاحبه، ويعرقل التقدّم في بلده.

وعلى كلّ، راعيت هذا الجانب العاطفي، حين حدّدت المبالغ التي سأدفعها ثمناً لهذه الأراضي. سألت واستفسرت عن السعر المتداول، وفهمت أن أفضل الأراضي لايساوي الدونم فيها أكثر من خمسين ألف ليرة. يا أهل قريتي، ويا أهلي.. هذا المشروع هو في النهاية لكم، ولذا قرّرت أن يصيبكم خيره منذ اللحظة الأولى. سأدفع في الدونم ستّة أضعاف سعره. بلّغوا أهل القرية، بأني سأشتري دونم الأرض بثلاثمائة ألف ليرة.

(تبدو على وجوه الجميع حالة انفعاليّة مقرونةً بالدهشة).

المختار : **(مذهولاً)** ثلاثمائة ألف ليرة!

الشّيخ عبّاس : **(حالماً)** ثلاثمائة ألف!

عبّود : نعم.. ثلاثمائة ألف. وأرجو ألا تطيلوا التردّد، لأن للوقت ثمنه بالنسبة لرجال الأعمال. **(ينهض)** أسعدني كثيراً أن ألتقي بكم بعد سنوات الغياب الطويلة، وأتمنّى أن نعمل معاً، كي نحقّق لهذه القرية الطمأنينة والرفاهية.

(ينهض الجميع مع عبّود، فيودّعهم ويخرج).

الشّيخ عبّاس : ثلاثمائة ألف!

ياسين : هذا مبلغ يقبر الفقر.

بسّام : لست مرتاحاً.

محمّد : فعلاً.. إن هذا لا يدعو للارتياح.

أديب : لا تبالوا.. غداً سأحمل لكم الخبر اليقين.

(يخرجون واحداً إثر الآخر، وعلى وجوههم حيرة وبهوت.. تتلاشى الإضاءة).

مشهد ٤

(غرفة زهيّة المؤثّثة بمبالغة وإسراف. في الغرفة زهيّة وكريمة، زوجتا عبّود الغاوي السابقتان).

كريمة : هل رأيت الموكب الذي دخل به إلى القرية!

زهيّة : لم أستطع مغادرة البيت. شعرت أني مريضة.

كريمة : أكان ذلك بسببه؟

زهيّة : **(بعنف)** نعم بسببه، كان قلبي يدقّ بعنف، وساقاي ترتعشان، كلّما تخيّلت أني سأراه.

كريمة : إننا لانتحدّث كثيراً. أخبريني ماذا تحسّين؟

زهيّة : ولماذا لا تخبرينني أنت؟.

كريمة : هذا يعني أنك لاتثقين بي. ربّما لانلتقي كثيراً، لكنك لا تفارقين خيالي. أشعر أننا أختان توأمان، وأن النصيب ربطنا بمصير واحد. أتريدين أن تعرفي ماذا أشعر؟ حين لمحته في السيّارة، تمنّيت أن أركض نحوه، وأن أناديه.. خذني معك. من الصعب أن أشرح لك كيف تتناوب عليّ المشاعر. أحياناً أحسّ أني أريد أن أركع عند قدميه، وأن أغمرهما بالقبلات والبسمات. أن أعبّر له عن امتناني لأن ما عشته، وما ذقته خلال زواجنا يساوي عمراً من حياة الناس العادية.. ومرات أشعر أن ما يوجد في إهابه هو شيطان لا إنسان، فأشتمه، وألعن جحوده.

زهيّة : أما أنا فقد أفعمت روحي تلك الجنّة التي أدخلني إليها. لا.. لا أستطيع أن أغضب منه. لا أستطيع أن أكرهه أو ألومه. وحتى لو علمت أنه الشيطان فسأترك الله، أستغفر الله العظيم، وأعبد الشيطان.

كريمة : ماذا فعل بنا هذا العبّود الغاوي! لو أمر خادمه العجيب أن يقتلنا بيسر، لكان أسدى لنا معروفاً. أما الآن فإن حياتنا كالأنقاض، لا نعرف كيف نلملمها أو نعيشها. الغاوي هجرنا. ونحن لم يعد يملأ عيوننا رجل آخر، أو حياة كتلك التي تعيشها نساء الضيعة.

زهيّة : حقّاً.. كأن مسّاً أصابنا، أو وشماً دبغ أرواحنا.

كريمة : فماذا نفعل إذاً؟

زهيّة : وماذا نستطيع أن نفعل؟

كريمة : ليردّنا. ليضمّنا إلى خدمه. ليدخلنا في تجارته ومشاريعه. أتعلمين من يستطيع مساعدتنا؟

زهيّة : أهناك حقاً من يستطيع مساعدتنا؟!

كريمة : نعم.. إنه ذلك الخادم العجيب.

زهيّة : وهل يجرؤ على الالتقاء بنا، دون إذن سيّده؟

كريمة : دعينا نحاول..

(فجأة يظهر الخادم الأحدب، ويتقدّم بحركات احتفالية).

الخادم : هل دعتني السيّدتان؟

زهيّة : **(مشدوهة)** أنت!

كريمة : لاشك أنك الشيطان!.

الخادم : أهذه شتيمة أم أمنية! لاتجيبي.. أعرف أنها أمنية. وعلى كلٍّ، القلوب عند بعضها. كانت السيّدتان تتحدثان عني، وكنت أنا الخادم الذي برّح به الشوق أبحث عن السيّدتين.

كريمة : **(بسخرية)** وها نحن نلتقي، هل تحمل لنا رسالة أو خبراً، أم

جئت تسخر منّا؟

الخادم : لا أدري ماذا تحتاج العروستان! هل تتأخر النفقة؟ أم أن المبلغ ضاق عن الحاجة؟

زهيّة : لا.. لاينقصنا المال، بل صاحب المال. نحتاج قربه، والعيش في كنفه.

كريمة : قيل إنه يرتدي مسوح العفّة، وإنه لن يتزوج في زيارته هذه.

الخادم : سمعتِ قولاً صحيحاً. هذه الألعاب الصغيرة ما عادت تثيرنا، في رأسه مشروع كبير، سيغيّر الحياة من أصلها.

كريمة : هو دائماً لديه مشاريع.. وهو دائماً حين يسأم، يعرف كيف يدير ظهره، أمّا نحن فنظل على السرير وسط ملابسنا المبعثرة، لا نعرف كيف ننهض، ولا نعرف كيف نبقى. لانطيق العودة إلى حياتنا السالفة، وليس حولنا أية إمكانية لتكرار تلك الساعات التي عرفناها، وذقناها.

زهيّة : ونحن لا نريد رجال الضيعة، وهم يتحاشوننا، كأنّنا غولتان، أو مصابتان بالجذام.

الخادم : لا.. إنكما تجعلان الدموع تطفر من عينيّ، أنتما أجمل عروسين خدمتهما. لا أتحمّل أن تقاسيا هذا الجحود. لا أدري.. أرجو ألاّ تسيئا فهمي.. لديّ حلّ، وإذا قبلتما فستجدان حياة النعيم التي تليق بكما.

زهيّة : وما هو هذا الحلّ؟

كريمة : أسرع. ماذا تقترح؟

الخادم : لا أدري.. أخشى أن تزعلا.

كريمة : قُل وخلّصنا.

الخادم : أقترح أن تسلّما نفسيكما لي.. سأكون معلّماً، وستكونان أنجب تلميذتين عرفتهما.

كريمة : أنت معلّم! وماذا ستعلّمنا؟

الخادم : لا يغرنّكما شكلي، ولا تستهينا بي، إني أعرف أسرار الشهوة والغواية منذ آدم وحتى يومنا هذا. لديّ فنون إذا تعلّمتها المرأة صارت قدراً لايقاوم، وملكة يترامى الرجال كالممسوسين تحت قدميها. سأجعل كلاً منكما فتنةً يدوخ ويغرق فيها أشدّ الرجال زهداً وإرادة.

كريمة : هل نستعيد عبّود؟

الخادم : في البداية ستعملان داخل المملكة التي يبنيها عبّود. وستكونان أفضل مافي تجارته وأعماله.

زهيّة : إذن سنعود إلى جنّته.

الخادم : إذا كنت تسمّين قربه جنّة، فإني أعدك أن تعودي إليها.. ولكن ما أعرضه عليكما واسع الآفاق، ويمكن أن يبني مملكة غنيّة ومستقلّة بذاتها.

زهيّة : ومع هذا.. أريد أن نظلّ في حمى عبّود.

الخادم : لاتخافي.. سنظلّ في حماه وهو في حمانا. سنظلّ معاً حتى تنقضي الأوطار والآجال.

كريمة : دعنا من مجونك! ألديك حقّاً هذه الخبرة التي تدّعيها؟

الخادم : بعد الموافقة، ستكتشفان خبراتي ومعارفي.

زهيّة : وافقنا. ألا توافقين يا كريمة؟

كريمة : ليكن.. سأجربّه.

الخادم : إذن.. لم يبقَ إلا أن نختم الاتفاق.

(يمسك رأس كريمة بين كفيه، ثم يطبع قبلة على شفتيها. ينتقل بعدئذ نحو زهيّة ويقبّلها على فمها، ثم ينسّل ويختفي فجأة. كل واحدة تضع يدها على فمها، وفي عينيها نظرة ذاهلة).

كريمة : كأنه وضع جمرة على شفتي!

زهيّة : فعلاً، كأنها جمرة!

كريمة : ما أشد غرابته! كنت دائماً أخمّن.. لا.. لاأدري.. لكنّه رجل يفي بوعوده.

زهيّة : **(وهي تحضن كريمة)** آه.. أشعر أن البهجة تملأ صدري.

(تتلاشى الإضاءة)

الفصل الثاني

بيع الأراضي يثير في القرية هيجانات وصدامات...
وقابيل يقتل أخاه هابيل

مشهد ١

(دكان يوسفِ العلوني، يوسف وزوجته فاطمة الموعي)

فاطمة : في حياتي لم أرَ الضيعة مهتاجة إلى هذا الحدّ. تقول إنّ موجة عاصفة ضربتها، وزلزلت كيانها.

يوسف : عرف ابن الغاوي كيف يهزُّ دواخل النَّاس، ويوقظ شياطينهم.

فاطمة : هذا الصباح، حين ذهبت إلى منهل الماء، شعرت أنَّ الضيعة تغيّرت، وأنَّ النَّاسَ غرباء. تصوّر.. كلّ الّذين التقيتهم كانوا زائغي العيون، شاردي الوجوه، يتحرّكون وكأنَّهم يسيرون في نومهم. حتّى النّساء وجدتهن متعبات وصامتات. تملأ الواحدة جرّتها، وتمضي مسرعة إلى بيتها.

يوسف : ماذا تتوقّعين؟! باغت النّاس، وأشعل بينهم فتنة، لا يعرفون كيف يواجهونها. تصوّري.. فجأة حضر، وسكب على رؤوسهم ثروات، لا يتصوّرونها حتّى في الأحلام. لقد أذهلتهم المفاجأة. وهم يخافون أن يمدّوا أيديهم إلى الثّروة، ويخافون أيضاً أن يرفضوها.

فاطمة : ألا ترى أنَّ ما يحدث لا يبشّر بالخير!

يوسف : ومن يعرف الآن، إن كان ما يحدث خيراً أم شرّاً. حتماً ستتغيّر أحوال النّاس في هذه الضيعة، وقد تكثر الفلوس في أيديهم. وإذا كثرت الفلوس، ازداد الميل إلى التسوّق

والشراء، وانتعشت التجارة والأعمال. أتعلمين.. لو كان لدينا رأس مال، لوسّعت تجارتي منذ الغد. ولكن ما العمل! ليس لدينا إلاّ هذه البضاعة والسّمعة الطيّبة.

فاطمة : هذا يكفي ويزيد. إنّي أحمد الله، وأبوس اليد وجهاً وقفا.

يوسف : طبعاً.. الحمد لله كلّ دقيقة وكلّ ساعة. **(يقترب منها ويداعب وجهها)** ألا يكفي أنّ الله وهبني هذا الكنز، وأعطانا كفايتنا من الحبّ وأسباب الرّزق؟

(يحاول أن يحضنها ويقبّلها)

فاطمة : **(تتملّص منه بخجل)** استح يا يوسف.. هل نسيت أنّنا في الدكّان!

يوسف : **(وهو يلاحقها بنوع من المداعبة العابثة)** أريد أن يبصر العالم كلّه حبّي لك.

(يدخل خلف الدوري).

خلف : معك حقّ.. والله لو كنت محلّك، لأسمعت باطن الأرض والسماوات السبع أنّي أحبّها. كنت أفضل حظّاً منّي يا يوسف العلوني. أو أنّني بليد. نعم.. كنتُ بليداً. أحببتها منذ كانت مثل فرخ اليمام، وخلال تلك السنوات العديدة، كنت أكتوي بحبّي، ولا أدري كيف أعلنه، أو أبوح به. وبقيت كالحمار أتردّد، وأنتظر، حتّى خطفتها منّي يا يوسف. لو خطفت النّور من عيني، أو نزحت الدم من فؤادي، لكان ذلك أهون عليّ. كنت أفضل حظّاً منّي، ومازال الحظّ الطيّب يختارك ويؤاتيك.

يوسف : **(دون غضب)** ألن تتعب من حكاية هذه السّالفة؟

خلف : ستظلّ هذه اللّوعة تكويني حتّى مماتي.

فاطمة : هذا الحديث عن حبّك يسيء إليّ، ويفضحني يا خلف.

خلف : أنا أفضحك، أو أسيء إليك؟! ما عشت إن عَلِقَت بكِ حبّة غبار

من طرفي. أنا لا أحبّ الثّرثرة، ولكن حين تطفح اللّوعة في صدري.. حين أراكما.. وحين وجدتكما.. وأنتما.. وأنتما.. لم أتمالك نفسي، ووجدتني أبوح بما يعتمل في صدري.

يوسف : طيب، ونحن.. ونحن.. ماذا تريد أن نخدمك؟

خلف : قلت لك.. الحظّ يحالفك، وما جئت لأشتري، بل لأقدّم لك.

يوسف : وماذا ستقدم لي؟

خلف : اسمع يا يوسف! درس معلّمي أحوال الضيعة، وما ستحتاجه حين تمتلئ جيوب النّاس. فوجد أنّ ما ينقصها هو محلّ تجاريّ ضخم، تتوفّر فيه كلّ أنواع البضائع، الّتي سيحتاجها النّاس في الفترة المقبلة. محلّ ضخم يوجد فيه كلّ مايخطر على البال من غذاء ولباس وآلات، يسمّونه في البلاد الأجنبيّة، سوبر ماركت. في البداية فكّر أن ينشئ هذا المحلّ، ويجعله جزءاً من مشروعه. ولكن يا الله... ما أشدّ خوفه من قطع الأرزاق! عَرفَ أنّ قيام محلّ تجاريّ ضخم سيقضي على دكّانك، ويصيبك بالإفلاس، فقرّر أن يعرض عليك الشراكة، وتوسيع التّجارة.

يوسف : عبّود الغاوي يريد شراكتي؟!

خلف : سنعتبر هذا الدكّان بداية صغيرة لها حسابها، وسيمدّك بالمال اللاّزم لتوسيع البناء والتّجارة معاً. وبهذا الشّكل يلبّي حاجة الضيعة دون أن يضرّ أحداً فما قولك؟ هل يحالف الحظّ ابن امرأة كما يحالفك؟

يوسف : **(مشدوهاً)** ما قولي! وهل أعرف ما قولي! فاطمة! من كان يصغي إليّ حين تحدثت عن توسيع التّجارة؟ الله.. أم الشيطان!

فاطمة : أعوذ بالله من الشيطان الرّجيم! هذا علمه في الغيب يا

يوسف.

خلف : لا.. لن تتردّد أمام عرضٍ، لا تحصل عليه إلاّ إذا استجابت لك ليلة القدر.

يوسف : ألم أقل لك يا فاطمة.. إنَّ ابن الغاوي عرف كيف يهزّ دواخل النّاس، ويوقظ شياطينهم. أحسّ الفتنة، وأحسّ المال يتساقط علينا كالمطر الدافئ. ماذا تقولين؟ وما رأيك؟

فاطمة : لا أدري، أنت أدرى بأمور تجارتك.

خلف : عجيب.. وأنا الّذي كنت أتوقّع أنّك ستزغرد، وتطير من الفرح!

يوسف : طبعاً.. في داخلي صوتٌ يزغرد، وفي داخلي اهتزاز وشراهة تصيح. طبعاً.. لا أستطيع أن أقول لا. وأنا جاهز للشراكة وتوسيع التّجارة.

خلف : هذا هو القرار الحكيم. لو عاندت حظّك لتخلّى عنك. سأخبرك متى تأتي لتوقيع الاتّفاق، وإجراء الترتيبات. ولا تنسى يا يوسف العلوني أنّك أحسن حظّاً منّي.

(يغادر الدكّان.. بعدأن يختفي، تتقدّم فاطمة إلى الباب وتغلقه، تستدير وتقترب من زوجها وفي عينيها نظرة متوجّسة وخائفة).

فاطمة : احضنّي!

يوسف : **(وهو يحضنها)** هذه مكافأة تضاعف ربح اليوم.

فاطمة : ضمّني بقوّة، ولا تتحدّث عن الرّبح.

يوسف : ماذا هناك؟

فاطمة : لاشيء.. أشعر بانقباض وخوف.

يوسف : ما أشدّ حساسيّتك!

فاطمة : ضمّني ولا تتكلّم.

(تتلاشى الإضاءة).

مشهد ٢

(في البرِيَّة، كرم تين، تينة متأجّجة الخضرة، وترخي غصونها حتّى تمسّ الأرض، ولذا لايميّز المرء الجالس تحتها إلاّ بصعوبة. فضّة تقطف ثمار التين، وتضعها في سلّة تحملها. بين الحين والآخر تتلفّت حولها. يأتي عبد الرحمن الدرويش بخطوات قلقة متلفتاً هو الآخر ذات اليمين وذات الشمال).

فضّة : هل رآك أحد؟

عبد الرّحمن : لا أظنّ.

فضّة : إذن أسرع، وأختبئ تحت التّينة العبيّة.

(يمضي عبد الرحمن نحو التّينة، التي ترخي غصونها حتّى تلامس التّراب. تستمرّ فضّة في قطاف التّين وهي تتطلّع قلقة حولها. عندما تطمئّن أنّه لايوجد أحد في الجوار، تسرع وتنضم إلى عبد الرحمن).

عبد الرّحمن : لماذا جلست بعيداً عنّي؟

فضّة : لعن الله هذا العمر. تعبت من الخوف. تعبت من اللّهفة. تعبت من الانتظار. تعبت من الكذب. تعبت من الفقر. تعبت من كلّ شيء.

عبد الرّحمن : **(يقترب منها، ويضمّ بذراعه اليمنى كتفيها)** ماذا هناك؟ هذه المرارة توجعني، هل تقصدين لومي؟

فضّة : لا أعرف من ألوم! أنت، أم أنا، أم هذه الدّنيا، أم نحن

جميعاً! سنوات من الهوى المجنون... ومع هذا لا نلتقي إلاّ خلسة، ولا نذوق إلاّ متعة ينغّصها الخوف. لم يبق حجر ولا صخرة، ولا شجرة عبيّة، ولا خرابة، إلاّ وشهدت عُرينا، وتركت وسخها وعلاماتها على جسدينا.

عبد الرحمن : (وهو يلحس أذنها مداعباً) ألا تدرين يا روحي، أنّ هذا الخوف المرتعش، هو الذي يؤجّج الحبّ في قَلبينا، ويضاعف اللّذّة في جسدينا!

فضّة : ولكنّي تعبت.. أنت لاتعرف كم أشتهي الاسترخاء بعد المعاشرة! هكذا.. أن أسترخي على سرير واسع، وأنت إلى جواري، وأن نغفو لحظات، وأن نشعر أن العالم بعيد، كأنّه رحل ونسينا.

عبد الرّحمن : يا الله.. ما أجمل ما تقولين! أحسّ هيجاناً لذيذاً يسري في جسدي.

فضّة : نعم.. نبدأ بالهياج، ثمّ نفعلها ونحن نتلفّت خوفاً. ثمّ نسوّي ملابسنا، ونمضي. أنت إلى الرّاحة والعزّ، وأنا أعود إلى الشّقاء والفقر.

عبد الرّحمن : هذه المرارة التّي تتحدّثين بها، تضغط على عنقي يا فضّة، قولي ماذا هناك؟

فضّة : لاشيء.. ياسين يعرف عنّا أكثر ممّا توقّعت. وابن الغاوي لم يأت هذه المرّة كي يتزوّج، وأنا تعبت من الحبّ فوق الحجارة، والتراب، قل لي.. ماذا تنوي أن تفعل بالفلوس التي ستقبضها؟

عبد الرحمن : أيّة فلوس؟

فضّة : فلوس الأراضي التي ستبيعها؟

عبد الرحمن : وما أدراك أنّي سأبيع؟ لم أقرّر بعد.

فضّة : ولماذا لم تقرّر؟ هذه فرصة لن تتكرّر. نعم ستبيع.. وسيكون معك مال كثير. أجل.. مال كثير. هل تحبّني فعلاً يا عبد الرّحمن؟

عبد الرّحمن : إنّي لا أعرف كيف أجمّع ما تقولين! تريدين أن أبيع! ليكن.. سأبيع.

فضّة : (تقاطعه بلهفة) أتفعل ذلك من أجلي؟

عبد الرّحمن : كنت ميّالاً للبيع. وجاء كلامك الآن، فحسم تردّدي.

فضّة : نعم.. ستبيع، وستملأ جيوبك أكداس من المال.

عبد الرّحمن : لا أفهم إلحاحك على المال. ماذا تخفين؟

فضّة : طبعاً.. لن تفهم إلحاحي على المال. عشت دائماً ميسور الحال. أمّا أنا فقد عشت حياتي كلّها في العوز والحرمان. كنت دائماً أحتاج إلى المال، وأحلم به.

عبد الرحمن : حاولت ألاّ أقصّر، هل قصّرت؟

فضّة : لا.. أنقذتني مرّات من الجوع والبهدلة، ولكن مالك لم يكن وفيراً.

عبد الرحمن : لاشكّ أنّي قصّرت، كان ينبغي أن أعرف متى تحتاجين، وأن أسعفك وقت حاجتك.

فضّة : (وهي تعانقه) لاعليك.. ليس هناك ما تلوم نفسك عليه. قل لي.. هل ترغب بي حقّاً؟

عبد الرحمن : لا أرغب بشيء في الدّنيا أكثر منك.

فضّة : (وهي تندسّ فيه) إذن.. دعنا نسافر.

عبد الرّحمن : نسافر! إلى أين؟

فضّة : إلى أيّ مكان بعيد، إلى مدينة بعيدة، لا يعرفنا فيها أحد.. أنا وأنت ومعنا مالٌ كثير. ستشتري لي ثياباً جميلة، وعطوراً فاخرة. سنأكل في مطعم وسننام في فندق. فراش واسع ونظيف. نتلاعب عليه، ونتبغدد طوال اللّيل، تخيّل، سنقضي اللّيل معاً، وسأنام على زندك، وتنام على زندي.

عبد الرحمن : (وهو يغلغل يده تحت ثيابها) آه.. هذا جميل.. هذا جميل جدّاً.

فضّة : **(هامسة)** سنكون جميلين، وسنمحو العمر الشقيّ من ذاكرتنا، هل وافقت؟

عبد الرّحمن : **(وهو يلهث)** سأشتري لك ثياباً جميلة، وعطوراً فاخرة، وسأحملك بسيّارة جديدة إلى مدينة بعيدة.

فضّة : سأطلب الطلاق من ياسين.

عبد الرّحمن : أطلبيه.. أطلبيه.

فضّة : وأنت.. ماذا ستفعل؟

عبد الرّحمن : إنّي أحلم.. هذا حلم جميل.. جميل.

فضّة : **(فجأة تنهض غاضبة)** دعني.. إنّك تتكلّم كالمسطول. أتظنّ أنّي أحلم! لا إنّي جادّة. هل تسمعني؟ أنا جادّة وأعني ما قلت.

عبد الرّحمن : يا الله!.. اهدئي قليلاً.

فضّة : لن أهدأ.. أعطيتك أجمل سنوات عمري. كنت تفعل بي ما تشاء، وحين تشاء. أجمل سنوات عمري، وأنا أصلّي في محرابك. لم يخطر ببالك مرّة أن تعطيني شيئاً، أن تمنحني أملاً، أن تتخيّل لنا مستقبلاً. تعبت من الغمز واللّمز، تعبت من الاستلقاء على الحجارة والشّوك. ولايمكن أن نواصل على هذا النّحو. لا يا عبد الرّحمن، إنّي جادّة، سأنتظرك يوم تقبض ثمن أراضيك، فإذا عزمت، تعال وسأكون جاهزة. وإذا لم تعزم، فلن يكون بيننا لقاءٌ بعد اليوم.
(تتركه وتمضي)

عبد الرّحمن : يا الله! انتظري قليلاً.. يجب أن نتكلّم.

فضة : **(وهي تبتعد)** تكلّمتُ أكثر ممّا يجب، وليس لديّ ما أضيفه.

عبد الرّحمن : **(وحيداً)** يا الله.. لم أعرف كيف أجمّع كلامها، وأفهم مغزاه. لاشكّ أنّها جادّة.. يقيناً أنّها جادّة.
(تتلاشى الإضاءة).

مشهد ٣

(بيت ياسين. ياسين وابنته رباب)

ياسين : **(يعزف ويدندن)**
يا أسمر السمر.. آه..

رباب : **(تردّد وكأنّها تشجعه)** آه..

ياسين : يا أسمر السمر ياما عيّروني فيك.

رباب : فيك..

ياسين : وكلّ ما عيّروني فيك زدت رغبة فيك.

رباب : فيك..

ياسين : إنت الورد بالسّحر وأنا النّدى بسقيك.

رباب : بسقيك..

ياسين : إنت الثريّا وأنا الميزان برعى فيك.

رباب : **(تصفّق)** طيّب الله هذا الصوت.

ياسين : ما أحلى وجودك قربي! لولاك لما استطعت البقاء يوماً واحداً في هذا البيت.

رباب : وولداك!

ياسين : إنّي أحبّهما، ويتقطّع قلبي حين أتخيّل أنّهما يكدحان في المدينة، كي يؤمّنا مصاريف الدراسة والحياة. ولكن أشعر أنّ أحداً في هذا البيت، لا يفهمني، أو يتعاطف معي سواك..

رباب : لا يا أبي.. الجميع يحبّونك، ويحفظون لك حقّك من

الاحترام.

ياسين : أعرف كم تتمنّين إصلاح الأمور، وأن تسود المحبّة هذا البيت. لكن ماذا أقول لك! هناك فساد قديم لا يمكن إصلاحه يا رباب.

رباب : أهي علاقتك بأمّي؟

ياسين : دعيك من هذا. هناك أمور لاتقال. ولا تظنّي أنّي لا أدرك جانبي من المسؤوليّة، وأدركِ أيضاً أنّ لهم الحقّ في لومي. ماذا أفعل! لم يورثني أبي إلاّ كرم التّين المليء بالصّخور، ولم يعلّمني إلاّ ارتجال المواويل والغناء على الرّبابة. في الأيّام الخوالي كانت العائلات تتخاطفني، وكانت القرى تتسابق لدعوتي، وبلغ صيتي قرى نائية لاتخطر على البال، في تلك الأيّام كانت الفلوس تجري في يدي، وكنت أنفق على البيت دون حساب. عمري ما احترمت الفلوس، وما تعلّمت كيف أخبّئ قرشي الأبيض ليومي الأسود. ثمّ بدأ الزمن يغدر بالشاعر، ويأتي محمّلاً بهذه الآلات العجيبة. جاء الراديو ثمّ آلات التسجيل، ثمّ التلفزيون.. ويوماً بعد يوم كان يتوارى ذكر الشاعر، وينساه النّاس. قلّت الدعوات، ثمّ ندرت، ثمّ لم يعد الشاعر يسافر إلاّ لأنه يحبّ السّفر، ويغذّي أشعاره بالترحال. نعم.. عندما كبرتم، وازدادت حاجاتكم تضاءل عطاء الأكارم، وشحّ المال في يدي.

رباب : **(عيناها دامعتان)** لاتلم نفسك يا أبي.

ياسين : هل تبكين يا رباب؟ كلّ ما عانيته لا يساوي دمعة واحدة من عينيك. ولديّ خبر مفرح لم أقله لك بعد.. بدأ الحظّ ينقلب، ويفتح أمامي الأبواب. هذا سرّ بيننا. إنّ عبّود الغاوي مسحورٌ بمواويلي وغنائي. ألم تلاحظي! حين يسهر في

القرية، لا يستطيع أن يستغني عن وجودي. بل وطلب منّي أن أجهّز نفسي، كي أذهب معه إلى العاصمة. يريد أن يسجّل كلّ مواويلي على أشرطة وأسطوانات. قال لي إنَّ الجالية في المهجر متعطّشة لهذا اللّون من الفنّ الشعبي، وأنّهم سيتخاطفون الأشرطة والأسطوانات، وسيكون لي دخلٌ وفيرٌ ومستمرّ.

رباب : هل أنت مطمئنّ يا أبي؟

ياسين : في البداية، لم أكن أطيق ذكره. وحين فاتحتني أمّك، طار الصّواب من رأسي.. أنت تعرفين ما جرى بعد ذلك.. والاعتراف بالحقّ يا ابنتي فضيلة. تبيّن أنَّ الرَّجل حريص على أهل قريته، وأنّه ما جاء إلاّ لكي يساعدهم، ويوفّر لهم البحبوحة والازدهار. خذي حالتي مثلاً.. كان يمكن أن أموت، وأن يموت معي كلّ ما جاءت به قريحتي. لكنّ الرّجل بدا مرهفاً وكريماً. قدّر فنّي، وأخذ بيدي. أنا لم أطلب شيئاً.. بل هو الذي اقترح أن يسجّل مواويلي كي يحفظ ذكري، ويساعدني على رزقي. لا.. إنّ الرّجل شهم، وإنّي مطمئنّ إلى شهامته.

رباب : هناك من يتوجّس من مجيئه، والمشروع الذي يبنيه. وفي الضيعة تدور أقاويل وتخمينات كثيرة.

ياسين : هذا مايبرع به أهل ضيعتنا.. النمائم والقيل والقال. بعض النّاس لايرحمون، ولا يتركون رحمة الله تصيبهم. اطمئنّي يا ابنتي، من كثرة ماصاحبت وعاشرت، صار أبوك يعرف كيف يزن الرّجال، ويميّز سجاياهم. **(يضع الرّبابة في كيس مخمليّ ويتأهّب للخروج)**. سأذهب الآن. **(يتوقّف ويلتفت)** أين أمّك؟

رباب : ذهبت كي تقطف كرم التّين.

ياسين : **(وهو يخرج)** قولي لها إنّي سهران عند الغاوي.

(يخرج)

رباب : إذا لم يكن ابن الغاوي جادّاً، فستقضي الخيبة عليه. يا ربّ.. لا تخيّب مسعاه، ولا تحبط أمله. **(يتغيّر وجهها)** وماذا لو كان مايفعله ابن الغاوي خطّة لاصطيادي! أيمكن أن تمرّ على أبي هذه الألاعيب! أف.. منذ جاء لم نعد نعرف الهدوء والسكينة.

(يدخل بسّام الرّاضي، فيرى رباب تخفي وجهها بيديها).

بسّام : رأيت أباك يخرج، فانتهزت الفرصة.

رباب : ستأتي أمّي عمّا قليل.

بسّام : أتطلبين أن أخرج؟

رباب : لا.. لم أعنِ ذلك.. تفضّل واجلس.

بسّام : جئت لأقول لكِ.. سأفاتح أهلكِ بالموضوع غداً أو بعد غد.

رباب : أفضّل أن تؤجّل ذلك..

بسّام : أخبرت أبي، وسيأتي معي، فلماذا التأجيل؟

رباب : لا أدري.. لست مستعدّة الآن.

بسّام : وماذا يمنعك؟ منذ فترة كنت راضية، أو هذا ما بدا لي.

رباب : أجل.. أحببت كلامك عن المساواة بين الرّجل والمرأة. والعمل المشترك ضدّ الأفكار البالية، والتقاليد المتخلّفة. أعجبني تقشّفك وحديثك عن عشّ زوجيّ مفروش بالبسط اليدويّة والطراريح، وموقدة الحطب، ولكن.. لا أدري.. بعد فترة، اكتشفت أنّ هذا وحده لا يكفي.

بسّام : ولماذا لايكفي! قولي بصراحة، أتحبّينني أم لا؟

رباب : آه.. الحبّ! مازلت صغيرة يا بسّام، ومشاعري تموج متغيّرة كتقلّبات الرّيح. إنّ لديّ أحلاماً كثيرة، وأحياناً أحسّ أنّ

الدنيا أضيق من أن تتّسع لطموحي وإمكانياتي.

بسّام : هذه بداية الدّاء. البريق يجذب، والثّروة تغوي. ولعلّك تنتظرين زيارة ابن الغاوي وأخته.

رباب : أهذا رأيك فيّ؟

بسّام : آسف. أردّد الشّائعات، لأنّ ما تقولينه يبدو كالمراوغة أو الهروب.

رباب : **(بعنف)** لست الفتاة التي تقبل أن تباع، وليس هناك ما أهرب منه، ما قلته لك هو الصّدق. أحسّ أنّ مشاعري تموج، وتتغيّر، وأحلامي الغامضة والمثقلة بالوعود، ليس للزّواج مكان فيها.

بسّام : **(بلهجة واخزة)** وبماذا تحلم الآنسة يا رباب؟

رباب : **(تغمض عينيها، وفي لهجتها شيطنة)** آه.. مثلاً أحلم أن أسافر وأبي. لا نحمل شيئاً إلاّ ربابته وأغانيه. نتوه في الدّروب متنقّلين من بلدٍ إلى بلدٍ، وأينما حللنا ننشر حولنا فرحاً وموالاً.. آه.. من الصّعب أن تفهم ما أحلم به. **(تتنصّت بانتباه)** أعتقد أنَّ أمّي جاءت. أرجوك أن تخرج ولا تحرجني معها.

بسّام : سأخرج.. ولكن أرجوك أن تفكّري جيّداً، ولاتدعي النزوات تضيّع فرصة عمرنا.

رباب : **(وهي تدفعه)** طيّب سأفكّر.. أعدك أن أفكّر.

(يخرج.. وتتلاشى الإضاءة).

مشهد ٤

(مصطبة أمام بيت المختار يغطّيها حصير من القشّ، وبضعة مساند، المختار، ضرغام، أبو راغب).

ضرغام : ما النّصيحة يا مختار؟

المختار : **(حادّ الصّوت)** كم مرّة يجب أن اقول، وأعيد، هذا موضوع أتمنّى أن يقدّره كلّ واحد بنفسه، أو مع قرابته.

ضرغام : وزنتها كثيراً ولم أصل إلى قرار. هذا الرّجل قلب حياتنا عاليها سافلها. أحسّ بالاختناق إن وافقت، وأحسّ بالاختناق إن رفضت.

أبو راغب : والله هذه حالنا جميعاً. وفوق ذلك يأتيك إلحاح الولد. فجأة تدير المصاري رأسه، فيبدو كالسكران، يريدأن يبني، وأن يتزوّج، وأن يعرف الدّنيا ولذّتها.

ضرغام : ولَك يا عمّي، الولد، والمرأة والبنت.. ولَك أنا نفسي. ألا يحقّ لنا أن نرتاح من ثقل الديون، وأن نعرف بحبوحة العيش، ولو فترة قصيرة من العمر؟

أبو راغب : وهناك من يقول.. من باع أرضه هان عليه عرضه. وتعال دبّرها، ماعاد المرء يعرف من يسمع، ومن يطيع.

المختار : يا جماعة الخير.. المسألة لا تحتاج إلى هذه الحيرة كلّها. إذا كان المرء محتاجاً، ولايحلّ ضائقته إلاّ مبلغ كبير، فعليه ألاّ يتردّد. والحقيقة أنّ الرّجل يفتّ مبالغ تفوق الأرض قيمة،

ولاتترك في النّفس باباً للندم.

ضرغام : ما تتفضّل به يا مختار على الرّأس والعين.. حين أتصوّر أنّي بلا أرض أشعر «حاشا الحضرة» كأنّي أمشي بين النّاس بلا لباس، أو أنّني تركت الضيعة، وصرت غريباً لا مقام لي إلاّ مع وحوش البرّيّة.

أبو راغب : حلّفتك بالله يا مختار.. هل ستبيع جزءاً من أراضيك أم لا؟.

المختار : **(متضايقاً)** ما كان يجب أن تحلّفني. قلت وأعدت.. لا أريد أن أؤثّر على أحدٍ في قراره.

ضرغام : أنت مختارنا وتعرف الأمور خيراً منّا.

(ينضم الشّيخ عباس إليهم ويتبادلون التّحيّة).

المختار : شرّفت يا شيخ، تفضّل.

الشّيخ عبّاس : لا.. لدينا شغل. جئت كي أصطحبك معي في مشوار ضروريّ.

ضرغام : من حقّنا على المختار، أن يرشدنا إلى الصّواب قبل أن يمضي.

الشّيخ عبّاس : وما هي المسألة؟.

أبو راغب : سألناه إن كان سيبيع جزءاً من أراضيه!

الشّيخ عبّاس : وأنا أقول لكم المختار سيبيع.

المختار : لا يا شيخ.. في هذا الموضوع، دع كلّ واحد يُخرج موّاله من رأسه.

الشّيخ عبّاس : لن نخفي عنهم شيئاً، والنصيحة واجبة. المختار سيبيع، وأنا سأبيع، ومجنون من لايبيع.

ضرغام : الأرض غالية يا شيخ.

الشّيخ عبّاس : وابن الغاوي يبدّل ترابكم تبراً.. أي ذهباً. الأرض غالية، لكنّها ليست أغلى من الثروات التي يبادلكم بها.

أبو راغب : أما كان أجدادنا يقولون من باع أرضه هان عليه عرضه؟

الشّيخ عبّاس : إذا دخلتم في الأمثال والسّوالف ضعتم. ولو عُرضت على

أجدادنا هذه الأسعار المجزية، لما ورثتم أرضاً ولا أمثالاً.
اهتدوا بالله، وبيعوا الفقر والتّعتير. يا الله يا مختار..

المختار : **(وهو ينهض)** أنا لم أقل شيئاً.

الشّيخ عبّاس : ضعوها في رقبتي، ووزرُها عليّ.

ضرغام : اللّهم اهدِنا إلى ما فيه الخير.

أبو راغب : آمين..

(يخرج الجميع.. وتتلاشى الأضواء).

مشهد ٥

(بيت محمّد القاسم، أديب النّاطور، سميرة بنت محمّد القاسم)

أديب : **(وهو يمدّ يده إلى صدرها)** أنتِ الينبوع، وقلبي يتفحّم ويسودّ من العطش.

سميرة : **(مبتعدة خافتة الصّوت)** احذر! سيخرج أبي بين لحظة وأخرى.

أديب : ماعدت أخشاه. هذا وقتنا، والرّيح تؤاتينا.

سميرة : وما الّذي تغيّر؟

أديب : إنّ كلّ شيء تغيّر يا قمري. لن يبقى مجال في هذه الضيعة إلاّ وسيناله التغيير، من البيوت الطينيّة إلى الطعام واللّباس حتّى العادات. تخيّلي! أنا ابن الناطور.. قد تجري الفلوس في يدي كالماء.. وخلال أيام قليلة، ستزيّن هذا الجسد الشّهيّ أحدث الملابس المستوردة من عواصم التقدّم والمدنيّة. حمّالات من الحرير تدغدغ هاتين اليمامتين، وألبسة شفّافة تزيد البشرة فتنة، والتفاصيل روعة. أعاهدك ألاّ ترتدي هذه الثّياب فتاة قبلك، وستكون تلك هديّتي الأولى لعينيك.

سميرة : إنّ كلامك يفتل الرّأس.. ما أبرعك في تصوير كلّ شيء!

أديب : سميرتي، وقمري.. إنّ حبّي ليس كلاماً، ولا براعةً في التصوير. إنه هنا.. حيٌّ وملموس. إنّه يتوجّع ويحلم، إنّه

عصارتي، وزبدتي، والدم الذي يجري في عروقي.

سميرة : يا الله.. إنّك تجعلني أشعر.. لسانك يدوّخني كالخمر.

أديب : وأنا.. أتظنّين أنّي لا أدوخ حين أراك، وحين ألمح أنّك تبادلين حبّي قبولاً ورضى؟

سميرة : **(بكآبة)** ومافائدة قبولي؟ لن يوافق أبي مهما فعلت.

أديب : دعي أباك عليّ.

محمّد : **(يأتي صوته من الدّاخل)** مع من تتكلّمين يا سميرة؟

سميرة : **(مرتبكة)** هذا أديب الناطور يسأل عنك يا أبي.

(يتغامزان.. ثمّ تسرع سميرة في الخروج، بعد قليل يدخل محمّد القاسم).

أديب : السّلام عليك يا عمّ.

محمّد : وعليك السلام. لماذا لا تجلس؟ تفضّل.

(يجلس محمّد القاسم، ثمّ يجلس بعده أديب).

محمّد : ماذا جئت تحمل لنا؟

أديب : سألت يا عمّ واستفسرت.

محمّد : وماذا وجدت؟

أديب : كلّ ماقاله صحيح. وهناك مسؤول كبير يرعى المشروع، ويقدّم له كلّ الدّعم الذي يحتاجه. إنّهم يعتبرون أنّ السّياحة هي الصناعة التي تلائم بلادنا وإمكانياتنا. لأنّ كلّ ما تحتاجه السّياحة هو التّاريخ والطبيعة الجميلة. ونحن نملك كنوزاً من آثار الحضارات وبقاياها، ونملك أيضاً تنوّعاً مدهشاً في المواقع والطبيعة. وجدتهم يا عمّ متحمّسين. وهم يعتقدون أنّ هذا المشروع سيكون جزءاً من ملحمة التقدّم التي تعيشها بلادنا بعد أن اختارت سياسة الانفتاح.

محمّد : وما هي زبدة الكلام؟

أديب : زبدة الكلام ما قلته لك.

محمّد : ألم يذكروا شيئاً عن أهالي الضيعة؟ ماذا يتوقعون منّا، وهل هناك إجراءات يمكن أن يتّخذوها؟

أديب : الحقيقة لم يذكروا شيئاً يخصّ الأهالي.. ولكن أستطيع أن أخمّن من الحماسة التي تحدّثوا بها عن المشروع، أنّ أيّ عرقلة ستضايقهم جدّاً.

محمّد : وما هي الأمور التي تعرقل المشروع في رأيك؟

أديب : المقاطعة.. أو تحريض النّاس.. أو الاحتجاج.. الحقيقة لست أدري.. لم يذكروا شيئاً عن النّاس.. وكلّ ما استطعت أن أعرفه، هو أنّ حماستهم كبيرة للمشروع.

محمّد : هل ستبيعون أرضكم؟

أديب : أنت تعرف عناد أبي، ولكنّي أعند منه. غرّبت به وشرّقت، قرّبت له وأبعدت، حتّى لان، واقتنع.

محمّد : وممّ ستعيشون إن بعتم أرضكم؟

أديب : هناك فوائد الأموال.. وهناك عملٌ ينتظرني في المشروع.

(يدخل الشّيخ عبّاس والمختار، ينهض محمّد القاسم وأديب. يتبادلون التحيّات ثمّ يجلسون).

الشّيخ عبّاس : **(إلى أديب)** كيفما تحرّك المرء يتعثّر بك.

أديب : لأني لا أستطيع أن أستغني عن بركاتك أبداً.

الشّيخ عبّاس : إذن.. خذ البركة، وافرقنا برائحة طيبة.

أديب : أتطردني يا شيخ، ومن بيت عمّي محمّد القاسم، أتوافقه يا عمّ؟

الشّيخ عبّاس : دعك من الهزل، هناك أمور خاصّة سنتداول فيها.

أديب : طيّب.. طيّب **(وهو يخرج)** أتمنى لكم مداولة بنّاءة.. وإيّاك يا شيخ والسّياسة.

الشّيخ عبّاس : أف.. ما أطول لسانه!

(يدخل حمدان حاملاً صينية عليها إبريق شاي وكؤوس زجاجيّة مذهّبة الحوافي.. يقدّم الشاي للجميع).

المختار : ولكنه ولد نبيه، ويعرف كيف يقنص زمانه.

الشيخ عبّاس : لم نأت كيف نتحدّث عن ابن الناطور. أما زلت تتردّد يا محمّد؟

محمّد : ينبغي أن أستشير ابني الذي يدرس في الجامعة.

الشيخ عبّاس : وهل تعتقد أنّه سيرفض؟ انظر.. ألا ترى كيف يتوافد كلّ الذين يعملون، أو يدرسون في العاصمة، وبقية المدن؟

المختار : يا لطيف.. منذ شاع خبر المشروع وسعر الأراضي، توافدوا كالزنابير الحامية، وكلّ واحد يسأل عنا حصّته.

محمّد : لا تنسَ يا مختار أنّنا عائلة تعوّدت أن تزيد أراضيها، لا أن تفرّط بها.

الشيخ عبّاس : كلّنا نعلم أنّك لن تبيع أرضك عن حاجة، ولكن إذا كان الله قد رزقك وأغناك، فإنّه لا يجوز أن تتّخذ هذا الغنى سبباً، كي تعرقل مشروعاً ستصيب فوائده النّاس كافّة.

محمّد : ما هذا المشروع الذي يمكن أن يعرقله رجلٌ واحد، لا يريد أن يبيع أرضه؟

الشيخ عبّاس : أنت تعرف يا ابن القاسم أنّ أرضك بمساحتها وحسن موقعها، ليست كالأراضي الأخرى، أتريد الصراحة؟ أشعر أنّك لا ترفض حرصاً على الأرض، وأنت أغناك الله، كثير الأراضي والأملاك، بل لأن في القلب شوائب لم يمحُها الزّمن، ولم يمحُها ما أبداه من غيرة نحو قريته وأهله.

محمّد : ولماذا تظنّ أنّ في قلبي شوائب وضغائن؟

الشيخ عبّاس : أعرف سماحتك، وأعرف حبّك للخير. ولولا أنّ الضّغينة عميقة في صدرك، لما ارتضيت لنفسك أن تعرقل مشروعاً فيه خير للجميع. صدّقني.. ولو أراد ابن الغاوي، لما احتاج إلى استعطاف أحدٍ. ولو شاء، لنال ما أراد بثمن هزيل، وجهدٍ قليل. أخبره يا مختار ماذا عرضوا عليه في العاصمة!.

المختار : علمت أنّهم عرضوا عليه أن تستملك الدّولة الأراضي التي

يحتاجها مشروعه، وبالسّعر الذي تحدّده. لكنّه رفض وقال: «هذه بلدي، وسكّانها أهلي، وأنا ما جئت كي أنهب أرزاقهم، بل كي أغدق عليهم ممّا رزقنا الله».

الشّيخ عبّاس : هذا الرجل نادر المروءة، وهو يوفّي صلة القربى بقلبٍ صافٍ وسخاءٍ وافٍ. كان يستطيع أن يحوز أراضينا بالقروش، لكنّه أبى وأصرّ على شرائها بالرّضا، وبأسعار تشفي الفقير من فقره، وتضاعف غنى الغنيّ. فهل يجوز يا ابن القاسم بعد هذا كلّه، أن تعرقل مشروعه؟.

المختار : وأعتقد أنَّ المسؤولين حريصون على رضاه، وهم مستعدّون لإزالة كلّ عقبة تعترض مشروعه.

محمّد : (**بصوت حادّ ومقهور**) سأبيع.. سأبيع. ولا تزيدا كلاماً عنه.

الشّيخ عبّاس : وفقك الله.. إنّك تتّخِذ قراراً حكيماً، فعلامَ تغضب؟

محمّد : هذا الأسلوب في الترغيب والترهيب، وتلك التهديدات المبطّنة.. كفى يا شيخ.. بعتنا واشتريت ابن الغاوي، ولولا الحياء لجعلته وليّاً من أولياء الله.

الشّيخ عبّاس : لا تغلط يا ابن القاسم، ولا تقابل مسعاي بالجحود. إنّ الحرص على سمعتك أثقل في ميزاني، من الرّغبة في خدمة الآخر، وأنت تعلم كم هي قديمة وراسخة منزلة عائلتك عندي، ومن ليس له قديم ليس له جديد. لكنّي خشيت أن يؤذيك عنادك، وأن يتغامز النّاس ويقولوا.. هذا من عرقل المشروع، وحرمنا خيره.. وبالمقابل، يقضي الحقّ أن أعترف أنّ الرّجل لم يظهر مايشينه حتّى الآن.. وهو يحمل لك ودّاً واحتراماً، ويتعشّم أن تتعاونا في محاربة مظاهر التأخّر، وبناء ما يحقّق التمدّن والتقدّم، البارحة مثلاً سألني باستنكار.. لماذا لا يوجد في القرية جامع؟

المختار : وسألني أيضاً.. لماذا لايوجد مستوصف؟!

الشّيخ عبّاس : وهو يرى أنّ خلوّ الضيعة من الجامع، يعادل الكفر أو الفضيحة. وتمنّى أن تتعاونا معاً لبناء هذا الجامع. وأمام الحاضرين تعهّد أن يدفع كلّ نفقات البناء.

محمّد : (**وهو يتميّز غيظاً**) وأنا.. ماذا ينبغي أن أدفع؟

الشّيخ عبّاس : لاشيء.. إحدى أراضيك المهملة في القرية.

محمّد : وغداً أرضٌ للمستوصف.. وبعده أرض للمدرسة، قولوا.. أتريدون تجريدي ممّا أملك؟

الشّيخ عبّاس : لا يا ابن القاسم.. اكتم هذه الأقوال. لا أريد أن يذاع أنّك عرقلت بناء الجامع، واستكثرت على الله قطعة أرض صغيرة. والله لو كان أبوك حيّاً لقدّم الأرض، وفوقها ما تيسّر من المال.

محمّد : أتريد أن أتبرّع بأرضٍ لبناء الجامع يا شيخ؟

الشّيخ عبّاس : الحسنة والذكر الطيّب كلاهما لكَ يا ابن القاسم.

محمّد : طيّب.. لكم ما تريدون، أخبر عبّود الغاوي أنّ الأرض جاهزة.

الشّيخ عبّاس : بارك الله فيك.. بارك الله أهلك.. بارك الله رزقك.. وتذكّر أنّ الخَير عند الله كحبّة قمح أنبتت سبع سنابل، في كلّ سنبلة مئة حبّة. (**ينهض ومعه المختار**) حقّاً.. هذا بيت مبارك، لايخرج المرء منه وفي نفسه حاجة. (**وهما يخرجان**) بارك الله فيك، وكثّر من أمثالك.

محمّد : (**يمسح وجهه بكفّيه.. بعد قليل**) لا إله إلاّ الله وأستغفر الله العظيم. يا ربّ اغفر لي جهالتي وضيق صدري. الأرض هبة أقدّمها بنيّة صافية ونفسي قانتة، ولكنّي متطيّر وخائف ممّا يجري، احمنا من الأشرار واغفر لنا الغضب والجهالة.

(**يفتح كفيّه ويبدأ بقراءة الفاتحة.. فيما تتلاشى الإضاءة**).

مشهد ٦

(ركن نصف معتم تتراقص فيه ألسنة من ظلالٍ داكنة الزرقة، يبدو عبّود الغاوي وخادمه الأحدب مثل شبحين. وثمّة تغيير طارئ وغريب قد ألمّ بهما، ولاسيّما الخادم).

الخادم : حين سمعتك تتحدّث مع الشّيخ عبّاس، تذكّرت تلك اللّيلة الثّلجيّة، التي كنت تسهر فيها على جثمان أخيك.

عبّود : ومن أعماق روحي كنت أناديك.

الخادم : لبّيت النّداء. وعقدنا ميثاقاً ممهوراً بالدم. أليس بيننا ميثاق؟

عبّود : نعم.. بيننا ميثاق، لم أشعر يوماً بالخوف أو النّدم على توقيعه.

الخادم : وهذا ما يجعلني أتفانى في خدمتك. وفّرت لك ما تحتاجه من الثّراء والقوّة.

عبّود : وبالمقابل أهديتك روحي اللّطيفة.

الخادم : هديّة ثمينة أخشى أن تنزلق من بين يدي في لحظة غفلة.

عبّود : دع التلميح، وأفصح. ما الذي يضايقك؟

الخادم : لا أعلم أنّ خطّتنا تتضمّن بناء الجوامع.

عبّود : آ.. الجامع! معك حقّ. هذا إلهام جاءني هنا. ولكن ليس هناك ما تخشاه.

الخادم : هل تسخر منّي؟ تريد أن تبني جامعاً، وتقول لي ليس هناك ما تخشاه!

عبّود : أتظن أنّه سيكون مكاناً للتقوى، ومعاكسة مشاريعنا!

الخادم : وماذا يكون إذاً؟

عبّود : هذا السؤال لا يليق بخبرتك ونباهتك. ألا تلاحظ ما يحدث حولنا؟ لن يدخل الجامع إلاّ رجال يبتغون الدّنيا لا الآخرة. تقواهم رياء، وصلاتهم زلفى. رجال أفسدت إيمانهم الأطماع والشّهوات، ولا يذكرون الله إلاّ لمنفعةٍ من ثروة أو سلطة.. وبعد بضع سنوات أو أقلّ، سيكون هذا الجامع حاضنة تفرّخ القتل والتعصّب والظلام. نعم.. في هذا الجامع سيكون للشيطان نصيب أوفى من نصيب الله.

الخادم : أكنت تدرك هذه الحقائق كلّها، حين اقترحت بناء الجامع؟

عبّود : وكنت أدرك أيضاً أنّ اقتراحي سيضاعف مصداقيتنا، وأنّ بناءه سيوفّر لنا موقعاً مهمّاً لإدارة العمال وضمان نجاحها.

الخادم : لست نادماً لأنّي اصطفيتك، ولبيّت نداءك. قل لي.. هل تشعر أنّك تتحسّن؟

عبّود : لا أدري بعد.. على كلٍّ، إنّي أتسلى. هذه أوّل مرّة أخالط فيها النّاس، وأبادلها الأحاديث والنظرات.

الخادم : يسعدني أنّك تتسلّى. ولكن مخالطة النّاس لاتخلو من الخطر.

عبّود : وما هو هذا الخطر؟

الخادم : أن تنزلق تحت وطأة النظرات والأحاديث إلى التعاطف.

عبّود : لا تخف، ما يجذبني، ويسليني هو الطّرافة لا أكثر.

الخادم : إذن. تسلَّ.. كما تشاء، وأعدك أن تكون التسلية الكبرى من إعدادي وتحضيري. **(يخرج مرآة يمسحها، ويهزّها بطريقة معيّنة، حتّى تصفو، وتتجلّى فيها صورة رباب)**. تأمّل هذا الوجه، الذي يتفجّر سحراً وجمالاً.

عبّود : **(تبرق عيناه)** حقّاً! إنها آية ساحرة.

الخادم : هل أعجبتك؟

عبّود : **(وهو يجاهد كي ينتزع عينيه من المرآة)** لا.. لم نأت كي نبحث عن اللّذّات، بل كي نتجدّد.

الخادم : ليكن.. حين تجدّد دماءك، ستكون تسليتي في انتظارك.

عبّود : بدّد هذه الظلال. وأخرجني إلى الضوء.

(تراقص الظّلال والأضواء الشاحبة ثمّ تنطفئ الإضاءة).

مشهد ٧

(بيت ريفي، أمين التبّان وأخوه مروان التبّان، ومعهما أمّهما العجوز مريم الزرقاء).

مروان : أحسّ أنّك لاتصغي إليّ!

أمين : يا حبيبي.. يا مروان إنّي أصغي إليك. أبعدنا المرأة والولد كيلا يقاطعناأحد.

مروان : لماذا لا تقولين شيئاً يا أمّي؟

الزّرقاء : أفضّل أن أسمع.

مروان : أنتم أهلي، ولا يجوز أن أخفي عنكم أنّي في ضيق. إنّي بحاجة ماسّة إلى مبلغ أرتّب أموري به.

أمين : إذا أنت شكوت، لا يبقى لمثلي ما يقوله. موظّف كبير ويقبض في الشّهر المبلغ المرقوم، ومع هذا يأتي بعد طول غياب ليخبرنا أنّه في ضيق، وأنّ حاجته إلى المال ماسّة. أكنت تعلمين يا أمّاه أنّ أخي يعيش في فاقة، وأنّ حاجته إلى المال ماسّة؟

مروان : أتحسب أنّي أبالغ! فعلاً أنا موظّف ولديّ معاش، ولكن هل تعلم يا أخي.. ماذا تعني الحياة في العاصمة؟ هل تعلم الشّقاء الّذي ينبغي أن تتحمّله كي تحصل على بيت، ثمّ كي تفرش البيت، ثمّ كي تكون لك حياة تتلاءم مع مركزك ووظيفتك. لديّ راتب.. نعم يا أخي، لديّ راتب.. ولكي لديّ أيضاً

التزاماتٌ ثقيلة، لا يغطّي الرّاتب إلاّ جزءاً يسيراً منها، أتعرف حجم القروض والدّيون التي ينوء تحتها ظهر أخيك؟ صدّقني لولا إلحاح الحاجة لما خطر هذا الموضوع في ذهني. وحتّى لو لم يكن المرء محتاجاً، فإنّ السّعر الّذي يدفعه ابن الغاوي، يعدّ فرصة ذهبيّة لايفوّتها إلاّ المجنون.

أمين : أتسمعين يا أمّي! أخي المتعلّم يقول.. سنكون مجانين إذا لم نبع أرضنا.

مروان : أتتخيّل المبلغ الذي سنحصل عليه؟ سيكون بوسع كلّ منّا أن يسوّي وضعه، وأن يبدأ مع الحياة بداية جديدة.

أمين : أنت يا أخي عندك وظيفة وبيت في المدينة، وأخمّن أنَّ الضيعة التي ولدت وتربّيت فيها، لم تعد تعني لك شيئاً. أما أنا فهنا مكاني، والأرض هي عملي الذي أفنيت عمري فيه. أتتصوّر كيف تكون حياة مزارع لم تعد لديه أرض؟ ماذا سأفعل، وكيف نعيش؟

مروان : في أيّامنا هذه، لم تبق للأرض قيمة إلاّ في الأشعار والأغاني. قُل لي ماذا تدرّ هذه الأرض، التي تكدح وتشقى فيها طوال السّنة. إنّ بسطةً صغيرة على رصيف شارع، يمكن أن تدرَّ أضعاف ما يكسبه المزارع من محصوله. لقد تغيّرت الدنيا يا أمين، وبالمال الذي ستحصل عليه، يمكن أن تهيّئ مشروعاً ربحه أكبر وتعبه أقلّ.

أمين : سأقدّم لك يا أخي نصيحة لوجه الله. إيّاك أن تزدري الأرض أمام فلاّح أعطاها أفضل قواه، وأعطته أفضل خيراتها. هذه الأرض الّتي لا تعني بالنّسبة لك إلاّ مبلغاً من المال، هي بالنّسبة لي رفيقة وعشيرة ورزق وحياة تتواصل في الأبناء بعد الممات. ولا تَنسَ يا أخي المتعلّم أنَّ هذه الأرض هي التي

ربّتك، وأنفقت عليك حتّى تعلّمت، وتوظّفت، وأدرت ظهرك لنا.

مروان : أنا لا أنكر الفضل.. فضلك وفضل هذه الأرض التي آثرتَ أن تتفرغ لزراعتها.

أمين : آثرت! ولماذا آثرت أن تكون الزّراعة نصيبي؟ ألاّ تذكر أنّه كان ينبغي أن يضحّي واحد منّا كي يتعلّم الآخر؟

الزّرقاء : **(وكأنّها تحدّث نفسها)** بعد وفاة أبيهما، جاء أمين وقال لي: «أخي مروان صغير، وتبدو عليه علائم الذّكاء والنّجابة. لهذا قرّرت أن أحلّ محلّ أبي في زراعة الأرض، وأن نوفّر لأخي كلّ ما يحتاجه، كي يتعلّم، وينال أعلى الشّهادات». قلت له: «وأنت يا أمين». فأجاب: «سأترك المدرسة، وحين ينهي أخي تعليمه، سيعوّضنا جميعاً عن الحرمان وشقاء السّنين». وكنّا نعضّ على الأرض بأسناننا، وكنّا نقسو عليها، ونجبرها أن تعطي أفضل غلاّتها، وكنّا لا نستبقي من الموسم إلاّ ما يسدّ الرّمق، وكان مروان يأخذ، ويمنّينا بالوعود.

أمين : وفي الصيّف كان يأتي كالدّيك المنفوش، ينام حتّى الضحّى، ويمضي الوقت في اللّهو والعبث مع البنات من جيراننا وأقربائنا. وفي ذلك الصيف.. **(يغص بالبكاء)**.

الزّرقاء : نعم.. وفي ذلك الصيّف أفسد إحدى قريباته، ثمّ سافر لامبالياً، ودون أن يخبر أحداً. جاءتني البنت، وخبأت سرّها عندي. سافر أمين إلى المدينة، وسأله أن يصونها ويتزوّجها، فرفض وقال: «هذه ليست من مقامه» وعاد أمين غاضباً وخائباً، وقال لي: «عبثاً شقينا، غربة وجحود». وتحمّل أمين غلطة أخيه، وتزوّج البنت التي أفسدها مروان.

أمين : هي قريبتي، سترتها وسترتني. أمّا أخي فأنهى تعليمه، وحصل

على وظيفة معتبرة، وتزوّج فتاة لم نرها، وكافأنا على سنين الشّقاء بالنّسيان والجفاء.

الزّرقاء : لم يذكر أمّه بمنديل، ولم يذكر أخاه بسترة أو قميص.

مروان : هل تدرّبتما طويلاً على هذه المحاكمة؟ اسمع يا أمين.. لم أتحمّل مشقّة السّفر، وأجيء إلى هذه الخرابة، كي ننبش الماضي، ونجرد الحسابات.

أمين : نحن لا نستطيع أن نترك الماضي، لأنّنا ما زلنا نعيش فيه، ومازالت توجعنا جروحه وآثاره.

مروان : (بعنف) هذا الماضي نسيته. ولي حقّ ما جئت إلاّ كي أحصّله.

أمين : وما هو هذا الحقّ؟

مروان : إنّه بيّنٌ. أم تريد أن تنكر؟ اسمع يا أخي، مازلت أودّ أن يتمّ كلّ شيء بالرّضا. أنت تعلم أنّ لي نصف الأرض. وإذا طاوعتني وبعنا معاً، فسنوفّر على أنفسنا متاعب القسمة والدوران في المكاتب العقاريّة.

أمين : سأقولها لك صراحة، وأتمنّى أن تفهمها بالرّضا.. هذه الأرض لن تباع إلاّ على جثّتي.

مروان : طيّب أنت حرّ، ويمكنك أن ترفض بيع حصّتك، أمّا حصّتي. فلا شأن لكَ بها، ويمكنني أن أبيعها كما يحلو لي.

أمين : لن تبيع شيئاً.

مروان : أتنكر أنّ لي نصف الأرض؟

أمين : قبل أن تتذكّر مالك. حاول أن تتذكّر ما عليك. منذ عشرين سنة، وأنا أعمل كأجير، وأعطيك معظم ما تغلّه الأرض. دون أن أسأل عن حصّتك أو حصّتي. والآن بعد أن قطفت ثمرة كدّي وشقائي، تأتي لتطالب بحصّتك من الأرض. ألا يحقّ لنا بعد أن توظّفت، وصارت لك مكانة ورواتب، أن

نستغلّ هذه الأرض كي نأكل حتّى نشبع، ونوفّي ما بقي من ديون، كنت أدورها خلال سنوات تعليمك! لم تكن الأخ الذي عقدت عليه الآمال، ولكن لا أحمل لك، في قلبي أي ضغينة. الأرض لن تباع ما دمت حيّاً. والأستر لنا جميعاً أن تعود من حيث جئت.

مروان : ما هذا.. أتجرّدني من حصّتي؟!

أمين : عندما نستردّ بعضاً من ديوننا، أو حين تأمر أمّنا بالقسمة، يمكن أن تأتي وتأخذ حصّتك.

مروان : تدخّلي يا أمّي، وحلّي هذا الخلاف، قبل أن يكبر ويتعقّد.

الزّرقاء : ويلاه.. إنّي أبصر أكثر ممّا أسمع!.

مروان : ما هذا.. أطلب حصّتي فتولولين في وجهي! أنا مصمّم على البيع. اليوم سأتّفق مع الرّجل، وغداً سأطلب من محامٍ أن يقوم بإجراءات القسمة. أين السّند؟ أما زلت تخبّئينه في الصّندوق. **(ويتّجه نحو الصّندوق، فيمسكه أمين).**

أمين : **(بحزم)** لايوجد سند، ولن يكون هناك بيع.

مروان : هذه سرقة. إنّك تسرقني. ليسمع النّاس كلّهم، إنّ أخي الكبير يسرقني.

أمين : **(يصفعه فاقداً أعصابه)** وتتحدّث عن السّرقة.. أيّها النّذل.. أيّها الدُّودة الحقيرة **(وهو يهزه بعنف)** كالعلقة مصصت دماءنا وعرقنا، ورقاد ليالينا، ثمّ تأتي، وتتّهمنا بالسّرقة؟

مروان : آأنت تمدّ يدك عليّ، وتجرؤ على ضربي! أنت الجلف.. البليد.. الذي لملم فضلاتي. أمّاه.. هاتي السّند قبل أن تكبر بيني وبينه.

أمين : **(وهو يدور في البيت كالمجنون)** أهذا جزاء العمر الذي ضيّعته من أجلك؟! أمّي هل تسمعين.. أهذا هو جزائي إذن.. **(يتناول من الزاوية عصا غليظة)** لا.. ينبغي أن تكبر.

الزرقاء : ويلاه.. إنّي أبصر أكثر ممّا أسمع.

مروان : **(يخرج مسدّساً من حزامه)** إيّاك أن تقترب.. وأنت.. انهضي وهاتي السّند..

أمين : أتحمل مسدّساً؟ وهل تظنّ أنّ هذه اللّعبة ستجعل منك رجلاً؟! خُذ إذاً..

(يهجم أمين رافعاً العصا على مروان، يتراجع مروان برعب، ثمّ تدوي طلقات متلاحقة، ويخرُّ أمين على الأرض مضرّجاً بدمه).

مروان : **(مذعوراً)** قتلته.. لم أكن أنوي.. استفزّني.. ألم يستفزّني؟ **(يغدو صوته كالخوار)** قتلته.. قتلت أخي.. أميّ لم أكن أنوي.. **(يقترب منها، ويميل عليها كي يحضنها، فتدفعه بطرف عصاها)** أمّي.. صدقيني.

الزّرقاء : ويلاه.. عدت أبصر. إنّي أبصر.

مروان : **(وهو يدور زائغ العينين)** جنون.. لم أكن أنوي.. جنون.. يجب أن أمضي.. إلى أين.. لايهم.. يجب أن أمضي..

(يخرج من البيت)

الزّرقاء : ويلاه.. إنّي أبصر.. ويلاه.. ممّا أبصر..

(تنهض بهدوء وترتمي على ابنها القتيل تصوّت وتبدأ بالنّواح.. وببطء شديد تتلاشى الإضاءة).

الفصل الثالث

القرية هشّة.. وعاصفة «الجديد»
متوخشة. تحوّلات.. وتحوّلات..

مشهد ١

(في هذا الجزء تتوالى المشاهد السريعة. ومن المهمّ أن يتكوّن انطباع بأن الزمن يتدافع كالبروق الوامضة، وأن الأمكنة هلام رخو يتأرجح بين التشكل والزوال. وعلى أرض المسرح تتبعثر نفايات حديثة «أكياس نايلون، علب صفيح، علب كرتونية.. إلخ» وتزداد مع تقدّم المشاهد. الأشخاص يتحركون بسرعة، وكأن أمراً عاجلاً يحثّ خطاهم. حتى الأداء ينبغي أن يبدو أحياناً وكأن به نوعاً من اللهاث. المختار أمام بيته الحجري).

المختار : **(يصبّ كأساً من الشاي، يضع ملعقة سكّر ويحرّكها)** بعد مقتل أمين التبّان، والجنازة المهيبة التي هيّأناها له، خيّم على القرية ذهول ورهبة. في تلك الأيام.. يا الله.. كم تبدو تلك الأيام بعيدة! وكم يبدو الزمن سريعاً لايكاد المرء يدركه! في تلك الأيام.. سامحني يا رب إن أضلّني الهوى. أعترف أن حزني شابهُ عِرْقٌ من الراحة، وقدّرت أن المشروع سيتوقّف، وأنّا سنخرج من الذهول إلى ألفة أيامنا القديمة. ولكن ما كدنا نفرغ من السبوع حتى انتفضت القرية، كأنّها تنهض من رقادٍ سقيم، ثم انهمكت في التبدّل والتحوّل. أحياناً أدوخ حين أتأمّل، كيف تغيّر كل شيء في هذه الومضة القصيرة من الزمن. مايحدث لم نعرفه من قبل، ولايشرحه ما نعرف من سوالف الأجداد وحكمتهم! فجأة أقيم في القرية

مخزنٌ فيه من متاع الدنيا وبضاعتها ما يسلب الرشد ويوقظ في النفس من الجوع والعطش ما لا يمكن إشباعه.. ومن كان يتردّد في بيع أرضه أصبح يتوسّط كي يشتروها منه، وأمام أعيننا المدوّرة بالدهشة، نهض المجمّع السياحيّ وكأنه معجزة. قال البعض إن الله سخّر له الجنّ، كي يبني هذا المجمّع في مثل هذه المدّة القليلة، وقال البعض الآخر إن الورشات والأجهزة الحديثة، التي استخدمت في البناء هي التي حقّقت المعجزة. الناس تترقّب الافتتاح، والزمن يمرّ كالومض ورجلٌ مثلي..

(يدخل أديب بخطىً دينامية. يرتدي ثياباً تماشي الموضة، وبيده حمّالة مفاتيح ثمينة).

أديب : أما زلت تندهش مما يجري! حلّفتك بالله ماذا كنت تقول؟

المختار : كنت أقول، يا عين عمّك، ورجل مثلي.. لايفارقه الإحساس بأنه يقف على حجر مقلقل.

أديب : لا يا مختار. لا أعتب على العجائز والجهلة إذا توجسّوا من التقدّم. أما أنت فإن توجّسك يحيّرني فعلاً.

المختار : هل أنت متأكّد يا أديب أننا نتقدّم؟

أديب : وهل يحتاج هذا السؤال إلى جواب؟ إن التغيير الذي طرأ على حياتنا واضح كالشمس. منذ سنة أو أقلّ كانت الضيعة خاملة، فقيرة، كانت تتكرّر أيامها البليدة، وتحبط حماسة شبابها الطموحة، أما اليوم فقد غدت هذه القرية ذاتها كخليّة النحل، تعمرها الحيويّة، والرغبة في التطوّر. انظر إلى الناس.. صاروا أجمل. صاروا يأكلون ويشبعون. صاروا نشيطين، وفي عيونهم يتوقّد الأمل والطموح.

المختار : أما أنا فأحسّ أن الناس أصابها دوار، وأنها تجري متحيّرة وذاهلة في درب مجهول، لا تعرف إلى أي مطاف سينتهي

بها.

أديب : ماتقوله لا يخلو من دقّة ملاحظة، جاءنا التغيير مباغتاً وسريعاً. ومن الطبيعيّ أن يحتاج الناس إلى وقتٍ حتّى يألفوه، ويتأقلموا مع الجديد الذي يحمله. نعمْ سيوجد من يحار، أو يشكّ، ولكن عاجلاً أو آجلاً سيتأكّد الجميع أن الدرب الذي سلكناه أخيراً، هو درب التقدّم والإزدهار.

المختار : أرجو أن يكون ما تقوله صحيحاً. وعلى كلٍ، أنت ابن هذا التحوّل الذي يحدث، ومن الطبيعيّ أن تتحمّس له.

أديب : لا أتحمّس لنفسي فقط، بل أتحمّس للضيعة وأهلها أيضاً. قل لي يا مختار على ما تعرف من أبيك وجدّك، هل توفّرت لهذه الضيعة على مدّ تاريخها فرصٌ للثراء، كما تتوفّر هذه الأيام؟

المختار : **(كأنه يداعبه)** لاسيما إذا كان شاطراً مثلك، يلقفها وهي مشتعلة.

أديب : ولِمَ لا يا مختار! ألا تحتاج الثروة دائماً إلى الشطارة، واقتناص الفرصة!

المختار : لا تظنّ أني ألومك، إن نجاحك يسعدني.. وأدعو الله أن يزيدك مالاً ونجاحاً. جرّنا الحديث، وأنسانا واجب الضيافة. **(يصب له كأساً من الشاي)** تفضّل.

أديب : شكراً يا مختار. في الواقع جئت أطلب معروفاً، وأرجو ألاّ تردّني خائباً.

المختار : إذا كان بمقدوري، فأنا جاهز.

أديب : عزمت أن أطلب يد سميرة ابنة محمّد القاسم هذه الليلة، وأتمنّى أن ترافقني وتسعفني بكلمة لديه. لا سيما وأن أبي لن يكون معنا.

المختار : ألن يرافقك أبوك؟

أديب : إنه يتهيّب زيارتهم، ويرى أن نسبنا لايسمح بالتطلّع إلى مصاهرته.

المختار : لا ألوم أباك. إن محمّد القاسم معتدٌّ بنسبه، وعنيد.

أديب : أرجوك لا تخذلني، حين رفض أبي، لم يخطر لي أبٌ سواك.

(يدخل بسّام لاهثاً وممتقع الوجه)

بسّام : إِلحق يا مختار!

المختار : ماذا هناك؟

بسّام : إن ضرغام أقفل الباب عليه وعلى امرأته. ولا نعرف ماذا يمكن أن يفعل بها.

المختار : وماذا سيفعل بها؟ أفهمني ماذا يجري؟!

بسّام : منذ الصباح وهما يتشاتمان، ويتعاركان من أجل شراء غسّالة. هي تطلب حقّها من ثمن الأرض، وتريد شراء غسّالة، وهو يشتمها ويرفض. وفي النهاية جنّ جنونه، فأقفل الباب عليهما، ولانعرف ماذا يمكن أن يحدث. هناك من رآه يحمل سكيناً قبل أن يقفل الباب.

المختار : وهذه قصّة أخرى. لعن الله الغسّالات، ومن أدخلها إلى هذه الضيعة. هيّا بنا..

أديب : سنذهب بالسيّارة، تعالاً معي.

بسّام : (بازدراء) دعنا من السيّارة.. المشي أسرع.

(يخرجون.. وتتلاشى الإضاءة..)

مشهد ٢

(خلف جدار من بيت يُهدم. فضّة وعبد الرحمن).

فضّة : **(وهي تبعده بأطراف أصابعها)** هل اشتقت إليّ؟

عبد الرحمن : لن أستحي يا فضّة. أعترف لكِ إن هجرك ذبحني. لم أكن أتصوّر أنكِ متغلغلة في كياني إلى هذا الحد. أحياناً أشعر أن جسدي كلّه أفواهٌ تناديك. أحتاج كالمدمن الخرمان أن أذوقك، أن أشمّك، أن ألمسك، أن.. **(ويعانقها)**.

فضّة : **(وهي تدفعه وتتملّص منه)** ومع هذا وجدت أن السفر في حالتنا حماقة كبيرة!

عبد الرحمن : معك حق.. كنت مرتبكاً، ولم أعرف كيف أشرح لك الصعوبات. يومها لم أكن أقصد رفض الفكرة تماماً، بل حاولت أن أشرح..

فضّة : أرجوك لا أحتاج تلك الشروح. إني أفهمك، وليس في نيّتي أن أفتح باباً للجدل والعتاب.

عبد الرحمن : لو فهمتِ موقفي فعلاً، لما قرّرت هجري.

فضّة : لم أقرّر هجرك، لأنك رفضت السفر. كنت أعرف أن السفر حلمٌ يتجاوز طاقتك وخيالك.. وربما يتجاوز طاقتي أنا أيضاً.

عبد الرحمن : إذن.. لماذا قرّرت هجري؟

فضّة : لأنه ليس لديك ما يكفي حاجتي.. لا.. إذا أردت الإنصاف، ينبغي أن اقول مايكفي شراهتي..

عبد الرحمن : إني لا أفهم.. هل كانت علاقتنا سيئة؟! أما كنت ترتوين؟

فضّة : (**بحدّة**) لعلي لم أقصد هذا الجانب... بل أقصد هذا الجانب وجوانب أخرى كثيرة. ذلك اليوم حين أصابني الجنون تحت التينة. وطلبت منك أن نسافر. كان عمري كلّه يتجمع أمامي. السنوات كثيرة والمحصّلة هزيلة. صرّة صغيرة ليس فيها إلا أشياء قليلة. كان اليأس يخنقني. كنت قوّية، كنت جميلة. كنتُ أستحقّ حياة أخرى.. لا أدري كيف أشرح لكَ.. حين ناديتني أول مرّة، كنت كالرجاء بالنسبة لي. حلمت كثيراً، وخاطرت بكل شيء، كي أتبع نداءك ونداء أحلامي، لكن.. يوماً بعد يوم شهراً بعد شهر، كنتُ أحسّ بغموض أنّ مالديك لا يكفي أحلامي.

عبد الرحمن : (**غاضباً**) أتحاولين إهانتي؟

فضّة : لا.. لم أقصد إهانتك. ما أردت أن أشرحه لكَ، هو بؤسي الداخلي. حين تأمّلت موكب عبّود الغاوي، وهو يدخل القريّة. حين خطف بصري بريق السيّارات وعظمتها، شعرت انقباضاً في مَعِدَتي. اكتشفت في داخلي بئراً لا قرار لها، تفور فيها الرغبات والأطماع والأماني. أتعلم؟ حين دخلت إلى المخزن الجديد، وأذهلني تنوّع البضائع ووفرتها أصابتني بُرداء وحمّى. لازمت الفراش أياماً وكنت أهذي. قيل لي إني تحدّثت عن العالم الواسع، الذي يأتي إلينا، وعن الأشياء الجميلة التي تعبث بنا، وعن البقرة التي رأيتها تغرق في الطين حين كنت صغيرة. أتفهمني قليلاً يا عبد الرحمن؟ في داخلي بئر من الحرمان.

عبد الرحمن : لاشكّ أنك قاسيت كثيراً في حياتك، ولكن يمكنك أن تعتمدي عليّ. اسمعي.. سأشتري سيارة، وسيكون لديك

كل ماتحتاجين إليه.

فضّة : إنك لاتفهمني يا عبد الرحمن. ليس لديك مايكفي حاجتي، أتعلم لماذا؟ لأني أريد كلّ شيء، السيّارات والملابس والأجهزة والبريق والصور الملوّنة والجمال والفتنة واللّذّة. **(تنخرط في البكاء)** كلّ شيء.. كلّ شيء..

عبد الرحمن : ومن يستطيع أن يحصل على كلّ شيء!

فضّة : نعم.. أعرف.. ليس هناك أمل.

عبد الرحمن : سأقدّم لك ما أستطيعه، وسنعرف لذّاتٍ لم نجرّبها من قبل.

فضّة : من يعرف أبعاد شراهته، لا يبقى لديه إلا أن يغذّي مرارته، ويتعايش مع يأسه.

عبد الرحمن : إني أحبّك وأشتهيك يا فضّة.

فضّة : أما أنا فلا أستطيع بعد اليوم، أن أحبّ، أو أشتهي إلا رجلاً لديه ما يملأ هذه البئر المحفورة في أعماقي.

عبد الرحمن : لم أكن أعرف أنك شرهة إلى هذا الحدّ!

فضّة : وأنا أيضاً.. لم أكن أعرف.. كان يجب أن يأتي إلينا العالم البعيد، وفتنة عبّود الغاوي، كي أكتشف أبعاد شراهتي.

عبد الرحمن : **(يُخرج علبة أنيقة من جيبه)** حملتُ لكِ هدية صغيرة، وإذا غيّرتِ رأيك..

فضّة : لن أغيّر رأيي.. وزوجتك أحقّ بالهديّة مني.

عبد الرحمن : اشتريت زجاجة العطر علي اسمك.

فضّة : إذن.. باسمي واسمك عطر بها زوجتك.

عبد الرحمن : كم تغيّرت يا فضّة!؟

فضّة : وما الذي لم يتغيّر، منذ هبّت هذه العاصفة علينا؟ سأتركك الآن.

(تتلاشى الإضاءة).

مشهد ٣

(قسم الملابس في المخزن الجديد، المخزن حديث جداً، وأنيق بديكوراته وترتيب البضائع فيه. يبدو التباين شديد الوضوح بين المخزن وبين القرية رغم التجديدات التي تطرأ عليه. فالمخزن يكاد يكون بحدّ ذاته فرجة تستقطب الكثيرين للوقوف أمام واجهاته، والحملقة بمعروضاته. يوسف العلوني وفاطمة. ينتحي بها ركناً بعيداً عن بعض الزبائن المبعثرين في المحل. هناك طاولة تعرض عليها الثياب، وغرف خلفية للقياس. موسيقا ناعمة وخافتة).

يوسف : أشتهي أن أراك تبتسمين!

فاطمة : أبتسم حين يوجد ما يدعو للابتسام.

يوسف : رأيت الشاب علاء السمان يخرج غاضباً، وهو يكزّ على أسنانه.

فاطمة : ليغضب، وليأخذه عزرائيل.

يوسف : كم مرّةً ينبغي أن أكرّر هذا الدرس! إن عملنا يا فاطمة يحتاج إلى لطف ومسايرة.

فاطمة : إني أحاول يا يوسف، ولكن لا أتحمّل قلّة الأدب، أنت نفسك.. هل تقبل أن يتجاوز الزبون حدود الأدب مع امرأتك؟

يوسف : بالكياسة والمرونة، يمكن أن يتجاوز المرء قلّة الأدب.

فاطمة : أيّة كياسة وأيّة مرونة! أصبحت أتحيّر معك يا يوسف. أتعرف ماذا فعل ابن السمان؟

يوسف : وماذا فعل؟؟

فاطمة : لاشيء.. أستحي أن أقول. كان السيد علاء يجرّب بنطالاً. يدور أمام المرآة، ويجرجر في الكلام.. كم تساوي القبلة من هاتين الشفتين، وكم تساوي اللمسة من هذين النهدين.. ثم مدّ يده، قُل لي هل كان ينبغي أن أبتسم له؟

يوسف : أعترف أن هناك زبائن يتجاوزون حدودهم، ويتّصفون بالوقاحة. وفي عملنا ينبغي أن يتعلّم المرء كيف يكون واسع الصدر، ليّن العريكة. لاشكّ أن هذا الزبون تجاوز حدّه، ولكن بشكل عام نادراً ما أراك تبتسمين. وجهك فتّان إذا انفرجت أساريره. وأنا أعلم أن لديك من الفطنة، وسعة الحيلة ما يجعلك تواجهين أصعب المواقف دون خشونة. **(هامساً)** إن الله فتح لنا منجماً من الذهب يا فاطمة. ولا يستحقّ نعمة الله من لا يعرف كيف يقدّرها، ويحافظ عليها.

فاطمة : إنك محقّ.. نعم إنه منجم من الذهب.. ولكن يخطر لي أحياناً أننا لم نعد سعداء كما كنّا أيام الدكان القديم.

يوسف : السعادة! انتظري قليلاً، وسترين ألواناً من السعادة لاتخطر على بال. إني أرى الأيام الضاحكة تقبل علينا، وتغمرنا بالفرح والنشوة.

(ضوضاء تقترب من المخزن، بعد لحظات تظهر زهيّة وكريمة ومعهما الخادم، ووراءهم حشد من الفضوليين، معظمهم من الشباب. وخلال المشهد، سيزداد الحشد وينضمّ إليه رجال موقّرون مثل محمّد القاسم والشّيخ عبّاس وسواهم)

الخادم : **(صائحاً)** أرونا ماذا يستورد لنا عبّود الغاوي! هو معلّمي

(**يخفض صوته**) ولكنه أحياناً يحب التشدّق والمبالغة. أين بضاعة باريس وروما؟ أخرجوا مايليق بأجمل قامتين في هذه البلاد.

زهيّة : (**هامسة**) إنك تخجلنا.

الخادم : ولمَ الخجل! ليتني أجد الفصاحة المناسبة، كي أصف الألق الذي ينبعث منكما، أو السحر الذي يحفّ بكما. هذا الجمال يحتاج إلى أزياء تبرزه، وتجعل الأعمى يكتشف وهو في ظلمته تكويناته البديعة. هاتوا مالديكم من الأزياء، لأن هاتين السيّدتين ستشعشعان ليلة الافتتاح كالأقمار أو الشموس اللطيفة.

يوسف : (**وهو ينحني ويتصاغر أمام الخادم**) حتى الآن لم أعرف ماذا أعرض عليكم؟!

الخادم : وهذا يعني أنك بليد، لا تعرف أصول مهنتك. (**يلتفت نحو فاطمة**) والسيّدة.. ألا تريد السيّدة أن تساعدنا قليلاً؟!

فاطمة : (**تتراجع فزعة**) لاتقترب مني. (**مشيرة إلى زوجها**) توجّه إليه. إنه أدرى بالأزياء مني. (**تتراجع بخطى بطيئة**).

الخادم : لاتخافي.. لاتخافي. أنت أيضاً جميلة.. وحرامٌ أن تدفني هذا الوجه الصبوح بالخوف، ووصايا الرجال الخائفين والمنافقين.

(**تختفي فاطمة**)

يوسف : لافائدة.. لن تتعلّم أصول هذه المهنة أبداً. خذلتني أكثر مما أفادتني.

زهيّة : هل أرادت أن تظهر عفّتها؟!

الخادم : (**هامساً**) من يريد العفّة، لا يدخل شريكاً مع عبّود الغاوي.

كريمة : أو لعلها أرادت أن تعبّر عن تقزّزها منّا.

الخادم : سيكون سقيم الروح والجسد من يتقزّز من سيّدتين، كلّ

منهما تفتن قلوب أشدّ الرجال زهداً وتقوى. وأنت ماذا تفعل؟ نحن ننتظر.. وأنت تتوائب حولنا متحيّراً. هاتِ ما عندك.

يوسف : حاضر، هل أبدأ بمجموعة باريس؟

الخادم : ليكن، إن الباريسيين يقدّرون الجمال، ولديهم جموح في الخيال.

(يبدأ يوسف بإخراج أزياء نسائية مختلفة).

الخادم : اسمع.. لاشك أنك جاهل. والأزياء التي تحملها لا تعرف مزاياها، ولا لمحة الجمال فيها. دع عنك. سأتولى الأمر بنفسي، ولكن أخرج لي من الأدراج الثياب الداخلية. وضعها على المنصّة مع الفساتين.

(يوسف يفتح الأدراج، ويناوله تشكيلات من الملابس الداخلية، والخادم يرتّب الملابس، ويحاول أن يوائمها مع بعضها بعض).

كريمة : أترين إلى الحشد الذي تجمّع على الباب وراء الواجهة؟

زهيّة : ألم يجعل منا فرجة الضيعة!

كريمة : انظري من جاء. الشّيخ عبّاس بذاته. إنك تجذبينه كحدوة المغناطيس.

زهيّة : أود أن أراه يربط وسطه بعمامته. ما رأيك؟

كريمة : سيكون أمامنا كثير من المرح، لكن ماذا يحضّر لنا هذا الشقيّ؟

زهيّة : عرض أزياء.

كريمة : أو تظنّين! وأهلنا!

زهيّة : وهل بقيت بيننا وبين أهلنا علاقة؟

الخادم : والآن.. هل الجميلتان جاهزتان **(يناول كلاً منهما طقماً من الثياب التي تكشف أكثر ممّا تخفي)**. هذا لزهيّة، وهذا

لكريمة.

كريمة : لو أنّها ثياب داخلية، لكانت أكثر حشمة.

الخادم : وهل تبالي الموضة بالحشمة؟. سنجربّهما، ونتثنى، بهما ونراهما وجهاً وقفا. نريد أن نرتدي لباساً جامحاً. أريد أن تمتصّ الجميلتان كلّ أضواء الافتتاح، وأن يجري الحاضرون وراءهما كالضارعين في مواكب القدّيسين. **(يصفّق بيديه فيما تعلو الموسيقى التي تصاحب عروض الأزياء)** هيّا.. دعانا نبدأ.

(تدخل زهيّة وكريمة إلى غرفة تجريب الملابس، ثم تخرجان بعد قليل بالثوبين الجريئين. تمشيان بخطوات إيقاعية جيئة وذهاباً).

كريمة : **(هامسة)** انظري.. انظري.. رفع عمامته، ومسح عرقه مرّتين حتى الآن.

زهيّة : ومحمد القاسم، متى جاء؟. انظري كيف يتطاول على رؤوس أصابعه، ويحاول التخفّي وراء الشّيخ.

كريمة : **(ينفتل محمّد القاسم، وينسحب حين يلاحظ أنهما رأتاه)** لن يفيدك التثاقل، ولا الابتعاد يا ابن القاسم.

(تعودان إلى غرفة التبديل، بعد قليل تخرجان بفستاني سهرة).

الخادم : ليس باهراً.. ليس باهراً. سنجرّب كل ما يوجد، نريد ملابس تصرخ، تجمح، تجرح. نريد أيّها السيّد أن نتلألأ.

يوسف : أخدمكم بعيني، سأحضر كلّ ما لديّ.

الخادم : أجل.. أحضر كل ما لديك. جرّبا هذين الردائين.

(منذ الآن.. يتّخذ تجريب الملابس شكل عرض أزياء فعلي).

أصوات من الحشد : يا بخت من قطف وذاق.

ـ أف.. جاء الحرّ قبل أوانه.

- أين كنّا وأين كانت. لا أصدق عيني.. أهذه كريمة، أم تلك زهيّة.. لا لم أرهما من قبل.
- يا حسرتي راحت عليّ.. تصوّروا ومع هذا يتفاصحون علينا، ويقولون كلّه بيض مقشّر.
- آه والله صحيح، ما الذي يجمع بين هذا البيض وتلك البيضة التي تركتها في البيت؟
- انظر! إن الحلمتين تثقبان القماش.
- الحلمتان فقط! إن الجسد كلّه كاد يمزّق القماش وينفجر.
- هل نشف ريقك مثلي؟
- نشف ريقي ودمي.
- يا الله! كدت ألمسها.
- هذه فتنة تغوي القدّيسين والأنبياء معهم.
- لم أعد أحتمل. إن بدني كلّه يتوتّر ويشهق.
- سبحان من كوّر ونحت وأبدع.
- **(تتداخل الأصوات ويبدو أن التوتّر يزداد)** لا تدفعني.
- تقدّم خطوة أو خطوتين.
- عيب يا جماعة.
- العيب على من أيقظ الفتنة.
- ساخت رجلاي.

الخادم : هذا هو.. ما ترتديانه الآن هو الجامح الذي نفتّش عنه. **(هامساً)** ارتفعت حرارة الرجال، وازداد توتّرهم. تمسّكا بي جيّداً، أيّها السيّد سجّل ما أخذناه على عّبود الغاوي. **(يخرج من جيبه علبة يفتحها، فينبعث منها دخانٌ أحمر.. يختفي ومعه الفتاتان. يبدأ الحشد زحفه داخل المحل).**

أصوات : اقترب.
- امسكها ولا تخف.

- إن يدي لا تحيط برمّان صدرها.

(يزداد تدافع الناس. خوار، صياح، إنهم يقبلون الملابس، ويحضنون الطاولات. وبعضهم يحتضن يوسف العلوني ذاته معتقدين جميعاً أنهم يحتضنون المرأتين).

يوسف : ياناس.. يا هو.. ماذا جرى لكم! أنا يوسف. عيب يا أحمد.. دع صدري.. يا فاطمة.. أنجديني يا فاطمة، هاتي سطلاً من الماء وتعالي.

أصوات : **(شاب يقبّل رجل الطاولة)** ما أنعم هذه الساق!

- **(شاب آخر يدسّ رأسه في ذيل الفستان)** يا الله.. ما أنعم فخذيها!

(تأتي فاطمة ومعها سطل ماء).

يوسف : رشّي الماء عليهم.. أيقظيهم..

(ترشّ فاطمة الماء عليهم، ينتفضون، يتطلّعون حولهم بنظرات فزعة. تتحوّل شيئاً فشيئاً إلى خجلٍ وخزيٍ).

فاطمة : العمى.. ألن يبقى عاقل في هذه الضيعة. ماذا أصابكم؟ هل جننتم؟

أصوات : **(خافتة مثقلة بالخجل)** أين المرأتان؟

- ألم تكن هناك امرأتان؟

- ماذا فعلنا؟

يوسف : الأفضل ألا تعرفوا ماذا فعلتم!

- لعب الشيطان بنا.

- فعلاً.. لعب الشيطان بنا.

فاطمة : إذا كنتم رجالاً، لاتدعوه يلعب بكم مرّة أخرى.

(يبدأون بالانسحاب مثقلين بالتعب والخجل.. وتتلاشى الإضاءة).

مشهد ٤

(بيت محمّد القاسم.. محمّد القاسم، المختار، أديب الناطور، يدخل حمدان حاملاً صينية الشاي ويصبّ الشاي في الكؤوس).

المختار : هذا التمدّن جعلنا مسخرة. ما حدث في المخزن فضيحة معيبة.

محمّد : التمدّن له أهله يا مختار.

المختار : ويحتاج إلى تدريب وتدرّج.

أديب : ما زلنا في البداية، ومن الطبيعي أن تحدث مشكلات ومفارقات. لولا المختار لكان ضرغام قتل زوجته.

المختار : ولا أدري كيف أنقذناها! امرأة غشيمة وعنيدة. بقيت تصرّ على الغسّالة، حتى وهو يضع السكّين على عنقها.

محمّد : وهل أقنعتها بالتخلّي عن الغسّالة؟

المختار : لا توجد قوّة في الدنيا يمكن أن تقنعها بالتخلّي عن الغسّالة. وليس أمام ضرغام إلاّ أن يقتلها، أو يرضخ لها، ويلبّي طلبها.

محمّد : وأنت يا مختار ألم تشترِ غسّالة؟

المختار : نعم يا سيّدي.. اشتريت.

محمّد : عال.. هذا يجعل أم أحمد تتفرّغ لك.

المختار : نحن أكلتنا الأيام، وماعاد لنا غرض، سواء كانت فاضية أم مشغولة. الوقت الآن للشباب، وهذا أوانهم كي يفرحوا، ويبنوا أعشاشهم. واليوم جئناك يا ابن القاسم طالبين، فلا تردّنا خائبين.

محمّد : خيراً إن شاء الله.

المختار : لاشيء إلاّ الخير بإذنه تعالى.. هذا الشاب كلّفني أن أنوب عن أبيه، وأن أطلب ابنتك المحروسة له.

محمّد : ماذا قلت؟!

أديب : وأنا يا عم مستعدّ لكل ما تطلب من مهر ومسكن وأثاث.

المختار : وكلّنا نعرف.. أديب شابّ ذكيّ وطموح، بنى نفسه وثروته في زمنٍ قصير، حتى غدا بين الشباب رمزاً للنجاح.

محمّد : لا يهمني ماذا بنى، وماذا جمع. ألا تدرك يا مختار من نحن ومن هم!

المختار : كرم أصلك، وشرف عائلتك، لا يُعلى عليهما يا سيد محمّد، ولكن كما ترى الزمن يتغيّر، والرجل يقاس بعمله وكسبه.. وأنا أعتقد أن نجاح أديب ومستقبله يعوّضان عن فقر عائلته، وتواضع نسبه.

أديب : ولا تنسَ يا عم، أننا جميعاً عند الله، أبناء تسعة.

محمّد : أتريد أن تعلّمنا.. نعم كل الناس أبناء تسعة. ولكن هذا لايضع الأمراء والرعاع في مقام واحد. وأنت يا مختار، ماكان الأمل فيك أن تسانده في وقاحته وتجاوز حدّه.

(ينتفض أديب ويحاول أن يتكلّم، فيشير إليه المختار بالسكوت).

المختار : لو لم أكن متأكداً أنه مقتدر، وأنه سيوفّر لابنتك حياة منعّمة، لاتختلف عن حياتها في بيتك، لما رافقته، وساندته في مسعاه.

محمّد : لو صار ماله يكال بالقنطار، لما نسي الناس أن جدّه كان راعياً لماشيتنا، وأن أباه اشتغل ناطوراً لمزارعنا.

المختار : وهذا ما يجعلني أقدّره، وأعجب به. وُلِدَ في عائلة معدومة، ومع هذا استطاع بذكائه وحده أن يكون موظّفاً في الدولة، وأن يبني ثروته في فترة قصيرة.

محمّد : فلقتني بالحديث عن هذه الثروة. اشتغل خادماً وسمساراً عند ابن الغاوي، وجمع قرشين. فهل يكفي هذا، كي يُعدَّ بين

الأغنياء والوجهاء؟!

أديب : تركنا الوجاهة لك يا عمّ، ولكن ما تعرفه عني يحتاج إلى تصحيح. ما كنت ولن أكون في يومٍ من الأيام خادماً عند ابن الغاوي أو سواه. إني أدير أعمالاً في مشروعات عبّود الغاوي، مستفيداً من خبرتي وعلاقاتي الرسميّة.. وعمّا قريب سأستقل وأدير أعمالي لحسابي.

محمّد : لا يهمّني ماكنت، أو ما ستكون.. كل ما لديّ هو عبارة قاطعة وصريحة.. ليس لكَ عندنا نصيب.

المختار : تمهّل يا ابن القاسم، ولا تسرعِ بالجواب.

محمّد : ولِمَ التمهّل! ينبغي أن تدور الأرض، أو تتوقّف الشمس في سمتها، قبل أن يوافق ابن القاسم على مصاهرة ابن الناطور.

أديب : **(ينفجر مقهقهاً)** أتعلم يا عم.. إن الأرض تدور فعلاً، وإن الشمس ساكنة في سمتها.

محمّد : أتهزأ بي في بيتي؟

أديب : معاذ الله.. **(ينهض)** هيّا يا مختار.. وأنت يا عم.. أعتقد أنّك ستندم على رفضك.

محمّد : ماذا تعني! هل تهدّدني؟

أديب : ومن أنا حتى أهدّد السيّد محمّد القاسم! لكن أعتقد أنك ضيّعت على ابنتك فرصة ستندم عليها.

محمّد : **(محتقن الوجه)** تيسّر يا ولدي.. تيسّر فأنا لا أحتمل التبجُّح والوقاحة.

أديب : **(وهو يتنحّى كي يتقدّمه المختار)** هيا يا مختار فالبيت يطردنا.

محمّد : أنت تعرف يا مختار قدرك عندي.. وأرجو ألا يكون ما حدث سبباً للجفاء بيننا.

المختار : **(متمتماً وهو يخرج)** إن شاء الله لا يكون...

(تتلاشى الإضاءة..)

مشهد ٥

(على سطح بيت ياسين، فضّة، رباب، إنهما يتابعان افتتاح المجمّع السياحي من على سطح البيت).

رباب : أمي.. أمي.. انظري.. هذا رتلٌ جديد من السيارات! إنها سيارات فاخرة جداً. لا شك أنها تحمل وزراء ومسؤولين كباراً. أتحزرين كم سيارة جاءت حتى الآن!

فضّة : في البداية حاولت أن أعدّها وصلت حتى ٦٧ ، ثم تهت وتوقّفت.

رباب : لاحظي كيف يدور الحرّاس، ويفتحون الأبواب الخلفيّة. لا أستطيع أن أميّز وجوههم. واحد فقط يرتدي ثياباً عسكريّة، والباقي كلّهم يرتدون ثياباً مدنيّة، ومعهم.. أترين الشعاع الذي انبعث من صدر السيّدة.. إن الأضواء تنعكس على الحلي التي تثقل صدورهنّ وسواعدهن. وماذا يلبسن، لاشك أنها ثياب غالية جدّاً.

فضّة : نعم يا ابنتي.. هناك من يلبس ويتنعّم وتتساقط عليه الفلوس، كأنها المطر، وهناك من يتفرّج على هؤلاء ويتحسّر.

رباب : أتشعرين بالحسرة يا أمي؟

فضّة : ماذا أقول يا ابنتي.. أفنيت عمري في التحسّر ولكن ذات يوم.. **(تتوقّف).**

رباب : ذات يوم.. لماذا لاتتابعين؟!

فضّة : مالَنا وهذا والحديث الآن.. دعينا نتفرّج. هذه السيارة التي وصلت، أليست واحدة من سيّارات الغاوي؟

رباب : نعم.. أظن نعم.. واحدة من سياراته. هل ترين من ينزل منها؟

فضّة : ماشاء الله الخادم الأحدب يفتح الباب، والسيدتان زهيّة وكريمة تترجّلان من السيارة!

رباب : يبدو أنه سيعيدهما إلى ذمّته!

فضّة : لا تصدّقي هذا الكلام.. أخته قالت لي.. أخي لا ينظر إلى الوراء. وإذا رمى شيئاً لا يلتقطه أبداً.

رباب : منذ فترة وخادمه يلازمهما، وها هو يدعوهما إلى حفل الافتتاح، الذي لن يحضره أحد من الضيعة سوى أبي.

فضّة : لعلّه سيعطيهما عملاً في المشروع. أما أن يردّهما إلى عصمته فهذا مستحيل.

رباب : ترى.. ماذا يحسّ أبي الآن وحوله أهمّ رجالات البلد؟!

فضّة : نعم.. لاشكّ أنه الآن يسبح في السماء. وأنا حتى الآن لا أعرف ما الذي ألفّ وجمع بين الرجلين؟!

رباب : أنت تعلمين رقة أبي وضعفه أمام الذين يقدّرون فنّه. والرجل أطراه كثيراً، ووعده أن يسجل أغانيه على أشرطة.

فضّة : وما أدراني.. هناك ما هو غريب. كان أبوك لا يطيق سيرته، ثم أصبح لا يطيق مفارقته. **(بانخطاف مفاجئ)** يا الله.!

رباب : أترين! غدا البناء كأنه سفينة من الضوء تسبح في عتمة الليل. **(تنفجر في الجوّ أسهم نارية)**

فضّة : **(خائفة)** ما هذا؟!

رباب : **(ضاحكة وهي تربّت على كتف أمها)** لاتخافي، لا تخافي. هذه أسهم نارية.

أصوات : **(تتناهى من أسطحة متعدّدة)** سبحان الذي جعل الليل نهاراً!

ـ هذه ليلة الغاوي، وعرسه الأكبر.
ـ انظر.. إنها حزمة جديدة.
ـ هناك نجوم تتساقط.. إنها تتحول إلى خيمة.. إنها تغدو مظلّة.. يا سبحان الله! يا سبحان الله. ابن آدم جبّار.. لم يصعب عليه شيء إلا صنع الأرواح.
ـ هذه فرجة لا يراها المرء إلا في العواصم!
ـ أترين يا فضّة ألوانها، والأشكال التي تتّخذها بعد أن تنفجر؟

فضّة : شيء عجيب!
ـ هذه المرّة جاءنا ابن الغاوي بأعاجيب كثيرة.

فضّة : وكلها أعاجيبِ تخطف الأبصار والعقول.
(تنطلق من المكبرات موسيقا إيقاعية وصاخبة).

رباب : بدأ الافتتاح العظيم. آه.. ما أجمل ذلك! السيّارات وأناقة المدعوّين وسفينة الضوء والموسيقى.. ما أجمل هذا العالم!.

فضّة : **(وهي تغصّ بالبكاء)** نعم يا ابنتي.. ما أجمل هذا العالم!.
(تنفجر في بكاء حارق تقطعه الشهقات)

رباب : **(وهي تحضن أمها)** أمي.. لماذا تبكين؟

فضّة : إنه انفعال عابر وسيمرّ.

رباب : ماذا تخفين يا أمي؟ منذ قليل كنت تتابعين الأسهم الناريّة بعجب وسرور؟!

فضّة : **(تطوّق ابنتها بدورها)** لاتشغلي بالك. تذكّرت أخويك، والبكاء يفرّج عني.

رباب : أخواي بخير.. وبكاؤك له سبب آخر.

فضّة : لاشيء.. لاشيء يا رباب. فجأة داهمتني رغبة في البكاء وبكيت.
(توقّف الموسيقى. وبعد صمت قصير تتاهى من المكّبرات

نغمات تجريبية على الربابة، وحين يستقيم اللحن يتناهى صوت ياسين يشوبه في البداية ارتعاش، ثم يجرّد الصوت بعد قليل قوياً ومتماسكاً).

رباب : **(تقفز وتصيح)** هذا أبي.. هذا أبي.

فضّة : **(وهي تمسح دموعها)** نعم إنه أبوك.

ياسين : **(يتموّج الصوت عبر المكبرات)** هالبلد نافح بالذكا ترابها
والكرم فيها نبوع وسواقي
ولضيوفها مفتّحة بوابها
وبكل بيت ضيوف بتلاقي
بوجه زوارها تزهر عشابها
والجوز بيوشوش الدراقي

رباب : **(تصفيق حار). (وهي تصفّق)** أتسمعين التصفيق! آه لو كنت معه الآن..

فضّة : **(وهي تنهض)** ومن يقبل أن تكوني معه؟!

رباب : إني أتمنى فقط.. هل تنزلين إلى البيت؟

فضّة : نعم.. أشعر بالنعاس.. إبقي أنتِ إذا شئت.

رباب : يا الله! كم تبدو مقهورة!

(صوت الربابة يصاحبه صوت أورغ خافت).

ياسين : قومي نخلي عمرنا غناني بنات
بكرا وطار العمر كلها عنعنات

(يعلو صوت الأورغ تدريجياً وكأنه يشاغب على صوت الربابة).

رغيف خبز ومجوز وشقفة حصير
وطاقة قمر بيكوخ شي راعي فقير

(يخفي صوت الأورغ أنّات الربابة بصورة متعمّدة)

وشفتي عَ شفتك هيدي الحياة

ولزّتا

(تنضم إلى الأورغ بقيّة آلات الأوركسترا الهجينة، وتنفجر موسيقى مزعجة من تلك التي تصاحب عادة الأغاني الشائعة التي تنطوي على إيقاعات راقصة).

رباب : ماذا يحدث؟ لماذا قاطعوه! لم أميّز البيت الأخير إلا بصعوبة. يا رب.. أتضرّع إليك أن تكذب خواطري، وأن تجنّبه الإهانة.

(ترفع وجهها ويديها نحو السماء.. وتتلاشى الإضاءة).

مشهد ٦

(مصطبة أمام بيت أمين التبّان. على حصيرة ممدودة تجلس مريم الزرقاء مستندة إلى الحائط وإلى جوارها بسّام الراضي).

الزرقاء : أنت ابن حلال يا بسّام، حتى الأقارب لم يقفوا معنا في هذه المصيبة كما وقفت معنا.

بسّام : ولو يا خالتي.. الناس لبعضها، ونحن أهل.

الزرقاء : لكن القلوب فسدت، وانعدم التآزر بين الناس.

صوت امرأة : **(من داخل البيت)** أمي..

الزرقاء : **(وهي تنهض، وتدخل البيت)** ماذا هناك؟ لماذا لا تأتين؟!

صوت امرأة : إني أرضع الصغير.

(بعد قليل تخرج وهي تحمل بيد صينية الشاي، وباليد الأخرى تجر ولداً في السادسة من عمره. تضع الشاي على الحصير وتلتفت إلى الصغير).

الزرقاء : **(للولد)** اسمع.. أنت الآن رجل البيت. ومن العار أن يبكي الرجل، أو يعذّب أمّه. منذ الصباح وأنت تنغر.. ماذا تريد؟

الولد : أريد أن أشتري كولا.

الزرقاء : وما هذا الزفت؟!

الولد : كل الأولاد يشربونه ويحبّونه.

الزرقاء : **(تتناول ورقة مالية من عبّها وتعطيها للصغير)** خذ.. لن أحرمك من تذوّقها. اشتر واحدة، وعد إلى البيت فوراً

(يخرج الولد راكضاً ومسروراً) هل تعرف هذه المشروبات يا بسّام؟

بسّام : أعرفها يا خالة، ولكن لا أتعاطاها. كل هذه المأكولات والمشروبات التي يتهافت عليها الناس مملوءة بالسموم والمواد الضارّة. أحياناً لا أكاد أستوعب التغيّرات التي توالت على حياتنا في السنوات الأخيرة. ألن تقولي لي يا خالة ماذا أبصرت؟

الزرقاء : آه يا ولدي.. ليتني فقدت بصري قبل أن أبصر. أبصرت ابني يقتل ابني، وأنا مشلولة، لا أستطيع أن أتدخّل أو أتحرّك.. وأبصرت.. هل تريد حقاً أن تعرف ماذا أبصرت؟

بسّام : نعم يا خالتي..أريد أن أعرف، لأن قلبي مليء بالتوجسّات.

الزرقاء : يا ولدي.. ستزيدك المعرفة توجّساً، وسيتضاعف عذابك كلّما اكتشفت أنّك أضعف من أن تغيّر مسار الأشياء.

بسّام : ومع هذا أريد أن أعرف.

الزرقاء : المعرفة.. المعرفة.. أحياناً تكون الفطنة أن يتجنّب المرء المعرفة **(تبدو عيناها نفّاذتين وغائبتين، كأنها انفصلت عمّا حولها، وغاصت في أفق بعيد)** أشعر رعدة في ظهري، كأنها بداية برداء تعقبها الحمّى. ليتني لا أعرف ولا أرى. لا أدري متى تمّ ذلك، ولكن أعلم أن قرينه الشيطان، وأن بينهما اتفاقاً وميثاقاً. أنظر وأنظر.. تتعدّد أمامي الرؤى، وتتداخل الأشكال والهيئات، ولا أستطيع أن أبصر القرين بوضوح، لكني أبصر حركاته، وألمح شيئاً من خططه وآثاره. ستخيّم على القرية غواية لاتقاوَم. أبصر الناس وكأنهم سُكارى، فقدوا البصائر والضمائر. مقاماتٌ تنهار، وأعراضٌ تباع. **(تغمض عينيها)** آه.. أبصر ما هو أرهب! أرى أشجاراً تخلع خضرتها، تتفحّم. أرى ثعباناً يتقيّأ فئراناً. أرى مطراً من الأشياء الملونة

والنفايات. والناس مسعورةً، تتناهب الأشياء والنفايات. تلتهم الأشياء والنفايات، تصير أشياءً ونفايات. آه.. ما أبصره يجعل أسناني تصطك.

بسّام : هدئّي من روعك يا خالة!

الزرقاء : ليتني لا أبصر. ليتني كنت قطرة ماء تحملها الأنهار إلى أعماق البحار، فأستقر هناك بعيداً عن عذابات الناس وعماها.

بسّام : أتكون أيامنا المقبلة مظلمة إلى هذا الحدّ؟

الزرقاء : وربما فاتتني علاماتٌ لم أبصرها.

بسّام : أعيتني هذه الرؤى وملأت قلبي غمّاً.

الزرقاء : أما حذّرتك؟

بسّام : ولماذا تعتقدين أننا لا نستطيع تغيير مسار الأشياء؟

الزرقاء : لأني عانيت ذلك. سأخبرك أمراً لايعرفه أحد حين أبصرت ابني يقتل ابني، ولم أستطع أن أتدخّل أو أتحرّك **(تزداد رعشتها، وتعجز عن السيطرة على أسنانها تصطك)** عن إذنك لحظة..

(تدخل إلى البيت تغيب فترة قصيرة، ثم تخرج وهي تلفّ جذعها ببطانية عتيقة).

بسّام : أعذريني.. لم أكن أعلم أن الإبصار يرهقك إلى هذا الحدّ.

الزرقاء : تلك نقمة ليتني لم أستعدها. **(لحظة)** إيه.. على أيامنا كانت الحياة أسهل. صحيح أننا كنّا نشقى في الأرض على مدار الفصول الأربعة، كي نؤمّن لقمة العيش، ونربّي أطفالنا. ولكن كانت الهموم بسيطة، والحاجات قليلة. ورغم الفقر والتعب كنا نشعر بالاطمئنان، والأيام تجري بيسر وأمان.

بسّام : لا يا خالة.. لن أترحّم على تلك الأيام. كان الفقر كافراً. ذات شتاء، وكنت صغيراً، لم نذق خلال شهرين متواليين

سوى الأعشاب المطبوخة بقليل من الزيت.

الزرقاء : وأنا لن أهلّل لهذه الأيام، التي يقتل فيها الأخ أخاه.

بسّام : معك حق.. لا هذه تستحقّ التهليل، ولا تلك تستدعي الترحّم. ولو توفّر لنا الوعي والإرادة، لوجدنا الطريق الصحيح، الذي يخلصّنا من الفقر، ويوفّر لنا التقدّم والكرامة.

الزرقاء : وهل يوجد طريق كهذا؟

بسّام : كيف أشرح لك يا خالة؟ من المؤكد أنه موجود، وأنه ممكن أيضاً.

الزرقاء : لا شك أنك تفهم أكثر مني. ولكن ما نحن فيه يجعلني أحنّ إلى الأيام القديمة.

بسّام : أما أنا فلا أستطيع أن أحنّ إليها، ولا أستطيع أن ألومك أيضاً. أخبريني.. أما زلت مصمّمة على بيع الأرض؟

الزرقاء : تلك أفحش سخريّة تتعرض لها الزرقاء. قُتِل ابن وسُجِنَ الابن الآخر كي لا تباع الأرض.. وها هي تجد نفسها مضطرة لبيع الأرض، كي تربّي عائلة القتيل، وتفكّ ضائقة السجين.

(يدخل الولد وهو يحمل علبة من الصفيح فيها مياه غازيّة).

الولد : جدّتي.. جدّتي.. إنها طيّبة جداً.

الزرقاء : أهي أطيب من الشاي يا ولد؟

الولد : لا أريد الشاي بعد اليوم.

الزرقاء : أين الباقي؟

الولد : لم يعطني شيئاً.

الزرقاء : لاشكّ أنهم سرقوه.

بسّام : **(وهو ينهض)** لا.. هذا هو سعرها.

الزرقاء : إنه فاحش.

بسّام : **(وهو يخرج)** هذه أسعار الشيطان يا خالة.

الزرقاء : فعلاً.. هذا شراب الشيطان، وهذه أسعاره.. مع السلامة.
الولد : هل تذوقين بلعة صغيرة؟
الزرقاء : هات، ولا تقل لأحد. (**يناولها العلبة، ترفعها إلى فمها. تتردّد لحظة ثم تعيدها له**) خذ لا أريد.
الولد : (**وهو يدخل إلى البيت**) كما تشائين. سأعطي بلعة لأمي.
(**تبقى الزرقاء وحيدة.. تسرح بصرها بعيداً.. ثم تتلاشى الإضاءة ببطء..**)

مشهد ٧

(منبر الجامع الذي يُدشّن بعد اكتمال بنائه. الشّيخ عبّاس يقف على المنبر خطيباً، وفي الصفوف الأولى نلحظ عبّود الغاوي ومحمّد القاسم والمختار ووجهاء الضيعة).

الشّيخ عبّاس : الحمد لله الذي لاتفرغ خزائن رحمته، ولا تجفّ ينابيع فضله، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمّداً رسول الله، أندى الناس كفاً، وأوسعهم براً. أما بعد.. فإن الإسلام دين يقوم على العطاء والإنفاق، ويضيق على الشحّ والإمساك. ولذلك حبّب إلى بنيه أن تكون نفوسهم سخيّة، وأكفّهم ندية. ونحن اليوم نجتمع للصلاة في مسجد، ماكان ليبنى ويزخرف على هذا النحو البديع، لولا سخاء رجلين من أبناء هذه القرية. كلاهما غيور على دينه، كريم على أهله، كفّه مبسوطة للخير والعطاء. والرجلان هما عبّود الغاوي الذي قدّم المال بلا حساب لعمارة المسجد وزخرفته. والثاني محمّد القاسم الذي وهب الأرض لبناء الجامع ومرافقه. وإننا ندعو الله أن يبارك هذين الرجلين، وأن يزيدهما مالاً ورزقاً. أيها الأخوة.. أنتم تعرفون أن الله أكرمنا بعودة ابننا عبّود الغاوي، الذي بدّل خمول هذه الضيعة نشاطاً وحيوية، وأوجد مشاريع عادت على الناس بنفع عميق. وفي المستقبل سيتضاعف النفع بإذن الله، ويزيد. ونحن نعلم أن أموالاً

كثيرة تجري اليوم في أيدي الناس، هذا أمر ينبغي ألا نخجل منه، أو نخفيه، لأن الإسلام جعل الغنى نعمة يمتنّ الله بها، ويطالب بشكرها. ويجعل الفقر مصيبة يستعاذ بالله منها. ولهذا لا جناح علينا إن استكثرنا مالنا وزدناه. ولقد سمعت من ينصح الناس ويحضّهم على حفظ أموالهم بالبنوك، ولكن فات هؤلاء الناصحين أن الفوائد التي تعطيها البنوك هي نوع من الربا الذي حرّمه الإسلام، ونهى عنه. قال تعالى ﴿وأحل الله البيع وحرّم الرّبا﴾ وهذا يعني أن من يضع ماله في هذه البنوك الربوية، يخالف الدين ويقترف ما حرّمه الله. ولهذا أوجد المحسن الشهم عبّود الغاوي حلاً يتّفق مع الدين الحنيف، ويسمح لكم بمضاعفة المال والتنعّم بالأرباح. إنه يقترح أن تضعوا أموالكم لديه كي يشغّلها لكم في التجارة الحلال. وفي نهاية كل شهر يوزّع عليكم ما تدرّه التجارة من أرباح مع بقاء رأس المال محفوظاً بالتمام. وإذا كان ابننا عبّود الغاوي، ورغم مشاغله الكثيرة، يتحمّل من أجلكم هذا العبء، فلأنه هذه المرّة قد جاء كي يصل الرَّحم، ويغدق على القرية خيراً ويسراً.

اللهم وفّق ابن الغاوي كما يريد توفيقنا، وضاعف أمواله كما يريد أن يضاعف مالنا. اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، واجعل الموت راحةً لنا من كل شر.. آمين..

(وتتلاشى الإضاءة).

الفصل الرابع

مالا عين رأت.. ولا أذن سمعت

مشهد ١

(بيت المختار، المختار، أديب)

أديب : **(يخرج من جيبه مغلّفاً محشوّاً بالأوراق النقديّة، ويقدّمه للمختار)** تفضّل يا مختار.

المختار : **(وهو يتناول المغلّف)** ما هذا؟ **(يفتح المغلّف وينظر إلى الأوراق النقديّة)** لمن هذا المال؟

أديب : لكَ.. إنّه تعويض رمزيّ كان يتمنّى عبّود الغاوي لولا مشاغله الكثيرة، أن يأتي ويقدّمه بنفسه.

المختار : **(حائراً)** ولِمَ التّعويض! إنّي لا أفهم شيئاً.

أديب : علمَ الغاوي أنّك شجّعت النّاس على إيداع أموالهم لديه، فأحبّ أن يكافئ ثقتك وجهدك.

المختار : أيّ جهد! دائماً يأتي النّاس ويسألونني رأيي فيما يعرض لهم من شؤون. ربّما لأنّي المختار، أو لأنّي كبير في السنّ. إنّي أقدّم لهم رأيي ونصيحتي لا أكثر.

أديب : في هذا الزمن، زمن عبّود الغاوي، الرّأي والنصيحة لهما ثمن كأيّ عمل آخر، بل وأغلى من أيّ عمل آخر. أتعلم.. إنّه يدفع لي ثمن كلّ اقتراحٍ أقدّمه له، إذا وجد في الاقتراح فائدة لمشاريعه؟

المختار : كلّ ما قدّمته هو شيء من الكلام. والنّاس منذ أجداد أجدادنا يتبادلون النصح والرّأي بلا مقابل.

أديب : أمّا اليوم، فقد صار للنصيحة والرأي مقابل. تصوّر أنّي قدّمت لك نصيحة جعلتك تكسب مائة ألف ليرة، أفلا يقضي العدل أن يكون لي نصيب من هذا الرّبح؟

المختار : تعوّدنا أن نشكر، وأن نقدّم حلاوة.

أديب : طيّب.. على جاري عاداتكم، اعتبر هذا المبلغ حلاوة، ولا تنسَ يا مختار أنّ الحلاوة في هذا الزمن الجديد غدت ثمناً وحقّاً.

المختار : **(متردّداً)** يعني.. هل تقترح عليّ أن أقبله؟

أديب : هو حقّك فلماذا لاتقبله؟

المختار : وإذا علم النّاس؟

أديب : وماذا يهمّ.. يجب أن يدرك الجميع أنّ الموازين تغيّرت، وأنّ الزّمن الذي دخلناه، يعتبر الأفكار والنصائح والاقتراحات سلعاً تباع وتشترى، ولها أسعار. خذ مثلاً.. البارحة اقترحت عليه أن ينشئ فرقة للرّقص الشّعبي، قد تكون فرجة طريفة بالنّسبة للأجانب. فتحمّس كثيراً وقال لي: «هذا اقتراح يستحقّ مكافأة مجزية. دع الوساوس وضعها في جيبك».

(يضع المختار المغلف في جيبه).

أصوات : **(تتناهى من الخارج.. أصوات أولاد يردّدون كلمات دعاية تلفزيونية)**

«ولك مرتي.. مرتي عم تسأل جارتها
عن شيء.. عن شيء ينظّف جلياتها
ولَك عن شيء.. عن شيء يطرّي الأيدين
ويلمّع صحونها وكاساتها..».

المختار : تفضّل يا سيدي.. ماعاد في أفواه الصّغار والكبار إلاّ أغاني الدّعايات.

أديب : نعم.. والنّاس تشتري أجهزة وبضائع لم تكن تحلم بها.

المختار : لا ريب أنّ هناك أجهزة فيها منفعة وراحة. ولكن لست متأكّداً أنّها ضروريّة. إذا كان أهل البيت لن يغسلوا، ولن يفرموا البصل، ولن يقطفوا الخضار، فماذا سيفعلون؟

أديب : سيرتاحون أخيراً، ويعرفون طعم الرفاهية.

المختار : ومن أين نأتي بالمال؟ الآن بعنا أراضينا فماذا نبيع في المرّة القادمة؟ وكثرة البضائع تولّد الحاجة لدى الإنسان، حتّى ولو لم يكن محتاجاً. ولذا ترى الجميع يدورون ويدورون، يشترون ولا يكتفون. عيونهم فارغة، وعقولهم مبلبلة. لا أدري.. أنا أتكلّم على قدّ فهمي، وأخشى ألاّ نعرف راحة البال بعد اليوم.

أديب : لا تتعجّل الحكم يا مختار. كم مرّة تحاورنا حول ما يجري! نعم إنّ وفرة البضائع ستخلق لدى النّاس حاجات جديدة. ولكن ستخلق لديهم أيضاً الدّافع للعمل، والكسب، حتّى يلبّوا هذه الحاجات.

المختار : وأين سيعملون؟

أديب : ستوجد فرص عمل كثيرة. المجمّع وحده يحتاج إلى عدد كبيرة من الشّباب والبنات. وكلّما ازدهرت الأحوال، زادت فرص العمل، إنّ حركة السّوق وقوانينه هي التي تصنع التقدّم. وعبّود الغاوي مصرّ على أن يجعل البلد واحداً من أحدث الأسواق في العالم. لو ترى المجمّع وما فيه! **(يضر بيده على جبينه)** ماذا دهاني! سيأتيني الخرف مبكراً.. يتشرّف السيّد عبّود الغاوي بدعوة وجهاء الضيعة، مختارها والشّيخ عبّاس وعبد الرّحمن الدّرويش وحبيبنا وعمّنا محمّد القاسم لقضاء سهرة في المجمّع. وبالمناسبة كيف صارت علاقتك بعمنا محمّد القاسم؟

المختار : اعتذر عن خشونته، وتصافينا. وأنت؟ ألم تنزع الفتاة من فكرك؟

أديب : أنزعها! عاهدت نفسي يا مختار ألاّ أفكّ عزوبيّتي إلا معها وعلى زندها.

المختار : ماذا تأمل بعد ذلك الرّفض وتلك الإهانة؟

أديب : سأخبرك حين تنضج الحكاية.

المختار : إياك أن تتهوّر!

أديب : لاتخف عليّ.. أرجو فقط أن تبلغ عمّي محمّد القاسم دعوة السيّد عبّود الغاوي.

المختار : أخشى أن يرفض الدّعوة.

أديب : من هذه النّاحية.. اطمئنّ، سيكون أسرع منكم في تلبيتها.

المختار : لماذا تبدو واثقاً إلى هذا الحدّ؟

أديب : لأني أعرف أشياء صغيرة.

المختار : ماذا تعرف؟

أديب : **(وهو ينهض)** كل شيء في أوانه يا مختار.

أصوات : **(تأتي من الخارج. الأولاد يردّدون كلمات الدعاية التلفزيونية، فيما يخرج أديب)**

«ولا تحطّي إيدك ع خدّك
أوريس غسيلك بييّض
صح.. صح
عيون النّاس.. عيون النّاس
بس تتطلّع ع غسيلك بسرعة
صح.. صح..»

المختار : هذا الشّاب، في إهابه جنيٌ أو شيطان، وأحيان أشعر أنّ الضيعة كلّها مسكونة بالجنّ والعفاريت. يا ربّ.. تلطّف بنا،

ولا تجعلنا كتلك القرية التي أمرت مترفيها أن يفسدوا فيها،
حتّى حقَّت عليها اللّعنة.
(يخرج المغلّف من جيبه، ويبدأ بعدّ النقود.. تتلاشى الإضاءة).

مشهد ٢

(أمام مكتب عبّود الغاوي في المجمّع. يجلس ياسين على الأرض مستنداً إلى الحائط، وكأنّه ينتظر فرصة كي يلتقي بالغاوي. عيناه حمراوان، وهيئته توحي بالتداعي).

ياسين : **(يدندن بصوت خافت)**

أعمى وتاه بهالدني، مالو رفيق وتوّه معو قلبي
فلتت عصاتو العمتدلو عَ الطريق ودّعفر بدربو

(يمطّ الكلام قليلاً بسبب السكر) آه.. تعثّرت ووقعت. لا.. مستحيل.. أنا ربّ القوافي.. أنا الذّهب العتيق. هل يعقل أن يخطف الضّوءَ عنّي صِبيةٌ مخنثّون، يغنّون كأنّهم يموؤون أو يشخرون؟ أهذا شعر! أهذا قصيد! وكيف يطرب النّاس له! إيه.. دعك من المكابرة يا ياسين. دارت الأيّام.. دارت.. دارت.. حشرتك في طيّة من طيّاتها.. ورمتك خلفها. كان يريد أن يسجّل أشرطة، وأن يحقّق لي شهرة وثروة، ولكن ها هو يتحاشاني، ويتعمّد ألاّ يراني حين أصادفه. ما الذي جرى! لعن الله ليلة الافتتاح.. في تلك الليلة حدث شيء غريب لم يفسّره أحد. **(يخرج من جيبه الدّاخلي زجاجة عرق ويكرع منها جرعات.. يأتي الخادم).** أنت.. يا الله، ما أشدّ حاجتي إليك. **(يحاول أن ينهض لملاقاة الخادم، إلاّ أن ساقيه تخذلانه فيتزحلق، ويستقرّ**

جالساً على الأرض).

الخادم : لماذا تحتاجني؟ أنت تعرف أنّ ديونك بالآلاف، ولا أدري كيف ستسدّدها!

ياسين : أعرف أنّي مديون. وأنّي اقترضت على الوعود التي منّاني بها السيّد عبّود الغاوي. ولكن ليس هذا هو الموضوع.

الخادم : ما الموضوع إذاً؟

ياسين : قُل لي ماذا حدث ليلة الافتتاح؟!

الخادم : أحقاً تريد أن تعرف؟

ياسين : نعم.. أريد أن أعرف. قُل الحقيقة حتّى ولو كانت ذابحة.

الخادم : في ليلة الافتتاح يا ياسين، ضحك المدعوون حين غنّيت، وتبادلوا تعليقات ساخرة.

ياسين : **(مبهوتاً)** ضحكوا.. ولماذا ضحكوا؟

الخادم : لأنّك بدوت، وكأنّك تأتي من ماضٍ بعيد.. من زمن نسوه، ولا يريدون أن يتذكّروه.

ياسين : هل تغيّر الزمن إلى هذا الحدّ! لم تمض سنوات.. هي سنوات فقط.

الخادم : السنّوات زمن طويل في عصر الأقمار الصناعيّة. ولّى زمنك يا ياسين.

ياسين : **(تفرط من عينيه دموع)** ما أفظع قسوتك! تغرز الخنجر في قلبي، وكأنّك تزفّ لي بشرى.

الخادم : ألم تطلب الحقيقة حتّى ولو كانت ذابحة؟!

ياسين : **(يضرب على رأسه)** أكان يكذب عليّ؟ أنا متأكّد أنّه لم يكن يكذب. اسمع.. إنّ السيّد عبّود الغاوي أحبّ غنائي، ووعدني أن يسجّله على أشرطة يسوّقها في المهجر وهنا.

الخادم : سأقول لك شيئاً عن سيّدي، لا يعرفه أحد سواي.. هو لا

يفهم شيئاً في الغناء، ولكن تصيبه بين فترة وأخرى نوبات من الحنين، تدفعه إلى محبّة كلّ ما يرتبط بالماضي، ولاسيّما أيّام طفولته.

ياسين : أتعني أنّه لايوجد أمل؟

الخادم : أنت في ورطة يا ياسين.

ياسين : وأيّ ورطة! أتدرك.. (**ينجح في النهوض. يحاول أن يمسك الخادم من ذراعه، فينفض الخادم ذراعه، ويبتعد خطوة أو خطوتين**) إذا تخلّيتم عنّي فإنّ ورطتي مهلكة. لا أقصد الديون فقط، وهي وحدها تقصم الظهر. ولكن ما هو أفدح منها أن تنهار تلك الأحلام، التي غذّيتها طوال هذه الفترة. أنجدني.. دائماً كنت أحسّ أنّك ابن حلال.. اقترح عليّ شيئاً.. سأغدو مسخرة أهلي وقريتي.. سأموت ذليلاً ومقهوراً.. بالله عليك لاتتخلّ عنّي.

الخادم : (**يتبدّى النّفور على سحنته**) إيّاك أن تحلّفني مرّة أخرى.

ياسين : لا أقصد أن ألزمك. إنّي أتوسّل إليك، وأرجوك.

الخادم : طيّب.. طيّب.. إيّاك أن تعيدها.

ياسين : لن أعيدها.. أتوسّل إليك أن تجد لي مخرجاً.

الخادم : لو كنت مكانك (**يتوقّف ويتظاهر بأنّه سيمضي**) ولكن ما دخلي أنا..؟

ياسين : (**يمسكه كالغريق**) لا.. ستقول لي. لو كنت مكاني ماذا تفعل؟

الخادم : إنك تنتظر من عبّود الغاوي الثّروة والشهرة، ولكن هل خطر لك في يوم من الأيّام، أن تقدّم شيئاً لعبّود الغاوي؟

ياسين : وهل ينقص عبّود الغاوي شيء! وأنا.. هل أملك شيئاً إلا حنجرتي وأشعاري؟

الخادم : أعطني أذنك يا ياسين.. وما سأقوله لك سرٌّ لن يعرفه سوانا.

أحوال سيّدي هذه الأيّام لا تعجبني. كنت أتوقّع أن يطفح سعادة وبشراً، ولكن توقعاتي خابت. منذ فترة لا أراه إلاّ وظلٌّ من الكآبة يغطّي وجهه، ونادراً ما أسمعه يضحك! إنّه حزين وينقصه شيء ما.

ياسين : هل تعرف ماذا ينقصه؟

الخادم : لم أفاتح سيّدي بالموضوع، وأعرف أنّه سيغضب لو سألته، إلاّ أنّي أخمّن تماماً ما الذي ينقصه. إنّه يشعر بالوحدة، ولعلّه يفكّر بأنّ الوقت قد حان كي يهدأ ويستقرّ. ما ينقصه عذراء يسكن إليها، ويستقرّ معها.

ياسين : إذا كانت تلك هي المشكلة، فهناك ألف من تتمنّاه.

الخادم : وهل أجهل ذلك! اسمع يا ياسين.. أتريد فعلاً أن تخرج من ورطتك؟

ياسين : نعم أريد أن أخرج من ورطتي..

الخادم : إذن.. تذكّر أنّك تملك أكثر من حنجرتك وقوافيك. في بيتك لؤلؤة لا يليق بها إلاّ سيّدي. وسيضحك لك الحظ، إن أعجبت سيّدي، وقرّر أن يسكن إليها، ويستقرّ معها.

ياسين : أتريدني أن أعرض ابنتي الغالية عليه؟

الخادم : ذلك هو مخرجك الوحيد، وتلك هي أيضاً فرصتك اليتيمة للشهرة والثروة.

ياسين : **(وكأنه يبكي)** إنها صغيرة.. إنّها طفلة.

الخادم : وسيّدي رغم عُمره، تتدفّق في عروقه حيويّة وطاقة يحسده عليهما الشّباب.

ياسين : ربّما.. ربّما.. لا أشك في ذلك. ولكن.. **(يتزحلق على طول الجدار ويجلس على الأرض)** ألا يوجد حلّ آخر؟

الخادم : كنت أتوقّع أن تشكرني يا ياسين، لا أن تساوم. انسَ ما دار بيننا، واعتبر أنّي لم أعرض عليك شيئاً. **(يتركه ويمضي)**.

ياسين : **(متوسّلاً ويحاول اللّحاق به زحفاً على الأرض)** أرجوك.. انتظر..

الخادم : **(وهو يبتعد)** عندما تصل إلى قرار، تعال واسأل عنّي.

(ياسين مبطوح على الأرض. يتناول جرعة كبيرة من الكحول.. تتلاشى الإضاءة).

مشهد ٣

(أرض فضاء فيها مصاطب حجريّة، بين المجمّع والقرية. المختار، ومحمّد القاسم، وعبد الرّحمن الدرويش، والشّيخ عبّاس، بعد سهرتهم في المجمّع. إنهم سكارى بدرجات متفاوتة.. كلماتهم وحركاتهم مشحونة بالتوتّر والانفعال والهياج).

المختار : بريق.. بريق يغشى الأبصار.

عبد الرّحمن : نعم.. كلّ شيء برّاق.. كلّ شيء يخطف الأبصار.

المختار : أضواء تتلألأ، كأنّها شموس تتفجّر.

عبد الرّحمن : وأضواء لطيفة، كأنّها أقمار ساهية.

الشّيخ عبّاس : وأضواء خافتة وحنون، تتساقط من عيون خفيّة، أو من مناخل عسليّة. لا أعرف كيف أصف.. لا نعرف كلمات تناسب ما رأيناه.

المختار : كيف نصف السحر والفتنة والرّخاء. كان المقعد رخيّاً، والنسمة التي تتماوج رخيّة، والنغمة التي تنفذ إلى القلب رخيّة.. وربّي هذا شيء لم أذقه في حياتي.

عبد الرّحمن : كيفما تحرّكنا، أو نظرنا، ثمّة ما يدهش ويخلب الألباب.

المختار : إنه حلم..

الشّيخ عبّاس : خلال خمسين سنة من الأحلام، لم أرَ حائطاً تتحرّك عليه أجساد سبحان الخالق. سبحانه حين أبدع، وحين كوّن.

محمّد : وتلك النافورة العجيبة. أرأيتم كيف يتشكّل ماؤها جسداً حيّاً

يتراقص، يميل، يغنج، وينثني!

عبد الرّحمن : رأينا ما لاعين رأت، وسمعنا ما لا أذن سمعت!

الشّيخ عبّاس : إي والله.. ما لاعين رأت، وما لا أذن سمعت!

المختار : (حالماً وشارداً) ما لاعين رأت، وما لا أذن سمعت!

الشّيخ عبّاس : لو أقام المرء فيه دهراً لما شبع، ولما قال اكتفيت.. لاسيّما إذا مسّته مع فتنة المكان فتنة الحبّ.

عبد الرّحمن : نعم هذا ما كنت أبحث عنه. ثمّة عطر. ثمّة نداء يترجرج عبر النغم والضوء وفورة الألوان. هناك ما يخفق حولك. هناك مايخفق فيك. إنّه الحبّ.. يملأ الفضاء يرتدي العطور والأنغام. يتسرّب عبر المرايا والنوافير. في ذلك المكان يستحيل أن ينجو المرء من الحبّ وأشواقه.

محمّد : كشفت دائي، ولمست مواضع وجعي يا عبد الرّحمن.

الشّيخ عبّاس : ودائي! لاتنسَ دوائي، أقصد دائي.. ماذا شربنا؟!

المختار : شرابٌ حلو وسلس، يدغدغ الحلق، وينشر دفئاً ودواراً ناعمين.. ناعمين.

محمّد : لا تذكروا النعومة والبضاضة أمام العاشقين.

الشّيخ عبّاس : كلّ كلمة أسمعها.. كلّ صورة أتذكّرها.. تقوّر جرحي، وتوجعني.

محمّد : وأنا! هل نسيت أنّي مثلك مجروح ونازف.

المختار : يبدو أنّ الشّيخ عبّاس ومحمّد القاسم يخفيان أسراراً دامية.

عبد الرّحمن : إنّه الحبّ يا مختار.. الحبّ الموجع الجميل، الذي يسخر من كلّ الاعتبارات..

محمّد : زادك الله فصاحة يا عبد الرّحمن. حقّاً هو الحبّ، الذي يسخر من كلّ الاعتبارات.. يا أوادم، ويا أفاضل الرّجال.. أنا محمّد القاسم، بقدري ومقامي وسنّي، تأكّدت الليلة أنّي أحبّ، وأنّ حياتي عدم إن لم أحصل على تلك التي أحبّ.

الشّيخ عبّاس : انتظر يا ابن القاسم، ولا تفرغ جعبتك كلّها. الصباح رباح.. وهناك من أبدى استعداده لحل مشكلتي ومشكلتك.

محمّد : من هو؟

الشّيخ عبّاس : دع هذه السيرة الآن.. ودعنا نتحدّث عن المكان. (يتجشّأ) ماذا أكلنا؟ من يعرف ماذا أكلنا؟

المختار : هل أكفر لو قلت إنّه بعض طعام الجنّة؟

الشّيخ عبّاس : لن تكفر حتّى لو قلت.. إنّ المكان كلّه، هو موضع من مواضع الجنّة.

عبد الرّحمن : يا جماعة.. أعتقد أنّ اللّياقة تقتضي أن نزور غداً عبّود الغاوي، وأن نشكره على دعوته.

الشّيخ عبّاس : وربّما يجب أن نشكر أيضاً خادمه، وأديب النّاطور، اللّذين لم يدّخرا جهداً من أجل إكرامنا والترحيب بنا.

المختار : وهذا واجب على كلّ حال. هل لاحظتم الحظوة التي يتمتع بها ابن النّاطور في المجمّع. والله كلّما مرّت الأيّام أزداد إعجاباً بهذا الشاب.

محمّد : ماذا تعني يا مختار؟

المختار : لا أعني إلاّ ما قلته..

محمّد : لا أعتقد أنّك تدقّ على وتر خفيّ لا أجهله.

المختار : وما هو هذا الوتر؟

محمّد : كأنك تريد أن تقول، ما كان يجب أن أرفضه حين طلب مصاهرتي.

الشّيخ عبّاس : وهل طلب مصاهرتك، ورفضت؟

محمّد : وهل كنت تريدني ألاّ أرفض؟

الشّيخ عبّاس : نعم كنت أريد ألاّ ترفض.. إنّ كلّ شيء بيده. الآن دارت لي.. قال لي لن تنالوا حتّى أنال.

محمّد : أتظنّ فعلاً أنّه قادر؟

الشّيخ عبّاس : نعم إنّه قادر.. وفي الواقع هو الذي يدير المكان وما فيه.

محمّد : وأنت يا مختار.. أتعتقد فعلاً أنّه يجب ألاّ أردّه خائباً؟

(هدير سيّارة يقترب من المكان)

المختار : سأكون صريحاً حتّى ولو حدث بيننا زعل. أعتقد أنّ أديب الناطور شابٌّ كفء لابنتك، ويليق زوجاً بها.

محمّد : طيّب.. أين يمكن أن نجد أديب النّاطور الآن؟

المختار : لاشكّ أنّه في المجمّع.. وعلى كلّ ليس هناك ما هو مستعجل.

(يتوقف هدير السيّارة، وبعد قليل يظهر أديب النذاطور مقترباً منهم).

محمّد : لا.. الليلة.. أريد أن أراه الليلة..

أديب : أما زال الأعمام هنا! أرجو ألاّ يكون هناك سوء. هل أصاب أحدكم مكروه؟

المختار : لا.. لاشيء.. أردنا بعد هذه السّهرة العجيبة، أن نتسامر، ونشمّ الهواء.

محمّد : فعلاً.. أذكر الدّيب وحضّر القضيب! تعال يا أديب.. واجهني..

أديب : **(يتقدّم منه ويواجهه بثبات)** ها أنذا أمامك يا عمّ.

محمّد : أما زلت تريد ابنتي زوجة لك؟

أديب : وسأظلّ أريدها حتّى الممات.

محمّد : إذن ضع يدك في يدي. **(يضع كلّ منهما يده في يد الآخر)** أتحمل يا مختار منديلاً؟

عبد الرّحمن : **(يخرج منديلاً من جيبه، يفتحه ويضعه فوق يديهما)** هو ذا المنديل..

محمّد : تعال يا شيخ! دعنا نقرأ الفاتحة. وسيكون المختار وعبد الرّحمن هما الشاهدان. انتظر يا شيخ، قل لي يا أديب، هل

كنّا نشازاً في المكان، أو هل بَدَوْنا مضحكين؟

أديب : معاذ الله يا عمّ.. وعندما يتكرّر تردّدكم على المكان، ستألفون كلّ شيء، وتحسّون أنّكم تسبحون في مائكم.

عبد الرّحمن : وتلك الطاولة المرقّمة والملوّنة، والتي تنتهي بتجويف مليء بالحفر، تدور فيه طابة صغيرة..

أديب : لاشكّ أنّك تتحدّث عن لعبة الروليت.

عبد الرّحمن : كان حولها حشد من النّاس.

أديب : إنها لعبة محبوبة جدّاً.

عبد الرّحمن : أحقّاً يمكن أن يجني منها المرء أرباحاً؟ ألا يوجد في اللّعبة غشّ؟

أديب : اللّعبة لا غشّ فيها. وإذا حالفك الحظّ يمكن أن تجني أرباحاً طائلة.

محمّد : أهذا أوان الأسئلة يا شيخ عبّاس.. دعنا نقرأ الفاتحة ونخلص.

(وهم يقرأون الفاتحة.. تتلاشى الإضاءة).

مشهد ٤

(في بيت ياسين. يبدو ياسين مرهقاً وزائغ العينين. تجلس فضّة بهدوء في ركنٍ مفروشٍ ومخصّص لها. لقد تحجّبت.. وهي ترتدي الآن ثياباً بيضاً لا يظهر منها إلاّ الوجه واليدان. يبدو على وجهها الذي شحب لونه نوعٍ من البلادة والرضا الحزين. رباب التي ازداد شبابها تفتّحاً وجمالها تألّقاً، تقضم أظافرها كطفلة مرتبكة وحائرة).

فضّة : ليتك يا رباب تكفّين عن قضم أضافرك. هذه عادة سيّئة يا ابنتي، ويقال إنّها تسبّب فقر الدّم.

رباب : **(تجفل من شرودها، وتضع يديها خلف ظهرها)** حاضر يا أمّي.

ياسين : **(متحاشياً أن تلتقي عيناه بعيني ابنته)** إنّي أنتظر جوابك يا رباب.

رباب : **(بصوتٍ منكسر)** لا أعرف ماذا أجيب يا أبي.. علمي أنّك رفضت من قبل، حتّى مجرّد طرح الفكرة.

ياسين : وكان ذلك حمقاً منّي. لم أكن أعرفه إلاّ من القيل والقال، ونمائم النّاس. أمّا الآن بعد أن عاشرته هذه المدّة كلّها، فإنّي واثق أنّي لا أرميك إلى المجهول، بل أرتّب لك مستقبلاً، يرفل بكلّ ما يتمنّاه الإنسان. المال والدلال والرفاهية.

رباب : هل وعدته يا أبي؟

ياسين : (مرتبكاً) وهل يمكن أن أَعِدَهُ، قبل أن أعرف رأيك؟

رباب : ألن تشعر بالضيق لو رفضت؟

ياسين : طبعاً لا أتمنى أن ترفضي مافيه مصلحتك، وأمّك تشاطرني الرّأي. لماذا لاتقولين شيئاً يا فضّة؟! أما كنت تجدين هذا الزواج نعمة لا تردّ؟

فضة : تلك أيام مضت..

ياسين : ما الذي مضى؟ ماعدنا نفهمك يا فضّة. ما الذي حدث؟ أنسيت اليوم البعيد حين فاتحتي بالأمر، ألم تكوني متلهّفة وراضية؟

فضّة : تلك الأيّام.. ليتك لاتذكّرني بها. آه حين كنت أرغب وأرغب.. حين كانت الرّغبات عناقيد من الأفاعي تتدلّى في داخلي، وتصبّ سُمّها في شراييني.. حين كان هذا البدن يعجّ بالرّغبات والشّهوات وفحيح الأفاعي. آه.. تلك الأيّام، حين كنت أشعر دائماً أنّي لا أحصل إلاّ على الفتات، حين كنت أحسّ أنّ جوعي لايشبعه كلّ ما في العالم من طعام، وأنّ عربي لا يستره كلّ ما في العالم من ثياب. آهِ.. تلك الأيّام حين كنت أحسّ بالاختناق، ولا أجد راحة إلاّ في البكاء. كنت أبكي قهراً، وكنت أبكي غضباً.. ويوم كان افتتاح ذلك المكان أيقنت أنّي سأموت. كنت أختنق وأبكي.. كنت أحشرج.. وفجأة.. لا أدري كيف أصف ذلك. مسّني روحٌ عذب وهادئ، فاتّسع صدري، وسرَت فيه برودة روح النعناع. هكذا.. فجأة أدركت أنّ العناية الإلهيّة رقّت لحالي، وومضت في داخلي. شعرت أنّي أغتسل، وأتخلّص بنعومة ووداعة، من الشّهوات والرّغبات والأفاعي.. ومنذ تلك اللّحظة التي عرفت فيها الطمأنينة ونعمة الرّضا، ماعدت أريد أن أتذكّر تلك الأيام التي مضت.

ياسين : إنّي أغبطك من أجل طمأنينتك، وأغبطك لأنّ العناية الإلهيّة ومضت في داخلك. وأدعو الله أن يمنّ علينا كما منَّ عليك. ولكن هذا كلّه، لايمنع أن تبدي رأياً في مستقبل ابنتنا. ألا توافقين معي أنّ العرض الذي حملته لها جدير بأن يسعدها؟

(يتاهي من بعيد صوت يرفع الأذان، وفي ركاكة ونشاز..)

فضة : **(وهي تنهض)** ومن يدري أين توجد سعادة الإنسان؟ عليك أنت ورباب أن تقرّرا هذا الأمر. أمّا أنا فقد حان وقت وضوئي وصلاتي.

رباب : أذكر جيّداً ليلة الافتتاح، وكيف غادرت السّطح، وهي تتعثّر بدموعها. ألم يكن اعترافها مؤثّراً؟ تلك المقاساة الرّهيبة.. وكيف جاءها الفرج وشفتها العناية الإلهية.

ياسين : كانت أمّك دائماً متطرّفة في تقلّباتها. وما وصلت إليه ليس حلاً، بل تعبير عن اليأس لا أكثر. إنّ من يشعر أنّ العناية الإلهيّة غسلت قلبه بالهداية والرّضا، ينبغي أن يزداد غيريّة، وأن يضاعف حبّه ورعايته للذين حوله. أمّا هي فقد غدت أنانيّة، لا تشغلها إلاّ مظاهر تحوّلها. لقد ابتعدت عنّا، ولم تعد تهمها مشاكلنا ومعاناتنا. انظري.. هل خطر لها أن تسألني عمّا أقاسيه؟ هي وجدت حلاً، واستراحت فأدارت ظهرها لنا جميعاً. أمّا أنا فينبغي أن أتحمّل معاناتي وحيداً.. أن ألعق جرحي بلساني دون أن أنتظر يداً تسعفني. إنّي وحيد يا ابنتي. كنت دائماً وحيداً. لم يخطر لها مرّة، لا قبل الهداية ولا بعدها، أن تسألني عمّا أعانيه، أو تساعدني على تضميد جرحي.

رباب : أتبكي يا أبي؟ لا أستطيع أن أراك تبكي.. قل لي ماذا

يوجعك؟ أنت لا تعرف كم يسرّني أن أشاطرك الوجع، بل وأن أتحمّله عنك إن استطعت. إنّي معك يا أبي.. وسأفعل كلّ شيء من أجل راحتك؟

ياسين : **(يزداد بكاؤه)** هذا الكلام يزيد وجعي. لا أريد أن تكوني طيّبة إلى هذا الحدّ.

رباب : أيكون للبنت منّة إذا ساعدت أباها؟ دعكَ منّي، وقل لي.. أنت في مأزق؟ ألست في مأزق؟

ياسين : **(يمسح دموعه ويتمخّط)** لا أدري كيف أسلسل لك الأمور.

رباب : دعكَ من تسلسل الأُمور يا أبي، وقل لي أأنت في مأزق أم لا؟

ياسين : **(تعود فتسيل دموعه)** ولكنّك أصغر من أن تتحمّلي كلّ هذه الخيبات.

رباب : **(وهي تمسح دموعه بحنان)** لاتشغل بالك.. إنّي أصلب ممّا تظنّ. إذن أنت في مأزق...

ياسين : لقد مدّوا لي، وكبّلوني بالدّيون. ولكن صدّقيني، إنّ الدّيون لا تقلقني، حتّى ولو رموني بقيّة عمري في السّجن. مازالت لديّ أحلام يا رباب. تعهّدوا أن ينفّذوا كل وعودهم السابقة. سيكون لي اسم وذكر. لن يضيع عملي، ويطويه النسيان.

رباب : هل أفهم أنّ موافقتي ستشفي وجعك، وتحلّ كل المشاكل التي تعاني منها؟

ياسين : وما يُعرض عليك يا ابنتي، لايمكن أن تستخفّ به فتاة عاقلة.

رباب : لو أنّ الأمر يتعلّق بي.. نعم يا أبي.. معك حقّ.. هذا عرض لايمكن أن تستخفّ به فتاة عاقلة.

ياسين : أليس جميلاً أن يعيش المرء في بحبوحة، وأن ينال كلّ ما ترغبه نفسه؟

رباب : أتعلم ما الذي كنت أرغب فيه، أكثر من أيّ شيء في هذه الدّنيا؟

ياسين : ما هو؟!

رباب : أحياناً كنت أحلم أنّنا نرحل معاً، أنا وأنت فقط. ننتقل من قرية إلى قرية، ومن مدينة إلى مدينة.. لا نحمل على أكتافنا إلاّ ربابتك، وأخفّ المتاع. لا هموم.. ولا منغصّات.. نلهو ونضحك كطفلين سعيدين.. أنت تغنّي، وأنا أعتني بك، وأحفظ أغانيك.. نأكل حين يتوفّر طعام. وننام حين يتوفّر مكان. ونأخذ دون حياء مايعطونه من هبات. قبل أن يأتي عبّود الغاوي إلينا.. في تلك الأيام البعيدة، كانت الحياة سهلة، وكانت الأحلام بسيطة وممكنة. الآن.. تعقّد كلّ شيء، وعلينا أن نتكيّف مع التعقيد. إنّي أقبل عرض عبّود الغاوي، وسأكون زوجة له.

ياسين : أين كنت تخبّئين هذا كلّه.. يا ابنتي؟ لو علمت..

رباب : **(مقاطعة)** لا تقل شيئاً يا أبي.. اذهب وأخبره أنّي قبلت.

ياسين : آه.. يا رباب.. ضمّدتِ جرحاً، وشققت في روحي جروحاً لا تضمّد.

رباب : إذا واصلنا النواح، فلن أتزوّج يا أبي.

ياسين : أواثقة أنّك توافقين؟

رباب : نعم.. إنّي أوافق.. ولاتلم نفسك كثيراً.. فأنا أيضاً خدّرتني الرّغبات الكثيرة ليلة الافتتاح.

ياسين : أتحاولين التّخفيف عنّي!؟

رباب : لاتتعبني يا أبي.. إني لا أفهمك.. أتريدني أن أرفض؟!

ياسين : لا.. يا ابنتي.. ولكن..

رباب : يا الله.. اغسل وجهك، واذهب إليه. أريد أن يصل جوابي اليوم لا الغد.

ياسين : (وهو ينهض) نعم سأفعل.

(يخرج. تحملق رباب في الفراغ. تغرورق عيناها بالدّموع.. وتتلاشى الإضاءة...)

مشهد ٥

(في المخزن، يوسف العلوني وزوجته فاطمة وخلف الدوري)

يوسف : أراك مبكراً أكثر من العادة.. ماذا تحتاجون اليوم؟

خلف : اليوم لانحتاج تموينا.. بل نحتاج فنّاً.. كيف تجدين هذا الجواب يا فاطمة!
(يتملاّها) آه.. كم كنت حماراً.

يوسف : دعنا من الرغي، ولا تحدّثني بالألغاز، ماذا تحتاجون اليوم؟

خلف : أتظنّني أمزح؟ ما نريده اليوم هو الفنّ.

يوسف : أي فنّ؟

خلف : ها.. ها.. أتذكرين يا فاطمة آخر مرسح عرفته هذه الضّيعة؟ كان ذلك يوم أصرّ ابن البدوي، أنْ يقيم عرسه حسب العادات القديمة في تلك اللّيلة.. أوقدنا النّار في الميدان، وعلى دقّات الطّبل والمزمار انعقدت حلقة الدّبكة. تصوّري.. أذكر هذا وكأنّه حدث البارحة. كنت مهرة لم يكد ينهد صدرها..

يوسف : **(مقاطعاً)** ماهذا! قلت لك دعنا من الرغي، وادخل في المفيد.

خلف : بالله عليك يا فاطمة.. هل يسمّي كلامي وتلك الذكريات رغياً إلاّ عديمُ الإحساس؟ طبعاً أنت لا تذكر شيئاً عن تلك

الليلة، لأنّك كنت مشغولاً بالبيع وعدّ المصاري. أمّا فاطمة فكانت تقود الرّقص كأنّها خيّال، ووجهها يقمّره لفح النّار، وجسدها يتثنّى كالعجين مع إيقاع الطّبل والمزمار.

فاطمة : وما مناسبة هذه الذكريات التي تنبشها يا خلف؟

خلف : ها.. ها.. هذا سؤال مفيد. إنّ سيّدي يعتقد أنّه كان لدينا فنون جميلة لايجوز أن تندثر، أو يلفّها النسيان. وهو يقول إنّ السائح لا يأتي إلى بلادنا، لكي يرى ما سئم منه في بلاده. إنّه يأتي لكي يرى مناظر جديدة، ويعرف متعاً غريبة، ويتذوّق فنوناً جديدة. ولهذا قرّر أن تكون في المجمّع فرقة صغيرة للرقص الشعبي، تتميّز بالأناقة والبراعة والجمال، وحين طلب منّي أن أختار له صبيّة تتقن الرّقص، وتحسن التدريب، كي يسند لها مهمّة تشكيل الفرقة وتدريبها، تذكّرت تلك اللّيلة، ولاح لي جسدك العجيني على ضوء النّار. فقلت له: لايوجد سواها يا سيدي. سألني من؟ فأجبت: فاطمة زوجة شريكنا يوسف العلّوني.

يوسف : أقلت له شريكنا؟

خلف : لاتخف.. لاتخف.. أعني شريكه، ما رأيك يا فاطمة؟

فاطمة : ومن داس على ذنبك، وطلب منك أن تقترحني؟ أتراني فاضية للرّقص؟

خلف : سامحك الله.. أردت أن تتميّزي، وأن تباهي كلّ الصبايا. وفوق هذا سيكون لك راتب يسيل له اللعاب.

فاطمة : فقد جسمي ليونته، ونسيت الرّقص. أمّا الرّاتب فإنّي أستغني عنه.

خلف : السباحة والرّقص شيئان لاينساهما المرء. وجسدك الذي تفتّح وأزهر، مازال ليّناً كالخيزران.. إنّ سيّدي متحمّس جدّاً لهذه الفرقة، وهو يتعشّم أن تساعديه في تكوينها. أخشى أن

يزعل، إذا قابلتِ حماسته وعشمه بالرّفض.

يوسف : نحن لم نرفض بعد، ولكن أعطنا مهلة كي نفكّر، ونتشاور في الأمر.

خلف : لديكما اليوم بطوله كي تتشاورا. وغداً أرجو أن تكون فاطمة جاهزة، لأنّ سيّدي يعلّق أهمّيّة كبيرة على تكوين هذه الفرقة.

(يخرج خلف. فترة صمت بين الزوجين).

يوسف : ما رأيك؟

فاطمة : ما رأيك أنت؟

يوسف : أنا مثلك لا أشعر بالارتياح.

فاطمة : إذن لايحتاج الأمر إلى أخذ وعطاء.. غداً نبلّغه برفضنا وننتهي.

يوسف : نعم.. ولكن أخشى.. المسألة ليست بهذه السّهولة.. لانعرف ماذا أخبرهُ خلف عنكِ، وربّما أخذ الرّفض على محمل الإهانة.

فاطمة : هل أنت تلفّ وتدور.

يوسف : بصراحة.. لا أريد أن يزعل عبّود الغاوي، ولا أن يشعر بالإهانة من طرفنا.

فاطمة : والحلّ.. هو أن أقبل العرض.

يوسف : قلتُ لكِ.. لا أشعر بالارتياح، ولكن أعتقد أنّنا لا نستطيع أن نرفض.

فاطمة : وكيف يمكن أن ترفض رغبة يديها وليُّ النعمة؟

يوسف : لا أفهم سبب نفورك الدّائم! نعم.. إنّه وليُّ نعمتنا. أتعرفين كم بلغت ثروتنا بعد شراكتنا معه؟

فاطمة : لا أعرف كم بلغت ثروتك من العمل أجيراً في مخازن عبّود الغاوي.

يوسف : (غاضباً) أجير! هل تتعمّدين إهانتي! إنّي شريك وليَ الرّبع.
فاطمة : ليكن.. أنت شريك. ولكن مقابل هذه الثّروة، ألم تلاحظ أنّنا خسرنا السّعادة والهناءة؟
يوسف : ما كنّا لنخسر شيئاً، لولا أنّكِ امرأة صعبة ونكدة.
فاطمة : أتصفني أنا بالصّعوبة والنكد؟ أما كنت تتباهى دائماً بأنّ لديك امرأة عذبة ورضيّة؟
يوسف : لو تعلمين كم تغيّرت!
فاطمة : وأنت ألم تتغيّر؟! ما رأيك لو قلتُ لك إنّ فرقة الرّقص ليست إلاّ حجة واهية، كي يستدرج عبّود الغاوي صبايا الضيعة إلى المجمّع، ويدخلهنّ في عمله.
يوسف : وتفترضين افتراضات لاتنزل من مسربٍ أو غربال.
فاطمة : وإذا صحّت افتراضاتي، هل ترفض وتقول لا؟
يوسف : يا فاطمة.. هذا الرّجل كانت يده بيضاء علينا.. ومهما شكرناه، فلن نوفّيه فضله. إنّي لا أعرف سبب نفورك منه. إذا تناسينا افتراضاتك الغريبة، فإنّ ما عرضه الرّجل لائقٌ، ولايمسّك في شيء.
فاطمة : إذن تريد أن أقبل.
يوسف : نعم.. يجب أن تقبلي، وليس من المصلحة أن يزعل منّا أو يجافينا.
فاطمة : طلّقني يا يوسف.
(تتركه وتمضي)
يوسف : انتظري.. أين تمضين؟
فاطمة : سآخذ بعض حاجياتي، وأذهب إلى بيت أهلي.
يوسف : **(محاولاً اللّحاق بها)** تمهّلي، يجب أن نتابع الحديث.
فاطمة : **(دون أن تلتفت)** منذ زمن بعيد، لم يعد بيننا ما يقال.
(تبتعد مختفية، فيما يقف يوسف بليداً وحائراً).

يوسف : (متمتماً) ما الذي غيّرها! أيمكن أن يوجد إنسان لا يحبّ المال، ولا يسعده الغنى! أيمكن أن يوجد إنسان يدلّل الفقر، ويلبط النّعمة! هذا حمقٌ وجنون. نعم.. هي حمقاء ومجنونة.

(تتلاشى الإضاءة).

الفصل الخامس

الزرقاء تبصر، وتروي مقاطع من ملحمة السراب..
نقاشات.. ونهايات..

مشهد ١

(جناح كريمة وزهيّة في المجمّع. كريمة وزهيّة في أخفّ الملابس وأكثرها إثارة. الخادم وقد خفّت حدبته، وبدا أكثر شباباً. محمّد القاسم والشيخ عبّاس يغوصان في أريكة مريحة، ويبدو عليهما الانبهار والارتباك.

في بداية المشهد يتحرّك الشيخ عبّاس في جلسته، فيختلّ توازن محمّد القاسم الهشّ، ويميل إليه.. تنبعث أصوات محرجة من جلد الأريكة في احتكاكه المرن مع فخذي الرجلين، يتمايلان لحظات، فيما يزداد تعبير الحرج على وجهيهما حتى يجدا وضعاً مستقراً، فيلبدا فيه).

محمّد : **(هامساً)** في طيظك دود! اسكن ولاتتحرك.

الشيخ عبّاس : **(هامساً هو الآخر)** غصباً غني.. غصباً عني.. ألا ترى كم هي ليّنة؟

الخادم : لماذا لاتسترخيان؟ إن الفن الذي نمارسه في المجمّع هو فنّ الاسترخاء. هنا ينبغي أن ننسى قيود العالم الخارجي واعتباراته. ينبغي أن ننسى العيون ونظراتها، المعايير وأحكامها. وأهم من ذلك أن نخلع المراتب، والأسماء، وأشجار العائلات.. وما لاأدري من السلاسل والتصنيفات. ولهذا جعلنا في مدخل الجناح حمّاماً واسعاً، يدخله المرء، كي يغسل كل أدران الخارج، ويزيل قيوده وعلاماته. وحين

يدبّ خدرٌ لذيذ في جسده النظيف، وتسترخي أعصابه وروحه، يدخل الجناح جاهزاً، كي يذوق مباهج وقتٍ لا تقبسه الساعات، ولايدخل في دورة الليالي والنهارات.. يا كريمة.. ألا يوجود غناء؟ ألا يوجد نغم؟

كريمة : ماذا دهاك؟ ألاحظ أنك غدوت خفيف العقل واللسان. ما الذي تشرحه لزورانا؟ ومتى كنا نكشف أسرار بيتنا أمام زائر لا نعلم ماذا يريد؟

الخادم : لن أكابر.. لومك محقّ.. كنت أحاول مساعدتهما على الكلام. ولكن يبدو أني أسرفت في اللتِّ والعجن.

محمّد : **(ناهضاً ومتجهاً نحوه)** لا، لاتقل ذلك.. ليتني أملك مقدرتك على الكلام. لديّ ما يتجمّع هنا **(مشيراً إلى يسار صدره)**.. نعم.. يتجمّع.. ويلتف، والمصيبة أني لا أعرف كيف أخرجه أو أقوله.

الخادم : اهدأ.. اهدأ..

كريمة : ماذا تحمل في صدرك يا ابن القاسم؟ وما الذي جئت تنشده لدينا؟

محمّد : أرجوكِ لاتخطئي في فهمي.. ماجئت بنيّةٍ تشوبها ريبة. جئت بقصد شريف، وغاية المنى أن ينال قصدي رضاكِ.

الخادم : الرجل صريح، والقصد واضح.

كريمة : وما أدراني أنها ليست نزوة أو شهوة؟ قل أيّ شيء.. أريد أن أسمعك تعبّر عمّا تشعر به. وأن تصف لي هذا الشيء الذي يكبر في صدرك.

محمّد : **(متجهاً إلى الخادم)** أنجدني يا ساحر اللسان...

كريمة : أريد ما ينطق به لسانك أنت..

الشيخ عبّاس : **(يحاول أن ينهض، لكنه لا يستطيع لأنه غائص جداً في الكنبة. يتمايل ثم يميل على جنبه في وضع مضحك)** قولوا

لي.. أينتظرني امتحان مشابه؟!

زهيّة : بل سيكون امتحانك أشدّ، لأن لديك ألسنة لا تعدّ.

الشيخ عبّاس : سامحك الله.. تعالي وأنجديني.

(تذهب زهيّة إلى حيث يجلس الشيخ عبّاس، وتشاطره الكنبة. يميل أحدهما على الآخر، ويتضاحكان).

كريمة : قلبتم كل شيء إلى تهريج. مازلت أنتظر يا ابن القاسم.

محمّد : ماذا أقول؟ أتسمعينَ دويّ الطبل؟

كريمة : أي طبل؟ لا.. لا أسمع شيئاً.

محمّد : ماذا أفعل. أحياناً أشعر.. بل لماذا أحياناً.. الآن أشعر أن دقّات قلبي تشبه دويّ الطبول.. وأن الدويَّ يصمُّ آذان الذين يوجدون قربي.

كريمة : أهذا كل ما لديك؟ دويّ طبول يصمّ الآذان.

محمّد : وما ذنبي.. إذا كنت لا أحسن الكلام. سأقول لكِ كيف بدأ هذا الأمر. فجأة، وكمن يصحو من رقاد، وجدتُ وجهك أمامي. أينما تطلعت وكيفما اتّجهت ثمّة هذا الوجه الذي يشعّ سحراً وفتنة. في السماء، في الشجر، في الظل، في الشمس، في الغيم، في الزرع، في كل مكان، ثمّة هذا الوهج من السحر والفتنة. ولم تفلح مقاومتي، ولم أعد أجد الراحة أو السكينة. فتكَ سحرك بي، وجرّني كالمذبوح أقفو أثرك، وأعدو وراءك.

الخادم : كلامٌ جميل، وتعبير يحزن ويغمّ، لأنه يخلو حتى من احتمال الكذب والتدليس.

الشيخ عبّاس : عوّضت عن التأتأة يا ابن القاسم، ولم تترك لغيرك ما يقوله.

كريمة : مسّني كلامك، وحرّك في داخلي وتراً كنت أحسبه غافياً أو مقطوعاً. أشعر ضعفاً في ساقيّ **(تمسك يده)** تعال نجلس.. **(يجلسان)** والآن.. ماذا تريد مني؟

محمّد : أريد أن أطلب يدك.

الخادم : أجئت تطلب فقط؟

محمّد : ماذا تعني؟

الخادم : في مثل حالتك ينبغي أن تلوّح بالعطاء قبل أن تطلب.

محمّد : هل أعتبره وكيلك؟

كريمة : إنه وكيلنا معاً.

محمّد : ألستُ من مقام السيّد عبّود الغاوي حتى يرسل لنا خادمه!

كريمة : لاتخطئ فهم الأمور يا حبيبي. ابتعد عبّود كي يجنّبنا، ويجنّب نفسه الحرج.

محمّد : هل قلت يا حبيبي!

كريمة : أتريد أن أعيدها؟

الخادم : لم تجبني على ملاحظتي.

محمّد : إن كنت تقصد الحديث عن المهر وما شابه، فإن كل ما لديّ تحت تصرفها.

الخادم : هذه مجاملة لا عطاء.

محمّد : لا.. إني أعنيها. وأقول بملء فمي.. إني أقدّم لها كل ما أملك.

كريمة : **(وهي تلاعب محمّد القاسم)** هذا هو الرجل الذي يملأ قلب المرأة، وعينها، وحضنها.

الخادم : وأنت يا شيخ عبّاس ما عدنا نسمع لك صوتاً أو نفساً؟

الشيخ عبّاس : لا تخف.. إني حيّ.. وإني في مكاني..

زهيّة : حان دورك كي تعبّر عن مشاعرك.

الشيخ عبّاس : ماذا أعبّر؟ أتذكرين ذلك اليوم في المخزن، حين جلّلني العرق، وتبلّل شاش عمامتي؟ كان ذلك غريباً. كان كالرؤيا. المكان غريباً. كان كالرؤيا. المكان غريب، والزمان عجيب، وأنا كالمأخوذ أكتشف بهاءك، وكأني أراك لأوّل مرّة في حياتي.

إنها ساعة غريبة تغيّر كل شيء بعدها. كنت أعلم أن التعلّق بهذا البهاء ذنب ومعصية. وكنت كلّما ازددت علماً، ازددت تعلّقاً. وفَلَت أمري من يدي، وعرفت أن هذا الحب قَدَرٌ لا يردُّه دعاء أو صلاة.

الخادم : أبدعت يا شيخ. هذا الحبّ لاتبتكره، وتودعه في القلب إلا يد شيطانٍ بارع، شيطانٍ متفرّغ للعشق وفنونه.

الشيخ عبّاس : إني أحبّ من وهبني هذا الحبّ، حتى ولو كان الشيطان نفسه..

زهيّة : أتعلم أن كلامك أثار نملاً في ظهري، وأرعشني. أتريدني كما أراد ابن القاسم كريمة، وعلى شرطه؟

الشيخ عبّاس : نعم.. وهذا يعفينا من التكرار.

الخادم : أتعطي كل ما لديك يا شيخ عبّاس؟

الشيخ عبّاس : وفوق ما لديّ هذه العمامة.

الخادم : لا.. لانستطيع أن نستغني عن بركات عمامتك، وفوائدها العميمة، فثبّتها على رأسك، وحافظ عليها حتى هنا. سنحتاج إليها بعد قليل، كي نبرم المواثيق. ستعقد نكاحك على زهيّة، ونكاح محمد القاسم على كريمة، وسأكون الشاهد.

الشيخ عبّاس : ينقصنا شاهد ثانٍ.

الخادم : لاتخف.. إن عبد الرحمن الدرويش لايكاد يبرح طاولة الروليت، ويمكن أن نحضره خلال دقائق. لكن قبل أن نبدأ الاجراءات، أريد أن أقول لكما بضع كلمات. منذ اليوم ستبدآان حياة جديدة، حياة فيها من المباهج واللذات ما لايستطيع أيّ منكما أن يتخيله. لكن اللّذة لايتمّمها في هذه الدنيا، ويغذيها إلا وفرة المال. وأنا حين اقتضيت أن يسلّم كلّ واحد ما يملكه لقرينته، وأن يعطيها العصمة وحرية

التصرّف بالمال، فما ذلك إلا لأني درّبت هاتين الساحرتين على السبل التي تضاعف المال، وتزيد الثراء ثراءً. ستتخذان من أموالكما منطلقاً ورأسمالاً، ومن وجاهة الاسم والمقام حماية وغطاء، ووسط آهات اللّذة، وفورانها في العروق، ستبنون المشاريع التي تربو بها الأموال، ويتعزّز من خلالها النفوذ والوجاهة والمقام.. وأوّل مشروع أقترح أن تبدأوا به، هو شراء المخزن الكبير، وتوسيع قاعاته وطبقاته. وفيما بعد ستجدون المشاريع تقترح نفسها عليكم دون حيرة أو عناء. أنتم منذ اليوم حزبي، وسأرعاكم رعايتي لسيّدي.. والآن.. يمكنكم أن تذوقوا المتع الباكورية، ريثما أخلع عبد الرحمن الدرويش من مكانه حول طاولة الروليت.

(يخرج الخادم. تخفت الإضاءة ويتغيّر لونها. تسيل موسيقى فيها إيقاعية مثيرة. ترقص كريمة، ثم يتبعها الشيخ، ثم يتعانق الزوجان ويحتلّ كل منهما ركناً. تتلاشى الإضاءة ببطء).

مشهد ٢

(المصطبة الكائنة في دار الزرقاء. فاطمة الموعي والزرقاء وبسّام الراضي يجلسون على الحصيرة المفروشة. وهم يتناولون الشاي بصمت وشرود. تعوم في الجو موسيقى أغانٍ شعبية موزّعة توزيعاً جديداً يفسد صفاء إيقاعاتها، وجملها الموسيقية المألوفة).

بسّام : زرت كل الناس الذين أعتقد أنهم يقدّرون رأيي، ورجوتهم ناصحاً ألا يرسلوا بناتهم إلى فرقة الدبكة وشبهاتها. تصوّري يا خالة.. لم يقبل نصيحتي إلا رجل أو اثنان. أما الآخرون فقد كانوا يتهرّبون من النظر في عينيّ، ثم يتمتمون.. أعطينا كلمة، والرجل عند كلمته. ماذا حدث! أيمكن أن تعمى بصائر الناس إلى هذا الحدّ!

فاطمة : جمعت الفرقة كل صبايا الضيعة. لم يقاوم الفكرة إلا أبو راغب وبيت الضرغام.

الزرقاء : **(وهي تضع ذراعها على كتف فاطمة وتشدّها إليها)** هذه الحرّة قالت لا.. ولم تبالِ بالعواقب. حياكِ الله يا ابنتي.

فاطمة : لم أفعل إلاّ ما وجدته صواباً.

بسّام : وبدلاً من أن يقدّر الناس هذا الموقف، ويقتدوا به، واجهوه بالاستخفاف، وحاولا الحطّ من شأن فاطمة وقرارها.

فاطمة : **(ضاحكة)** نعم.. واحدة تقول إني موضة قديمة، وأخرى تقول

إني عاشقة، وأبحث عن سبب للطلاق، وثالث يسخر قائلاً: «.. الله يطعم الحلاوة لمن ليس له أضراس».. وأشياء أخرى كثيرة.

الزرقاء : هذه الصغائر لاتستحقّ إلاّ الضحك. لن يضيع موقفك الشجاع يا ابنتي، وسيأتي وقت يتذكره الناس، ولو بعد فوات الأوان.

بسّام : (**غاضباً**) أمّا الآن.. فعلينا أن نعترف بالعجز، وبأننا لا نستطيع أن نفعل شيئاً في مواجهة هذا التدهور الذي يجرفنا.

الزرقاء : (**ببطء وشرود**) كان عندي ولدان، أحدهما قال: لا.. فقُتِل، والثاني قال: نعم.. فانتهى إلى السجن والضياع. إن الشيطان مقيم في هذا البلد. أكاد أراه أو أشمّ رائحته.

فاطمة : وأنا أيضاً يساورني هذا الإحساس يا خالة.

بسّام : أنعود إلى الشيطان وخرافاته؟ إني أقدّر بصيرتكِ يا خالة، وكذلك أقدّر معاناتك. لكن الشيطان لا يؤثر إلا على نفوس تهيّأت للإصغاء إليه وطاعته، أو إذا شئتِ.. نعم هناك شيطان. إنه هذا النظام التابع والخادم للسادة الأجانب، الذي امتصّ ماء الحياة من شعبه، ونهبَ خيراته، وحوَّل البلاد ملهى للأجانب والأثرياء، وسوقاً للتبديد والاستهلاك.

فاطمة : يوم الافتتاح حضرت الدولة كلّها تقريباً.

الزرقاء : إن ألاعيب الشيطان معقّدة، ولا أستغرب أن تكون إحدى ألاعيبه سلسلة طويلة مترابطة الحلقات، تبدأ من مكانٍ بعيد وتنتهي بنا. ولكن إذا كانت الدولة، وهي إحدى صنائع الشيطان، هي التي تفعل بنا ذلك، فهل تستطيع أن تقاومها؟

بسّام : لاتسدّيها في وجوهنا يا خالة.. أيعقل أن يساق شعب إلى الذبح، فلا يقاوم. بل يمضي باسماً وكأنه ذاهب إلى حفلة زفاف؟ أيعقل أن نغدو سيرة هزيلة وباهتة. سيرة شعبٍ يمضي

مع كل ريح لأنه نسي الرفض، ولم يعد يعرف إلاّ الموافقة!

فاطمة : وهل يعلم يا بسّام أنه يساق إلى الذبحَ؟ أنت لم ترَ ما عاينته، وعجبت له أثناء وجودي في المخزن. لن أنسى ما حييت عيون الناس، وهي تجول بين المعروضات. عيون تبرق، وتتراقص، وتكاد تنطّ من محاجرها. إن الدهشة والإغراء والوعد هي القوّة التي تخدِّرهم، وتسوقهم في الاتجاه الذي تريده.

الزرقاء : أينبغي أن أسرد حكايتي مرّة أخرى.. كان لي ولدان..

بسّام : **(مقاطعاً)** والمغزى يا خالة!

الزرقاء : اهدأ.. ولا تتهوّر. العاصفة عاتية وستأخذ حدّها.

بسّام : أنستسلم ولانفعل شيئاً؟

الزرقاء : الطريق الذي حدثتني عنه مرّة، ليس الآن وقته.. ذات يوم سيلمس الناس أنّ ما تدافعوا نحوه، لم يكن إلاّ الموت والخراب. وعندئذٍ سيحتاجون من يزوّدهم بالمعرفة، ويدلّهم على مخرج.

فاطمة : أتريد أن أصبَّ لكَ شاياً؟

بسّام : **(شارداً)** لا أدري.. عفواً.. عفواً **(يمدّ لها الكأس فارغة)** إذا أمرتِ. هل أبصرتِ شيئاً جديداً يا خالة؟

الزرقاء : لا.. لم أبصر إلا ما أخبرتك عنه، وأدعو الله ألاّ أبصر شيئاً بعد.

(يدخل أديب الناطور).

أديب : **(وهو يقترب منهم)** أنهيتُ لك المعاملة يا خالة، فحضّري البشارة. أعانك الله على هذا الـ مروان. أزهق روحي قبل أن يعطيني التفويض. طلب أوّلاً أن أكتب له تعهّداً بأن حصّته من المال محفوظة، وبعد أن كتبت له التعهّد وودّعته، ناداني وطلب أن يشهد توقيعي مدير السجن ومعاونه. الخلاصة..

أتينا بهما، ووقّعا على التعهّد كما يشتهي. المهمّ المعاملة الآن جاهزة، فإن شئت أن تقبضي الفلوس أحضرها لكِ غداً، وإن شئت أن توظّفيها لدى السيّد عبّود الغاوي، حملت لك إيصالاً، ودفعةً أولى من الأرباح.

الزرقاء : عافاك الله.. تفضّل واجلس.. صبّي له الشاي يا ابنتي.

أديب : لا تتعبي نفسك يا فاطمة. شايك مشروب يا خالة، ولكن ماذا قلتِ؟

الزرقاء : أفضّل أن تحضرَ ليَ المال.

أديب : من عينيَّ يا خالة. غداً يكون المبلغ بين يديك. أما زال الأستاذ ناقماً على التقدّم الذي تشهده البلد!

بسّام : أتسمّي ما يشهده البلد تقدّماً؟!

أديب : وماذا يكون التقدّم إذن! خلال برهة وجيزة من الزمن تغيّر البلد، وازدهر من كل النواحي.. العمرانية والمعيشية والمالية.

بسّام : أهو تقدّم وازدهار، أن نبيع أراضينا التي كانت تطعمنا، كي نشتري بثمنها طعاماً مستورداً، وأجهزة تخطف العقل والطاقة! أهو تقدّم أن يتحوّل الفلاحون إلي خدم وماسحي أحذية! أهو تقدّم أن تنهار القيم، وتتفكك الروابط بين الناس، ونغدو جميعاً سلعاً في هذه السوق المتوحشّة! أهذا هو التقدّم والازدهار يا أديب؟!

أديب : فصاحتك لاتعكس إلا عقليّة محافظة، تتوجّس من الجديد، وتخاف من المغامرة. أهناك عاقل يذرف الدموع على محصول متقلّب من الكوسا والبندورة، حين يكون البديل مشروعاً يوفر فرص العمل، وينشط دورة المال والثروة! لقد جرّبنا الانغلاق، ولم ينلنا منه إلا الفقر والحاجة، وحين قرّرت السلطة، بحكمتها وبُعد نظرها، سياسة الانفتاح، كانت تحيي البلد، وتوفّر الشروط الضروريّة لتحديث الاقتصاد، وعصرنة

المجتمع، انظر.. في برهة من الزمن، بدأت تتكوّن الثروات، وطالت النعمة من لم يكن يحلم بها.

بسّام : من يسمعك يظن أن أغلبيّة الناس غدت في الثراء واحدة. كل الذين أثروا، هم بضعة أشخاص من السماسرة والانتهازيين.

أديب : ولم لا تقول من الأذكياء والناجحين؟ إن الفرص متاحة أمام الجميع، وتلك أهمّ ميّزات هذه المرحلة. حتى أنت.. سأحمل إليك الفرصة رغم نقمتك، وتذمّرك الدائم. إني بحاجةٍ إلى رجل أمين يضبط حساباتي، وإذا قبلت سيتوفّر لك عمل إضافيٌ يدرّ عليك أضعاف راتبك الهزيل.

بسّام : أتريد أن أعمل عندك؟

أديب : ولِم لا! إني أقدّم لك الفرصة، كي تتذّوق الحياة الرغيدة، التي تزدريها جهلاً وحسداً.

بسّام : هذه فرصة أم رشوة؟

أديب : ولماذا أحتاج لرشوتك؟ إنك تبالغ في تقدير أهميّتك يا بسّام. نحن نعرف كل ما تقوله، وما تفعله، وإذا كانوا يتسامحون معك حتى الآن، فلأنهم مازالوا يحترمون علمك، ويأملون أن تثوب إلى رشدك.

بسّام : ها نحن ننتقل من الترغيب إلى الترهيب.

أديب : لاتستخفّ بما أقوله يا بسّام. هذه التغيّرات التي لاتعجبك، هي خيار نهائيّ. وكبار المسؤولين يسمّون ما يحدث ملحمة التقدّم. ويُبدون تصميماً حازماً على بتر من يحاول عرقلة هذه الملحمة. وأنا لم أعرض عليك تلك الوظيفة خوفاً منك، بل لأني أريد منفعتك، وأتمنى ألاّ تهدر مواهبك في النقمة والحسد.

بسّام : أشكر غيرتك، وأعتذر عن قبول عرضك.

أديب : (وهو ينهض) ليكن.. إن رؤية الأذكياء، وهم يرفسون النعمة، تملأ الصدر أسفاً وغماً. وحولكِ يا خالة اثنان من هؤلاء الأذكياء، وإنّ واحدهما يليق بالآخر.

الزرقاء : أرجوك يا أديب.. لا أقبل أن تطيل لسانك في بيتي.

أديب : لا عليك يا خالة.. فأنا منصرف.

(يخرج أديب)

بسّام : هذا التشدّق يستفزّ الحجر. إنهم يتلاعبون بالمفاهيم على هواهم. يسمّون المصيبة نعمة، والانحطاط تقدّماً وازدهاراً.

فاطمة : وهم ينوون أن يتروا من يخالفهم.

الزرقاء : ولكن في كلام أديب فلتةَ لسان، هزّتني كأنها إلهام ربّاني مباغت. لقد ربط بينكما، وعرف أن كلاً منكما يليق بالآخر، فماذا تقولان؟

بسّام : قبل فلتة اللسان، وهذا الإلهام يتراقص في القلب أملاً وأمنية. اسأليها يا خالة.. هل تبادلني الأمل والأمنية؟

الزرقاء : هل أسألك يا فاطمة؟

فاطمة : لو لم يكن ما ترينه خيراً لنا، لما جاءك الإلهام.

الزرقاء : لا يكفي الاعتماد على رأيي وإلهامي. أتميلين إليه؟ أتبادلينه الأمنية والأمل؟

فاطمة : إني أخجل يا خالة.

الزرقاء : فهمت.. فهمت. وأدعو الله أن تكون ساعة خير. ليحافظ كلٌّ منكما على نفسه وعلى الآخر. إن الزمن صعب، ولكن معاً ستكونان أقوى على اجتياز الأيام الصعبة، وتحمّل الأذى، لاتتهوّرا، ولاتستسلما، ولا تهملا حصّتكما من النشوة والسعادة. هذا مالديّ، وزواجكما لحظة فرح لم أكن أتوقعها.

بسّام : كيف أشكرك يا خالة؟

(تطوّق الزرقاء بذراعيها بساماً وفاطمةَ. تضمُّهما إلى صدرها. يغدو الجميع كتلة من الانفعالات وجيشان العاطفة، تتساقط دموع من عيني الزرقاء).

فاطمة : أتبكين يا خالة!

الزرقاء : لاتبالي.. إني أبكي من الفرح.

(تتلاشى الإضاءة)

مشهد ٣

(كرم التين. ياسين يتخبّط متعثراً بخطاه وهو يمشي في الكرم. وفي يده زجاجة خمر كبيرة. يتّجه نحو التينة الوارفة الغصون التي تشبه الخيمة الخضراء).

ياسين : **(يدندن)**

حكينا عَ الوفا وكنا عَنينا القلوب المخلصة زايد عَنينا

وياما يا ما غشّتنا عينينا تفرجينا بحر يطلع سراب

(يسقط تحت التينة الوارفة الغصون، ثم يحاول بإعياء الاعتدال في جلسته، اللهجة ممطوطة. وأحياناً غير مفهومة، إن السكر يتعتعه).

ياسين : بعتَ اللحم والدم بالورق.. بعتَ لحمكَ ودمك.. بعتَ الرقّة والطهارة.. بعتَ أجمل وألطف ما لديكَ.. بعتَ ابنتك.. بعتَ نفسك.. بعتَ ربابتك.. أخذوا كل شيء وأعطوني رزماً من الورق.. **(يبدأ بإخراج الرزم المالية من جيوبه)** هذه رزمة لشلالات الليل على رأسها. وهذه رزمة للتقاطيع البديعة. هذه رزمة للصبا والشباب. هذه رزمة للجمال.. هذه رزمة لفورة الحياة.. هذه رزمة لـ.. خزاكَ الله يا ياسين.. **(يتصاعد غضبه، يخرج ما تبقى من الرزم، ويرميها بحركاتٍ غاضبة. يتناول جرعاتٍ كبيرة ومتلاحقة من زجاجةَ الخمر)** وما فائدة الغناء بعد أن خسرت نفسك وروحك.. لن يخرج من

حنجرتك بعد اليوم إلا النحيب والعويل.. **(يردّد دون غناء).**
أعمى وتاه بهالدني، مالو رفيق وتوَّه معو قلبو(*)
فلتت عصاتو العمتدلو عَ الطريق ودّ عفر بدربو
يا ناس.. يا هو.. ياسين باع ابنته ولم ينسكب العرق من جبينه.. ضيّع أحلى ما عنده.. ولم يبقَ له إلا أن يبكي على حاله.. **(بحركات هادئة وطقسيّة يتناول جرعةً من الخمر، يتنحنح ثم يغنّي بصوتٍ محشرجٍ أو مذبوح).**
شارد بعتم الليل مكسور الجناح بيشهق من جروحو
بتلسع ضلوعو كرابيج الريح بتبكي معو روحو
تعبان، تاكي العنق، هدتو السنين وعضّت عَ إيّامو
بيّعت حلمو بسوق الدلاّلين بنته اللي من دمو
هادا المغني اللي جرّح ضلوع الغياب وهيّج ضلوعو
مرمي على الأرض.. أنا الشاعر.. **(جرعات متلاحقة وعصبيّة من الخمر)** شاعر باع الإلهام.. باع اللحم والدم.. باع لحمه ودمه.. من أجل **(ينتفض، ينهض، ويدوس بحركاتٍ غاضبة ولها إيقاعية الرقص، رزم الأوراق النقدية)** من أجل هذه.. من أجل أوراق الخِسّة.. من أجل أوراق المعصية.. من أجل أوراق الوهم.. من أجل العَرَضِ الزائل والمظهر الكاذب.. من أجل ضياع النفس وغربة الروح.. من أجل السراب.. السراب..
(يعلو الزبد فمه، يصفّر وجهه، وتغمر جبهته حبات من العرق البارد. تتلاحق أنفاسه. يتمدّد على الأرض بهدوء، يضع يده اليمنى على صدره متوجعاً، يتحوّل لهاثه إلى مايشبه الحشرجة.. وتتلاشى الإضاءة).

(*) استعرت هذه الأبيات مع بعض التصرّف من الشاعر ميشيل طراد

مشهد ٤

(مكتب عبّود الغاوي في المجمّع. المكتب عصري جداً. ومجهّز بشاشات تلفزيونية تكشف كل ما يدور في المجمّع. نلحظ في المكتب مزهرية سوداء وفيها وردة صفراء نضرة الأوراق واللون. عبّود الغاوي والخادم).

الخادم : هل ثقبتَ اللؤلؤة؟

عبّود : لن أفعل قبل أن أبدِّد نفرتها، وأهدّئ جموحها.

الخادم : لماذا لاتدعني أساعدك؟

عبّود : لا.. لا أريد أيَّ عون. أعتقد أن هذه الفتاة هي قطافي الأخير، وسأجني الثمرة بنفسي، وبما أملك من الصبر والتمهّل.

الخادم : لم يبق متّسع للتمهّل والصبر، إن الوقت يحثّنا.

عبّود : منذ أسبوع وأنت تستعجلني. قل لي.. لماذ يحثّنا الوقت؟

الخادم : لأننا أنهينا مهمّتنا، وتجدّدنا.

عبّود : تجدَّدنا؟

الخادم : منذ فترة وأحوالك لاتعجبني.. أراك تشرد كثيراً، وأحياناً تنسى. ألا تذكر أنك كنت تحسُّ دبيب الضعف في مفاصلك، وأنك طلبت مني، أن أجدّد حيويتك وقواك؟. ألم تلاحظ أنك استعدت بعضاً من شبابك، وأن الدم ينبض حيّاً وقويّاً في عروقك! حتى أنا لم أحرم نفسي من بعض

التجمّل.

عبّود : هل تتخيّل ما سيكلفه هذا التجدّد، الذي تزفُّه لي، من خرابٍ وضحايا.

الخادم : ومتى كنّا نهتم بمسح الخراب، وإحصاء الضحايا!

عبّود : أما كان يمكن أن نتجدّد إلا على أنقاض هذه البلاد البائسة والتعيسة؟

الخادم : لا أعرف سبيلاً يجدّد القوّة بعد ضعف، دون أن يخلّف وراءه خراباً وضحايا. أو لكي أكون دقيقاً.. هناك سبيلٌ واحد.

عبّود : (بلهفة) ما هو؟

الخادم : وزّع أموالك، واذهب للعمل في مصنعٍ أو في حقل. إن الجهد والعرق سيقويان عضلاتك، ويعيدان إلى وجهك الصحّة والنضارة.

عبّود : هل بعتك روحي وعقدت معك ميثاقاً لأعود عاملاً أو فلاحاً. لماذا لاتحاول فهمي.؟
إن الودّ الذي أبداه هؤلاء الناس لي والآمال التي علّقوها عليّ، كلّ هذا يجعلني أشعر بما يشبه الغصّة.

الخادم : ألا تذكر حين كنت تدقّ على صدرك، وتقول لي.. هنا يوجد صخر لا قلب!

عبّود : (شارداً) بعض الآهات.. بعض النظرات.. تجعل حتى الصخر يلين. وفي النهاية لاتنس أنّهم أهلي وقومي.

الخادم : ما الذي جعلك تتذكّر الآن أنهم أهلك وقومك! أما حذّرتك من الانزلاق إلى التعاطف! إن مالك هو وطنك، وإن الأعمال هي أهلك. ولامجال في عالمنا الزجاجيّ لخفقان القلب، وتهدّج العواطف. اسمع.. كنت تحسُّ الضعف، وطلبت أن تتجدّد. وكان يمكن أن أكتفي بإحضار برشامة

مقويّة مما يتوفّر في صيدلية السحر والتعاويذ. ولكن التفاني دفعني إلى تلبية رغبتك الخفيّة في ابتكار علاج يضمن لك تجدّد الحيويّة والقوّة، مادام في الأجل بقيّة، هل تدرك الآن ضخامة المهمة التي ألزمت نفسي بها.. لامجال للتثاؤب والتراخي.. وحين أقول إن الوقت يحثّنا، فهذا يعني أن علينا أن نكون غداً في الطائرة التي تعبر بنا المحيطات.

عبّود : غداً!

الخادم : نعم.. غداً. وكل شيء جاهز. بيعَ المجمّع للمسؤول الكبير، ووزّعت الأراضي مقاسم لبناء فيلات وشاليهات للاستجمام، وحوَّلت الأموال إلى الخارج، ولم يبقَ إلا أن نودِّع شركاءنا، ونصعد الطائرة.

عبّود : هل فعلت هذا كلّه دون علمي؟ قل لي.. من يخدم الآخر؟ أنا أم أنت؟

الخادم : كلانا يخدم الآخر. لكن المشكلة هي أنك تتأخّر أحياناً في التقاط أفكارك الشخصية. وبالمناسبة هل تنوي أن تغيِّر العادة التي درجنا عليها، وأن تصطحب الفتاة معك؟

عبّود : نعم.. سأصحطبها معي. ولكن..اصغ إليّ. لا أرى أن بقاءنا هنا، ولو لفترة، يتعارض مع المهمة التي ألزمت نفسك بها. إن أرباحنا الآن ضخمة، وستزداد كثيراً مع ازدهار العمل، وليس هناك ما يضطرنا لابتلاع أموال الناس.

الخادم : ماذا دهاك يا سيّدي! هل تقلّص طموحك إلى إدارة ملهىً صغير، وفي بلد صغير؟ أنسيت من نحن! أنسيت أننا أرصدة وأسهم وودائع وحركة سوق! طبعاً.. كان نافعاً لدمك ودمي الملايين التي كسبناها في هذه الزيارة، ولكن هل جئنا إلى هنا من أجل هذا الربح العابر! طبعاً لا.. لقد جئنا كي نجد

علاجاً للتجدّد.. ونضمن تدفّق الدماء من هذه البقاع الفتيّة، إلى عروقنا التي استهلكها الإسراف والشيخوخة. طبعاً. لم نيسّر الفرصة لثراء عدد من الأعوان إلاّ لكي نزيّن صورة السوق، ونضمن نزوح الأموال والفوائد إلينا، ولم نبتلع أموال الناس لحاجة، بل لكي نروّضهم على الخضوع لجبروت السوق وتقلّباته.. أف.. من السخف والتفاهة أن أشرح هذه البداهات.. وأمامك أنت بالذات.

عبّود : إنك تجعلني أشعر بالاكتئاب والقرف.

الخادم : لا أدري كيف أفسّر موقفك! أهو تلاعبٌ، أم نوبة ضعف عابرة! من أين تعتقد أني استقيت تركيب العلاج الذي حدّثتك عنه؟. لقد استقيته منك، من الأفكار التي كانت تتوالد في رأسك. لعلّي كنت أسرعَ منك في القراءة. لكنّها كانت تتوالد في رأسك كالإلهامات وأتلقاها أنا بدوري كإيحاءات باهرة.

عبّود : أأنا مكشوف إلى هذا الحدّ؟

الخادم : أنت تعلم يا سيّدي أنّ أيّاً منا لايستطيع أن يخادع الآخر. وحين شكوت لي إحساسك بالضعف ورغبتك في التجدّد، كنتَ تتخيل ولو على نحوٍ غامض هذا العلاج الذي جرَّبناه هنا، وكنت تصفيّ حسابات الطفولة، وتنتقم من الحجر الذي رماك به محمد القاسم. وأنت تعرف ما آل إليه. وكنت ترى عذراء بارعة الجمال، ستقول عنها ككل مرة هذا قطافي الأخير..

عبّود : ملعون أنت. أحسّ أنك تتغلغل في تلافيف دماغي.

الخادم : إني أمارس مواهبي وقدراتي.

عبّود : وماذا فعلت كيلا ينهار البناء بعد رحيلنا؟

الخادم : نعم.. هذه هي اللهجة التي أحبّ رنينها. لاتخف صار لنا

حزبٌ سيتفانى في الحفاظ على عملنا وضخّ الدمِ إلى عروقنا. وإني أتنبّأ أن يسطع نجم أديب الناطور سطوعاً قد يتجاوز هذه البلاد. أما المرأتان فقد تكشّف لديهما مواهب لم تكن تخطر على بال.

عبّود : إذن لن تتوقّف العجلة بعد سفرنا.

الخادم : دارت العجلة، ولن تتوقّف بعد اليوم، والآن أخبرني ما سبب كآبتك، ونوبة الضعف التي ألّمت بك؟

عبّود : **(نافذ الصبر)** أوه.. لاشيء. الحنين والشفقة، ورؤية عيون الناس النديّة بالودّ واللهفة، وجمال الفتاة، وحزن الأب، و... في النهاية أنا إنسان،ولديَّ لحظات ضعف ومشاعر.

الخادم : لاتنسَ أنك تنازلت لي عن الإنسان فيك. وإني أتوجّس كثيراً من الخيانة.

عبّود : لست ممّن يخونون، أو ينسون. وهذه المماحكة أرهقتني. هل رتّبت شؤون أختي وحمايتها؟

الخادم : لاأحتاج إلى توصية.

عبّود : وتغطية سفرنا دون أن يعرف أحد في القرية؟

الخادم : كل شيء مرتّب، فلا تشغل بالك.

عبّود : إذن إذهب وهيّئ موكب السفر.

الخادم : حاضر.. **(يشير إلى إحدى شاشات التلفزيون، وهو يخرج)** انظر إلى ابن الدرويش، لقد خسر ما فوقه وما تحته في الروليت.

عبّود : وهل زوّدنا المكان بالروليت إلا من أجل هذا؟

(يخرج الخادم منشرحاً. يتابع عبّود بنظرات شاردة ما تبثّه الشاشات.. ثم تتلاشى الإضاءة ببطء).

خاتمة

(في أحد دروب القرية، والليل ما يزال في أوّله.
تبدو الزرقاء في حالة غريبة من الانخطاف والذهول. تسير حاسرة الرأس، متعثّرة الخطوات، ويوشّح قسمات وجهها تعبيرٌ حادّ من الخوف والتفكّك. يتبعها شخص أو شخصان، ثم يزداد العدد حتى يتحوّل إلى حشد صغير).

الزرقاء : **(وهي تجرجر ساقيها)** هذا المساء راودتني الرؤيا. وينبغي أن أخبركم ماذا أبصر. لايجوز أن أكتمه. لا.. لايحقّ لي أن أكتم عنكم ما أراه. اللهم صلّ على النبي.. أبصر عاصفة رهيبة تتقدّم. والناس طفل وحيد في العراء. ليس هناك من يحيمه وليس هناك ملاذ يلجأ إليه. والعاصفة الرهيبة تزمجر وتتقدّم.

(يتكوّن حولها حشد من الرجال، نميّز بينهم ضرغام وخَلف الدوري ويوسف العلوني وأخرون).

يوسف : ماذا تخبر الزرقاء؟

ضرغام : إنها تتوّعدنا بالأهوال.

رجل عجوز : احذروا.. ما أخبرت الزرقاء عن شيء إلاّ وقع.

الزرقاء : اللّهم صلّ على النبي.. إني أبصر، وليت النور ينطفئ في عيني، ولا أبصر ما أبصر. سافر عبّود الغاوي، ومعه قرينه الشيطانيّ، وأحلى صباياكم.

خلف : هذه شائعة مغرضة.

رجل عجوز : دعنا نعرف ماذا تبصر.

الزرقاء : **(تكرّر جملها بصوت عميق، ورتابة طقسيّة)** اللّهم صلّ على النبي.. سافر عبّود الغاوي ومعه قرينه الشيطانيّ وأحلى صباياكم. باع كل شيء من المخزن إلى المجمّع.

يوسف : **(يمسك كتفها بيد قاسية، ويهزّها)** ماذا تقولين أيتها البومة.

خلف : أتتّهمين عبّود الغاوي بالسرقة! والله لئن تماديت، لأهتكّن هذه الشيبة!

الزرقاء : **(لامبالية.. تتابع بالنبرة الطقسيّة نفسها)** اللّهم صلّ على النبي.. سافر عبّود الغاوي، ومعه قرينه الشيطانيّ، وأحلى صباياكم. باع كل شيء من المخزن إلى المجمّع، وسافر.. نهب الأراضي والأموال، وسافر.

أصوات : أتبشّريننا بخراب بيوتنا؟

- هذا اختلاق وكذب.. إنها تخرّف.
- إذا صحّ ماقالته ضعنا.
- إنها تلقي علينا فألاً سيئاً.

الزرقاء : **(بإصرار ولامبالاة)** اللهم صلّ على النبي. نهب الأراضي والأموال، وسافر. أبصر دهشة وذهولاً. أبصر ناساً يتراكضون..

أصوات : لاتتابعي.

- من طلب منك أن تتنبأي؟
- إنها ترمي علينا تعويذة الخراب.

(ترتفع حدّة الغضب. يحاصر الرجال الزرقاء. ينشب خلف يده في عنقها. يبدأ الرجال بضربها. تسقط على الأرض، فيتكوّمون فوقها).

أصوات : **(مختلطة.. غاضبة.. متقطّعة)**

ـ تريد خراب بيوتنا.
ـ الشيطان يتكلّم من فمها.
ـ توقفوا! والله عيب أن تمدّوا أيديكم عليها.
(يأتي بسّام وفاطمة راكضين. يبدأ بسّام فوراً بمعاركة الناس وإبعادهم عنها).

بسّام : ابتعدوا عنها.
فاطمة : ألم تبق في النفوس نخوة!
بسّام : العمى.. وحوش البرّيّة أشدّ رأفة منكم!
فاطمة : يا عيب الشوم.. تتمرجلون على عجوز!
بسّام : اذهبي يا فاطمة ونادي المختار.
خلف : ومن يبالي بالمختار؟
رجل عجوز : عيب.. والله عيب أن تُضرَب الزرقاء.
صوت : تنبّأت بالخراب، ورمت علينا فألاً سيئاً.
الزرقاء : **(بصوت متحشرج)** أبصر أناساً يتراكضون وسط سحابة من الصياح والعويل.
صوت : **(يتناهى من بعيد قويّاً وفاجعاً)** يا ناس.. يا هو.. علمت أن الغاوي هرب بأرزاقنا وأموالنا..
(يتجمّد الرجال، وكأن صعقة أخذتهم. بعد فترة..)
أصوات : **(متلجلجة وخائفة)**
ـ أخشى أن أصدّق ماسمعت
ـ صَحَّ ما تنبّأت به.
ـ لا دخان بلا نار.
ـ ولكن ماذا ننتظر؟ هيّا بنا.
ـ هيّا..
خلف : صدّقوني.. ما هي إلاّ شائعات مغرضة.
صوت : حلَّ عنّا يا كلب الغاوي!

(يتخلص الرجال من جمودهم، ويتراكضون باتجاه الصوت).

خلف : أتصفني بالكلب؟ أين تمضي؟ انتظر..

(يجري وراء الرجل الذي شتمه. يتماسك معه، لكنهما لا يتوقّفان. يخرج الجميع، وهم يجرّون وراءهم زوبعة من الضوضاء والصياح.

الزرقاء ممدّدة على الأرض، والدماء تنزف من أنفها وفمها. تنحني فاطمة بلهفة، ترفع جذعها، وتوسدها حضنها. تخرج منديلاً وتمسح الدم عن وجهها).

فاطمة : وحوش.. وحوش كاسرة!

الزرقاء : **(واهنة الصوت)** بل هم يائسون يا ابنتي.

بسّام : ينبغي أن ننقلها إلى البيت، وأن نحضر لها طبيباً.

الزرقاء : لا.. لم يبق متّسع من الوقت. اتركا البيت والطبيب، وأصغيا إليّ.

بسّام : لا.. لايمكن أن نتركك هنا. إنك تحتاجين إلى طبيب.

الزرقاء : لم يعد الطبيب مجدياً. لاتقاطعاني. اسمعا، وأخبرا أن الزرقاء قالت.. أبصر الناس يتذابحون، والدم يشخب، ويسيل في الطرقات. كلّهم يتلاومون ويتذابحون. لايميّزون قرابة أو جيرة، ولايعرفون كيف يحدّدون المخطئ من المصيب. والقتلى متناثرون كالحسرات في كل مكان. **(فترة)** اللهم صلّ على النبي.. أبصر عبد الرحمن الدرويش كالشبح المهزول، يطلق النار على رأسه، ويسقط على الرض جثّة.

(تأتي من بعيد ضجّة شجارات عنيفة وأصوات غاضبة. وشيئاً فشيئاً يمتدّ الشجار إلى أماكن متعدّدة من القرية. كما نسمع بين حين وآخر رشقات من الرصاص، وصرخات دامية يطلقها المصابون).

الزرقاء : اللهم صلّ على النبي.. أبصر الحكومة توقف القتال، ولفّ

الضيعة غطاء من الرعب والخيب. قُتل من قتل. سُجن من سجن. وهاجر من هاجر. ويلاه.. سيأتي دورك يا بسّام. في الليل يداهمونك، وإلى سجن بعيد ينقلونك. **(فترة)** أبصر المجمّع يتلألأ بالأضواء. أبصر غرباء يديرونه. ومازالت الأشياء والنفايات تتساقط كالأمطار. والثعبان يصق فئراناً تملأ الحقول المتروكة. والبيوت المهجورة. **(فترة)** أبصر نفراً من أهلنا، ترك الشيطان على وجوههم ختمه وعلامته. وهم يزدهرون ويزدهرون، ومع الغرباء يتحالفون ويعلون. وأما أهلي، والناس الآخرون في قريتي، فإنهم يشقون ويكدحون. أبصرهم يدورون مع أمانيهم. أبصرهم يجرون وراء أحلامهم.. وأبصرهم لايجدون إلاّ السراب. لاشيءَ إلا السراب. سراب برّاق وملوّن وقاتل.. آخ.. إن قبضة رهيبة تسحق صدري.

(تضع يدها على صدرها. إنها تتنفّس بصعوبة. يمرّ رجل يركض بأقصى سرعته، ثم يختفي).

الزرقاء : **(غدا صوتها محشرجاً وعجولاً)** وأخبرا أن الزرقاء قالت.. لو أنكم لم تستعجلوا موتها، لكان ممكناً أن تبصر في البعيد شمساً تشرق بعد انقشاع هذا الليل الطويل.. الطويل.. أخبرا..

(تغمض الزرقاء عينيها، وبعد شهقة قصيرة تنقطع أنفاسها. ينحني بسّام وفاطمة فوقها).

بسّام وفاطمة : **(معاً)** خالتي.. خالتي..

(يتبادلان النظرات، وينخرطان في البكاء).

فاطمة : رحلت الزرقاء.

بسّام : قتلوها، كما كانت الأقوام المتوحّشة تقتل أنبياءها.

فاطمة : نعم.. قتلوها.

(يتعانق بسّام وفاطمة عند رأس الزرقاء، وهما يجهشان بالبكاء.
من طرف الدرب يظهر رجلان، أحدهما يشهر سكيناً، والآخر يرفع دبوساً. صاحب السكين يتراجع بخطى حذرة، وصاحب الدّبوس يتقدّم نحوه باحتراس. يشتبكان لحظة، ويفلح كل منهما بتوجيه ضربة لآخر ثم يخرجان، والمطاردة مستمرّة بينهما).

بسّام : يبدو أن أمامنا ليلاً طويلاً يا فاطمة.

فاطمة : نعم إنه ليل طويل.

(مايزالان يتعانقان، وعلى نشيجهما يختفي المنظر ببطء شديد).

ستار.

١٩٩٥

المحتويات

سعد الله ونوس

تنهض رؤية سعد الله ونّوس، في مسرحه، على قراءة المجتمع العربي في بُناه العميقة وفي سيرورته وصيرورته. انها قراءة أفقية وعمودية، تتلاقى فيها أبعاد الزمن - ماضياً وحاضراً ومستقبلاً. وهي، تبعاً لذلك، قراءة تتجاوز النقد الى نوع من الإحاطة تتضمن نوعاً من اعادة التكوين - لا في ما يتعلق بالمجتمع وحده، بل في ما يتّصل أيضاً بالفرد ووعيه.

وهو، في هذا كله، كمثل المبدعين الكبار، يقارب الحياة والأشياء بطريقة جديدة، وجمالية جديدة. وهو، كمثلهم أيضاً، يفتح في نتاجه فضاءً آخر لكتابة تاريخ آخر.

أدونيس

في تلك البيروت، هذه البيروت، قال لنا سعد الله ونّوس، انه مزّق الخريطة. لا، قال يجب تمزيق الخريطة. لا، قال ان الخريطة ممزّقة ويجب لصقها. لا، قال انه الدم. لا، قال ان «الملك هو الملك»، وبصق على التاج والصولجان. لا، قال انه «الاغتصاب». قال انها الحرية، قال، وما يزال يقول.

وأمس، في يوم المسرح العالمي، وقف هذا الفلاح لابساً درع الموت ليدعونا الى الحياة. في هذه البيروت، تلك البيروت، في هذه المدن، تلك المدن، رأيت فلاحاً عربياً يحمل قلماً ويحرث الأوراق البيضاء. ورأيت قمحاً وزيتوناً وعنباً. رأيت الكلمات مدورة كالخبز، خضراء كالزيت، مسكرة كالعنب.

أمس، أي غداً، رأيت الكلمات تصير «ملحمة السراب»، لا لأن الكلمات سراب، بل لأنها علامات تكشف السراب، وتدعونا الى رحلة الحياة، بحثاً عن قطرة ماء في هذه الصحراء العربية، المليئة «بمنمنمات» الخيانة.

أمس، أي غداً، كتب هذا الفلاح، ولم يتوقف. كأن شيئاً في داخله، شيئاً ليس هو، شيئاً يخرج من أعماق يجهلها، شيئاً اسمه الحب أو الحياة أو حب الحياة، ينبت كشجرة تظلّل آلامه، وتفرش فوق روحه وسادة القلق، وتدعوه الى قول كل شيء.

الياس خوري

الأهالي